رفع المسهم
عن الله بن فهد الدوسري

الأمثال

والبلاغ والتمثل والسلوات

في

القرآن الكريم

مجمع البيان الحديث

جميع حقوق الطبع محفوظة
دار الكتاب اللبناني
بيروت

رفع المسهم
عن الله بن فهد الدوسري

رفع المسهم

الأمثال

2011-05-31
www.tafsir.net
www.almosahm.blogspot.com

وَالمِثْل وَالتَّمَثُّل وَالمُثُلات

في

القرآن الكريم

تأليف
سَمِيح عَاطِف الزَّين

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

رفع المسهم

الأمثال

وَالمِثْل وَالتَّمْثُل وَالمُثُلات

في

القرآن الكريم

المسهم

رقم الإيداع
١٩٩٩/١١٣٧٠
I.S.B.N. 977-238-690-9

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
٢٠٠٠ م - ١٤٢١ هـ
2000 A.D. - 1421 H.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشرين

دار الكتاب المصري
٣٢ شارع قصر النيل - القاهرة ج. م. ع.
تلفون: ٣٩٢٤٢٦٨/٣٩٢٤٢٠١ - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب. ١٥٦٠ - عنيه - الرمز البريدي ١٥٧١١ - برقياً: كتامصر
FAX: (202) 3924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق البريستول
تلفون: ٧٢٥٧٢١ - ٧٢٥٧٢٢ - فاكسميلي ٢٥١٤٣٣ (٩٦١١)
برقياً: دالكلبان - ص. ب. ١١/٨٣٣٠ - بيروت - لبنان
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

المسهم



لمَاذَا يهتَّم الناس بالأمثَال التي يقدّمهَا العَامة أو التي يطلقهَا الحكمَاءُ أو الشعرَاءُ، وَلا يهتمون بالأمثال التي ضربَها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وعلى لسان رسُوله العظيم؟!

* * *

الله تعالى محيطٌ بكل شيءٍ وقد ضَرب للنَّاسِ في القرآن الكريم من كل مثل. فمَا أحرَانا بأن نغترفَ منَ المعين الإلٰهي كلما احتجنا إلى ضرب مَثل، وأن ننهل من يُنبوعِ الله العلي القدير الذي لا تنفدُ كلماته وَلو جئنا ببحر مداد يمدُّه سبعَة أبحر!...

* * *

قلّة استعمَالنا لأمثَال القرآن الكريم دَليلٌ علَى عدَمِ اهتمامَنا بالمداوَمة على قرَاءة كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه البَاطل منَ بَين يَديه وَلا مِن خلفه، تَنزيلٌ من حكيم حميد.

* * *

لا يستغني أحدٌ عن ضَربِ الأمثَال خلال محادثاته اليوميّة، وفي مُمَارسَة شؤون الحيَاة مع الآخرين، فمَا أجدره بأن يتمثل أثنَاء تعَامُله ومحَادثته بقَول أصدَق القَائلين، و«هو الله العليم الحكيم».

المسهم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٣).

وإنه لواضح من من هذه الآيات الكريمة أن الأمثال في القرآن الكريم يضربها الله (تبارك وتعالى) للناس ـ لجميع الناس وليس للمؤمنين وحدهم ـ لتذكّرهم وتعظهم بما تحمل من تصوير للنماذج البشرية المتنوعة، وبما تقدم من الأدلة والبراهين المختلفة التي تهدي جميعها إلى الإيمان والعمل الصالح..

ولعلَّ في تقديم المثل للناس ما يساير نفوسهم، ويوافق أمزجتهم، ولكن هنا مع الضبط والتوجيه الصحيحين. فواقع الحياة

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٨.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

المسهم

البشرية يدل على أن الناس قد درجوا في حياتهم على استعمال الأمثال بما يعبِّر عن أفكارهم ومشاعرهم، حتى صار المثل صنو الحكمة الشعبية، واعتادوا على الاستعانة به وهو يجري على الألسنة قولاً وكتابة حتى ظهر ثمرةً للتجارب الإنسانية، وتجسيداً للأفكار التي آمنت بها كل جماعة في مرحلة من مراحل حياتها الماضية.

وقد تدرجت الأمثال مع الزمن فارتقت في أحيان كثيرة إلى مرتبة الأعراف التي يحتكم إليها الناس في تعاملهم مع بعضهم، وفي إقامة علاقاتهم فيما بينهم، وذلك في الحدود التي تتناولها تلك الأعراف، وبخاصة التي تعبِّر الأمثال عن مصداقيتها، وفِعْلِ تأثيرها. ولذلك كانت الاستعانة بالأمثال دوماً إما لتوضيح فكرة، أو تقريب معنى، أو للدفاع عن رأي، أو الاستشهاد بموقف.

ومن عجيب ما نلاحظ اهتمام الناس بالأمثال التي ابتكروها ـ وهي مما لا يُحصى لكثرة تنوعها ـ والتي جعلوها تدور على ألسنتهم، وتماشي وقائع كثيرة في حياتهم، وذلك في الوقت الذي يهملون الأمثال التي ضربها العزيز الحكيم في القرآن المبين، وعلى لسان رسوله الكريم، ساهين أنه سبحانه قد ضرب لهم من كل مثلٍ، وأن له تعالى المثل الأعلى، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً. فلماذا أيها الناس تتمسكون بالذي هو دون، وتتخلون عن الذي هو خير؟ ويقيناً إن معرفة واستعمال الأمثال في القرآن الكريم أكثر خيراً وفائدة للإنسان، وإن عدم الاهتمام بهذه الأمثال لدليل على عدم معرفة عظمتها، وعلى جهل كثيرين من الناس لها. فإذا كان الناس يألفون بحكم العادة الأمثال التي درجوا عليها، والتي هي، في الأصل، من صنع الإنسان، وبنات أفكاره ومشاعره، فالأولى بهم أن يتعرَّفوا على

المسهم

ما ضربَ لهم خالقهم وبارئهم من أمثال في كتابه المجيد، حتى يتبين لهم فعلاً الحق الذي تحمله هذه الأمثال، وما تهدي إليه، لا سيما وأنَّ فيها شمولية لكل شيء، سواء فيما تحكي عن أخبار الأمم الغابرة، أو بما تنير به سبل الحياة في حال تطبيقها على أرض الواقع، أو بما تزود به من الحكمة، أو بما تعمل به من توسيع الأفكار وتقوية الحجة والبرهان. . والتي من شأنها جميعاً، في حال اتّباعها والعمل بوحيها، أن تقود إلى الفوز في الآخرة.

والحقيقة أن موضوعات الأمثال في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، ولا يمكن التعرّض لها جميعها، لما يلزم لهذا الأمر من البحث، والتمحيص، والتدقيق وسعة الجمع والتأليف، ولذلك اقتصرنا على الآيات التي تحدِّد بذاتها أمثالاً، أو التي ظهر فيها التشبيه، أوورد فيها لفظة «مثل» أو «كاف التشبيه»، أو ما دلت عليه الاستعارة، أو القياس التمثيليّ، كما حاولنا أن نجمع تحت عنوانٍ واحدٍ الآيات التي تتناول موضوعاً معيناً مثل موضوع المؤمنين، أو الكافرين، أو المنافقين، أو الموضوع الذي يبرز صفات الجنة أو النار، أو الحياة الدنيا. . . إلخ، وفي بعض أجزاء العنوان الواحد رأينا أن نضيف بعض الآيات التي تسبق أو تعقب الآية التي تحمل المثل القرآنيّ، أو أن نوضِّح ما قد ترمي إليه هذه الآيات من مقاصد حتى يأتي السياق متكاملاً، فيظهر المثل القرآنيّ بكل تجليات مضامينه ومدلولاته، لأن المثل عامة، والمثل القرآنيّ بصورة خاصة يعتبر أرفع أنواع البلاغة، بما فيه من إيجاز لفظ، وإصابة معنى، وحسن تشبيه، وجودة كناية.

بيد أنه لا تتجلى عظمة الأمثال في القرآن الكريم إلا في سياق

المسهم

السورة الموجودة فيها، وفي الموضع المرسوم لها بين آيات هذه السورة، فتبدو في موضعها الطبيعيّ تشع بالحقائق المحسوسة التي تريد إبرازها لتجعلها في متناول الإنسان ـ فهماً وعظة وحكمة ـ ودائماً في بيان معجز، وترتيب دقيق، وفي منتهى البلاغة والفصاحة.

ولا بدَّ في ختام هذه المقدمة من الإشارة إلى أن قصدنا من وراء هذا العمل ـ وفي ما قدَّرنا مولانا الكريم عليه، وأعانَنَا به على جمع الأمثال في القرآن الكريم في هذا الكتاب، ومحاولة تفسير مضامينها ـ إنما كان لتوفير الوقت والجهد على القارىء العزيز، وعلى الإنسان المؤمن، والداعي إلى ربه تبارك وتعالى بالموعظة الحسنة.. لكي تتيسَّر الإفادة من هذه الأمثال التي أرادها الله (جلت عظمته) نوراً للهداية، وسبيلاً من سبل الفوز والفلاح في الدارين.

وفقنا الله تعالى إلى طاعته ومرضاته، وتقبَّل منا هذا العمل المتواضع الذي يحمل بعض الأفكار الإسلامية على حقيقتها، ويقدِّم جزءاً ولو يسيراً مما جاء به الدين الحنيف من خير وصلاح لكافة الناس.

والله وليّ التوفيق.

المسهم

فصل تمهيدي

المثل

نشأته ـ معانيه ـ أنواعه ـ فوائده ـ خصائصه ـ أهدافه

الفقرة الأولى: نشأة المثل منذ القدم

ليست الأمثال ـ على كثرة المواضيع التي تتناولها ـ حديثة النشأة، بل هي عريقة في القدم، وقد رافقت الثقافات الإنسانية في مختلف مراحلها، وعبر تفاعلاتها مع بعضها البعض، واستمرت في هذا التفاعل على الرغم من الصراعات الفكرية والمادية التي عرفها الناس على امتداد التاريخ البشريّ الذي حفل بشتى أنواع تلك الصراعات.. على أن التفاعل الثقافيّ الذي نتج عنه تراث فكريّ، وكان فيه غنًى لمسيرة الإنسان، نجده قد ظهر أكثر ما ظهر في البلدان التي كانت ملتقًى لثقافات متنوعة، بسبب موقعها الجغرافيّ، وما طرأ عليها من غزو واحتلال، أو بسبب نمط وأسلوب عيشها في الحياة، وما قدّمت هي فعلاً من نتاج فكريّ وحضاريّ تلاقى مع غيره، وجعل من تلك البلدان حاضنةً لالتقاء الثقافات وتزاوجها مع بعضها البعض.

وقد أحدث ذلك التفاعل بين الثقافات تغييرات جذرية شملت الطريقة والمضمون اللذين كانت عليهما ثقافةٌ معينة، أو عدة ثقافات متنوعة، وأدى إلى قلب أنواع عديدة من الفنون الشعبية رأساً على عقب، بعدما قضى على كل صلة بين قديمها وحديثها، وهذا في

المسهم

الوقت الذي تغيرت في أنواع أخرى من تلك الفنون القوالبُ وأساليبُ الأداء، بينما بقي الجوهر محافظاً على مضامينه الأصلية.

ومن الفنون الثقافية التي حافظت على جوهرها، رغم إيغالها في القدم، كانت الأمثال التي ظلت إحدى أهم الطرق الفكرية لتصوير معاناة الناس وأفراحهم من خلال الواقع الذي يعايشون، أو للتعبير عن آمالهم في المستقبل الذي يحلمون. وقد اتخذت أمثالهم مسمياتٍ عديدة، وأشكالاً متنوعة برزت في العبارة القصيرة، أو الجملة المفيدة، أو في المجموعة الفريدة، مروراً بالقصة والقصيدة، والخرافة والملحمة، وغيرها من ألوان الأدب التي عرفتها الشعوب القديمة والحديثة. وكل ذلك لأن المثل كان ولا يزال مظهراً من مظاهر العقلية، يعبّر بأسلوب من الأساليب اللفظية عن عادات المجتمع وتقاليده وأعرافه، تماماً كما يعبِّر عن نفسية الإنسان في مشاعره وعواطفه في ظل الوقائع والأحداث التي يعيشها، أو في ظل الظروف والأجواء التي تحيط به أو تخيّم عليه، حتى ليمكن القول بأن المثل، من الناحية الثقافية، يحتل حيزاً كبيراً في التدليل على معاني التفكير والسلوك لدى الجماعات البشرية.

وهكذا ندرك، ومما جاء في الأمثال واستمراريتها عبر العصور، بأن الشعوب لم تضع أمثالها عبثاً، بل كان وراءها أسباب اقتضتها، أو أحداث أفرزتها. وكانت دائرتها تتسع أو تضيق تبعاً لما ترمي إليه من تصويبٍ لأوضاع المجتمع، ومن توجيه للناس إما للحفاظ على تلك الأوضاع، أو معالجة المشاكل التي تعترضها.

ولم يختلف العرب عن غيرهم من الشعوب التي عرفت

المسهم

الأمثال. بل على العكس فقد شكل المثل عندهم فناً ثقافياً قديماً، يستمد عراقته من الجذور المشتركة بينه وبين الثقافات السامية القديمة، ولعله من أجل ذلك كان أقدم فنون الأدب العربيّ على الإطلاق. وقد بقي هذا النوع الأدبيّ حياً بروحه إلى عصرنا الحاضر، ولم يتغيّر إلا من الناحية الشكلية تبعاً لتغير الأزمنة والأمكنة. وكان المراد به ـ مثل غيره من أمثال الشعوب الأخرى ـ تصوير الوقائع والأحداث في حياة العرب، أو استخلاص العبر والعظات من أجل التهذيب والتثقيف، وغيرها من المعاني التي تناولتها أمثالهم المختلفة.

وإن شدة اهتمام العرب بالمثل، وما كان وراءه من أسباب، أو ما توخاه من أهداف جعلت له تلك المكانة في أدبهم، حتى صار المثل المضروب لديهم، لأمر من الأمور، كالعلامة التي يعرف بها الشيء. وليس في كلام العرب أوجز من المثل، ولا أشد اختصاراً منه في تقريب الفكرة إلى الذهن، بما يمكّن من استيعابها بأقصر الأداء، وأوضح البيان. ولذلك كان للأمثال ذلك الشأن الهام في ثقافاتهم من أجل إبراز المعاني أو كشف الحقائق التي يريدونها، بحيث تجعل المتخيَّل يُرى وكأنه في صورة المحقَّق، والغائب وكأنه مشاهَد، والمتوهَّم في معرض المتيقَّن...

وتعتبر الأمثال في بعض خصائصها، من أنواع الحكمة التي عرفها العرب في الجاهلية والإسلام، والتي يمكن استخدامها كوسيلة ثقافية للتوعية والإرشاد، أو أداة تربوية للإعداد والتوجيه.

ومن الأمثال التي اتخذت خصائص الحكمة في تلك المضامين والأهداف، حديث الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ ـ وعليه الإجماع ـ حيث يقول: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم**

المسهم

وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى»[1].

فهو المثل النبويّ الشريف الذي يدل على التضامن والتكافل، وعلى وحدة الشعور والهدف بين أبناء الجماعة المؤمنة الواحدة، أو بين أبناء المجتمع المؤمن الواحد. فإذا حصل الخلل في جانب من هذا المجتمع انعكس على سائر جوانبه الأخرى، تماماً كما لو مرض أو تعطل أحد أعضاء الجسد فتأثرت سائر الأعضاء في أداء وظائفها..

وكذلك الأمر في هذا الدعاء لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه) حيث يناجي ربه ـ عز وجل ـ قائلاً: «اللهم اجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائمي، وأول وديعة ترتجعها من ودائع نعمك عليَّ»[2].

وروعة هذا الدعاء إنما هي فيما يرمي إليه من حكمة بالغة ترتقي بالنفس الإنسانية إلى مقامين رفيعين: الكرامة الإنسانية، والنعمة الربانية.

فهو الدعاء الذي يعبِّر عن نفسية المؤمن الصادق الذي أدرك قيمة خلْقه، وفضل الخالق ـ تعالى ـ عليه فيما أكرمه به من الكرامات، وإحداها هذه النفس التي تضمها جوانحه، والتي هي في الحقيقة وديعة لا بدَّ وأن ترد إلى مولاها وبارئها.

ويقرب من هذا الدعاء لأمير المؤمنين عليه السلام، ما قاله لبيد:

وما المال والأهلون إلاَّ ودائعٌ ولا بد يوماً أن تُردَّ الودائعُ

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٩٩٩.

(٢) نهج البلاغة، باب الأدعية.

المسهم

ومن الأمثال التي أراد بها العرب الحثَّ على استئصال الشر، واقتلاعه من جذوره، حتى لا تقوم له قائمةٌ بعدُ، قال أحدهم:

لا تقطعنْ ذنبَ الأفعى وتُرسلَها إن كنتَ شهماً فأتْبعْ رأسَها الذَنَبا

ومن الأمثال السائرة على شكل الحكمة:

لا شرف كالعلم ولا ميراث كالأدب.

ما طار طير وارتفع إلاَّ كما طار وقع.

ومثلك لا يبخل.

ومن القرآن الكريم: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾[1].

وخلاصة القول إن الأمثال، وهي تستقي المعاني التي تريدها من الواقع، فلا بدَّ وأن تلامس الحياة العصرية، مثلما لامست الحياة القديمة، في مختلف مراحلها ومظاهرها. ولذلك فإن الثورة التكنولوجية، وسائر أشكال التقدم العلميّ والتقنيّ التي وصل إليها الإنسان قد صارت حُكماً مجالاً للأمثال. وعلى هذا فإننا نجد أن المثل الذي كان يضرب بالسهم على شدة السرعة، صار يضرب اليوم بالصاروخ بدلاً من السهم، فنقول: جاء مثل الصاروخ. أو أننا نشبِّه البواخر الكبيرة (كحاملات الطائرات وأمثالها) بالجبال الراسيات. أو أننا نعبّر عن ذلاقة اللسان وحدته بمبضع الجراح فنقول: أفِ له لسانه كالمشرط.. وما إلى ذلك من أنواع المثل أو التشبيه، التي يمكن أن تتناول أبسط الأشياء وأصغرها في حياتنا، مثلما يمكن أن تتناول أكبر الأمور وأكثرها تعقيداً.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٨.

المسهم

الفقرة الثانية: التمييز بين المثل والتمثيل والتشبيه والاستعارة

المثل في الأصل بمعنى النظير، ثم نقل منه إلى القول السائر، أي القول الشائع الممثَّل مضربُهُ بمورده. وقد يأتي المثل على صورة التشبيه بأركانه. وفي أحيان أخرى قد يكون مشبهاً مسبوقاً بلفظ «مثل».

ـ **أما من حيث اللغة**: فقد اختير للمثل لفظ «الضرب» لأنه قد يكون مأخوذاً من أحد المعاني التالية:

- ضَرَب: بمعنى سار (ومنه ضربَ في الأرض)
- ضَرَبَ: بمعنى صنع وأنشأ (ومنه درهمٌ مضروب أي مطبوع أو مسكوك).
- ضَرَبَ: بمعنى نصبَ وأشْهرَ (ومنه ضرب الخيام).
- ضَرَبَ: بمعنى أبقى الشيء على مثال آخر.

وهي المعاني التي تجعل للمثل وقعه في إرادة التأثير، وهياج الانفعال، وكأن ضارب المثل يريد أن يقرع به أذن السامع قرعاً، بحيث ينفذ أثره إلى قلبه، وينتهي إلى أعماق نفسه.

وعلى هذا فإن القول أو الكلام الصائب الصادر عن تجربة إذا ما كثر استعماله، وشاع أداؤه في مناسبات متعددة ومتشابهة يصير مثلاً، ويعرَّف على أنه: «القول السائر الذي يُشبَّه به حال الثاني بالأول». ولذا قيل في المثل: «ما يشبه مضربه بمورده».

وقد جاء في لسان العرب: «إن «مَثَلَ» كلمة تسوية، فيقال: هذا مِثْلُهُ ومَثَلُهُ كما يقال: شِبْهُهُ وَشَبهُهُ. وهناك فرق بين المماثلة والمساواة، لأن المساواة تكون بين المختَلِفَيْن والمتفِقَيْن، باعتبار أن

المسهم

التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، بينا المماثلة لا تكون إلا في المتفقين بحيث نقول: فِقْهُهُ كفِقْهِهِ، ولونُهُ كلونه، وطعمه كطعمه. فإذا قيل: هو مثله ـ على الإطلاق ـ فمعناه أنه يسدُّ مسدَّه. وإذا قيل: هو مثله في كذا.. فمعناه أنه مساوٍ له في جهة دون جهة».

وفي الصحاح: ما يضرب به من الأمثال.

وإذا أَحَدٌ أطلق أو ضرب مثلاً، فيقال: تمثَّل فلان.

وإذا تمثَّل بالشيء فمعناه أنه ضَرَبَهُ مثلاً.

ـ **وأما من حيث الاصطلاح**: فقد عرَّف البلاغيون المثل بأنه «اللفظ المركَّب المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة ما بين مضربه ومورده، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الأصليّ».

وهو أيضاً: «أحد أقسام علم البيان الاصطلاحيّ الهادف إلى تأدية المعنى بصورة أوضح وأتمّ، ولكن في تراكيب مختلفة».

ويستدلُّ من هذين التعريفين أنهم اعتبروا المثل: قولاً في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبيّن أحدهما الآخر ويصوره، أي أن المثل هو عبارة عن تشابه المعاني المعقولة، والمِثْلُ هو عبارة عن تشابه المعاني أو الأشخاص أو الأشياء المحسوسة، وقد يدخل أحدهما على الآخر.

وقد جرى التمييز ما بين المثل وما يرمي إليه وبين بعض المعاني اللفظية التي قد تتداخل مع المثل، أو قد لا تمت إليه بصلة. ويظهر هذا التمييز بما يدل عليه كل من الألفاظ أو العبارات التالية:

ـ **المِثال**: ومعناه المقدار، وهو من الشبه. وبذلك فإن المثل ما

المسهم

جُعل مِثالاً، أي مقداراً لغيره يقاس عليه. والجمع: المُثُل والأمثلة، ومنه أمثلة الأفعال في باب التصريف.

والمثال أيضاً هو مقابلة شيء بشيءٍ نظيرِهِ، أو وضع شيء ما ليُحتذى به فيما يُفعل.

ولذلك يقال: تماثل العليل للشفاء أي قارب البرء، فصار أشبه بالصحيح من العليل المكروب.

ـ **الأَمْثَل**: وهو ما يعبّر به عن الأشبه «بالأفضل» فالرجل من أماثل القوم أي من أفاضلهم، لأن أماثل القوم كناية عن خيارهم. قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[1].

وفي الحديث الشريف: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»[2]، **أي الأشرف فالأشرف، والأفضل فالأفضل، والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة.**

وتأنيث الأمثل: المُثْلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾[3].

١ ـ المُثْلَة، وجمعها مُثْلات ومَثُلات:

وهي النقمة التي تنزل بالإنسان وتجعله مثالاً يرتدع به غيره. أي أنها بمعنى العقوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾[4]. أي أن الكفار

---

(١) سورة طه، الآية: ١٠٤.

(٢) سنن ابن ماجه، باب الفتن، ص٢٣.

(٣) سورة طه، الآية: ٦٣.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٦.

المسهم

يستعجلونك يا محمد بالعذاب بدلاً من طلب المغفرة، وقد سبقت قبلهم أمم كثيرة أنزلنا عليها عذابنا فكيف لا يعتبرون بها. ومن تلك الأقوام الخالية الذين استعجلوا عذاب الله ـ عز وجل ـ فحاق بهم الفناء، فصاروا مُثلاثٍ لمن جاء بعدهم، قوم نوح عليه السلام الذين أُغرقوا بالطوفان، وقوم هود عليه السلام الذين أهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ جعلتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وقوم لوط عليه السلام الذين أخذتهم الصيحة مصبحين، فقُلبت بلادهم عاليها سافلها، ثم أمطرت عليهم حجارةٌ من سجيل، فذاقوا العذاب الأليم.

وقد نقول: مُثِّل بالرجل إذا نُكِّل به، أي قطِّعت أجزاءٌ من جسده، فصار مشوَّهاً. وقد نهى رسول الله ﷺ عن المُثْلة التي تؤدي إلى تشويه الممثَّل به، لأنها تحقير لخلق الإنسان، وإهدار لكرامته حياً أو ميتاً.

٢ ـ التمثيل والتشبيه:

يقال: مثَّل الشيء أي صوَّره، ومثَّلت له هذا الشيء تمثيلاً إذا صوَّرت له مِثاله بكتابة أو غيرها. ومنه التمثال (وجمعه تماثيل) وهو الشيء المصنوع مشبَّهاً بخلقٍ معين.

وتمثَّل بمعنى تصوَّر، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1]. أي تصوَّر الملك جبريل لمريم عليها السلام على هيئة رجلٍ بشريّ، سويّ الخلقة وحسنها.

وفي التمييز ما بين التمثيل والتشبيه نشير أولاً إلى أن المَثَل لا بد أن يكون جامعاً، شاملاً، ومتحصلاً بالتأويل، في حين أن التشبيه

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٧

المسهم

يكون عادةً بيّناً، واضحاً لا يحتاج إلى تأويل، أو قد يحتاج إلى تفسيرٍ بسيط.

وعلى هذا فإن التشبيه يحصل في جملتين أو أكثر. وكلما أوغل التشبيه في أن يكون عقلياً، كانت الحاجة أكثر إلى الجمل كما يظهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

فانظر كيف كثرت الجمل في هذه الآية المباركة حتى بلغت عشراً، ولكنها تداخلت في بعضها كأنها جملة واحدة، وقد أخذ التشبيه بمجموعها بحيث لو أردنا أن نفصل بعضها عن بعض، أو لو حاولنا حذف جملةٍ من موضعها، لأخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه.

من هنا كان القول بأن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، بمعنى أن كل تمثيل يكون تشبيهاً، وليس كل تشبيهٍ تمثيلاً. ويظهر ذلك جلياً في التأليف من أجل إظهار المعاني المقصودة. ذلك لأن الألفاظ ـ كما هو معلوم ـ لا تفيد حتى تكون على ضرب خاص من التأليف، وعلى وجهٍ دون آخر من التركيب والترتيب، سواء في الشعر أم في النثر. فلو عمدنا مثلاً إلى هذا البيت من الشعر:

وعينك إن أبدت إليك معايباً فَصُنْها وقل يا عين للناس أَعينُ

وحاولنا أن نبعثر كلماته كيفما اتفق، أو حتى لو قلبنا تركيبه

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

المسهم

بحيث وضعنا الصدر محل العجز، لأبطلنا نظامه الذي بُني عليه، وأفرغناه من معناه الذي جرى عليه، وضاعت نسبته إلى صاحبه.

ويقرب من هذا تعريف «الشعر» عند البعض بأنه «الكلام المقفَّى الموزون» دون أن يأخذوا بالاعتبار: الخيال، والتعبير عن المشاعر، وقصد التأثير وما إلى ذلك مما يؤلف الشعر وروحه وسبب وجوده.

وكذلك الأمر في تعريف «الصلاة» على أنها عبارة «عن أقوال وحركات معينة» بحيث اعتبرت في الشكل، بينما جوهرها هو خشوع القلب، وطلب التقوى، ونيل رضى المولى عز وجل.

لذلك لا يجوز الاكتفاء بالصورة الظاهرة دون المعاني المقصودة، وإلا نخشى ضياع اللغة، بل وضياع المفاهيم الحقيقية للدين. فالمقصود من التشبيه أن يجعلك تتخيل صوراً متنوعة، ولكن لتأدية معانٍ متنوعة.

ومثال آخر على التشبيه المتعدد في قول أحدهم:

وكأن أجرام النجوم لوامعاً دُررٌ نُثرنَ على بساطِ أزرقِ

فالشاعر يشبه النجوم في تلألئها وانتشارها في السماء الزرقاء بالدرر التي نثرت على بساط أزرق، ولا شك بأن حقيقة النجوم والسماء أبعدُ ما تكون عن الدرر والبساط، ولكنْ تأخذنا الدهشة لِمَا في هذا القول الجميل من صور متنوعة تشبع الذهن، وتستنطق القلب تسبيحاً بذكر الله تعالى الذي فرّق النجوم اللوامع في مواضعها، وزيّن السماء الزرقاء بضيائها.. فمن أين لنا بمثل هذه الصور لو أننا خرقنا هذا التشبيه المتعدد، وأزلنا عنه الجمع والتركيب؟

المسهم

٣ ـ التمثيل والاستعارة:

وهنا يمكن أن نتساءل: هل إن الاستعارة هي التمثيل على الإطلاق، بحيث لا نستطيع أن نفرق بينهما، أم أن حدود التمثيل هي غير حدود الاستعارة ولكنها تتضمَّنه وتتصل به؟

والجواب هو أنه إذا كان كل تمثيل تشبيهاً، فإن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على المراد بالتمثيل. كما لو قلت: رأيت أسداً يسبح في البحر، بحيث تستعير تشبيه الأسد لهذا الرجل الذي يسبح في البحر لما أعجبكَ من قوته وشجاعته في مصارعة الأمواج، مما يفيد أن التشبيه ليس هو الاستعارة، ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه.

هذا وليس كل كلام يجيء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ـ كاف التشبيه ـ أو نحوها يستقيم فيه نقل الكلام إلى طريقة الاستعارة، وإسقاط ذكر المشبَّه جملة، والاقتصار على المشبّه به، ومن قبيل ذلك: قول رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل النخلة أو الخامة**»[1]، **والخامة: الغضة الرطبة من النبات**.

أو قول الطرماح: «إنما نحن مثل خامة زرع، فمتى يأنِ يأتِ حصاده».

فلا يستطيع أحد أن يتعاطى الاستعارة في شيء منها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[2] فيعد استعارة، لأن التمزيق في اللغة يعني تفريق الأجزاء المتلاصقة عن بعضها البعض

---

(١) سنن الترمذي، باب الأدب، ص٧٧.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٩.

المسهم

كتمزيق الثوب إلى قطع متناثرة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾[1] فيعد استعارة ويفيد نفس المعنى من حيث التفرقة والتشتت (وهو حكم رب العالمين على بني إسرائيل إذ قضى بتمزيق وحدتهم إلى فرق تتوزع بين أمم أهل الأرض، بحيث يكون منهم ناس صالحون، وناس كافرون وآخرون فاسقون).

وكذلك يستعمل القرآن الكريم لفظتي «النور» و«الظلمة» بمعنى الاستعارة. فهو يستعير لفظة النور للبيان والحجة قاصداً بذلك الأخذ من محسوس إلى معقول، باعتبار أن النور هو من الأشياء المحسوسة التي يشاهدها البصر، بينما البيان والحجة من صنع العقل لإثبات حقيقة معينة أو أمر معين. وقد يستعير القرآن لفظة «النور» ليدل به على الإيمان، أو على العلم، أو على الهداية وما إلى ذلك من معاني الخير والصلاح. ومثلها عندما يستعير القرآن الكريم لفظة «الظلمة» ليدل بها على الجهل، أو الكفر، أو الضلال، وما إلى ذلك من معاني الشر والفساد.

ووجه التشبيه في استعارة لفظتي النور والظلام:

أنَّ من عَلِمَ حقيقةَ وجود الله تعالى، وامتلأ قلبُهُ بالإيمان فهو يسير على هدى من ربه كمن يسير في طريق يشع عليه النور. أما من أعماه الجهل، وطغى عليه الكفر فهو كمن يتخبط في ظلام دامسٍ ويسير على غير هدى أو طريق منير، فيكون مصيره التردي في الهاوية والهلاك.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.

المسهم

وبعد هذا فلا بدَّ من الإشارة إلى أنه لا يشترط في المثل أن يكون من نوع الشيء المقصود به، بل قد يكون مختلفاً تماماً عن هذا الشيء، إلا أنه استعمل ليعطي الفكرة عنه وفقاً لما أريد بها. فمثلاً عندما تواجه شخصاً يتحداك، مزهواً بقوته وشدة بأسه، ويشبه حاله بالريح، فإنك تحاول أن تجبه تحديه، فتقول له: إن كنت أنت الريح فأنا الإعصار.

وأياً تكن المناسبة التي جرى فيها هذا التحدي، فإنه في الواقع لا يوجد ريحٌ، ولا يوجد إعصار حتى يكون التشبيه مماثلاً ومطابقاً، ولكنه جرى استخدام الفكرة التي تبين حقيقة ثابتة ألا وهي أن الإعصار أقوى من الريح، وأن كل قوة لا بدَّ وأن يكون هنالك قوة أكبر منها. فكان التشبيه لتقريب المعنى المقصود، وجعل السامع يفهم ما أردت من هذا التشبيه. وهكذا الحال بالنسبة لسائر الأمثال، إذ ليس من الضروري أن يُشبَّه فيها الشيءُ بالشيء عينه، ولكنها تُضرب لإعطاء المعاني المرادة منها، وتقريبها إلى العقول والأذهان، بما يعبّر عن فكرة صاحب المثل أو مَن استعمله. من جراء ذلك كان للأمثال مكانة هامة في الكلام، بما لها من وقع غريب في الآذان، وتأثير عجيب في القلوب والأنفس.

يقول إبراهيم النظام: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية. فهو نهاية البلاغة».

وقال العلامة أبو السعود في تفسيره للمثل: «والتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستقصاء عليه،

المسهم

وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبيّ، وقمع سورة الجامح الأبيّ. كيف لا، وهو رفع الحجاب عن وجوه المنقولات الخفية، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشيّ في هيئة المألوف».

الفقرة الثالثة: معاني المثل

يمكن أن يتخذ المثل المعانيَ التالية:

١ ـ **معنى الصفة**: كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١]، أي مَثَلُ الجنة: صفة الجنة.

أو في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾[٢]، أي صفاتهم.

٢ ـ **معنى العبرة**: ومنه قول الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[٣]. فمعنى «سلفاً» أنه جعلهم متقدِّمين يتّعظ بهم الخلف، ومعنى «مَثَلاً» أي عبرةً يعتبر بها غيرهم من بعدهم.

٣ ـ وقد يأتي ذكراً **لحال من الأحوال** مشتملاً على ما يناسبها ليبيِّن ما كان خفيّاً من حسنها أو قبحها، فيكون قولاً بديعاً فيه غرابة، تجعله خليقاً بالقبول، ولذا قالوا: «استُعير لفظُ المثل لكل حالٍ، أو صفةٍ، أو قصةٍ، لها شأن عجيب، وخطر غريب، من غير أن يلاحَظ بينها وبين شيءٍ آخر شبه». ومنها قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٥٦.

المسهم

يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾[1]، أي لهم الصفات الذميمة، وله ـ عزَّ وجلَّ ـ الصفات العُلى ذات الشأن العظيم والخطر الجليل؛ فتعالى الله عمَّا يصفون.

٤ ـ **معنى الحكمة**، وقد سمِّي المثل حكمةً لانتصاب صورها في الأذهان باعتبار أنها مشتقة من المثول والانتصاب. وفي ذلك يقول أبو هلال العسكريّ، صاحب كتاب (جمهرة الأمثال): «إن كل حكمة سائرة تسمَّى مثلاً. والكلمة إذا شاعت وانتشرت وكثُر دورانها على الألسن تكون مثلاً. أما إذا كانت صائبة وصادرة عن تجربة، ولم تدُر على الألسن، فتسمَّى حكمة». وهذا يعني أنه إذا أُريد بالمثل عبرة فقد يصح أن يكون حكمة، لأن من تعاريف الحكمة[2] أنها: «الكلام النافع، المانع من الجهل والسفه، والناهي عنهما».

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.

(٢) إذن الحكمة هي القول الصائب والصادر عن تجربة ناجحة. أو بمعنى آخر هي إصابة الحق بالعلم والفعل... فالحكمة من الله تعالى هي: العلم بالأشياء وإيجادها أو خلقها على غاية من الإحكام.. والحكمة من الإنسان هي معرفة الأشياء وتسييرها للغاية التي أوجدت لها، بما يؤدي إلى فعل الخيرات على وجه الصواب. وهذا ما وُصِفَ به لقمان في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾. وقوله تعالى لنساء النبيّ ﷺ: «**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة**»، قيل معناه أن يذكرن تفسير القرآن الكريم وتدبر معانيه التي تهدي للعلم والحق والخير والصواب. وبناء على هذا الفهم لمعنى الحكمة نقول:

من الممكن أن يُؤتى الإنسانُ العلمَ ولكن لا يحسن استعماله في وجه الصواب، فيكون أُعطيَ العلمَ ولكنه لم يُعطَ الحكمة. ومن الممكن أيضاً أن يُعطى الإنسانُ المالَ ولكنه لا يُحسن تدبيره من حيث الاستثمار أو الإنفاق على وجه الصواب، فيكون قد أعطيَ المالَ ولكنه لم يُعطَ الحكمة. =

المسهم

٥ ـ وقد يحتوي المثل على **قصة، فيطلق عليها اسم «القصة التمثيلية»**، وهي تحمل في الغالب صورةً فرضية، وأحياناً تكون حقيقةً تاريخية سيقت لمجرد التصوير وإبراز المنقول في صورة المحسوس. يقول الله تعالى عن جبريل عليه السلام في سورة مريم عليها السلام: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[1].

الفقرة الرابعة: أنواع المثل

يمكن تقسيم المثل، بصورة عامة، إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ **المثل السائر**: وهو ما ينبثق عن تجربة شعبية بلا تكلّف أو تصنّع، بحيث يمليه الواقع في الحياة، فيستعمله كل من يمرّ بنفس التجربة تعبيراً عن موقفه في مناسبة معينة، أو إبرازاً لفكرة أو شعور يتملكانه. ولا يقتصر ضرب المثل السائر على التجربة الشعبية، بل قد يأتي به أهل العلم والمعرفة كما في قول رسول الله ﷺ: **«إن من البيان لسحراً»**[2]. أو كما في قول أحدهم: «رب أخ لك لم تلده أُمّك».

= وبهذا المفهوم تكون الحكمة إذن أعلى شأناً من العلم والمال. لأن من أعطي الحكمة، وإن كان علمُهُ أو مالُهُ قليلاً إنما يُحسن تدبيره، فيكون ممدوحاً في الدنيا، ومرضياً عنه في الآخرة.. وبخلافه، فإن من جمع علماً كثيراً أو ملك مالاً وفيراً، ولم يحسن توجيه هذا العلم أو تدبير هذا المال، يكون مذموماً في الدنيا، ومغضوباً عليه في الآخرة.
وصدق اللّٰهُ العظيم حيثُ يثني على صاحب الحكمة فيقول في محكم كتابه العزيز: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

(١) مريم: ١٧ و١٨.

(٢) صحيح مسلم، رقم٤٧.

المسهم

٢ ـ **المثل القياسيّ**: وهو سرد وصفيّ أو قصصيّ، أو صورة بيانية لتوضيح فكرة معينة عن طريق التشبيه والتمثيل، ويسميه البلاغيون: التمثيل المركَّب، أو التشبيه المتعدِّد.

ويكون هذا النوع من أجل تشبيهِ شيءٍ بشيءٍ آخر لتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسَيْن من الآخر. أو قد يكون من أجل التأديب والتهذيب، أو للتوضيح والتصوير بحيث يكون فيه إطناب، ويجمع ما بين عمق الفكرة وجمال التصوير، ومن قبيل هذا المثل القياسيّ ما قاله ابن حازم في وصف النرجس، بمثل هذا التصوير الرائع:

ونرجسٍ ككؤوس التِّبر لائحةٌ لهنَّ من خالص العِقْيان[1] أحداقُ

أو من قبيل القول القرآنيّ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[2].

فقد ذكر الله تعالى هذه القرية في حالتين: إيمانها، وكفرها.. وهو مثل يصلح لكل قرية، ويقاس على كل مدينة تكون حالُها حالَها. فهي عندما كانت تأتمر بأوامر الله ـ تعالى ـ كانت آمنة مطمئنة، يغدق ـ سبحانه ـ عليها كثيراً من رزقه الكريم. فلما تولَّت عن أوامر ربها، وكفرت بما أغناها به بالأمس من النعم، أتاها عذاب الله وسخطه، ونزل فيها الجوع والخوف والنقمة، وكل ذلك نتيجة لكفرها بالله ـ عز وجل ـ وجحودها بأنعمه. وهو المثل أيضاً الذي ضربه القرآن الكريم

---

(١) العقيان: الذهب الخالص.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.

المسهم

للكافرين من أهل مكة، لما بين قريتهم وتلك القرى من التشابه في الكفر والعناد.

٣ ـ **المثل الخرافي**: وهو ما تنسب فيه أفعال البشر إلى الحيوان أو الطير أو الكائن الخارق. ويكون هدفه تعليمياً أو عظةً أو تحذيراً، وما شابه.. ولذلك يأتي على شكل قصص خيالية أو فرضيات، أو على شكل خرافات وأوهام، كما هو الحال مثلاً في كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع، وغيره من المؤلفات التي استبدلت أشخاصها الآدميين بمخلوقات أخرى، ولكنَّها كانت تمثِّل بهذه المخلوقات للتدليل على ما قد يصادف الإنسان في حياته من قضايا وأحداث تهمه، ويعتقد أنها مؤثرة على وجوده.

الفقرة الخامسة: فوائد المثل[1]

للمثل فوائد عديدة وجمّة في ما يعبَّر به عن المعاني، ونقل الصور، حتى يتحقق الغرض المقصود.

وقد أبرز الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه «أسرار البلاغة» صوراً لفوائد المثل، فقال: «واعلم أن ما اتَّفق العقلاء عليه، هو أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، ورفع من أقدارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها»...

ويتناول الجرجاني المثل من حيث كونه: مدحاً، أو ذماً، أو حجاجاً أو افتخاراً، أو اعتذاراً أو وعظاً وفقاً لما يلي:

---

(١) إن الآيات القرآنية التي يجدها القارىء الكريم في هذه الفقرة المتعلقة بـ«فوائد المثل» إنما أوردناها نحن للتدليل على ما ذهب إليه المرحوم الشيخ الجرجاني في فوائد المثل.

المسهم

- «فإن كان مدحاً: كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس، وأسرع للإلف، وأغلب على الممتدَح، وأوجب شفاعةً للمادح». ومثاله في القرآن الكريم، وصفُ الرسول ﷺ وصحابتهِ الكرام، بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

- «وإن كان ذمّاً، كان مسُّه أوجع، وميسمه أَلْذع، ووقعه أشدّ، وحدُّه أحدَّ». ومثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3].

ومن قبيل هذا التمثيل في الذم قول أحدهم:

ولو لبِسَ الحمارُ ثيابَ خَزٍّ لَقالَ الناسُ يا لَكَ مِن حِمارِ

- «وإن كان حجاجاً: كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر».

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٣) سورة يس، الآيات: ٧ ـ ٩.

المسهم

ومثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وهذا النوع من الحجاج أو النقاش يكون في حالتَين: المدح، والذم.. فهو هنا مدحٌ بحقِ إبراهيم عليه السلام، وذمٌّ للنمروذ الظالم الكافر الذي ادَّعى بأنه يحيي ويميت...

وتجد هذا النوعَ أيضاً في قول أبي العتاهية:

ترجو النجاةَ ولم تَسْلُك مسالِكَها ... إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

وفي قول شاعرٍ آخر:

ونارٍ لو نفختَ بها أضاءَتْ ... ولكنْ أنتَ تنفخُ في رَمادِ

- «وإن كان افتخاراً كان شأوُه أَبعد، وشرفُه أَجدّ، ولسانه أندّ».

وفي ذلك قول عبد المطلب (جد رسول الله ﷺ):

لا يَنزل المجدُ إلا في منازلنا ... كالنوم ليس له مأوىً سوى المُقَلِ

وأما ما يجيء في القرآن الكريم من بيان عظمة الله تعالى وكماله، فلا يسمَّى افتخاراً، بل اقتداراً..

ومثالُه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

المسهم

يُشْرِكُونَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

- «وإن كان اعتذاراً: كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلَب، وللسخائم[3] أسلّ». وليس في القرآن الكريم من اعتذارٍ، إلا ما حكى عن أصحاب المعاذير الكاذبة ليكون اعتذارهم حجةً عليهم، أي هو اعتذار في الظاهر واحتجاج في المعنى، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[4].

وقد قال شاعرٌ في الاعتذار:

لا تحسبوا الرقصَ مني بينكم طرباً فالطَّيرُ يرقص مذبوحاً من الألمِ

- «وإن كان وعظاً، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر».

ومثله في القرآن الكريم: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[5] فالكفَّارُ هنا بمعنى الزُّراع، لأنهم يكفرون الحب، أي يسترونه بالتراب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٤.

(٣) **السخيمة**: الضغينة، السخائم: الضغائن.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

المسهم

فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

الفقرة السادسة: خصائص وفنّية الأمثال في القرآن الكريم

أشرنا من قبل بأن تاريخ العرب الثقافيّ قد حفل بالأمثال المتنوعة، فكان منها ما ارتبط بأحداث تاريخية، أو ما عبّر عن أوضاع مجتمعية، أو ما صوّر أحداثاً خيالية أو فرضية، وكانت جميعها تتوخى أهدافاً معينة تريد إيصالها إلى الناس.

ولكثرة ما شابَ تاريخ الثقافات عند العرب من اضطراب وتشويش فقد جعل تلك الأمثال التي وصلت إلينا مختلطة من الجاهليّ والإسلاميّ، لأنَّ ما كان محفوظاً منها في مصنفات جامعة، ومميزة لكل عصر على حدة، إما أنّه قد ضاع في طيات الزمن، وإما أنه صار أشتاتاً متفرقة، فلم يبقَ سليماً على حقيقته، وعلى شكله ورونقه إلا ما تنزّل به القرآن الكريم، أو ما دلَّ عليه الحديث الشريف بالإجماع..

والأمثال في القرآن الكريم قد جاءت هي الأخرى كثيرة ومتنوعة جرياً على لغة العرب، باعتبار أن القرآن عربيّ.. وميزة الأمثال في كتاب الله ـ تعالى ـ أنه لا يفقهها إلا من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. فهو المؤمن الذي تضعه هذه الأمثال في القديم، ولكنه القديم المتجدد دوماً مع تجدد أنماط العيش ومظاهر الحياة الإنسانية،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

المسهم

ومن ثَمَّ لتحمله إلى عالم فريد من الحكمة والموعظة، والدليل الحسيّ والبرهان العقليّ على ما أراده الله ـ تعالى ـ مثلاً..

فأنت أيها القارىء العزيز تتخطى مع الأمثال في القرآن الكريم حدود الزمان والمكان حين ترى كل شيء في الإنسان: في خلقه وتكوينه، وفي نفسه وذاته، وفي علمه وجهله، وفي إيمانه وكفره.. وحين ترى كل شيء للإنسان: حيث سخَّر له ربه تعالى ما في الأرض جميعاً، وما يرتبط به مع عالم الكون وما فيه من الكواكب والنجوم وتأثيرها على الكرة الأرضية التي يعيش عليها، والتي جعلها تعالى صالحة للحياة البشرية من خلال تناسقها مع النظام الكونيّ الذي تقوم عليه.. وأخيراً حين ترى الإنسان في كل شيء: في تجربته الأولى مع أبينا آدم عليه السلام، وكيف أزله الشيطانُ وزوجَهُ عن الجنة التي كانا فيها، وأخرجهما مما كانا فيه لتعيش ذريته مختلف المراحل التي مرت بها حتى اليوم... ثم ترى هذا الإنسان في صراعه الدائم ما بين الخير والشر، والحق والباطل، والحسن والقبيح.. وكذلك حين تراه في تقدمه الماديّ، ونضوجه الفكريّ مثلما تراه في تقهقره الخلقيّ، ومجافاته لتكوينه الفطريّ.

ونظراً لهذه الأهمية البالغة للأمثال في القرآن الكريم فإننا سوف نتناول في البحث خصائص هذه الأمثال، وفنّية مبناها، والأهداف التي تتوخاها.

أولاً ـ خصائص الأمثال في القرآن الكريم

للأمثال في كتاب الله المبين خصائص عديدة، ولكن أبرزها التالية:

المسهم

١ ـ **الخصيصة الأولى**: المثل القرآنيّ قد يكون حقيقياً، وقد يكون فرضياً:

ـ ففي حال كون المثل حقيقياً، أويعبر عن حقيقة فإنه يطلق على ذات الشيء كما في قوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[١]، أي كمن هو في الظلمات، أو في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾[٢]، أي يبيّن لهم أحوالهم، من حيث إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم، ومن حيث إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نُزِّل على محمد ﷺ وهو الحق من ربهم، كفَّر عنهم سيئاتهم، وأصلح بالهم. أو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[٣]، أي كما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق آدم من تراب ومن دون أم وأب، ثم نفخ فيه من روحه فكان بشراً سوياً، كذلك خلق عيسى من غير أب، من أمه مريم، عندما بعثَ إليها جبريل فنفخ فيها فحملت بإذن الله. . فهذا المثل الذي يدل على خلق آدم وعيسى عليهما السلام قد ضربَهُ رب العالمين للناس ليثبت لهم أنه على كل شيء قدير، وأن أمرَهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فآدم هو حقيقة ثابتة في حياة البشر جميعاً، بل هو أبو البشر جميعاً، وكذلك عيسى هو حقيقة لا جدال فيها، وقد كان خلقهما خروجاً على النظام المألوف لدى الناس، أي على النظام الذي يقوم على اجتماع الزوجين الذكر والأنثى بما أودع الخالق فيهما من العناصر التي يتكوّن بواسطتها

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

المسهم

المخلوق البشريّ؛ كما كان خلقهما خروجاً على السّنن التي خلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بموجبها السماوات والأرض، وجعلها سنناً ثابتة، لا يطرأ عليها أي تحويل أو تبديل. وبذلك يكون هذا المثل القرآنيّ قد قرّب إلى أذهاننا فكرة الخالق، وقدرته على الخلق من صميم واقع حياتنا البشرية.

ـ أما في حال كون المثل القرآنيّ فرضياً، فإنه يأتي على صورة التشبيه، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[1].

فالأسفار هي الكتب القيمة والنادرة، والتوراة هي سِفْرٌ من هذه الأسفار التي فيها شرع اليهود. وقد نزل التكليف لهم بحملها، والعمل بما فيها، إلا أنهم تركوا أحكامها وراء ظهورهم، وحملوها في الظاهر يأخذون ببعضها ويتركون بعضها الآخر، مما أدى بهم إلى عدم الانتفاع بها، فصار مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب القيمة دون أن يعرف ماذا يحمل، ودون أن ينتفع بما يحمل. ولذلك عقَّب القرآن الكريم على هذا المثل بقوله تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2]، فبئس المثلُ مثلُ أولئك اليهود الذين كفروا بآيات الله تعالى التي أنزلت في التوراة، وجحدوا من ثم بآيات الله التي أنزلت في الإنجيل والقرآن، وهو بعينه الظلم لأنفسهم، فحق عليهم ألا يهديهم الله ـ عز وجل ـ لأنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين، والكافرين أو المكذبين. فهذا المثل قد حمل

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٥.

المسهم

صورة تشبيهية من الواقع المحسوس لمعانٍ عقلية، وهو النوع من المثل الذي قيل عنه: «وأبلغه تمثيل المعاني المعقولة بالصورة الحسية وعكسه». وقد بيّنا كيف أن المثل عندما يكون غير حقيقيّ يأتي على صورة الاستعارة. وأوردنا صوراً عن التمثيل في القرآن الكريم من خلال الآيات الكريمة التي أتبعناها بفوائد المثل لإبراز هذه الفوائد في موضعها من هذا الفصل.

٢ ـ **الخصيصة الثانية**: من مضامين المثل القرآنيّ القياس التمثيليّ.

ولعل هذه الخصيصة من أهم خصائص الأمثال في القرآن الكريم التي تحتوي على القياس التمثيليّ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فمن حيث المبنى نجد أن هذه الآية الكريمة هي من أحسن وأظهر القياس التمثيليّ، لأنها تُشبِّه النيلَ من عرض الإنسان أو من شرفه وكرامته، بالتمزيق في لحمه وأكله. والبلاغة الفريدة فيها أنه لما كان الميت لا يسمع من يغتابه، فقد شبَّه به الحيُّ المغتاب الذي لا يسمع من يغتابه، وغيابه يحول دون دفاعه عن نفسه، وردِّ الأذى أو السوء الذي يتعرض له من غيره. فهو في هذه الحالة بمنزلة الميت الذي يقطّع لحمه، ولا مجال له ليدفع عنه هذا البلاء.. ولما كان من مقتضى الدخول في الإسلام أن يصبح المسلمون إخوةً في الدين، فإن من معاني هذه الأخوة: التراحم، والتواصل، والتناصر، والحفاظ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

على الذمم والأعراض والأنفس. ونقيضُ هذه المعاني كلها أن يسيء المسلم إلى أخيه المسلم، أياً كان نوع الإساءة، كما في حال اغتيابه، وذلك بإظهار عيوبه، أو ذمّه بما ليس فيه، فكأنَّ المسلم الذي يغتاب مسلماً إنما يقطع لحم أخ له تقطيعاً ويأكله، وهو أكره شيء يمكن أن يتصوره الإنسان المؤمن، أو الإنسان الذي يشعر بإنسانيته.

وأما من حيث المعنى فإن هذا المثل يبيّن لنا إحدى أبرز المساوىء والمفاسد التي يتعرض لها الناس في حياتهم. إنها الغيبة، وما أدراك ما الغيبة؟! إنها الداء الوبيل، والرذيلة القاتلة التي يتعمَّد فيها أحدهم أن يسيء لغيره، بإظهار بعض العيوب التي يعرفها فيه، أو ربما باختلاق عيوب له لا تكون موجودة فيه حقيقةً، وذلك لينال منه في الصميم أمام الآخرين.

هذه هي الغيبة، الرذيلة والفاحشة المؤذية التي قد تشيع في أوساط الناس، حتى تصبح بمثابة العادة لدى بعضهم فلا يهنأ له عيش، ولا يقدر أن ينام على وسادته ما لم يكن قد ملأ نهاره باغتياب الآخرين. والغريب أن الذي يغتاب، ينسى أو يتناسى بأنَّ الله تعالى قد نهى عن الغيبة لأنها توقع في الإثم، فكان هذا القياس التمثيليّ لها في القرآن المبين عندما يشبه المغتاب بمن يأكل لحم أخيه الميت.

والرسول الكريم، وتبياناً للتنزيل الحكيم، قد نهى أيضاً عن الغيبة. فعن جابر قال: «قال رسول الله ﷺ: **إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنى، ثم قال: إن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه**»[1].

---

(١) سنن الدارمي، رقم ٣٥.

المسهم

ولما سأل رسول الله ﷺ الناس: **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟** قالوا: لا، فكاب الجواب: فكرهتموه... أي فكما كرهتم لحمه ميتاً، فاكرهوا غيبته حياً. ولذلك يقال للذي يغتاب الآخرين: فلان يأكل لحوم الناس.

وكما أن العقل، والفطرة والحكمة توجب جميعها النفرة من هذا الشيء المحسوس الذي هو أكل لحم الأخ ميتاً، فكذلك هي توجب النفرة مما هو نظيره وشبيهه أي الغيبة، حتى أن الشاعر عندما استوعب فهم هذا المعنى من حيث التشبيه والتمثيل، قال:

وليس الذئب يأكلُ لحمَ ذئبٍ ويأكل بعضُنا بعضاً غِياباً

وقال آخر:

فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومَهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

٣ ـ **الخصيصة الثالثة**: المثل القرآنيّ ذو وجهين: ظاهر وكامن.

- فالمثل الظاهر هو المصرَّح به، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾(١).

فهو مثل المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام حتى يأمنوا على أنفسهم، وينالوا المكاسب والعزة، فلما ماتوا ـ وهم على نفاقهم ـ نزل بهم الخوف والعذاب مثل الذي ينزل بمن استوقد ناراً في ظلمة، فلما أنارت ما حوله واستدفأ وأمن مما يخافه، انطفأت النار وخيَّم عليه الظلام فانتابته تلك المشاعر القاتلة، ووقف في مكانه لا يهتدي إلى الطريق الذي يقوده إلى الأمان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧.

المسهم

- والمثل الكامن هو الذي لا يظهر فيه المثل، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[1]. فالنص وإن كان يحكي عن الأوصاف التي طلبها بنو إسرائيل في البقرة التي أُمروا بذبحها، وبيَّنها لهم موسى عليه السلام على أنها بقرة ليست مسنّةً ولا صغيرةً، بل هي بين ذلك، أي نصف في سنِّها. . إلا أنَّ هذا الوصف للبقرة يشير إلى مثل كامن فيه وكانت العرب تعرفه، وهو قولهم: خير الأمور أوساطها.

وكذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[2]، وهو من دعاء نوح عليه السلام إلى ربه تعالى بألا يذر على الأرض نازلَ دار من الفجّار الكفار الذين إن تُركوا فإنهم يضلون عباد الله، ولا يلدونَ إلا أمثالهم ممن يفجرون ويكفرون. . وهو ما يشير إلى المثل القائل: الحية لا تلد إلا حية.

والمثل الكامن واردٌ في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾[3]. ويدل عليه قولُهم في هذا المثل: الإنسان عدو لما جهل.

٤ ـ **الخصيصة الرابعة**: ومن روعة الأمثال في القرآن الكريم أن بعض أجزاء آياته قد جرت مجرى المثل الذي يعرف بالمثل السائر، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[4] أي ظهر وبان، ويمكن أن يضرب في كل وقت يظهر فيه الحق الصراح.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٨.
(٢) سورة نوح، الآية: ٢٧.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٩.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٥١.

المسهم

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1]. أي أن كل جماعة تكون عادةً معتدَّةً برأيها ومسرورة به. وهذا القول يدل على الأضداد والمتعارضين في الرأي. فكل جماعة قد تظن أنها وحدها على صواب، وغيرها على خطأ.. وهو ما يمكن أن يصور حالة الناس بالأمس، وحالهم اليوم، وفي أي مجتمع من المجتمعات حيث توجد الأحزاب، أو الهيئات أو الجماعات وتكون على خلافٍ في وجهات النظر. فالحزب سياسياً كان أو غير سياسيّ يعتقد أن مبدأه هو الصحيح، وأنه هو الذي يجب أن يهيمن على المبادىء الأخرى التي تنادي بها سائر الأحزاب من دونه.

ومنه أيضاً قول الله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[2]، بحيث يضرب به المثل عند البت بأي نزاع بصورة نهائية ومحكمة، فلا يعود من مجال للتنازع والاختلاف طالما أن الأمر قد قضي وانتهى، أرضيّ المتنازعون أم لم يرضوا.

٥ ـ الخصيصة الخامسة: أمثال القرآن الكريم مطلقة.

وهذا يعني أن الأمثال في القرآن الكريم تتناول الأمور بصورة مجتمعة، دون أن تأخذ كل أمر على حدة وبصورة إفرادية.

يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[3] فقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو تعبير عن الحياة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

المسهم

الدنيا كلها، دون ذكر تفاصيلها وأجزائها. فقد شبه هذه الدنيا بالنبات الذي ارتوى بالمطر فأينع وحسن، ثم صار هشيماً يابساً، متفرقة أجزاؤه، فهبت عليه الرياح وفرقته أجزاءً صغيرةً متناثرةً لا نعثر لها على أثر. أوليس هذا واقع النبات بصورة مطلقة، مثلما هو واقع حياة كل كائن حيّ عندما يصير في أوج القوة والعزة، ثم تعيده السنوات التي يعيشها إلى الوهن والضعف، ليأتيَ عليه الموت، أو الفناء فيتلاشى جسده إلى ذراتٍ..

وهكذا الأمر بالنسبة لكل ما تتناوله أمثال القرآن. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يضربُ مثلاً لحالة بحالةٍ دون تفصيل كل حالة على حدة. وهذا ما يضفي على المثل القرآنيّ صفة الإطلاق، لأن معانيه ومدلولاته لا تنحصر بالحالة التي يتناولها نص هذا المثل، بل تتسع لتشمل جميع الحالات المماثلة لها في أي زمان ومكان وجدت فيه هذه الحالات. وحتى الأقوام، أو الأشخاص الذين يذكرهم القرآن، ويصف طرق تفكيرهم وتصرفاتهم ليسوا إلا نماذج لأقوام وأشخاص على شاكلتهم ومثالهم في هذه الحياة الدنيا، فلو أخذنا نموذجاً للمغرور صاحب الغنى والجاه نجده في قارون الذي كان يدّعي أن كل ما بلغه من الجاه والغنى والثروة إنما كان من عنده، أي حصل بعلمه وقدرته وحذاقته، كما كان يقول للناس، وما يبيّنه قول العزيز الحكيم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[1]، في حين أنه في الحقيقة ليس هناك من شيء يتمتع به الإنسان من الصحة أو الخلقة أو القوة، أو يبلغه من العلم والنفوذ والسلطان، أو يمتلكه من المال والغنى والثروة إلا وهو

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨

المسهم

من نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ عليه، لقوله الكريم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1].

وعلى شاكلة قارون، كان سيده فرعون الذي بلغ من الجبروت والطغيان ما جعله يدعي الربوبية، بل ويفرض على قومه أن يجعلوه ربهم الأعلى!.. ولا نظن فرعون مصر ذاك يختلف عن فراعنة أي مصرٍ أو عصر، الذين يتحكمون في رقاب العباد، وفي مصائر الأمم والشعوب، وكانوا مثالاً لكل حاكم طاغية، مستبد وظالم، أو صاحب نفوذ جشع، فاسد وفاسق!..

هذا ولا تقتصر الأمثال التي ضربها الله تعالى على نماذجَ للكفار، والمكذبين والمفسدين والمنافقين.. بل وتتناول أيضاً نماذجَ للصادقين، والعابدين، والزاهدين والمتقين، أي شتى النماذج التي لها صفة الإطلاق، لأنها جاءت على النحو الجامع الذي يحيط بالإنسان في جميع أحواله، وبكل ما يتعلق بمسيرته على هذه الأرض منذ بدء الخليقة وإلى قيام الساعة.

ومن مجمل تلك الخصائص يتبين لنا أن المثل في القرآن الكريم لا يقتصر على مفهوم واحد من حيث التشخيص والتصوير والتمثيل، بل ربما تندرج تحت كل مثل مفاهيمُ لا تحصى، وهذا ما يجعل الأمثال القرآنية بمثابة قواعدَ تتفرع عنها حقائقُ كثيرة ومتنوعة.. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2]، بمعنى أن الأمثال في هذا القرآن، وإن كانت محدودة

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

المسهم

العدد، بحيث لا تتجاوز بضع مئات، إلا أنها في حقيقتها تتناول كل ما يهمُّ الناس، وما قد يشغل بالهم، أو ما قد يتمنونه ويطمحون إليه، لا سيما وأنها تخاطب الإنسان في عقله وقلبه ونفسه، وتشعره بعبوديته لخالقه، فلعله يتذكر ما تستحق هذه العبودية لله الواحد الأحد من قدسية، وامتثال لأوامره ونواهيه عن قناعة.

ولئن كانت الأمثال التي عرفتها الشعوب لا يمكن إحصاؤها، ولا معرفةُ مختلف المواضيع التي تناولتها، فإن ما يثير الدهشة، ويثبت الإعجاز أن يكون كتابٌ واحدٌ، وهو القرآن الكريم، قد مثّل لجميع النماذج البشرية، ولشتى الأنواع والأنماط في حياة الناس، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، فلفظة «من كل مثل» تحتوي على جميع نماذج الناس وخصائصهم، ومزاياهم وصفاتهم، وعلى كل ما تحمل من العبر والعظات والبراهين.

فتأمل هذه البيان الإعجازيّ، والأسلوب البلاغيّ اللذين لا يمكن لغير القرآن أن يأتي بهما. فهو في ثلاث كلمات فقط: «من كل مثل» قد استوعب الحياة الدنيا بأسرها، في مختلف خلائقها من الكائنات الحية والجامدة، وما يحيط بها، ويؤثر على وجودها.. وكل ذلك بأمثال محدودة، معبّرة وصالحة لكل زمان ومكان..

ثانياً: فنّية الأمثال في القرآن الكريم

لقد جاء المثل في القرآن المجيد متميزاً بواقعيته، وبأسلوبه البلاغيّ، وبيانه الإعجازيّ ليكون غاية في الوضوح والتأثير، وهي العناصر الأساسية التي تشكل فنّية هذا المثل لإيصال المعاني التي

المسهم

يريدها بسهولة ويسر. وتظهر هذه الفنية في المزايا التالية:

١ ـ **الدقة والواقعية**: فالمتأمل في الأمثال التي احتواها القرآن يلحظ دقته الفريدة في صياغة الألفاظ لكي يكون وقعه في الأنفس مؤثراً وفاعلاً. فالمثل القرآنيّ لا يمثّل ـ دائماً ـ بالغريب العجيب، وإنما يتخيّر الصورة من المحسوسات الموجودة، ويعرضها بأوصافها وخصائصها، ثم يسكبها في الألفاظ لتكون شاهداً واضحاً على ما يريد إيصاله إلى الأذهان، وذلك من دون أن يضع في الممثَّل به وصفاً زائداً أو ناقصاً، فتأتي الصورة صادقة ومعبّرة..

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١).

فالوليّ (وهو مفرد الأولياء) يعني السيد الذي يأمر فيُطاع، والذي يمتلك فيتصرف، فهو يملك القدرة والقوة والسلطة.. فهل يمكن أن تنطبق هذه المواصفات على أولئك الآلهة المزعومة الذين اتخذوهم أولياء من دون الله ـ جلت عظمته ـ وله ما في السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير؟ ولذلك يأتي هذا المثل ليبيّن لنا أن الولاية لأي شيء من دون رب العالمين هي ولاية أو تبعية واهية، ضعيفة، لا تضر ولا تنفع بشيء. فالذين اتخذوا أولياء من دون الله (تعالى) هم كالعنكبوت في الضعف، وولايتهم مثل بيت العنكبوت في

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

المسهم

نسجه الرقيق، القابل للتمزيق والتبديد عند أدنى مسٍّ به.. فهل يعلمون ذلك؟ فإن كانوا لا يعلمون فإن هذا المثل القرآنيّ يبين لهم هذه الحقيقة من واقع تلك الحشرة الضعيفة التي هي العنكبوت.

٢ ـ **الدعوة إلى التفكر والتبصر**: وهذه الدعوة هي أحد الجوانب الفنية للأمثال في القرآن المبين، حيث نراه يترك ـ عمداً ـ للمخاطب به بعض المجالات التي تستدعي التفكير بمعانيه ومقاصده. أي أنها دعوة للإنسان لحث العقل، وقدح زناد الفكر، ورؤية الحقيقة كما هي من دون مواربة أو إنكار. وهي عوامل تقوده حتماً إلى الإيمان الصادق بحقيقة وجود الله تعالى، والتصديق بأنبيائه ورسله. ذلك أن دور العقل إنما يتمحور ـ في الأصل ـ حول اكتشاف الحقائق التي يقوم عليها الوجود البشريّ، وهذه الحقائق كفيلة بأن تشدَّ الإنسان إلى طريق الحق، وتهديه إلى عبادة ربه تعالى، وطاعته والعمل بمرضاته. أما إذا جافى الإنسان الحقائق التي يكتشفها، وقولبَ ما توصَّل إليه منها بمظاهر الحياة المادية البحتة، دون أن يعطيها مراميها الروحية والمعنوية، فلا يعود لديه حينئذٍ أيُّ معنى للإيمان بربه وخالقه.. وهذا هو الكفر والضلال بعينه.

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[1].

أجل هذا هو مثل الذين كفروا بربهم، إذ مهما أتوا من الأعمال

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

المسهم

الحسنة في هذه الحياة الدنيا، فإنهم يوفَّون أجورهم عليها في دنياهم هذه، ثم لا يكون لهم نصيب منها في الآخرة، لأنها تكون قد تبددت وضاعت مثل الرماد التي تهب عليه الريح في يوم عاصف فتذروه بدداً.. وكل ذلك بسبب كفرهم الذي قادهم إلى الضلال البعيد، وجعلهم في النهاية يخسرون آخرتهم.

٣ ـ **التأثير النفسيّ**: إن الأمثال في القرآن الكريم تستمد مدلولاتها من عناصر الحياة ذاتها لكي تكون قريبة من فهم الإنسان فيعايشها ويقتدي بوحيها وإلهامها، فكانت ـ من أجل ذلك ـ ضروريةً لها روعةُ التصوير التي يكون لها تأثيرها الفاعل في النفس البشرية.

ومن أجل هذا التأثير النفسيّ فإن أمثال القرآن غالباً ما تتخذ من الطبيعة ميداناً لها، لترسم منها الصور المعبّرة:

- **فمن نباتها**: نجد الحبة التي تنبت سبع سنابل، والزرع الذي أخرج شطأه، والشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة.
- **ومن حيوانها**: نجد الأنعام، كما نجد الحمار والكلب.
- **ومن طيرها**: نجد الهدهد..
- **ومن حشرتها**: نجد النحلة والنملة والعنكبوت والبعوضة..
- **ومن جمادها**: نجد الجبل، والقيعان، والسفينة..

بل وتجمل بعض نصوص القرآن في اللفظة الواحدة أو في العبارة الواحدة معانيَ عديدةً لتعطيَ صورة أو فكرة شاملة عما يؤثر في حياة الناس، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ

المسهم

خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1].

على أن تلك الصور التي تستقيها الأمثال في القرآن من الطبيعة لا تعني اقتصارها على أنواع معينة من المخلوقات دون غيرها، وإنما توردها على سبيل المثال أو الذكر، لأن القرآن المبين لا يعنيه الممثَّل به، أو بتخصيصه عن غيره، بقدر ما يقصد به تقريبَ الصورة إلى نفس الإنسان، رغم شدة وضوحها وبيانها في السياق القرآنيّ.

وكما تأخذ الأمثال في القرآن من الطبيعة ميداناً لها، فإنها تأتي أيضاً بالأشياء ذات التأثير الشديد على الحياة اليومية للإنسان. ومن قبيل ذلك: النور والمصباح وشجرة الزيتون. يقول تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

أجل، ويضرب الله تبارك وتعالى الأمثال للناس حتى يفهموا مقاصدها فيعتبروا، ويؤمنوا.. والله بكل شيء عليم، لأن علمه قد أحاط بكل ما في الكون، وما في الوجود، كما أحاط بما كان وبما سوف يكون.. ومن مقتضى علم الله أن يهدي عباده إلى الأشياء التي تؤثر على حياتهم تأثيراً مباشراً من خلال الأمثال التي ضربها لهم كما في هذا المثل عن نور الله (تعالى) في السماوات والأرض.. فالنور لا

---

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١٧ ـ ٢٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

المسهم

يمكنهم الاستغناء عنه، بل ولا حياة بلا هذا النور الذي يبعثه الله (تعالى) من الشمس ليؤديَ دوره في إيقاظ الحياة وتفاعل كائناتها. والمصباح ـ سواء هذا المصباح الكهربائيّ اليوم، أم المصباح الذي كان على شكله ونوعه في القديم ـ من أهم ضرورات الحياة للإنسان، بحيث لا يستوي العيش من دونه. أما شجرة الزيتون فإن الناس يعرفون مقدار ارتباط حياتهم بها لما تقدِّمُ لهم من حَبٍّ وزيتٍ للطعام، أو من خشب للوقود، أو من تأثيرٍ على البيئة سواء ما يتعلق بحفظ التربة، أو تحسين المناخ، وجلب المطر، أو ما تفيد منه الطيور والحشرات التي تعيش حيثما وجدت هذه الشجرة المباركة.

وفي ذلك كله ما يدل على أهمية الأمثال في القرآن الكريم وهي تعبِّر عن شؤون الناس العامة والخاصة على السواء..

الفقرة السابعة: الأهداف التي تتوخاها الأمثال في القرآن الكريم

لقد تنزَّل الكتاب المبين من لدن خبير عليم رحمة للعالمين. وقد تناول من بين ما أتى به قضيتين رئيسيتين قد ينضوي تحت لوائهما كافة القضايا التي تبحث في الكون والحياة والإنسان. وهاتان القضيتان هما: عبادة الله الواحد الأحد، وهدى الله لعباده.

أما من حيث عبادة الله الواحد الأحد فيقول المولى تبارك وتعالى:

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾[1].

فهذا القرآن قد أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعاني،

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١ و٢.

المسهم

مثلما أحكمت بأسلوب بلاغته وإعجاز بيانه لتبعد جميعها عنه أي نقصٍ أو تفاوت أو خلل؛ كما أن آياته قد فصّلت بالأحكام والقصص والمواعظ والعبر والأمثال التي تهدي الناسَ إلى عبادة الله، الذي لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وألاّ يعبدوا إلاّ إيّاه.

والآيات التي تحضّ على عبادة الله ـ عز وجل ـ محكمة في القرآن من أوله لآخره، وجميعها تؤكد على أنه إلهٌ واحدٌ أحد، فرد صمد، وتأمر عبادَه ألا يتخذوا من دونه إلهاً آخر، كما في هذه الآية الكريمة: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1].

وإن الإقرار بالألوهية والربوبية لله ـ جلت عظمته ـ هو الهدف الأعلى الذي تنبثق عنه سائر الأهداف الأخرى، سواء تلك التي تتعلق بالغاية من خلق الإنسان وارتباطه بالكون، أم الأهداف التي تتوخاها أمثال القرآن في توجيه وتربية الإنسان ليكون عبداً لله تعالى.

وأما من حيث الدعوة إلى الهدى، فيقول المولى تبارك وتعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[2].

فالله ـ تعالى ـ نزّل أحسن الحديث قرآناً متشابهاً، أي يشبه بعضه بعضاً في النظم والبيان، والدقة والإعجاز. وقد ثنيّت فيه القضايا التي تهم الناس في حياتهم الدنيا والآخرة، ومنها الوعد بالجنة والوعيد

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

المسهم

بالنار. فالمؤمنون الذين يخشون ربهم ويخافون وعيده تقشعر جلودهم لذكر وعيده، ثم تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ورحمته بعباده، وما يعدهم به من النجاة والفوز..

فالقرآن وفيه أحسن الحديث، هو هذا الكتاب الذي يهدي به الله ـ عز وجل ـ من يشاء من عباده، وهؤلاء العباد هم الذين وصفهم تعالى بقوله الحكيم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]..

وأما من يضلل الله ـ وهم في علمه المكنون هؤلاء الناس الذين ليست لديهم قابلية الهداية ـ فما لهم من هادٍ، يعيشون في الضلال المبين، ويموتون في الضلال البعيد. فتأمل كيف نزَّل الله ـ عز وجل ـ ذلك الكتاب هدى ورحمة للعالمين، بما فيه من الآيات الدالة على طريق الهدى، ومنها هذه الأمثال التي يشع في كثير منها النور المبين الذي يهدي عباد الله الصالحين.

ولا ريب بأنَّ القرآن في مجمله ـ في آياته المحكمة والمتشابهة، ومنها الأمثال ـ يؤكد على أن أهم مراميه ومقاصده الإقرار بألوهية وربوبية الله (تعالى) المطلقة، ومن ثَمَّ دعوة عباده ألا يعبدوا إلا إياه، وأن الله ـ تعالى ـ يهدي بهذا القرآن من يشاء، ويضل من يشاء.. وعلى هاتين القاعدتين، في إطلاقهما، تبنى معاني القرآن كافة بما فيها معاني الأمثال التي قد يتوخى كل منها أهدافاً وغايات خاصة به، أو يشترك مع غيره في أهداف وغايات عامة ترد في آيات متعددة من القرآن المبين.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

المسهم

وعلى هذا فإنه يمكن أن نستخلص ـ فيما هدانا الله تعالى إليه ـ من الأهداف التي تتوخاها الأمثال في القرآن المجيد الأهداف التالية:

١ ـ الهدف الأول: إدراك الأمور الغيبية

من الواضح أن الناس قد تحيط بهم كثير من الأسرار المغلقة على أفهامهم، وذلك في الوقت الذي يتوقون فيه إلى بلوغ هذه الأسرار أو الوقوف على حقائقها، ولا سيما ما يعتقدون أنَّ له تأثيراً على حياتهم.. ولذلك كان من أهداف الأمثال في القرآن الكريم تبيانُ وإيضاحُ بعض أمور الغيب، التي هي في الحقيقة أسرار بطبيعتها بالنسبة للناس، حتى يفهموا معانيها، ويدركوا حقائقها، على أن تكون الغاية من وراء ذلك الإيمانَ بتلك الأمور الغيبية التي تشغل في الواقع بال الإنسان وتقضّ مضجعه، واعتبارها من ثمَّ مسلمات يقينية غير قابلة للجدال.. وعلى هذا فإننا نجد في القرآن الأمثال عن البعث والنشور والحساب يوم القيامة، والثواب والعقاب، والجنة والنار، والإيمان والشرك وغيرها من المعاني العقلية، التي لا يمكن أن تستوعبها عقولنا، وتتصورها نفوسنا إلا بالأدلة والبراهين الحسية عليها من واقع وجودنا.

فلو أخذنا مثلاً الشركَ بالله، نجد أنه في حقيقته من القضايا العقلية؛ أي القضايا التي قد تشكل موضعاً للاتفاق أو موضعاً للاختلاف بين الناس على معانيها، وبالتالي على فهم مراميها. ولكن عندما يأتي المثل في القرآن ويبيّن لنا ماهية الشرك ـ الذي أخذناه مثلاً على القضايا العقلية ـ بأدلة حسية، فلا يعود هناك من مجال لإنكار حقيقة هذا الأمر العقلانيّ، أو عدم إدراكه في الصميم.

يقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا

المسهم

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. أجل فقد ضرب الله تعالى هذا المثل من واقع حياة الناس، بل ومن الناس أنفسهم، عندما يقيمون الشراكة فيما بينهم في الأعمال، والأموال أو غيرها من أمور الشراكة. فإذا كان لدى بعض الناس عبيد يملكونهم فهل يكونون لهم شركاء في أعمالهم وأموالهم مثل شركائهم الأصليين؟ طبعاً لا، فهم مجرد مماليك لهم، وبالتالي فهم لا يخافون من هؤلاء المماليك أن يشاركوهم في ما رزقهم الله تعالى. فإذا كان الأمر كذلك مع أناس أمثالهم، فكيف لا يخافون أن يجعلوا بعض مخلوقات الله ـ عز وجل ـ شركاء له؟ وهو سبحانه مالك الناس جميعاً خلقاً وعبيداً، بل ومالك السماوات والأرض كلها؟ تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

وبذلك دلَّ العقل، ومن خلال الواقع المحسوس الذي يتمثّل بالشراكة بين الناس، على الأمر غير المحسوس الذي هو الشرك بالله تعالى، بحيث يستوعب كل من يعقل ويدرك أنه محالٌ على مخلوقات لله الخالق العظيم أن تكون شركاء له في ملكه.

ولما كانت القضايا الغيبية كثيرة في القرآن الكريم، فقد تولت الأمثال فيه مهمةً دقيقةً تتوخى تقريب معاني تلك القضايا إلى أذهان الناس، وجعلهم يدركونها من خلال ما تقدمه لهم من الصور الحسية التي تعبِّر عنها، والتي قد تكون غالباً مستقاةً ومأخوذةً من واقع حياتهم ووجودهم.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٨.

المسهم

فعندما يريد المثل في القرآن الكريم أن يبيّن لنا معنى الجنة ونعيمها في الآخرة فإنه يعرّف بها من خلال الصور الحسية والمألوفة في حياتنا مثل: الظلال الوارفة، والأنهار الجارية، والثمار اليانعة، ولحم الطير الشهيّ، والعسل واللبن والخمر، والسرر المرفوعة، والأرائك والنمارق والزرابيّ وغيرها مما يتمنَّاهُ الإنسان لكي ينعم بالعيش الرضيّ، ويحقق السعادة والطمأنينة، ويرفل بالحبور والأمان. . . وكذلك الأمر عندما يتوخى المثل في القرآن الكريم أن يبيّن لنا معنى النار وجحيمها في الآخرة، فإنه يلامس واقع حياة الناس ويستقي منها الأدلة والبراهين المحسوسة على ذلك مثل: اللهب المستعر، والماء المغليّ الحار، والأحشاء الممزقة، والجلود المحترقة، والمياه الآسنة، والطعام الرديء وغيرها من الأشياء التي تدل على الشقاء والتعاسة، والقهر والتنكيل، والألم والعذاب. .

ومن أبرز القضايا الغيبية في القرآن قضية البعث بعد الموت، وهي القضية التي اتخذ منها الكفار والمشركون مجالاً كبيراً للجحود والإنكار، ومثاراً للجدال والحجاج، ومن ثَمَّ تكذيب الرسل في أمر الإحياء بعد الموت. . ولذلك تولت الأمثال في القرآن الكريم جلاء هذه القضية، وإثبات حقيقة البعث وذلك من خلال الحقائق التي يعايشها الإنسان كل يوم، والتي لا يمكنه إنكارها، أو الادعاء بعدم وجودها، فكان التركيز في هذه الأمثال على خلق الإنسان وموته، كبرهانَيْن ساطعَيْن على ما سوف يعقبهما من النشور والإحياء. .

فأما البرهان الأول وهو الخلق، فقد دلَّ عليه كتاب الله بآيات بيّنات عظيمة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ

المسهم

وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾(٣).

وغني عن البيان ما في هذه الآيات البيّنات من الأدلة والبراهين المادية والحسية على أصل الخلق الآدميّ، وعلى كيفية تكوينه، والأطوار التي يمر فيها هذا التكوين حتى يخرج الإنسان بشراً سوياً، وفي خلق آخر مختلف عما كان عليه في مختلف الأطوار السابقة.

وقد أكد العلم وأثبت حقيقة وصدق ما ورد في القرآن المجيد، وتوصَّل إلى ذلك بالنظريات والأبحاث والتجارب التي تملأ المجلدات، في حين أن القرآن، وهذا إعجازه، قد بيّن أطوار الخلق البشريّ بأقل العبارات وأدقها ليكون هذا الإعجاز بذاته برهاناً إضافياً على قدرة الله تعالى في الخلق، وأنه هو الخلاق العليم.

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الطارق، الآيات: ٥ ـ ٧.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٢ ـ ١٦.

المسهم

فهذا الخلق حقيقة راهنة وثابتة في كل إنسان. بل وفي مختلف الكائنات الحية من النبات والزرع والطير والحيوان والحشرة.. ووجودها الماديّ أكبر برهان على أنها مخلوقات للخالق العظيم. ويكفي الإنسان أن يتفكر بها ليستدل على قدرة الخالق.

وأما البرهان الثاني فهو الموت، وهو أيضاً حقيقة ثابتة في حياة الناس، بل وهذا الموت يطال كل كائن حيّ أياً كانت المدة الزمنية التي يعيشها. وقد دلَّ القرآن على الموت، الذي هو حقيقة لا جدال فيها، بآيات بيّنات، منها:

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[4].

وهذه الآيات، كما آيات الخلق، هي جزء يسير من النصوص التي ذكرت الموت والحياة في القرآن الكريم.

على أن الموت بذاته هو الحكمة البالغة التي شاءَ الخالق العظيم أن تدل بشكل أساسيّ على أمرين من أمور الغيب وهما:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٠.
(٣) سورة الملك، الآيتان: ١ و٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

المسيرة

- سر الحياة التي يودعها الخالق في الكائنات الحية.

- بعث الناس يوم القيامة.

ومن أجل أن يقرِّب القرآن الكريم المفهومَ الغيبيَّ لسر الحياة، ولإعادة الحياة أو البعث يوم القيامة، فقد دل عليهما بالحقيقة الحسية والمادية التي يراها الناس بأم العين، أي بالموت، الذي هو نقيض للحياة..

فماذا يحدث في هذا الموت الذي هو نقيض للحياة؟

إن أول ما يخرج من الإنسان عند الموت هو الروح، فبالروح يحيا الإنسان في جسده ونفسه. ولئن كانت الروح هي خارج نطاق علم الإنسان، لأن الله تعالى ـ كما يثبت القرآن الكريم ـ قد جعلها سراً من أسرار خلقه، وتعزَّز سبحانه وتعالى بهذا السر، فإنه من الثابت أن الموت لا يحلُّ بالإنسان إلا عند خروج الروح منه، ففي هذه اللحظة بالذات نجد الجسد قد همد عن الحركة، وتوقف فيه كل نبض للحياة.. ثم لا يلبث هذا الجسد أن يتصلب شيئاً فشيئاً (وهذا هو الحمأ المسنون الذي ذكره القرآن في أصل خلق آدم) ثم يتعفّن الجسد الميت ويصبح طرياً كالصلصال، ثم يصير تراباً إذا دفن في الأرض (أو هباءً منثوراً إذا جرى حرقه على طريقة بعض الجماعات البشرية).. فهذه الأشياء المادية: وقف حركة الجسد، الحمأ المسنون، الصلصال، التراب أو الهباء المنثور هي الأدلة الحسية على الموت، أي على فناء الجسد، وزوال الإنسان نهائياً من الحياة الدنيا.

ومن هذا يتبين لنا كيف يقدِّم القرآن الكريم الأدلة والبراهين على

المسهم

حقيقة الخلق، وحقيقة الموت، ليكون خلق الإنسان وموته هما خير الشواهد على حقيقة البعث، وذلك فضلاً عن الأدلة الأخرى الحسية التي أتت بها الأمثال في القرآن على هذا البعث، ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

فالشواهد الحسية والبراهين العقلية على البعث عديدة ومنها:

- النطفة (المنيّ أو الماء المهين)، فالذي يخلق من هذه النطفة خلقاً آخر (هو هذا الإنسان الذي نعرفه)، لقادر على أن يبعثه، أي أن يعيدَ خلقه كما كان أول مرة.

- العظام التي هي من عناصر تكوين الجسد البشريّ، والتي لا يمكن أن يكون مثل هذا التكوين من دونها، فالقادر على إنشاء هذه العظام أول مرة من الماء المهين لقادر على إعادة إنشائها مرة أخرى، وإن بليت أو رمّت.

- الشجر الأخضر الذي جعل منه الخالق العظيم للناس ناراً فإذا هم منه يوقدون. وأهمية هذا البرهان أو الدليل أنه يجمع ما بين الماء

---

(١) سورة يس، الآيات: ٧٧ ـ ٨٣.

المسهم

والخشب والنار ـ كأضداد ثلاثة ـ فالقادر على هذا الجمع قادر على البعث.

ـ والبرهان الأقوى هو خلق السماوات والأرض مع عظمهما، فالقادر على هذا الخلق أليس بقادر أيضاً على أن يخلق مثل هؤلاء الأناسيّ الصغار، وأن يعيد إحياءهم كيف يشاء؟ ومتى يشاء؟

وأسباب نزول هذا المثل القرآنيّ أن أحد المشركين وهو العاص بن وائل أخذ عظماً رميماً ثم فتّه وقال للنبيّ ﷺ: أترى يا محمد، يحيي الله هذا بعدما بلي ورمَّ؟ وكان الجواب القاطع: أجل، يحييه الذي أنشأه أول مرة، وهو بكل خلق عليم.. فكيف يعجب ذاك المشرك من البعث، وقد نسي أنه خُلِقَ من نطفةٍ من ماءٍ مهين؟.

وقضية البعث هذه كانت من أهم القضايا التي اتخذها المنافقون والكفار والمشركون، سبيلاً ليحاجّوا بها رسول الله ﷺ، فراحوا يضربون له الأمثال من أجل غرس بذور الشك حول رسالته، وتكذيب قضية البعث وإنكارها، إذ في حال عدم وجود الأدلة والبراهين على هذه القضية، فإنه يصعب على النبيّ ﷺ متابعة الدعوة، وإقناع الناس بصدقها ومصداقيتها، ولذلك تنزّلت الآيات البيّنات التي تدحض كل تكذيب أو إنكار لبعث الإنسان بعد موته، ومن ثَمَّ لإقرار هذا البعث حقيقةً ثابتةً في النفوس، وذلك بما تحمل تلك الآيات من الأدلة المحسوسة التي ترتبط بها حياة الناس، ومدار عيشهم في وجودهم الأرضيّ. ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ

المسهم

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥).

ويبرز في هذه الآيات الكريمة أمران:

- أن الله تعالى ينزل الماء من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها.
- أن الله تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يحيي الموتى من الناس يوم البعث أو النشور.

فالدليل واضح، والبرهان ساطع: فلينظر الإنسان إلى الأرض كيف تكون جافة، يابسة وهامدة، فإذا نزل عليها المطر من السماء اهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، حيث هذه الأنواع التي لا

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ١٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٥.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ١١.
(٥) سورة الروم، الآية: ٥٠.

المسهم

تحصى من النباتات والزروع والأزهار، بشتى ألوانها الزاهية، ومختلف روائحها الطيبة؛ ثم هذه الأزهار والأوراق التي تعود الأشجار وتكتسي بها فتنتج الثمار أو تزين الطبيعة.. أليس في ذلك كله ما يدل على إيقاظ الأرض من رقادها، وإحيائها من مماتها؟ ثم أليس ذلك من آثار رحمة الله تعالى بالإنسان حتى يمكنه البقاء على هذه الأرض، وتأمين موارد العيش التي تساعده على هذا البقاء؟!

فهل يجوز للإنسان، مع هذه الشواهد الحسية، أن ينكر البعث، وهذه الشواهد تؤكد له أن الله تعالى كما يخرج ذلك من الأرض، كذلك يحيي الموتى ويخرج الناس من الأجداث؟!.

بل وهذا أمر يسير على الله ـ جلت عظمته ـ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[1].

فهذه القضايا الثلاث: الخلق، والموت، والبعث هي من القضايا الحسية والعقلية على حدٍ سواء. وقد جاءت آيات القرآن الكريم، ومنها الأمثال، تبيّن ماهية كل منها، بما يقرّبها من أذهان الناس، وتجعلهم يفهمون معانيها، ويقرون بحقيقتها، فينجلي من ثَمَّ مفهوم البعث كقضية غيبية، ليصبح قضية عقلية، يقبلها العقل من خلال قبول الشواهد الحسية التي تدل على إعادة إحياء الأرض، كما يراه الإنسان بالعين المجردة.

٢ ـ الهدف الثاني: معالجة النفوس:

إن من سنن الهدي الإسلاميّ مراعاةَ نفس الإنسان بما طبعت

---

(١) سورة ق، الآيتان: ٤٣ و٤٤.

المسهم

عليه من كوامنَ واستعداداتٍ بحيث يقع على عاتق كل إنسان أن يزكيَ نفسه بالعمل الصالح وبالخير، أو أن يدُسِّيَها ويملأها بالعمل الفاسد وبالشر. . ولذلك كانت النفوس البشرية متباينة، فهنالك النفوس المؤمنة الطاهرة، والنفوس الكافرة الفاجرة، وبين هذه وتلك تكون النفوس الضعيفة المنافقة الحائرة. . وقد أنزل الله تعالى في كتابه المبين الآياتِ الدالةَ على مختلف هذه النفوس جميعاً.

فأما النفوس المؤمنة فالقرآن يربيها تربيةً مثاليةً تتلاءم مع قوة إيمانها واستعدادها للعمل بطاعة ربها، والامتثال لأوامره ونواهيه، ثم الانطلاق في العمل الصالح الذي يزكيها ويجعلها مطمئنة إلى وعد ربها ـ عز وجل ـ ورضوانه.

وأما النفوس الكافرة فأكثر ما يشدِّد القرآن على إظهار انحرافها عن الفطرة السليمة، ووقوعها في الكفر والضلال، بحيث لا تملك من الضوابط ما يردعها عن الفجور والفسق، أو ما يحول بينها وبين ارتكاب الشرور والآثام. ولذلك يحاول القرآن أن يستميلها عن انحرافها، ويدفعها إلى ترك الكفر أو الشرك بالله تعالى مع وعده ـ عز وجل ـ بالتوبة والمغفرة، وإلا فإن الوعيد بالقهر والعذاب منتصب أمامها، بل سوف يزيدها الله ضلالاً من جراء إصرارها على الكفر، فلا تهتدي من ثَمَّ إلى الإيمان أبداً. .

وتبقى النفوس الحائرة التي تتردد بين الإيمان الظاهر والكفر الباطن لما تمتلىء به من النفاق والتملق والخداع، وهذه النفوس يقدم لها القرآن من بالغ القول، وجميل الإرشاد، وهدي الحكمة، ورائع المثل ما هو حريّ أن يرد عنها الضعف ويخلصها من النفاق والذبذبة، ويدفعها إلى نبذ المكر والخداع.

المسهم

بمثل هذه الغايات السامية التي يتوخاها القرآن الكريم فإننا نجد فيه تقويماً لجميع النفوس، ومعالجتها، وشفائها من حالات الضعف أو الأمراض التي تعتورها. ويتبيّن علاج القرآن بقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

أجل إن من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، بينا لا يزيد الظالمين لأنفسهم بالكفر والنفاق إلا خساراً.

على أن المناط في صلاح النفوس، وعودتها إلى رحاب الإيمان الخالص، إنما هو بيد الإنسان، واختياره للنهج الذي يريد أن يسلكه وذلك بما يوطّن هو عليه نفسه، وبما يسيِّرها باتجاهه، ليكون بالتالي مسؤولاً عن المصير الذي يختاره لنفسه بكامل وعيه وإرادته، ويكون ذلك من حيث إصلاحها وتزكيتها، أو من حيث إفسادها وإضلالها، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2].

فالعدل الإلهيّ يترك الخيارَ ويجعل مجالَهُ واسعاً أمام الناس لكي يهتدوا إلى الصراط المستقيم، أو ينحرفوا إلى الضلال المبين.. ولكنه يبيّن لهم في الوقت نفسه ما يتوعدهم به ربهم ـ عز وجل ـ من العقاب، وما يعدهم به من الغفران والرحمة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]. وإذا كان سبحانه يترك لعباده أن يختاروا بين غضبه أو رحمته، إلا أن أبواب الرحمة والعفو والمغفرة تبقى مفتوحة لهم، وهي واسعة جداً، ولولاها لما ترك تبارك وتعالى أحداً منهم إلا أهلكه، لقوله الكريم: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الشمس، الآيتان: ٩ و١٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

المسهم

يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[1].

وإنه ـ والله ـ لقول كريم، مزيج من نصح، ومن هداية، وفيهما علاج للنفوس. ومثله آيات كثيرة دالّة ومعبرة، وفيها من الأمثال ما يشتمل على ألوان من الهدى تغري الناس بفعل الخير، وتحضّهم على البر، ولكنها بالمقابل تبيّن لهم عاقبة الضلال الذي يوقع بالمعاصي والآثام، وبارتكاب الذنوب.. فحريٌّ بالإنسان أن يستفيد من العبر والعظات التي تقدمها له آيات الكتاب المبين، فيتحقق له الشفاء من جميع عوامل الضعف في نفسه، وذلك هو الفوز العظيم..

٣ ـ الهدف الثالث: تبصرة الدعاة

والأمثال في القرآن الكريم تبصّر الدعاة بالطرق والوسائل التي يجب أن يستخدموها، وبالظروف والأجواء التي يمكن للناس قبول الدعوة في ظلها، والاستجابة للداعي فيما يقدمه لهم من التوعية، والترشيد والهدى..

فالدعاة للإسلام هم أهل عقيدة التوحيد، وقد جعل الله تعالى حمل الدعوة الإسلامية ـ التي اختاروها بأنفسهم أو هداهم بفضله لحملها ـ أمانةً في أعناقهم، تفرض عليهم إيصال دينه الحق إلى الناس بمفاهيمه الصحيحة، وتعاليمه القويمة، وأحكامه المبينة..

وإن هذا العمل لهو من أجلّ الأعمال وأعظمها أجراً عند رب

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٨.

المسهم

العالمين. والداعي إلى الله هو هذا المؤمن المسلم الذي وصفه ربهُ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وإن من أهم وسائل نجاح الدعوة أن يوصِلَ الدعاةُ دين الله الإسلام، إلى الناس من خلال مصدريه الرئيسين:

- القرآن الكريم فيجعلونه هدىً وسنداً وعضداً لهم في شتي شؤون الحياة، وذلك لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[2].

- والسنة النبوية الشريفة، فيكون لهم الرسولُ الأعظمُ القدوةَ والأسوةَ الحسنة، لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

ولا ريب بأن من يتبع هدى الله ـ عز وجل ـ ويستقي من شخصية الرسول ﷺ الكاملة، ويسير على خلقه العظيم، إنما يكون قد اهتدى إلى غاية وجوده في هذه الحياة الدنيا، واستطاع أن يقوم بالدور المؤثر على مسرح الحياة الواسعة، التي لا يمكن أن تستقيم إلا بتقوى الله.. وصحَّ ما رواه جابر بن عبد الله ﷺ عن أن

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢ ـ ٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

المسلم

رسول الله ﷺ قال: **«إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجلٍ بنى داراً فأكملها وحسَّنها إلا موضع لبنة، فكان من دخل فيها، فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة. فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء»**[1].

وكون محمد ﷺ خاتم النبيين يتوافق مع ختم النبوات به، لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ عندما بعثه بشيراً ونذيراً للعالمين، قد جعل رسالته الرسالة الخاتمة، التي فيها أكمل الإسلامَ وارتضاه ديناً لعباده، لتظل شريعته الشريعة التامة الخاتمة، ومنهاجها عن الإنسان والحياة والكون تاماً وكاملاً إلى يوم الدين. وبهذه الرسالة يمكن للإنسان أن يحقق سبل التكامل في الحياة.

وعلى هذا الأساس فإن المسلم بمقدار ما يقف على حقائق القرآن الكريم، وخصائص معانيه ومقاصده، ومزايا شموليته وكماله.. وبمقدار ما يتمثل بسيرة رسوله الأكرم، محمد بن عبد الله ﷺ فإنه يكون داعياً إلى الله، ومؤهلاً لأن يضيءَ سبل الناس بمشاعل الهداية، وأن يدلَّهم على النهج القويم.

ولذلك كان من خصائص الأمثال في القرآن الكريم أنها تساهم في تبصرة الداعي بالجو العام الذي يدعو في ظله إلى الإسلام، فينصرف على ضوء فهم وإدراك القضايا والشؤون والأمور التي يحتل بها هذا الجو، إلى العمل الجديّ، متوسلاً للقيام بمهمته الجليلة التوكل على الله، والثقة بالنفس، ومعرفة الناس، والوقوف على حاجاتهم ومصالحهم، ومن ثَم محاولاً وضع واقتراح الحلول التي يراها مناسبة وفقاً لأنظمة ومناهج وقواعد الإسلام التي تلبي تطلعات

---

(١) صحيح مسلم، باب الفضائل، ص٢٢.

المسهم

الناس مهما اختلفت عليها العصور، أو طالت بها الأزمنة.

٤ ـ الهدف الرابع: تبصرة المدعوين:

فكما تساهم الأمثال في القرآن الكريم بتبصرة الدعاة، فإنها كذلك تساعد المدعوين على الاستجابة إلى هدى الله ـ تعالى ـ بما تحمل من معاني الترغيب والترهيب.

فالترغيب بالخير والثواب، والترهيب من الشر والعقاب، هو أدعى للمدعوين أن يتفاعلوا مع معاني المثل المضروب، وأن يندفعوا في معرفة الحقيقة، فتستقرَّ في نفوسهم تعاليمُ الدين الحق، ويصبحَ إيمانهم بحقيقة وجود الله تعالى إيماناً ثابتاً، والتصديقُ بما أنزل على عبده ورسوله ﷺ عقيدةً راسخة.

أما كيف يلجأ المثل في القرآن الكريم إلى هذا النوع من الترغيب والترهيب، فعن طريق استعراض ما مرت به الأقوام من الأمم الغابرة، وما كانت عليه الجماعات البشرية من الإيمان أو الكفر. وفي هذا نهج عمليّ يجعل المدعوين يتمنَّون لو يكونون من القوم الناجين، لا من القوم الهالكين. ذلك أننا لو أمعنا النظر في تعاليم الإسلام وحقائق معانيه، لتبين لنا أن المعيار للتمييز بين الناس هو الإيمان، حيث يفرق الإسلام بين المؤمنين فيجعلهم في جانب، والكافرين والمنافقين فيجعلهم في جانب آخر.. ويرقى المثل في القرآن الكريم وهو يعتمد هذا التقسيم إلى ذروة البلاغة في المبنى والمعنى، وذلك عندما يقيّم كلاً من هذه الطوائف البشرية من النواحي النفسية والسلوكية والمجتمعية، ودون أن ينسى تقييم الإنسان في فرديته، وأنانيته، وعلاقاته بالآخرين.

المسهم

ويقسّم رسول الله ﷺ الناس ـ كما في القرآن الكريم ـ إلى ثلاث فئات أيضاً، ولكن على أساس ما بعثَهُ الله تعالى به من الهدى والعلم اليقين، وذلك بما ضرب مثلاً عن هذه الفئات بأنواع الأرض التي ينزل عليها المطر، فقال ﷺ: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلتِ الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب[1] أمسكت الماء فنفع الله تعالى به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وكان منها قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً**»[2].

فهذا الحديث الشريف يدل على تفاوت الناس في تلقي الإسلام ـ وما فيه من الهدى والعلم اليقين اللذين تنزَّلا على سيدنا محمدٍ ﷺ من ربه تبارك وتعالى ـ كتفاوت الأرض في تلقي الغيث. فالأرض الطيبة تفتح صدرها للمطر الذي أنزله الله تعالى عليها، فترتوي منه، ويختلط به نباتها فتخرج عطاءاتها بإذن الله نعمةً مباركة على جميع الكائنات. والأرض العقيم تختزن الماء في الحياض والآبار والبرك التي تنتشر فيها، فيشرب منه الناس، ويسقون أنعامهم، ويزرعون ما يحتاجون من الزروع، فكانت أرضاً ذات نفع.. أما الأرض الصلدة التي يغلب عليها كثرة الصخور والحجارة الملساء فلا يستقر عليها ماء، ولا يخرج منها نبات، فليس لها من غيث الله حظ في عطاء، ولا نصيب في نفع..

وهكذا هُمُ الناس في الاستجابة لهدي الإسلام والعلم اليقين به،

---

(١) الأجادب: الأراضي المجدبة التي لا تنبت شيئاً فهي سبخة، ولكنها بصلابتها تحفظ الماء الذي ينزل عليها.

(٢) البخاري، باب العلم، ص٢٠.

المسهم

فمن قبله على أساسهما بقبول الحق فإنه يحيا به ليكون من الصالحين الذين يمدون الحياة الإنسانية دوماً بخير زادٍ، ويأتي في طليعة هؤلاء المؤمنين الدعاة إلى الله، والمجاهدون في سبيل الله. ومن أغناه ربه الكريم بهدى الإسلام، فعلم حقائقه ومفاهيمه، انتفع ونفع الناس، فكان أحد العلماء أو المجتهدين. أما الذي لا ينفع معه هدىً، ولا موعظة، ولا يؤثر فيه علم ولا معرفة، فليس له في خير الإسلام أي نصيب، وهو وأمثاله هُمُ الكسالى والمتقاعسون، والمنكرون والمستكبرون.

وإن سيدنا ونبينا ورسولنا الأعظم محمد صلوات الله عليه إنما يدعونا ـ في هذا المثل ـ إلى التزود بهدى الإسلام، وطلب العلم النافع حتى نصل إلى علم اليقين في معرفة هذا الدين وحقائقه، وحتى نكون أهلاً للعمل الصالح لأنفسنا ولغيرنا، إذ لا أحد يقدر على مدِّ يد العون للآخرين إذا كان عاجزاً عن عون نفسه أصلاً. فلكي يكون الإنسان سوياً في التعامل مع غيره، وقادراً على التأثير في محيطه، ومصلحاً في الناس، فلا بد أن يكون صادقاً مع نفسه أولاً. وأما المنشق على ذاته، والكاره لوجوده، والساخط على حياته، فهيهات أن تظفر منه جماعةٌ بأي نفع، قد حُرمته نفسُهُ أساساً، باعتبارها أقربَ مكرمةٍ من مكارم الخالق عليه.

تلك هي بعضٌ من الخصائص والملامح التي تتميز بها الأمثال في القرآن الكريم، وبعضٌ من الأهداف والغايات التي تتوخاها، والتي هي ـ دائماً ـ من أجل الإنسان، وقد تنزَّلت على قدر الطاقة البشرية لتُبرز رحمة الله بعباده، وهو ـ سبحانه ـ ينشر أمامهم صفحاتٍ عن

المسهم

الإنسان والحياة والكون بآيات بيّنات، دالات ومعبّرات، فلا يفوت الناس شيء مما كان، ومما قد يكون.

ولما كانت أمثال القرآن على هذا القدر الكبير من الروعة، والعظمة والفائدة، فقد راع الكافرين، والمعاندين والمكذبين هذا النمط من الأسلوب القرآنيّ، وهذا اللون من معانيه العظيمة، فعمدوا إلى المواربة والتشكيك والمداهنة، مستنكرين أن يضرب الله الأمثال، وزاعمين أن الله، إذا كان على هذا القدر من العظمة، وأنه خالق السماوات والأرض كما يقول محمد ﷺ، فإنه أجل وأعلى من أن يضرب أمثالاً بأشياء حقيرة، تستدعي الاستغراب والعجب، إذ أي قدر للبعوضة حتى يضرب بها الله مثلاً؟! فجاءهم التوكيد الذي يدحض دعواهم الكاذبة، وجدالهم الباطل وذلك بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

ولم تكن الغاية من هذا المثل الرد على الكافرين والمنكرين وحسب، بل وللتمييز ـ كما يبدو واضحاً ـ بين المؤمنين المهتدين، والكافرين الضالين.

فأما الذين آمنوا، ومن صفاتهم الصدق والإنصاف، ومن دأبهم العمل بالعدل والسوية، ومن منهاجهم النظر في الأمور بعين العقل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

المسهم

والحق، فيعلمون أن المثل الذي يتنزَّل على النبيّ ﷺ هو الحق من ربهم تعالى، فلا يمكن أن يحتمل أدنى شبهة أو التباس، مما قد يعتور آراء الناس وأفكارهم. .

وأما الذين كفروا، وهم من غلب عليهم الكذب، وران على نفوسهم الضلال، وغطى على عقولهم الجهل، فقد استكبروا عن التصديق بهكذا مثل، فاستنكروه معاندين، وحكموا عليه بالبطلان منكرين، فقالوا: «ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟»

والحقيقة أنه لا مجال لأي إنكار أو جحود إذا كان المرادُ من المثل والتمثيل كشفَ المعنى، وبيانَ الغرض المطلوب، ولو جاء التدليل بأضعف المخلوقات، أو بأحقر الجمادات. فكيف ـ والحال هذه ـ يستغرب هؤلاء الكفار قول الله الحق، ويدّعون بأنه لا يجوز على الله ـ جل جلاله ـ أن يضرب مثلاً بمثل هذه المخلوقات؟ وكيف ينكرون المثل بالبعوضة في كلام الله تعالى، والناس يضربون الأمثال بالبهائم، والطيور، والحشرات، والهوام، والجماد والنبات؟ فالعرب ـ الذين أنزل القرآن بلغتهم ـ قد تمثلوا بأضعف الأشياء فقالوا: «أجمع من ذرة» و«أجرأ من ذباب» و«أضعف من فراشة» و«آكل من سوس». .

ذلك هو مفهوم المثل بأشكاله المتنوعة، أو بما يتفرع عنه من مترادفات تؤول إلى بيانه وتوضيحه، أو ما يتداخل فيه من معانٍ بيانية أو اصطلاحية، تهدف إلى تقريب المعنى، وتوضيح الفكرة بأحسن الصور، وأجملِ التعابير.

المسهم

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن بعض الأمثال التي وردت في هذا الفصل إنما أردنا الاستعانة بها لتدلَّ على الفكرة، أو على المعنى الذي يتوخاه المثل، وهي سوف ترد بتفسير أوسع في الفصول اللاحقة وبما يتناسب مع أجواء كل فصل، والأمثال التي يتناولها.

المسهم

العقيدة: مفهومها ومضامينها في الأمثال القرآنية

لقد خلق الله ـ الخبير اللطيف ـ في الإنسان خصائصَ ذاتيةً عديدةً هي التي ميّزته على سائر مخلوقات هذه الأرض. وعلى الرغم مما تحمل هذه الخصائص من قيمة للإنسان، فإن أهمها هو العقل، الذي به التفكير والإدراك، والتمييز والاختيار، وإلى هذا العقل ينسبُ كل تقدمٍ وارتقاءٍ في سلَّم الإنسانية، وفي تحقيق إعمار الأرض..

وقد أمكن بفضل هذا العقل الاكتشافُ والتفوقُ في ميادين العلوم والفنون والآداب، وإنشاءُ كل ما نشهد من مظاهر المدنية الحديثة.. وعلى الرغم من ذلك فإن أملَ الإنسان الكبير في الحياة الدنيا، الذي هو السعادة، قد بقي ـ على ما يبدو ـ بعيد المنال، ولم يتمكن العقل من إيجاد السبل الكفيلة بتحقيق هذا الأمل فعلاً. والسبب الرئيسيّ في ذلك هو عدم قدرة الإنسان على إيجاد التوازن ما بين عمله للدنيا، وسعيه للآخرة.. إذ غلّب أكثرُ الناس الأولى، فوقعوا في التخبّط والضياع، وفي القلق والشقاء على ما هو راهن في حياة الناس، مما لا يمكن لعاقلٍ منصفٍ إنكاره..

ويقيناً أن الذي أغرق الناس في هذا الخضم من التعب الفكريّ والنفسيّ هو الإهمالُ للعقيدة الصحيحة، والابتعادُ عن الإيمان

المسهم

الصادق، حتى بلغ بهم الحال لأن يقصوا شرع الله تعالى ومناهج رسالاته السماوية عن كافة شؤون الناس تقريباً، وأن يرفضوا الحكم بما أنزل الله. . وكان خيارُ الإنسان بدلاً عن تلك القيم المنزلة من رب العباد للعباد هذا البحر من العقائد المادية الدنيوية، ومن القوانين والأنظمة الوضعية التي لم تؤمِّن في تطبيقاتها ما يريح الناس، أو ما يبعد عنهم الهموم والأعباء التي تُرهق نفوسهم بصورة متواصلة، وذلك لأنها لم تراعِ ـ بشكل كامل ـ قواعد العدالة والإنصاف، واحترام الحقوق والواجبات، وإقرار العلاقات والمعاملات بشكل يحقق إنسانية الإنسان. .

ولعل أهم الدلائل على ذلك هو هذا الانحراف الأخلاقيّ في العمل والسلوك، وفي التعلق بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها، دونما وازعٍ من ضمير أو وجدان، ودونما مراعاةٍ للاعتبارات الدينية. . مما يعني، في مجمله، تغليبَ كل شيء على العقيدة الدينية، وإباحةَ كل شيء على حسابها. . ولولا لطف الباري (عز وجل) بعباده، وأنه يؤخرهم إلى أجل مسمّى، لما ترك على وجه هذه البسيطة أحداً، من جراء الفساد والفسوق والعصيان التي تملأ الدنيا بأسرها. . وهذا ما يستدعي وقفةً من الإنسان، وصحوةً من العقل للعودة إلى العقيدة السليمة التي فيها الخلاص حقاً. .

والعقيدة ـ كما جرى الاصطلاح عليها ـ هي ما انعقد عليه القلب من قضايا الغيب مثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما ينبثق عن هذا الإيمان من التصديق بيوم القيامة والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار. وأهمية هذا الإيمان، الذي هو ضرورة للإنسان مثل الماء والهواء والنور، أنه يصوِّب مسار حياته كلها،

المسهم

فيمنعه من ظلم نفسه، ومن ظلم الآخرين، ويجعله يحاسب نفسه الأمّارة بالسوء على ما يقترف من ذنوب ومعاصي بحق الله تعالى، وما يرتكب بحق عباده من أخطاء وجرائم.. فعندما يؤمن الإنسان بأن وراء هذه الحياة الدنيا بعثاً وحساباً، وأن جزاءَهُ مِن الثواب أو العقاب واقع لا محالة، وأن قاعدة هذ الجزاء هو قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[1]، أي لها ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر.. أجل فعندما يؤمن الإنسان بذلك، فإنه يخاف أن يلحق الضرر بأحد من الناس، أو أن يرتكب معصية تُغضب ربهُ تعالى.. وحقّ على الناس، أن لو اهتدوا إلى هذا الإيمان الصادق، لكان بإمكانهم أن يستبدلوا ما هو أدنى بالذي هو خير، وأن يعيشوا بالصفاء النفسيّ الذي هو صنو الفطرة، والذي هو الأمل المنشود لخلاصهم مما يحيق بهم من الشرور.

ومن منطلق هذا الإيمان الرحب، نعتقد ـ ونحن على يقين بإذن الله ـ أن عقيدة التوحيد هي العقيدة التي تقوم عليها السماوات والأرض، وأن هذه العقيدة، مبدأً، وديناً ودنيا هي: الإسلام. فالإسلام هو الدين عند الله، ولا يُقبل من العبد دينٌ غيرُهُ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

المسهم

والإسلام، بمفهومه الأصيل، هو الاستسلام لرب العالمين، الاستسلام لله الذي لا إله إلا هو، إلٰهاً واحداً في السماوات والأرض، وهو الخالق العظيم، الذي خلق الكون والحياة والإنسان بالحق، فلا عبادة إلا لله، ولا عبودية لمخلوق إلا لخالقه. والإسلام هو الدين الذي حمله جميع الأنبياء والمرسلين إلى أهل الأرض، وهو وحده الذي يحقق لهم الفوز والفلاح في الدارين..

وهذا الإسلام هو الذي أراده الله تعالى الرسالةَ الخاتمةَ، والدينَ الكاملَ، والنظامَ الأمثلَ للحياة. وقد بعثَ به خاتمَ النبيين ﷺ بشيراً ونذيراً للعالمين، كي يؤمن من آمن عن بيّنة، ويكفر من كفر عن بيّنة. وكتاب الله (تعالى) الذي يحمل هذا الإسلام هو القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وقد نزّله ربُّ العالمين عربياً من أجل أن نعقل، ونسير على ما يعظنا به ربنا تبارك وتعالى، فنهتدي إلى الإيمان الحق، وإلى تقوى الله. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[3]، إلى ما هنالك من الآيات المبينة التي تعرّف بهذا القرآن، وما ينطوي عليه من خيرٍ وصلاحٍ للعالمين..

ولكن يبدو أن غلبة الدنيا كانت أقوى على النفوس من انصياعها

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٧ و٢٨.
(٣) سورة النمل، الآية: ٦.

المسلم

لهذا الدِّين، فقام أهلها الذين جذبتهم أطماعها، ومتاعها، وزخرفها وزينتها يحاربونه منذ أول دعوة انطلق بها خاتم النبيين محمد ﷺ ولكنَّ الله ـ تعالى ـ بالغ أمره، فهيّأ لرسوله الأمين سبل النصر على أهل الكفر، والشرك والنفاق، ومكّن لدينه من أن ينتشر لتظهر أحقيتُهُ في مجال العقيدة الراسخة، وفي أنظمة الحياة القويمة.. إلا أن الجهل، والضلال، وعدم الانصياع للحق، وغواية الشيطان ـ التي لم تنقطع يوماً ـ كانت أقوى من ميل الإنسان للهدى والإيمان، فأبت على أعداء الله، وعلى أعداء الإنسانية إلا البقاء على كراهيتهم للإسلام، والعمل على إبعاده عن حياة الناس، فسخّروا جهابذة العلم، والتاريخ، والأدب لكي يضعوا الدراسات والأبحاث، وينشروا الأفكار والثقافات التي من شأنها أن تقوِّيَ النزعات المادية على مفاهيم هذا الدين.. ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بالحروب، والانقلابات، والدسائس والمؤامرات لبذر روح الفرقة بين المسلمين، وإدخال كافة عوامل الضعف إلى نفوسهم ومجتمعاتهم.. وكان لهم ما أرادوا فعلاً، فانكفأ المسلمون عن حمل دينهم نوراً مبيناً للهداية والرشاد، وغرقوا بالمشاكل والنزاعات، وهي مما لا يمكن تلافيه، واتقاء أخطاره إلا بالعودة إلى إسلامهم، وحمله دعوةً وحيدةً فريدة لخلاصهم وخلاصِ البشرية بأسرها..

وليس ذلك بعيداً عن متناول المسلمين، وقد كانوا حقاً أهل الخير، والبر، والصلاح كما وصفهم ربُّ العالمين بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

المسلم

أجل هذا هو السبيل الأوحد أمام المسلمين لإصلاح حياتهم، وإصلاح حياة الناس جميعاً.. لأن المسلم عندما يتعلم، ويتثقف بالثقافة الإسلامية ويفقه مفاهيم وتعاليم دينه القويم فإن قلبه يطمئن بعقيدة التوحيد السامية، فيتحوّل بداهةً إلى إنسانٍ نقيِّ السريرة، محمود الخصال، حسنِ السلوك، سمْحِ التعامل مع الآخرين.. وهي جميعها المقومات التي تؤمّنه من الانحراف والضلال، وتبعده عن الزلل والخطأ، فيصير قادراً على التغيير التدريجيّ وصولاً لبناء المجتمع الإنسانيّ الفاضل.. والمسلمون حين يكونون على المستوى الإسلاميّ اللائق، فإن مجرد المقارنة ما بين عقيدتهم والعقائد الأخرى تجعلهم قادرين على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، وقادرين على سبر غور الإسلام وإدراك ما فيه من غنًى وفيض، ومن سماحة ويسر، وما في منهاج هذا الدين من سبل للنجاح والفلاح.. وهذه هي سبل ومقومات الدعوة التي حمل لواءها نبيُّ الإسلام، ورسول الهدى محمد ﷺ.. فكان لزاماً علينا نحن المسلمين أن نقوم بأداء واجبنا، فننهل من معين القرآن المبين، ونقتديَ بالسيرة النبوية الشريفة امتثالاً لطاعة الله تعالى ورسوله الكريم.

ولما كانت الأمثال في القرآن المجيد تدل على كثير من عناصر العقيدة التي يجب أن تنعقد عليها قلوبنا، فإننا سنحاول في هذا الفصل أن نتناول ـ بعون الله تعالى ـ الآياتِ القرآنيةَ الكريمةَ التي من شأنها أن تبرز أهم تلك العناصر لما فيها من الهداية إلى سبيل الله العليّ العظيم.

الفقرة الأولى: الإيمان بحقيقة وجود الله (تعالى)

إن الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى هو ضرورة، بل وحاجة

المسهم

للإنسان كي يطمئن قلبه، وينأى عن التصورات التي توقعه في القلق النفسيّ، وفي سوء العمل الحياتيّ، لشدة ما قد تكون عليه تلك التصورات من التناقض والتضارب. بل ويعتبر الإيمان بحقيقة وجود الله ـ تعالى ـ هو القضية الوحيدة في نظر الإسلام التي تبنى عليها، وتنطلق منها سائر القضايا الأخرى غيبية كانت أو مُشاهدة. ولذلك كان الإيمان ـ لغةً ـ هو التصديق مطلقاً، ومنه معنى «الأمن» الذي هو ضد الخوف، لأن المؤمن يأمن من عواقب الأعمال السيئة في الدنيا والآخرة، إذ يسير على الطريق المستقيم، والسبيل القويم الذي يهديه إليه إيمانه.

والإيمان ـ في الاصطلاح ـ هو التصديق القلبيّ بما جاء به الأنبياء والمرسلون على مدار الزمان منذ آدم عليه السلام وحتى خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ. وقد بيّن الرسول الأعظم معنى الإيمان، في حديث صحيح، من أن جبرائيل الأمين عليه السلام سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال له: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»**[1].

وقد جاءت الأركان الأربعة الأولى لهذا الإيمان في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

وجاء الإيمان بالقدر ـ حكايةً لما يقال للكافرين وهم يُعذبون في

---

(١) سنن ابن ماجة المقدمة ص٩، الترمذي باب الإيمان ص٧٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

المسهم

النار ـ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[1].

أما الإيمان باليوم الآخر فالآيات فيه كثيرة جداً، ومنها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّۢا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4]. وهذا الإيمان هو أساس عقيدة التوحيد الكائنة في كلمة «لا إله إلا الله». «فتتقرر في الضمير وحدانية الاعتقاد، ووحدانية العبادة، ووحدانية الاتجاه، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه. ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل في التفكير والشعور والسلوك، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء، وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله».

والقرآن، وهو كتاب الله ـ عز وجل ـ الذي حمل عقيدة التوحيد كاملة بشتى قضاياها ومفاهيمها ومقاصدها، قد تضمن في كثير من آياته الأمثال التي تبيّن أن الله تعالى ـ وحده ـ هو الخالق العظيم،

---

(١) سورة القمر، الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

المسلم

والمدبر الحكيم، الذي ليس كمثله شيء، وأن البراهينَ والأدلةَ على الخلق والتدبير موجودة في السماوات والأرض: من أكبر الأجرام في الكون، إلى أصغر حشرة في باطن صخرة.

وإن الأمثال الدّالة على حقيقة وجود الله تعالى، وعلى تفرده بالألوهية والربوبية، والتي تستدعي من الإنسان الإيمان المطلق بالله تعالى، فيمكن أن نستخلصها من الآيات التي وردت فيها على النحو التالي:

أولاً ـ الله هو الخالق العظيم

١ ـ الله خالق السماوات والأرض ليس كمثله شيء

يقول تبارك وتعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

الله خالق السماوات والأرض، قد أبدعهما ابتداءً، وأنشأهما إنشاءً، ولا مجال لعباده أن ينكروا هذه الحقيقة أو يجادلوا فيها، وهو سبحانه الذي يقول بأنه خالقهما ومبدعهما. وكما أوجد هذا الخلق العظيم (من السماوات والأرض) فقد جعل لنا من أنفسنا أزواجاً، بما أودع في الخلق الآدميّ من نظام يؤلف بين الرجل والمرأة، فيسكنان إلى بعضهما، وينجبان البنين والبنات. وكذلك الشأن في الحيوان بما جعل لكل نوع نظاماً خاصاً يقوم على التزاوج بين الذكر والأنثى للتوليد. وبمقتضى هذا النظام، سواء في الإنسان أو الحيوان يكون التكاثر، واستمرارية الخلائق في أجناسها، وفي أنواعها وألوانها..

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

المسهم

والخالق للأنفس البشرية، والخالق للأنعام والطيور والأشياء، والذي يملك أن يخلق ما يشاء غيرهم ـ ودون أن يكون لأحدٍ من مخلوقاته قدرة على الخلق ـ لأنه لا يملك سرّ الخلق والإحياء، إلا الله تعالى، فكان حكماً أنه ليس كمثله شيء..

والبرهان أن من يوجد الأشياء لا يمكن أن تكون هذه الأشياء مثله، لأنها من صنعه وإيجاده. فالإنسان الآليّ يبقى آلياً من غير لحم ودم مهما أوجد فيه صانعه من القدرات والإمكانيات. والنسخ الذي يدَّعونه بين كائن حيٍّ وكائنٍ حيٍّ آخر يبقى الناسخ فيه مقصِّراً عن أن يدرك سر الخلية التي استعملها، والتي على أساسها أجرى استنساخه لحيوان آخر، أو لشجر أو زرع آخر.. وهنا يتجلى الخالق العظيم، الذي يملك سرَّ الخلق، وسرَّ ما أودع في الخلايا من مقومات الخلق، فكانت هذه الصفة ـ الخلق ـ وحدها كافية للبرهان على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء.. وبما أنه هو الله العزيز الحكيم، وأنه ربُّ السماوات والأرض، وربُّ العباد والخلائق جميعاً، فقد دلَّ ذلك على أنه هو السميع لما يقال، البصير لما يفعل، بل هو السميع لجميع المسموعات والمبصر لجميع المبصرات.. وقد نفى ـ جل جلاله ـ أن يكون له نظير أو شبيه، فحكم العقل، وحكمت الفطرة بنفي هذا النظير أو هذا الشبيه..

فسبحان من ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير..

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٧.

المسهم

إنَّ هذا التوجيه من الله (تعالى)، وهذه الدعوة من رب السماوات والأرض للتذكّر بعظمة الخالق هما للوعظ، والتربية والتدليل على أن من يخلُقُ لا يمكن أن يكون كمن لا يخلُقُ.. فهذه مقاربة يحكم العقل بصدقها وأحقيتها، دون مواربة أو افتراء أو بهتان.. ومثل هذا التذكير والدعوة يأتيان في «سورة النحل» بعد استعراض آيات الخلق، وآيات النعمة، وآيات التدبير التي تدلُّ على أن الله تبارك وتعالى هو وحده الخالق المدبّر، والذين يعبدون من دونه لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون.. ويتجلّى هذا الاستعراض بما ملخصه:

- إن إنذار النبيين والمرسلين للناس إنما كان ليؤمنوا بأنه لا إله إلا الله، فاتقوا يا عباد الله غضب الله..
- إن الله قد خلق السماوات والأرض بالحق، فتعالى عما يشركون به علواً كبيراً..
- إنه تعالى قد خلق الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين لربه تعالى الذي خلقه، ومنكرٌ لبعثه بعد موته وفنائه..
- إنه تعالى قد خلق الأنعام وفيها منافع للناس، وجمال للاستمتاع بها، فهل يشكرون هذه النعمة العظيمة، أم يجحدون فضلها عليهم؟..
- إنه تعالى قد خلق من غير الأنعام أنواعاً أخرى من الحيوان للركوب والزينة هي أيضاً من نعم المولى على عباده..
- إنه تعالى قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا تعلمون أيها الناس، أفلا توقنون..
- وإنه تعالى قد أنزل من السماء ماءً منه تشربون، ومنه ينبت الشجر

المسهم

والزرع على اختلاف أجناسه، وكثرة أنواع ثماره وألوانه، فهل تقدرون هذا الفضل العظيم؟..

- وإنه تعالى قد سخَّر لكم الليل والنهار، والشمس لتستوي حياتكم على الأرض، مثلما سخَّر لكم كل ما في هذه الأرض لمنافعكم ومصالحكم، وسخَّرَ لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها، وأجرى لكم الفلك في مياهه لتطلبوا الرزق، وتقيموا أواصر التعارف والعلاقات، كما سخر لكم النجوم من فوقكم وجعلها علامات تهديكم إلى تحديد الجهات وسبل الأسفار التي تنقلكم إلى ما فيه خيركم وصلاح أحوالكم..
- إنه تعالى قد ألقى في الأرض جبالاً تحفظ توازنها من الاهتزاز، وجعل فيها الأنهار والطرق التي تهديكم إلى مقاصدكم..

ثُمَّ وبعد هذا الاستعراض في آفاق السماء ورحاب الأرض يأتي التعقيب الذي هو حريٌّ بأن يؤثر في النفس وهي مهيأة له: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾..

فالعاقل المنصف، أياً كانت درجة تفكيره وتقديره، يدرك ولا ريب بأنَّ مَن يَخلُق ليس كمثل من لا يَخلُق، بل ولا سبيل إلى المقارنة على الإطلاق، لا سيما وأنَّ في هذا الاستعراض للخلق يكون دائماً التأكيد على أن تلك المخلوقات إنما هي آيات لقوم يتفكرون، ولقوم يعقلون، ولقوم يذّكرون.. فلعلهم من خلال التفكير، والتعقل، والتذكير يهتدون إلى أن الله ـ جل جلاله ـ وحده خالق كل هذه الأشياء، وأنه ـ عز وجل ـ وَحدَهُ الذي له صفة الخلق، خصوصاً وأن واقع حياة الناس تثبت عجزهم عن خلق مثل السماوات والأرض، أو مثل البحر أو النهر، أو مثل الشمس أو القمر، أو مثل الليل أو

المسهم

النهار. . فهذا العجز هو الدليل القاطع على أن الخلق لله تعالى، وأن الخالق هو أحق بالعبادة، فسبحانه وتعالى عما يشركون به من خلائق وضيعة، مهينة لا تقدر على شيء. ولذلك كان التأكيد على التذكير بهذه الحقيقة، وعلى هذا النحو من الاستفهام التقريريّ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتذكرون ذلك بالبديهة، والفطرة؟!

وقد يأتي تفسير قوله تعالى على ثلاثة أوجه:

الأول : أن الذين يعبدونهم، ويدعونهم من دون الله ـ تعالى ـ وسواء أكانوا من الكواكب أو من الأصنام أو من الأناسيّ أمثالهم فإنهم لا يخلقون شيئاً، بل هم يُخلقون ـ وإذن ـ فلا خالق إلا الله وحده.

الثاني : أن المقابلة بين من يَخلُق ومن لا يَخلق جديرة بأن تُظهر هَوانَ تلك المخلوقات التي يعبدونها، ويدعونها من دونه (تعالى) بل وهي خليقة بأن تظهر مقدار فقر تلك المخلوقات لخالقها.

الثالث : أن يدرك العالم والجاهل، العاصي والطائع، المهتدي والضال هذه الحقيقة التي لا تحتاج إلى برهان وهي أن: من يخلق ليس كمن لا يخلق، فيكون هذا الإدراك بمثابة هزة عنيفة لهم جميعاً. . فيراجعون حساباتهم في تصور مَنْ هو أحق بالعبادة والتقديس، ومن له الفضل عليهم في تلك النعم التي يدعوهم للتفكير بها، وإدراك معانيها من حيث إن حياتهم تقوم عليها، وأنه بدونها ـ أو بدون نعمة واحدة منها ـ لا يستطيعون حياة، ولا يدركون منالاً.

المسهم

ولذلك فإنَّ نصوص القرآن تنبِّه بعد استعراض تلك الحقائق التي أتت على ذكرها إلى شيء هام في حياة الناس وهو أن كل ما خلق الله (تعالى) إنما هو نعمة لهم، وأن هذه النعمة أبعد من أن تعد أو تحصى، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1]. وكل تلك الحقائق تقود إلى الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى الذي ليس كمثله شيء.

٢ ـ ما خلق الناس ولا بعثهم إلاَّ كنفس واحدة

يقول الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[2].

ماذا لو حاول الإنسان أن يحصي عدد الخلق البشريّ، عبر العصور المتطاولة في الزمن، فهل يقدر على ذلك؟ محال هذا الأمر لكثرة ما مرَّ على هذه الأرض من الأنفس، وآخرها هذه المليارات الستة التي يحصونها اليوم.

أما الاستحالة فلا تحتاج إلى دليل، لأن النظام الطبيعيّ الذي أوجده الخالق في بني البشر، والذي يقوم عليه وجودهم، يحكمه أمران: الحياة والموت، فهذه أعداد تخلق كل يوم، وهذه أعداد تموت كل يوم، وعجلة الزمان تدور، ونظام الحياة والموت لا يحول ولا يزول.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

المسهم

وسنة الخلق في الجنس البشريّ قد بيّنها القرآن الكريم في آيات كثيرة، ومنها هذه الآية في سورة لقمان التي تثبت أن خلق الناس جميعاً كخلق نفسٍ واحدة، وأن بعثهم جميعاً بعد الموت كبعث نفسٍ واحدة. ومن هذه الآية نستدلُّ على أن الخلق البشريّ قد بدأ من نفس واحدة، هي النفس الأولى، وأن تلك النفس ـ كما تهدينا إليه آيات أخرى وفي بضع سور من القرآن ـ كانت آدم أبا البشر جميعاً، وقد كان خلقه كما تخبرنا به نصوص القرآن في سور أخرى غير سورة لقمان التي نحن بصدد الآية ٢٨ منها، من طين الأرض، من صلصال كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه فصار بشراً سوياً. وحواء هي من نفس آدم، وبضعة منه، أي هي من تراب هذه الأرض كزوجها آدم.. وقد قضى أمر الله (تعالى) أن يودع فيهما سنةً ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل، وهي سنة الاجتماع والإنجاب، والتي من جرائها تكاثرت ذريتهما، عبر الزمان، فهذه هي حقيقة خلق البشر الذين كانوا من نفس واحدة في الأصل.. وإن القادر على خلق النفس الأولى، لقادر على أن يخلق مثلها بقدر ما يريد، ودونما أي حسبان للأعداد والأرقام، ولا لتواريخ الولادة وتواريخ الوفاة.. فالأمر كله كائن، ولكنَّ سرَّ الخليَّة التي تنشأ منها الحياة هو من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى)، إنما وبمقتضى هذا السرّ كان خلقنا ووجودنا نحن البشر، وسيظل هذا الوجود السر مغلقاً على الإنسان طالما هو كائن على هذه الأرض وإلى يوم القيامة.

ثم إن من صفات الله (جلت عظمته) أنه هو الذي يحيي ويميت، وقد بيّن لنا القرآن أن الله (تعالى) يحيي الموتى يوم القيامة، ويبعث من في القبور، كما يثبته قوله المبين: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ

المسهم

فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[1]. ويسوق القرآن شواهدَ حيةً ـ عاشها الناس وشهدوها بأم العين في أزمانهم ـ على إحياء الله تعالى للأموات، ومن الأمثلة على تلك الشواهد الحية: بعث بني إسرائيل وفتية الكهف.

- **أما بعث بني إسرائيل** من بعد موتهم، فذلك عندما طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يَرَوُا اللّهَ جهرة، فأخذتهم الصاعقة وأبادتهم، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلَّهم يشكرونه على إحيائهم من جديد. ولكنهم لم يفعلوا، بل لجّوا في الكفر، ونكران النعم التي أنعمَ بها الله تعالى عليهم، فظلموا بذلك أنفسهم، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

- **وأما فتية الكهف** فهم الذين أماتهم الله ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم من جديد ليبرهن سبحانَهُ على أنه قادر على البعث مثلما هو قادر على خلق الموت والحياة وذلك لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾[3]. فالبعث، إذن، من الحقائق الثابتة التي يقررها القرآن الكريم، وقد دلَّ على ذلك بالصاعقة التي أرسلها على بني إسرائيل فأخذتهم، أما عدد أولئك الأموات فلا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧.
(٢) سورة البقرة، الآيات: ٥٥ ـ ٥٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٢.

المسهم

يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، وكذلك الأمر بالنسبة إلى فتية الكهف الذين أماتهم الله ولا يعلم عددَهم غيرُهُ (سبحانه وتعالى)، فكما أحيا بني إسرائيل، كذلك فقد أحيا أولئك الفتية.. وبعثُ هؤلاء وهؤلاء من البراهين التي تهدينا إلى حقيقة البعث يوم القيامة، وأن هذا الأمر يسير على الله العزيز الحكيم، فكما هو قادر على أن يبعث نفساً واحدة، فكذلك هو قادر على أن يبعث كل الأنفس التي أماتها، لأن القادر على النشأة الأولى، قادر على النشأة الثانية وهي أيسر وأسهل.. ولكن ليس الأمر كذلك ـ من اليسر أو السهولة بالنسبة للخالق القدير ـ بل الأمر أن الله هو الخالق، وهو كما يخلق النفس الواحدة يخلق جميع الأنفس، وأنه هو الذي يحيي ويميت، فكما يميت ويبعث النفس الواحدة كذلك يميت جميع الأنفس التي خلقها ثم يبعثها من بعد موتها.. وهذا هو الحق من ربك، فلا تكونن أيها الإنسان من الممترين، الذين يشكون في حقيقة البعث، أو يكذبون بهذه الحقيقة، لأنه تعالى سميع لما تقول من الكذب، بصير بما تفعل من الإنكار.. فكن أيها الإنسان على يقين بأن «الله سميع بصير» يسمع كل مسموع، ويبصر كل مبصر، لأن من مقتضى صفاته في الخلق أنه سميع لكل شيء في الوجود، وأنه بصير بكل شيء في الوجود، فلا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، «فسبحان من يملكُ السمْعَ والأبصارَ والأفئدة، وهو اللطيف الخبير».

أما الأصل في خلق الإنسان فيبين لنا القرآن أنه من التراب، بينما الأصل في خلق الجان أنه من النار

المسهم

يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

أجل، هذا هو أصل الخلق للإنسان والجان، وإنشاؤهما من العدم..

أما الإنسان فأصله من الصلصال أي من الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة إذا ضرب بشيء. وهذا الصلصال يشبه بعد يباسه الفخار الذي هو من طين يطبخ على النار حتى يصير خزفاً. والمعنى أنه كما يصير الطين اللازب بعد أن يشوى على النار فخاراً، هكذا جُبل آدم، أبو البشرية من طين الأرض، ثم نَفَخَ فيه خالقُهُ من روحه، فاستوى على متانته وصلابته في هذا التكوين من الجسد والنفس والروح..

ولا يملك الإنسان أن يناقش خلق الناس من طين الصلصال من أجل أن ينكره أو يستهجنه، بل على العكس من ذلك إن العلم البشريّ يؤكد هذه الحقيقة القرآنية بعدما ثبت أن جسم الإنسان يحتوي على عناصر كثيرة من عناصر الأرض ـ إن لم تكن جميع عناصره منها ـ وبخاصة هذا التراب الذي يؤلف اليابسة..

ثم أودع الخالق العظيم في آدم وزوجه حواء ـ بعد خلقها بضعةً منه ـ النظام الذي تتولّد فيه ذريته، فكان هذا الوجود البشريّ بأسره، وبما يحفل من العظات الدالة على هذا الخلق، على الرغم من أن أصله من الطين، ومن الماء المهين. يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن

(١) سورة الرحمان، الآيات: ١٤ ـ ١٦.

المسهم

دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[1] . . ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2] .

وأما الجان فَخَلَقَهُ ربه من مارج من نار (والمارج ـ لغةً ـ الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد). فيكون أصل الجان من النار. وخاصّيته قوة الحركة وسرعة الانتقال تماماً كما اللهب الذي ينبعث من النار صعوداً في حركته. .

ونحن، في الحقيقة لا نعلم عن مكنون خلق الجان وخصائصه غير ما دلَّنا عليه القرآن هنا في «سورة الرحمن» وفي غيرها من سوره الكريمة التي تبيّن قدرات الجن وطاقاته من قبيل: إمكانية استراق السمع في السماء، والغوص في البحار، وإنشاء الأبنية والمحاريب وغيرها من الأشياء التي كان الجان يصنعونها وهم يعملون بين يدي النبيّ سليمان عليه السلام عندما كان يبني الهيكل في بيت المقدس.

وإذا كانت حياة الإنسان أكبر شاهد قائم على ما يتمتع به من المدارك والأحاسيس التي أودعها فيه خالقة الكريم، والتي أهّلته للاستخلاف في الأرض وإعمارها، فإن الخصائص المودعة في الجان، والقوى الخارقة التي يملكها هي أيضاً من الشواهد التي تثبتها آيات القرآن الكريم لتكونَ أيضاً من الأدلة على عظمة خلق الجان. .

ففي هذا الخلق للإنسان والجان نعمة ما بعدها نعمة،

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٢) سورة السجدة، الآيات: ٦ ـ ٩.

المسهم

ووجودهما في الأرض ـ وإن كنا لا ندري أين يسكن الجان أو يقيمون ـ دليل إضافيّ على نعمة الوجود بأسره. . .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. . فهذه الآيات أو الأدلة والشواهد على الخلق، وهذه الطاقات والقدرات التي هي من خصائص خلق الإنسان والجان، هل يمكن تكذيبها وجميعها من الحقائق القرآنية الثابتة تدركونها بالبصيرة، وتسمعونها في واقع حياتكم اليومية أيها الناس، أو تعلمونها عن حياة الجان من خلال ما ينص عليه القرآن؟ أجل هل يمكن تكذيب تلك الحقائق؟ فإذا كان الجواب: لا، إذن فبأي آلاءِ أو آياتٍ أو خلائقَ غيرِها يمكن للإنسان أو الجان أن يكذبا، أليس كل ما في الوجود شاهداً على أن الله ـ جل جلاله ـ هو الخالق العظيم، وهو المدبر الحكيم؟

٣ ـ ليس الذكر كالأنثى في الخلق

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[1].

كانت حنة، زوجة عمران، عقيماً، فلم تلد. وتقدَّم بها العمر، وهي على تلك الحال، حتى بلغت سنَّ اليأس ـ عند المرأة ـ ولم يعد لديها أمل بالولادة. . ولكن ما يشاء الله (تعالى) وما يريد لعباده، فإنَّ علم العبد يقصُر عنه، ولا يدركه أبداً. ولذا فإن امرأة عمران لم تكن لتدري أن ربَّ العالمين قد قدَّر لها أن تنجب مولودة ستكون سيدةً في

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٣٥ ـ ٣٧.

المسهم

نساء العالمين، فعاشت على تقواها وعبادتها طاهرة القلب، صافية النية، صادقة الإيمان، دون أن يؤثر عقمها على صلتها بربها الكريم، لا بل وزادها سنُّ اليأس الإكثار من الصلاة، وذكر الله والتعبُّد لخالقها السميع العليم.

وقيل: إنها كانت تستظل ذات يوم تحت شجرة، فحركت في نفسها عاطفة الأمومة رؤيةُ عصفورةٍ ترفُّ حول فرخها، فدعت الله تعالى أن يهب لها الولد، دونما شعور منها بما هي عليه من العقم واليأس، لأن المؤمن وفي مثل تلك اللحظات التي يكون فيها اتصاله بربه مفعماً بالصدق والإخلاص قد ينسى واقع حياته المرير، ويتوجه بناظريه إلى مولاه الكريم ليحقِّق له أمنيةً غالية كانت تراوده في حياته. هكذا كانت حال امرأة عمران، فقد تاقت نفسها إلى الولد، فأتاها الإلهام بالدعاء النابع من صميم القلب إلى الله، أن يهبها مولوداً، ثم لتفيق على استجابة الدعاء، وتحقق الرجاء..

فلما أحسَّت حنَّةُ بالحمل، لم تأخذها الدهشة، إنما وجدت نفسها تجثو على الأرض، غارقة في السجود لله تعالى، وهي تحمده وتشكره على ما أفاض عليها من نعمة عظيمة. ولم تجد في تلك الآونة بالذات خيراً من التعبير عن الاعتراف بفضل الله عليها إلاَّ النذر بأن يكون ما في بطنها محرراً من أوضار الأرض وقائماً على عبادة ربه بصدقٍ وإخلاص إذ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾..

لقد كانت نية تلك المرأة منصرفةً لأن يكون حملها ذكراً، ومحرراً من أعباء الدنيا إلا الإخلاص في طاعة الله، والقيام على خدمة بيت المقدس، جرياً على العرف في زمانها، إذ كان يوضع المولود الذكر، الذي نُذر لأن يكون محرراً، في بيت المقدس، أو في أي بيت

المسهم

آخر للعبادة، فلا يبرحه حتى يبلغ الحلم، فيُخيَّر بين الإقامة في المعبد، وتكريس نفسه لعبادة الله، أو الخروج إلى الحياة والعيش مثل سائر الناس. هكذا كانت نية حنة امرأة عمران، إذ نذرت أن يكون ما في بطنها ابناً صالحاً، مؤمناً يكرس نفسه للعبادة التي ترضي الله تعالى، حتى يكبر ويقرر ما يشاء لنفسه، ولكن دون أن يحيد عن واجبات الطاعة، وتقديس الله رب العالمين.. ودعت ربَّها أن يتقبل منها نذرها، لأنه السميع لدعائها ونذرها، العليم بنواياها وما في قلبها.

وحان الوقت ووضعت حملها، فلما وضعتها قالت: ربي إني وضعتها أنثى!. إنها لم تضع ذكراً كما كانت تأمل. وهذا يعني أنها لا تستطيع الوفاء بنذرها، وأنَّ عليها أن تعتذر لربها، علَّه يقبل اعتذارها، فليس الأمر بيدها بما حملت، وما وضعت، بل الأمر لله فهو الذي صوَّر الأنثى في رحمها، وهو الذي خلقها ومنحها الحياة، وهو الذي يقبل العذر من عبد مؤمنٍ صادقٍ. ولذلك تابعت من خلال اعتذارها، وبعفوية صادقة فقالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ للوفاء بالنذر، ووضع هذه الوليدة في بيت المقدس، وفقاً للأعراف والتقاليد السائدة يومذاك، التي كانت ترى في الأنثى مخلوقاً ضعيفاً، ولا تحتمل مثل الذكر مواجهة الأعباء، ولا سيما ما تتطلب الخدمة في بيت المقدس من إقامةٍ بعيدةٍ عن الأهل، ومن مشاق العبادة والالتزام بالفروض والطاعات. هذا فضلاً عن قدسية هذا البيت التي قد لا تتوافق مع إقامة أنثى فيه، لما يلحقها من حيضٍ، وبالتالي من عدم إمكانية الطهارة الدائمة بعد البلوغ.. فتلك العادات الموروثة التي لا تجيز الالتحاق في بيت المقدس إلاَّ للذكور دون الإناث، والوهن الذي خلقه الله

المسهم

تعالى في المرأة، ونية امرأة عمران بأن يكون ما في بطنها قائماً على عبادة الله في بيت المقدس بالذات.. كل تلك الأمور قد حدت بها للاعتذار من ربها، ورجاؤها أن يَقبل منها عذرَها، وأن يتقبَّل منها نذرها لأنها على يقين بأنه تعالى هو السميع العليم.

وعلى هذا الأمل، وبمثل هذا الرجاء سمَّت ابنتها «مريم»، أي العابدة أو الخادمة ـ على لغة ذلك الزمان ـ وكأنَّ إلهاماً يقول لها بأنَّ هذه المولودة سوف تنشأ فعلاً للعبادة في الهيكل، وسوف تكون ملتزمة بكامل فروض العبادة، وأداء مهام الخدمة في رحاب المسجد الكبير..

واستكمالاً للنذر الذي قطعته على نفسها، وترجمة للعهد الذي التزمت به مع ربها أن يكون ما في بطنها محرراً من شوائب الدنيا، فقد ظلت على نفس التوجّه في الإخلاص وطلب العون من الله أن يحفظ وليدتها، وأن يصونها وذريتها ـ في الحياة الدنيا ـ من الشيطان الرجيم، فقالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وهكذا فإننا نجد أن مثل هذه الاستعانة بالله العليّ الكبير إنما تنمُّ عن إلهام تستبق فيه تلك المؤمنة الزمن، وهي تتطلع إلى وليدتها تنعم بغدٍ مشرق ملؤه الإيمان، والطاعة والرضى، وهي عطاءات من الله لا تتحقق إلا أن يحفظ سبحانه وتعالى هذه الوليدة وذريتها معها، من غواية الشيطان الرجيم، المطرود من رحمة الله، بحيث تكون مريم وذريتها بمنأى عن الوساوس التي يدسّها الشيطان في نفوس بني آدم، فتدخل هي وذريتها في زمرة المؤمنين الصالحين، وتتظلل بظلال رحمة ربِّ العالمين.

ولذلك يأتي التعقيب القرآنيّ الذي يؤكد هذه الحقيقة، بقوله

المسهم

تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي أنه سبحانه تقبّلها ـ وهي أنثى ـ بقبول حسنٍ، هو قبول الرضى والنعمة، وأنشأها ورعاها رعاية حسنةً تتوافق مع قبولها الحسن، فكانت ـ كما يروى ـ تكتمل في اليوم بقدر ما يكتمل غيرها من المواليد في الأسبوع.. وذلك كله جزاءٌ للأم على الإخلاص الذي عمر قلبها، وعلى تجرّدها الكامل في نذرها، وإعدادٌ للمولودة فيما اختيرت له من دون نساء العالمين.

ويبين القرآن الكريم حقيقة هذا الاختيار بقوله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[1].

أي واذكر ـ يا محمد ـ ما أثبتناه في هذا القرآن من خبر مريم بنت عمران، إذ اعتزلت أهلها، حتى بعد بلوغها الحلم، لتقوم على عبادة الله (تعالى) في المحراب الذي أعده لها كافلها زكريا عليه السلام، في ناحيةٍ شرقية من بيت المقدس، بحيث تكون بعيدة عن أقاربها، وفي مكان محجوب عن عيون الناس، فلا يراها فيه أحد، ولا يقتحم عليها خدرَها أحد. إذ إنَّ في الحجاب ما يحجب ويخفي عن الآخرين، وما قد يقطع التعامل معهم، كما كانت عليه الحالة التي نشأت فيها مريم بنت عمران. وبالفعل فقد كان زوج خالتها، النبيّ زكريا عليه السلام هو الذي تكفّل رعايتها، وتحمل مسؤولية إقامتها في

(١) سورة مريم، الآيات: ١٦ ـ ١٩.

المسهم

بيت المقدس، وفقاً لما أعدَّ الله له من دورٍ يؤديه في حفظ تلك المولودة، وعزلها عن أي سوء. فمنع أيّ إنسان من الدخول عليها في محرابها، فلا يصعد إليها أحد إلاَّ هو. وقطع عنها الخدمَ والكهانَ فلا يطعمها، أو يقوم على خدمتها غيره.

وهكذا كانت تربية مريم، في رحاب بيت المقدس، وفي أحضان النبوة، تُنشَّأُ وحيدةً في محرابها على الطهارة، والعفاف والعبادة حتى جاء الوقت لتلقي النبأ العظيم، فأرسل إليها الله العزيز الحكيم «روحاً» منه، هو الملك جبريل الأمين عليه السلام الذي عبَّر عنه النص القرآنيّ بلفظ «روحنا» لأنه مخلوق ملائكيّ، روحانيّ، ولأنه حملَ نفحةً من روح الله لينفخها في هذه الإنسانة البتول الطاهرة حتى يتحقق أمره تعالى بما قدَّر في سابق علمه المكنون. وزيادة الضمير «نا» تعظيماً لنفسه (جلَّ جلاله) وأنه هو الذي بعث هذا الروح لينفذ أمره في خلقه كما يشاء ويريد. وكذلك كانت زيادة الضمير تأكيداً على جلالة الأمر الذي يريده ربُّ العالمين من هذا البعث ليكون الأمر خالصاً لله وحده (ومثاله أن نقول: فؤادنا، عقلنا، كتابنا.. تأكيداً على ما في ذاتنا أو فيما يخصّنا دون غيرنا) وجاءها الملك فتمثل لها بشراً سوياً، على هيئة إنسانٍ، سويّ الخَلْق، بهيّ الطلعة، وذلك وفقاً لمقتضى التكليف الذي حمله من ربه.. وهنا يمكن أن نتمثَّل في خيالنا مشاعرَ تلك العذراء الطاهرة، البريئة من الدنس، والتي نشأت في جو الإيمان، والإخلاص في العبادة، كيف يكون حالها، وقد دخل عليها هذا الإنسانُ فجأة، ومن غير استئذان كفيلها زكريا عليه السلام، فماذا يمكن أن تقول له؟ وبماذا يمكن أن تشعر أو تفكّر؟

كان من الممكن أن تأخذها الدهشةُ ـ مثل أي عذراء غيرها ـ

المسيرة

لمرآه. وكان من الممكن أن يتملكها الخوف لو أن جبريل عليه السلام ظهر أمامها بصورته الملائكية، فتنهار عزيمتها، ولا تعود قادرة على محادثته، أو سماع ما يقوله لها، فيفقد التكليف غايته. ولكنَّ هذا في عرفنا، ووفق قصورنا نحن الآدميين. أما عند الله تعالى فكل شيء يخضع لما يشاء، ولما يدبِّر، ويُحكم.. فأرسل إلى مريم بنت عمران الملك جبريل على صورة إنسان يكلمها بلغتها ـ لا إيماءً فتنفر، ولا إيحاءً فيجفل قلبها ـ ويوصل إليها الرسالة بجلالها.. ولذلك فإننا نجدها وعملاً بما زوَّدها به ربها من التقوى التي تحمل معاني القوة، والشجاعة، ومواجهة المواقف ـ بالعزة والحق ـ تبادره بما ينمُّ عن طهرها وعفافها، فقالت له: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾؛ فهو الرحمان الذي يعصم من الزلل، وهو الرحمان الذي يستعانُ به، ويُلاذُ إليه في وقت الشدة، ولذلك كانت استعاذة مريم بالرحمان من هذا الزائر، وهي تقول له: إني أعوذ بالرحمان منك، ومن دخولك عليَّ إن كنت تخاف الله تعالى، وتتقي غضبه ونقمته. (وقد استعملت لفظة «تقياً» لأن التقيّ إذا ذُكِرَ الله أمامه خشع قلبه، فزادت تقواه، وزاد حذره وخوفه من الله، لأنه أصلاً لا يعمل إلا بما يرضي الله، وبما يبعد عنه سخطه)..

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ طاهراً، مطهّراً من ربه تعالى؛ وليجعله آيةً للناس، وكان أمراً مقضياً!.

ويمكن أن يتمثَّل خيالنا، مرة أخرى، ما قد تشعر به فتاة عذراء مثل مريم عليها السلام من خوفٍ، وخجلٍ وهي تسمع من هذا الإنسان ما تسمع في خلوتها، بعيدة عن الأعين، لأنه في العادة لا يمكن أن يهب رجلٌ غلاماً لامرأة إلا بملامستها.. أما مريم فإنها ترفض أصلاً

المسهم

ملامسة أي رجل لها، لأنها قد نُشِّئت على العبادة والطاعة، ونذرت لها نفسها منذ أن تفتحت مداركها على وجودها في بيت المقدس. ولذلك كان جوابها واضحاً، ومعبراً عمّا هي عليه، فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1]، أي فكيف تهب لي غلاماً وأنت لن تمسّني، ولن تجرؤ على ملامستي، مثلما لم يمسسني بشر من قبل، لأنني لم تكن لي يوماً بغيةٌ لا في رجل، ولا في غلام، وحياتي قائمة على الطهارة، وعبادة الله ربي الذي يعصمني منك، ومن أي بشرٍ غيرك!..

قال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[2]، فالأمر إذن ليس ملامسةً، بل نفخة من روح الله فتحمل منها، وهو أمر هين على الله تعالى، حتى يتم أمره المقدر كما شاءَ في سابق علمه.

وكان أمر الله (تعالى) الذي يقول للشيء كن فيكون، ونفخ فيها جبريل، فحملت مريم، وولدت عيسى سلام الله عليهم جميعاً.

٤ ـ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن.. قد أحاط بكل شيء علماً.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[3].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٢١.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

المسهم

إن الجو الذي نزلت فيه هذه الآية المباركة هو في الواقع جو الدعوة الإسلامية التي تخاطب أولي الألباب، أولئك الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم ربهم ينفقون. وأولئك هم المتقون الذين يحذرون المعصية، ويخافون من العذاب، ولذلك ساروا على منهج القرآن الذي يحمل هذه الدعوة التي جعلها الله (تعالى) سبيله القويم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. . .

إذن فتلك الدعوة إلى أولي الألباب هي من الله. . وهذا القرآن هو من عند الله. . وهذا النبيّ الكريم الذي يتنزل عليه القرآن قد أرسله الله هدى ورحمة للعالمين. . وهذا ما يوحي بأن كل شيء في الوجود هو من الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، والذي أوجب أن يتنزَّل أمره تعالى بينهنَّ بالحق، ليعلم المؤمنون أن الله على كل شيء قدير فيما خلق، وفيما أنزل، وفيما رحم وقدَّر في السماوات والأرض؛ وليعلموا كذلك أن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فلا يغيب عن علمه شيء ـ ولو بمقدار ذرة ـ في السماوات، والأرض مما كان، ومما يكون. .

هذا ولا بد من الوقوف على ما يدلُّ عليه ظاهرُ الآية المباركة، وهو أن الله (تعالى) قد خلق سبع سماوات، ومن الأرض مثلهن (أي في المثلِيَّة في الخلق لا في العددية). وليس في القرآن الكريم آيةٌ أخرى تشير إلى خلق سبعٍ من الأرضين. ولا خلاف في أن السماواتِ هي سماءٌ فوق سماء. أماّ الأرضون فتحدث عنها ابن عباس ﷺ فقال: «إنها سبع أرضين ليست بعضُها فوق بعض، يفرق بينهنَّ البحار، ويُظِلُّ جميعهن السماء». وقد يكون ابن عباس ﷺ قد قصد بسبع أرضين أقسام اليابسة على هذه الأرض. . والله تعالى أعلمُ بصحة ما

المسهم

استأثر به علمُه، واشتبه على خلقه، فلا يعلم معنى ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ إلا هو سبحانه، إذ لم يميّز أحدٌ حتى الآن بين وجود الأرضين، كما لم يميّز أحدٌ بين السماوات، ولم يجرِ تحديدٌ لهذه السماء أو تلك، وإن كانت اكتشافات علم الفلك تتحدث عن الكواكب والنجوم، والمجرات الكبيرة التي لا تحصى في الكون العظيم..

فالمهمُّ أنَّ هنالك كوناً شاسعاً، مترامياَ الأطراف لا تحدُّهُ إلى الآن معرفة الإنسان. وهذا الكون ـ بخلقه الهائل وسعته العظيمة ـ غير متروكٍ بلا تدبير، بل هو محكوم بنظام دقيق، محكم وقويّ، لم يتطرق إليه الخلل، ولا أصابَهُ العطل. وهذا بحد ذاته أعظم دليل على أن الله على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء في السماوات والأرض علماً، فسبحان الله العليّ القدير، وسبحان الله العليم الحكيم!.

٥ ـ الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلُقَ مثلهم.

يقول تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[1].

وهنا العجب العجاب من الكفار والمنكرين لحقيقة خلقهم، ومن ثَمَّ لحقيقة بعثهم. ولذلك يأتي النص على شكل استفهام تقريريّ: أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثل هؤلاء الناس الذين هم أصغر بكثير من هذا الخلق العظيم؟!.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٩.

المسهم

أو لم يروا أن الذي خلقهم قادرٌ على أن يخلق مثلهم، ويأتي بأناس غيرهم يعبدونه، ويتَّقونه؟!

بل وكيف ينكرون أن الله (تعالى) قادر على إحيائهم، وعلى بعثهم للحساب، وهو الذي قد جعل لبني البشر أجلاً محدداً لا ريب فيه هم بالغوه، عندما يدركهم الموت الذي لا مفرَّ منه، والذي هو حقيقة راهنة في حياة الناس أجمعين، ولا أحد قادر على أن يفلت منه، مهما طال به العمر؟! وأن موعد هذا الأجل لا يعلمه إلا الله تعالى.

إذن فالبراهين ساطعة على أن الذي خلق هذا الكون الكبير والهائل، بما فيه من السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم، لأن القادر على الإنشاء ابتداءً قادر على إعادة هذا الإنشاء، بل وهو عليه أسهل.. فأية غرابة إذن في أن يؤمنوا بالبعث والحساب؟!.. لا غرابة في ذلك أبداً عند ذوي الألباب. ولكن الظالمين لأنفسهم بالكفر والجحود يأبون الإقرار بهذه القضية، ويصرون على أن ينكروا حقيقة البعث، مثلما يصرون على الكفر الذي هو منتهى الظلم للنفس لأن عاقبته حتماً الخسران المبين حيث يساقون يوم الحساب إلى جهنم وبئس المصير..

٦ ـ القرآن شاهد حقٍّ يقينيّ على وجود الخالق العظيم كحقيقة النطق

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٢٠ ـ ٢٣.

المسلم

في هذه الآيات الكريمة إيقاظ للإنسان من مألوف العادة فيما يرى، ويسمع، وحثٌّ له على ألا ينظر إلى الأشياء من حوله دون تبصّر، وتذكّر، واعتبار.. فما على الأرض من البحار والأنهار، ومن الجبال والأودية، ومن الأشجار والنباتات، ومن الحيوانات والطيور والحشرات.. هذه كلها براهين حسيّة على حقيقة وجود خالق عظيم، وأنه على كل شيء قدير فيما يخلق، وفيما يَهَبُ هذه المخلوقات من أنماط الحياة، وفيما يسنُّ لها من السنن التي تربطها بخالقها الواحد الأحد..

والله ـ تعالى ـ يخصّ المؤمنين بالذكر هنا، لأنهم عباده الذين صدقوا، وآمنوا بما أنزل إليهم من ربهم على لسان رسله، واعتقدوا بجوارحهم اعتقاداً يقينياً بأنه لا إله إلا الله، إله واحد في السماوات والأرض، وأنه خلق كل ما في الوجود بالحق، لأنه هو الحق، فكان اعتقادهم هو التصديق الجازم الذي يوافق الفطرة، ويناسب الإدراك، ويلامس الشعور، ويقوّم السلوك.. ولذلك كانوا على يقين أنَّ كلَّ ما هو كائن من حولهم، أو في السماوات من فوقهم هو من خلق ربهم تبارك وتعالى. وإن إيمانهم الصادق هذا هو الذي يرفعهم إلى مرتبة «المؤمنين»، الذين يرون أن كل ما في الوجود من آيات هي الأدلة الساطعة على حقيقة وجود الخالق العظيم، والمدبّر الحكيم.

وقد أيقن قلبُ الشاعر هذه الحقيقة، فقال معبّراً عنها:

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحدُ

هذا في الأرض، وما يحيط بالناس من الأحياء، والجمادات والأشياء.. ولكن أليس في أنفسنا أيضاً آيات للمؤمنين؟ ولفظة «أنفسكم» كما وردت في التعبير القرآنيّ هي إشارةٌ لكل إنسان، في

المسهم

تكوينه من جسدٍ ونفس وروح.. لأن في خلق الإنسان من الآيات ما يؤكد الخصائص والصفات الذاتية التي أودعها الخالق فيه، وهي التي جعلته بشراً سوياً، وفي أحسن تقويم.. فلو أدركنا ما في أنفسنا، أي ما في خلقنا كله، من دقيق الصنع، وعجيب التركيب، وعظيم التآلف والتناغم بين ما تنطوي عليه ذاتنا في الداخل، وما تظهر عليه صورتنا في الخارج، لأيقنّا أن ذلك الخلق ليس عبثاً، وأن القادر على هذا الخلق لا يمكن أن يكون إلا الله العزيز الحكيم.

وإن في القرآن المبين كثيراً من الآيات التي تدل على أصل الخلق البشريّ. وتلك الآيات جميعاً تدعونا إلى التبصّر بخلقنا حتى نستدلَّ على الخالق العظيم، ومنها قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[1]. فهنا تبيان لبعض أطوار الخلق البشريّ. وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم آيات تدل على أطوار غيرها من مثل تكوينه جنيناً في بطن أمه، ثم ولادته طفلاً يواجه الحياة، ثم نموّه شاباً قوياً يملأ الحياة بالحركة، ثم صيرورته كهلاً وقد دبَّ فيه الضعف، ثم يُردُّ في النهاية إلى أرذل العمر فلا يعلم من بعد علم شيئاً.. وهذا كله قد اكتشف العلم منه الكثير ويزيد اكتشافاً يوماً بعد يوم مما يذهل الألباب في دقة الإنشاء، والتركيب والتنظيم للهيكل البشريّ، وما تنطوي عليه نفس الإنسان من الملكات والقدرات والطاقات، التي تجعله ـ جميعها ـ بشراً سوياً.. وهي ـ كلها ـ تنطق بأن الله (تعالى) هو الخالق العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

---

(١) سورة القيامة، الآيات: ٣٦ ـ ٣٩.

المسهم

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ . .

فالماء ينزل من السماء بأمر الله (تعالى). وقد جعل ـ جل شأنه ـ من الماء كل شيء حيّ. فالأحياء على الأرض البرية والأحياء في جوف الأرض المغطاة بالماء، قد جعل منها تعالى أرزاقاً وأقواتاً للناس، ولغيرهم من الكائنات الحية. . وتلك الأنواع التي تؤكل من النبات، ومن الطير والحيوان البريّ والمائيّ هي مما لا يُعدُّ ولا يحصى. . وقد سخَّرها الخالق غذاء لا يمكن بدونه للإنسان أن يحيا، أو أن تستمر حياته على هذه الأرض. . بيد أن أمر هذه الأرزاق هو بيده (تعالى) وقد قسمها لعباده بما قدَّر وشاءَ ـ مما هو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومما قد يزيد فيه أو ينقص منه ـ لأنه سبحانه هو اللطيف بعباده ومخلوقاته، الخبير بأحوالهم وحاجاتهم، فيرزقهم بهذا المقدار أو ذاك لأنه هو الرزاق الوهاب، والغنيّ المغني.

والناس يجهدون، ويكدون في الحياة طلباً للرزق، وهذا أمر شرعيّ، وواجب عليهم لأنه لا يجوز للإنسان أن يكون عالةً على غيره طالما أنه قادر على العمل وجني الرزق من الكسب الحلال. وفي طبع هذا الإنسان ميل لنيل خير أوفر، ورزق أكثر، وهو كثيراً ما يعِدُ نفسه بذلك. . فعليه أن يعمل، ويأمل، ويترك الأمر لله سبحانه وتعالى، لأن النتائج دائماً بيد الله عز وجل، فلا شريك له في ملكه، ولا حسيب له في رزقه. .

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ . .

وإنّ قسمَهُ ـ وهو رب السماوات والأرض ـ لعباده من هؤلاء الأناسيّ الصغار، الذين يملك أن يتصرَّف بهم، وبحياتهم وأرزاقهم

المسهم

ومصائرهم كيف يشاء، لقسمٌ عظيم تقشعر منه أبدان المؤمنين، الموقنين بآياته تعالى وجليل قدره..

فالله (عز وجل) يقسم لعباده من الناس بأنه رب السماوات والأرض، وأنه رب كل هذه المخلوقات، وما قدَّر لها في السماء والأرض من الأرزاق.. وذلك كله حق يقين على أنه هو الخالق العظيم، والمدبر الحكيم.. وهذا الحق أصيل، وثابت لا ريب فيه مثل ما أنهم ينطقون بهذا الكلام الذي يخرج من أفواههم. فإذا كانوا لا يشكُّون بأنهم ينطقون ـ وهو أمر لا يمكن الشك فيه ـ فكذلك كل ما أتى به القرآنُ، وهو كتاب الله الحق المبين، هو أمر غير قابل للشك، بل هو إيمان صادق جازم لدى الموقنين.

ثانياً ـ إن الله يعلم أنَّ لا رازق سواه

يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

الواضح أن المشركين والكافرين يعبدون من دون الله (تعالى) ما لا يملك لهم رزقاً، لا من السماوات التي ينزل منها المطر وهو مصدر

(١) سورة النحل، الآيات: ٧٣ ـ ٧٦.

المسهم

الرزق، ولا من الأرض وما فيها من النبات والحيوان والمعادن، وشتى الأحياء والجمادات التي تكون مورداً للخير.. بل والذين يعبدونهم لا يستطيعون في الحقيقة أن يرزقوهم شيئاً لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وهذا أمر واقع في حياة الناس، فمن يملك مالاً أو رزقاً يقدر أن يعطي منه، ومن ليس لديه شيء فلا يستطيع أن يعطيَ شيئاً، فكيف إذا كان مفتقراً بذاته إلى الرزق والعطاء؟!

ولذلك يأتي التقرير الحاسم ـ وهو على شكل الأمر للعباد جميعاً كافرهم ومؤمنهم ـ بألا يجعلوا لله (عز وجل) أشباهاً يشركونهم به في العبادة، أو في سواها، لأنه سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن التشبيه والمثال. فأما المؤمنون فيعلمون ذلك حق العلم، وهم أصلاً يقومون على عبادة ربهم العليّ الكبير ولا يشركون به شيئاً.. بينما الكافرون أو المشركون فلا يعلمون حقيقة ربهم تبارك وتعالى، ولذلك فهم يقومون على عبادة آلهةٍ مزيفة، يشبّهونها بالله (تعالى) في العبادة، ويشركونها معه في أرزاقهم وأموالهم، فتعالى الله عما يشركون..

وعندما يحذرهم الله (جل جلاله) ألاَّ يضربوا له الأمثال فذلك لأنه يعلم أن لا مثل له، وأنهم ـ الكفار ـ لا يعلمون ذلك، وبالتالي فلا يعلمون عاقبة العبادة الباطلة من دونه تعالى.. والفارق كبير، بل لا مجال للمقارنة بين علم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء، وبين جهل الكافرين والمشركين الذي لا يزيدهم إلا ضلالاً، مثلما لا تزيدهم عبادتهم الباطلة إلا كفوراً، فكان لا بد من الأمر الحاسم والجازم بألا يضربوا لله (تعالى) الأمثال، وألاّ يجعلوا له في تصوّرهم أو خيالهم، ولا في تفكيرهم أو شعورهم شبيهاً أو نظيراً أو مثيلاً.. أما

المسهم

التشبيهات، وأياً كان نوعها، فما هي إلا ضلال وكفر وصدٌّ عن سبيل الله.

ولكي يكون لهذا الأمر مدلولاته، وتأثيراته فإنه تعالى يضرب في كتابه المجيد مثلين يقرِّب بهما إلى العقول، والأذهان الحقيقة التي غفل عنها الكفار والمشركون، وهي أنه ليس لله (تعالى) مثال ولا شبيه، وأنه من الجائر أن يساووا في العبادة بين الله الخالق وأشياءَ من خلقه، وكلهم عبيد له..

- أما المثل الأول فقد ضربه الله تعالى للعبدِ المملوكِ ـ ومثله الأجير أو المستخدم ـ الذي لا يملك شيئاً من الرزق، أو من حرية التصرف، وللسيد الحر ـ ومِثْله صاحب العمل أو المؤسسة ـ الذي رزقه ربه تبارك وتعالى رزقاً حلالاً فهو ينفق منه في السر والعلانية، ومن دون قيود عليه، قد تمنعه من هذا الإنفاق الذي يبذله في سبيل الله، اعترافاً منه بالفضل والنعمة عليه.. فهل يتماثل هذا وذاك، ويتساويان في الإرادة الحرة، وفي حق الملكية، والتصرف في هذه الملكية، وهل يعقل أن يكون هذا الحر المالك مثل ذلك العبد المملوك؟ أبداً لأن الفوارق بينهما كبيرة في كل شيء، ولذلك لا يتماثلان حالةً، ولا وضعاً أو إرادة.. وقد عبَّر سبحانه وتعالى عن تلك الفوارق بينهما بعبارة ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ﴾، ولم يقل: هل يستويان؛ لأنه أراد بالعبد المملوك «الجنس» وليس التخصيص، كما أراد بعبارة: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ الكل وليس الفرد.. فإذا كان هذا التفاضل موجوداً فعلاً بين إنسانٍ وإنسانٍ، بحيث لا يتشابهان أبداً، فهل يجوز أن يُماثَل ويُشابَهَ بين الله (جل جلاله) مالك الملك،

المسهم

وبين عبادٍ له لا يملكون إلا ما رزقهم، ولا يتصرفون إلا بما وهبهم؟!

فالحمد لله أن لا يكون له ـ سبحانه ـ مثيل في الخلق، والحمد لله أن لا يكون له ـ سبحانه ـ شريك في الملك.

فهو الله الذي لا إله إلا هو، وعبادته وحده حق على عباده، وإقرارهم بالعبودية لربهم نعمة تستحق الحمد والثناء، إلا من كان جهولاً فلا يعلم جليل قدر خالقه، أو من كان ضالاً فلا يقدِّر فضل ربه عليه!

والجاهلون بهذه الحقائق هم كثير، لأن أكثر الناس لا يعلمون أن الله ـ جلت عظمته ـ لا مثل له، فكانوا مثل ذلك العبد المملوك الضالِّ عن معرفة الحقيقة، وعن الاهتداء إلى ما يريد، فلا يقدر، بالتالي، على شيء.. بل ولعلَّ الذين يضلّون عن معرفة حقيقة وجود الله تعالى، وحقيقة الألوهية والربوبية هم أضلُّ من ذلك العبد المملوك!...

ـ وأما المثل الثاني فقد ضربه تعالى لرجلين: أحدهما أبكم، أخرس لا يفهم ما يقال له لأنه لا يسمع أصلاً ما يقال له ـ باعتبار أن حاسة السمع تكون عادة مفقودة عند الأبكم ـ ولا يُفهِمُ ما يريد لأنه عاجز عن النطق. وهذا الرجل ثقيل العبء على وليّ أمره، الذي لا ينتفع منه بشيء، أينما يوجّهْه لا يهتدِ إلى وجهته، بل يضلّ عنها، وحيثما يصل يرجع من المكان الذي استطاع الوصول إليه دون أن يأتيَ منه بخير..

والآخر رجل عاقل، ومدرك اعترف بفضل الله تعالى عليه بما

المسهم

وهبه من الجوارح، ومن الحكمة والهدى، فقام بين الناس يأمر بالعدل والإحسان، ويرشدهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم. وهذه كلها من مزايا الاستقامة التي وطّن النفس عليها، ومن صفات الخُلُق العظيم الذي يأبى على الإنسان إلا أن يكون على صراط مستقيم في كل ما يقول، وما يفعل..

فهل يستوي هذا العادل المصلح مع ذاك القاصر الضعيف؟ أبداً لا يستويان مثلاً، ولا يتساويان قيمةً وقدراً.. إذن فأين إدراك المشركين بالله تعالى الذين يجعلون له أنداداً من التماثيل، والأحجار والأشجار، وكيف عميت عقولهم ونفوسهم عن عبادته (تعالى) وهو الحاكم العادل، والهادي إلى الصراط المستقيم؟ عن ابن عباس أنه قال: «إنه مثل الكافر والمؤمن، فالأبكم هو الكافر، ومن يأمر بالعدل هو المؤمن».

وإذا كانت هذه هي الحقيقة بأن لا مثل لله سبحانه وتعالى، فقد كان جديراً بالبشر أن يؤمنوا بحقيقة وجود الله تعالى، وألاّ يجعلوا له شبيهاً أو مثيلاً في أي شيء من صفاته التي تدل على تفرده بالألوهية المطلقة، والربوبية المطلقة.

ثالثاً ـ مَثَلُ نور الله تعالى في السماوات والأرض:

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۚ

يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

لقد أنزلَ اللَّهُ تعالى الآيات، وضربَ الأمثالَ، وقصَّ القصص، لتكون سبيل هداية للمتقين، وأداة زجرٍ للعاصين.. وهي التي تحمل الأحكام لحماية المجتمع الإسلاميّ من أن تشيع فيه الفاحشة والمنكر، ولصون كرامة الأسرة، والحفاظ على البيت المؤمن فيظل طاهراً، نظيفاً لا تُنتهك أعراضه، ولا يُعتدى على حرماته.

وفي هذه الآيات كذلك تربية لنفوس المؤمنين على الطاعة، والأدب، واللياقة، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والاستعفاف عن الشهوات، أي إجمالاً التحلي بالفضائل التي ترفع من قيمة الإنسان، وتبعده عن مهابط الإغواء، والانقياد وراء المتع والأهواء.. وهذا كله فضل من الله وهداه لعباده الصالحين.

أجل، هو «الله نور السماوات والأرض».. فهو سبحانه يهدي بنوره الخلائق إلى سبلها، وينير بنوره السماوات والأرض كي تهتدي إلى مساراتها وفق الانتظام المقدَّر لها، فلا تتعثر، ولا تتخبط في المصادفات..

والإنسان، هذا المخلوق على الأرض، ماذا يريد غيرَ نور الله ليشعر باطمئنان القلب، وراحة الضمير؛ وماذا يبغي غيرَ نور الله ليحرك طاقات الشعور، وينمي مدارك الفكر، وكلَّ ما جُبل عليه كي يكون قادراً على العطاء لحياة أفضل.

ومن يقف على دلالة النور الذي يريده النص القرآنيّ، يتجلى له

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٤ و٣٥.

المسهم

ذلك النور الوضيء، الهادي الذي يفيض حتى يغمر الكون كله، ثم ينفذ إلى الجوارح، ويحرك الحنايا، ويوقظ الحواس فيتجرَّدُ ناسوت الإنسان من كثافته وثقله، ليستحيل روحانيةً وانطلاقاً، ومعرفة وعلماً، وراحة وحبوراً نفسياً.

فإذا الكون كله ـ بما فيه ومن فيه ـ نور طليق من القيود والحدود، تتصل فيه السماوات بالأرض، والأحياء بالجماد، والبعيد بالقريب، وتلتقي فيه الشعوب والدروب، والطوايا والظواهر، والحواس والقلوب..

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ومن هذا كان قوام وجودها ونظامها، وكان جوهر سننها ونواميسها.. ولقد أمكن للإنسان أن يكشف بعضاً من خصائص هذا الضوء الذي ينبعث في كل ناحية من الكون الفسيح، فقال العلماء بأنه يسير أو ينتشر بسرعة ثلاثماية ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، وأن مراصدهم تلتقط بعض الأضواء التي تحتاج إلى ملايين السنين الضوئية حتى تصل إلى الأرض، بل وبعض النظريات الحديثة تقول بأن بعض الأضواء قد التقطت وهي آتية منذ مليارات السنين الضوئية، وأن في الكون من المجرات والأجرام والنجوم والكواكب ما لا يمكن عده ولا إحصاؤه، وكلها ينبعث منها الضوء. وكذلك فإن العلماء قد أدركوا طرفاً من حقيقة النور في الكون عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة ـ بعد تحطيم الذرة ـ إلى إشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور، ولا مادة لها إلا النور. فذرة المادة مؤلفة من كهارب وألكترونات تنطلق عند تحطيمها في هيئة إشعاع قوامه النور.. ولكن رغم كل ما توصَّل إليه علم الإنسان فإنه لا يُعدُّ إلا دليلاً جزئياً، ويسيراً على أنه هو ﴿اللَّهُ نُورُ

المسهم

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.. والإنسان، في الحقيقة، عاجز عن أن يتدبَّر سرَّ هذا النور في السماوات والأرض، ومدى تأثيره على انتظام الكون، وتسييره وتدبيره.. ولكي ندرك معنى هذا النور بما يمدّنا به من مقومات الحياة، وبما يملأ به قلوبنا من الإيمان، فقد ضرب الله (تعالى) لنا مثلاً عليه بالمشكاة والمصباح والزجاجة، وهي من الأشياء المادية المحسوسة، التي من شأنها، في تفاعلها مع بعضها، أن تقرب إلى أفهامنا كيفية تفاعل الكون بأسره من جراء نور الله (تعالى). فالمشكاة هي عبارة عن كوة في الحائط، وقد أحيطت بالزجاج البلوريّ الصافي، وفي وسطها وضع مصباح للإضاءة هو عبارة عن الفتيلة، وهذا المصباح وضع في زجاجة هي عبارة عن القنديل، وهذه الزجاجة كأنها كوكب من الدرّ (اللؤلؤ) الذي يدرأ الظلام من شدة نقاوته. أما وقود المصباح فمن زيت شجرة مباركة، زيتونةٍ لا يعلم ماهيتها إلاَّ الله، لأنها ليست من شجر هذا الزيتون الذي ينتشر في شرق الأرض وغربها، بل إن لها خصائص ذاتية يكاد زيتها يُضيء ولو لم تمسسه نارٌ تبعث عادةً على اشتعاله وإضاءته. فإذا أشعلنا المصباح فإن النور يملأ الكوة وينعكس على الزجاج البلوريّ حتى يبدو متوهّجاً، متألقاً بالضياء.. فهذه الصورة الحسية مثال على النجوم والكواكب التي تملأ السماوات، وكلها تشع بالنور وهي تتحرك في مساراتها، وتنتظم في مداراتها، بما فيها الأرض التي تنعم بضوء الشمس ونور القمر وهما يتجليان على سطحها في النهار والليل..

ومثل النور الذي يضيء الكوة كذلك نور الهدى الذي يملأ القلوب فيحييها بالإيمان. فكان حقاً على الإنسان أن يدرك ولو بعضاً من معاني هذا النور حتى يطمئن قلبه بالإيمان فتتحرك طاقاته

المسهم

الشعورية، وتنمو مداركه الفكرية فلا يعبد إلاّ الله، ولا يسير إلا على هدى النور المبين.

وهكذا يصل التعبير القرآنيّ ما بين الحقيقة والمثل، فيرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذي ما جعل إلاّ لتقريب الأصل الكبير إلى الفهم. ويبقى الضوء الذي يسطع بالأنوار المتلألئة التي تنبعث من نور الله في السماوات والأرض.

ومما قاله المفسرون في التأويلات المعنوية للشجرة المباركة:

أولاً ـ أنها مثلٌ ضربه الله (تعالى) لنبيه محمد ﷺ.. فالمشكاة هي صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح نبوته.. وهي لا شرقية لا غربية، أي لا يهودية ولا نصرانية، توقد من شجرة النبوة التي هي إبراهيم عليه السلام. يكاد نور محمد ﷺ، الذي يحمل النبوة، يبين للناس ولو لم يعترف به أهل الكتاب، وقد دعوا من ربهم العليّ العظيم كي يبشروا بمجيئه والتحدث عنه قبل بعثه.

ثانياً ـ أنها مثل عن شجرة النبوة. فالمشكاة هي إبراهيم عليه السلام، والزجاجة ابنه البكر إسماعيل عليه السلام، والمصباح محمد ﷺ الذي هو من نسلهما. وهي لا شرقية، أي لا نصرانية لأن النصارى كانوا يصلُّون إلى الشرق، ولا غربية، أي لا يهودية لأن اليهود كانوا يصلون إلى الغرب. «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار» يعني أن محاسن صفات وأفعال محمد ﷺ تظهر للناس قبل أن يوحى إليه. و«نور على نور» أي أن محمداً ﷺ هو نبيٌ من نسل نبيّ.

ثالثاً ـ إنها تعبير عن القرآن بنور هدايته. فالقرآن يهدي للتي هي

المسهم

أقوم، ويكنّى عن القرآن بالنور. فكما أن المصباح (المشبَّه به) يستضاء به، فكذلك القرآن يهتدى به، ويعمل به، وهداه لا ينتهي إلى مدى محدود. فالمصباح ـ إذن ـ يُعنى به القرآنُ الكريم، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة لسانه وفمُهُ، والشجرة المباركة هي شجرة الوحي الذي حمل آيات القرآن بحيث تتضح حججه وبراهينه للناس حين تدبّر معانيها، والتفكر بدلائلها العظام.

«نور على نور».. أصله من نور، وضوؤه من نور، وهو يسري في كل شيء خلقه الله (تعالى) حتى يهب له الحياة والوجود. وهو نور دائم في السماوات والأرض ولا ينقطع، ولا يحتبس، ولا يخبو؛ فحيثما توجه إليه القلب رآه، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه، وحيثما اتصل به المؤمن وجَدَهُ..

وهكذا يظهر المثل في النص القرآنيّ حاملاً أسمى المعاني والدلالات، موحياً بما للإيمان من عظيم الأثر والفعل في قلب المؤمن، لأن أمره منوط بالله (تعالى) الذي يهدي لنوره من يشاء، ويوفقه في إصابة الحق بالنظر، والتدبر، فلا يضلّ عن الصراط المستقيم.

أما من لم يتدبَّر، ولم يؤمن، فمثله كالأعمى سواء عليه جنح الليل الدامس، أو ضَحوَةُ النهار الشامس، فهو في هذه الدنيا أعمى عن النور الذي يضيء قلبه وبصيرته، وفي الآخرة أعمى، وضالٌّ عن الصراط المستقيم الذي يقود إلى الجنة، فلا هداية له في الدنيا والآخرة، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ من أجل أن يقرّب لهم معاني هذا

المسهم

القرآن وما فيه من الآيات البيّنات، فتنفذ إلى عقولهم ومداركهم، وتستقر في قلوبهم ونفوسهم، فيهتدوا بنوره الحق.

«والله بكل شيء عليم».. عليم بالإنسان، وبطاقاته على الإدراك والاستيعاب؛ وعليم بما ينزل إليه فيقرّب الحقائق إلى ذهنه حتى يكون قادراً على التمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وعليم بأهل الإيمان الذين يعبدون الله الذي هو نورُ السماوات والأرض، وهو العليم بأهل الكفر الذين يعبدون آلهة مزورة لا تعدو عبادتها أن تكون بمثابة الظلام للنفوس، والعتمة للقلوب، وبسبب هذا الظلام العقليّ والقلبيّ ابتعد الكفار عن عبادة الحق، وعن نور الله (تعالى)..

إذن فهذا القرآن يبين لنا، بالمثل المحسوس، أن الكون كله نور على نور. وأن هذا النور يسري في كل الوجود حتى يهب له الحياة. وهذا ما يجعل المثل في القرآن سبيلاً لتبيان ما للإيمان من أثر فعّال في قلب المؤمن، باعتبار أن هذا الإيمان مستوحًى من نور الله (تعالى) الذي يهدي لنوره من يشاء.. ومن أحق بهذا الهدى من النبيّ الأعظم ﷺ الذي أدرك حقيقة نور ربه (عز وجل)، ففاض به قلبه وهو عائد من الطائف، حيث خذله أهلُها، فنظر إلى السماء عائذاً بنور وجهه الكريم في هذا الدعاء النبويّ الشريف: **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة»**[1].

وهو نفسه هذا النور الذي فاض به قلبه المؤمن في رحلة الإسراء

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٦٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

المسهم

والمعراج، فحينما سألته السيدة عائشة: «هل رأيت ربك؟ قال ﷺ: «أنّى أراه نورٌ على نور؟».

رابعاً ـ مرد القوى لله جميعاً وهو على كل شيء قدير.

١ ـ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[1].

كثيراً ما تعتري الإنسان ـ هذا المخلوق العجيب ـ حالات من القوة والضعف، فتراه أحياناً قوياً، ويمتلك من مشاعر القوة ما لا يمكن لشيء أن يدانيها في الوجود.. أو قد تراه، في أحيان أخرى، واهناً، وتتملكه مشاعر من الضعف فلا يقدر معها على شيء مما حوله.. وهذه الحالات نابعة من تكوينه وطبيعته ككائن من عظام ولحم ودم وعصب، وكتلةٍ من العواطف والمشاعر والميول والأهواء التي لا يعلَم حقيقة وكيفية تفاعلها في دخيلته إلا خالقه وحده.

وعلى الرغم من ذلك فإن الناظر في التاريخ البشريّ يعجب حقيقة من قوة هذا المخلوق البشريّ الذي استطاع أن يتكيَّف مع عوامل الطبيعة، وأن ينتصر على وحوشها الكاسرة، وحشراتها القاتلة، لينتصب سيداً عملاقاً في دنياه، ومحط أنظاره دائماً القوة يتخذها حجة على نزعته في الامتلاك، والسيطرة، والتحكم في الأشياء ـ كلما كان قادراً على ذلك ـ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

المسهم

هذا من حيث الواقع الذي طغى فيه على الإنسان حُبُّهُ للقوة في شتى مظاهرها، والتي اتخذت لها مظاهر متنوعة، عبر القرون، كان من أهمها: التقدم العلميّ، وامتلاك المال..

وغنيٌّ عن البيان ما حققت الاكتشافات العلمية في الفضاء، أو على سطح الأرض أو في أعماق البحار من تقدم ومعرفة، وما ظهر للمال من سلطان وتأثير على النفوس.. ولن ندخل في تفصيلات مظاهر هذين العنصرين: العلم والمال، لأنها معروفة، ولكن نشير إليها لما تقود إليه من استنتاج وهو: أن القوة كانت دائماً في جانب، والضعف في جانب آخر على ساحة الحياة البشرية بأسرها إن على مستوى الأفراد، أو على مستوى الدول والمجتمعات. ومن جراء القوة، في ذلك الجانب، كانت الدول العظمى، والدول الغنية والمتقدمة، في مقابل الدول الضعيفة، والدول النامية والفقيرة، في الجانب الآخر، التي تلتمس العون والحماية من «أخواتها» الكبرى، بل وكان الأقوياء والضعفاء وما يزالون يعيشون إلى جانب بعضهم بعضاً في البلد الواحد، والمجتمع الواحد..

ولعل منطق هذا التوزيع لمظاهر القوى التي تسود عالم اليوم، إنما يمكن ردُّه إلى شريعة الغاب أي الشريعة التي قادت إليها غريزة البقاء عند الحيوانات لتأمين عيشها، والحفاظ على حياتها.

ولكن إذا كان لشريعة الغاب ما يبررها عند الحيوان، فما حاجة الإنسان لأن يستنَّ لنفسه مناهج تقوم على التمييز بين الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس، أو أن ينظر إليهم وفقاً لمقاييس الثروة أو الجاه أو السلطة؟! بل وما حاجة الإنسان لأن يستعمل قواه المادية والمعنوية وعلى هذا النحو الذي نراه من الحدة، لكي يقتل أو

المسهم

يظلم أو يستغلَّ غيره، وكل ذلك من أجل مآرب دنيوية ليس إلاَّ. . إذ لو عقل فعلاً لوجد أن كل شيء من حوله زائل، بل لوجد أنه هو نفسه إلى زوال.

نحن نؤمن، ومن منطلق مفاهيم إسلامنا القويم، أن خالقنا العظيم، وربنا الكريم هو الذي رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات بالصحة والجمال، والمال والجاه، والقوة والضعف. . . وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، ولكن من أجل أن يختبرنا بما أمدَّنا وأعطانا، بحيث نقيم لكل نعمة مما أنعم علينا وزنَها واعتبارَها، فلا نستخدمها في المعصية، ثم لا نظلم، أو نستكبر، أو نستعلي بتلك النعمة على غيرنا. . فكل ما نملك من قوةٍ أو مالٍ أو غيرهما إنما هو من فضل الله تعالى لكي نوفّي حقه علينا بالطاعة فيما آتانا، وحق أنفسنا بما يقوّمها ويزكيها، وحق العباد بما نقيم معهم من العلاقات المجتمعية والإنسانية السليمة. .

أجل إن من سنة الله تعالى في خلقه أن جعل بعضنا فوق بعض درجات، ولكن ليبلونا فيما أعطانا فلا نقبل أن تمتلىء الدنيا بالجياع والمرضى والفقراء والأميين، بينما غيرهم يعيش على التخمة واللذة والفساد والفجور، وكل ذلك بسبب الأنظمة السياسية والاقتصادية والمالية والاجتماعية الجائرة التي لم تراعِ قيمة الإنسان في ذاته، ولم تحفظ كرامته وحقه في وجوده. . وهذه الأنظمة بجورها، هي التي

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

المسهم

أوقعت الناس جميعاً، حتى صانعيها وأسيادها في المشاكل والمصاعب، وفي الهموم والأمراض النفسية، فلم يسلموا من أذاها الذي طالهم مثل غيرهم ـ وربما أكثر من غيرهم ـ في حقيقة الواقع..

ومن هنا كان اليقين، وفقاً لنظرة الإسلام الشاملة إلى الحياة البشرية، بأن الإنسان هو الذي أوقع نفسه في المأزق، لأنه بَعُدَ عن الإيمان الصادق، فنسي أو تجاهل الحقيقة المطلقة التي تحكم الوجود بأسره، وهي أن القوة لله جميعاً. فهو ـ سبحانه ـ الذي خلق القوى، وهو الذي يملكها، ويسخرها كما يشاء، وكيفما يشاء، وما قوة هؤلاء الذين نحسبهم أقوياء إلا منه (جل وعلا)، ولو شاء لبدَّل قوتهم بالضعف، وعزتهم بالذل، بل لو شاء لأهلكهم وخلق بدلاً منهم في هذه المعمورة.. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾[1].

ولذلك فإن الإنسان الذي يدعي امتلاك القوة، عليه أن يتروّى، ويعيد تفكيره وحساباته فيجد أنه لم يتملك من القوة إلا مظاهرها التي قضى ربه (تعالى) له أن يمتلكها.. أما لماذا؟ وكيف؟ فهذا ليس من شأن الإنسان، لأنه يتعلق بحكمة الله السنية التي لا مجال للنقاش فيها.. أما القوة، أية قوة، ومهما كان نوعها ومقدارها فهي لله القوي المتين، والقادر المقتدر..

وإن إغفال الإنسان لهذه الحقيقة المطلقة ـ أو ربما جهله بها في أزمان معينة ـ هو الذي قاده إلى أن يتخذ أولياء من دون الله، يعبدهم، ويستمد منهم القوة، والنفع والضرر.. وقد تمثل هؤلاء الأولياء بقوى

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٨.

المسهم

الطبيعة، أو بالكواكب، أو بالأصنام، ولكنَّ أعتى هؤلاء الأولياء، وأشدهم شراً على الإنسان كان الإنسان نفسه، وهو يعتقد أنه يملك قوىً ذاتيةً، وطاقات فاعلة تجعله قادراً على أن يفكر ويعمل ويقول ما يحب ويشاء، وأنه يستطيع أن يسيّر هذه القوى الذاتية وأن يتحكم بها وفق هواه!.. ونحن نحيل مثل هذا الإنسان، الذي جعل قواه الذاتية هي وليّه الذي يتعبّد إليه، إلى حالةٍ من الوهن أو الضعف أو المرض الذي قد يصيبه، ليقرر على ضوئه إن كانت قواه تملك أن تساعده، أو أن تخلصه مما هو فيه، إلا أن يشاء له ربه ذلك!..

أما ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].. فيقود إليه الدليل العقليّ، والبرهان الحسيّ. ذلك أن بيت العنكبوت عبارة عن نسيج من خيوط دقيقة، شفافة وواهية لا يكاد اللمس يقاربها، أو الريح تهب عليها إلاَّ وتتقطع وتتبدد، فلا تحمي العنكبوت ولا ترد عنه غائلة العوارض.. ومثل المتانة التي يتمتع بها بيت العنكبوت ينطبق على القوة التي يستمدها الناسُ من الناس، أو من القوى الأخرى التي يتوهمونها في الآلهة المدعاة، أو في قوى الطبيعة.. ولذلك يجعلونها عوناً لهم لتمدَّهم بأسباب القوة. ولكن لو كان الذين يتخذون أولياء من دون الله يعلمون أن القوة التي يستمدونها منهم هي عرضة للزوال في كل حين، وذلك عندما يأتيها أمر الله القوي المتين. أجل لو كانوا يعلمون ذلك لما طلبوا العون إلاَّ من الله، ولما لجأوا إلاَّ إليه سبحانه وتعالى، ومن ثمَّ فما عبدوا إلاَّ الله الذي هو

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

المسهم

ولي الأمر والتدبير.. والله يعلم أنَّ ما يعبدون من دونه من معبودات زائفة لا تملك شيئاً من قوة، ولا تقدر على شيء من سدِّ حاجة؛ ولكنه سبحانه وتعالى، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، لو شاء لبدَّدهم ومعبوداتهم وأولياءهم جميعاً، إلاَّ أنه يؤخرهم إلى أجل مسمّى ليكون مصيرهم مرهوناً بالشرك الذي كانوا عليه، وبما اتخذوا من دونه من أولياء يحبونهم كحب الله.

وهكذا يتبين أن الله تعالى قد ضربَ للناس المثل ببيت العنكبوت ليكون دليلاً حسياً لهم على الضعف والهوان لسائر القوى التي يلجأون إليها، وبالتصوير الصادق لكي يعتبر الناس بالمثل، فلا يلتجئون إلى قوة ولا يطلبون حماية إلاَّ من الله، لأن سائر القوى تبقى هزيلة، وضعيفة، وبلا أدنى فائدة إن لم يشأ الله تعالى أن يمدها بالأسباب التي تجعلها قوىً ظاهرة.

وهذه الحقيقة التي تردّ القوى لله جميعاً، جديرة بأن يعلمها الإنسان ويعمل بهديها، وإلاَّ ظلت البشرية تتخبط بمشاكلها ومآسيها، وسوف تزداد أحوالها سوءاً، كلما بعدت عن سنن الله، حق تصل في النهاية إلى ما ينذر الناس بالعذاب، دونما فرق بين من يدَّعون القوة، أو من يسيطر عليهم الضعف.

والحقيقة الأخرى، التي يؤكدها القرآن الكريم، هي أن اللجوء إلى قوىً بشرية أو غير بشرية، وطلب العون والحاجات من الذين يتخذونهم أولياء من دون الله (تعالى) إنما مرَّده إلى جهل الإنسان بالله القوي العزيز وامتلاكه سبحانه وتعالى للقوى جميعاً. وهذا الجهل هو ما يدلُّ عليه قوله تعالى:

المسهم

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

٢ ـ المعجزات براهين على أن القوة لله جميعاً.

ومن البراهين التي تؤكد أن ما يقدر عليه القويُّ الجبار، يستحيل على الإنسان أن يأتيه، تلك المعجزات التي يذكرها القرآن الكريم، والتي من شأنها أن تدلل على ضعف الإنسان وقلة حيلته أمام ما يريده الله العزيز الحكيم. فلا يقدر الإنسان مثلاً على أن يجعل الطيور تفتك بجيش جرار؛ أو لا يقدر الإنسان على أن يفلق البحر ويجعلَ أمواجه كالجبال العالية ثابتة في مواضعها، ثم يعيدها إلى ما هي عليه في العادة. فهذه خوارق أرادها الله تعالى أن تكون بأمره. والإنسان يصفها بالمعجزات، لأنها مُعجِزةٌ له حقاً، ولا يقدر على الإتيان بمثلها أبداً. فكانت من الشواهد على ضعف الإنسان، وعلى أن القوة لله جميعاً.

وتبرز حقيقة مثل تلك المعجزات بالآيات القرآنية المبينة التالية: . .

أ ـ معجزة أصحاب الفيل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

المسهم

﴿يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

فنحن نرى في هذه الآيات الكريمة توجيهاً من الله (تعالى) لنبيِّه الكريم محمد ﷺ، وتنبيهاً له على عظمة المعجزة التي حققها يوم جاء أبرهة الحبشيّ بجيشه لهدم الكعبة الشريفة، وكان معهم فِيَلةٌ، فأبتِ الفِيَلَةُ التقدمَ باتجاه الكعبة عندما صاروا على مشارفها، مما أوقع أبرهة في ورطة شديدة. ولكنَّ الأعجوبة التي حدثت لم تكن فقط بامتناع ذلك الحيوان عن التوجه صوب بيت الله الحرام، وإنما كانت فيما حلَّ بالجيش بأسره عندما جاءَهُم أمر الله سبحانه، ليبطل كيدهم ويذهب بمكرهم، إذ بعثَ فوقهم أفواجاً من الطير، تتتابع فوجاً بعد فوج كأنما هي كتائب جيش مدجَّجٍ بالسلاح (كما جاء وصفها على لسان امرىء القيس حيث يقول:

تراهمْ إلى الداعي سِراعاً كأنَّهم أبابيل طيرٍ تحت داجنِ مُدْجنِ.

أما لماذا بعثَ الله تعالى تلك الأفواج من الطير، فلكي تذيق جيشَ أبرهة الموت الزؤام، إذ كانت تحمل حجارة من سجيل (أي من الطِّين المجفَّف الذي صار كالزجاج) ترميهم بها فيدخل الحجرُ في رأس الرجل ويخرج من جسمه فيقع قتيلاً في الحال، حتى صاروا جميعاً مثل الزرع الذي جُزَّ وأُكِلَ، أو كمثل تِبنِ الزرع الذي أكلته الدواب ثم راثته، وديست من بَعدُ أجزاؤه فتفرَّقت.. وأما العبرة فهي ما حلَّ بذلك الجيش من الهلاك، إذ لم يكن الحجر ليصيب جسمَ أي فرد من أفراد الجيش إلا ويعرّضه للاهتراء من فوره، وتساقط اللحم

(١) سورة الفيل، الآيات: ١ ـ ٥.

المسهم

عن عظامه حتى يقضيَ عليه ويبيده. فكانت هي المعجزة التي أرسلها الله تعالى على أبرهة وجنوده ليهزمهم ويعذّبهم لمَّا أرادوا هدم بيته الحرام.

ب ـ معجزة انفلاق البحر لموسى عليه السلام

وهذه معجزة أخرى نجدها أهم وأعظم من السابقة، يسوقها القرآن الكريم للتدليل على قدرة الله تعالى، وامتلاكه وحده القوة. وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فمتى، وكيف حصلت تلك المعجزة؟

لقد ظلم فرعونُ مصر بني إسرائيل، فترةً طويلةً من الزمن، وذلك باضطهادهم، وإذلالهم وقتل أكثر رجالهم، بل وأطفالهم من الذكور.. فأوحى الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام أن يخرج بقومه من ديار مصر. وبالفعل فقد امتثل موسى عليه السلام لأمر ربه وخرج ببني قومه، حتى وصلوا قربَ البحر. وفي تلك الأثناء كان فرعون المستبد الظالم قد جهَّز جيشاً كبيراً وجاء على رأسه، منطلقاً به يريد اللحاقَ ببني إسرائيل لإبادتهم جميعاً وقَتْل موسى عليه السلام معهم. فلما صاروا على بعدِ قليلٍ منهم، بحيث يرى كلُّ جمعٍ الآخر، قالَ أصحاب

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٦١ ـ ٦٧.

المسهم

موسى بألمٍ وخوف: ماذا نفعل الآن وقد أدركنا فرعون وجنوده؟ وإلى أين نفرُّ منهم؟ وها هُم وراءنا، وليس أمامنا إلا البحر؟

قال موسى عليه السلام: كلاَّ، يا بني إسرائيل! لن يدركونا، ولن يبطشوا بنا كما تتوهمون، فالله ربي معي وسيكفيني شرَّهم ويرشدني إلى طريق النجاة، فلا تخافوا ولا تحزنوا..

سرعان ما نزل الوحيُ على موسى عليه السلام: أنِ اضرب بعصاك البحر (وقيل هو نهر النيل ما بين أيلة ومصر.. وقيل هو البحر الأحمر).. ففعل موسى عليه السلام وضربَ البحر بعصاه، فإذا به قد انفلق - أي انشقَّ - وظهر فيه اثنا عشر طريقاً، وقامت الأمواج على جانبي كل طريق مثل الجبل العظيم في العلو والارتفاع، وقد أمسكها الله تعالى من أن تتصدَّع أو تهبط على أيٍّ من تلك الطرق، حتى سلكها بنو إسرائيل، وانتقلوا إلى الضفة الأخرى، ونجَوا من بطش فرعون وجيشه.

ونتوقف قليلاً عند هذا المشهد قبل متابعة القصة.

فهاهم بنو إسرائيل أمام البحر، وليس معهم سفن ولا مراكب، ولا هم يستطيعون خوضه، ولا هم بمسلَّحين... وهاهم فرعون وجنوده قد قاربوهم، يشهرون السلاح وهم يطلبونهم ولا يرحمون.. فكل الدلائل تشير أن لا مفرَّ من هلاك بني إسرائيل والبحرُ أمامهم والعدو خلفهم..

وبلغَ الكربُ مداه: فمن خوفٍ واحتقان، إلى لوعةٍ ومأساة! وربما كانت تتمُّ كلُّها في دقائق، ثم يهجم عليهم الموتُ الذي لا مناص منه!..

المسهم

وها هو نبيّ الله موسى، لا يشكُّ لحظةً بأن الله (تعالى) على كل شيء قدير، لأنَّ ملء قلبه الثقة بربِّه، واليقين بعونه، والتأكُّد من النجاة، وإلا لَما كان ربُّه أوحى إليه أن يخرج بقومه من مصر.. إذن فالنجاة لا بد كائنة، والله (تعالى) هو الذي يوجهه ويرعاه.

وفي تلك اللحظة العصيبة يُلهم الله تعالى موسى عليه السلام أن يقول لبني قومه:

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾..

وقد قال عليه السلام: كلا!.. في شدة وتوكيد. كلا، لن نكون مُدْركَين. كلا، لن نكون هالكين. وبهذا الجزم والتأكيد واليقين ينشق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون.. إذ نزل أمرُه تعالى:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾.

ولا يتمهل السياق القرآنيّ ليقول إنه ضرب بعصاه البحر. فهذا مفهوم. وإنما يعجل ليأتينا بالنتيجة:

﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ووقعت المعجزة، وتحقق الذي يقول عنه الناس إنه مستحيل.. لأنهم يقيسون سنَّة الله على المألوف من سُننهم.. والله هو الذي خلق السنن، وهو القادر على أن يجريَها وفق ما يشاء، أو يبدّلها عندما يريد.

فقد وقعت المعجزة، وانكشفت بين فرقَيْ الماء طرقُ النجاة.. ونُصبَ الماء على جانبيّ هذه الطرق كالطود العظيم، حيث تمكَّن بنو إسرائيل من سلوكها، وفازوا بالخلاص والسلامة..

المسهم

ووقف فرعون وجنوده مبغوتين، مشدوهين بالمنظر الخارق، والحدث العجيب.. ولكنَّ فرعون سرعان ما أعادَهُ ظلمُهُ إلى طغيانه، فأصدر الأوامر لجيشه بأن يسلكوا مسلك بني إسرائيل ليلحقوا بهم ويدركوهم. ولم يَدُرْ في خلده أن ما يحدث أمامَهُ لا بدَّ أن يستدعي فيه التفكير والتروي، لأنه شيء غير مألوف بل وهو خارق للعادة. ولذلك أمر جنودَهُ بالنزول، حتى إذا صاروا جميعهم داخل البحر، جاءَ أمرُ الله تعالى فأطبق الماء عليهم وأغرقهم..

وهذا هو الذي حصل في ذلك اليوم من أيام فرعون رمسيس الثاني فرعون مصر والنبيّ موسى، منذ ثلاثة آلاف عام على ما يروي بعض المؤرخين، أو على ما يستنتج بعض المجتهدين..

ومضتْ هذه الآية على الزمان تتحدث عنها القرون، فهل آمَنَ بها المستكبرون؟

إنها لآية معجزة حقّاً، وبرهان ساطع فعلاً على عظمة الله (تعالى) الذي أمَرَ البحر فانفلق ليَعبره عبادُه وينجوا من القتل، ثم أعادَه إلى حالته الأولى حين عَبَرهُ أعداؤه، ليُغرقَ القوم الظالمين. ومع ذلك لم يؤمن أكثرُ بني إسرائيل على الرغم من أنهم رأوا بأم العين المعجزة الخارقة، لأنهم أهل عناد وضلال؛ ومثلهم كلُّ مستكبر، معاند، ضالّ..

فهذه أحداث غابرة يسوقها القرآن الكريم شواهِدَ على أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه وحده القوي، ووحده الذي يملك القوى جميعاً.. فإذا لم يؤمن البعض بتلك الشواهِدِ فإنَّ هنالك شواهدَ أخرى ليست أقل دلالةً وإظهاراً للحقيقة.. فاستمعْ إلى دليلٍ آخر من أدلة القرآن وهو تحويل الجامد إلى كائن حيٍّ كما في عصا موسى..

المسهم

ج ـ معجزة تحويل العصا الجامدة إلى حية تسعى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾(١).

ولو أمعنَّا النظر في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن النبيّ موسى عليه السلام، لوجدنا أن قصته تتكرر في أكثرَ من سورة، تقريراً للحجة على أهل الكتاب، واستمالةً لهم نحو الحق الذي يدعوهم إليه محمد ﷺ.. على أن كل موضع من مواضع التكرار لا يخلو من زيادةٍ في الفائدة علماً وبياناً، حتى يبقى للقصة أثرها القويّ في النفس، فلا يضيع هذا الأثر مع الإعادة والتكرار.

ولو عدنا إلى بداية بعث النبيّ موسى فإن آيات القرآن تهدينا إلى أنه كان عائداً بأهله من مدينَ إلى مصر عندما أتاه التكليف من ربِّه. ويبدو أنَّ عودتَهُ تلك كانت عن طريق صحراء سيناء، وقد أظلم الليلُ واشتدَّ البردُ، فرأى ناراً على جانب الطور، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾(٢).

وأُخِذَ موسى وهو يستمع إلى هذا النداء العلويّ. وكانت بيده عصاه التي يستعين بها على بعض حاجاته، فأرادَ ربه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبيِّن له أول برهانٍ على بعثه، فسأله تبارك وتعالى بقوله

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣١.

(٢) سورة طه، الآية: ١٠ ـ ١٤.

المسهم

الكريم: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[1].

قال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[2].

قال: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[3].

وأطاع موسى عليه السلام الأمر، وألقى عصاه، فإذا بها تنقلب إلى حيَّةٍ تتحرك وتهتزُّ بسرعة عجيبة كأنها جانّ، فاستولى الخوف عليه، فولَّى هارباً لا يدري ماذا يفعل..

لقد أخذت الدهشة موسى عليه السلام عندما حدثت المفاجأة المروِّعة أمام عينيه، وخاصة في ذلك الجو الذي تحيط به الرهبة، والقدسية من كل جانب، وهما بذاتهما كافيتان لإثارة الخوف في النفس فكان حرياً أن يلوذ بالفرار من شدة الخوف، إلا أن نداء ربه قد أعاد إلى نفسه الطمأنينة، وإلى قلبه الأمان وهو يقول له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾[4].

وهدأ روع موسى عليه السلام سريعاً، واطمأن قلبه، فعاد لتلقّي الوحي بكل أمان واطمئنان، لأنه خليق بمن ترعاه عين الله أن يكون من الآمنين..

تلك هي عصا موسى عليه السلام التي استحالت حيةً تسعى. وهي المعجزة التي أرادها الله (تعالى) برهاناً على أنه وحده الذي يملك

---

(١) سورة طه، الآية: ١٧.
(٢) سورة طه، الآية: ١٨.
(٣) سورة طه، الآية: ١٩.
(٤) سورة القصص، الآية: ٣١.

المسهم

تغيير طبائع الأشياء وإحالتها إلى أشياء غيرها، ومختلفة عنها تماماً في تكوينها وطبيعتها ووظيفتها؛ ولتكون أيضاً آيةً تدعم موقف نبيه، وتقوّي حجته في مواجهة أهل الطغيان الذين بُعث لهدايتهم. . ومن ثَمَّ فهل أدلُّ من هذا البرهان على أن الله على كل شيء قدير؟ وهل أقوى وأشَدُّ منه مثلاً على أن الله يهدي من يشاء؟ وأنَّ من يهدي الله فلا يضلّ، ولا يشقى؟.

٣ ـ السفن العائمة كالجبال آياتٌ على أن الله على كل شيء قدير.

يقول تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[1].

أجل إنَّ الله تعالى هو القوي المتين، وأنَّ مردّ القوى جميعاً لله، لأنه هو الذي يخلقها ويملكها. وقد ضربَ لنا مثلاً على ذلك ـ مما نصنعه بأيدينا، ونراه بأعيننا ـ بهذه السفن الكبيرة التي تجري في البحار، حتى ليحسب الرائي ـ لعظيم كبرها ـ أنها كالجبال العالية تعوم وتجري فوق الماء. .

فمن غير الله قادر على أن يجعل هذه السفن تمخر عباب اليم؟ ومن غير الله قادر على أن يجعل للماء خواصه حتى يحمل تلك الأثقال الهائلة؟ أو أن يجعل للسفن نفسها خواصها حتى تكون صالحة ـ مع شدة ثقلها، وكبر حجمها، وكثرة حمولتها ـ للجريان فوق الماء؟

ألا إنه هو سبحانه القويّ المتين، وإنه على كل شيء قدير. . وهو كما أودع في المياه وفي السفن خواصها الذاتية، فقد وهب للإنسان العقل، وهداه إلى العلم، حتى يضع المعادلات والمقارنات، ويسنَّ القواعد والنظم التي بفضلها كانت هذه المنشآت من السفن،

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٤.

المسهم

والطائرات، والجسور، والمباني، والمراصد والآلات إلخ...

ولنا أن نتصور بعد ذلك ما يدلّنا عليه هذا المثل في القرآن من قدرة للإنسان على الإنشاء والصنع والتسيير... فهذه الأساطيل من السفن الحربية أليست كل بارجة منها ـ وهي تحمل الطائرات، والصواريخ، والمدافع، والدبابات، وسائر الأعتدة العسكرية الأخرى، بالإضافة إلى مَن يركب فيها من الناس ـ كالجبل العظيم؟ ومثلها هذه الأساطيل من السفن التجارية ـ وما تحمل من البضائع والأشخاص والأثقال ـ أليست كل واحدة منها كالطود الشامخ؟!.

إنها شواهد حسيّة على ما تحمله البحار فوق سطح مياهها من القوى الظاهرة التي يظن الإنسان أنه يملكها، بينما في الحقيقة مالكها جميعاً هو الله «الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير». وهذا ما يريد القرآن أن يعيده إلى أذهاننا، ويكرّسه في نفوسنا، فالله تعالى ـ وحده ـ مالك الملك في السماوات والأرض، وهو ـ وحده ـ خالق وموجد القوى والطاقات في الإنسان وفي الأشياء.. ونلاحظ أن التدليل على أن الله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هو المالك حقاً يأتي باللفظ البسيط ﴿وَلَهُ﴾ في الآية ٢٤ من سورة الرحمن. أي وله وحده ما تملكون، وما تنشئون، وما تقيمون أيها الثقلان الإنس والجان.

ثم يأتي التعقيب: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1].. فالأمر لا يستدعي الكذب ولا الإنكار. لأن كل هذه الأشياء التي تحيط بكم سواء كانت من صنعكم أم من غير صنعكم فهي لا تعدو، في واقعها وحقيقتها، أن تكون آياتِ

(١) سورة الرحمن، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.

المسهم

وآلاءَ من ربكم، فإن أنكرتم بعضها أنه من آلاء الله، فبأي آلاء ربكم الأخرى تكذبان؟!

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.. سواء هذه السفن العملاقة كالجبال الرواسي، التي يمكن أن تهب عليها العواصف فتغرقها في البحر العميق، أو التي سوف تهترىء وتذهب، على الرغم مما هي عليه من المتانة والقوة. ومثل ذلك، الأشياء كلها والقوى كلها، فإنها إلى فناء، لأن الأرض أصلاً التي تقلُّها هي إلى فناء، وكذلك أنتم أيها الإنس والجان فإنكم جميعاً إلى فناء.. ولذلك كان تعبير القرآن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ بليغاً وشاملاً. وقد غلَّب العاقل في «من» لأن الإنسان محسوبٌ من هذا الفناء. بل وكان فناء الإنسان، من هذه الدنيا، أكبر نعمة عليه من خالقه، باعتبار أن الموت يشكل التسوية الحقيقية بين الناس جميعاً، ففيه يتساوى الكبير والصغير، والغنيّ والفقير، والملك والمملوك، وباعتبار أن حياة الإنسان إذا استمرت في هذه الدنيا فإن مصيره سوف يكون في الابتلاء والشقاء، أو المرض والوهن، بينما في الحياة الآخرة ـ وبعد الموت والفناء والنشور ـ قد يفوز الإنسان بالنعيم الأبديّ حيث يجد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. وهنا الحكمة البالغة التي تقودنا إليها النصوص القرآنية فلا يكون تعلق الإنسان بالحياة الدنيا جلَّ اهتمامه بل وعليه أن يسعى للحياة الآخرة سعيها حتى يفوز بذلك النعيم المقيم..

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

وبعد فناء الأرض ومن عليها، وبعد فناء السماوات ومن فيها، لا يبقى إلا الله الحيُّ القيوم، الذي تعزّز بالقدرة والبقاء، وقهر عباده بالموت والفناء..

المسهم

وليس التعبير بـ«وجه ربك» إلا للتدليل على أنَّ ربَّ السماوات والأرض قد ظهرت حقيقة وجوده لنا من آياته في الخلق ظهورَ الإنسانِ في وجهه. إذ تعالى الله عن التشبيه والتجسيد، فهو ذو الجلال، تجلُّه الخلائق وتنزِّهُهُ لأنه هو الله الملك القدوس العزيز الحكيم. وهو ذو الجلال والإكرام، الكريم في عزّته وجلاله، الجواد في إنعامه على خلائقه، يسبح له ويحمده كل ما في الوجود، لأنه رب الوجود، ومالك الوجود، والباقي بعد فناء الوجود..

ويلفت ربنا تبارك وتعالى أنظارنا وبصائرنا في آية أخرى، إلى أهمية السفن في حياتنا. فهو بعد أن ضربَ لنا مثلاً، على عظيم صنعها وإحكام هذا الصنع تشبيهاً بالجبال الكبيرة العالية، وبعد أن بيّن لنا أهمية هذه المنشآت في تسخيرها للناس وهي تعوم على مياه البحر، مثلما سخَّر لهم الجبال على الأرض فجعلها رواسيَ ثابتة كيلا تميد بهم.. كذلك يبيّن تعالى لنا أن اهتداءنا إلى بنائها قد كان بفضله ورحمته عندما هدى نبيه نوحاً ببناء أول سفينة على الأرض.. يقول تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

ولقد جاء هذا التأكيد على أهمية السفن، وعلى أنها آية من آيات الله تعالى التي تشهد على عظيم خلقه في معرض تبيان خواص وحقائق بعض الأشياء التي وضع فيها من السنن والأنظمة ما يجعلها تسير بهذا

---

(١) سورة يس، الآيات: ٤١ ـ ٤٤.

المسهم

الانتظام الذي هي عليه، فلا يتعدى شيء منها على شيء آخر، بل كل يسير باتجاهه المرسوم له كما قدَّر له الخالق العظيم.. وكل ذلك مرتبط بحياتهم، وبتأثيره الهام على هذه الحياة، ولولا خلق هذه الأشياء على ما هي عليه، لما كان لهم مجالٌ للحياة والبقاء على الأرض..

وتلك الأشياء التي ينبِّه إليها القرآن المجيد (في سورة يس) والتي كل منها آية على أن الله تعالى هو الخالق، وهو وحده القادر على مثل هذا الخلق. بإمكاننا أن نتبيّنها كما يلي:

- آية الأرض التي يُنزل عليها المطر فيحييها بعد موتها، ليخرج منها الأرزاق التي منها يأكلون..
- وآية خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن الناس أنفسهم، ومما لا يعلمون ـ مما خلق في السماوات والأرض ـ.
- وآية الليل عندما يسلخ منه النهار فيحل الظلام.
- وآية الشمس وهي تدور في فلكها ولا تتعداه.
- وآية القمر في تقدير سيره خلال الشهر الواحد.
- وآية الإحكام والدقة في التسيير بحيث لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يدورون، ويسبحون في هذا الفضاء الواسع.
- ومن ثَمّ آية الفلك التي حمل عليها المؤمنين وقت الطوفان..

ففي كل شيء آية تدلُّ على أنه الخالق. ودلالتها شرط على العاقل أن يتّبع هدى ربه، وأن يؤمن بأنه القادر على الخلق، وأنه القادر على تسيير الفلك في البحار، مثلما يسيّر الكواكب في الكون، فهذه

المسهم

تسبح في جريانها إلى مستقر لها لا يعلمه إلا هو (جل وعلا)، وتلك تسبح فوق الماء بأحمالها وأثقالها لتبلغ البلد الذي تقصده.

وقد جعل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذا المثل في هذا المقام ليذَّكِّر أولو الألباب الطوفانَ الذي حلَّ في الأرض، فيكون في التذكّر عظةٌ للرجوع عن الغفلة إلى الإيمان والطاعة والعبادة.. ذلك أن الطوفان كان بعضاً من غضب الله، وسفينة نوح عليه السلام بعضاً من رحمته بعباده، إذ بعد أن ملأ الكفرُ الأرضَ وأبى قوم نوح تصديقه فيما يدعوهم إليه، أوحى له ربهُ أن يصنع سفينةً، فاتخذوا عمله هذا سخريةً واستهزاءً.

وحان الموعد، فحمل نوح عليه السلام في السفينة بعضاً من بني قومه، أولئك الذين آمنوا به وصدقوه، كما ملأها بالأزواج من الحيوان والطير حتى تتوالد هذه المخلوقات وتكثر، فتكون مصدراً للرزق لمن نجوا من غضب الله، وحفظاً لأنواعها من الزوال، حتى تعود الحياة على الأرض بكامل رونقها. ثم حلَّ الطوفان الذي غطَّى الأرض كلها بالماء، وغسل سطحها من أدران الكفر والشرك، عندما أغرق الكافرين والمعاندين ومحا وجودهم من هذه الحياة الدنيا. بينما نجا المؤمنون الذين ملأت ذرياتهم الأرض من بعد الطوفان..

فآية للناس، وعبرة وعظة في التاريخ البشريّ كان ذلك الفلك المشحون. ومن أبرز دلالاته أن جعله المولى القدير عِلماً نهتدي به إلى صناعة السفن، لتكون هذه السفن العادية التي تمخر عباب اليم، وهذه الأساطيل العامرة التي تجوب المحيطات، وهي تحمل منافع للناس، مثل ذلك الفلك الذي ملأه نوح عليه السلام بالناس، وشحنه

المسهم

بالمؤن والمعدات وبالطير والحيوان.. ثم ألا يوحي لنا التعبير القرآنيّ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.. بأن الخالق العظيم هو الذي أمدَّ العقل البشريّ بالطاقات التي أهلته لاكتشاف العلوم التي أدت إلى صناعة الطائرات، والقطارات، والغواصات، والسيارات وغيرها من وسائل النقل التي يركبها اليوم الإنسان، مثلما ركب نوح والمؤمنون معه تلك السفينة التي صنعها قبل الطوفان..

على أن هذه السفن التي تسير على سطح الماء وفقاً للسنن التي قدَّرها الخالق لتسييرها، تبقى خاضعة لأمره تبارك وتعالى، إذ لو يشاء لأغرقها بموجٍ عاتٍ، أو عاصفةٍ هوجاء، أو بأي سبب آخر هي ومن عليها، فيغرقون في الأعماق لا يسمع لهم صريخ ولا بكاء، ولا يقدر أحد على إغاثتهم بعد أن يبتلعهم الماء في جوفه.. إذن فلا أحد يمكنه أن يمدَّ لهم يد العون إلا أن يشاء ربهم تبارك وتعالى ذلك، فيبعث من وسط البحر، أو من وسط المحيط سفناً لتنقذ التي شارفت على الغرق ـ وهو ما يحصل في أغلب الأوقات ـ فتكون هذه النجاةُ رحمةً من الله تعالى وعبرةً لمن يعتبر.. فلا مهارة ولا قدرة من العباد للإنقاذ إلا أن يشاء رب العالمين. وهذه الرحمة منه ـ عز وجل ـ تجعل الذين شارفوا على الموت، يحيون إلى أجلهم المقدَّر، فيتمتعون في هذه الحياة الدنيا ونعيمها طوال المدة الباقية من حياتهم، بدلاً من أن يلفهم الموت، ويأخذهم العدم بالغرق. فسبحان الله الذي جعل لنا الآيات كلها لنهتدي إلى الحق المبين، فندرك ما أحاطنا به من النعم ـ ومنها هذه الفلك المشحونة ـ وما تفضل علينا به من تسهيل سبل حياتنا، وما سخَّر لنا في السماوات والأرض، فنعبده حق العبادة، ونحمده ونشكره على ما هدانا، وما رحمنا..

المسهم

خامساً ـ الله هو العليم الحكيم وقد أحاط بكل شيء علماً.

يقول تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

إن معاني هذه النصوص تدل على أن مياه البحار لو تحوَّلت حبراً لكتابة علم الله فإنها لا تكفي، وحتى لو جئنا بمثلها ومقدارها حبراً ندون به هذا العلم لما كفى ذلك كله لأنه علم غير محدود.. وتشير أسباب التنزيل لهاتين الآيتين الكريمتين إلى معركة الجدل والحجاج التي كان الكفار والمشركون يفتعلونها للوقوف في وجه النبيّ ﷺ، وخاصة إبّان إعلان الدعوة، وعرض الإسلام على الناس في مكة وما حولها. ولذلك نجد في سورة الكهف ـ وهي مكية ـ التي ختمت بهاتين الآيتين، كثيراً من الأدلة والبراهين التي تدحض كل الافتراءات والدعاوى التي كانوا يكذّبون بها النبيّ ﷺ، والتي كانوا لا يريدون من ورائها إلا إظهاره في مظهر العجز، وخاصة عن الإتيان بما يطلبون من المعجزات.

وكان النبيّ ﷺ يواجه معركة التشهير والاستهزاء به، ومعركة التكذيب والافتراء عليه بالوحي الذي يتنزَّل عليه قرآناً فيه قول ربه الحق، وفيه من علم الله الواسع ما لا تقدر عقولهم القاصرة، والمنحرفة عن الحق والهدى استيعابه وإدراك مراميه، إلا بتقريب

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٩ و١١٠.

المسهم

معاني الآيات المنزلة إلى أفهامهم، كما هو الحال في هذا التشبيه المأخوذ من البحر، الذي يعتبر واقعاً مادياً محسوساً في حياتهم، ولديهم التصور الكامل عن عمقه واتساعه، وعن كميات المياه الهائلة التي يستوعبها، والتي لو كانت مداداً ـ أي حبراً ـ نحاول أن نكتب به عن علم الله (تعالى)، وعن أنواع وأجناس الكائنات التي خلقها، وعما يتميّز به كل نوع أو جنس منها من الخصائص الذاتية، وما قدّر الخالق العظيم لها من السنن الخاصة بها، وكيف ربطها بالسنن العامة في الحياة والكون، التي تؤثر بها.. أجل لو حاولنا استعمال مياه البحر للإحاطة ببعضٍ من ذلك الخلق العظيم لأفرغنا البحر من مياهه وما قدرنا على مثل تلك الإحاطة، وحتى لو جئنا ببحرٍ مثلهِ مدداً.. إنَّ علم الإنسان ضئيلٌ جداً، ومحدودٌ جداً بالنسبة لعلم الله الواسع الذي هو بكل شيء عليم، ومصداقه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].. فهل بعد أجلُّ من هذا النبأ العظيم، وما قد يكون له من تأثيرٍ قويٍ وشديدٍ على النفس الإنسانية، عندما يعلم الإنسان بأن الله (تعالى) عليم بكل شيء في السماوات والأرض، فلا تخفى عليه خافية، ولا يفوته شأن من شؤونهما؟ ثم بعد ذلك ألا نتساءل: ما هي قدراتنا نحن بني البشر، وما هي طاقاتنا التي نملك حتى نكون مؤهلين لأن نبلغ من علم الله إلا ما يعلّمنا هو سبحانه وتعالى؟

ولذلك يقف المؤمنون مشدوهين أمام قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

مَدَدًا﴾ . . فقد يكون القصد من هذا التعبير القرآنيّ: ﴿كلمات ربي﴾ ما في الكون كله من مخلوقات. وهذا محال أن يصل إليه علم الإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة، ومهما جاء به من الاختراعات والاكتشافات. .

وقد يكون القصد: ما في آيات القرآن المبين من المعاني. وهذه بدورها بعيدة عن متناول الإنسان لأنه عاجز فعلاً عنّ الإحاطة بمضامين هذا الكتاب المجيد. .

إذن فماذا يريد الكفار والمشركون بعد؟! فهل يدّعون علماً ومعرفة؟ ولكن أين ما يدّعونه من علم ربهم العزيز العليم؟ أم هل يريدون إظهار عجز هذا النبيّ ﷺ الذي يبلّغهم عن ربّه ما يُعجز سادتهم ويلغاءهم، فكيف الحال بهم والقرآن يمدّه بالبراهين، والأدلة، والقصص والعظات التي تجعلهم هم العاجزين حقاً؟ أم هل يريدون البقاء على كفرهم والنبيّ ﷺ يرشدهم إلى سبل الهداية التي فيها النور المبين لظلمات نفوسهم؟!.

فقد أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس في أسباب نزول هذه الآية الكريمة: أن عتاة المشركين في قريش لما سألوا اليهود عن أشياء يمكن أن تضعف حجة «محمد»، قالوا لهم: سلوه عن الروح، فنزلت الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]. فقالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً: أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. فنزلت الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، وهذا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

المسلم

يعني أن علم الله لا تحيط به التوراة ولا الإنجيل، ولا القرآن نفسه، لأنَّ مضامين هذه الكتب السماوية ـ على شموليتها ـ تبقى يسيرة وقليلة مما يحيط به علم الله الواسع، لا بل والبشر لا يحيطون بشيء من علم الله إلاَّ بما شاء لهم من الإحاطة، فيبقى علمهم محدوداً في مقابل علم الله اللامحدود. . .

أما عن المعجزات التي كانوا يطلبونها، فكان النبيّ ﷺ يقول لهم دائماً ما مؤداه: **إنما أنا بشر مثلكم، وما أبلّغكم إلاَّ ما يوحى إليَّ من ربي الكريم الذي اختارني نبياً ورسولاً، وهو أعلم أين يضع رسالته، فليس لي أن آتيكم بمعجزات وخوارق مما تطلبون. ولكن ألا ترون بأن هذا القرآن الذي يُوحى إليَّ هو المعجزة بذاتها، وقد ثبت لكم إعجازه لأنكم لم تستطيعوا أن تأتوا بشيء من مثله؟!**

وكذلك فإنَّ من مضامين الوحي إلى النبيّ ﷺ أن يقول لهم ما معناه: **إنما إلهكم إله واحد، فمن كان يأمل بلقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، يغفر له من ذنوبه ويدخله في رحمته التي وسعت كل شيء. .**

وهذه الأمور هي من الحقائق المطلقة التي يقوم عليها كل الوجود البشريّ، وذلك بأن يكون إيمان الإنسان مطلقاً بوحدانية الله تعالى، وألوهيته وربوبيته، فلا يشرك بعبادة ربه مثل تلك الآلهة المدعاة الباطلة من الأصنام والأوثان والتماثيل، أو غيرها من الأشياء الأخرى التي لا قيمة لها، ولا معنى تستحق عليه العبادة. وعدم الشرك بعبادة ربه أحداً، هو الحق اليقين لأنه هو الله الذي لا إله إلا هو، إله واحد في السماوات والأرض. ثم ليعمل بعد ذلك عملاً صالحاً، مع

المسهم

ما يستوعب معنى هذا العمل من أمور الخير والبر والتقوى إلى آخر الباقيات الصالحات..

ولعلَّ الربط بين الآيات التي سبقت مباشرة الآيتين ١٠٩ و١١٠ اللتين اختتمت بهما سورة الكهف ما يؤكد تلك الحقيقة المطلقة التي يتعلق بها مصير الإنسان في الحياة الآخرة، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[1] فهذه الآيات تبين سبل الأعمال إلى الضلال والخسران، وسبل الأعمال إلى الإيمان والصلاح، والمصير الذي يتقرر للإنسان على أساس تلك الأعمال التي يتولاها في حياته الدنيا.. أجل تلك الأعمال التي يقوم بها الإنسان هي التي تقوده يوم القيامة إما إلى جهنم وساءت مقرّاً ومقاماً، وإما إلى جنّات الفردوس، وحسنت نزلاً ومستقراً. وهي بعض من كلمات الله التي لا تنفد، إذ لو حاولنا أن نحصي فقط ما يقوم به الناس من الأعمال، دون شيء آخر، لاستحال علينا هذا الأمر، فكان حقيقاً ألاَّ تنفد كلمات الله التي أحصت كل شيء عدداً، وأحاطت بكل شيء علماً.. فحري بكم أيها الناس أن تؤمنوا بأنه لا إله إلا الله، وأنه وحده يستحق العبادة، فلا شريك له في خلقه، ولا شريك له في ملكه، ولا شريك له في عبادته.

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٨.

المسهم

وحريٌّ بكم أيها الناس أن تتزودوا من علم الله الذي أودعه قرآنه المجيد، وتجسّدوه من ثَمَّ عملاً صالحاً.. فإن تمَّ لكم ذلك، فهو ـ والله ـ توفيقٌ من ربكم الذي يهدي إلى الصراط المستقيم، والفوز بجنات الفردوس نزلاً.

سادساً ـ أمر الله (تعالى) نافذٌ ومحققٌ كلمح بالبصر

يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[1].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.. فهو الله الخالق البارىء المصور. خالق كل شيء، بلا استثناء، فلا يكون شيء في الوجود كله، إلا من خلق الله (تعالى). بل وكل شيءٍ كان خلقه بقَدَرٍ مقدَّر، وفقاً لما قضت به حكمة المولى السنية، ليكون في جنسه، ونوعه، وهيئته، وصفاته وخصائصه على النحو الذي جعلَه به أمر الله، بلا زيادة ولا نقصان.. وبحيث يقوم بوظيفته، أو بعمله، وفقاً لما هو مقدر له تماماً.. وبحيث يرتبط في وجوده، وفي تأثيره وتأثّره بغيره من الملخوقات بالسنن والقوانين والأنظمة التي قدَّرها الخالق للوجود بأسره..

ولعلَّ في هذا النص القرآنيّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ما يجيب على تفكير الإنسان في أمر خلقه، أو في أمر خلق السماوات والأرض، والأسئلة التي قد تشغل باله: كيف كان هذا الخلق العظيم، ولِمَ كان، وعلى أي شيء كان؟ ومن حق الإنسان، وقد حباه خالقه

---

(١) سورة القمر، الآيتان: ٤٩ و٥٠.

المسهم

بملكة العقل والإدراك، أن يفكر ويقدِّر، ولكن بشرط أن يأتي تفكيره متوافقاً مع الفطرة التي فُطر عليها، فلا يُجافي سلامة هذه الفطرة، ولا يجعلها تنحرف عن أصالتها، وإلا قادَهُ تفكيره وتقديرُهُ إلى الضلال، والضياع عن الحقيقة التي يطمئن إليها قلبُهُ، ويهديه إليها عقله. فالمهم أن يكون الإنسان منصفاً مع نفسه، ومستقيماً في صلته بخالقه العزيز الحكيم، وإلا بعد عن التقدير السليم.

والحقيقة أن انصراف الإنسان إلى التفكير في سر خلقه وإيجاده، إنما هو بحكم ما في طبعه من ميل للمعرفة، والتعلم، والاكتشاف، وبخاصة محاولاته في استشفاف المجهول، وما قد يحيط به من الأسرار.. والخالق العظيم لا ينهى الإنسان عن التفكير بما يهمُّهُ أو بما قد يشغل باله. بل إنه تعالى يحث عباده على التأمل للاهتداء إلى الحقائق، لأنه تبارك وتعالى يعلم ما جُبِلَ عليه الإنسان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]. ولئلا يكون للناس على الله حجة، فقد أنزل إليهم الكتب السماوية التي تدلهم على حقيقة الخلق، وتبين لهم سبل العلاقة التي تربطهم بخالقهم، ليعلموا بأن الله هو خالقهم، وهو رب السماوات والأرض، وأن وجودهم يقوم على العبودية لله وحده، وأن من شأن ذلك أن يزيح الغشاوة عن بصائرهم فلا يقعون في الشك، والحيرة، وفي التردد بين عبادة الله الواحد الأحد، وعبادة مخلوقاتٍ له.. فإذا قُدِّر للإنسان أن يهتدي إلى هذه الحقائق، التي تدله عليها الكتب السماوية، فإنه يؤمن حينئذٍ بأن كل شيء هو من خلق العليّ الكبير، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق كل

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

المسهم

شيء بقدَرَ من أصغر حشرةٍ، أو ذرة في الأرض، إلى أكبر الأجرام والمجرات في السماء. وبمقتضى هذا التقدير السنيّ كان التناسق الكامل في الوجود، وكان الانتظام الشامل في الكون..

والقرآن الكريم يبيّن كثيراً من الأدلة على هذه الحقائق، ومن الأمثلة عليها:

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[4].

فسبحان الذي خلق كل شيء بقدر. وسبحان الذي فصَّل الآيات لقوم يعقلون.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

يقال في اللغة: لمَحَ البصرُ، يَلمَحُ لَمْحاً: امتدَّ إلى الشيء.

ولمَّح إلى الشيء: أشار.

واللَّمْحَة: النظرة العجلى، وهي اسم من اللمح.

---

(١) سورة الأعلى، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١٧ ـ ١٩.

(٣) سورة الفرقان، الآيتان: ١ و٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

المسهم

فيكون المعنى: وما أمرنا لشيءٍ نريد خلقه إلا أن نقول له مرة واحدة: كن، فيكون. وجوده كائناً وحالاً مثل لمح البصر، أي مثل الزمن الذي تستغرقه النظرة العجلى عندما تلمح الشيء..

وهي سنة الله (تعالى) في الخلق: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

أجل إنما هي كلمة واحدة: «كن».. هذه الكلمة هي «أمر» يصدر لمرةٍ واحدةٍ، فلا يحتاج إلى إعادة، ولا تكرار، ولا تتابع، ولا فسحة في الزمان والمكان. إنه مجرد الأمر الواحد، في المرة الواحدة ويوجد الشيء على الكينونة التي يريدها الخالق.

ولا يعني «لمح البصر» تحديداً زمنياً، إنما هو تشبيه لتقريب المعنى إلى حسّ البشر. فالزمن هو مقياس بشريّ، ينظِّم به البشر أوضاعهم وحالاتهم، وحركاتهم وسكناتهم حتى لا يعيشوا في فوضى، أو في فراغ، أو في تقلبات لا تخضع لقواعد ضابطة، ومقاييس معينة..

أما بالنسبة إلى الخالق العظيم فلا زمن، ولا حدود، ولا مقاييس لأمره في الخلق والإيجاد.. بحيث لا يمكن أن نتصور فارقاً زمنياً بين الأمر وتحققه، فهما: أمرٌ فخَلْقٌ، أمرٌ فوجودٌ، أمرٌ فتدبيرٌ، أمرٌ فحياة، أمر فموتٌ.. فكل شيءٍ خاضعٌ لأمر الله (عز وجل) إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون. فكل شيء محكوم في خلقه إلى أمر الله، وكل شيء محكوم في تدبيره إلى أمر الله، فلا يكون

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

المسهم

لمخلوقاته شأن من الشؤون إلا بأمره، فإذا شاء كان، وإذا لم يشأ لم يكن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾[1].

وهكذا يتبين لنا أن مثل تلك الصفات الجليلة لله سبحانه وتعالى:

من حيث كونه الخالق العظيم،

ومن حيث إنه لا مَثَلَ له،

ومن حيث إنه نور السماوات والأرض،

ومن حيث إن مرد القوى جميعاً لله، وإنه على كل شيء قدير،

ومن حيث إن علم الله واسع ولا ينفد،

ومن حيث إن أمر الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فهو نافذ كلمح البصر... أجل إن هذه الصفات التي يتفرد بها رب السماوات والأرض حرِيّة بأن تزرع وتثبّت الإيمان في القلوب بحقيقة وجود الله تعالى، وبأحقية عبادته وتقديسه، ولذلك كانت من مقتضيات عقيدة التوحيد.

الفقرة الثانية ـ الإيمان بملائكة الله وكتبه.

يقول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[2].

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

المسلم

وانطلاقاً من التوجيه القرآنيّ الذي يبيّن الأركان الأساسية لعقيدة التوحيد يبدو لنا جلياً أن الإيمان بحقيقة وجود الله (تعالى) يستتبع حكماً الإيمان بملائكته وكتبه..

أما من حيث ملائكة الله فيرد ذكرها في مواضيع متفرقة من كتابه المجيد، ولا سيما عند البحث في معتقدات المشركين الذين توهموا بأن الملائكة بناتٌ لله، وقد نزَّه تعالى نفسه عن أن يتخذ له صاحبة ولا ولداً، أو أن يكون له شريك في الملك.. ولذلك لم نفرد نبذة خاصةً للملائكة لا سيما وأنه لم يرد عليها المثل في القرآن الكريم، فانحصر بحثنا هنا في كتب الله (تعالى) باثنين: اللوح المحفوظ، والقرآن الكريم.

وهذا مع الإشارة إلى أن إيمان المسلم لا يكتمل إن لم يؤمن بصدق التوراة، وصدق الإنجيل وسائر الزبر التي أنزلت على النبيين والمرسلين، شرط ألاَّ يكون التحريف، والتأويل والدسّ قد دخل على تلك الكتب السماوية فأضاع قداستها التي أنزلت بها من عند الله تعالى..

أولاً ـ ما فرَّط الله في اللوح المحفوظ من شيء، حتى الدواب والطيور وهي أممٌ أمثال البشر

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

إن هذا الكون واسع فوق حدود التصوُّر كما تدلّ على ذلك

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

المسهم

اكتشافات علم الفلك الحديثة. وكلما توغَّل الإِنسان في أعماق هذا الكون، تبين له أنه ما يزال بعيداً جدّاً عن إدراك حدوده أو نهايته، لأنه في الحقيقة لن يصل إلى العلم بتلك النهاية التي هي من علم الله الواسع.. وفي خضم هذا الكون الشاسع، كتلة كروية صغيرة هي الأرض التي احتوت إلى جانب الجنس البشريّ أجناساً كثيرة ومتنوعة من الحيوان والطير، وكلٌّ يعرف فيها معاشَهُ، ويسعى إليه... وهذه المخلوقات كلُّها قد أحصيت جميعها في الكتاب (اللوح المحفوظ) بلا أدنى تفريط، كما يبيِّن لنا ربُّ العالمين في هذه الآية الكريمة التي يقول فيها تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾..

أما نحن بني البشر فقد خلقنا الله سبحانه وتعالى على هذه الأرض، واستخلفنا فيها لنعبده حق العبادة، ثم نُحشَرُ يوم القيامة ليكون الحسابُ على أعمالنا فيما استخلفنا عليه. وإذا كان الله قد جعلنا قبائل وشعوباً متنوعة، فقد تكاثرت تلك القبائل والشعوب حتى صارت أمماً تملأ الأرض في شرقها وغربها. ومثل هذه الأمم البشرية فإنَّ القرآن الكريم يبيِّن لنا أن كلَّ ما خلق الله من دوابَّ تدبُّ على الأرض برجليها، أو من زواحف تزحف على بطنها، أو كل ما خلق من طير يطير بجناحيه.. إن هي إلا أجناس متعددة، وأصناف متنوعة، تختلف في أشكالها وأنواعها، مثل اختلاف الناس في تعدد أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وطرائق عيشهم. وهي على تعدد أصنافها، وأعدادها الغفيرة من كل صنف، تُعرف بسمات معيَّنة، وبخصائص مميزة عن بعضها البعض، لتكون مثل الناس، في خَلْقها من حيث الإِبداع في الخلق، وجميل الصنع في الهيئة والتكوين.. وقيل إنما مثلت بالأمم من الناس نظراً لحاجتها إلى مدبِّرٍ يدبرها في أغذيتها،

المسهم

ونومها، ويقظتها، وهدايتها إلى منافعها، وإلى آخر ما لا يُحصى من أحوالها ومصالحها.

وهذا التنوع في الكائنات الحية: من الناس، والحيوان، والطير والحشرات، وما يختصُّ به كل جنس من خصائص مميزة عن غيره من الأجناس الأخرى، بل وما في الجنس الواحد من تنوع كثير إن في فئاته وأشكالها، أو في سبل عيشها في البر والبحر، واهتدائها إلى طرائق هذا العيش.. كل ذلك خير دليل، وأكبر برهان على أن الله هو الخالق العظيم، وأنه على كل شيء قدير؛ فقد قدَّر لكل كائنٍ حيٍّ حياتَه، ومماتَه، ورزقَهُ وعملَه، مثلما قدَّر له تكوينه البيولوجي والنفسي.. وهذا كله محفوظ بأمره تبارك وتعالى في اللوح المحفوظ، كما هو مقدر في علمه الأزليّ، فما من شيء يتعلق بحياة الإنسان، سواء بصورته وحركته، أو فعاله وأقواله، أو ما تنطوي عليه نفسه من الشعور، أو النية، بل وحتى النفَس الذي يتنفَّسه.. أجل ما من شيء يتعلق بالإنسان إلا وهو محصيّ عليه، ومحفوظ في كتاب المخلوقات كلها الذي هو اللوح المحفوظ.. ثُمَّ لا يخلق الله (تعالى) الإنسان إلاَّ ويوكل به ملائكة تدوِّن كل شيء عنه من قولٍ أو فعلٍ، مهما كان صغيراً أو كبيراً، حتى ولو كان عمله مثقال ذرة من خيرٍ أو شرٍ فهو مدوَّن، ومحصيّ عليه. وأما الغاية فلكي يكون ذلك حاضراً يوم الحشر، ولكي يقوم عليه حسابُهُ وجزاؤُهُ.

والحشر لا يكون للناس وحدهم، بل إن الكائنات الحية الأخرى من الحيونات والحشرات والطيور سوف يكون لها حشرٌ أيضاً مثلنا نحن بني البشر، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.. أما لماذا حشر تلك الكائنات، وهي ليست عاقلة ولا مدركة، فإنَّ

المسهم

عقولنا تقصّر عنه، ولا نقدر على إدراك كنهه. ولذلك فقد روي عن أبي ذر الغفاريّ عليه السلام ما يبيّن الغاية من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ إذ قال أبو ذر: «بينا كنا مع رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزتان، فقال لنا: **أتدرون فيما انتطحتا؟** قلنا: لا ندري يا رسول الله. قال ﷺ: **«لكنَّ الله تعالى يعلم، وسيقضي بينهما»**[1]. ومن قبيل ذلك أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: **«لتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**[2].

وما تجدر الإشارة إليه هو أن جماعةً من أهل التناسخ قد استدلت من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ بأن البهائم والطيور هي مثل البشر في التكليف.. وهذا لغوٌ باطلٌ، لأن القصد من عبارة: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ هو إفهامنا بأن الدواب، والبهائم، والطيور وحيوانات البحر هي في كثرة أجناسها، واختلاف أحوالها مثل الجماعات البشرية التي جُعلت في تنوعها وتعددها، قبائل وشعوباً وأمماً للغاية التي أرادَها الخالق، وهي اجتماع جهودها، وتضافر قواها من أجل إعمار الأرض. فهذا الإعمار يقتضي له التنوع في الذهنيات، والطاقات، وفي الخصائص والمميزات عند بني البشر، ويقتضي له أيضاً التعدّد، لأن ذلك هو غنًى للجنس البشريّ. وأما الكائنات الأخرى من غير الجنس البشريّ فإن وجودها كان حتمياً كما قضى تعالى منذ الأزل، وذلك لإقامة التوازن في الأرض، بما لتلك الكائنات من منافع للناس، تساعد على بقاء الجنس البشريّ إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها..

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٩٩٧.

(٢) المصدر السابق.

المسهم

إذن فالأمر لا يعدو كونه إفهاماً لعقولنا بأن المخلوقات والكائنات الحية على اختلافها هي مثل الناس في تنوع أجناسها، ولا يتعلق بأي تكليفٍ لتلك الكائنات، لأنها في قوام خلقها ووجودها، هي كائنات تفتقر إلى ملكة العقل والتمييز، والتكليف لا يصح، بل ولا يكون أصلاً، إلا مع كمال العقل، والقدرة على التمييز..

صحيح أن الحيوانات والطيور والحشرات هي من الأحياء التي أوجد فيها خالقها الغرائز التي تهديها إلى مساراتها، وإلى ما فيه نفعها، ولكنها قطعاً لم تخلق لتكون موضع تكليف، ويكون حشرها على أساس هذا التكليف.. فالتكليف هو الذي يميّز البشر عن غيرهم من الكائنات الحية الأخرى.. ثم إنَّ هنالك أمراً آخر شديد الأهمية ترمي إليه الآية ٣٨ من سورة الأنعام وهو أن خلق أي كائنٍ، ومهما كان نوعه، لم يكن خلقاً عبثاً، بل هو مقدر في اللوح المحفوظ منذ الأزل، ولا نملك نحن البشر أيَّ شيء عن علم الله الأزليّ، وعن تقديره في خلائقه. ولكننا بعد القرآن، وما أتى به من البيان والتبيين أصبحنا نملك المعرفة التي تؤكد لنا بأن ليس في وجودنا البشريّ، والأرضيّ أية مصادفة أو عبثية، بل كل شيء محكوم بعلة خلقه، وسبب وجوده، وأنَّ أمر هذا الوجود من حيث كيفية التسيير، والتدبير، والانقياد في الحياة والممات إنما يخضع لما يشاء الله ويريد.. والأدلة على ذلك هذه الآيات المبثوثة في الكون، وفي أنفسنا، ومن حولنا، وكلها تبرهن، وتؤكد على الحقيقة الساطعة، حقيقة وجود الله تعالى بأنه الخالق العظيم، والمدبر الحكيم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1].

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ٢ و٣.

المسهم

فالآيات التي تحيط بنا في دنيانا الأرضية، والآيات الموجودة في أنفسنا، والآيات الموجودة في الكون بأسره ـ مما علم الإنسان ومما لم يعلم ـ هي هذه المخلوقات من الكائنات الحية والجامدة، وكلها تدلُّ على العزيز الحكيم، والخالق العظيم وقد أحصيت في اللوح المحفوظ الذي ما فرَّط الله تعالى في هذا الكتاب من شيء يتعلق بمخلوقاته.. فحريّ بالإنسان النظر بآيات الله نظر عظة واعتبار، والتفكر بها تفكير تدبّر واستدلال، فيؤمن بالله، وبأنه على كل شيء قدير..

ثانياً ـ الإيمان بحقيقة القرآن وتحديه للثقلين بأن يأتوا بمثله.

التحدي ـ لغةً ـ المباراة أو المغالبة.

وهذا يعني في الواقع العزم على المواجهة، والتصدي لأمر من الأمور الذي يُراد إثباته، كما هو الحال مثلاً في السعي بكل جهد لإثبات إحدى الحقائق وإظهارها في وجه المحاولات للعمل على طمسها؛ أو مثلاً النهوض لمناصرة حقٍ يُراد هدره أو محوه.. وكذلك الأمر في كل قضية من القضايا، أو في أي شأنٍ من الشؤون التي تتطلب تحديد الموقف منها، أو اتخاذ القرار حيالها..

ومن الطبيعيّ أن تختلف مواقف الناس تجاه القضايا، والشؤون والأحداث التي تواجههم باختلاف الغايات والأهداف التي يتوخونها، كي يصير على أساسها تحديد العلاقات فيما بينهم.. وليس من الضروريّ أن يكون الهدف دائماً نبيلاً وقويماً، بل ربما تكون الأهداف الدنيئة والملتوية هي التي تغلب على مصالح الناس وطباعهم، إلاَّ أنه مع ذلك يبقى لصاحب الهدف أن يختار الموقف الذي يتحدد على

المسهم

ضوئه وجود التحدي أو عدم وجوده.. وبما أن المواقف والخيارات تختلف باختلاف الأفراد والجماعات، فالتحديات تصبح والحالة هذه على أشكال متنوعة قد لا تحصى، وكذلك أساليبها، ووسائلها وطرق التعبير عنها.. إلا أن أهمها على الإطلاق، يبقى التحدي الفكريّ والذي يتخذ عادة هدفاً له التغيير من أجل إنشاء أو فرض واقع جديد يختلف عما كان عليه من قبل..

ولما كانت رسالة الإسلام، التي بُعث بها محمد ﷺ، في خاتمة مطاف الرسالات السماوية، قد حملت عقيدة التوحيد، التي تُعدُّ في حقيقتها التحدي الأكبر لمواجهة الكفر والضلال، والقضاء على الفساد والفسق في الحياة الدنيا، فقد تصدى لها الكافرون والمشركون في شبه الجزيرة، شأنهم في ذلك شأن أمثالهم من السابقين الذين وقفوا في وجه دعوات النبيين والمرسلين، يشنون عليهم حرب التكذيب والاستكبار، أو يدفعونهم إلى ساحات القتال، بل ويقدمون على قتل النبيين بغير حق وبدون أدنى ذنب إلا أن يقولوا: ربنا الله.. والهدف من وراء ذلك كله كان منع الناس عن تلك الدعوات، لأنه لو أتيح لها المجالُ وانتصرت لكان خليقاً بها أن تسقط عروشهم، وتذهب بسلطانهم، وتزري بجبروتهم، ثم تقيم على أنقاضها موازين الحق في دنيا الناس.. وعلى ذلك فإننا لا نجد، على امتداد التاريخ البشريّ، أن نبياً قد سلم من أذَى وتكذيبِ بني قومه، أو خلت دعوةٌ رسوليةٌ من مواجهة جبابرة زمانها..

ولم يكن خاتمُ النبيين محمد ﷺ أفضلَ حالاً من ثلة المختارين الذين سبقوه في حمل رسالات الله (تعالى) إلى عباده، إذ ما إن ظهرت بعثته الكريمة، وأعلن نبوتَهُ ورسالته حتى هاج عنفوان الكفر في قلوب

المشركين، فانبروا لمناهضته، ومنع الناس من الدخول في دين الله.. ولكنَّ القرآن، الذي كان يتنزَّل عليه وحياً من ربه العزيز الحكيم، لم يسكت عن الكفرة الفجرة، وأعداء الله والإنسانية، فحملت عليهم آياته البيّنات حملةً شعواء تصفع وجوههم التي يتعبّدون بها للأصنام، وتسفِّه أحلامهم التي تزين لهم اتخاذ أرباب متفرقة من دون الله، وذلك في الوقت الذي تفنِّد الحجج الباطلة التي يدعون، وتقضي على الأكاذيب، وأقاويل الزور والبهتان التي كانوا يختلقون.. فكان في آيات القرآن هذا التحدي الذي يجمع: الإيمان، والحق والخير في ناحية، مقابل الكفر، والباطل والشر في ناحية أخرى.. وإن ميزة هذا التحدّي أنها تتناسب والذهنية التي تسيطر على بني البشر، ليس في عهد التنزيل وحسب، بل وفي العهود الآتية من بعده جميعاً. فحيثما يدّعي منكرون بأن القرآن هو من تأليف محمد ﷺ فإنَّ آياته تؤكد أنه منزل من عند الله (عز وجل)، وبأنه قول الحق (تبارك وتعالى) لا مرية في ذلك، وقد نزل بلسان عربيّ مبين، لأن الرسول الأعظم عربيّ المنبت واللغة، وحكمه حكم سائر النبيين والمرسلين الذين كان كل واحد منهم يُبعث بلسان قومه. أما نوع ومضمون هذا التحدي الذي يشهره القرآن في وجه المعاندين أو المنكرين فقد كان وما يزال على حاله، أي أنه هو، هو، هذا التحدي الذي لا يمكن أن يطرأ عليه أي تغيير أو تحويل، وهو التحدي الفكريّ المحض الذي يقوم على: أن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كان المكذبون صادقين فيما يدعون. فإن ظهر عجزهم، فإنه يتحداهم بأقل: أن يأتوا بعشر سور من مثله. فإن عجزوا ـ وهم قد عجزوا فعلاً ـ فإنه يتحداهم بأقل الأقل: أن يأتوا ـ ولو ـ بسورة واحدة من مثل هذا القرآن.. بل ولقد بلغ هذا التحدي

المسهم

ذروته، وهو يبيّن للإنس والجن، أنهم لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فإنهم عاجزون عن ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وهذا التحدّي قد ورد فقط في عددٍ بسيط من آيات القرآن المجيد، وكان التعبير عنه بلفظ «مثله» أو بعبارة «من مثله»، وسوف نرى في هذه الفقرة تلك الآيات الكريمة التي تحمل التحدّي للثقلين، على أن يسبقها البحثُ في الهدف من نزول القرآن متفرقاً..

أ ـ نزول القرآن متفرقاً

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1].

فالسؤال: لماذا أنزل الله (تعالى) القرآن على قلب محمد ﷺ منجماً ـ أي متفرقاً ـ ولم ينزّله جملةً واحدةً؟ وهذا ما يجيب عليه القرآن الكريم نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾[2]، وبقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[5].

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٣٢ و٣٣.
(٢) سورة الإنسان أو الدهر، الآية: ٢٣.
(٣) سورة المزمل، الآيتان: ٤ و٥.
(٤) سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٩.
(٥) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠٥ و١٠٦.

المسيرة

إنها الحقيقة ـ بل هي أم الحقائق المطلقة ـ وهي أن هذا القرآن منزّل من عند الله (تعالى)، وهو قول الله لا ريب فيه؛ والدليل على ذلك أن القرآن كان منذ نزوله المعجزة الحسية الثابتة، التي لا يستطيع أحدٌ أن ينكرها، أو أن يأتي بمثلها، وأنَّ هذا الدليل ما يزال قائماً أمام العالمين دون أن يقدروا على نقضه..

ثم إنَّ هذا القرآن ـ وهو قول الله عز وجل ـ لا يطيق قلب ـ ولو كان قلب محمد ﷺ ـ أن يتلقاه، ويحمل ثقله وشدته إلا أن يشاء منزل هذا القرآن ذلك. فكان محققاً بمقتضى قضاء الله أن يُنزَّل القرآن متفرقاً طوال فترة الوحي التي امتدت على مدى ثلاث وعشرين سنة، وذلك لكي يثبت به الباري قلب رسوله الأمين، فينهض مطمئناً لحمل أعباء التبليغ، وهدي الناس إلى الصراط المستقيم.

وكان النبيّ ﷺ ينقل الآيات كما تنزَّلت عليه بحرفيتها، ليعود فيودعها صدور قوم مؤمنين، صادقين في ما عاهدوا الله ورسوله عليه.. بل ولقد دأب رسولُ الهدى على نفس النهج في تحفيظ الصحابة للآيات عن ظهر قلب، وفي تفسيرها، وشرح معانيها بكل ما تحفل به من الأفكار، والمفاهيم، والقيم، والأحكام والمواعظ.. وذلك بأسلوب تعليميّ تثقيفيّ يسهل معه استيعابهم للحقائق القرآنية، ويجعلهم مؤهلين لأن يكونوا الدعاة إلى دين الله الحق. وهذا ما يشير إليه قول ابن مسعود ﷺ: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لا يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

وبالفعل فقد حفظ التاريخ الإسلاميّ تلك الصورة الناصعة والمشرقة للمسلمين الأوائل بما قدَّموا لدين الله من عزة ومنعة، وبما

المسهم

تربّوا عليه من طاعة وامتثال للرسول الكريم. وكان الأساس لذلك كله تلك الثقافة الإسلامية التي أشربت بها قلوبهم، وهم يتلقونها على يدي نبيهم، وما يعلّمهم إيّاه من كيفية التلاوة، وكيفية الفهم والاستيعاب..

إذن فالقرآن ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] وهو قول الله الذي أنزله بالحق على قلب رسوله محمد؛ فكان محتوماً أن يكون قولاً ثقيلاً لما تحمل كل آية من المعاني الفياضة، وما تنطوي عليه كل سورة من القضايا المتنوعة، أو ما تمتلىء به كلمات الله من الحقائق المطلقة عن الكون والحياة والإنسان يستدعي حضور الفؤاد كاملاً لتلقيه والثبات عليه، وهذا ما لا يمكن تحققه إن لم ينزل القرآن متفرقاً.. ومثل هذه الحقيقة التي يدل عليها القرآن بذاته لم يكن ليدركها ـ أو ربما تعمد عدم إدراكها ـ أولئك الذين كفروا بربهم ولم يصدقوا النبيّ، فانبروا يذيعون بين الناس، وبخبث ودهاء، أن هذا القرآن لو كان حقاً من عند الله، لنزل على «محمد» دفعةً واحدة، كما كانت الحال في التوراة والإنجيل والزبور.. فجاء الرد عليهم ـ ولكن بشكل خطاب للنبيّ ﷺ ـ بما معناه:

إنا ننزّل عليك «يا محمد» القرآن متفرقاً لنقوّيَ به فؤادك في حمل العبء الثقيل، الذي يتمثل بالأمانة التي أبت السماوات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها. وقد أنزلناه آيات محكمات ومتشابهات قد فصلت وأحكمت لتقرأها على الناس على مكث، بما يتناسب وطاقتهم الذهنية والفكرية، فتأخذها نفوسهم عن قناعة، وتمتلىء بها قلوبهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

المسلم

عن يقين.. ولقد رتلنا هذا القرآن ترتيلاً، أي تبياناً لما فيه من الحقائق، وأنزلناه مفرقاً بعضه إثر بعض حتى يكون بإمكان القلوب والعقول البشرية استيعابه..

فالترتيل هنا هو التبيين كما شاء ربنا بحكمته البالغة، وعلمه المحيط بحاجات القلوب واستعدادها للفهم والتأثر.

وقد روي أن النبيّ ﷺ قال لابن عباس: «**يا ابن عباس: إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلاً**. قال ابن عباس: وما الترتيل يا رسول الله؟ قال ﷺ: **بيّنه تبييناً، ولا تنثره نثر الدقل**[1]، **ولا تهذّه هذَّ الشعر**[2]. **قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكوننَّ همُّ أحدِكم آخرَ السورة**»[3].

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.. فهو يبيّن أن الكافرين والمشركين قد اعتمدوا على الحجج أو الأمثلة كوسائل أو طرق لمخاصمة النبيّ ﷺ، ومحاولة تعجيزه، فنزل عليه القول الحق يطمئنه: أن كل ما يأتونك به مجرد مزاعم، أو أمثال يظنون أنها تحمل معانيَ كبيرة وهامة.. فلا يأتونك بحجة، أو يضربون لك مثلاً إلا جئناك بأحقّ منه وأحسن تفسيراً وتبياناً للحقائق لأنه من لدنّا؛ وكفى بالحق الذي جئناك به أن يكون أبلغ لفظاً، وأشد تأثيراً في النفوس وأكثر ملامسة للقلوب من كل ما يأتونك به أياً يكن نوعه أو ميزته..

---

(١) **الدقل**: الثمر الرديء.

(٢) **هذّ الحديث**: قطعه سريعاً. سرده. وهذّبه: لهج به.

(٣) صحيح مسلم، رقم ٢٥٢.

المسهم

وكان هذا هو الردُّ القرآنيُّ دائماً، ولكن أين الأذن التي تسمع، والقلب الذي يعي؟..

ب ـ تحدّي القرآن للثقلين أن يأتوا بمثله.

أما الآيات التي تحمل التحدّيَ للإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن فهي الآيات المباركة التالية:

١ ـ القرآن منزّهٌ عن التقوّل ويتحدى الكافرين أن يأتوا بحديث مثله

يقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[1].

فهذه من جملة الحملات التي شنَّها المشركون على النبيّ ﷺ عنيفة وقاسية، حيث اتهموه بأبشع الظنون عندما قالوا عنه: بأنه كاهن، ومجنون، وشاعر وما إلى ذلك من الأوصاف الحاقدة التي لا غاية من ورائها إلاَّ النيل من شخصه الكريم ﷺ! ولكنْ أنَّى لهم ذلك والقرآن يتصدّى لافتراءاتهم فيدحضها، ولأكاذيبهم فيبطلها.. ولذلك نجده بعد أن ينفيَ عن رسول الله ﷺ أية شبهة، ويرفع عنه أية ظلامة، يعود إلى هؤلاء المشركين، ليسأل بالاستفهام الإنكاريّ: هل إن عقولهم هي التي تأمرهم أن يتقوّلوا على هذا النبيّ الكريم بأنه ساحر، أو كاهن أو مجنون، أم أنهم بتقوّلهم ذاك قوم طاغون؟

ثم يتحدّاهم وهم يقولون إن «محمداً» يتقوَّل القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾.. هكذا كان التحدّي: فعندما ادّعوا بأن النبيّ ﷺ يتكلَّف الحديث، ويختلق

---

(١) سورة الطور، الآيتان: ٣٣ و٣٤.

المسيرة

القول فيسميه قرآناً موحى به، نزل البرهان على كذب دعواهم، وهو إن كان «محمد» قد اختلق هذا القرآن، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. . فالتحدّي واضح، وكل ما يقولونه ليس إلا كذباً بكذب، فهم في الحقيقة لا يريدون أن يؤمنوا وحسب. .

وكان لا بد من هذا التحدّي، لأن الاختلاق أو التقوّل هو التكلّف في القول، ولا يكون إلا في الكذب، فمن يريد أن يتقول شيئاً فإنما يريد أن يكذب به. ولذلك نزل الذكر الحكيم يستنكر دعواهم الباطلة تلك، لأنها لا يجوز أن تنسب إلى «محمد» وهو صاحب الخلق العظيم عند ربه (تعالى)، وعند عباده ـ ومنهم هؤلاء المشركون المفترون أنفسهم ـ الذين عرفوه حقّ المعرفة، وكانوا يلقبونه: الصادق الأمين. .

ثم إنهم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، يعرفون جيداً أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، وما كان لأحدٍ أن يأتيَ بمثله أبداً. فيكون الأمر، والحالة هذه، أنهم هم الذي يتقوّلون الأحاديث عن النبيّ ﷺ، ويختلقون الأكاذيب، وما مرادهم إلا الإصرار على الكفر والشرك، وعدم الإيمان بما جاء به محمد ﷺ. .

وبعد أن نزّه الذكر الحكيم النبيَّ ﷺ عن أية صفة مدّعاة لا تليق بمقامه، كان لا بدَّ من أن ينزّه القرآنَ أيضاً عن أي شبهةٍ من أنه قول البشر، وهذا التنزيه قد حمل التحدّي الصارخ:

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾. . فإذا كان هذا القرآن من حديث «محمد»، ومجرد أقوال وتآليف من عنده، فإنَّ ما يقدر عليه من قولٍ أو تأليف لا يعجزهم أن يقولوا مثله، وأن يؤلفوا مثله،

المسهم

لأن لغته لغتهم، وفصاحته من فصاحتهم، وبيانه من بيانهم.. إذن فليأتوا بحديث مثله إن كانوا ـ في زعمهم ـ صادقين.. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أنهم لكاذبون، وأنهم لا يقدرون على أن يأتوا بحديث مثل القرآن. أي التحدي بالاستطاعة التي يملكونها وهي: اللغة والتأليف.. فإذا ثبت عجزهم عن ذلك، لزم عليهم أن يكفّوا عن هذا الكذب الشنيع، وألا يفتروا على النبيّ بأنه يتقوَّل القرآن. بل ويكون لزاماً عليهم ـ وهم لم يأتوا بحديث مثله ـ أن يقروا بأن القرآن منزَّل من عند الله (تعالى)، وأن يصدقوا «محمداً» بأنه نبيُّ الله ورسوله، وأنه يحمل دعوة الحق من ربه، وهي دعوة «لا إله إلا الله» وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير..

٢ ـ القرآن لا يُفترى ويتحدى الكافرين أن يأتوا بعشر سور مثله

يقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

إنه هو، هو: التحدي.

وإنهم هُمُ، هُمُ: المشركون.

ولكنَّ الجو مختلف هنا. فهم لا يتوجهون إلى شخص النبيّ ﷺ، بل يحاولون أن ينالوا منه بطريقة أخرى، وهي طلب المعجزات كما تدلُّ عليه الآية السابقة من سورة هود، أي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(١) سورة هود، الآية: ١٣.

المسهم

وَكِيلٌ﴾[1]. فيصبّره ربه تبارك وتعالى على هؤلاء القوم وهم يطلبون منه أن يُنزَّلَ عليه كنزٌ، أو يجيء معه ملك ليصدّقوه. والحال أنه نبيٌّ، وما عليه إلا البلاغ لا الإتيان بالمعجزات التي يطلبونها مع علمهم المسبق أنه لا يستجيب لمآربهم، لأن هدفه إنارة عقولهم، وإنارة كوامن نفوسهم بفعل هذا القرآن الذي يتلوه عليهم.. فإذا كانوا لا يصدقون أنه من عند الله (تعالى) ويقولون: إن «محمداً» يفتريه، وهو من عنده، فلا بلاغ، ولا نذير!.. إن كانوا يقولون ذلك،. فقل لهم يا محمد: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات. وادعوا كل من ترون أنه يستطيع مساعدتكم في هذا الأمر من دون الله (تعالى) منزل هذا القرآن، وباعثي نبياً ورسولاً.. هذا إن كنتم صادقين في هذا الادّعاء..

وهكذا يتبين أنَّ تحدّيَ المشركين أن يأتوا بمثل القرآن هو التحدي نفسه الذي لا يختلف مضموناً ونصّاً في كل مناسبة وحين: فهو يتحداهم أن يأتوا بحديث مثله، على وجه العموم، دون تخصيص لموضوع معين، أو حال معينة؛ ولهم أن يختاروا من أجل ذلك من يريدون شرط أن يكونوا مستطيعين على الإتيان بمثله.. ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾..

ثم يضيّق دائرة هذا التحدّي ليسهل الأمر عليهم. فإن عجزوا على أن يأتوا بأي شيء، ومهما كان نوعه من مثل القرآن، وظلّوا مصرّين على أن النبيّ يفتريه، فليأتوا بعشر سور مثله مفتريات، أي من نفس القول الذي يقوله لهم، و«يدعي» أنه من عند ربه.. بل ويحمل

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢.

المسهم

هذا التحدّي نوعاً من الاستصغار لقدرهم، والتحقير لشأنهم، ليؤكد بأن الافتراء منهم هم، عندما يخاطب النبيّ ﷺ ليقول لهم بأن يدعوا لمساعدتهم كل من يرون فيهم مقدرةً على ذلك من جهابذة الفصاحة، والبلاغة، والبيان، وحسن النظم والتأليف وهذا إن كانوا صادقين في دعواهم. . أما من حيث التبليغ والدعوة، فالتحدي هنا، شأنه في كل الحالات، ليس إلا مؤازرةً وتصديقاً للنبيّ الكريم بأن يثبت في وجه الكفار، ولا يضيق صدره بما يقابلون به دعوتهم للهدى من التعنت والاستكبار والافتراء عليه. . ولكي يعلموا أن هذا النبيّ معصوم عن الافتراء، والاختلاق والتقوّل، وأنه لا يبلّغ إليهم إلا قول رب العالمين. . ولعلَّ في ذلك ما يكبح جماح عنادهم، فلا يطلبون منه المعجزات والخوارق وما إلى ذلك. .

٣ ـ القرآن لا ريب فيه ويتحدى الكافرين أن يأتوا بسورة واحدة من مثله

يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وهنا أيضاً نلاحظ أنه حصر دائرة التحدي أيضاً، ولكن إلى أضيق حيّز ممكن من نسج القرآن، عندما يدعوهم أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثله، لأن أجواء التحدي على مستوى الدعوة ككل هي أوسع وأشمل وأعم. فليس الأمر متعلقاً وحسب برد الافتراء على شخص النبيّ ﷺ، أو بكبح جماح خيالهم وهم يطلبون المعجزات. . بل إن الأمر في الأساس يتعلق بجوهر الدعوة وأصل العقيدة، لأنه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

المسلم

سبق هذا التحديّ دعوةُ الله ـ العزيز الحكيم ـ الناسَ أن يعبدوه، مع تبيان الأدلة لأحقية هذه العبادة، وذلك بقوله تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

فالقضية هنا هي المنطلق، وهي الغاية: إنها الدعوة إلى عقيدة التوحيد التي يحملها محمد ﷺ..

إنها دعوة الحق للناس لأن يوحّدوا ويعبدوا ربهم الذي خلقهم، ولم يكونوا شيئاً، مثلما خلق الذين من قبلهم جميعاً، لأنه ليس من خالق إلاّ هو. وهذه الدعوة هي لصالحكم أيها العباد، فإن عبدتم الله ربكم فقد تتقون بعبادته العقاب والعذاب.

أما الأدلة العقلية والبراهين الحسية على توحيد الخالق، وضرورة عبادته فهي مجملة بالأشياء الأساسية التي لا يكون للناس حياة بدونها.. إنها هذه الأشياء العظيمة: الأرض التي تقلهم، والسماء التي تظلهم، والماء الذي جعل منه كل شيء حيّ، ومنه الأرزاق من الثمار وغيرها..

وبعد الأدلة يأتي الأمر الجازم: فلا تجعلوا لله أنداداً تشركونهم معه في العبادة وأنتم تعلمون أنه الخالق وهم لا يخلقون، ومن له صفة الخلق فهو وحده الإله، ولا إله غيره..

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١ ـ ٢٣.

المسهم

هذا ما أنزله ربُّ السماوات والأرض على عبده «محمد»، الذي بعثَهُ بالدعوة الحق.

فإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ من الآيات، ومن السور، فأتوا بسورة واحدة من مثل سوره التي تجدون فيها من الحقائق ما لا يمكن أن تجدوه في أي كتاب آخر من الكتب السماوية، أو من كتب أهل الأرض..

والدعوة في هذا التحدي ـ كما في كل موضع من القرآن المجيد ـ ليست مقصورة على الكفار والمشركين في زمن الرسالة، بل هي دعوة قائمة أبداً لكل من يشكُّون أو لا يقرُّون بأن القرآن منزل من عند الله تعالى. وليدعوا معهم من يشهد لهم بهذا ـ من دون الله ـ فقد شهد سبحانه وتعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو قائماً بالعدل في خَلْقه، وذلك بقوله الكريم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، كما شهد لعبده ونبيّه محمد ﷺ بالصدق والإيمان بدينه ودعوته.

وعلى كل حال فالنتيجة محسومة سلفاً: ليس من أحد، ولا جماعة، ولا أهل السماوات والأرض لو اجتمعوا، بقادرين على أن يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن. ولذلك كان هذا التحدي الذي ضاقت مساحته إلى الإتيان ولو بسورة واحدة، وكان في مقابله العجز المطلق.

٤ ـ القرآن يتحدى الإنس والجانّ (الثقلين) أن يأتوا بمثله

يقول تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

المسهم

ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[1].

إن معارضة القرآن متعذرة ولا ريب، فقد ثبت بعد أربعة عشر قرناً ونيف أنه المعجزة الحسية الدائمة التي يلمسها الناس بأيديهم، ويسمعونها بآذانهم، ويبصرونها بأعينهم.. والمعجزة ـ أية معجزة ـ كافية بذاتها للتدليل على أنها ليست من صنع البشر، وإلا لما أعجزتهم، وقصَّرت قدراتُهم وطاقاتُهم عن الإتيان بمثلها. وهذا ما ينطبق على حقيقة القرآن، فلا أحد يستطيع أن يغيّر فيه لفظة، أو عبارة، أو آيةً أو سورةً إلى يوم الدين، أو أن يدّعي هذا التغيير، ويكون ما يدّعيه قرآناً أو ما يشبه القرآن!... ومن هنا كان تحدّي القرآن بإعجازه لمن أنكروا أنه منزَّل من عند الله أمثال المشركين والكافرين جميعاً الذين ثبت عجزهم بالفعل، هم وجميع الناس الذين أخذتهم العزة بالأثم، فظنوا أنهم يملكون الاستطاعة على أن يأتوا بمثل القرآن..

ولكن الإعجاز القرآنيّ لم يطرح مسألة تحديه على ساحة الإنس وحدهم، بل تعداها ليطرحها على ساحة الجن أيضاً. وتبرز قيمة هذا التحدي عندما نعلم بأن الإنسان قد حباه خالقه الكريم بالعقل الذي من ميزاته الإدراك والاختيار، وهي الخصيصة التي جعلته سيد المخلوقات على هذه الأرض.. فهو إذن قادر على أن يفعل، أو يعمل، أو يصنع ما يشاء إلا ما كان خارجاً عن طاقته أو قدرته فيبقى عاجزاً حياله.. أما من ناحية الجن، فإن القرآن الكريم نفسه يبيّن لنا بأنه مخلوق أعطي

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٨٨ و٨٩.

المسهم

قدرات فائقة تجعله قادراً على أن يأتيَ بالمعجزات والخوارق، ومن قبيل ذلك إخبار القرآن عن عفريت من الجن أنه قال للنبيّ سليمان عليه السلام بأنه قادر على أن يأتي بعرش بلقيس، ملكة سبأ، من اليمن إلى بيت المقدس قبل أن يقوم من مقامه. . .

ومع تلك القدرات الممنوحة للإنس والجن كان تحدي القرآن لهم بأن يجتمعوا، ويتعاونوا على الإتيان بمثل هذا القرآن. . ثم كان الأمر الجازم على أنهم غير قادرين على ذلك ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾[1]، وكان التعقيب على نفي قدرتهم أن يتقوا غضب الله ربهم، وألا يبقوا مصرّين على عنادهم وكفرهم وإلا كانوا وقوداً للنار التي أعدت للكافرين. .

بل ويرمي النص القرآنيّ في تبيان هذه الحقيقة إلى أبعد من ذلك بكثير من خلال الخصائص التي يتميز بها خلق كل من الإنس والجن، والتي تجعل اجتماعهم على التعاون فيما بينهم أمراً مستحيلاً، فهم من جنسين مختلفين في التكوين إن في الهيئة أو في الطاقة ـ علماً بأننا لا ندري فعلاً كيفية تكوين الجن، ولكننا نعلم أن بين جنسنا وجنسهم اختلافات كبيرة في كل شيء ـ بل ويمكن أن نفهم من النص القرآنيّ أنَّ بعض الجن هم من الشياطين كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾[2]. وفي قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[1].

فالشياطين من الجن هم عدو للإنسان، ولم يثبت وجود اتفاق أو تعاون بين هذين الجنسين المختلفين. أما عملهم للنبيّ سليمان عليه السلام، فهو تسخير لهم من الله تعالى ليعملوا لنبيِّه من أجل إقامة معبد للصلاة. بل ولقد توعدهم ربهم بأنَّ من لا يطيع سليمان عليه السلام فإنه يخالف أمر ربه، وعذابه سوف يكون في النار..

فإذا كان الأمر كذلك من الاختلاف والعداوة بين الناس والشياطين فلا يمكن أن يتعاونوا أو يتعاضدوا.. فإذا فُرض واجتمعوا على أن يأتوا بمثل القرآن، فلن يقدروا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وعضداً ومعيناً على هذا الأمر..

ومثل هذه الحقيقة هنالك حقائق كثيرة غيرها قد أوردها القرآن الكريم قد تستعصي على الناس، ولا يمكن لهم إدراكها، أو الوقوف على مضامينها وغاياتها.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[2].. فالقرآن ليس فريداً في المبنى والمعنى وحسب، بل ويتفرَّد في تكامله بما يقدمه للناس من براهين على عظمة الخالق، وعلى عظيم خلق السماوات والأرض، وما يهديهم إليه من سبل الإيمان والرشاد، وما يبين لهم من المناهج والأحكام، أي كل ما هنالك من القضايا التي

(١) سورة سبأ، الآية: ١٢ و١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.

المسهم

تتعلق بالحياة الدنيا، وبالحياة الآخرة. ومع ذلك فإن قضايا أخرى عظيمة قد أحاط بها علم الله، إلا أنه تعالى قد قضى في علمه الأزليّ أن تبقى مغلقة على الإنس والجن لأنها من القضايا التي لا تقدر طاقات البشر ولا قدرات الجن عليها..

فإذا كان القرآن على ذلك الاتساع والشمول والعمق في احتواء الآيات والمعاني والقضايا، فهل تقدر مخلوقات ـ مهما كان جنسها، ومهما تميزت به من الخصائص الذاتية ـ على الإتيان بمثله؟ ولذلك كان التحدي للثقلين معاً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وكان بالمقابل عجزهما عن ذلك ثابتاً وأكيداً.

وعلى الرغم من كمال القرآن فقد أبى أكثر الناس إلا كفوراً وعناداً.. فلم يصدقوا ما يتصف به هذا الكتاب المجيد، وما يتفرَّد به من الإعجاز الذي يجعله فوق مستوى الإنس والجن، فأبوا إلا المماحكة والادعاء بأنه من عند محمد ﷺ وليس هو قول الله الحق!..

وبسبب هذا الإصرار على الكفر وعدم الإقرار بحقيقة القرآن، كان الإنسان أكثر شيء جدلاً. في حقيقة هذا القرآن العظيم. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

وهذا الجدل قد تبين لنا عندما كان الكفار والمشركون يدّعون تارة بأن محمداً ﷺ يتقوَّل القرآن، وتارة أخرى عندما كانوا ينسبون إليه بأنه افتراه من عنده، أو عندما كانوا يجادلونه على نزوله عليه

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

المسلم

متفرقاً، وليس جملةً واحدةً أو دفعةً واحدة.. أو عندما كانوا يريدون إظهار عجز النبيّ ﷺ لردع الناس عنه. ومن قبيل ذلك سؤالهم التعجيزيّ عن الروح، أو طلبهم المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله العليّ القدير. بل قد بلغ بهم الحال أن يطلبوا من النبيّ ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن الذي يتلوه عليهم، كما يتبين في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

أجل، فقد بلغ الكفر بمن لا يرجون لقاء الله ربهم، ولم يصدقوا الوعد والوعيد بالبعث والحساب أن ينكروا كلَّ ما يُتلى عليهم من آيات القرآن البيّنات، التي تبيّن لهم الأمثال، وتروي لهم قصص الأمم الغابرة، أو التي تبيّن لهم القضايا الغيبية بشواهد من واقع الحياة التي يعيشونها، أو تلك التي تسفه أحلامهم وتعيب عليهم عبادة آلهة مدعاة. فكانوا يطلبون من النبيّ ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن، أو أن يبدّله فلا يكون فيه إزراءٌ بعقائدهم وعباداتهم، ولا يفرض عليهم تكاليف وعبادات..

وكان خطابُ الله تعالى للنبيّ الهادي، والرسول الأمين في الردّ على ذلك أن يذكّرهم، ويؤكد عليهم حقيقة بعثه، وحقيقة القرآن، وذلك بمعنى القول الكريم: ما ينبغي لي أن أبدّله من تلقاء نفسي، فما أنا إلا بشرٌ مثلكم، وقد اختارني الله ربي بشيراً ونذيراً للعالمين. وهذا القرآن إن هو إلا وحي يوحى إليَّ، فأتبع الوحي وأبلغه كما أمرت،

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٥.

المسهم

وإني أخاف إن عصيت ربي ـ فلا أبلغ الوحي كاملاً كما يتنزَّل به عليَّ جبرائيل الأمين ـ عذاب يوم عظيم..

وكذلك كان أمر ربه تبارك وتعالى أن يقول لهم ما معناه: لو شاء الله ألاَّ ينزل عليَّ القرآن، وألاَّ أبلغكم إياه ما أنزله، وما تلوته عليكم، ولا أعلمكم به.. ولكن شاء الله ربي وربكم، ورب آبائكم الأولين، أن يتفضل عليَّ بنعمة النبوة، وأن يرسلني بالدين الحق، فأنزل عليَّ هذا القرآن الذي أتلوه عليكم.. فقد لبثت فيكم عمراً قبل أن يبعثني الله تعالى، ولم أدَّعِ طيلة هذا العمر الذي امتدَّ أربعين سنة نبوّةً، ولا رسالة، ولم أتلُ عليكم شيئاً من وحي، أفلا تدركون ذلك وتعقلونه، وأنتم تعلمون سيرة حياتي في الأمانة، والصدق، والخلق القويم؟..

وعلى الرغم من هذه الآيات البيّنات التي كانت تتنزَّل على النبيّ الكريم لمواجهة أهل الكفر والشرك، وما حملته من التحدي الذي يُظهر ضعف الإنسان، وصغره أمام عظمة القرآن المجيد، فقد ظلوا على عنادهم، وعلى تكذيبهم للنبيّ ﷺ، يجادلونه، ويحاجّونه بالباطل دون أن يعقلوا أو ينصاعوا لدعوة الحق المبين. فكانوا حقاً كما أظهر المولى تبارك وتعالى صفتهم: مصرّين على الكفر، وكانت طريقتهم للدفاع عن كفرهم أن يجادلوا أكثر ما يجادلون في هذا القرآن، دون عقل أو تدبر.. إنما عاقبة هذا الكفر ـ بعدما تبيّن لهم الهدى فرفضوه ـ لن تكون وفقاً للعدل الإلهيّ، إلا الخسران المبين..

٥ ـ بعض ملامح التحدي القرآنيّ

لقد تبيّن لنا مما تقدم أن التحدي ورد في أربع سور متفرقة من القرآن المجيد (البقرة: ٢٣ ـ هود: ١٣ ـ الإسراء: ٨٨ و٨٩ ـ الطور:

المسهم

٣٣ و٣٤) وهي تحمل على الكافرين والمشركين لتأكيد أمرين جوهريين:

الأول: أن القرآن هو كتاب لا ريب فيه، وأنَّهُ منزَّلٌ من عند الله تعالى.

الثاني: أنه وحيٌ يُوحى من رب السماوات والأرض لعبده محمدٍ ﷺ الذي بعثَهُ بشيراً ونذيراً للعالمين.

أما وجه التحدّي فيه فهو أن هذا القرآن أنزل بلسان عربيّ مبين. وعلى الرغم مما كان عليه العرب من الفصاحة والبلاغة والبيان، فإنه يختلف عن كلامهم كله، لأنه نزل على نظم مخصوص، وبلاغة وفصاحة لا يستطيعون أن يدانوهما. ولذلك كان اللفظ، والتعبير وأسلوب الأداء من ميزات الإعجاز في هذا الكتاب، حتى للعرب أنفسهم، الذين نزل بلغتهم.. ذلك أن البلاغة ـ التي كانوا يتغنون بأنهم أسيادها ـ تكون على ثلاث طبقات:

فأعلى طبقاتها معجز، وأدناها وأوسطها ممكن.

والتحدي القرآنيّ وقع في الطبقة العليا، ومن هنا كان عجزهم عن عدم الإتيان بشيء من مثله حجةً عليهم، ودليلاً ثابتاً على صدق محمد ﷺ، وعلى حقيقة الوحي الذي يبلغهم عنه آيات ربهم..

أما لماذا ذَكَرَ الله (تعالى) التحدّي مرةً «بحديث مثله» ومرةً «بعشر سور» ومرة «بسورة واحدة» فلأن التحدّي إنما وقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام، فتحدى بالوجه العام، ثم بالأكثر، ثم بالأقل..

ثم إذا علمنا بأن الكافرين والمشركين ـ وكثيراً غيرهم من أهل

المسهم

الكتاب ـ قد شنّوا على النبيّ ﷺ وأتباعه حروباً نفسية لا هوادة فيها ـ لما كانت تحمل من الإشاعات المغرضة التي تكفي بذاتها لصد الناس عن الدعوة ـ وحروباً قتالية فعلية بذلوا من أجلها الأنفس والأموال وما حلَّ بهم من الهزيمة، والقتل، والذل، وذهاب السيادة التي كانوا يتمتعون بها على سائر قبائل العرب في الجزيرة. . أجل لو علمنا ذلك لأدركنا كم كانوا على ضلال، وكم كان التحدّي ضرورياً لأن يعيدهم إلى عقولهم، فلا يركبون مركب الجهالة، ولا مركب الهزيمة، وقد أدت كلها إلى عجزهم حتى بالاستطاعة التي يملكونها وهي: الكلام. . فتلك الحروب هي البرهان على عجزهم هذا، إذ لو قدروا على معارضة القرآن، والإتيان بشيء من مثله، لكان ذلك أهون وأيسر عليهم من الحروب والقتال، وبذل الأموال والأنفس. . وهذا أمر ينبع من طبيعة الإنسان التي تملي عليه ألا يعدل عن الأسهل إذا كان ينيله الهدف إلى الأصعب، وركوب الخشن من أجل ذلك. . فالأمر الأسهل كان بالنسبة إليهم معارضة القرآن، أو الإتيان بمثله، أما الأمر الأصعب فهو ذلك القتال، وتلك الغزوات التي شنّوها للقضاء على الدعوة، ومن ثَمَّ لتكذيب القرآن والوحي. واختيارهم للأصعب كان بذاته كافياً لإثبات عجزهم وإفلاسهم عن الإتيان بشيءٍ من مثل القرآن، وبالتالي للتأكيد على مصداقية التحدّي!.

على أن من يطلع على القرآن ويفقه معانيه يدرك تماماً أن إعجازه لا يقف عند حدود سورة من سوره، أو آية من آياته، بل هو ينتصب في مطلع سور كثيرة مُفْتَتحة بالأحرف النورانية ـ التي قال بعض المفسرين: إن افتتاح بعض السور فيها إنما يعني أن هذا الكتاب المنزَّل من عند الله (تعالى) هو مصوغ من تلك الحروف التي في

المسهم

أيديهم ـ بينما في الحقيقة إن مثل هذا الافتتاح واستعمال هذه الحروف يبقى سراً مغلقاً على الناس، وإن ما ذهب إليه المفسرون، في شتى التفسيرات، لا يعدو ضرباً من الاجتهاد الذي يثاب عليه صاحبه..

أما حقيقة إعجاز القرآن، فهو أنه ـ كما ثبت ـ ليس من كلام البشر، وإلا لما كان هذا التأكيد الجازم من الله العليّ العظيم على أن الإنس والجن لو تطاولوا، وحاولوا الإتيان بمثل القرآن فإنهم عاجزون عن ذلك عجزاً مطلقاً، ولذلك كانت حجة القرآن عليهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

فالتأكيد الجازم: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي لن تستطيعوا الإتيان بمثل هذا القرآن، إنما يدلُّ على شيء واحد، وهو أن النتيجة محسومة سلفاً وهو عجزكم، إذن فاعقلوا، وأدركوا أيها العباد هذا الأمر، وإلا فسوف يكون مصيركم إلى النار التي أعدت لكم بسبب هذا الكفر الذي تصرّون عليه بعد ثبوت الدليل العقليّ، والبرهان الحسيّ من أنفسكم بالذات، ألا وهو عجزكم المطلق عن الإتيان بمثل القرآن..

والخطاب: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ هو للثقلين معاً ـ الإنس والجن ـ وعلى مدار الزمان، وليس مقصوراً على جيل، أو أمة.. وهو وحده يكفي لأن يكون حجّة للقرآن في وجه جميع معارضيه، وكارهيه إلى يوم القيامة..

٦ ـ تفصيل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

المسلم

لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

روى أحمد والطبراني وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «مرَّ الملأ من قريش على رسول الله وعنده خباب بن الأرث وصهيب وبلال وعمار، فقالوا: يا محمد! أرضيت بهؤلاء، وهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا، لو طردت هؤلاء لاتبعناك، فأنزل الله فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. إلى قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

إنها قصة المستكبرين أينما وجدوا. إنهم لا يطيقون مجالسة الفقراء والمستضعفين، ولا معاشرتهم، فكيف يكونون وإياهم في مجلس واحد، وعلى مستوى واحد من المساواة وعدم التمييز؟ إنهم يريدون أن تكون لهم وحدهم المكانة الأولى في كل شيء، حتى في أمر العقيدة، وفي قضية الإيمان اللذين يربطان قلب الإنسان بربه، ويجعلان الصلة مقصورة على علاقة الإنسان بخالقه..

هذا ما كان المشركون من أسياد قريش يريدونه، عندما اشترطوا

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٥٢ ـ ٥٥.

المسهم

على النبيّ ﷺ أن يبعد عنه ضعاف المسلمين، وأن يطردهم من مجالسه لأن مكانتهم الاجتماعية لا تسمح لهم بمجالستهم أو أن يكونوا وإياهم على قدم المساواة في الدين الجديد.. ولكن رسول الله أبى أن يستجيب لدعوة أولئك «الكبراء»، لأن دينه يرفض أي اعتبار للفوارق الاجتماعية التي تقوم على الغنى والفقر، أو على النفوذ والضعف. فالمقياس في الإسلام هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فلا مال، ولا جاه، ولا سلطان، ولا مكانة يمكن أن تعطي أيَّ إنسانٍ مكرمةً على غيره إلاَّ التقوى، فهي الميزان الحق الذي يفرق بين الناس، ويجعل هؤلاء في مرتبةٍ أعلى من رتبة أولئك .

ونزل الوحيُ يثبّت النبيَّ على موقفه؛ إذ إنّ عليه أن يبلّغ الناسَ بما تحمل الآيات المنزلة من النذير المبين، ومن ثمَّ فلا يطرد الذين يعبدون ربهم، ويتوجهون إليه بقلوب عامرة بالإيمان، يدعونه في الصباح والمساء مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.. أمَّا أنهم فقراء أو ضعفاء فهذا ليس من شأن أحد، لأن فقرهم أو غناهم مقدَّرٌ من الله، حتى النبيّ نفسه فإن غناه أو فقره بيد الله، ولا يملك أحد هذا الشأن إلاَّ الله سبحانه وتعالى؛ إذن فلماذا يطردهم رسول الله، وهو الذي يدعو الناس إلى دين الرحمة، والعدالة، والمؤاخاة، ولو فعلَ لكان من الظالمين، وحاشا لرسول الله أن يكون من الظالمين، فكان رفضه قاطعاً في الاستجابة لرغبة زعماء قريش الذين إن دخلوا في هذا الدين فهو لصالحهم، وإن استكبروا عنه ـ بسبب هؤلاء الفقراء والضعفاء ـ فالذنب يقع على عاتقهم، لأن ذلك يعني بقاءهم على الشرك، وهو الظلم بعينه، بل إنّ الشرك لظلم عظيم لو كانوا يعلمون!...

المسهم

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1]..

فالاستكبار على المؤمنين المساكين هو بذاته فتنة، إذ لم تتقبّل عقولهم، ولم تقتنع نفوسهم بأن يكون مواليهم وفقراؤهم أهدى منهم. وتلك الفتنة هي ما ابتلاهم الله به، لأنه يعلم ما في الصدور. وقد ظهرت تلك الفتنة على ألسنتهم بقولهم: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا فهداهم إلى الخير الذي يدعو إليه محمد؟ إنه لو كان ما جاء به محمّد خيراً لما سبقونا إليه ولما جعلهم الله أفضلَ مِنّا، أو منَّ عليهم من بيننا، وتركنا نحن أصحاب الجاه والمال، وذوي السيادة والمقام!..

ويردُّ القرآنُ عليهم مستنكراً ظنونهم وأفكارهم العقيمة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.. وبفضل هذه النعمة العظيمة التي يقرون بها نجدهم حامدين، شاكرين لا يعبدون إلاَّ الله، ولا يتوجهون بالدعاء إلاَّ إلى وجهه الكريم. وهذه النعمة إنّما يختص بها الله من يعلم أنهم شاكرون لها، وسيجزي سبحانه الشاكرين على شكرهم. وشتان ما بين جزاءٍ محمودٍ على شكر نعمة الإسلام، وبين جزاءٍ مذمومٍ على جرم الكفر أو الشرك، والله أعلم بالشاكرين لأنعمه وهو أعلمُ بالجاحدين لهذه الأنعم. ثم يأمرُ الله تعالى نبيَّه محمداً بتعظيم المؤمنين، الذين يؤمنون بآياته، ويصدقون بالحجج والبراهين التي تنطوي عليها هذه الآيات، وذلك بأن يبدأهم ـ وهو رسول الله والنبيُّ الهادي ـ بالسلام فقل «سلام عليكم»..

إنه السلام الذي يملأ نفوسهم بالطمأنينة والراحة. فلا يخافون أن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

المسهم

يطردوا من مجالس رسول الله، ولا أن يُبعدوا عن رحمته ورأفته بهم؛ لا بل هو رضًى من ربهم الحميد الذي أسبغ عليهم فضل السبق إلى الإسلام، فكانوا أهلاً لأن ينعموا بأمان الله وسلام رسوله. وزيادة في تكريمهم والإنعام عليهم، فإن الله يبشرهم بأنه كتب على نفس الرحمة أنه من عمل منهم سوءاً بجهالة، ثم تاب من بعده، وأصلح نيته وعمله فأنه تعالى غفور رحيم.. وهذا يعني أن الله عز وجل أمرَ نبيَّه بأن يقبل عذر من عمل سوءاً، وكان يجهل عاقبةَ هذا السوء، ثم يبشِّره بالسلامة لمن اعتذر وأناب إلى ربه، بل ويؤمِّنه بأن الله مولاه أوجب على نفسه الرحمة إيجاباً مؤكداً بأن جعل هذه الرحمة للذين آمنوا بآياته، ثم أخطأوا عن جهل، ثم تابوا عن خطأهم بعد علمهم به.

وقد يحتمل النص: ﴿أنه من عمل سوءاً بجهالة﴾ أي كان جاهلاً للمكروه فيه، لأن البعض يفسِّر الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب، فما يذنب الإنسان إلاَّ عن جهالة، أو أنه علم أن عاقبة هذا السوء مكروهة، ولكنه آثر العاجل، فجعل جاهلاً لإيثاره النفعَ القليلَ على المنافع الكثيرة، والمتعة الزائلة على العافية الدائمة. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1]، فالتوبة التي تتأتَّى عن الرحمة التي كتبها الله على نفسه للذين يعملون المعصية إنما هي لأنهم كانوا جاهلين بأنهم يعصون ربهم، ثم يتوبون من قريب، أي قبل أن يدركهم الموت، فأولئك يقبل الله توبتهم. والله تعالى عليم بخلقه، وبضعفهم الذي يرتكبون بسببه المعصية، ثم لا يصرون عليها. وهو سبحانه حكيم بما جعل في نفوسهم من قابلية

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

المسهم

لتجاوز هذا الضعف وعدم الوقوع في المعصية مرة أخرى، ثم الرجوع إلى ربهم طلباً للتوبة والمغفرة. . ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

«وكذلك» أي كما قدمنا من الدلالات على التوحيد والنبوة والقضاء، «نفصِّل الآيات» أي نميّز الحجج والبراهين والشواهد ونبيّنها ونشرحها على صحة قولكم ـ يا محمد ـ وبطلان ما يقوله هؤلاء الكفار.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ليعرف السامع أو السائل، أو لتعرفَ أنت يا محمد ـ في حال كانت «سبيل» على النصب ـ سبيلهم. وسبيلُهُم ما هم عليه من الكفر والعناد، والإقدام على المعاصي والجرائم المؤدية إلى النار وقيل: إن المراد بـ«سبيلهم» ما عالجهم الله به من الإذلال واللعن والبراءة منهم، والأمر بالقتل والسبي ونحو ذلك.

وإذا سُئل: ما المشبه وما المشبه به في الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ فالجواب:

الكاف: أداة تشبيه، وقد جاء هذا التشبيه في موضع نصب لأنه مفعول «نفصِّل».

و«الواو» في «ولتستبين» للعطف على مضمر محذوف، وتقديره: لتفهموا، ولتستبينَ سبيلُ المجرمين والمؤمنين أو جاء الحذف لأن فيما أبقى دليلاً على ما ألقى.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

المسهم

فيكون المشبه والمشبه به: التفضيل في صفة المهتدين وصفة الضالين مشبَّه وتفصيل الدلائل على الحق من الباطل في صفة غيرهم من كل مخالف للحق.

أو أنه: كما فصَّلنا ما تقدم من الآيات لكم نفصِّله لغيركم.

«ومن هذا يتبين أن النص قد جاء شاملاً لكل سوء يعمله صاحبه متى تاب من بعده وأصلح عمله، وذلك لأن النصوص الأخرى في القرآن الكريم تجعل التوبة من الذنب ـ أياً كان ـ والإصلاح بعده، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة».

الفقرة الثالثة: الإيمان برسل الله

١ ـ لله تعالى دعوة الحق

يقول تبارك وتعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[1].

إن لله (تعالى) وحده دعوة الحق، التي هي قبل أي شيء آخر، كلمة الإخلاص بشهادة «لا إله إلا الله» الذي لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

ولكي تستقيم هذه الدعوة في عقول الناس ونفوسهم فقد أمَرَ المولى العليُّ العظيمُ رسولَهُ محمداً ﷺ أن يسأل أهل الكفر والضلال:

من يرزقكم من السماء والأرض؟

أم من يملك السمع والأبصار؟

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٤.

المسهم

ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ؟

ومن يدبّر الأمر (بين الخلائق)؟

ولمّا لم يكن لديهم إلا الإقرار بالحق المبين، فقد قالوا: هو الله.

عندها قال لهم: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1] وتشيحون بوجوهكم عن الإيمان مع قيام هذه البراهين التي لا تنكرونها؟!..

فالله هو الحقّ، ومنه الحق، وكلمته الحق، فكانت «له دعوةُ الحق». وهذه الدعوة التي تملأ الضمير والوجدان، والتي تتوجَّهُ إلى الله الحق بالنية الحسنة، والقلب الطاهر، واللسان الصادق هي مقبولة ومستجابة بإذن الله تعالى، لأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

أما الذين يدعون من دون الله ربهم (كشأن الكافرين والمشركين الذين كانوا يدعون تلك الجوامد أو غيرها من معبوداتهم التي لا تنفع ولا تضر، أو كشأن من يعتمدون على أمثالهم من الناس، ويتكلون عليهم في تلبية حاجاتهم من دون التوكل على الله ربهم، ومن دون الاستعانة به في قرارة نفوسهم).. فإن دعواتهم جميعاً لا يمكن أن تستجاب أبداً لأنها ليست موجّهةً إلى الله الحق. ولذا جاء تشبيه القرآن الكريم الذين يدعون من دون الله، من أجل قضاء حاجاتهم، بالرجل الظمآن الذي يبسط كفيه إلى الماء من مكانٍ بعيد ليتناوله ويسكّن به غُلَّته، وهو يتوهم أن الماء سيبلغ فاه، فيرتوي منه.. وهذا محال إذ لا يمكن أن يقفز الماءُ ويبلغ فاهُ لبُعد المسافة بينهما، فكل

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٢.

المسهم

دعواتهم باطلة وفاسدة.. وكذلك كل من يتوجه بالدعاء إلى غير الله (تعالى) ليبلغ غايته، كشأن ذاك الباسط كفيه إلى الماء دون حركة منه أو عمل أو جهد ليبلغ الماء فاه، وما هو ببالغِهِ أبداً..

فالحياة ـ إذن ـ محكومة بالحق، وكل خروج على سنن وضوابط هذا الحق إنما هو إلى ضياع وبطلان.. ولذلك كانت النتائج المترتبة على أعمال الباطل محسومة سلفاً بالخسران. والقرآن الكريم يقرّر هذه الحقيقة في المثال على دعاء الكافرين، حيث يذهب هذا الدعاء بلا فائدة، بل ويرتدُّ بالخيبة على أصحابه، لأن دعاء الباطل لا يقع إلا في باطل، ودعاء الكفر لا يقع إلا في ضلال.

والذين حملوا الدعوة للإيمان بحقيقة وجود الله، والدعوة إلى دين الله هم الأنبياء والمرسلون، ومن سار على هديهم من أولياء الله الصالحين وعباده المخلصين، فكان حرياً بالناس أن يؤمنوا بحقيقة بعث النبيين والمرسلين، وأن يصدقوا بما جاؤوا به من ربهم تبارك وتعالى كما تبيّنه الآيات المباركة التالية.

٢ ـ الرسلُ بشر مثل سائر عباد الله من الناس

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

إنه تذكير للمشركين والكافرين بأنباء الأقوام الذين من قبلهم مثل قوم نوح وعاد وثمود والذين جاؤوا من بعدهم، وهم كثير لا يعلمهم إلا الله الذي بعث الرسل لهدايتهم، فأبوا، وكذبوا بكل ما أرسلوا به، وهم يعلنون ذلك صراحة فيقولون: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.. ولكنَّ الرسل ينكرون بدورهم على الكافرين كفرهم، وعلى الشاكين بدعواتهم شكوكهم، وذلك من خلال هذا الحوار الرصين بين الفريقين، وهو كما يبدو حوار هادىء، بليغ بدلالاته المقنعة على الحق الذي يدعو إليه أولئك الرسل المهتدون..

قالت الرسل:

أفي الله ـ تعالى ـ شكّ فاطرِ السماوات والأرض؟ وخلقه هذا يدل على حقيقة وجوده، وبأنه هو الخالق العظيم؟ إنه هو ـ جلت عظمته ـ الذي يدعوكم، وما نحن إلا مبلِّغون لهذه الدعوة، وحاملون للبيّنات على صدق هذه الدعوة.. وإن يَدْعُكُمْ ربّكُمُ الله العليّ الكبير أيها العباد، فإنما ليغفرَ لكم من ذنوبكم التي اقترفتموها، جراء الكفر الذي هو أكبر المعاصي على الإطلاق. فالدعوة التي نحمل إليكم هي دعوةٌ للإيمان بالله الحق، الدعوة هي لخيركم، وفلاحكم في الدنيا والآخرة، فإن أنتم آمنتم غَفرَ لكم من ذنوبكم ما لا تعلمون. وهذا الغفران هو منتهى الرحمة من ربكم، لأنه يُنجيكم من العذاب يوم

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٩ ـ ١١.

المسهم

الدين. بل ورحمته أوسع عندما يؤخركم إلى أجل محدود أنتم بالغوه بحيث تكون لكم فسحة للتعويض عما فاتكم من الطاعة والعبادة، ومن ثَمَّ الاستقامة على منهج الإيمان الذي يكفل لكم الفوز والنجاة.

قال الكفار: كلا لن نصدق ما تزعمونه بأنكم مرسلون من الله، ومبعوثون لهدينا، إنْ أنتم إلا بشر مثلنا، وتحاولون أن تصدُّونا عما كان يعبد آباؤنا، فإن كنتم صادقين في دعوتكم فأتونا ببرهان بيّن، أو حجة ظاهرة على صدقكم!.

قالت لهم رسلهم: إن نحن إلا بشر مثلكم، وها نحن أمامكم بأجسادنا البشرية التي لا نتنكَّرُها، ولا ندَّعي غيرها.. وسنة الله (تعالى) في خلقه ألا يبعث رسولاً لقوم إلا من أنفسهم، وبلغتهم، وهو ـ سبحانه ـ يمنُّ بهذا الفضل العظيم، وبنعمة النبوة وحمل الرسالة، على من يختار من عباده الصالحين. وأنتم تعرفون حق المعرفة أننا أبناء قومكم، وإخوانكم في اللحم والدم والموطن، وقد عشنا بينكم زمناً قبل بعثنا رسلاً من ربنا وربكم.. فآمنوا بما ندعوكم إليه، ودعوتنا فيها البيّنات على صدقنا. أما أن نأتيكم بمعجزات، فليس لأي نبيّ أو رسول أن يكون له ذلك إلا بإذن الله فالمعجزات منه تعالى، فإن شاء أظهر معجزاته على يدي رسله، وإلا فالأمر له عز وجلَّ، وما كان لنا، نحن البشر أمثالكم، أن نأتي بأية معجزة، أو بأي برهان أو حجة إلا بما يُوحى إلينا..

ويتابع رسلُ الله قائلين: لقد آمنا بما أنزل إلينا من ربنا، ومن يؤمن بالله، رباً كريماً له، فهو حسبه، ويوكل إليه الأمور جميعاً في هدايته، وهداية عباده. ونحن نتوكل على الله في دعوتنا، ولا نلتفت

المسهم

إلى عون إلا عونه، ولا نركن إلى حمىً إلا حماه، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

٣ ـ بلاغة دعاء الأنبياء ومثالها دعاء أيوب عليه السلام

يقول اللَّهُ تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

إنها مواساة من الله تعالى لرسوله الكريم محمد ﷺ بأن يتذكَّر أخاه أيوبَ عليه السلام، وما حَصَلَ له من البلاء، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾.. وهنا تبرز الصيغة الجميلة في دعاء أيوب عليه السلام، وهو يرفع صوته منادياً: يا ربِّ!.. فالنداء الذي يتوجه فيه الإنسان إلى ربه هو دعاءٌ من الأعماق، فمثلاً إذا قال: «اللهم ارحمني»، كان داعياً، وليس منادياً. ولذلك تبقى في النداء صرخةٌ أعمقُ في طلب الرحمة، ولهفة أشدُّ للاستجابة..

وبماذا نادى أيوب عليه السلام ربَّه؟ ناداه: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي نادى أيوب عليه السلام: يا رب! لقد أضرَّني الشيطان فأتعبني، وعذَّبني بوسوسته الخبيثة لي، فأسألك وأتضرع إليك أن تصرفه عني، فأنا عبدك وراضٍ بحكمك عليَّ، وأنا فقير إليك، وصابر على بلائك، ومحتسب لجميل صنعك بي..

كان الشيطان يوسوس لأيوب عليه السلام ويحرّضه على عدم

---

(١) سورة ص، الآيات: ٤١ ـ ٤٣.

المسهم

الصبر، بما ينفث من سموم الكذب والمكر، ويوهمه أنَّ ربه قد سلب منه الصحة والمال وأخذ منه الولد والأهل، فلم يبق له شيء إلا المرض والعذاب.. فأولاده على كثرتهم قد ماتوا، وأمواله وأرزاقه على وفرتها قد تبددت، وأنعامه ومواشيه على عديدها قد ذهبت.. وكل ذلك قد حدث، وفوقه ما أصابَهُ من مرض عضال، ما يزال يضنيه منذ أعوام عديدة، وأيوب صابر على البلاء، لا يني عن ذكر الله ودعائه بأن يرحمه ويشدَّ أزره على الاحتمال.. ولم يهدأ كيدُ الشيطان وهو يرى أيوب على تلك الحالة من الصبر، فراح يدسُّ في نفسه الوساوس في محاولةٍ خبيثة لكي ييأس، ويقنط من رحمة الله، وراح يزيّن له ما كان يعيش فيه من الغنى والثروة، وما كان يأنس به من وجود الأولاد والأحفاد، وهم أعز شيءٍ عند الإنسان في دنياه هذه. ثم يعود ليصور له حجم المأساة التي وقع بها وقد ذهب عنه كل ذلك إلى غير رجعة، ودون أن ينسى مصابَهُ في نفسه وما حلَّ به من المرض الشديد، والبلاء العظيم.. وكان همُّ الشيطان اللعين وطمعه أن يُزلَّ هذا العبد من عباد الله المخلصين، الذي اجتباه ربُّه لحمل الرسالة، ثم أوقعه في البلاء لاختباره، ولذلك قَعَدَ له مستميتاً في صرفه عن التوجه إلى الله، وهو يسلك إلى ذلك طريق التضجُّر والتبرُّم من الحالة التي كان عليها النبيّ الصابر.. ولكن خسيء الشيطان الرجيم، وخابت كل جهوده، فما وجَدَ، في نهاية المطاف، إلاَّ عبداً صابراً، محتسباً، مستسلماً لأمر الله تعالى، ومسلّماً بقضائه وبلائه..

وقيل في عمل الشيطان إنَّه لم يكتفِ بوسوسته لأيوب عليه السلام إبَّان اشتداد المرض عليه، بل راح يوسوس للناس بأن يبتعدوا عنه، وألاّ يزوروه، أو يقدموا له أي عونٍ، بل وأن يجافوا امرأته حتى لا

المسهم

تدخل عليهم في بيوتهم، إن كانت ترغب بالبقاء على خدمة زوجها، ومواساته من دون سائر الناس.. وهذا ما جعل أيوب عليه السلام يتأذّى كثيراً من ضرر الشيطان له، ومن الألم الذي يناله بسببه، في حين أنه لم يتأفف ولم يشْكُ من آلام المرض التي هي ابتلاءٌ من الله تعالى له..

وصبر أيوب عليه السلام على عذابه وألمه سبع سنين، لم ينفك خلالها عن مقاومة الشيطان، وطرد وساوسه من نفسه، والاستعاذة بالله تعالى منه، محيلاً الوساوس إلى دعاء صادق للمبتلين، والدسائس إلى نداءٍ صارخ للعابدين علَّ ربَّهُ يخلصه من بلاء الشيطان، ويرحمه مولاه من عذاب البلاء.. فاستجاب له ربُّهُ، فأوحى إليه أنْ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي اضرب الأرض، حيث أنت مُقعدٌ برجلك، فترى آية الله تعالى في الاستجابة لك...

وما كاد أيوب عليه السلام يفعل ما أمرَهُ به الوحي حتى كان الماء يتفجَّر عند قدميه. فقال له: هذا ماء بارد فاغتسل، واشرب.. وامتثل أيوب عليه السلام، فإذا بكل أثرٍ لدائه قد ذهب، وعادَ معافًى أحسن مما كان..

ويذكر الله سبحانه وتعالى بعد ذلك الفضل العظيم الذي منَّ به على عبده الصابر أيوب عليه السلام أنه قد وهب له أهله ومثلهم معهم، وعوَّضه عن الذين ماتوا من أولاده، أولاداً غيرهم. وذلك رحمةٌ منه ونعمة، وعظةٌ لأولي الألباب، وأصحاب العقول الذين يتفكَّرون في مثل هذه الأحداث، التي هي آيات مبيّنات على أنَّ الله تعالى على كل شيء قدير، وهي ليست مقصورة على النبيّ أيوب عليه السلام وحده، بل وأمثالها كثير في حياة جميع عباده الصالحين، الصابرين الذين لا

المسهم

ينفكون عن شكره، وعبادته مهما تألّبت عليهم الظروف أو داهمتهم الخطوب..

وتتأكد تلك الاستجابة لأيوب مرة أخرى بقوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[1].

ففي سورة «الأنبياء» كما في سورة «ص» نفس المعاني التي تشير إلى الحالة التي كان عليها النبيّ أيوب وإلى رحمة الله التي حلّت به. والقرآن الكريم يكرر قصته في أكثر من سورة تأكيداً على عظاتها ومراميها، بحيث تجتمع في النصوص البلاغة وصوغ الألفاظ لتؤدي المعاني المطلوبة تارة بالإطناب والإسهاب، وتارة بالاختصار والتقليل في اللفظ، ليكون ذلك عبرة لذوي الأفهام، وتنبيهاً إلى ذوي الأبصار أن الذي يأتي بمثل هذا الأسلوب ويستعمل هذه الطريقة في الأداء ليس من البشر، لأن البشر لا يقدرون على تبيان نفس المعاني بصيغ مختلفة وبألفاظ تكثر في موضع، وتقل في موضع آخر، ويكون لها في كل مرة الوقع والجرس اللذان يبرزان المعنى ويؤديان نفس الأثر في القلوب.. فالقصة هي عينها، والأداء والأسلوب هو ذاته، وغالبية الألفاظ تكاد تكون نفسها، وفي آيتين من كل سورة بلا زيادة أو نقصان. وكذلك هي المعاني التي تدلّ الناس على أن الله هو الذي يعطي ويهب النعمة، وهو الذي ينشر رحمته الواسعة على عباده بلا حدود ولا قيود. وأما ما يصيب العباد من الضرُّ والبأساء، أو من الشدة

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣ و٨٤.

المسهم

والبلاء، فإنها عوارض يمحّص الله بها القلوب، ويثيب العابدين الصابرين بما يستحقون من الأجر والثواب.. وليس أعظمُ ثواباً لأيوب عليه السلام في دنياه من أن يشفيه ربُّهُ من مرضه العضال، وليس أوسعُ رحمة تنزل به من أن يعيد له ربُّه زوجَهُ أكثر شباباً وحيوية ونشاطاً، وأن يعوِّضه عن أبنائه الذين ماتوا جميعاً، ويزيد عليهم مثلهم، وليس أكبر نعمةً يتلقّاها من أن يفيض عليه الرزاق الكريم من الأرزاق والخيرات أضعاف ما كان عنده قبل الابتلاء..

ذلك ـ وهنا العظة البالغة ـ لأن أيوب عليه السلام لم ييأس ولم يقنط من رحمة ربه، ولم يخضع لوسوسة الشيطان وغوايته، بل صبر على حكم الله (تعالى) وتوكّلَ عليه، فلم ينقطع قلبه ولسانه عن ذكر الله، وعن عبادته، وشكره والثناء عليه في الضرّاء كما في السرّاء، فاستحق تلك الرحمة المباركة العظيمة لأنه من عباد الله الصابرين. وإن في مَثَله ذكرى للعابدين ليصبروا مثلما صبر، فيثابوا على إيمانهم بربهم، وعلى صبرهم على ابتلائه بما يستحقون من الأجر العظيم.

ويثبت القرآن الكريم أنه ما من زمانٍ إلاّ وله نبيٌ أو رسولٌ من الله للناس، ولكنَّ أكثر الناس ما كانوا مؤمنين، فكان يأتيهم الهلاك.. حتى بعث ربنا تبارك وتعالى أبا الأنبياء إبراهيم، ومن جاء بعده من سلالة النبوة الطاهرة، فتنزلت معهم الكتب السماوية التي تحمل البشير والنذير؛ فمن آمنَ آمن عن بيّنة، ومن كفر كفر عن بيّنة، والحساب يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه.. وقد ختمت الرسالات السماوية بخاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ الذي تنزَّل عليه القرآن المجيد ليكون الحكم والشاهد على الناس إلى يوم القيامة.. ودائماً كان الخيار للإنسان، صاحب العقل الموهوب، بأن يختار أي الطريق الذي يوصله إلى

المسهم

النجاة والفوز يوم الدِّين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ من أتى الله (ربه) بقلب سليم.

الفقرة الرابعة: الموتُ والقيامةُ والبعثُ

أولاً ـ الموت

من الناس ـ ومن أهل الكتاب بالذات ـ من يعتقدون بأن الموت دخيل على الحياة البشرية، بمعنى أنه لم يكن مقرراً أساساً في علم الله السابق عندما خلق الله (تعالى) آدم. بل خلقه وأراد له الخلود، إلا أنه ارتكب الخطيئة، وهي التي جرَّت بدورها إلى خطيئة الجنس البشريّ عامة، باعتبار أن جميع البشر هم أبناء آدم، فكان الموت عقوبةً على الخطيئة، بعد أن يسلك الإنسان (بصفته ابن آدم) رحلة العذاب على الأرض، تكفيراً عن الخطيئة التي يرتكبها، والتي تعود بدورها إلى خطيئة أبيه عندما أغواه إبليس اللعين.

والحق، أن الموت ليس دخيلاً على حياة البشر، وأن الإنسان لم يخلق ليبقى في الحياة الدنيا خالداً مخلَّداً، بل إن الله تعالى قد خلق الإنسان وجعل له مصيراً محتوماً بعد حياته الأولى وهو الموت، كما أنه تعالى قد خلق الحياة لتكون بلاءً يختبر به الخالق عباده على الصبر، والاحتمال، والاستمرار في طاعة ربهم، فلا يعبدون إلهاً غيره، ولا يشركون به رباً سواه.

يقول تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1].

(١) سورة الملك، الآيتان: ١ و٢.

ويقول تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1].

أجل الله هو مالك السماوات والأرض، وله الملك مطلقاً، فلا يشاركه أحدٌ في ملكه. فتبارك الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، يتصرف بملكه خلقاً وعبيداً كيف يشاء، ويقدِّر لهم ما يشاء، فلا يعجزه شيء في ملكه.. ولا يجادل أحدٌ في هذه الحقيقة التي تدل عليها طبيعة الوجود كله في خضوعه لخالقه، والانقياد للسنن والنظم التي أوجدها الخالق لتسيير وتدبير هذا الوجود..

ولأنه ـ سبحانه ـ تفرَّد بالخلق، فقد خلق الموت والحياة، بل وجعل الموت سابقاً على الحياة ـ كما يدلُّ عليه النص الكريم ـ ليدرك الإنسان بأنه ما خلق إلا ليموت. والحياة في الأصل تحتّم عليه الحركة والعمل، وذلك ضمن الاختيار الذي أعطيه كخاصّية من خصائصه البشرية، والتي بمقتضاها يملك العقل والإرادة اللذين يجعلانه يختار بين أن يعمل بطاعة ربه ـ عز وجل ـ ويمتثل لأوامره ونواهيه، وبين أن يكفر بعبادة ربه، ويرتكب المعاصيَ والذنوبَ التي تقوده إلى الضلال والبهتان..

وأما الحالات الأخرى، التي يمرُّ فيها من الصحة والمرض، والغنى والفقر، والسعادة والشقاء.. وكل ما يمكن أن يندرج تحت هذه العناوين الكبرى من حالات.. فذلك كله ابتلاء، يمتحن فيه الله عباده ليمحّص الطائعين من العاصين، فتكون العقبى الحسنة لمن

(١) سورة الرحمان، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

المسهم

أحسن عملاً، والعقبى السيئة لمن ساء عملاً.. على أن ذلك كله مرتبط بالإيمان بالموت، وأن الإنسان محاسبٌ ولا ريب بعد الموت على ما فعل في الحياة الدنيا..

وإن الواقع يدّلنا على أن الموت والحياة هما من سنن الله في خلقه، وهي سنن ثابتة لا يطرأ عليها أي تحويل أو تبديل «ولن تجد لسنة الله تبديلاً».. فلا يكون، والحالة هذه، للخطيئة التي يرتكبها ابن آدم، ولا لأي شيء يصدر عنه من خير أو شر أيَّةُ علاقة بالموت.. وما دام الموت من سنن الله التي لا دخل فيها للإنسان، لا من قريب ولا من بعيد، فإن المعاصي التي يرتكبها، أو الطاعات التي يقوم بها، ليست هي سبباً للموت، بل هي المحور الذي تترتب عليه النتائج والآثار التي يتقرر على ضوئها مصيره يوم الحساب. ولذلك جعل الله الموت والحياة ابتلاءً، ليميز بين عباده أيّهم أحسن عملاً.. فعندما خلق البارىء المصور الإنسان، ونفخ فيه من روحه ليكون بشراً سوياً، فإنما قضى له حياة في دار الدنيا، وقضى له أجلاً مسمّى يموت فيه، ثم يحييه تارة أخرى لتكون له الحياة الأبدية.. وتلك الحياة الأخرى لا بد وأن تسبقها القيامة والبعث حتى يتحقق أمر الله وقضاؤه.. وهكذا فإن مسار الخلق البشريّ يبدأ بالنشأة الأولى، التي هي ولادة كل كائن من بني البشر، ثم يعقبها الموت إلى أن تقوم الساعة.. ويبعث الله من في القبور وهي النشأة الثانية. ثم يكون الحسابُ يوم القيامة، لتحل الحياة الأبدية في الجنة أو في النار.. فما معنى الموت، وما معنى يوم القيامة، وما هي الأدلة والبراهين على البعث والحساب؟

المسهم

ألموت، في الحقيقة، هو هذا الفاصل بين دار البلاء، ودار البقاء، وكلما زاد المؤمن إيمانه، وحسن عمله بطاعة الله كثر شوقه إلى لقاء ربه، ولذلك يقول الرسول الكريم: «**لا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه**»[1]. . وليس شوق المؤمن إلى الموت سبباً في هروبه من متاعب الحياة، بقدر ما هو خوف من معصية الله، لأن الإنسان خلق ضعيفاً، وضعفه قد يجرّه إلى ارتكاب الآثام والذنوب، إذا ما غلب عليه هوى النفس، إذ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[2]. .

ولذا نرى أن حب الموت عند المؤمن إنما يبقى منطوياً تحت مفهوم الدعاء المأثور: «اللهم اجعل الموت راحة لي من كل شر، والحياة زيادة لي في كل خير»، أو منضوياً ضمن إطار الدعاء الطيب: «اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي».

وكما يفرح المؤمن بلقاء الموت الذي يخلّصه من دار الابتلاء والشقاء، فإنه يستبشر بيوم القيامة، لأن القيامة انتصار على الموت، والانبعاث إلى حياة الخلود.

على أن الموت، في واقع الأمر، يبقى حقاً مرهوباً، وحقيقة مخوفة، فالمؤمن قد يخاف من الموت إن قصَّر في الطاعة، فيتمنَّى أن يمدَّ ربه بأجله حتى يعوِّض عما فاته. . أما الكافر فإنه يخاف الموت الذي يحرمه من مطامعه وأهوائه في الدنيا، ويسلبه ما ملك فيها. .

---

(١) سنن الترمذي، رقم ٩٧٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

المسهم

وعلى الرغم مما في الموت من مرارة وقهر فإن من قواعد الإسلام الأصلية ما تنبئنا به الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1]، وهؤلاء المؤمنون هم الذين أسقطت المفاهيم الإسلامية كل معنىً للخوف من نفوسهم، فمنهم المجاهدون الذين لا يخافون على أي جنب في سبيل الله قتلوا.. ومنهم الصديقون، والأولياء الذي يثقون بربهم، وبرحمته التي وسعت كل شيء، فلا يجزعون من مرض، أو هرم قد يؤدي إلى الموت، ما دامت نفوسهم مطمئنة إلى وعد ربهم الغفور الرحيم..

أما الذين يخشون الموت حقاً وفعلاً فهم الذين يقلقون على مصيرهم يوم القيامة، جراء الظلم والإثم والعدوان، وشتى الجرائم التي ارتكبوها في حياتهم الدنيوية. ومثلهم الكافرون بيوم القيامة الذين يرهبهم الموت ليس خوفاً من بعث وحساب ـ لا يؤمنون بهما أصلاً ـ بل طمعاً بهذه الدنيا التي يسلبهم إياها، ويودي بهم إلى الفناء، بينما هم يطمعون بالبقاء في الدنيا، والاستزادة منها!.

ولكنَّ مجرد التفكير بالبقاء على هذه الأرض، أو الخلود فيها لا يعدو كونه وهماً أو حلماً. ولا نظن أحداً يوهم نفسه بأنه خالدٌ في هذه الدنيا إلا أن يكون الشيطان قد زين له ذلك في الوهم، وفي الحُلُم فقط..

أجل، فقد كانت فلتةٌ من أبينا آدم عندما غافله الشيطان عن نفسه، وزيَّن له الخلود إذا ما أكل هو وزوجُهُ من الشجرة التي نهاهما

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

المسهم

ربهما عن الاقتراب منها. ولكنه سرعان ما عاد إلى نفسه، وعلم أن الشيطان قد أزلّه، وأغواه، فتاب إلى ربه وأناب. من هنا كان الصراع في الحياة بين الخير والشر مطلقاً، إنما أساسه وسوسة الشيطان لبني آدم، منذ أن أخذ العهد على نفسه بإغوائهم أجمعين، إلا عباد الله الصالحين، فإنه لا سبيل له عليهم.

لذلك، كان لزاماً علينا أن نوضح إحدى أهم القضايا الفكرية والإيمانية، ألا وهي قضية الخلود التي أزلَّ بها الشيطان آدم، فعصى، والتي ترتبط بها قضية الموت، وما وراءه من قيامةٍ وحساب.. فعندما خلق الله (تعالى) آدم، إنما خلقه ليعيش على الأرض، في حياة بشرية ودنيوية، ومن ثمَّ ليقوم بمهمة الاستخلاف في هذه الأرض، والدليل مصداق قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

والخلافة تكون في المكان الذي يستخلف فيه مَن جُعل خليفةً، لا في مكان آخر، وقد بيّن الله (تعالى) للملائكة هذا المكان، وهو الأرض، إذن فآدم لم يخلق ليعيش في جنة الخلد وإلا لو كان كذلك لما وجب أن يكون هذا الاستخلاف لعمارة الأرض، ولما وجب أن يكون الابتلاء في الحياة، ولما وجب كذلك أن يكون الموت والنشور، والثواب والعقاب..

وبما أن آدم لم يتقابل وإبليس اللعين في جنة الخلد، لذلك استطاع إبليس أن يغويه بالحلم الجميل، حلم الخلود، الذي ابتدعه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

المسهم

إبليس من عنده، كما يخبرنا الله (تعالى) بقوله العزيز: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[1].

وكان على آدم أن يتنبَّه إلى أن الشيطان عدوه، وقد حذَّره ربه السميع العليم من ألاعيبه الماكرة بقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[2]، فلم يقل له: إنك لن تموت فيها، ولذلك كان الموت مكتوباً على آدم.

أما لماذا نسيَ آدم عداوة الشيطان له ولزوجه، فذلك لأن ضعفه البشريّ قد غلب عليه حيال فكرة الخلود. وفي حالة هذا الضعف يغيب ـ عادة ـ عن الإنسان تفكيره المستنير، وإدراكه الواعي، فيقع في المحظور تماماً كما حصل مع أبينا آدم.. بل هو الضعف الذي جعله يؤخذ بفكرة الخلود، فنسي أن هذا العدو اللعين لا يمكن الوثوق بشيء يقوله، لأنه لو كان يعرف سر الخلود لاحتفظ به لنفسه، وما دلَّ عليه آدم وزوجه قطّ..

وبذلك يتبيّن أنه لولا الضعف الذي تنطوي عليه النفس البشرية لما عصى آدمُ ربه وغوى.. ولكنه سرعان ما ندم هو وزوجته على تلك المعصية، فتابا إلى ربهما، وتضرعا إليه بطلب العفو والمغفرة والرحمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3]. فاستجاب لهما رب العفو والمغفرة، ثم اجتبى آدمَ ربُّه وهداه، فجعله نبياً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة طه، الآيات: ١١٧ ـ ١١٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

المسهم

عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[1]. فزالت بذلك عن آدم عليه السلام أعراض المعصية، ونشط للطاعة بما يرضي الله (عز وجل).

وهنا تبرز حقيقة أخرى هامة وهي أن المعصية التي ارتكبها آدم ـ قبل النبوة ـ كانت بلاءً وامتحاناً من ربه، ولكنه خرج منه فائزاً مرضياً، ليسلك سبيل عمارة الأرض ـ وهنا محور القضية ـ هو وذريته من بعده، وليكون من هذه الذرية أقوام مهتدون، وأقوام كافرون..

فأما المهتدون فهُم: إما تلك الثلة المختارة من النبيين والمرسلين الذين عصمهم الله تعالى عن الخطيئة، وإما هؤلاء المؤمنون بالله ربهم، الذين قد يرتكبون المعصية، ولكن سرعان ما يتوبون، ويؤوبون إلى ربهم العليّ القدير نادمين مستغفرين.

وأما الكافرون من بني آدم فهم الذين اتخذوا سبيل الشيطان ـ بدلاً من سبيل ربهم ـ فكانوا أعواناً له ولقبيله في بذر الشر في النفوس، ونشر الفساد في الأرض. ولذلك كان محتوماً أن يوجد الصراع في الأرض، وأن يكون هذا الصراع بين أهل الديانة الواحدة، أو بين أهل الديانات والمعتقدات المتعددة، ناهيك عن الصراعات على مطامع الدنيا ومتعها وغرورها.. وكل ذلك مرتبط بالغاية من وجود الإنسان على هذه الأرض، ألا وهي الاستخلاف فيها، مما يدل على أن آدم عليه السلام قد خُلِق ليعيشَ وذريته على الأرض فيعمروها.

والأدلة التي تهدينا إليها النصوص القرآنية على أن آدم عليه السلام

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٢.

المسهم

لم يخلق ليعيش حياته الأولى في جنة الخلد التي لم ترها عينٌ و تخطر على قلب بشر فهي كثيرة، منها:

١ ـ طمع آدم بالخلود، عندما أطمعه فيه إبليس اللعين. وهذا يعني آدم ـ بالذات ـ كان يعلم في قرارة نفسه، ومما علَّمه ربهُ تعالى أنه ميت، فتوهَّم أن السر الذي يمنع الموت، قد يكون في تل الشجرة، ولكنه سرعان ما تبين له أن سنة الله في خلقه تقض بالموت، فتاب واطمأنَّ إلى وعد ربه وهُداه..

٢ ـ أن الجنة التي يكون فيها الخلود هي جنة الآخرة، بل جناء عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، جزاءً وفاقاً عل إيمانهم، وعملهم للصالحات. ولكنَّ ذلك يحتاج إلى اجتي الحياة الدنيا بكل ما تحفل به من البلاء، والكدّ، والنصب والصبر، والاحتمال. فالحياة كلها ابتلاء، والمعوَّل عليه دائماً ه قهر النفس لترك المعصية واتباع سبل الطاعة لله ورسوله..

٣ ـ أن الجنة في الآخرة هي التي وصفها الرسول الأعظم بقوله ﷺ **«ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»**[1].

وفي هذا القول الكريم نجد «لا النافية» لكل عين، ولكل أذن ولكل قلب، بما فيها عين، وأذن وقلب آدم عليه السلام.. وسوف نتبيّر فيما بعد، عند الحديث عن الجنة، بعضاً من مواصفات جنة الخلد. كما وردت في القرآن الكريم، وهي المواصفات التي عناها الرسول بحديثه.. مما نستنتج معه أن الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه لم يكن فيها شيء من مقومات الخلود، وأنَّ ما حصل مع آدم كان تجربةً عمليا

(١) صحيح البخاري، جزء٦، ص٢٣٠.

المسهم

أراد الله بها أن يبيّن له، ولذريته من بعده، كيف يمكن أن يتسلّط الشيطان عليهم فيغويهم، وكيف يمكن للغفلة أن تطغى على النفس فتستجيب للغواية، وكيف أن ذلك العدو ـ الذي يختفي عن الأنظار ـ ماكر، مخادع، يمنّي الإنسان ويعده ليوقعه في معصية ربه ليس إلاّ..

٤ ـ أن القرآن يقدّم البرهان اللغويّ، والمثال الحسيّ على أن لفظ «الجنة» الذي ورد في آياته المبيّنة لم يطلق على جنة الآخرة وحدها، بل اشتمل على وصف كل مكان ظليل تتوافر فيه المياه والثمار والحياة الطيبة. وهو ما يعرف في اللغة بـ«الحديقة ذات النخل والعنب والشجر، أو ما يطلق عليها الفردوس الأرضيّ»[١]. وهذا الفردوس الأرضيّ هو الذي عناه القرآن الكريم، وأطلق عليه لفظ «الجنة»، كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾[٢]؛ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[٣]؛ وقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٤].

٥ ـ أن الجنة التي التقى فيها آدمُ الشيطانَ كانت نوعاً من الفردوس

---

(١) معجم البستان اللغوي، طبعة ١٩٢٧، بيروت.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٢.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

المسهم

الأرضيّ، لأنها لو كانت ـ فرضاً ـ جنة الخلد لما أمكن للشيطان دخولها لأنها محرَّمة عليه أصلاً منذ أن عصى ربه، عندما أمره أن يسجد والملائكةُ لآدم، فامتنع وأبى، لما كان عليه من الكبرياء. . ولو أنه كان يعلم بأن الشجرة التي دل عليها آدم هي فعلاً شجرة تمنح الخلود، لأكل منها فصار خالداً، وهذا ما يتنافى ويتناقض تماماً مع طلبه إلى الله بأن يبقيه حياً إلى يوم الدين كي يتمكن خلال مدة إمهاله تلك من أن يغوي أبناء آدم، إلا عباد الله المخلصين، الذين ليس له سلطان عليهم. وهذا كله يثبت معرفته بأنه ميت في نهاية المطاف، وإقراره بأنه ميت دليل إضافيّ على عدم دخوله جنة الخلد، ويؤكد ذلك أيضاً أن خلق آدم كان من الطين الذي منه تكوين هذه الأرض ـ كما يدلنا عليه القرآن الكريم ـ مما يعني أن آدم قد خلق في مكانٍ ظليل على وجه هذه الأرض الطيبة، وليس في جنة الخلد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1].

٦ ـ أن كل مخلوق على هذه الأرض ميت وفانٍ، ولا يبقى فيها أحدٌ حياً على الإطلاق تصديقاً لقول الله العزيز: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[2].

من هذه الأدلة يتبيّن لنا أن الجنة التي خلق فيها آدم كانت إحدى جنات هذه الأرض، وهي غير جنة الخلود التي وعد الله (تعالى) بها الذين آمنوا وعملوا الصالحات من عباده المتقين.

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الرحمان، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

المسهم

ونتنقل الآن إلى بيان يوم القيامة، وحيرة الناس بشأنها، وما تكون عليه الأحوال في ذلك اليوم المخوف الهائل.

ثانياً ـ يوم القيامة

يقول الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(١).

إنه النذير من رب العالمين عن اقتراب الساعة، ويوم القيامة..

وقد حمل النبيّ الأعظم ﷺ هذا النذير المبين، فآمن به من آمن، وظلَّ الكافرون معرضين، لا يريدون أن يستمعوا للنذير، ولا يرغبون في تقبل الموعظة. فقد كانوا يعيشون في غفلةٍ عن الآخرة، وعن يوم الحساب، لأن الحياة الدنيا قد شغلتهم، فانساقوا وراءها، ووقعوا في الغفلة والإعراض عن كل دعوة للهدى والإيمان..

وما يَلفِتُ إليه القرآن الكريم هو تعاقب النذير الذي كان يتنزَّل به الوحي، وملاحقةُ النبيّ ﷺ للناس لإيصال الإنذار إلى أسماعهم. وكانوا كلما بلَّغهم النبيّ ﷺ، وأنذرهم بما سوف يحلُّ بهم من الفناء، وما ينتظرهم من بعده، كانوا يتخذون من النذير مدعاةً للعب والتفكهة، دونما أي اعتبارٍ لجديته أو أهميته. فقد كانت قلوبهم لاهيةً عن سماع الحق، وعن التأثر بالوعيد، إذ غلب عليهم الكفر والوثنية فلم يروا وراء الدنيا داراً آخرةً.

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١ ـ ٣.

المسهم

وعلى الرغم من ذلك فإن أولئك الكفار، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، كانوا يرون بأن للنبيّ ﷺ تأثيراً على الناس، ففي قوله طلاوة وحلاوة، وفي الآيات التي يتلوها بلاغة وفصاحة، بل وكانوا في قرارة نفوسهم يتأثرون بتلك الآيات، ويخافون منها، فاتخذوا من هذا الخوف سبيلاً جديداً للابتعاد عن النبيّ ﷺ وعدم الاستماع إليه ﷺ.. كانوا يتداعون إلى عقد الاجتماعات السرية، ويتواصون بألا يجالسوا «محمداً» أبداً، وألا يستمعوا إليه أبداً.. ودعوتهم في ذلك أنه بشرٌ مثلهم، فلا يمكن أن يكون نبياً؛ وكل ذلك بسبب ظنهم أن النبيّ الذي يبلغ الوحي عن ربه يجب أن يكون ملاكاً، وليس بشراً.

وزيادة في التجنّي كانوا يتواصون باتهام «محمد» أنه ساحر، وأن ما يقوله لا يعدو السحر، فلا يجوز لهم أن يأتوه في مجالسه وهم يعلمون أن ما يأتي به ليس إلا سحراً أو ما يشبه السحر!

وبمثل تلك الأساليب كانوا يكيدون للنبيّ ﷺ، ويتآمرون عليه باتهامه باطلاً أنه غير نبيّ، وأنه بشرٌ مثلهم لا ينزل عليه الوحي..

ولكنَّ الذكر الحكيم كان لهم بالمرصاد بما يحمل من النذير تلو النذير لعلَّ الكافرين يرعوون، ويعودون عن الغيّ الذي يملأ نفوسهم، وإلا فالعذاب الأليم آتٍ، وسوف تجزى كل نفس بما كسبت.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ

﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾[1]. فهو أيضاً الخطاب إلى النبيّ ﷺ لكي ينذر الناس بأن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه، وأنه يحمل العذاب للذين ظلموا أنفسهم بالكفر.. وإن عذاب الآخرة لكبير لو كانوا يعلمون..

وعظمة القرآن بأنه يصوِّر للناس الأحوال التي يكونون عليها يوم القيامة ـ وهم ما زالوا في الحياة الدنيا ـ تصويراً دقيقاً يجعل كل من يقرأ هذا الكتاب ويعي معانيه كأنه يشهد يوم القيامة ماثلاً أمام عينيه، وأمامه جموع الناس قد احتشدت في الحشر، وكلهم خائفون، خاشعون، ينتظرون الحساب، فيقول الكافرون، وقد استحقوا الأمر، وعلموا يقيناً أنه مقضيّ عليهم بالعذاب، ما مؤداه:

ـ ربنا أخر عنا العذاب، وأرجعنا إلى الدنيا، ولو إلى أجل قريب، فلا يطول بنا المقام فيها، وإننا إن أرجعتنا نجب دعوة الحق، ونشهد بأن لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، ونؤمن بما آتيتنا على رسلك، ونتبع سبل الهدى والرشاد التي يدعون إليها.

ولكن أنّى لهم ذلك وقد صاروا في مشهد ذلك اليوم العظيم!

فقد جاءهم النذير بهذا اليوم الموعود على لسان النبيين والمرسلين منذ آدم وحتى خاتم النبيين محمد ﷺ.. وذهب الرسلُ جميعاً وبقيت رسالاتهم إلى أهل الأرض، وفيها النذير نفسه بالعذاب الأليم لمن كفر بربه، وحادَ عن تعاليم الرسالات السماوية.. ولا حجة للناس على ربهم، وهذا القرآن الذي أنزله، وحفظه من كل عبث، ما يزال قائماً بينهم إلى يوم القيامة وفيه من أنباء الساعة، والبعث والحساب ما يكفي من الآيات البيّنة والواعظة، فهل من سبيل

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٤ و٤٥.

المسهم

بعد ذلك لأي إنسان أن يحتجَّ، أو أن يطلب رجوعاً يوم الحساب، وقد عاش الزمن الذي كان فيه القرآن بين ظهرانَي الناس؟!

والحقيقة أن رب العزة والجلال لم يجعل من سنن الخلق البشريّ إرجاعهم بعد الموت إلى الحياة الدنيا. فقد سنَّ (سبحانه وتعالى) الموت والحياة، وأخبرنا بقرآنه المبين أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن يوم الحساب حق، وأن الثواب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأن العقاب للذين ظلموا أنفسهم.. فهذه هي السّننُ التي خلقها رب السماوات والأرض، فيكون ضربٌ من المحال أن يطلب الكافرون إعادتهم إلى الحياة الدنيا ولو لأجل قريب.. ولكنَّ الهول من رؤية العذاب الذي يستحقونه يومئذٍ، هو الذي يدفعهم إلى هذا الطلب والرجاء، فيأتيهم الجواب حاسماً: أن لا رجوع..

إذ تقول لهم الملائكة، تبكيتاً، وتأنيباً لهم على ما فرّطوا في حياتهم الدنيا، بما يوحيه الله تعالى لهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1]..

فالملائكة يعيدون على مسامعهم أقوالهم التي كانوا يتقوَّلون بها في الحياة الدنيا.. فتلك أيمانهم محفوظة في سجلاتهم التي فيها جميع أقوالهم وأفعالهم، وهي تنبىء بأنهم كانوا يقسمون على أنهم لن يزولوا عن الحياة الدنيا إلى حياة أخرى، لأنهم كانوا يكفرون بالآخرة، ولا يؤمنون بالقيامة، ولا بالحساب..

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٤ و٤٥.

المسهم

والعجيب من أمر أولئك الكافرين أن أيمانهم، وما كانوا يقسمون به، ما كانت إلاَّ عناداً واستكباراً. فالحياة البشرية تدلهم أنه على مدى الزمان كانت الأقوام من البشر تعيش وتزول، وأنهم هم أنفسهم يعيشون في أماكن كان غيرهم قد سبقوهم إلى إعمارها، وأنهم يعلمون أن تلك الأقوام قد حلَّ بها الفناء والدمار. أما السبب ـ سواء آمنوا أم لم يؤمنوا ـ فهو الكفر، وعدم انقياد الذين سبقوهم لدعوات النبيين والمرسلين من رب العالمين.. بل وكانوا يعلمون أنَّ الله العليّ القدير قد دمَّر عليهم قراهم، وأهلكهم بالعذاب في الحياة الدنيا، قبل العذاب في الحياة الآخرة.. وأنه تعالى قد بيّن لهم كيف فعل بأولئك الأقوام السابقين ليكونوا عبرة ـ لو كانوا يعتبرون ـ وشواهد على ما يفعل الله تعالى بالعباد، عندما يلجّون في الكفر، ويتمادون في الضلال! وجميعها تبقى أمثالاً دائمة، ومتجددة يضربها الله (تعالى) للناس في كتابه المجيد، مع تجدد الحياة في كل يوم!.. فكم من أحياء قد ماتوا! وكم من أحياء قد ولدوا، وكم من أجيال تذهب وأجيال تأتي.. وكم من أمم قد هلكت، وبدَّلها الله تعالى بأمم غيرها، وكلها من الأمثال التي يضربها الله للناس.

إنه القرآن يحمل النذير المبين لكل من أساءَ عملاً.. وفيه بيان ليوم القيامة، وتهديد ووعيد بالعذاب للذين ظلموا أنفسهم!. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

فالقرآن عندما يبيّن لنا يوم القيامة نجد أننا أمام انقلابٍ شاملٍ في الكون الذي يحيط بنا، سواء في السماء أو الأرض. ويبدو أن هذا

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥١.

المسهم

الانقلاب كان هماً يشغل بال الكافرين ويفزعهم في قرارة نفوسهم على الرغم من جحودهم له في ظاهر الأمر، وعدم الاعتراف بحقيقة الوحي الذي يحمل الآيات الدالة على ذلك الانقلاب الكونيّ، ولذلك كانو يسألون النبيّ ﷺ، ويلحون عليه في السؤال، عن الساعة، ومتى يكون وقتها.. وهذا ما تبيّنه بوضوح بعض أمثال القرآن الكريم.

١ ـ سؤال النبيّ ﷺ عن الساعة كأنه عالمٌ بها.

يقول الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فالسؤال: لِمَ كان الكافرون يستهترون ـ ولو ظاهرياً ـ بما حفلت به الكتب السماوية من الدعوة إلى الإيمان بيوم القيامة، وهم يرددون مقولاتهم: متى تكون الساعة؟ وكيف يكون حدوثها؟ وهل هي واقعة فعلاً؟!.

والجواب يقيناً أن المشركين في زمان النبيّ محمد ﷺ ما سألوا عن القيامة إلاّ لإحراجه، وإظهار عجزه، وبالتالي اتخاذ ذلك حجة عليه لإبعاد الناس عنه.. فإذا أنذرهم بالعذاب الأليم يوم تقوم الساعة لجأوا مباشرة إلى أسلوبهم المعتاد قائلين: ومتى هي، ومتى يكون وقتها؟ وهذا ما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى وقوعها؟

والجواب من الوحي: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

هُوَ﴾، فالساعة من علم الغيب، وقد اختصَّ ربي وربكم بهذا الغيب، فلا يعلم إلا هو ـ عز وجل ـ متى تكون الساعة، فهي من غيب السماوات والأرض الذي تفرد به العليم الحكيمُ، ويمتنع على عباده الاطلاع عليه، ولذلك يقصِّر علمهم عن الساعة حتى يجلّيها ربها، ويظهرها في وقتها، وفي الميعاد الذي قدَّره لها منذ خَلَقَ السماوات والأرض..

وإن تغييب علم الساعة عن العباد إنما هو رأفة بهم ورحمة، لأن علمها يثقل حمله ـ ولا ريب ـ على أهل السماوات والأرض لعظيم الهول مما يحدث فيها: كطيّ السماوات، وانتثار النجوم، وتكوير الشمس.. وما إلى ذلك من انقلاب في الكون (كما سنرى بعضه في آيات أخرى).. فما يقع يوم القيامة لا قبل للعقلاء والمدركين على حمل علمه، ومعرفة دقائقه لأنه يصبح من الهموم التي ترزح تحت عبئها قلوبهم، وقد لا تقدر هذه القلوب على تحمل هذا العبء، فتنفجر..

ولذلك فإنه أدعى للعباد، وأصلح لهم ألاَّ يسألوا عن الساعة متى وقوعها، بل وأولى لهم أن يبادروا إلى الإيمان وعمل الصالحات، وأن يقوموا على طاعة الله (عز وجل) والابتعاد عن معصيته، حتى يكونوا مهيّئين، ومستعدين لها، لأنها لا تأتيهم إلا بغتةً، وبدون أية معرفة قد تسبق وقت وقوعها. وقد أورد القرآن الكريم ذكر بعض الأَمارات التي تسبقها وذلك تنبيهاً للاستعداد لها!..

وعلى كل حال، فإن ربَّ العزة والجلال قد قضى بألا يعلم العباد وقت الساعة رحمة بهم. ولكنه سبحانه يحذّرهم بأنها سوف تأتي فجأة، بعد أن يظهر لهم من أماراتها والدلالات عليها ما يفترض

بهم أن يصدقوا بها.. وأما إذا ألحَّ الناس، والمشركون بسؤالك عنها يا محمد، وكأنك حفيٌّ[1] عنها، وعالم بها، فقل لهم تكراراً، وتأكيداً:

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.. فهو سبحانه قد جعل علم الساعة عنده وحده من دون العباد. ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون بأن ما اختص الله به نفسه من علم لا يجوز لعباده أن يعلموه، فهو الله في السماوات والأرض، وهو رب السماوات والأرض، فهل يمكن أن يُشرك بعلم جعله لنفسه عباداً له ما خلقهم إلا ليعبدوه؟! إذن فلا يجوز لهؤلاء العبّاد أن يسألوا عن الساعة، لأن علمها عند الله..

وفي سورة أخرى من القرآن الكريم نجد نفس الموقف الذي كان يلحُّ به الكفار على النبيّ ﷺ بالسؤال عن يوم القيامة، ومتى تكون ساعتها، فيقول تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[2].

يسألونك أيها النبيّ عن الوقت الذي يحل به يوم القيامة، ومتى يكون وقوعها، ولماذا أنت تكثر من ذكرها على مسامعهم، طالما أنه ليس عندك علم عنها، وطالما أن منتهى علمها إلى ربك فلا يعلمه غيره؟..

فقل لهم ـ كي يعلم يقيناً هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة ـ إنما أنت تكثر من ذكرها لتنذر من يخافها، ويخشى عواقبها

---

(١) **الحفيّ**: العالم الذي يتعمّ العلم بالاستقصاء.

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٤٢ ـ ٤٦.

المسهم

من المؤمنين بها، وإن كانوا هم لن يؤمنوا بهذا النذير مهما بيّنت لهم من أهوالها، وما قد يكون عليه يومئذٍ مصيرهم. . والأمر الأكيد أن الساعة آتية لا ريب فيها، وسوف يعتقدون، يوم يرونها بأم العين، بأنهم لم يبقوا في قبورهم ـ أو أنهم لم يبقوا في حياتهم الدنيا كلها ـ قبل وقوعها إلا عشيةً، أو ليلةً واحدة وما أعقبها من الضحى، لأن الزمن يُطوى في أذهانهم، وحسبانُهُ عصيٌّ عليهم وهم يرون أهوال الساعة تحفُّ بهم من كل جانب. .

ويقيناً أنه عند قيام الساعة سوف يحقُّ العذاب على من كان في دنياه لا يخشاها، ولا يقيم لها وزناً، على الرغم مما قدَّم القرآن من آيات، وما أعلن الرسول من عظات تؤكد حقيقتها. .

٢ ـ حدوث الانقلاب الكونيّ يوم القيامة.

يقول تبارك وتعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[1].

إنه تلويح من الله تعالى بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة. ولكن مع العدول والتعالي عن القسم لأنه العليّ الأعظم الذي لا يحتاج إلى قسمٍ في بيان أن القيامة حقيقة كائنة، وأن الناس سوف يرون ذلك اليومَ المشهود، بعد أن يبعثهم الله من القبور. . وأما النفس اللوّامة، فهي النفس التي تخاف يوم القيامة، فتذكّر صاحبها بألا ينخدع بمظاهر الحياة الدنيا، وألاَّ يتوانى عن مراجعة أعماله وتصرفاته وأقواله ليتبيَّن أيها من الصالحات فيداوم العمل بها، وأيها من السيئات

(١) سورة القيامة، الآيات: ١ ـ ٦.

المسهم

فيندم عليها ويعمل على أن يعوضها بخير منها.

وقد جاء في التفسيرات عن النفس اللوامة أحاديث كثيرة، ومنها قول حسن البصري: «إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه. ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه. وعن عكرمة: تلوم على الخير والشر: لو فعلتُ كذا وكذا! وعن ابن عباس: هي النفس اللؤوم. وعنه أيضاً: اللوامة المذمومة. وعن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه. وعن قتادة: الفاجرة. والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، على الخير من حيثُ التقصير، وعلى الشرِّ من حيث الندم على فعله. وهي النفس الصالحة لأن الله سبحانه أقسم بها إذ لو لم تكن صالحة وعظيمة لما أقسم بها.

وهذا التلويح بالقسم والتعالي عنه إنما هو للتأكيد على البعث، وأن الله تعالى قادر على أن ينشز عظام الإنسان ويكسوها لحماً. فإذا كان الإنسان يحسب أن ربه غير قادر على ذلك، إذن فليعلم، وليكن على يقين، بأن الله تعالى قادر على أن يجمع عظامه، بل هو قادر على أن يسوي بنانه، أي أطراف أصابعه، وإعادة تركيبها في مواضعها تماماً. وهي أدق شيء في تكوين الإنسان، وهي التي تثبت هويته، وتميّزه عن غيره، بهذه البصمات التي عجز العلم على أن يجدها متشابهة أو متماثلة عند اثنين من الناس إذ لكل واحد من هذه المليارات من البشر، ولكل واحد ممن سبقهم، أو سوف يلحق بهم.. لكل واحد بصماته الخاصة به التي تعرّف عنه، وتدل على شخصه..

وهذا البيان بأن الله تعالى قادر على أن ينشىء الإنسان من

المسهم

جديد، إنما هو للردّ على الإنسان المجرم الذي يريد أن يمضي قدماً في فجوره، ولا يريد أن يكون هنالك حساب أو عقاب. ولذلك يقول باستهزاء وسخرية: لا، ليس هنالك من قيامة، ولا بعث، وأين هو يوم القيامة، الذي نُخوَّف به؟.

ثم تبرز الأهمية التي يوليها البيان القرآنيّ لوصف يوم القيامة، فلعلَّ الإنسان الفاجر، السادر في غيّه يتأثر بهذا البيان فيعود إلى ربه تعالى تائباً، نادماً، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[1].

فالقارعة اسم من أسماء يوم القيامة، وقد جرى اختيار اللفظ بما يتناسب مع الجو الذي يقرع القلوب بالفزع والهلع. والتأكيد على قرع القلوب يأتي بتكرار اللفظ على شكل الاستفهام والتعجّب: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تعظيماً لشأنها، واستهجاناً ممن ينكرها! والثابت في الذكر الحكيم أن لا أحد من البشر يعلم وصفاً مجملاً أو مفصّلاً ليوم القيامة على وجه الدقة، والأحداث التي تقع فيه تماماً. وكذلك لا أحد يعلم ما تكون عليه أحوال الناس في ذلك اليوم العظيم، لأنها فوق تصوراتهم.. إنما يقف علمهم عند حدود الوصف الذي يأتيهم به البيان القرآنيّ من حيث إنهم يكونون كالفراش الكثير، الذي ينتشر بكثافة في أرجاء واسعة فيغطيها. والتشبيه للناس بالفراش للتدليل على ما يكونون عليه يومئذٍ من الضعف والوهن، ومن الحساسية والرهافة، لا يقدرون على شيء وهم يساقون إلى مصائرهم، كالفراش تماماً في

(١) سورة القارعة، الآيات: ١ ـ ٥.

المسهم

ضعفه وقلة حيلته، وهو يتداعى على النار، ويتهافت على الضوء، فيحترق، دون أن تكون له القدرة على الإفلات بعد الوقوع في النار التي يشده إليها انبعاث ضوئها. هذا عن الناس..

أما الجبال، فإنها تقتلع يوم القيامة من أماكنها، وتصبح هباءً متراكماً فوق بعضه كالصوف المندوف، الذي نفش بعد معالجته من قبل المنجِّد!..

وهذا المشهد نراه عندما ننظر من كوة الطائرة حيث الغيوم تمرُّ من تحتنا متراكمة على بعضها كأنها الصوف المندوف الذي تسحبه الريح فلا يقوى على مقاومتها، على الرغم من الكتل الكبيرة التي يكون عليها والتي تبدو كالجبال، ولكنها جبال تسحبها الريح في الفضاء..

وفي وصف آخر لما يحدث في الكون يوم القيامة يشير القرآن المبين إلى السماء والجبال وأحوال الناس؛ فيقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[1].

فالسماء ـ كما هو معلوم ـ مملوءة بالنجوم والكواكب، وبعضها يشكل كتلاً نارية، مثل الشمس، التي تستمد منها أمنا الأرض النور والحرارة باعتبارها أحد الكواكب في النظام الشمسيّ.. فيوم القيامة، وعندما يحدث الانفجار في تلك الكتل النارية الملتهبة فإنها سوف تذيب كل ما يصل إليه لهيبها وإشعاعاتها، وهذا ما يجعل السماء تبدو كالزيت المغليّ (المهل) أو كالمعادن المذابة، بعد ذوبان الكواكب من

(١) سورة المعارج، الآيات: ٨ ـ ١٠.

حرارة الانفجار.. ولعلَّ هذا التشبيه للسماء في ذوبان كواكبها، أو للجبال في انتثارها وتجميع غبارها فوق بعضه البعض كأنه الصوف المنفوش، إنما هو لإفهام الناس عمّا يطرأ من التغييرات على ظواهر الكون يوم القيامة، وانتقال الناس إلى وضع جديد يتوافق وتلك التغييرات.. إنه ـ ولا شك ـ وضع عسير، وشاق جداً على الناس، بحيث إن الأهوال التي يرونها، ومشاعرالخوف التي تعتريهم، تجعل كل واحد معنيّاً بنفسه، ومهتماً لحاله، فلا يخطر على باله قريب ولا صديق، ولا يسأل أحداً منهم عن أحواله، وذلك بسبب الهلع، والفزع، والجزع الذي يطغى عليه، فلا يفكر بشيء، ولا يشعر بقريب، أو يهتّم لأمر حميم، اللهم إلا طلب النجاة لنفسه، والخلاص من قرع الأهوال التي تحيط به..

ويتبين لنا كيف اختار القرآن لفظ «حميم» للتعبير عن قرابة الرحم، وصلة المودة والشفقة، وعلى الرغم من ذلك فلا القرابة، ولا الصداقة مهما كانت حميمة وقوية يمكن أن يكون لها أثر في تلك الساعة!.

أما عن الأرض وما يحصل فيها يوم القيامة، فيقول ربنا تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[1].

وكما يحدث في السماء، كذلك في الأرض يوم ترجف، وتضطرب ـ والزلازل هي المثال الحسيّ على اضطراب الأرض، وما

(١) سورة المزمل، الآيات: ١٤ ـ ١٦.

المسهم

يحدث من الدمار والقتل ـ وتتحرك معها الجبال من فوقها، ثم تتفكك، وتنسف نسفاً فلا يبقى شيء من صلابتها، أو تماسكها الذي كانت عليه، بل تتفتت وتنهال من مواضعها، كما تنهال كثبان الرمل يوم تأتيها العواصف العاتية.

وعندما يضعنا النص القرآنيّ في هذا الجو الذي يخيّم عليه الخوف الشديد، يعود ويذكر الناس عامة، والكافرين والمشركين خاصة، بعدم الاستجابة للرسل، ولكنه تذكير يحمل التقريع والتوبيخ ليكون تأثيره في النفوس أقوى وأفعل، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ من أنفسكم هو محمد بن عبد الله ﷺ، يهديكم إلى الإيمان، واعتناق الإسلام، وجعلناه شاهداً عليكم يوم القيامة على ما قدَّمتم في الحياة الدنيا، وما حملت كل نفس معها من أثقال وأوزار.

وقد أرسلناه ليردكم عن الغيّ والضلال، كما أرسلنا من قبله إلى فرعون رسولنا موسى لكي يدعوه إلى الإيمان بربه، الذي لا إله إلا هو، فعصى أمرَ الله (تعالى) الذي يحمله رسوله الكريم، وتكبّر، وطغى زيادة في الإثم، فأخذه الله ـ عز وجل ـ أخذاً وبيلاً، وعذبه عذاباً شديداً، وذلك بسبب عصيانه، وعدم الامتثال لدعوة الحق المبين.. وهكذا أَخْذُ الله العزيز الجبار لكل عاص ومتكبر، حيث ينتظره العذاب في جهنم، وبئس المصير.

٣ ـ المُعرِضُ عن ذكر الله يحشر يوم القيامة أعمى.

يقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ

المسهم

ٱلْيَوْمَ نُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

هذا ما يقرره القرآن الكريم، وهو أنّ من اتبع هدى ربه فلا يضلّ ولا يشقى، لا في الحياة الدنيا، حيث الاطمئنان في نفسه يريحه من الأتعاب مهما بدت شديدة، ولا في الحياة الآخرة، حيث يوفّى جزاءَ إيمانه وأعمالِهِ الصالحة، ويدخله ربه جنات عرضها السماوات والأرض.

وهذا التقرير بأن من اتبع هدى الله (عز وجل) لا يضل ولا يشقى هو أهم علاج للنفس البشرية، لأن الضلال يلازمه دائماً الشقاء، ولأن الضلال يُبعد الإنسان عن الطريق المستقيم، وعن تحقيق الغايات والأهداف والمثل العليا التي يرومها المؤمن؛ إذ يضل الكافر أو المشرك عن سبلها القويمة، وعن طرائقها السوية فيقع في الحيرة والقلق، ويلازمه الهم والنكد، وكلها من ضروب الشقاء..

وعلى عكس هذا الضلال هنالك الهدى من الله (تعالى). فهو النور الذي يشرح الصدور للحق، ويضيء للنفوس دروب الخير. ولكي يتحقق لنا هذا النور الهادي فإن علينا القيامَ بالطاعة لرب العالمين، والعمل بما يرضيه. ولا طاعة، ولا عمل فيه رضى، أو صلاح ما لم يصاحبه ذكر الله في التكبير، والتسبيح، والحمد، والثناء عليه (جلت عظمته). وهي ما سماها القرآن الكريم: «الباقيات الصالحات». وجاء توضيحها عندما سألوا رسول الله: وما هي الباقيات الصالحات يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**هي سبحان الله، والحمد**

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٧.

المسهم

لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[1]. . فهي تشمل كل ما في الوجود، في الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة. .

وأما من أعرض عن ذكر الله الواحد الديان، فإن له معيشة ضنكاً، قوامها التعب والألم والشقاء. والإعراض عن ذكر الله يعني قطع أية صلة مع ربه، وبالتالي اتباع الشيطان، الذي يلازم الإنسان الذي يقطع صلته بربه، ويدفعه إلى ارتكاب المعاصي والذنوب، بما يزيّن له من متع الدنيا ومطامعها، وبما يغويه من الوقوع به من المحرمات التي هي في حقيقتها هموم وأعباء أكثر منها متعاً وملذات. . فتأمل مثلاً الغنيّ كم يتعبه جمعُ الثروة، أو تأمل الحاكم الجائر كم يشقيه حكمه الظالم، أو تأمل أي إنسان شدّته الدنيا إلى متاع الغرور فراح يلهث وراءها بالعرق والكد، وقد انعدم في قلبه الشعور بالخوف من الله، فوقع في الضياع واللامبالاة! . .

فالراحة والسعادة تنبعان من النفس المطمئنة، النفس التي امتلأت بالإيمان بالله، والسير على هداه. وإلا فإن أي تصور غير ذلك يكون من عمل الشيطان وغروره، وهو عدو للإنسان، ولا يمكن للعدو أن يأخذ بيد عدوه إلى ما يفيده أو يسعده. بل إن العداوة كلما اشتدت ـ ولا عدو أشد على بني آدم من الشيطان ـ أورثت مزيداً من الهموم والمتاعب، وأوقعت في الشقاء. ولذلك فقد كان محكوماً على كل ابن آدم، إذا ما اتبع غواية الشيطان، أن يعيش حياةً ضنكاً، ملؤها الشك، والحيرة، والقلق على متع الدنيا وملذاتها. .

وهذا بخلاف المؤمن الذي يذكر الله قياماً وقعوداً، وعلى أي

---

(١) سنن أبو داود، رقم ١٤٨٠.

المسهم

جنبٍ كان أو على أي حال.. فيتفكر في الخلق، بما يجعله يحقق إنسانيته بصورة متفاعلة مع الوجود، لأن تفكيره وإيمانه يهديانه إلى الحق الذي بموجبه خلق الله السماوات والأرض. وهذا ما يهدي إليه قول الرحمن: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال: «ضمن الله ـ سبحانه ـ لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة..» لأن القرآن هو الذكر الحكيم، وهو النور المبين، وهو الكتاب الذي لا ريب فيه هدى للمتقين.

إذن فمن ذَكَر الله ربه، وسار على هدي قرآنه المبين لا يضل ولا يشقى.. ومن أعرض عن ذكر الله ربه فإن له معيشةً ضنكاً ويحشره الله (تعالى) يوم القيامة أعمى، فلا يهتدي إلى الصراط المستقيم.

وقد يسأل ربه يوم القيامة: ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً، مفتَّح العينين، أنظر إلى ما أُريد، وأفعل ما أُريد؟...

فيأتيه الجواب الحق: كذلك يحشرك الله أعمى، لأن آياته العظمى الدالة على حقيقة وجوده سبحانه، والداعية إلى عبادته قد أتتك على صفحة الكون، وفي نفسك وحياتك، وعلى لسان الأنبياء والمرسلين.. وكل ذلك لم تأبه له، بل نسيته، وجحدت بآيات الله، واستكبرت، أو اتخذتها سخرياً.. فكما بعدت عن آيات الله، وألهتك

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

المسهم

عنها الدنيا حتى نسيتها تماماً، فكذلك اليوم تنسى وتهمل في صفوف الذين لا يشملهم الله (تعالى) برحمته الواسعة، لأنهم لم يقدموا لأنفسهم شيئاً يستأهلون عليه عفو الرحمن الرحيم، وغفران رب العالمين. . وإن من حُكِمَ عليه بالنسيان من رحمة الله يوم القيامة، فإن مصيره أن يُترك في جهنم خالداً في العذاب الأليم، فكأنما خلوده الدائم هذا قد جعله بمثابة المنسيّ.

٤ ـ كل ما في الأرض ومثله معه لا يُفتدى به من العذاب يوم القيامة

يقول العزيز الحكيم: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1].

لو أمعنا النظر، وتصوّرنا ما في هذه الأرض من أموال وثروات وكنوز ظاهرة ودفينة، وما في بحارها وأنهارها من خيراتٍ، وما على ظهرها من العمران والأشجار والنبات، والحيوان والطيور والحشرات، وكيف قسَّم الله تعالى، المدبر الحكيم، الأرزاق فيها على هذه المخلوقات الحية، لتبين لنا أن ذلك أبعد من أن يحصى ويعدّ، مهما كثرت الأبحاث والدراسات والاحصائيات. .

ولو تخيّلنا أن كل ذلك جمع في ملكية خاصة لبعض الناس، فملكوا ما في الأرض جميعاً وزيادة عليه ضعفه أو مثله، وحلت اللحظة الحاسمة التي يكونون فيها مخيرين بين أن يقدموا ذلك كله ـ عن رضى وطيب خاطر ـ أو يحل بهم عذاب أليم، لكانوا مستعدين

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

المسهم

أن يفتدوا أنفسهم من سوء العذاب مقابل كل ما يملكون! . .

وهذه هي الحال التي يكون عليها يوم القيامة الذين ظلموا أنفسهم في الدنيا، بسبب كفرهم وشركهم بالله تعالى. فلو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أنفسهم من ذلك العذاب الذي أُعدَّ لهم في ذلك اليوم الرهيب. . فقد بدا لهم ما قضى الله تعالى في اللوح المحفوظ من سوء العذاب، وهو ما لم يكونوا في الدنيا يحسبون أنه واقع فعلاً، أو أنه سوف يكون حقيقة لا ريب فيها. . كانوا قد أنكروا يوم القيامة، وكذبوا بيوم الحساب، فقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا ونموت فيها وما نحن بمبعوثين، ولذلك وجدوا أن بانتظارهم خلاف ذلك كله، فقد وجدوا يوم القيامة حقاً، ووجدوا الحساب حقاً، فحق عليهم سوء العذاب بما كانوا يظلمون. .

والقرآن الكريم يسوق هذا النوع من التصور عن الفداء للخلاص من هذا العذاب، حتى يستشعر الناس مقدار هذا العذاب، وكم هو شديد وأليم. . وحتى يقدِّروا أن يوم القيامة لا يُقبل فيه تعويض، ولا فداء، بل يكون الجزاء الأوفى على ما اكتسب الإنسان في حياته الدنيا، وحتى يعلموا أن الخلاص من ذلك العذاب إنما يبدأ من هنا على هذه الأرض، بالإيمان الصادق، والنوايا الحسنة، والأعمال الصالحة. . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وما الله بظلام للعباد.

روي عن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت، فقيل له: «أتجزع»؟ قال: أخذتني آية من كتاب الله عز وجل وهي: ﴿وَبَدَا لَهُمْ

المسهم

سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ . . والله لقد أخذتني هذه الآية، وأخاف أن يبدوَ لي من الله تعالى ما لم أكن أحتسب»[1].

وهذا العذاب الذي يواجه الظالمين يوم القيامة قد وردت عليه نصوص كثيرة في القرآن المبين، ومنها ما نجده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]. ففي النصين يظهر الهدف الواحد، والغاية الواحدة. . ففي حين يستعمل في أحدهما تعبير ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يستعمل في الآخر تعبير ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وهم نفس الفئة: الظالمون أو الكافرون. .

إذن فإن أقصى ما يمكن أن يتصوره الخيال هو أن يظن الكافرون بأن لهم ما في الأرض جميعاً، وأنهم يملكونه ملكية تامة، وأنهم قادرون على التصرف بهذه الملكية كيف يشاؤون! . .

ويجاري القرآن هذا الظن، أو هذا التصور، ولكن على سبيل الفرض ليس إلا! . . فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾. فمع هذه الـ«لو» التي هي مجرد افتراض على الملكية وقبولها، فإنَّ هذا الافتراض غير قابل لأن يكون حقيقة، لأن الافتداء من عذاب يوم القيامة غير مقبول، ولا يمكن أن يكون مقبولاً وإلا كان خلافاً للعدل الإلهيّ الذي تقوم عليه السماوات والأرض. فالعدل الإلهيّ يوم القيامة لا يقبل اعتراضاً، ولا يقبل فداء، ولا يقبل معذرة. إنه سنة الله في

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٣٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

المسهم

خلقه، ولن تجد لسنة الله تحويلاً، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وبمقتضى هذا العدل الإلهيّ فإن افتداء الذين كفروا لن يُقبل منهم، ولهم عذاب أليم يخلدون فيه كما يشاء العزيز الحكيم..

وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «**يقال للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: لقد سئلت أيسر من ذلك وأقل منه في الدنيا فلم تفعل، فاليوم لا ينفعك إنفاق لمالٍ أو تضحية بسلطان. ولن يفيدك ما تقدّم من الفداء عن العذاب الذي جلبته لنفسك بسبب كفرك وعنادك**»[1].

موعظة: الإيمان بيوم القيامة عزاءٌ وجزاءٌ

والحق أن الإيمان بيوم القيامة فيه عزاء حقيقيّ لجميع المحبين، فلو كان أمر الإنسان ينتهي عند الموت، ولا قيامة بعد هذا الموت، لكانت صلتنا بأحبائنا الذين فارقونا قد انتهت إلى الأبد، ولم نعد نأمل بلقائهم ورؤيتهم إطلاقاً.. وهذا من شأنه أن يُتعب القلب، ويسبب الفجيعة الكبرى والأسى المؤلم، ولكن عزاء المحبين هو أنهم سيلاقون أحباءهم بعد القيامة. وفي سيرة الرسول الأعظم ﷺ المثال الواضح على هذا العزاء. فقد اسْتُشْهِدَ سعد بن زرارة ـ أحد سادة المدينة المنورة ـ في معركة أحد. فلما عاد الرسول ﷺ والمسلمون من تلك المعركة وجدوا الناس في المدينة يبكون قتلاهم بمرارة وأسى. وقد لفتَ الرسولَ الرحيمَ بالمؤمنين رؤيةُ أم سعد على حالة كبيرة من الفجيعة فقال لها: «**أبشري، وبشري أهليهم يا أم سعد، إن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً**». فقالت أم سعد: «رضينا

---

(١) صحيح مسلم، جزء٥، رقم ٢١٦.

المسهم

برسول الله ﷺ سالماً، وليس من يبكيهم بعد هذا يا رسول الله»[1]. أي بعد هذا الاطمئنان عليهم. ولكنها عادت فسألت الرسول ﷺ أن يدعو لمن خلّفوا، فقال ﷺ: **«اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلّفوا»**[2]. فالقيامة تجمع بين أهل الإيمان والصلاح في الجنة، بعد أن يكون الموت قد فرقهم في الدنيا، وفي هذا الاجتماع يكون العزاء لبني البشر، لأنهم يعرفون مسبقاً، بأن أحباءهم بانتظارهم، إن كانوا على شاكلتهم بما عملوا من الطاعة والأعمال الصالحة التي تؤدي إلى الخلود في جنة النعيم. يجب أن نكون صادقين في إيماننا، وفي خوفنا من غضب ربنا، وفي تعاملنا مع الآخرين، حتى نحرص على لقاء الأحباء الصالحين من أزواجنا وذرياتنا، وإلاّ فرّقتنا هذه الدنيا هناك.. ويجب أن نحاصر هؤلاء الأحباء بالتوجيه والإرشاد، وبالتوعية والنصيحة، والموعظة الحسنة حتى نبعدهم عن المعصية، فيكون سبيلنا وإياهم واحداً إلى اللقاء الأبديّ ـ إن شاء الله تعالى ـ في جنة الخلد..

وكما أن الإيمان بالقيامة يحمل العزاء للقلوب، فإنه كذلك يقود الناس إلى حياة أفضل في هذه الدنيا.. لأن من شأن هذا الإيمان أن يحوِّل أنظار المؤمنين إلى عالم آخر غير هذا العالم الفاني، فتتصاغر في أعينهم متع الحياة الزائلة، وشهواتها الفانية، كما تتضاءل عندهم كل تلك الأطماع في المناصب، والثروات، واستحلال المحرمات التي طغت على أهل الدنيا، وأتباع الشيطان الذين أغواهم وأوقعهم في المعصية التي ارتكبها منذ بدء الخليقة على هذه الأرض..

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٥٤.

(٢) المصدر السابق.

المسهم

وإن أهمية الإيمان بيوم الآخرة أنه يجعل ذلك اليوم المغيَّب عن أعين الناس كأنه حقيقة راهنة، لا تفارق أذهانهم فيستعدون له، ويتهيأون لملاقاته بالقيام على طاعة الله تعالى، والامتثال لأوامره ونواهيه، فلا يشغلهم عن ذكر الله شاغل، ولا يلهيهم عن عبادته لهوٌ ولا لاهٍ.. إنهم يعيشون في معترك الصراع، الصراع مع النفس الأمارة بالسوء، والصراع مع الناس في أطماعهم ورغباتهم وأهوائهم، والصراع مع الحياة في تطاول الشر على الخير، والباطل على الحق.. ويبقى المؤمنون على عهدهم مع ربهم، وعلى صلتهم بخالقهم، فلا ينكثون العهد، ولا يقطعون ما أمر الله تعالى به أن يوصل..

ولو لم تكن القيامة حقاً، لما وجدنا المؤمنين من عباد الله الصالحين يتميزون عن الكافرين والمشركين.

ولو لم تكن القيامة حقاً لتهالك الناس جميعاً على مطامع الدنيا، فاتخذوا أهواءهم آلهة من دون الله، ولذهبت مع تلك الأهواء معاني القيم الأخلاقية، والمثل العليا، ولبطلت معاني الحق والخير، وحلَّت في دنيا الناس، بديلاً عن ذلك كله، مادية جائرة قاتلة.

ولو لم تكن القيامة حقاً، لما وُجدت النفوس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، ولكان الناس ذوو النفوس الأمارة بالسوء يعيثون فساداً في الأرض.

فالحمد لله الذي جعل يوم القيامة حقاً، وجعل جنة الخلود للمؤمنين وعداً صادقاً..

فالإيمان بيوم القيامة، هو الإيمان بجنة الخلد، وهذا الإيمان هو الذي يجعل الأبرار يشتاقون إلى ما هو أكبر، وأعظم شأناً من كل هذا

المسهم

العالم الدنيويّ، وإلى ما هو أثمن من كل ما يحوزون، أو يجمعون أو ينالون.. لأن ذلك كله لا يدخل في النفس المؤمنة الطمأنينة التي ترجوها بلقاء ربها، والفوز برضوانه في الآخرة. ولذلك كان التوق عظيماً في داخل المؤمنين الصالحين إلى رحمة الله (تعالى) وإلى فضله وإحسانه عليهم بالعفو والمغفرة يوم الحساب..

لهذا ينظر المؤمنون الذي يعملون الصالحات إلى الأرض كمكان غربة موحشة، واعتبروا أنفسهم غرباء، في عالم متصارع قد ملىءَ بالحقدِ والتنابذ والفساد!. فاشتاقوا إلى العالم الآخر، عالم الطهر والنقاء، وعالم الود والأمان.. عالم الخلد في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين..

ثالثاً ـ البعث والحساب يوم القيامة

من الأمور الأساسية والجوهرية التي تقوم عليها عقيدة التوحيد الإيمان بإحياء الناس يوم البعث ومحاسبتهم على أعمالهم في الحياة الدنيا، ثم يتقرر مصيرهم في الحياة الآخرة إما إلى الخلود في الجنة، أو إلى الخلود في النار. ولذلك سوف نحاول هنا تبيان الأمثال القرآنية التي تدل على حقيقة البعث، لنعود في الفقرة اللاحقة إلى معرفة أوصاف الجنة التي أعدها الله (تعالى) للمتقين.

يقول تبارك وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

(١) سورة يونس، الآيتان: ٥٥ و٥٦.

المسهم

ألا إنَّ لله ما في السماوات والأرض خلقاً وعبيداً. فهو مالك الملك، القادر على أن يتصرف بملكه كيفما يشاء، العزيز في خلقه، الحكيم في صنعه، وضع السنن، وقسَّم الأقدار والأرزاق، فلا يفلت شيء في الوجود كله مما قضى به في علمه الواسع الأزليّ. فكان وعده لعباده بالبعث حقاً يقيناً.

من هنا يستقيم المعنى في أذهاننا من أن وعد الله بالبعث والجزاء حق، ويكفي الدليل على أحقيته أنه قول الله الحق، ومن أصدق من الله مثلاً! ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لعلة في النفوس، وهي عدم التصديق بالبعث. فأكثر الناس لا يؤمنون بأن الله ـ عز وجل ـ سوف يحيي الخلائق، وأن الأموات سوف يعودون أحياء كما كانوا في هذه الحياة الدنيا، ولذلك ترى كل جاحد للبعث، ومنكر لهذا الحق، يسأل متعجباً:

وهل سوف أبعث فعلاً بعد موتي؟ وكيف أعود من جديد بعد الموت إلى ما كنت عليه وأنا حيّ، وقد فني جسدي، وبليت عظامي وصرت تراباً أو هباءً منثوراً؟ وهل حقاً وصدقاً أنَّ وراءَ بعثي حساباً فيه ثواب وعقاب؟

ولكن لو فكر مثل هذا الإنسان بطريقة أخرى، وانصبَّ اهتمامه على وجوده الحقيقيّ، وجوده الماديّ المحسوس في هذه الدنيا لظهر له أمران ثابتان:

الأول: أن وجوده الحسيّ لا يمكن إنكاره، فهو كائن حيّ يروح ويجيء، ويتحرك بكامل تكوينه من جسد ونفس وروح.

والثاني: أن موته حتميّ، كما يُثبت له ذلك الوجودُ البشريّ، بل

المسهم

ووجود الكائنات الحية كلها التي لا بدَّ أن يطالها الفناء والزوال. . فمثل هذا الوجود الفعليّ للإنسان، وإحساسه به كحقيقة راهنة، وكذلك موته الحكميّ، ومعرفته اليقينية به هما من الحقائق التي يهتم القرآن الكريم بتبيانها لما يترتب عليها من نتائج سواء في الحياة الدنيا، أم في الحياة الآخرة. ولذلك فإن القرآن يقدم للإنسان البرهان العقليّ على البعث، وهو أن الذي خلق الإنسان أول مرة، وأحياه عمراً ثم أماته، لقادر على أن يحييه مرةً أخرى، لأن القادر على النشأة الأولى ـ كما يحكم العقل ـ قادر على النشأة الثانية. فأنت أيها الإنسان عندما تصنع شيئاً ما من نتاج عقلك، وبعد أن يصبح موجوداً فعلاً بين يديك، أو أمام ناظريك، فإنك إذا فككته أو دمرته لقادر على أن تعيد صنعه مرة ثانية. فإذا كانت هذه قدرتك وأنت المخلوق، فما ظنك بالخالق العظيم، الذي خلق السماوات والأرض جميعاً، أليس بقادر على أن يُعيد إحياءك من جديد؟

ثم لو أخذنا الأمر من زاوية القانون الذي يحكم العلاقات بين الناس، والذي يقر بوجود عدالة هي التي تقضي وتفصل، لوجدنا أن هذه العدالة قائمة في أي مجتمع بشريّ. ذلك أن وجود مثل هذه العدالة في الحياة البشرية وما يقتضي لها من وجود القوانين والمحاكم والقضاة هو الذي يحفظ الحقوق، ويصون الحياة، ويفرض النظام والاستقرار. وإلا لو خلت الحياة البشرية من العدالة لاضطربت أحوال البشر، وسادت الفوضى، وعم الفساد، وعاش الناس في مثل شريعة الغاب، يأكل القوي الضعيف بلا رادع ولا حساب. . ومع ذلك فإن العدالة في الأرض لم تكن كاملة وشاملة يوماً. ولم يحقق العدل كامل أهدافه، بل أفلت من قبضته كثيرون بفعل استباحة حرمته، وخرق

المسهم

قوانينه ونظمه، والتعدي على سلطانه. بل وقد يحصل أن يصبح المتهم أو الجاني هو الذي يحاسب الناس بدل أن يحاسبوه، وأن يكون هو الذي يدينهم بدل أن يدينوه.. وكل ذلك باسم العدالة وتحت سمعها وبصرها.. وعلى الرغم من ذلك كله فإن أي مجتمع بشريّ لا يمكنه العيش بلا سلطة قضائية يُناط بها أمر العدل.

ولكن السؤال: هل يمكن للذين أفلتوا من قبضة العدالة في الحياة الدنيا، أن يهربوا من الجزاء بصورة مطلقة؟!

إن الذين يوقنون بحقيقة البعث، يرون بأن الجزاء الذي لم يتحقق على الأرض، لا بد أن يتحقق في الآخرة يوم الحساب.. إذ لو تسنَّى للمجرمين أن يفلتوا من عدالة هذه الأرض بالمكر والخداع، أو بالباطل والقوة، أو بأية وسيلة من وسائل الظلم التي قد تتاح لهم هنا.. فإن العدل الإلهيّ سوف يكون بانتظارهم للحساب، وإحقاق الحق، وإنصاف المظلوم من ظالمه..

وإلا لو قلنا بخلاف ذلك، وأنكرنا البعث، ومن ثم أنكرنا العدل الإلهيّ لكان الشيءُ وضدّه سواءً. فيكون الصادق كالكاذب، والظالم كالمظلوم، والعادل كالجائر، والعالم كالجاهل، والمؤمن كالكافر.. ولانتفى أصلاً التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين الفضيلة والرذيلة.. ولو كان ذلك لما قامت السماوات والأرض!.. لأن ذلك مما يخالف منطوق الحياة البشرية، بل ومنطوق الوجود بأسره. ولو أقررنا ـ جدلاً ـ بعدم وجود العدالة في الأرض، وبعدم وجود العدل الإلهيّ في الدنيا والآخرة، لكان أساس الحياة، وأساس الوجود مَبْنِيينِ على الخطأ، وعندها لا يستقيم شيء أبداً، لأن ما بني على فاسدٍ فاسدٌ حكماً. إلا أن العقل، والقلب والوجدان في

المسهم

الإنسان، بل وإن طبيعة الوجود، ونظام الكون كله يقول بخلاف ذلك، لأن كل ما في حياة الإنسان، وكل ما في الوجود، وكل ما في الكون مبنيّ وفق نظام محكم، قائم على الحق والصواب، ومرتكز على سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وعلى منهج مستقيم متكامل يجعل الانتظام الشامل حقيقياً وفعلياً في كل شيء. وهذا ما نجده في حسّ الناس أنفسهم، إذ يميزون بين بعضهم البعض، فترى حكمهم بالبداهة يشير إلى أن فلاناً عادل وفلاناً جائر، وأن فلاناً يتحلى بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة، بينما غيره تغلب عليه الصفات الذميمة والأخلاق الفاسدة.. وهذا كله يدل على أن الحياة البشرية قوامها الحق والنظام. وأن من حقائق هذه الحياة أن يعقبها الموت، الذي يترتب عليه أحد أمرين: إما فناء نهائيّ وينتهي معه الإنسان، وينتهي معه كلُّ ما فعله في حياته؛ وإما حياة أخرى بعد الموت، وفيها يحاسب الإنسان على ما قدَّم في الحياة الأولى، وهذا هو الحق الذي قالت به الرسالات السماوية منذ عهد الخليقة.

ودليل آخر على البعث ما نجده في الإنسان نفسه من حيث تركيبه النفسانيّ: ذلك أن خالقه العظيم قد أودع فيه خصائص معينة هي التي ميّزته على الكائنات الحية الأخرى.. وأهمها خاصية التعقل، ومكنة الإدراك والتمييز. وفي مقابل هذه الخاصية فقد ألزم الخالقُ هذا الإنسان بعبادته وطاعته، بل وما خلق الله (تعالى) الجن والإنس إلا ليعبدوه.. ولذلك كان التكليف للإنسان العاقل المميز بالعبادة والطاعة، وعدم ارتكاب المعصية والإثم. وعلى أساس هذا التكليف كان البعث والحساب والجزاء، ليعلم الله الطائعين الذين يؤمنون بالغيب، وبالآخرة هم يوقنون، وليعلم العاصين، والكافرين الذين

المسهم

خرجوا عن عبادة ربهم وطاعته فلم يؤمنوا بالغيب، ولا بالآخرة..

فالبعث هو نتيجة حتمية للوجود البشريّ، وإلا كان هذا الوجود عبثاً، لا حكمة فيه، بل ولا غاية له في الأصل. فإذا أقررنا بأن خلق الإنسان لم يكن عبثاً ولا مصادفة، كان لزاماً الإقرار بضرورة البعث حيث تنتصب الموازين الحق لمحاسبة الناس على ما عملوه في الحياة الدنيا. والإقرار بحقيقة البعث يسبقه الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وبأنه إله واحد أحد، لا شريك له؛ فهو الديَّان يوم القيامة، لتوفَّى كل نفس ما كسبت، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعلم مثقال ذرة شراً يره.. وليس وحدهم أتباع الرسالات السماوية الذين يؤمنون بالآخرة وبيوم الحساب، بل إن أقواماً كثيرة من الأمم الغابرة قد اعتقدت بحياة أخرى بعد الموت، كما دلت عليه اكتشافات الآثار حيث يجد العلماء في قبور الموتى الأدوات، والحليّ بل أواني الطعام والشراب التي كانوا يودعونها مع الميت، لتكون حاضرة، فيستعملها بعد أن يحيا ثانيةً (والمثال عليها قبور الفراعنة في مصر)..

ولئن كانت الرسالات السماوية جميعاً قد جاءت بالنصوص التي تقول بحقيقة البعث، وبالبراهين العقلية عليه، فإن القرآن الكريم ـ الذي حمل الرسالة السماوية الخاتمة إلى الناس كافة ـ امتلأت نصوصه بالآيات التي تتضمن الأحكام، والأدلة العقلية، والبراهين الحسية والأمثال التي تؤكد أن البعث حقيقة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

ومن الأدلة والبراهين التي يسوقها القرآن الكريم على البعث نجد:

١ ـ أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام سأل ربه أن يُريه كيف يُحيي الموتى.

المسهم

قال له ربُّهُ تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[1].

ويخبرنا القرآن المبين أن إبراهيم عليه السلام أخذ أربعة من الطير، فذبحهنَّ، وقطعهنَّ، ثم وزَّع أجزاءهن على عدة جبال متفرقة، ثم وقف ودعاهنَّ إليه، فأتته الطيور الأربعة حيّة - بإذن ربها - كما كانت عليه تماماً قبل تقطيعها، فكانت البرهان لاطمئنان قلبه على أن الله يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير.

٢ - أن «سورة البقرة» - وهي أكبر سور القرآن الكريم - قد سميت بهذا الاسم لأنها تضمنت واقعةً حسية ملموسة أحيا فيها الله تعالى ميِّتاً.. ذلك أن رجلاً من بني إسرائيل قد قُتِل، فاختلفوا على قاتله، فأمر الله نبيَّه موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرةً، ويضربوا القتيل ببعضها، فلما فعلوا، أحياه ربنا العزيز الحكيم فدلَّ على قاتله. فكانت تلك الواقعة في عالم الشهادة، وعلى مرأى من بني إسرائيل مصداقاً لقوله العزيز: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]. ويريكم الله آياته رؤية العين التي تنظرون بها إلى الأشياء المحسوسة من حولكم، ومن تلك الآيات رؤية هذا القتيل الذي أحياه كما رأيتم، وشاهدتم بأم العين إحياءه من الموت، وعودته كما كان قبل موته ليشهد على حادثة القتل كيف وقعت، وعلى المجرم ماذا فعل..

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٣.

المسهم

٣ ـ أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله، لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾[1].

وفي الأثر أن عيسى عليه السلام قد أحيا صديقاً له اسمه عازر، وأحيا ابن العجوز، وابنة العاشر، فعاشوا وولد لهم، وأحيا سام بن نوح ومات في الحال[2].

وهذه الشواهد القرآنية كافية بذاتها للتدليل على البعث. إلا أن آيات القرآن الكريم تجذب القلوب المؤمنة إلى نورها الوضاء، فتطلب الاستزادة من علم الله الواسع. ولذلك سوف نحاول أن نستشفَّ من آيات هذا الكتاب المجيد بعضَ الذي يثبت في أذهاننا حقيقة البعث، مسترشدين بالآيات التي ضُربت فيها الأمثال على هذه القضية، وذلك حيثما وردت لفظة «مَثَل» أو «كاف التشبيه» ـ كما أشرنا في مقدمة هذا الكتاب ـ فتكون هذه الأمثال سبيلاً آخر من سبل القرآن التي نطمع أن تهدينا إلى ما فيه نجاتنا وفوزنا يوم الدِّين.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٤٥ ـ ٤٩.

(٢) تفسير الجلالين، الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

المسهم

ومن تلك الأمثال القرآنية التي نستدل بها على البعث بعد الموت الأمثال التالية:

١ ـ موت العزير ثم بعثه آية دالة على حقيقة البعث.

يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

إن مصداقية حقائق القرآن تتجلى بما تقدم من الأدلة والبراهين التي تخاطب عقل الإنسان وقلبه على السواء، فعندما يتناول الذكر الحكيم قضية من القضايا التي قد تشغل بال الإنسان وتفكيره، نجده يستعمل الألفاظ والمعاني التي من شأنها أن تطمئِنَ قلبه، وتذهب عنه هواجس القلق والهم التي كانت تؤرقه وذلك بما تحمل من العلاج الشافي لكل تساؤلاته حول هذه القضية كما يبرز ذلك في قصة ذاك الإنسان المؤمن الذي مرَّ على قرية فرآها خاوية، مهدمة، ولا أثر فيها للحياة، فقال في نفسه: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فكان أن أماته الله (تعالى) مائة عام، ثم أحياه، ليجعله آيةً للناس على حقيقة البعث وإحياء الموتى..

إذن فالمقاصد التي تتوخاها النصوص هنا ليست مجرَّد الإخبار عما قاله مؤمن يريد أن يعرف كيف يحيي الله الموتى، وما حصل معه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

المسهم

بالذات فزاده إيماناً ويقيناً بحقيقة البعث، بل ليكون في خبره برهان مؤكد، وآية للناس في كل زمان ومكان، يستدلون بها على أن الله تعالى يحيي ويميت، ، وبرهانهم ودليلهم هذا القرآن القائم أبداً بين أيديهم، وهو يهدي إلى الحق، لأنه الحق، ومن الحق العليّ العظيم.

فهذه الآية الكريمة تخبر أنَّ الرجل المؤمن (وهو العزير بإجماع المفسرين) كان في نفسه توق للتثبت من حقيقة البعث، وإحياء الموتى، فساقه ربُّهُ القدير، الذي يعلم ما في الصدور، إلى بيت المقدس، وهي يومئذٍ مهدومة، محروقة بفعل غزوها من بختنصَّر، ملك بابل. فلما رآها على تلك الحالة «خاوية على عروشها» قال: «أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها»..

ولعلَّ في الاستطراد هنا ـ ولو قليلاً ـ ما يدل على بعض جوانب التفكير عند كثير من الناس، ولو كانوا مؤمنين، كما كانت الحال مع العزير. إذ لم يكن في نفسه ـ وهو مؤمن صادق ـ أي شك أو ارتياب بالحق الذي يؤمن به، وهو أن هنالك حياة أخرى غير الحياة الدنيا، ولكنه كان يريد لقلبه أن يطمئن، لا سيما وأن يوم القيامة، وبعث الناس من القبور، والوقوف بين يدي رب العالمين كلها من أمور الغيب، التي قد تراود الإنسان بعضُ التصورات عن كيفية حدوثها، من دون أن يجدوا ما يشفي غليلهم إلا أن يكون أمامهم برهان ساطع على ذلك.. ومثل هذه التصورات قد تخطر على بال كل واحد منا. وليس ذلك عجباً، أو شكاً ـ لا سمح الله ـ فهي تصورات وأفكار قد خطرت مثلاً على بال أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ـ كما رأينا ـ وخطرت على بال العزير ـ الذي نحن بصدد قصته ـ ولذلك

المسهم

أتى القرآن المجيد بالآيات المبيّنة لتعطينا البراهين والأدلة، فتطمئن بها قلوبنا، ونفوسنا..

أجل إن هذا التوجه في القرآن الكريم، إن دلَّ على شيء، فإنما يدل ـ وعلى امتداد التاريخ البشريّ ـ أن في نفس الإنسان دافعاً قوياً بأن يحصل لديه علم يقينيّ بحقيقة البعث عن طريق الواقع المحسوس، لأن العلم الاستدلاليّ ربما تعتوره الشبهة، ومن أجل إزالة هذه الشبهة من العقول يسوق القرآن الكريم شواهده، وأمثاله مما حصل في الماضي، لتكون عبرة للحاضر والمستقبل، فيستدلُّ بها الإنسان على البعث بدلاً من البرهان الحسيّ الذي يمكن أن يستقيه من الواقع، إذ ليس ضرورياً أن يحصل العلم عن طريق الواقع المحسوس لكل قضية من القضايا، ما دام للإنسان قدرة على التفكير، وتمحيص الوقائع والأحداث الماضية التي يمكن أن يستدل بها على القضية التي يريدها، أو على الحقيقة التي يبحث عنها. فيكون العلم الاستدلاليّ، والنظر الفكريّ كافيين لإقناعه. فإذا ثبتت له القضية أو الحقيقة بالعلم الاستدلاليّ ولم يقتنع كان عبء المسؤولية على عاتقه. وبمعنى آخر إن أحداث التاريخ، أو الأحداث السابقة تبقى شواهدَ للإنسان، وبيّنات لإقناعه عن الشيء الذي يريد معرفته، والتيقن منه، وإلا فلا معنى للتاريخ البشريّ إن لم يكن لنا فيه مثالٌ أو عبرة.. فالعزير قد تفكَّر في البعث، وأراد الاهتداء إلى البرهان الذي يثبت حصول البعث.. ولكنه وهو يفكر، ويسأل نفسه عن ذلك لم يدر في خلده أنه سيكون الشاهد على نفسه بنفسه لإثبات حقيقة البعث، وأن الله (تعالى) سيجعله آية ـ برهاناً ـ لكل من تؤرّقه فكرة البعث من بني آدم..

المسهم

لقد أراد العزيزُ أن يعلم، ففكّر.. ثم أخذته الغفوة في نوم طويل، فغاب عن الزمن..

وأفاق بعد غيابه عن الزمن، وهو لا يعلم شيئاً، أفاق بكامل الوعي والإدراك، فجاءه الوحي من ربه قائلاً له:

«كم لبثت» في نومك؟

قال: «لبثت يوماً أو بعض يوم» (وهو يظن أنه نام بضع ساعات في نومٍ عاديّ).

ولكنَّ الوحيَ قال له: «بل لبثت مائة عام» وأنت في نفس المكان، وعلى ذات الهيئة، وبنفس الثوب الذي تلبس، فانظر إلى حالك هل ترى من تغيير؟ أبداً، لم يطرأ عليك أي تغيير خلال هذه المائة عام. ثم البرهان الآخر أمامك «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه» فلم تفسدهما عوامل الطبيعة، بل بقي الطعام على حاله، من الطعم واللون والرائحة، صالحاً للأكل، وكذلك بقي ماؤك الذي تشربه على حاله فلم يتبخّر، ولم يأسن، وهو صالح للشراب..

ثم تابع الوحي يريه العبرة الّدالة والمؤكّدة: والآن «فانظر إلى حمارك» الذي كان يقف بقربك فلا ترى له أثراً إلا بعض عظام بالية، فلو نمتَ يوماً أو بعض يوم فهل كان يبلى ويفنى على نحو ما ترى؟ ثم انظر إلى بقية هذه العظام، كيف ينشىء منها الله تعالى عظام الحمار كلها، وكيف يعيد صنعها وتركيبها وربطها ببعضها البعض، ثم كيف يكسوها لحماً، ثم يبعثه حياً من جديد..

وكان العزير يرى بالعين المجردة كيف تم ذلك كله، وكيف استوى حماره حياً كما كان قبل مائة عام، وقد حدث ذلك كله كلمحِ

المسهم

بالبصر. فلمّا تبيّن له الأمر قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن، فيكون..

لقد علم سبحانه وتعالى ما في نفس عبده العزير من توقٍ للعلم بالبعث، فأتاه الدليل الحسيّ من نفسه، ومن حماره، في كلمةٍ واحدةٍ: «كن» التي بيّنت له ثلاث حقائق: الخلق، والموت، والبعث،. إذ أيقن بعد أن هدأ روعه أن الزمن قد مرَّ طويلاً عليه منذ وصوله إلى بيت المقدس، لأن معالم الأشياء كلها قد تغيرت من حوله، وأصبحت بيت المقدس وجوارها على غير الحالة التي رآها فيها قبل أن يميتهُ الله تعالى..

هذا هو الدليل على البعث: حادثةٌ يعيدها القرآنُ من غابر الزمان، ويحفظها آية للناس ـ كما شاءها الله العليّ القدير ـ ليستدل بها أهل الفكر، مهما طال الزمن، أو تعاقبت الأجيال على أن البعثَ حقيقة ثابتة، وليعلموا، كما علم العزير: «أن الله على كل شيء قدير».

٢ ـ كذلك يحيي العظام وهي رميم

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ

ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

إنها جولة جديدة من جولات الجدل في الحرب النفسية التي كان المشركون يشنونها على النبيّ ﷺ وعلى دعوته، والتي كان الرد عليها يأتي من الله ـ جلت عظمته ـ بآيات قرآنية تستقي البراهين للناس من أنفسهم، ومما يشاهدونه في السماوات والأرض، كما في هذه الوخزة اللاذعة للضمير والوجدان التي تذكِّر المشركين بأصل خلقهم من ماءٍ مهين. فلعلَّ في هذا التذكير ما يعيد الوعي إلى نفوسهم، ويزيل تلك الغفلة التي تبعدهم عن النظر في هذا الخلق، فيمتنعوا عن مخاصمة النبيّ ﷺ في جدالهم العقيم حول إحيائهم بعد الموت، وبعثهم من جديد.

ولذلك يأتي النص القرآنيّ، وفيه التعجب والاستغراب من موقف هذا الإنسان الذي ينصِّب نفسه خصيماً للحق، فلا يجادل إلا بالباطل، ليسأله: أولمَ يرَ الإنسان أن الله ربَّه قد خلقه من نطفةٍ من منيٍّ يُمنى، ثم سوَّاه بعد هذا الخلق من ماءٍ مهين، في أجمل صورة وأحسن تقويم. فبدلاً من أن يرى في خلقه نعمة عظيمة تستدعي الاعتراف بفضل خالقه عليه، وحمده وشكره على ما جمَّله فيه وحسنه، إذا به يخاصم ويجادل من يقول له: إن الذي خلقك على ذلك النحو لقادر على أن يحييك بعد الموت، ويبعثك من جديد، كما كنت تماماً في حياتك الأولى.. بل ويكون خصامُهُ في إنكار هذا البعث قوياً لدرجة أنه ينسى خلقه من الماء المهين وما فيه من الوهن والضعف، ثم يستقوي أكثر في جداله وخصامِهِ بما يضرب من مَثَلٍ

(١) سورة يس، الآيات: ٧٧ ـ ٨٣.

المسهم

بهذه العظام التي تبلى، فيقول: «من يحيي العظام وهي رميم؟».

فهو يظن أن حجته قوية، وفقاً لمنطوق تفكيره المحدود أن الإنسان عندما يموت، وترمّ عظامه وتتفتت لا يمكن إعادة إحيائه، وإعادة تركيبها من جديد كما كانت.. فهي قد بليت ولم يبق منها إلا أثرٌ يسير سرعان ما يتبدد لمجرد لمسه!..

«ويروى أن أبيّ بن خلف اقترب من النبيّ ﷺ، وهو على الصفا يدعو الناس للدخول في الإسلام، وفتَّ عظماً في كفه، ثم نفخه وقال: يا محمد! أيبعث الله هذا بعدما أرمّ؟ فأجابه النبيّ ﷺ: **نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم**»[1]. وقد استند النبيّ ﷺ في رده على ذلك المشرك اللعين، وعلى جميع من يكفرون بأحقية البعث على الذكر الحكيم بقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[2]. وإلا فمن يحيي العظام وهي رميم غير الله (تعالى) الذي أنشأها أول مرة من ماءٍ مهين؟ فهو سبحانه بكل خلق عليم، وليس الخلق مقصوراً على الناس من مختلف الأجناس والألسن، ولا على الحيوانات أو الطيور أو الحشرات من مختلف الأنواع والأشكال، ولا على الأشجار والنباتات في شتى أنواعها، بل إن الخلق يشمل أيضاً كل ما في السماوات والأرض من خلائق لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى في تكويناتها وخصائصها وسننها وارتباطها فيما بينها، وصلتها بخالقها.. أجل فكلها من خلق الله، وهو تعالى عليم بها جميعاً..

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي (تفسير الجلالين).
(٢) سورة يس، الآية: ٧٩

لذلك، ومن حيث إن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، ومن حيث إنه بكل خلقٍ خلَقَه عليم، فإن النصوص القرآنية تتعدى البيان عن إعادة إحياء العظام إلى بعض من الأشياء الحسية ذات التأثير المباشر على حياة الإنسان، لتضرب بها المثل على أن الله تعالى على كل شيء قدير، فكما أنه هو الذي يحيي الإنسانَ بعد الموت، فهو الذي جعلَ للناس من الشجر الأخضر ناراً فإذا هم منه يوقدون.. ولكن لماذا هذا التدليل بالشجر الأخضر، وكيف يمكن أن تتولد النار من الشجر الأخضر الرطب؟

قد يكون الجواب البديهيّ أنه عندما نقطع الشجر الأخضر، نتركه حتى ييبس، ثم يصبح وقوداً للنار.. ولكن العبرةَ أبعدُ من ذلك بكثير وهي ما دلَّنا عليه العلم في اكتشافاته الحديثة التي ارتكزت على الاخضرار في الشجر، الذي يوجّه القرآن الكريم أنظارنا إليه باستعمال لفظة «الأخضر».. أجل لقد بيّن العلم أن الشجر الأخضر فيه خاصية امتصاص الطاقة الشمسية والاحتفاظ بها، وهذه الطاقة هي التي تولد النار عند الاحتكاك أو الاحتراق، ولو لأقل شرارة؛ ولذلك تحصل الحرائق في الغابات الخضراء، بحيث يصعب السيطرة عليها، في بعض الأحيان، قبل أن تقضي على عشرات الآلاف من الأشجار، أي أن الطاقة الشمسية التي تُختزنُ في الأوراق الخضراء اليانعة هي التي تنفجر لمجرد أي سبب، ثم تستعر النار على ما نرى في تلك الحرائق هنا أو هناك..

وإن الذي أودع هذه الخاصية في الشجر الأخضر (أي امتصاص الطاقة الشمسية والاحتفاظ بها) هو الذي أودع في الخلية التي يحملها السائل المنويّ تلك الطاقة التي يتولَّد منها الإنسان بقواه الظاهرة

المسهم

والخفية. من هنا يربط الذكر الحكيم ما بين خلق الإنسان من ماءٍ ضعيف مهين، الذي تكمن فيه الطاقة التي تجعله بشراً سوياً، وبين الشجر الأخضر الرطب الذي تكمن فيه الطاقة الشمسية التي تولد النار بقواها العاتية..

وتهدينا النصوص القرآنية إلى أعظم من ذلك شأناً في الخلق، بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؟ أي مِن ﴿مثلهم﴾؟ مِنْ مِثل هؤلاء الأناسيّ الصغار في الخلق والحجم بالقياس إلى السماوات والأرض.. إن الذي خلق السماوات والأرض مع عظمها في شدة هذا الخلق لما تحتويان عليه من الأشياء، والطاقات والقوى ـ التي لا يعلمها إلا الخالق وحده ـ لقادر على أن يخلق مثل هؤلاء الناس الذين يخاصمون، ويشتدون في خصامهم بإنكار البعث.. ولو كانوا يتفكرون لعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يهلكهم، ويفنيهم وأن يخلق أناساً مثلهم يقومون على عبادته، وطاعته فلا ينكرون البعث، ولا يخاصمون في حقيقته.

بلى إن الله تعالى هو الخلاق لهذا الخلق الكثير في تعدده وتنوعه، وهو العليم بجميع مخلوقاته.. وعلى كل حال فإن الخلاق العليم، القادر على أن يخلق كل شيء، إنما أمره في خلقه أن يقول للشيء الذي يريد أن يخلقه: كن، فيكون، أي فيوجد في الحال لمجرد الأمر.

ولو وعينا هذه الحقيقة وحدها، فتدبرتها عقولنا، وانفتحت لها قلوبنا لوجب أن نعيش في عبادة دائمة لله تعالى، وفي تسبيح لا ينقطع للخالق العظيم، والرب الكريم. فسبحان الله الذي بيده ملكوت كل

المسهم

شيء: الخلق، والموت، والبعث، «وإليه ترجعون»، في الآخرة.. وهل يكون الرجوع إلى الله إلا بالبعث؟

٣ ـ الأمثال التي يضربها الضالّون لإنكار بعثهم خلقاً جديداً

يقول الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

إنه الجدال نفسه، والخصام عينه في قضية البعث ما بين النبيّ ﷺ والمشركين.

وجديد هذه الآيات الكريمة هذا الحوار في معركة الجدال تلك، وما كان المشركون يدّعون به من حجج في وجه النبيّ ﷺ حول عدم تصديقهم بأنهم سوف يبعثون خلقاً جديداً، بل وإنكارهم للبعث بصورة قاطعة.. ولكن التنزيل الحكيم كان لهم بالمرصاد، كما يتبين من هذا التحدي الذي يجبههم به، والذي يثبت أن الله تعالى قادر على البعث ليس للبشر وحدهم، بل ولأي نوع من مخلوقاته، أو لأي شيء أوجده، ثم أزاله من الوجود. ولذلك يتوجه الوحي في مخاطبة النبيّ ﷺ بما معناه:

انظر يا محمد كيف ضربوا لك الأمثال وهم يشبهونك ـ كما يحلو لهم الافتراء عليك ـ بالمسحور ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤٨ ـ ٥٢.

المسهم

رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[1]. ولكنهم ضلُّوا بتلك الأمثال التي يضربونها، ولم يقدموا البرهان عليها بأي شيء، لأنهم عاجزون عن هذا البرهان، وهم يوقنون في أنفسهم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] بعيدٍ عن أي شبهة.

ثم هاهم يلجأون إلى نفس الطريقة في جدالهم حول البعث، في قولهم: أإذا كنا عظاماً نخرة، ورفاتاً هشة ـ بعدما حلَّ الفناء في أجسادنا وتحللت إلى تراب ـ فهل نبعث ونعود خلقاً جديداً؟

قل لهم: كونوا على أية حال تتصورونها: حجارة قاسية، أو حديداً صلباً، أو أيَّ شيء يصعب تفتته، أو كونوا أي جنس من الخلق: عمالقة أو جبابرة أشداء، أو مخلوقاتٍ فوق مستوى البشر، فأياً ما كنتم، وأياً ما كان خلقكم فسوف تبعثون!..

فسيقولون: من يعيدنا أحياءً من جديد؟

قل لهم: الذي خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئاً. لأن القادر على إنشاء خلقكم ابتداءً قادرٌ على إحيائه بعد الموت، وبعثه خلقاً جديداً. لأن القادر على البدء قادر على الإعادة بل هي أهون.

وحيال هذه الحجة البالغة، التي لا يستطيعون مقارعتها بالحجج الواهية التي يبتدعونها يصور النص القرآنيّ ردة الفعل لديهم التي تدل على العجز..

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ؟﴾.. هكذا وعندما أعياهم الرد، فسوف يحركون رؤوسهم وهم يلوونها فوق رقابهم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

المسهم

إشارة على عدم الاقتناع، ثم يقولون باستهزاء واستخفاف: ومتى هو هذا البعث الذي تعدنا به؟!

فقل لهم: عسى أن يكون قريباً. أتمنى أن يكون أقرب مما تتصورون حتى يتبين الصادق منا والكاذب!.. ولكن، ومع أمنيتي بأن يكون البعث قريباً فإن الساعة علمها عند ربي، ولا يجلّيها، ويظهرها لوقتها إلا هو سبحانه وتعالى.. ما أقوله لكم إنما هو وحيٌ يوحى إليَّ من ربي، والبعث لا ريب فيه، ويوم يدعوكم بعد موتكم يوم القيامة تلبُّون مسرعين مسبحين حامدين، ظانِّين إن لبثتم في نومكم إلا قليلاً.

ومن كلام للحسن عليه السلام حول حقيقة أن كل آتٍ قريبٌ مهما كان بعيداً قوله: «كأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل».

٤ ـ حَلَفُ الكافرين يوم البعث كمثل إفكهم في الدنيا

يقول الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الروم، الآيات: ٥٤ ـ ٦٠.

المسهم

تقرر هذه النصوص القرآنية في مطلعها سنة الله تعالى في خلق البشر، لتبيِّن من ثَمَّ أنه سبحانه يخلق ما يشاء لأنه العليم بما يخلق، والقدير على تدبير هذا الخلق.

فالله تعالى قد خلقكم ـ أيها البشر ـ أطواراً، وهي الأطوار التي تمرّون بها في حياتكم، وتشكل البرهان على عظم خالقكم، الذي يستدعي منكم الإيمان به لو كنتم تعقلون..

وهذه الأطوار كما تعلمونها علم اليقين، القائم على الدليل الحسيّ وهو وجودكم المادي، تبدأ بالضعف الذي يكمن في المنيّ، ثم في الجنين، ثم في الطفل.. ثم يجعلكم الله من بعد هذا الضعف في طور آخر، طور القوة في أيام الفتوة والشباب التي يكتمل فيها النضوج الجسديّ والنفسيّ.. ثم يعيدكم بصورة تدريجية إلى طورٍ آخر من الضعف تبدأ ملامحه بهذا الشيب الذي يعلو رؤوسكم، فتبدأ معه الكهولة، ثم تأتي الشيخوخة ووهنها حتى تردون إلى أرذل العمر، حيث لا يعلم الإنسان من بعد علم شيئاً، وهي أدنى حالات الضعف التي تعتري بني الإنسان.. وهذه الأطوار لها مدلولات كثيرة وأبرزها فكرة الفناء فلا يبقى الجبارون، والظالمون يعيثون في الأرض فساداً، ومن ثَمَّ حتى تبقى الرابطة التي تصلكم بخالقكم مستقرة في نفوسكم، فلا يغيب عنكم ما سوف تصلون إليه من هرم وضعف، الذي يعقبه حكماً ارتحالكم عن دنياكم لترجعوا إلى ربكم الذي خلقكم. وهذا كله من شأنه أن يؤكد لكم أن الله تعالى يخلق ما يشاء عن علم وتقدير، لأنه العليم بخلقه، القدير على تدبير شؤون هذا الخلق ومن هذا التدبير مروركم بالأطوار التي تعلمون!..

وبعد ما تقرر النصوص القرآنية أن أمر الخلق يعود إلى الله

المسهم

تعالى، تنتقل إلى تبيان حال المجرمين وحال المؤمنين يوم تقوم الساعة، ويبعث الله من في القبور. أي يوم يُحيي الله تعالى البشر جميعاً الذين مروا على هذه الأرض منذ آدم عليه السلام وإلى آخر خليقة قبل قيام الساعة..

ويدرك المجرمون (الكفار والمشركون) يومئذٍ أنهم كانوا أمواتاً، فيصيبهم الذهول من عودتهم أحياء، ويغلب عليهم إجرامهم فيقسمون أنهم ما لبثوا في موتهم، وهم في القبور، غير ساعة واحدة من الزمن.. فكما يصرفون عن الصدق وهم يقسمون، كذلك كانوا يؤفكون في الدنيا وهم يكذبون بالبعث.. فهذا شأن المجرمين دائماً، إذ يطغى عليهم البهتان حتى وهم قيام من رقادهم الطويل، فلا يؤمنون، ولا يصدقون بأنهم ناموا دهوراً طويلة في موتهم..

أما الذين آتاهم الله العلمَ والإيمانَ من الملائكة والبشر ـ بما انتصب لهم من الأدلة القاطعة على الغيب، فعلموا بها علم اليقين، وآمنوا بها إيمان التصديق ـ فإنهم يقولون للمجرمين: بل لقد لبثتم في موتكم الزمن الذي قدَّره الله تعالى لكم في سابق علمه، وجعله مكتوباً في اللوح المحفوظ الذي فيه جميع الأقدار لجميع الخلائق، وقد بقيتم بمقتضى هذا العلم أمواتاً إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون أنه حق وأنه واقع فعلاً، فلا يهمُّ بعده أكان طويلاً أم قصيراً لبثكم في القبور لأنه الوعد الحق، وقد تحقق..

وهنا أيضاً تقرر النصوص حقيقة أخرى من الحقائق التي ترافق يوم البعث ـ وليت الناس يقفون عند هذه الحقيقة ويعتبرون بها ـ فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا أنفسهم ـ بالكفر والشرك بالله ـ أعذارٌ يبدونها، ولا أحد يعاتبهم على إنكارهم للحق في دنياهم! أجل يومئذ

المسهم

لا تنفع معذرتهم بشيء، ولا يجديهم الاستعتاب، لأنهم لا يستعتبون أصلاً. وعدم قبول الأعذار، وعدم الاستعتاب فذلك لأن الله (جلَّ جلاله) قد بعث النبيين والمرسلين بالأنباء والرسالات التي تهدي، فكذبوا بها جميعاً، ولا سيما هذا القرآن الذي ضرب الله فيه للناس من كل مثل، وقصَّ فيه من كل قصص ليتجنّب الناس الكفر والتكذيب، وليسيروا على الطريق السويّ، طريق الإيمان والتصديق، ولكن قست قلوب كثير منهم، وأصمّوا أسماعهم عن قبول فكرة الآخرة، ويوم البعث، فلم يعبأوا بأمثال القرآن، وقصصه، وأحكامه وعظاته، ولم يقروا بدعوة رسول الله ﷺ لاعتناق عقيدة التوحيد التي يحملها القرآن، فكان أن وصلوا إلى ما وصلوا إليه يوم البعث حيث ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

وبعد البيان لما يكون عليه حال المجرمين يوم البعث، ولما يقوله لهم الذين أوتوا العلم والإيمان، يخاطب الله تعالى ـ ربُّ العزة والجلال ـ نبيَّه محمداً ﷺ بقوله الكريم: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.. فأية حجة مهما كانت بالغة، وأي برهان مهما كان ساطعاً، وأي دليل مهما كان واضحاً يأتيهم به رسول الله ﷺ ـ بل ولو جاءهم بالمعجزة الباهرة ـ فإن الكافرين لن يصدقوه، ولن يؤمنوا به. ولا يقف كفرهم عند حدود عدم التصديق والإيمان، بل يتهمونه وأتباعه بأنَّ ما يرشدونهم إليه ليس إلا أباطيل. ولكن هذا الاتهام يشكل الحجة الكبرى على الكافرين عندما يقولون للنبيّ وللمؤمنين: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.. وهي الحجة التي يحملها القرآن ضد الكافرين بالنبيّ إلى يوم الساعة، لأن كلَّ من وَصَلَ إليه القرآن، وعلم به، ولم يؤمن بأنه كتاب الله الحق وأنه وحي الله الذي

المسهم

نزل على محمد ﷺ، ولم يتّبع ما فيه، فإنَّ هذه الحجة قائمة عليه، وسوف يلقاها أمام رب العالمين.

والحقيقة الأصلية الثابتة التي يهدينا إليها القرآن المبين هي: إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرهم رسول الله ﷺ في زمانه أم لم ينذرهم، وسواء أأنذرهم الدعاة للإسلام من بعد الرسول ﷺ أم لم ينذروهم، لا يؤمنون.. لا يؤمنون: لأن الله العزيز الحكيم ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم.. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، ولا يريدون أن يعلموا الحق الذي جاء به القرآن، ويعلموا عقيدة التوحيد التي يدعو إليها القرآن..

ولقد كان في عدم الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ ما آذاه، وآلمه، لأنه كان يحرص على هداية الناس إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، ولذا يخاطبه ربُّه تعالى داعياً إياه إلى الصبر.. «فاصبر» على أذى الكفار، وعلى إصرارهم على عنادهم وتكذيبهم، ولا يستفزَّنَّك هؤلاء الذين لا يوقنون بالبعث الذي يَعدهم به ربهم تعالى، ولا يغيظنَّك هؤلاء الذين لا يصدقون بالوحي الذي يُنزَّل عليك. «فاصبر» وسوف يعلم الذين لا يوقنون، أن الساعة آتية لا ريب فيها. وأن الله يبعث من في القبور.

٥ ـ كما يحيي الله (تعالى) الأرض بالماء وينبت فيها من كل زوج بهيج كذلك الخروج من القبور

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[1].

فسبحان الله القادر المقتدر الذي يوجه أنظار عباده إلى ما خلق في السماء والأرض من آيات تشهد على أنه الخلاق العليم. ومن آياته بناء السماء من فوقنا بلا عمد يراها الناسُ ـ بينما بناؤهم لا يمكن أن يقوم إلاّ على عُمُد متينة، ومحكمة بالمواد التي تشدُّ بعضَها إلى بعض ـ والسماء ليس ما تصل إليه أنظارهم من العلو المترامي في أبعاده وحسب، بل خلق الله سبع سماوات طباقاً، فأحكم بناءها، فلا يتخللها عيْب أو تشقق، بل كلها تتماسك وفق سنن ثابتة، وتدور وفق أنظمة دقيقة، بروح التناغم والتناسق التي تحكم الكون بأسره. وإلا فلولا هذا الإحكام والإتقان في خلق السماوات لدهم بنيانَها الوهنُ والانهيار، فذهبت هباءً منثوراً.

ومن آيات الله العظمى ليس الإحكام وحده، ولا الإتقان وحده في هذا الخلق الكبير الواسع، بل وأيضاً ما نراه من جمال هذه النجوم والكواكب التي تملأ صفحة السماء، وهي تتلألأ بالأضواء، وتشع بالأنوار لتكون زينةً للناظرين، أما مصادر تلك الأضواء والأنوار فهي مجالٌ آخر للنظر الفكريّ. وحسب أهل العلم أن تبيّن مراصدهم سعة الكون بأبعاده الهائلة وهي تلتقط الأضواء الآتية من ملايين السنين الضوئية لتذهب إلى غاياتها كما قدَّر لها الخالق العظيم.

وكما في خلق السماء آيات مبيّنات فكذلك في خلق هذه الأرض التي نحيا عليها، فهي وإن كانت كوكباً يسبح في فلك النظام

---

(١) سورة ق، الآيات: ٦ ـ ١١.

المسهم

الشمسيّ إلاّ أنَّ في بنائها ما يستدعي النظر والتفكير، إذ جعل الله تعالى فيها سهولاً ممتدة، ونصب فيها جبالاً رواسيَ ثابتة لتُحكم تماسكها، وتوازنَ بين تضاريسها فلا تميد أو تضطرب أطرافها.

ومن جمال هذه الأرض ما أنبت فيها خالقها من كل زوج بهيج. وقد كنَّى عن الأصناف التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى مما أنبت فيها بالـ«ـزوج» لأن كلاً منها قائم على نظام التذكير، والتزاوج، إذ عندما يحصل اللقاح تبدأ عملية الإنشاء التي تكتمل بأجمل الحلة والرونق، والتي فيها متعة للعيون، وبهجة للقلوب، فتتكامل الآيات في الصنع والجمال ما بين الأرض والسماء..

كل ذلك قد جعله تعالى تبصرةً، وعظة لكل عبدٍ مؤمن يُرجع كل أمر، وكل شأنٍ إلى ربه، فيعبده حق العبادة، ويطيعه حق الطاعة، لأنه يعلم ما للخالق من الفضل على عبادِهِ، إذْ يكفي ما خلق لهم من مقومات للحياة، وسبل للعيش على هذه الأرض حتى يسبّحوه ويقدسُّوه، فلا يَنُوا في ذكره وتمجيده ما دامت الحياة، وما دام الليل والنهار. بل والحكمة تبين للناس ما في تكوين أمهم الأرض من إحكام وتكامل بين مختلف أطرافها، وما أمدَّها الخالق به من عناصر الطبيعة لتكون صالحة للحياة.

وتذكرة أخرى للناس جديرة بالتبصّر والإيقاظ من الغفلة، فهذا الماء الذي ينزله الله من السماء هو سبب الحياة على الأرض، إذ به يحي الأرض بعد جفافها ويباسها، ويحيي أهل كل بلدةٍ فلا يموتون عطشاً أو جوعاً. فهذا الماء الذي جعل منه الله كل شيء حي، نراه ينزل فترتوي الأرض وتهتز، وتغنى بالخيرات والأرزاق حيث تمتلىء

المسهم

السهول والجبال والوديان بالزهر النضير، وحبِّ الحصيد، والزرع الجنيّ، والشجر المثمر (ومثاله هذا النخل الذي تتراكب عناقيده فتعطي الناس أشهى الثمرات وأكثرها فائدة) وذلك تقدير العزيز الحكيم، الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً..

وكما يحيي الله تعالى الأرض الموات، أو البلدة المجدبة بالماء المبارك الذي ينزله من السماء، فكذلك يحيي الأموات، ويخرجهم من القبور يوم البعث.

فإذا دخلت الشبهة عقول الكافرين فتلك هي الشواهد من فوقهم، ومن حولهم، بهذا الماء، وبهذا الإنبات من كل زوج بهيج، وبهذا الرزق الوفير من كل الثمرات.. وكما يموت النبات ويحيا من جديد في المواسم، وخلال الفصول والمواقيت المحددة له، فكذلك يكون الخروج يوم القيامة، حين تأتي الساعة المحددة التي لا يعلمها إلاَّ الله ـ جلت عظمته ـ وهذا كله مما يحثنا القرآن المبين على التبصُّر به، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟

ويؤكد القرآن على هذا الجانب الطبيعيّ الذي تتفاعل به الحياة على الأرض بآيات أخرى عن الرياح والسحاب وتأثيرهما في إنزال المطر، وإخراج النبات والثمار لتكون الدلائل المعبرة لنا عن كيفية إخراج الموتى..

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ

﴿ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾[1].

ففي هذه الآيات بيان أيضاً على أهمية الماء الذي ينزله الله تعالى من السماء، ولكن مع ذكر بعض العوامل الطبيعية التي تؤثر في سقوط المطر، ومنها قوة الرياح التي تحمل السحاب الثقال (أي المليئة بالماء) إلى ناحية معينة في فضاء الأرض، حيث تتوافر لها عوامل البرودة فتنزل مطراً ـ بإذن الله ـ يحيي الأرضَ العطشى الجافة، ويروي الأشجار والمزروعات فتعطي من كل الثمرات رزقاً طيباً للعباد.

واللفتة القرآنية هنا أن قوى الطبيعة ما كانت لتجتمع، وأنَّ الماء ما كان لينزل لولا رحمة الله تعالى بالناس، فهو سبحانه الذي يرسل الرياح ليستبشروا بها على نزول المطر، وهو الذي يأمر هذه الرياح أن تهب وتنقل السحاب الذي يتكاثف من بخار المياه الناتج عن حرارة الشمس، وهو الذي يأمر المطر أن ينزل فوق بلدٍ أرضه جفاف ومواتٌ، فترتوي وتهتزّ، ثم تربو فيها الخيرات من كل الأنواع والأصناف رزقاً حسناً للعباد. فكما يحيي الله تعالى البلد الميت بإنزال المطر عليه كذلك هو الذي يخرج الموتى من الأجداث.. والقرآن الكريم يسوق لنا هذا المثل عن إنزال الماء، وإحياء الأرض لعلَّنا نتذكر البعث يوم القيامة كلما رأينا المطر يهطل، فلا يغيب عن بالنا ذلك اليوم العظيم، فنستعد له بالإيمان، والطاعة وطلب المغفرة والرحمة..

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٥٧ و٥٨.

المسهم

ولا بد هنا من الربط ـ وبوحيٍ من آيات أخرى في القرآن الكريم ـ بين النفخ في الصور الذي يجعل الحركة تدبّ بين الأموات، وبين الرياح التي تحرّك السحاب لإنزال المطر، بحيث تنشأ من الحركة حياة جديدة في الحالتين: فهذه على الأرض حياة النبات، وتلك يوم البعث حياة الأموات..

ونجدُ لفتةً أخرى من لفتات هذا النص المجيد في تبيان الأرض الطيبة من الأرض الخبيثة للتدليل على الفوارق بين الاعمال الصالحة والأعمال السيئة. فالبلد الطيب الذي يكون تراب أرضه صالحاً يخرج نباته بسهولة ويكون نامياً زكياً؛ بينما البلد الذي يكون ترابه فاسداً، لا يخرج منه إلا نبات خبيث لا ينفع بشيء.. والناس كذلك ـ وهم من طين الأرض ـ فإن منهم المؤمن الصالح، والكافر الطالح، وكل بحسب استعداداته الذاتية في نفسه، وتربيته في بيئته، فيأتي التشبيه القرآنيّ ليمثل بالنبات الطيب لأعمال المؤمن الصالحة، والنبات الخبيث لأعمال الكافر الفاسدة. وإن في هذا التشبيه الحسيّ دافعاً قوياً للإنسان للعودة إلى نفسه فيجعلها وعاءً للخير كالأرض الطيبة، بدلاً من أن يجعلها وعاءً للشر كالأرض الخبيثة.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

كذلك على هذا النحو من الشواهد الحسية يبيّن الله (تعالى) الدلالات لقوم يشكرون نعمته وفضله. فتلك الخصائص التي تكمن في الرياح والسحاب، وفي ماء المطر، وما تؤدي إليه من إخراج الثمرات، وتبيان الفوارق ما بين الأرض الطيبة والأرض الفاسدة في الإنبات ـ وكلها مما يؤثر على الحياة ـ إنما هي أدلة وشواهد لأناسٍ

المسهم

يعلمون حقيقة النعمة، ويشكرون ربهم على ما آتاهم من الأرزاق والخيرات.

والشكر لرب العالمين لا يكون عادة إلا من المؤمن، فكما يحيي الذكر الحكيم القلوبَ المؤمنة، فلا تنفك عن الحمد والثناء للخالق العظيم، كذلك يحيي الماء الأرض فتغنى بالنبات والثمرات.. وهكذا فإن صلاح الحياة يكون من صلاح القلوب، وطيب الحياة يكون من طيب الشكر، والأمر أولاً وآخراً لله المنعم الكريم.

٦ ـ الله (تعالى) قادر على أن يبدل أمثالنا وينشئنا خلقاً جديداً.

يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

إن من صلب العقيدة الإسلامية الإيمانَ بالبعث. فالكافر يرفض التصديق بأنَّ هنالك حياةً أخرى فيها نعيم أو جحيم، بينما المؤمن الذي هداه ربه لنور الإسلام يؤمن بقضايا الغيب التي يذكرها القرآن الكريم، ومنها قضية البعث والحساب. ولكي يبين لنا القرآن الكريم أثر الاعتقاد بالغيب، واليقين بالآخرة إجمالاً فإنه يسوق لنا البراهين العقلية من واقع حياتنا، ومن حقيقة خلقنا مما لا يمكن تجاهله أو إنكاره..

وأول ما ينبِّه إليه القرآن هنا مخاطبةُ ربّ العالمين للناس: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾..

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٥٧ ـ ٦٢.

المسلم

أجل إن في الحياة حقائق يعايشها الناس. وقد أثبتها القرآن المجيد لأنه منزَّل لمعالجة شؤون الناس، ومن تلك الحقائق خلق البشر، والخالق ـ ولا ريب ـ هو الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً. لذلك فإن من المستغرب ألاَّ يصدِّق الجاحدون والمنكرون هذا الخلق من الله العزيز الحكيم، ويعزون الخلق إلى تفاعلات كيماوية وبيولوجية أو غيرها من التفاعلات، ويسمون ذلك حسب نظرياتهم «تطور الكائنات الحية».. ونحن نحيل هؤلاء إلى العلم الحديث الذي يبحث في تكوين الإنسان وقد ثبت من خلاله أن النظام البيولوجيّ الدقيق الذي يقوم عليه خلق البشر هو نفس النظام الذي حدد أطواره القرآن منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، فكان حقاً أن يتنزَّل هذا الاحتجاج، بل وهذا الإيقاظ لعقول الذين لا يؤمنون، ولا يصدقون بأن الله (جلت عظمته) هو الخالق، وهو الذي خلقهم وذلك بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾. أما البرهان فمن أنفسهم بالذات، من هذا المنيّ الذي يضعه الرجل في رحم المرأة، فيلتقي ماء الرجل الذي يأتي من صلبه (من ظهره) مع ماء المرأة الذي يأتي من صدرها، ليبدأ التفاعل الذي يؤدي إلى الحمل ثم تكوين الجنين، ومن ثم الولادة.. فهذا المنيّ الذي ترونه ـ أيها المنكرون ـ أأنتم تخلقونه أم الله تعالى هو الذي يخلقه في عجيب تكوينه؟! ولو كنتم تعقلون الحقائق في حياتكم لرأيتم أن هذا المنيّ نفسه قد يكون عقيماً أحياناً، فمن جعله كذلك عقيماً عند هذا الرجل، وقابلاً للإنجاب عند الآخر؟ ومن جعل هذه المرأة عقيماً وغيرها صالحة لأن تلد من البنين والبنات ما يشاء الله؟ أفرأيتم هذا المنيّ الذي تمنونه أأنتم تخلقونه أم الله هو الذي خلقه؟ والجواب: أنكم لستم أنتم الذين تخلقونه فكان من خلق الله، فهلاَّ تصدقون بهذه الحقيقة الحسية؟

المسهم

وحقيقة أخرى في حياتكم: وهي الموت. فهذا الموت قد جَعَلَهُ الله (تعالى) قَدراً مقدوراً على الإنسان. وقدَّر لكل إنسانٍ أجلاً يموت فيه، ولا يمكن لأحدٍ أن يفلت منه، لأن كل نفس ذائقة الموت، إنما أمرُهُ متى يكون، وكيف تحصل الوفاة فذلك من شأن الله، وهو ـ جلَّ جلاله ـ غير عاجز، وغير مسبوق بأن يميت من يشاء، وساعة يشاء، بل ولا شيء يعجزه عن أن يميت الناس جميعاً، وأن يستبدلهم بآخرين غيرهم. وقد يأتي بالآخرين مثل خلقكم، وعلى نفس النظام الذي خلقكم بمقتضاه، أو قد يكون خلقاً آخر مختلفاً، فهو أمرٌ لله تعالى، وعباده عاجزون عن معرفة أسراره، لأنه يدخل في علم الغيب الذي اختصَّ به الخالق نفسه، ولم يشرك به أحداً من مخلوقاته.

هذه أدلة لا تحتاج إلى براهين: تبدأ بالمنيّ، ثم تتعاقب أطوار الخلق لتنتهي بالموت.. فهذه النشأة الأولى من المنيّ، التي يعلمها الناس حق العلم، جديرة بأن تذكركم بالنشأة الثانية بعد الموت، لأن القادر على النشأة الأولى، قادر على النشأة الثانية يوم القيامة، فهلا تذكَّرون وتؤمنون بالبعث؟

ومن قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «عجبت لمن آمن بالنشأة الأولى كيف ينكر النشأة الأخرى».

٧ ـ مشهد الجموع في خروجها من القبور كأنهم جراد منتشر

يقول تبارك وتعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[1].

(١) سورة القمر، الآيات: ٦ ـ ٨.

المسهم

من المعلوم أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتلقى الوحي، ويعلنه على الناس بلاغاً مبيناً لقوم يؤمنون. ولكن الكافرين كانوا يعرضون عنه، ويلجّون في عتوٍّ ونفور في الإعراض، فجاءه الخطاب من ربه (تبارك وتعالى) أن يتولَّى عنهم، فلا يجهد نفسه في دعوتهم إلى الدين الحق، لأن لا فائدة ترجى من هديهم، ولا أمل في نصحهم، فيوم الحشر ينتظرهم، وسوف يُلاقُون حاضراً ما كانوا ينكرون!

ولو تأمّلنا، وأمعنا التفكير في هذه الآيات المبيِّنة، لتراءى لنا المشهد الذي تصوره لأولئك الكافرين المجرمين، الذين ما إن يسمعون الصيحة الكبرى، يوم يدعو الداعي ـ وهو الملك إسرافيل المكلف من ربه العزيز بالنفخة لإيقاظ الناس من موتهم ـ حتى يخرجوا من قبورهم دفعةً واحدة، كأنهم جراد منتشر في رقعة واسعة، لكثرة أعداد الناس التي يستعصي حصرها، أو معرفة مقدار جموعها، ولكن يساعد على تصورها مشهد الجراد المعهود، عندما يصير في الفضاء الذي يحوم فيه، ثم يحط على ناحية فيكسوها.

فكل البشر الذين خلقوا على هذه الأرض ـ والذين لا يعلم عددهم إلا خالقهم ـ سوف يهبون من الأجداث، ويسرعون باتجاه الصوت الذي دعاهم، وهم يمدون رؤوسهم إلى الأمام، وأبصارهم خاشعة من الذل، ومن الخوف الذي يعتري النفوس، وقد أيقنوا أن ساعة الحساب قد حلت، وأن لا مفرَّ لكل نفس من أن تنال جزاءها على ما كسبت في دنياها.

ثم يرسم لنا التعبير القرآنيّ مشهداً آخر للكافرين بربهم، والذين لم يؤمنوا بيوم الحساب من قبل، وهم يقولون: «هذا يوم عسر».. فلم يعد من مجال لأن ينكروا البعث ـ وقد بعثوا فعلاً ـ ولم يعد سهلاً

أن يتقوَّلوا ما يريدون، فالهول يطغى على نفوسهم، والفزع يأخذ بمجامع قلوبهم.. فكل شيء يدل على أنه يوم عسير وشاق عليهم، إذ ليس من إيمان يعصمهم من الفزع الأكبر، وليس من خير قدموه لأنفسهم هو محسوبٌ لهم في ذلك اليوم، فكل ما عملوا بقي في دنياهم، وذهب هباءً منثوراً في آخرتهم؛ فصدق ما يقولون: «هذا يوم عسر»..

ولعلَّ في هذا التصوير لأحوال الكافرين، يوم يدعو الداعي إلى شيءٍ نكر، ما يعظ الناسَ في دنياهم ويرشدهم إلى الإيمان بالله تعالى، وبالبعث والحساب، فيستعدوا ليجعلوا ذلك اليوم يوماً سهلاً، بدل أن يجدوه يوماً عسراً عليهم!..

وفي سورة أخرى من القرآن الكريم، يأتينا نفس المشهد ليوم الحشر، وما يتخافت به المجرمون فيما بينهم عن مدة بقائهم في الحياة الدنيا، قبل أن يموتوا ويبعثوا خلقاً جديداً.

يقول تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[1].

ومن أصدق قيلاً من الله الذي يصف الكافرين ـ هنا ـ بالمجرمين.. تبعاً لتلك الأعمال الإجرامية التي أتوها في حياتهم الدنيا، وهي على كثرتها وتنوعها قد تراكمت على أكتافهم حملاً ثقيلاً، يحسون به في ذلك اليوم العظيم، يوم الحشر؟ فقد ارتكبوا المعاصي، وتجاوزوا الحدود التي حدَّها الله تعالى، وفرَّطوا بحقِّ ربهم

---

(١) سورة طه، الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٤.

المسهم

ـ جل جلاله ـ وبحق أنفسهم، وبحق العباد، حتى صارت عبئاً تنوء أكتافهم بحمله..

ذلك أنهم كفروا بربهم وأعرضوا عن ذكره، وملأوا حياتهم الدنيا بالإثم والعدوان، ولم يراعوا إلاً ولا ذمةً فتعدوا على الآخرين، وسلبوهم حقوقهم، ولذلك كانت أعمالهم جرائم يحاسبون عليها، وينالون العقاب الذي يستحقون!..

فكيف يكون حال أولئك المجرمين يومَ يحشر الناس للحساب؟

ما إن ينفخ في الصور، ويأتيهم نداء الاستفاقة حتى يهبوا من الأجداث بقلوبٍ يملأها الهلع، وما إن يصلون إلى المحشر حتى تكون وجوههم قد غطاها الشحوب، والسواد فبدت من شدة الصدمة بتلاميح جديدة يغلب عليها الازرقاق، تماماً كما نرى مثل هذه الآثار على وجوه الخائفين، المصدومين عندما يسيطر عليهم القلق أو الفزع إما من جراء المرض، أو من جراء ضبطهم بالجرم المشهود.. وفي محاولة يائسة من أولئك الكافرين للتسرية عن أنفسهم، يقولون، بصوت خافت، يكاد لا يسمع لشدة ضعفه: كم لبثنا في الحياة الدنيا؟!

فيقول بعضهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي إنّ هي إلا مدة وجيزة، لا تتعدى عشرة أيام.

ولكن لماذا مثل هذا الظن، أو الوهم بأن حياتهم الدنيا كانت قصيرة، حتى أنها لا تتجاوز أياماً معدودات؟

إنه تأثير يوم الحشر عليهم، فكأنما يريدون اختصار حياتهم كلها على الأرض بلياليٍ قليلة، لتكون ذنوبهم قليلة، فكلما سيطر عليهم

المسهم

الوهم بأن حياتهم كانت قصيرة أيقنوا أن جرائمهم كانت معدودة ولا تحتمل العقاب الشديد. وعلى العكس كلما أحسوا بأن أعمارهم كانت طويلة تراءى لهم عديدُ المعاصي والآثام التي ارتكبوها في دنياهم، وحاق بهم العذاب من جرائها!..

ويصور لنا النص أنَّ ما يتمنونه في قرارة نفوسهم، وما يقولونه لبعضهم البعض، يريدونه سراً فيما بينهم، حتى لا يسمع أحدٌ ما يقولون، أو يعلم بما يتهامسون، وذلك على نفس الدأب الذي كانوا يسلكونه في الحياة الدنيا وهم يعدّون لجرائمهم، ويحيكون لمكائدهم..

ولكن أليس ذلك منتهى الضلال والغباء؟! إنهم، حتى في الحشر، لا يريدون أن يقروا بأن الله هو العليم الخبير، وهو يعلم السّر والنجوى، ويعلم ما تخفي الصدور، وما تنطق الألسن.. ولذلك كان التوكيد على أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يسرون لبعضهم بقوله العزيز: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

ويبدو أن أمثلهم طريقةً في التمويه والغباء، وأمثلهم أسلوباً في الحنكة والدهاء قد شطّت به أمانيه الكاذبة إلى أقصى ما يمكن أن يخفف به عن نفسه، وعن المجرمين أمثاله من ثقل الأوزار التي يحملونها، فيقول: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

فتلك أمانيه وأمانيهم.. لا يريدون أن يكون الحساب عسيراً عليهم، فيأملون ـ ظناً ووهماً ـ بألاَّ يكون مكثهم في الحياة الدنيا أكثر من عشرة أيام، بل أكثر من يوم واحد!..

ولكن كذبوا وغرّتهم الأمانيّ الباطلة، فهم في يوم الحشر؛ وهم

المسهم

وقوف بين يدي رب العالمين، ولكلٍّ كتاب وحساب!..

فهل يكفي الناسَ ما يرشدهم به الذكرُ الحكيم عن يوم البعث، حتى يوقنوا به، ويعودوا إلى ربهم الغفور الرحيم ولا يبقوا سادرين في الغيّ والضلال؟

٨ ـ مقولة إنكار البعث مثل مقولة الأولين

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[1].

أجل إنها الحقيقة وعليها يقوم الإيمان الصادق، وهي أنَّ الله (تعالى) هو الذي خلقنا في الأرض، ثم قدَّر لنا التزاوج والتكاثر فكانت هذه الأمم والشعوب باختلاف ألوانها وألسنتها، وكانت هذه أعمالنا في عمارة الأرض، وفي تنوّعها بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين التقوى والفجور، وغيرها.. وغيرها.. مما يجعل الناسَ في هذه الحركة الدائبة التي تعبِّر عن حياتنا بكل معانيها.

وكما أوجَدَ الله تعالى سنن هذه الحياة التي نحياها، فقد فرض علينا أيضاً سنة الموت، التي بمقتضاها الفناء، ثم البعث، والحشر يوم القيامة إلى الواحد الديَّان، لنلقى جزاء أعمالنا، وما كسبت أيدينا.. فالذي يحيي ويميت ـ إذن ـ هو الله العليّ القدير. واختلاف الحياة والموت في تعاقبهما على الناس كاختلاف تعاقب الليل والنهار فيما يبدوان فيه من الظلمة والنور، والطول والقصر بزيادة مدة هذا

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٧٩ ـ ٨٢.

المسهم

وإنقاصها من ذاك تبعاً لدورة الأرض حول نفسها في هذا النظام الكونيّ المتكامل، بحيث يكون لنا في تعاقبهما دليلٌ، وبرهانٌ على الحياة والموت.. وهنا يبدو الربط فائق الروعة بين ما يعنيه النهار من الحركة والحياة، وما يعنيه الليل من السكون والموت.. وذلك بما ينطبق تماماً على واقع الناس حيث يدبّون في نهارهم وينشطون للعمل والكد، فلا يأتي عليهم الليل إلا ويأخذهم النوم حيث تتوفى فيه الأنفس فعلاً، فيمسك الله (جلت عظمته) التي قضى عليها بالموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى.. وذلك كله تقدير العزيز الحكيم، أفلا نعقل هذا التقدير فنعتبر، وندرك هذه الحكمة فنوقن؟

وعلى الرغم من هذه الأدلة العقلية والبراهين الحسية فإن الكافرين لم يأخذوا منها عبرة أو عظة. بل قالوا مثل ما قال الأولون من آبائهم وأجدادهم، ومن هم على شاكلتهم في الكفر والإلحاد. قال الأولون: أإذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون؟

لا، ومحال بعد أن نموت وتبلى أجسادنا فتصبح تراباً، ولا يبقى منها إلا بعض عظيمات بالية، أن نعود ونحيا من جديد.. هكذا كان إنكارهم، وهكذا كان ظنهم.. وذلك هو الضلال المبين..

الفقرة الخامسة: الإيمان بالجنة والنار

يقول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[1].

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.

المسهم

وقال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[1].

من الملاحظ في حياة الإنسان نزعته إلى الطموح، وسعيه الدائم إلى رغد العيش والراحة والأمان. فنراه يكدّ، ويجهد ويتوسل بجميع القيم، وبالوسائل المادية التي يستطيع بواسطتها تحقيق أهدافه التي تختلف لديه تبعاً لاختلاف الدوافع لدى الناس. فقد يكون الدافع مثلاً وراء إحسان المحسن ابتغاء كسب الأجر، ونيل رضوان الله (تعالى)، ولذلك فهو يؤثر مساعدة الفقراء والمحتاجين، ومدّ يد العون لأصحاب الحاجات والمحرومين، والقيام بأعمال البر والخير دونما حب للظهور، والتعالي على الآخرين، أو دونما أي طلب لمكاسب دنيوية..

وعلى خلاف ذلك فقد يكون الدافع لدى الإنسان مادياً بحتاً، فنرى جهوده منصبّةً على تحقيق الغنى، أو الجاه أو السلطان، وغيرها من مطامع الدنيا، فلا يتردد كثيرون عن استعمال أية وسيلة لنيل مطالبهم حتى ولو كان الأمر على حساب الآخرين، أو سلب حقوقهم، أو القضاء على مصالحهم المشروعة.. فكل شيء عندهم مبرَّر طالما أنه يحقق رغباتهم وأمانيهم.

وقس على هذين المثلين جميع المطالب التي يعمل من أجلها الناس. فهناك دوافع متنوعة، وهناك غايات متعددة ولكنها تظهر بالأعمال التي يأتيها الناس، لأنها هي الأصل في تحديد حركتهم على وجه هذه الأرض.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

المسهم

ومما لا ريب فيه أن أعمال الناس ـ طبقاً لمفهومنا الإسلاميّ ـ هي الطريق التي تقرر مصائرهم في الآخرة، وذلك بحسب الغايات التي ارتضوها، والخيارات التي ارتأوها. وهذا ما يبيّنه لنا القرآن الكريم، بوضوح، وبصورة مسبقة قبل الوصول إلى الآخرة: فأما المؤمنون الصادقون فقد وعدهم ربهم الكريم بالفوز بالجنة حيث النعيم المقيم، بينما توعَّد الكافرين والعاصين بالخلود في النار حيث العذاب الأليم.

وبما أن الجنة والنار هما من القضايا الغيبية التي لا يعلم إلا الله تعالى وحده حقيقتهما وكيفية خلقهما وصفاتهما، فقد شاء تعالى أن يقرب صورتهما للأذهان عن طريق الأشياء الحسية التي تلامس حياة الناس، في شتى مظاهرها، ولا سيما الأشياء التي تؤثّر عليهم مباشرة من مأكل أو ملبس أو مسكن، أو سعادة وشقاء إلخ.. فضرب لهم المثل عن صفات الجنة بأبرز تلك الأشياء، وأهمها على الإطلاق هذا الماء الذي جعل الله (تعالى) منه كل شيء حي، ولا تقوم للإنسان حياة من دونه. ولذا نجد القرآن الكريم يركّز دائماً على ذكر الماء في معرض الحديث عن الجنة، وعن الحياة، وعن الكائنات الحية. فذكر فيما خصَّ الجنَّة الأنهارَ وأكثر من تبيان أنواعها وأوصافها بما تحتويه من الملذات والمتع، ومن الفوائد والحسنات ولا سيما ما تبعث عليه من الراحة والسعادة، وذلك حتى تظهر لنا الجنةُ نعيماً مقيماً، وفوزاً مبيناً، وملكاً واسعاً لا يبلى، وخلوداً دائماً لا ينقضي ولا يفنى..

.. وهذا كله ما تبرزه الآيتان الكريمتان، ولا سيما في مطلعهما الذي يشير إلى وصف الجنة، باستعمال عبارة «مَثل الجنة» أي أن صفة الجنة هي كذلك، بما فيها من الأشياء التي تذكرها النصوص، والتي

المسهم

تتميز بخصائص غير أشياء الأرض التي تعرفونها أيها الناس.. فكانت الأنهار تعبيراً عن الفيض والوفرة، والتدفق، والاستمرارية بدون انقطاع؛ وتعبيراً عن الطهارة والنقاء بخلاف أنهار الأرض التي قد يخالطها الفساد لكثرة ما تمتلىء به من مسبِّباتِ التلوث الذي يحدثه الإنسان..

ومن الأمثال على أوصاف الجنة الأنهار من اللبن الذي لا يتغيّر طعمه، فلا تعتوره حموضة أو فسادٌ أو غيرهما من العوارض التي تصيب لبن الأرض. وكذلك الأنهار من الخمر التي تنشرح لها الصدور فتكون لذة للشاربين، أي على غير ما نعهد في خمر الأرض التي غالباً ما يرافق شربَها القيء والخفة، وفقدانٌ للوعي. هذا فضلاً عما يتسبب به إدمانها من أمراض جسدية ونفسيه[1]. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأنهار من العسل المصفى، الخالص من الشوائب التي قد تغير خواصه، وطعمه ولونه كما في عسل الأرض الذي قد يخالطه الغش والفساد مما تصنع أيدي الناس.

وفوق تلك المقومات للحياة من الماء واللبن والخمر والعسل

---

(١) إن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن ذكر الخمر في القرآن الكريم لا يجوز أن يُتّخذ حجة أو استنتاجاً على إمكانية استباحة شرب الخمر في هذه الحياة، كما يظن البعض أو كما يؤوله البعض الآخر في محاولة خبيثة لتحليل محرَّم خبيث.. فكل أطايب الجنة وخيراتها لا ندرك كنهها ولا نعرف عنها شيئاً، وإنما كان التمثيل عليها بالأطايب التي يعرفها الإنسان، والتي تغريه نفسياً، لتقريب المعاني المرادة إلى أذهاننا، ولا سيما معنى السعادة العظيمة التي تنتظر الناس في الجنة، وذلك من خلال الصور الحسية التي ألفوها في حياتهم الأرضية، ورغبوا في التمتع بها، إلا أن الأحكام الشرعية حرَّمت عليهم بعضها، كما هو الحال بالنسبة إلى الخمر. ولذلك كان التوكيد في الكتاب والسنة على تحريم الخمر تحريماً قاطعاً وجازماً.

المسهم

يُضاف إلى طيبات الجنة كلُّ الثمرات على اختلاف أنواعها وألوانها، مما لا عين رأت ولاخطر على قلب بشر.. وذلك تعبير عن كل نتاج ذي فائدة وخير، فضلاً عن أنها الثمرات المبرَّأة من كل خبث قد يصيب ثمار الأرض.. وكلُّ ما تسوقه النصوص القرآنية ليس إلا أمثالاً على مقومات الحياة، وما يعين على توفير الصحة والسلامة الجسدية والنفسية والعقلية في الحياة الدنيا.. وهذا يجعلنا نتفكر في أوصاف الجنة حيث كل شيء مختلف عن دنيانا هذه، ولكنه يقود إلى اليقين بحياة الخلود والنعيم المقيم. وتلك الجنة «أكلها دائم» أي للتدليل عمَّا يؤكل، و«ظلها» دائم، فلا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، ولا يعرفون تقلبات للطقس ولا اختلافات في المناخ، وذللت قطوفها تذليلاً فلا كدَّ أو تعب، ولا قلق أو شقاء ... مما يوحي بكل أجواء السعادة، والنضرة، والسرور، وبكل ما يتناسق ويتناسب مع أسباب النعيم والخلود.

هذه الجنة التي عرَّفها الله تعالى بتلك الملامح والصفات والخصائص هي التي وُعِد بها المتقون من عباده، الذين اجتنبوا الكفر والشرك والنفاق، وانتهوا عن المعاصي والذنوب والخطايا، فساروا على طريق التقوى، والعمل على نيل رضوان ربهم (تبارك وتعالى) لا تغريهم الدنيا وأفانينها، ولا يلهيهم شيء عن ذكر الله (عز وجل).. حتى استووا أناساً متطهرين، مؤمنين، صادقين، لا يلتفتون إلى عرض الدنيا بل يتوجهون إلى الله (تعالى) خالقهم وبارئهم بالإيمان، والنية الحسنة، والعمل الطيب، فحقَّ أن تكون عقباهم الجنة، والفوز بالمغفرة، والرحمة من الغفور الرحيم..

المسهم

فهل من هو خالدٌ في جنَّةِ النعيم كمن هو خالد في نار الجحيم؟ وأي نارٍ هي هذه النارُ التي يذكرها القرآن الكريم، والتي نستشعر منها اللهب وهو يتلظَّى، والحريق وهو يشتعل، والحمم وهي تتطاول لتأكل كلَّ شيء تلقفه أَلْسِنَتُها؟.. هل نتخيَّلُ مشاهِدَ النيران التي تندلع في الغابات مثلاً وما يكون لها من فعل؟ أَم نتصوَّرُ تلك الطاقة المحرقة التي تدفع بالصواريخ إلى الفضاء؟ وهل نتذكر حِمَمَ البراكين وهي تسيل فوق سطح الأرض في ثوراتٍ عنيفة لا تبقي ولا تذر؟ فكما ندرك معاني هذه الصور الحسية عن النار في هذه الدنيا، فالأولى أن نتصوَّر ما يمكن أن تكون عليه النار في جهنم وما سوف تكون عليه حال كل كافر جاحد، وكل منافق عنيد وهو يتلظَّى في أتون تلك النار، فيطلب الماء فلا يُسقى إلا ماءً حميماً، ما إن يصل إلى أمعائه وأحشائه حتى يقطعها لشدة غليانه.. ولنا أن نستقيَ من واقعنا المحسوس مثالاً على ذلك من الماء المغليّ الذي قد يصيب بعضٌ منه جلودنا، وما يحل بها على الفور من جرائه.. أما إذا شربنا مثل هذا الماء الذي يغلي فتلك هي الكارثة التي تحلُّ بأجوافنا لأنه سوف يقطع أمعاءنا وأحشاءنا بلا جدال.. وهل لنا أن نتصوَّر أتوناً من النار، وفي وسطه بعضاً من الناس، فكيف تكون حالهم وهم يحترقون كالوقود؟

فأمثال تلك الصور الحسية، سواء من النعيم في الجنة، أو من العذاب في النار، ترد في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وقد تجيء معها صور معنوية أو مجردة، أو قد تجيء وحدها منفردة في صور حسيّة وواقعية، وكلها يسوقها القرآن ليعرِّفنا على الفارق بين أهل النعيم وأصحاب الجحيم..

والله (تبارك وتعالى) هو الذي خلق البشر جميعاً فهو يعلم

المسهم

المتقين من العاصين ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]، فهو يعلم من خلق، ويعلم ما يؤثر في نفوسهم، وما يُصلح أحوالهم.. ومن أجل ذلك فقد أنزل في كتابه المبين الآيات التي تربيهم تربية سليمة، إن هم ساروا على تقوى الله ومنهاجه القويم..

والله (سبحانه وتعالى) قد خلق الإنسان على الفطرة، ثم هداه السبيل ليكون إما شاكراً وإما كفوراً، فهو في الخيار بين أن يقوي استعدادات الخير في نفسه فيكون من أهل التقوى، أو أن يغلِّب عليها استعدادات الشر فيكون من أصحاب المعصية. فأما الذين هُدوا إلى التقوى، فآمنوا بالله وملائكته وكتبه، ورسله، وآمنوا بالغيب، وأقاموا الصلاة فأولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[2].

ولذلك كانت الصور الحسية التي يرسمها القرآن الكريم والتي تبين صفة الجنة، تتوافق مع تربيتهم الإسلامية وتتلاءم مع طباعهم اللينة، التي اكتسبوها بفضل تصديقهم وإيمانهم.

وأما الذين اختاروا الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والنفاق على الصدق، فأولئك الذين ساروا وراء الشيطان فأغواهم، وأوقعهم في المعاصي والرذائل، فأفسدوا في الأرض، ونشروا الفسوق والعصيان، ولذلك لم تتقبل نفوسهم طاعة الرحمان، ولم يكن لديهم تصور عن الحساب، أو عن الجنة والنار، فحق عليهم

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٦.

المسهم

وعيد الله، بقوله العزيز: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

ولا تقتصر الحياة في الجنة على المتقين وحدهم، بل على أزواجهم كذلك ومن صلح من ذرياتهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[2].

فأصحاب الجنة، أولئك الذين دخلوها بما قاموا به من الطاعات والعبادات، حق لهم أن يكونوا في شغل هنيء وسعيد، ناعمين في كنف الرحمان الذي وهبهم حياة الخلود في نعيم مقيم، وملكٍ كبير. لقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾، فضلاً عن أنَّ الذين يخشون ربهم ويخافون مقامه في الدنيا لهم جنتان في الآخرة.

أما شغل أصحاب الجنة (حيث لا شغل ولا نصب ولا تعب وفقاً لمفهومنا الأرضيّ) فهو التسبيح، والتهليل والتكبير.. لا يفترون عن ترداد الباقيات الصالحات: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، كما وصف رسول الله ﷺ هذه الكلمات الطيبات.. فهم في شغل بالحمد والثناء على مولاهم الكريم، وربهم الحليم.

---

(١) سورة الملك، الآيات: ٦ ـ ١١.

(٢) سورة يس، الآيتان: ٥٥ و٥٦.

المسهم

وهم في شغل بالتفكير في آلائه، وبآياته العظمى التي كلما انتهوا إلى مقام معينٍ في علمها ارتقوا إلى درجة أعلى في الجنة، لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1]. فالذي يخاف مقام ربه، هو من عرف ربهُ ـ تعالى ـ على حقيقته، فعبده، وأطاعه، واتقى غضبه فبوأه ربه المقام الذي يليق به في دار النعيم..

ويضاف إلى ذلك كله السعادة التي ترافقهم باجتماعهم مع أزواجهم، ومن صلح من ذرياتهم، الذين ينضمون إليهم بفضل من الله ورحمة، إكراماً لهم على صلاحهم في الحياة الدنيا.

وهم يعيشون في تلك الظلال الوارفة، متكئين في قصورهم على الأرائك، وفي متناولهم كل أطايب المأكولات والثمرات، وكل ألوان النعيم الذي يستأهلونه حقاً وصدقاً.

ومما يزيد في حبور المؤمنين المتقين، الزوجات الطاهرات، عفيفات الشعور والنظر، اللواتي لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، ولا يرين أحداً أحسن أو أجمل منهم، فهن في جنة الخلد كما وصفهنَّ الله تعالى في قرآنه المبين بقوله الكريم:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[2]، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[3]. بل: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[4]، بحيث إنَّ من بين المزايا التي تليق بأهل الجنة ما روى أبو ذر الغفاريّ ﷺ عن رسول الله ﷺ: من أنها تقول لزوجها: «**وعزة**

---

(١) سورة الرحمان، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الرحمان، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الرحمان، الآية: ٥٨.

(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٢ و٢٣.

المسهم

ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجتك وجعلك زوجي»[1]، لذلك كانت الزوجات في الجنة: الطاهرات من الحور العين، ذوات الجمال الفاتن، والمصونات اللواتي لم يمسسهنّ بشر من قبل أزواجهم ولا جان.. تأكيداً على طهارتهن، وعفافهن..

ومن أوصافهنّ أيضاً ـ وهذا للزيادة في إكرام أهل الجنة ـ أنهن كالياقوت والمرجان، كما نتصوره في صفائه، ونقائه وبياضه، وكاللؤلؤ المصون الذي لم يتعرض للمسٍّ أو للنظر، فلم تثقبه يدٌ، ولم تخدشه عين.. هكذا هنّ الحور العين بجمالهنّ الفائق.

وفي وصف المرأة باللؤلؤ قال الشاعر:

وَهْيَ زهراءُ مثلَ لُؤْلُؤَةِ الغوّا صِ، ميزتْ مِنْ جَوهرٍ مكنونِ

على أن كلَّ هذا الوصف هو كناية عن معانٍ حسية، لنفسيات لطيفة، طيبة زكيةٍ ينشئهنَّ الله (تعالى) في الجنة إنشاءً. كما أنَّ في معاني الآيات الكريمة دلالة هامة أتى بها القرآن المبين وهي أن الجنيَّ يغشى كما يغشى البشريّ في الاجتماع ما بين الذكر والأنثى. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ كما يهب المؤمنين، المتقين من الإنس زوجاتٍ طاهراتٍ لم يطمثهنَّ أحدٌ من قبلهم، فكذلك يهب المؤمنين من الجنِّ زوجات عفيفاتٍ لم يطمثهن جنٌّ من قبلهم.. وهذا ثناء عظيم على المؤمنين، ووعْدٌ بما ينالون من فضل ربِّهم ونِعمه على عباده الصالحين.

وعن الحالة المعنوية لأهل الجنة، يقول تبارك وتعالى:

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم ١٨٥٣.

المسهم

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[2].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

فأهل الجنة منعَّمون فيها، يرفلون بثوب الصحة والسلام والأمان. ويعرف ذلك من وجوههم التي تطفح بالنضرة، والوسامة والبشر، وتعبيراً عما يعتمر في صدورهم من الطهارة والنقاء، التي نزع الله تعالى منها كل غِلٍّ أو حِقْدٍ أو حسدٍ، فتآخوا في الدار الآخرة على المحبَّة والود، كما تآخوا في الدنيا على الإسلام، هذا الدين الروحانيّ السامي الذي ميَّزهم عن غيرهم في الدارين.. ثم إنهم على نفس جوهر الإيمان الصادق، الذي يزيدهم في الآخرة اعترافاً وامتناناً بفضل ربهم الكريم عليهم، فلا تكف ألسنتهم عن ذكر الله تعالى يسبحونه ويمجدونه، ويحمدونه على ما هداهم إليه في حياتهم الأولى من فهم لدينهم وما وفقهم إليه من اتباع للحق، حتى فازوا بهذا النعيم الخالد المؤبَّد.. فنعيمهم كلُّه مردُّه إلى هداية الله تعالى، وفضله عليهم بأن جعلهم من المهتدين. ولولا فضل الله (تعالى) وتوفيقه، لَما كانت لهم هذه الهداية، ولما كان لهم هذا الفوز العظيم.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

المسهم

أصناف الناس في الأمثال القرآنية

إن من مزايا القرآن المجيد أنه يصنِّف الناس بحسب قبولهم للهدى والتقوى، أو إعراضهم عن ذكر الله، وإيثارهم للكفر والشرك على الإيمان. ولذلك نجد في أمثاله ما يوجه المؤمنين ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم.. وما يبيّن صفات الكافرين، ومواصفات المشركين والمكذبين بآيات الله، والآثار والنتائج التي تترتب على معتقدات وأعمال هؤلاء وهؤلاء في الدارين. وعلى هذا فإننا سوف نبحث في هذا الفصل:

١ ـ ملامح من التوجيه والإرشاد للمؤمنين.

٢ ـ عبادة الكافرين لآلهة مدعاة.

٣ ـ أعمال الكافرين تذهب يوم الحساب طرائقَ قِدَدا.

٤ ـ الفوارق بين المؤمنين والكافرين.

٥ ـ الشرك وظلم المشركين لأنفسهم.

٦ ـ النفاق ومواصفات المنافقين وفعالهم.

٧ ـ إخلادُ المكذّبين بآياتِ الله إلى الأرضِ واتّباعُهُمُ الأهواءَ.

المسهم

الفقرة الأولى ـ ملامح من التوجيه والإرشاد للمؤمنين.

الدين نور للقلوب ومشعل للهداية. فمن آمن بدين الله، وهو الحق، اهتدى ونال الفوز في الدنيا والآخرة.. ومن ضلَّ عن هذا الدين كفر بالله، وباء بالخسران فحق عليه العذاب في الآخرة..

ولا يحسبنَّ أحد أن متاع الحياة الدنيا وزخرفها، وما يمكن أن يحوز الإنسان من الغنى والثروة، أو ما ينال من النفوذ والسلطان، أو يتمتع به من اللذة والمرح.. إلخ يمكن أنَّ يُعدَّ غايةً قصوى بذاته، بل إن رضوان الله (تعالى) هو أسمى الغايات وأجلُّها على الاطلاق. فكل الأعمال، والتصورات، والقيم والمثل تكون باطلة وعقيمة إن لم تؤدِّ إلى رضى الله وطاعته.. وكل القلوب، والضمائر، والعقول والنوايا تكون ضالّة وحائرة إن لم تتوجَّه إلى الله وهدايته.. ولا يظنَّنَّ أحد أن شقاء الحياة وهمومها، والآلام التي تعصف بالكيان الإنسانيّ من القهر، والقلق، والعذاب، والمرض، والجوع.. الخ يمكن أن تحيد بالإنسان المؤمن عن الطريق المستقيم الذي يسلك، وعن الحق الذي يتّبع، فكل ما يصيبه من الابتلاء يزيده إيماناً ورجاءً واحتساباً، لأنَّ إيمانه مبنيٌّ على التسليم والانقياد لخالقه، وعلى اليقين بأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد.. وفي ذلك ما يخفف عن المؤمن المعاناة، ويصبِّره على الابتلاء!.

وإلى جانب هذا الرضى والتسليم بقضاء الله وقدره، فإن ميزة المؤمن على غيره استدامته على الحمد والشكر لربه تبارك وتعالى، بل وفضل المؤمن على غيره أنه لا يحمد ربه على ما آتاه وحده، بل وعلى ما يغدق على جميع خلقه وعباده من واسع الفضل وجزيل النعمة التي لا يمكن للناس تصورها تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

المسهم

لَا تُحۡصُوهَآ﴾[1]. ولا شيء يمنح الإنسان مثل هذا الإيمان إلا العقيدة الدينية، وعقيدة التوحيد على وجه الخصوص. فهي وحدها التي تجعل جوانب الحياة كلها مضيئة بالنور والهداية، وهي وحدها التي تملأ النفوس زكاةً، والقلوب اطمئناناً، وهي وحدها التي تنير العقول وتحثها على استيقان الحقائق، وهي وحدها التي تزوِّد المؤمنين بالطاقة على العمل، والصبر على الاحتمال حتى ينشروا الخير والصلاح بين الناس.

ومن النظر إلى واقع الحياة البشرية، يبدو لنا جلياً أن نفوس الناس ليست على مستوى واحد من الهداية والإيمان، ومن الضلال والكفر. بل إنها تتباين تبعاً لتباين العقائد الدينية، وتباين الأفكار والمفاهيم، وتأثيرها على مدارك وميول وأهداف الناس، وعلى ما يتعلق بمسار حياتهم، ونمط العيش في البيئة المجتمعية التي يتواجدون فيها. وهذا ما يجعل النفوس على أنواع مختلفة، حيث نجد النفوس الزكية المؤمنة، المسلمة لله الواحد الأحد، وبمقابلها النفوس العاصية الكافرة، والنفوس الفاسقة الفاجرة، والنفوس المادية الماجنة.. وبين هذه وتلك النفوس المنافقة المذبذبة التي لا تستقر على إيمان أو كفر..

على أن النفوس البشرية، ومن حيث إن الله (تعالى) قد ألهمها فجورها وتقواها، فإنها لا تخرج عن كونها:

- إما نفوساً على صلة بالله (تعالى) وهي النفوس المؤمنة، المهتدية والتقيّة حقاً..

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

المسهم

ـ وإما نفوساً قطعت كل صلة بالله (تعالى) وهي النفوس الكافرة، والمشركة والضالّة فعلاً.

ويبقى حكم الله العزيز الحكيم، فهو الذي يهب النفوس الهداية أو الضلال، فيضل من يشاء، ويهدي من يشاء لأنه أعلم بعباده، ومن هو أهل للضلال أو الهداية..

والحقيقة التي يجب أن يؤمن بها الناس جميعاً، أنه ما من قوم إلاّ وبعث الله نبياً أو رسولاً لهدايتهم وصلاح حياتهم. وتوالت البعثاتَ عبر الأزمان حتى كان بعث خاتم النبيين محمد بن عبد الله رحمةً لكافة الناس، وكتابه الذي أنزل عليه هو هذا القرآن الذي يحمل الشفاء للنفوس مما علق فيها من الوثنية، أو ران عليها من الشرك، أو ما قد داهمها من الأمراض التي تزيدها فجوراً أو نفاقاً. فهذا الكتاب المبين، وتبعاً لتنوع النفوس إنما يزيد المؤمنين إيماناً وتقوىً، ويجعل نفوسهم مطمئنة إلى مصيرها في الدنيا والآخرة، وهذا في الوقت الذي يقدِّم العلاج لمن تاهوا عن الإيمان كي يردهم إلى رحاب التوبة والمغفرة، ويحيي قلوبهم بنور الله التواب الرحيم.. ولكنَّ الشرط في الحالتين معرفة القرآن، والقبول ـ عن قناعة ـ بكل ما أودع فيه رب العالمين من آياتٍ تهدي للتي هي أقوم!.. وهذا ما يستدعي لفت نظر الناس إليه، ولا سيما الذين يعرضون عن القرآن بالهجران أو الاستهتار، أو الذين يؤثرون استنكاره بالتعصّب أو الاستكبار، وجميعهم يحملون ـ في هذه الحالات ـ وزراً كبيراً، وسوف يلاقونه يوم الدِّين، لأن مصيرهم، وجميع العباد، إلى الله، ربهم العزيز الحكيم، وهو الذي يحاسبهم على كل حياتهم الدنيا سواء ما تعلق منها بالعقيدة، أو ما اتصل بها من الأعمال والأقوال والنوايا فضلاً عن كل ما يمت إلى

المسهم

الآخرة بصلة وقد أهملوه ونسوه.. فكل ذلك يترتب عليه آثار ونتائج يلاقيها الإنسان في الآخرة، والعاقبة يومئذٍ للمتقين..

إذن فالناس بالخيار أمام أمرين لا ثالث لهما: إما أن يسترشدوا بالقرآن الكريم، ويسيروا على نوره، لأنه كتاب الرسالة الخاتمة إلى العالمين، وإما أن يمضوا بغير هدى من الله ونور مبين، والحكم في الآخرة للواحد الديّان، الذي يحاسب كل نفس على ما كانت عليه في الحياة الدنيا، بحيث يكون لها ما كسبت من الحسنات، وعليها ما اكتسبت من السيئات، وكان الله عليماً حكيماً.

وقد يسأل البعض: إذا كان القرآن هو كتاب الله لا ريب فيه هدى للمتقين، فلماذا نجد بعضاً من آياته قد نسخت؟

والجواب: إن تبديل بعض الأحكام في القرآن الكريم قد كان بنسخ آياتها والإتيان بخير منها أو مثلها. وهذا من أجل خير الناس لأن الله يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وهذا من أمر الله لقوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وهذا يعني أن الله هو وليّ الأمر والتدبير، ومنه أمر التبديل والتغيير، فنزلت هذه الآية الكريمة لتبيّن لنا أن بعضاً من الأحكام ما ينسخه الله أو ينسيه أو ينزل مثله بصيغة أخرى، وإلاّ ليأتي بخير منه، وبزيادة في النفع والتسهيل. فالأحكام أنزلت لصالح العباد، وقد يكون بعضها مما لا يطيقونه، فعندما تنسخ مثل هذه الأحكام، أو تجعل في عالم النسيان ثم يؤتى بخير منها مما يطيقونه ويحتملونه،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

المسهم

فذلك ليس خيراً لهم وحسب، بل وتربيةً للمؤمنين على الطاعة والخضوع لحكم ربهم بقبول الحكم الأكثر عسراً، والتمسك من ثم بالحكم الأكثر يسراً واتباعه والعمل به. . وهذه من أهم جوانب التربية للنفس حيث ترى في النسخ رحمة إضافية، ولطفاً زائداً من ألطاف المولى الكريم يحثها على تقبّل الأحكام جميعاً سواء التي ترغّبها بالمحلَّلِ أو تنهاها عن المحرَّم.

على أن النسخ، أو التغيير الجزئيّ في الأحكام إنما كان يقع مع تنزيل الرسالات لطفاً بالعباد ولمقاصد تربوية كما قلنا. فإذا ما أمر الله سبحانه وتعالى بنسخ[1] آية، أو إلقائها في عالم النسيان أتى بخير منها، أو مثلها أياً كان الحكم أو الشأن الذي تنزَّلت به الآية المنسوخة أو المنسيّة. والقرآن الكريم قليلٌ من آياته قد نسخ، وقد دلَّ عليها القرآن نفسه، ثم بيّن الآيات المنسوخة ليكون هذا الكتاب بعد انقطاع الوحي، قد اكتمل بصيغته النهائية والثابتة التي لا تقبل أي تعديل أو تبديل، ولا أي نسخ أو نسيان، باعتبار أنه لا وحيَ بعدها ولا تنزيل، لأن محمداً هو خاتم النبيين فلا نبيَّ بعده كما يثبته قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[2]. وهو أيضاً ما يشير إليه النبيّ، أثناء سفره إلى غزوة العسرة، في قوله لابنه عمه عليّ بن أبي طالب: **«ألا تريد أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي»**[3]. وثبات

---

(١) النسخ لغة إبطال شيء أو إلغاؤه وإقامة آخر مكانه. يقال: نسخت الشمس الظل أي أذهبته وأحلّت محلّه الضياء والنور.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٣) سنن ابن ماجه، ص١٢١.

المسلم

الصيغة النهائية للقرآن الكريم يدلُّ يقيناً على أنه خيرُ ما يصلح للناس في شؤون دينهم ودنياهم. وكان أمر ربنا العزيز أن يحفظ هذا الكتاب من عبث العابثين، ليبقى المعين الذي يمدُّ الحياة على الأرض بأنعم رحمة الله رب العالمين، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]، فلا يقدر أحدٌ أن يمسَّ آية من آياته بأي تحريف أو تبديل، أو أن يشوّه جمال أية لفظةٍ من ألفاظه بأي تزوير أو تعديل.

ويبقى أن نشير إلى أن ذلك النسخ الذي حصل على بعض من آيات القرآن إنما هو برهانٌ يريد أن يقدِّمه القرآن ليوقر في أذهان الناس أن الله على كل شيء قدير؛ فهو الذي ينزِّل الآيات، وهو القادر على نسخها أو إثباتها لما فيه خير لعباده، تماماً كما هو القادر على أن يفعل ما يشاء، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. والإيمان بهذه الحقيقة من المسلمات في عقيدة التوحيد.. فهلاَّ آمن الإنسان، وأيقن بالحق المبين وهو «أن الله على كل شيء قدير» وأن القرآن منزَّل من رب العالمين.

والله (تعالى) قد خصَّ المؤمنين بمزايا، ووضع على عاتقهم تكاليف، وانتدبهم لأعباء هي التي جعلتهم يوصفون بـ«المؤمنين»..

ويمكن أن نستدل على بعض خصائص وسمات المؤمنين من الآيات المباركة التي وردت فيها الأمثال المجيدة، ومنها الأمثال التالية..

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

المسهم

١ ـ خوف مؤمن آل فرعون أن يصيب قومه مثلُ الذي أصاب غيرهم من الأقوام الآخرين.

قال الله تعالى على لسان مؤمن من آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[1].

من صفات المؤمن البارزة أنه لا يخاف في الله لومةَ لائم، ولا يتورع عن قول الحق ولو كان في ذلك حتفه. وفي هذه الآيات الكريمة قصة رجل مؤمن من آل فرعون (قيل هو ابن عمه أو وزيره) كان يكتم إيمانه بالله عن الناس، فلما أبى فرعونُ دعوةَ النبيّ موسى ـ عليه السلام ـ للإيمان، وراح ذلك الطاغيةُ يتشاور مع بطانته، ويعدّون العدة لقتل نبيّ الله، لم يقف الرجل المؤمن متفرجاً، ولا ساكتاً، بل تصدَّى لفرعون وملئه بالنصح للكف عن محاولة قتل موسى عليه السلام فقال لهم:

كيف تقتلون رجلاً يؤمن بأنَّ الله ربه، وقد جاءكم بالمعجزات الظاهرات على صدق إيمانه. فإن يَكُ كاذباً فيما يقول، فإن كذبه سوف يكشف في نهاية الأمر، وسوف يتحمل وزر كذبه وحدَه، لأن

---

(١) سورة غافر، الآيات: ٢٨ ـ ٣١.

المسهم

الله (تعالى) لعن من هو مسرف كذاب، فلا يلاقي في نهاية المطاف إلاَّ عاقبة كذبه.. وإن يَكُ صادقاً، فإنَّ في تلبيتكم لدعوته خيراً لكم، إذ هو يعدكم العفو والمغفرة من الله، ونوال الأجر والثواب، فاتبعوه يصيبكم بعضُ الذي يعدكم. وإن كذبتموه واستنكرتم دعوته، فالويل لكم، لأنه يعدكم بالعذاب، وسوف يحلُّ بكم هذا العذاب حقاً. ذلك أَنَّ الله لا يهدي، ولا يرحم من هو مشرك كافر، مُفترٍ كذّاب.

ثم يتابع الرجل المؤمن نصحَهُ لقومه قائلاً: يا قوم أنتم اليوم تملكون، وتحكمون أرض مصر، وأنتم غالبون في الملك والحكم في الأرض، فمن ينصرنا ومن ينجينا من عذاب الله، وشدّة بأسه إن جاءنا بسبب عدم إيمانكم، أو قتلكم النبيَّ وأنصاره؟ فإنه لا ناصِرَ لكم يومئذٍ من عذاب الله، فاسمعوا قولي وأطيعوني!..

فهذا المؤمن يذكرهم، وينصح لهم خوفاً عليهم، ورأفة بهم.. ولكنّ فرعون تأخذه العزة بالإثم، فيقول للملأ من حوله: لا تنصتوا لهذا الرجل، ولا تصدقوه، ما أريكم إلاَّ ما أرى، وهو الصواب، وما أهديكم إلاَّ سبيل الرشاد، وهو مجدكم، وعزكم وحسن حياتكم!.

ولم يسكت مؤمن آل فرعون، بل يرد على الطاغية وملئه، ليزيد في تخويفهم وتحذيرهم، وهمُّهُ أن يوفر لهم السلامة والنجاة، لشدة ما يخاف أن يصيبهم مثلُ ما أصاب الأقوام السابقة التي تحزَّبت ضد أنبيائها، فرمتهم بالكذب والاستهزاء، أو أقدمت على قتلهم بدون حق، فحلَّ بهم الهلاك، والدمار والاندثار.. وأعطاهم المثلَ عما أصابَ أقوام نوح وعاد وثمود، وغيرهم الذين جاؤوا من بعدهم، إذ حاق بهم غضب الله، من جراء إصرارهم على الكفر والشرك، لأنه لا ظلم أشد على النفس البشرية من كفرها، أو شركها بالله (تعالى). ولو

المسهم

عقلت تلك الجماعات من البشر الحقائق التي جاءتها، لأدركت، قبل فوات الأوان، أن الله ـ عز وجل ـ لا يريد ظلماً للعباد، بل إنه ـ سبحانه ـ منزَّه عن الظلم، ولكنَّ وعدَهُ بإنزال الهلاك بالأقوام الكافرين هو الحق، فكان العذابُ الذي حلَّ بهم من جنس الفعل الذي ارتكبوه.

ويخلد موقف مؤمن آل فرعون على التاريخ مثالاً على صدق الإيمان، وشاهداً على أحقية النصح والتوعية للناس. وهذا ما يسري على جميع المصلحين عندما يقفون في وجه الظلم والاستبداد ومناصرة قضايا الحق والعدل، وغيرها من القضايا المحورية مثل قضية الإيمان أو الكفر كما هي الحال اليوم حيث الناس بأشد الحاجة إلى وجود المؤمنين الصادقين ـ أمثال مؤمن آل فرعون ـ الذين هم وحدهم مؤهلون لأن يحملوا لواء التغيير والإصلاح، وأن يشهروا سلاح التوعية ومحاربة كل ما يحيط بالحياة من المظالم والمفاسد، أو ما تحفل به الدنيا من الشرور والمعاصي، حتى يتوقف هذا التدهور الذي ينحدر الناس إليه في علاقاتهم مع بعضهم البعض، بعدما باتت أحوالهم أشدّ سوءاً وفساداً عما كانت عليه الحال أيام الطاغية فرعون، الذي كان يصرُّ على قتل موسى عليه السلام، لا لشيء إلاَّ «أن يقول ربي الله».

ويقيناً أنه إذا بقي الناس على هذه الأوضاع التي نشهدها مما تمتلىء به الأرض من الجور والظلم والإلحاد، ومما يشيع في النفوس من الجفاء للإيمان، والابتعاد عن الحق، والانقياد وراء الباطل، فإن الهلاك الجماعيّ آتٍ لا محالة، والعذاب الساحق حالٌّ بلا ريب، وقد يكون أقرب بكثير مما يتوهم الناس أو يظنون.

المسهم

وهذه دعوة للتحذير، فليتدارك الناس ما هم فيه، وما هم عليه، قبل أن يفوت الأوان.. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٢ ـ دعوة المؤمنين لأن يطيعوا الله ورسوله ولا يكونوا كالذين يسمعون قول الله ولا ينتفعون به.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

البارز في هذه النصوص القرآنية مخاطبة العليّ العظيم للمؤمنين مباشرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.. والميزة في الخطاب أنه تقديرٌ من رب العالمين للذين آمنوا، وتفضيل لهم على سواهم، من هؤلاء الذين لا ينعمون بشرف هذه المخاطبة، ولا يستأهلونها لأنهم ليسوا بمؤمنين...

أما فحوى الخطاب فإنه أمرٌ بالطاعة لله تعالى: طاعة صدق وتقوى واهتداء.. والطاعة لرسوله الكريم: طاعة تصديق واتباع وإخلاص، ومن ثَمَّ عدم التولي عنه، أو تركه، وعدم مخالفته في أمر أو رأي أو قول أو سنة صدرت عنه..

وفي هذا الأمر من الله (تعالى)، بالاً يتولوا، أو يعرضوا عن رسوله، فرضٌ دائمٌ على المؤمنين جميعاً، أينما وجدوا في كل زمان

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢٠ ـ ٢٣.

المسهم

ومكان. فالرسول ﷺ قد بلَّغ القرآن المجيد، وخلَّف سنته الشريفة، وكلاهما ـ القرآن والسنة ـ متلازم مع الآخر. فكان الفرض على المؤمنين بعدم الإِعراض عنهما أو تركهما، بل التمسك بهما، فهما العروة الوثقى التي لا انفصام لها.

ويرافق هذا الأمرَ بالطاعة، والنهيَ عن الإعراض، التحذيرُ.. أي تحذير المؤمنين بألاَّ يكونوا كالمشركين، والمنافقين الذين يقولون سمعنا من «محمد» ما يتلو من آيات ربه، وما يعظ به الناس، وهم لا يسمعون سماع تدبر وانتفاع، لأن سماعهم كان سطحياً وظاهرياً، وليس من النوع الذي يتاح له مجال للنفاذ إلى القلوب وملامسة النفوس في الأعماق.

أجل، يحذر رب العالمين المؤمنين بألا يكونوا مثل أولئك الناس.. مثل أولئك الذين يقولون سمعنا، بينما هم في حقيقة الأمر أبعد ما يكونون عن السماع الذي فيه التدبّر، والاتّعاظ، والعلم بالدعوة، مما يجعل سماعهم خلواً من أي فهم أو اقتناع، حتى صار مثلهم كالدواب الصمّاء التي تسمع أصواتاً مبهمة ولكن لا تدرك معانيها، والبكماء التي تطلق الأصوات ولكنها لا تمتلك لغة النطق التي للإنسان، لأنها بطبيعتها عاجزة عن هذا النطق، وغير مؤهلة له في خلقها، فكانت من شرِّ الدواب عند الله، أي أدناها مرتبة بين الدوابّ التي خلقها سبحانه وتعالى.

فإذا كانت تلك البهائم والحيوانات عجماء لا تسمع، ولا تعقل، ولا تنطق، ومن أجل ذلك كانت شرَّ الدواب كما وصفها ربُّ العالمين، فما بال الإنسان الذي يتمتع بنعمة العقل والإدراك، ويتمتع بنعمة النطق والإفهام، مثلما يتمتع بنعمة السمع والبصر؟ أجل ما باله

المسهم

في امتناعه عن استعمال تلك المدارك والملكات، في سبل الخير والحق والصواب حتى يحقق إنسانيته؟ إنه في عدم سماعه للحق، وفي عدم اتباعه الحق، وقول الحق، يتدنّى إلى مرتبة تلك الدواب ليصير مثلها، وكأنه قد فقد الملكات والخصائص المميزة له ـ والتي جعلته في الأصل إنساناً ـ فلم يعد يختلف عن شرّ الدواب عند الله بشيء إلاّ بصورته البشرية الظاهرية..

ومثل هؤلاء الناس، الذين خلت نفوسهم من أية استجابة للحق، من المحتوم ألاّ يرجى منهم خير، ولو علم الله فيهم ذرةً من خيرٍ، أو استعداداً لقبول رشد، لكان هداهم إلى السماع المفيد، الذي يحمل التمييز والانتفاع!.. ولو أسمعهم الله (تعالى) وجعلهم مؤهلين، ويملكون مقومات القبول للهدى والحق، فإنهم سوف يُعرضون عن ذلك، لا لشيء إلا عناداً وجحوداً من عند أنفسهم.! ومن أجل ذلك نجدهم يصرّون على الاستكبار، والإعراض عن دعوات الأنبياء والصالحين فيخرجون بإرادتهم عن طاعة ربهم، مؤثرين غواية الشيطان، والركض وراء متع الحياة وغرورها، بدلاً من نعيم الآخرة وخلودها، فكانوا لا خير فيهم، وكانوا من الأخسرين مآلاً.

٣ ـ نهي المؤمنين عن موالاة قوم قد يئسوا من الفوز في الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[1].

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٣.

المسهم

إنها دائماً الحال نفسها مع المشركين والكفار، الذين ابتعدوا عن الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وخرجوا عن عبادته بطواعية واختيار، فباؤوا بالغضب القاتل.. ولذلك ينزل التحذير للمؤمنين مرة أخرى، بألاَّ يتولوا قوماً غَضب الله عليهم.. وعدم موالاتهم هي ألاَّ يتخذوهم أعواناً، ولا أصدقاء ولا حلفاء بشيء أبداً.. والسبب في ذلك أنه لا يمكن أن تأتلف النفوس المؤمنة مع نفوس المغضوب عليهم من ربهم، والضالين عن هدايته.

وهذا منتهى الرحمة بالعباد المؤمنين، فالأمر إليهم بألاَّ يتخذوا أعداء الله، وأعداء الإنسانية، وأعداءَ أهل الإيمان أولياءَ لهم يقوم في جوهره على رعاية المؤمنين والحرص عليهم، لأن مثل تلك الموالاة تُفسدُ عليهم دينهم، وتقودهم إلى طريق الشر والباطل، فيقعون في التهلكة التي وقع فيها أصلاً أولئك الأولياء.. الأدعياء، ذلك أن قوماً غضب الله عليهم يكون مصيرهم ميؤوساً منه، وعاقبتهم سوءاً وبلاءً، فهم قد يئسوا من النجاة في الآخرة ـ مع يقينهم بها ـ كما يئس الكفار من أصحاب القبور، فلا ينبئونهم بشيء عن الآخرة، وما إذا كان فيها جنة ونارٌ.. أو كما يئس الكفار الأموات، بعدما صاروا في قبورهم، وعرفوا أن الحساب آتٍ ولا ريب، من أن يكون لهم أدنى حظ في الجنة. أو ـ ربما يكون المعنى ـ أن الكفار قد يئسوا، وهم في قبورهم، من العودة إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، حتى يسيروا على طريق الهدى، ولكن أنّى لهم العودة إلى الدنيا بعد الموت، وسنة الله في خلقه، ألاَّ يعقبَ الموتَ إلاَّ النشور والحساب، ثم الخلود في الجنة أو في النار.

فما أروع هذا المثل القرآنيّ الذي يدلنا على مصير الذين غضب

المسهم

الله (تعالى) عليهم، ويبيّن لنا ما قد يحيق بهم من العذاب، بعد أن سدّوا بأيديهم جميع سبل الأمل والخلاص.

٤ ـ دعوة المؤمنين ليكونوا أنصاراً لله، كما كان الحواريون أنصارَ الله

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[1].

وهذا النداء هو أيضاً للمؤمنين من ربهم تبارك وتعالى بأن يكونوا أنصاراً لدينه القويم، لأنه (سبحانه وتعالى) هو القادر المقتدر، وهو القوي المتين، فلا يحتاج إلى معونة أو مساعدة من عباده، لينصروه على أي أمر، لأن جميع الأمور تعود إليه، بل وفي قبضته السماوات والأرض، يأمر بما يريد، ويفعل ما يشاء..

وهو النداءُ إلى الذين آمنوا ليكونوا أولياء لله (تعالى) في اعتناق عقيدة التوحيد، وما تلزمهم به هذه العقيدة من أمانة في أعناقهم، وهي حملُ دينه مشاعل هداية في آفاق الأرض، ومناهج عمل في مجالات الحياة، حتى يعمَّ الخير والصلاح بين البشر.

وفضلاً عن ذلك فإن هذا النص الكريم يوحي بأن الإيمانَ أمر جوهريّ في الحياة، ولكنه وحده لا يكفي إن لم يقترن بالعمل الصالح، وبالجهاد في سبيل دين الله، وبخاصة عندما يدعو الواجب المقدس إلى مثل هذا الجهاد لمحاربة الشر والفساد، والقضاء على الفسوق والعصيان.

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.

المسهم

وتلك الدعوة للمسلمين الذين آمنوا بالنبيّ «محمد» ﷺ لكي يكونوا أنصاراً لله، فيعملوا على نشر دينه الإسلام، قد سبقتها نفس الدعوة التي أطلقها السيد المسيح، عيسى ابن مريم عليه السلام إلى الحواريين[1] عندما قال لهم: من أنصاري إلى الله؟

قال الحواريون: نحن أنصار الله!. فقد آمنّا بك عبداً لله، ورسولاً لبني إسرائيل. وقد آتاك الله الكتاب، والحكمة، وجعلك نبياً، وجعلك مباركاً أينما كنت، وأوصاك بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. . فهذا ما قلت لنا، وقد صدَّقناه، وآمنا به. وها نحن نجند أنفسنا بين يديك لننصرَ دين الله الذي تحمله نوراً وهدىً، ونذب عنه، ونحميه من عبث العابثين، وسفاهة المستكبرين والمنكرين. .

فأولئك الحواريون هم أصفياء عيسى ابن مريم عليه السلام، الذين لبوا دعوتَهُ إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وإلى نصرة دينه، فكانوا حقاً، أنصاره إلى الله سبحانه وتعالى.

ومن المعلوم أن بني إسرائيل قد اختلفوا في بعث النبيّ عيسى، فآمنت طائفة منهم ـ وهم الحواريون ـ بأنَّ المسيح عيسى ابن مريم هو عبدُ اللَّهِ ورسولُهُ، وكفرت طائفة أخرى بصدق رسالته. ووقع القتال بين الطائفتين: المؤمنة والكافرة، فأيَّد الله تعالى المؤمنين بالنصر، بما منحهم من قوة وبأس فأصبحوا على أعدائهم ظاهرين. .

ويتكرر نفس المشهد عند بعثة «محمد» ﷺ، إذ آمنت به فئةٌ قليلة من اليهود، فدخلوا في الإسلام طائعين مختارين، بينما أنكر أكثر

---

(١) الحواريون ـ من الحور ـ هم الذين امتازوا بالبياض الخالص في لباسهم، وحسن طريقة عيشهم؛ وقيل سُمّوا كذلك لأنهم كانوا يحوّرون الثياب، أي يبيضونها.

المسهم

اليهود نبوته، فكفروا برسالته، ولم يصدقوه بدعوته إلى الحق. . وكان من تبعة هذا الكفر الذي أظهره اليهود جهراً وعلانية أن نقضوا عهد رسول الله، وآزروا المشركين في عداوتهم له. ثم كان إقدامهم على مقاتلة المسلمين. ولكن الله (عز وجل) أيَّد المؤمنين بنصره، فكانت لهم الغلبة على اليهود والمشركين في مختلف الغزوات والحروب التي وقعت في تلك الحقبة من حياة الدعوة الإسلامية.

وها هي الحالة اليوم، وبعد انقضاء ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة، كمثلها بالأمس، تنعكس بهذه العداوة من اليهود للمسلمين. إذ يبدو أن الحقد قد ظل يملأ قلوبهم على الإسلام وأهله، فجهدوا حتى أقاموا دولةً لهم في قلب العالم الإسلاميّ، ثم بدأت منذ قيام تلك الدولة، حروبهم الظاهرة والخفية لقتل المسلمين واستلاب ثرواتهم. بل وما زالوا يعملون، ويستجدون العالم ليمدهم بالمال والسلاح، والدعم في المحافل والمنابر الدولية، وتقديم كل ما يوفّر لهم القوة والتسلط، وهمهم قطع دابر المسلمين، واجتثاث مقومات وجودهم من الجذور!. وقد أمكنهم تحقيق الغلبة عليهم في أكثر من قضيةٍ وظرف، وكل ذلك بفعل تضامنهم ووحدة كلمتهم حتى كادوا أن يكونوا ظاهرين على المسلمين. . أما ما أصابَ هؤلاء فيكمن في عدم تطبيق الإسلام روحاً وشكلاً، وارتمائهم في أحضان أعدائهم يلتمسون منهم العون وطلب المساعدة. وهذا ما أبعدهم عن أن يظلوا أنصاراً لله. لا بل إن التخلّي عن فكرة الجهاد بمختلف أشكاله المعنوية والمادية هي التي جعلتهم تبعاً لمن يريدون شراً بهم، وبالإسلام، ويخضعون لأوامرهم، وينصاعون للمواقف التي يتخذونها ضدهم بكل صلافةٍ وكبرياء!. فأين هم المؤمنون، بين المسلمين، الذي

المسهم

يدعوهم ربهم العليّ القدير ليكونوا أنصاراً له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ فينهضوا مجدداً من حالة السبات إلى حالة الوعي واليقظة التي ينصرون فيها دينهم القويم؟ وأين هم أولئك المؤمنون الذين يحضّهم القرآن، كتاب الله الخالد، على إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة؟ لا، لن تيأس أمة الإسلام، أمة محمد، من رحمة الله، على الرغم من كل ما يحيق بها من ظلم العالم وعدوانيته عليها، ولا سيما في تعهده كلياً لليهود بالنصرة والدعم.. حتى ليبدو هذا العالم وكأنه نسيَ الله (تعالى).. ولا بدَّ أن تعود أمة التوحيد إلى أصالتها، فتنزل عن أكتافها أثقال التفرقة والانقسام، وأسبابَ الضعف والهوان لترفع من جديد راية «لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله» خفاقةً: نيةً وقولاً وعملاً، مستجيبة لدعوة الداعي وأبناؤها الأبرار يهتفون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾..

٥ ـ من جاء بالحسنة من المؤمنين فله عشر أمثالها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

كما أن كل شيء، وكل شأن وكل أمر محصيّ في اللوح المحفوظ، فكذلك كل عمل يقوم به الإنسان مكتوبٌ، ومحصيّ عليه من قبل ملائكة مكرمين، أوكلهم الله (تعالى) أن يلازموه في رحلة عمره، ويثبتوا كل شيء يصدر عنه من خير أو شر، حتى تكون أعماله حاضرة يوم الدِّين، فيقرأ يومئذ كتابَ أعماله، وتشهد من ثَمَّ جوارحه على ما دُوِّن في هذا الكتاب من الحسنات والسيئات.. وإن من

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

المسهم

عناصر رحمة الله بعباده، أنه (جل وعلا) ذو فضل على الناس، فيما يضاعف للمؤمنين من الحسنات، بحيث تكون الحسنة بعشر أضعافها، فلا يأتي مؤمنٌ حسنةً إلا وتكتب له عشرُ حسناتٍ من مثلها. وهذا منتهى الجود، والكرم والرحمة من رب العالمين.

أما السيئة التي يرتكبها الإنسان المسيء فلا تكتب عليه إلا سيئة واحدة. ولا يكون العقاب إلا على قدرها فقط، وهذا منتهى العدل، والإنصاف والرأفة بالعباد.

والحسنات التي يكون عليها الحساب يوم القيامة أكثر مما تُعدُّ أو تحصى، فتدخل فيها النية ما بين الإنسان ونفسه، مثلما يدخل فيها إحياء النفس المحترمة.

وعلى ذلك فإن من الحسنات: الطاعات على أنواعها، وأعمال البر والخير على أي شكلٍ أتت.. فمن قام بصلاة، أو صوم، أو صدقةٍ، أو زكاة، أو حج.. كانت له فيها حسناتٌ.

ومن أعان مسكيناً، أو يتيماً أو أسيراً، ومن أطعم جائعاً، أو سقى عطشانَ، أو كسا عريانَ، أو زار مريضاً.. كانت له في ذلك حسنات.

بل ومن رأف بحيوان فأطعمه، أو سقاه، أو داواه، أو حماه فله فيه حسنات.. وحتى من أبعَدَ حجراً عن طريق فله فيه حسنة.

ومن أجلّ الحسنات وأسماها، وهي مثل الفرائض والطاعات: العلم والتعلم، وسؤال أهل الذكر، وحب المعرفة، والتفقه في الدين، وهدْي الآخرين إلى الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، واعتناق عقيدة

المسهم

التوحيد، والجهاد في سبيل الله، والإنفاق في سبيل الله، والإيمان بالغيب، ومخافة الله في السر والعلن..

أضف إلى ذلك مكارم الأخلاق كلها مثل التواضع، والتراحم، والصدق، والإيثار، والرأفة، والحياء، والنظافة، والضيافة، والكياسة، وحسن الصحبة، وحسن المعشر، وعدم النميمة، وعدم الغيبة، وكراهية الكذب، وكراهية الفسق، وكراهية الفساد.. فهذه كلها من الحسنات التي تكتب للإنسان..

والحسنات جميعاً هي توفيق من الله (تعالى)، يهدي إليها عباده المؤمنين الصادقين، والعابدين الطائعين..

فكان جديراً بالإنسان أن يدرك ما هي الحسنات، صغيرها وكبيرها.. ولو علمها الإنسان لعبد الله ربه حق عبادته، لأنه(جلت عظمته) أهل للعبادة كما تهدينا إليه صفاته الإلهية، وتدلنا عليه أسماؤه الحسنى. ثم إنه سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى ما يمدُّ به عبادَهُ، وخلْقَهُ ـ حتى العاصين والمنكرين ـ من نعمةٍ، وعطاء، وفضل، فإنه يجعل لهم من الحسنة الواحدة التي يأتونها في الدنيا عشر حسناتٍ يوم الحساب: فمن قام بصلاة حسبت له عشر صلوات، ومن صام شهراً حسب له عشرة أشهر، ومن أنفق درهماً حسب له عشرة دراهم.. وهكذا كل حسنة مادية أو معنوية يضاعفها الجواد الكريم بعشر أمثالها، بينما بالمقابل لا يجازي على السيئة إلا بقدرها، دون زيادة أو نقصان.

ولو شاء الغفور الرحيم أن يغفر السيئات، لامّحت جميع ذنوب المؤمنين، ولكنه العدل الإلهيّ الذي جعل السيئة بمثلها فقط، لئلا

المسهم

يكون ظلم أو إجحاف بحق المسيء، لا بل إنَّ هذا هو منتهى الرحمة، فلو شاء ربنا أن يحسب السيئة بعشر أمثالها، فمن يقدر من عباده على معارضة أمره، أو الاحتجاج عليه، فهو الخالق القادر، وهو المقدِّر والمدبّر، وإليه يرجع الأمر كله فلا شأن لعباده بتقديره أو بقضائه، وليس لأحدٍ من عباده أن يعترض، وقد وسع عباده رحمةً ومغفرة، فجعل الحسنة بعشرة أمثالها، والسيئة بمثلها فقط. فلا ظلم لعمل، ولا ضياع لحق. فالله (تعالى) منزَّه عن الظلم، كما وصف نفسه في كتابه المجيد، وكما يعرفه عبادُهُ الصالحون. وهو سبحانه وتعالى يكره الظلم، ويتوعد الظالمين بالعقاب الشديد، فهل يعقل أن يظلم عبده إذا جعل جزاء السيئة مثلها، وجزاء المعصية مثلها، وجزاء الذنب مثله. حاشَ لله.

ولو أدرك العبد هذا العدل الإلهيّ على حقيقته لبادر، ومن ساعته، إلى الإتيان بالحسنات حتى تضاعف له أضعافاً مضاعفة.. بل ولأبعد الظلم عن نفسه، ولم يظلم غيرَه ولو مقدار شعرة واحدة، وبذلك يكون له الجزاء الأوفى يوم الحساب، وهذا ما أشار إليه أبو ذر الغفاريّ ﷺ بقوله: «حدثني الصادق المصدَّق أن الله ـ تعالى ـ قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أغفر. فالويل لمن غلبت آحادُهُ أعشارَهُ»[1].

الفقرة الثانية: ظلم الكافرين لأنفسهم وجحودهم بأنعم الله (تعالى)

ونردد هنا أيضاً القول بأن كل شيء في الكون يدل على حقيقة وجود الله (تعالى) وعلى أنه هو الخالق العظيم، والمدبر الحكيم.

---

(١) أصحاب السنن عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

المسهم

ولكنَّ أهل الجهل والغفلة أنكروا أن يكون للسماوات والأرض إله واحد يسيرهما وفق السنن التي قدَّرها، وجعلها ثابتة لا يطرأ عليها أي تبديل أو تحويل. كما استكبروا أن يكون للعالمين ـ من الإنس والجان ـ ربٌّ واحد، يرقبهم من عليائه، ويحصي عليهم كل حركة أو سكنة، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وبسبب ذلك الجهل، والإنكار والاستكبار كانت عبادة أهل الكفر والضلال لآلهةٍ متعددة هي بدعة من خيالهم، أو تجسيد من صنع أيديهم، دون أن يسألوا نفوسهم إن كانت تقبل حقاً بعبادة مثل تلك الآلهة المزعومة التي ليس لها أدنى قدرة على فعل شيء، بل ويستحيل عليها أن تفعل أي شيء. ومِثْلُها أيضاً الآلهة الوهمية التي تصوّروها موجودةً في السماء وجعلوها نوعاً من الغيب بينما هي في الحقيقة لا تعدو أن تكون ضرباً من الخيال الذي لا يمت إلى الواقع بصلة، والأمثلة عليها تلك الآلهة التي كان اليونان أو الرومان وغيرهم من الأمم الغابرة يؤمنون بها.. ومثلها الكواكب التي عبدها الناس لأنهم رأوا فيها قوة تفوق قواهم، وأَلَقاً يسيطر على مداركهم.. ومثلها كذلك تلك الأشجار، أو الحجارة، التي نحتوها تماثيل بأيديهم ثم جعلوها آلهة مع أنهم يرون بأم العين، ويدركون بالواقع المحسوس أنها مجرد جوامد لا حركة فيها، ولا وجدان لها، وهي لا تنفع بشيء ولا تضر..

أما الآلهة البشرية التي قدسوها مثل النمروذ في العراق، أو الفرعون في مصر، أو الأمبراطور في روما، أو في بلاد الصين وفارس.. أو غيرها من البلدان، فلم يكن لها من الألوهية إلاَّ الاسم، بينما في الواقع تجسدت بأشخاص مثل سائر الناس، استطاعوا بفعل

المسهم

ما يمتلكون من سطوة وقدرة ونفوذ أن يبغوا على الآخرين من بني جنسهم وأن يحكموهم بالظلم والطغيان، فانقادوا لهم، وأذعنوا لسلطانهم.. وذلك كله دون أن يكون لأولئك الأشخاص الذين نصبوا أنفسهم آلهة أدنى قدرة على الإتيان بشيء يخرجهم عن صفتهم البشرية، أو يجعلهم فوق مستوى البشر تقديساً..

كل تلك العبادات كانت ضروباً من الكفر، والشرك، والجهل، والضلال.. لأنها عبادة الطواغيت والأهواء البشرية، أو عبادة الانحراف عن الحق، تماماً كما هي اليوم عبادة المال، أو عبادة الأوثان، أو الاعتقاد بالآراء والنظريات الفلسفية، وغيرها من المعتقدات المادية والشيطانية التي تخالف الفطرة البشرية، وتجافي الطبيعة الإنسانية، لشدة آثارها السيئة على مسيرة الإنسان في الأرض..

ومن هنا كان العجب في الإنسان عندما يعتنق مثل هكذا عقائد زائفة وباطلة، ثم يجعلها موضع عبادة وتقديس!.. فكم يكون العمى ضارباً على بصر وبصيرة من ينكر حقيقة وجود الله (تعالى)، ويتّخذ من دونه آلهةً حتى يوقع نفسه في الكفر، أو الشرك، أو الإلحاد، أو النفاق؟ أفلا يرى اسم الله موقعاً على كل صفحة من صفحات الكون، وآياته بادية في كل مخلوق من مخلوقاته، وآثاره مرسومة على كل صغيرة وكبيرة في الوجود كله؟

وكم يكون الضلال قوياً في النفوس حتى لا يؤمن الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله كما فعلت القرون السابقة، وذلك عندما وقف أهل الكفر والشرك ـ وفي جميع عصور الظلم والإجرام ـ في وجه الأنبياء والمرسلين الذين كانوا يُبعثون من ربهم تبارك وتعالى

المسهم

بالرسالات الهادية، والتعاليم الصادقة. والمثال القريب عليهم أهلُ مكة، ومن آزرهم من أهل الجزيرة، عندما أنكروا بعث سيدنا محمد ﷺ، نبياً ﷺ ورسولاً للناس كافة.

وهذا هو القرآن المجيد يبيّن لنا الآثام والجرائم التي يرتكبها الكفار والمشركون، من خلال الأمثال التي تصور أحوالهم وأوضاعهم عبر الأجيال والتي يمكن أن يستدل عليها في الآيات التالية..

١ ـ ادعاء الكافرين بأنهم لو يشاؤون لقالوا مثلَ آيات الله التي تتلى عليهم.

قال الله عز وجل:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

ونكرر هنا أيضاً بأن الجو الذي توحي به هذه الآية المباركة هو الافتراء على القرآن المجيد، الذي كان يتنزَّل نوراً مبيناً ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وينقلهم من الكفر والضلال إلى الإيمان واليقين. وهو الجو نفسه الذي تتبدَّى فيه إحدى الجولات التي كان المشركون يقابلون فيها النبيّ ﷺ بالتكذيب، والوقوف بوجه دعوته، وهم يدّعون ـ بصلافة وتعنت ـ أنهم يسمعون منه ما يتلوه عليهم من القرآن، وأنهم لو يشاؤون لقالوا مثل هذه الآيات التي ليست وحياً منزَّلاً عليه، بل هي عبارة عن أخبارٍ وقصصٍ وأقوالِ عداوة مأخوذةٍ عن أساطير الأولين وخرافاتهم!.

وذلك القول من مشركي مكة ومن آزرهم على عداوة

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣١.

المسهم

النبيّ ﷺ، ليس إلا حلقةً من حلقات التآمر، ومناورةً من المناورات التي لا تهدف إلاّ لصرف الناس عن آيات القرآن، الذي تنزَّل من رب العالمين ذكراً حكيماً لمخاطبة النفس البشرية كي يجلوها من الصدأ الذي علق بها، وينقيها من الأدران والخبائث التي غلبت عليها، فيعود الإنسان إلى فطرته السليمة، ويتشوَّف الحق الذي يكمن في أعماقه، فينقاد طوعاً إلى الإيمان بالله ويهتدي إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم في الدنيا، والآخرة على السواء.

وعلى الرغم من موقف المشركين العدوانيّ على آيات الله فإنَّ بعض الملأ من قريش قد عرف طبيعة هذه الآيات نظراً لاضطلاعه بمدلولات اللغة الفصحى التي كانوا ينطقون بها. ولذلك وجدوا في جوهر الدعوة للإيمان بالإسلام الذي يقوم على شهادة أن «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» دعوةً لطرح فكرة الآلهة المتعددة، بل وهو أيضاً محور العقيدة التي تؤسس لعهد جديد في البشرية قوامه الإخلاص لله الواحد الأحد، والتصديق ببعث محمد رسولاً لكافة الناس.. أجل إنَّ الدخول في الإسلام واعتناق عقيدة التوحيد إنما يُمثِّل قبل كل شيء إعلاناً للتمرد على سلطان البشر الجائر، والخروج من حاكمية العباد جملة وتفصيلاً، والفرار إلى الله (تعالى)، وإلى عدله في عباده. وهذا ما لم يكن شياطين قريش يريدونه، لأن من شأنه أن يبدل أوضاعهم الجاهلية، وأن يذهب بكل ما يملكون من السلطان، والنفوذ، ويحرر الضعفاء والفقراء من استغلالهم، واستعبادهم لهم. ولذلك كانت حرب قريش، ومن حالفها من اليهود، والقبائل الأخرى ضد النبيّ ﷺ، وضد الإسلام على ذلك النحو من القذارة، وهي تتوسل أدوات لها المكر بالنبيّ الذي اعتمدوه منذ البداية، ومن ثم

المسهم

التمويه على عامة الجماهير من العرب بالكذب والخداع، كما نلاحظ في هذه الجولة من ادعائهم بالباطل بأنهم قادرون، لو يشاؤون، قولَ مثل هذا القرآن..

ولعلَّ تلك الاتجاهات لدى كبار المشركين في مكة هي التي جعلتهم دهاة في الكذب، ودهاقنة في خداع الناس، وقد برز من بينهم ذلك الخبيث، النضر بن الحارث.. فقد كان من عادته الاتجار مع الحيرة، فكان يشتري هناك الكتب التي تحمل أخبار العجم، وأخبار غيرهم من الأمم، وجلها من أساطير الأولين، ثم يعود، ويحدث بها أهل مكة، موهماً إياهم أن ما يتلوه «محمد» من آيات قرآنية إنما هو مأخوذٌ من تلك الكتب. وكانوا يصدقون النضر، بل ويجعلون الناسَ يصدقونه بسبب الدوافع الخبيثة التي كانت تطغى على نفوسهم، والتي فرضت عليهم تحريف الحقائق من أجل تكذيب النبيّ ﷺ، وإنكار الوحي..

والحقيقة أنَّ النبيّ ﷺ ما كان ليبلّغ آيةً واحدةً إلا عن ربه تبارك وتعالى، وما كان ليقرأ على الناس إلا قول الله (عز وجل). وكان بإمكان أهل البلاغة والفصاحة من قريش ـ وهم يومئذٍ كثيرون ـ أن يجروا مجرد مقارنة بسيطة بين ما يتلوه عليهم محمد ﷺ من آيات القرآن، وبين ما يجلب لهم النضر بن الحارث من كتب الأساطير والخرافات، حتى يجدوا الفرق بعيداً، والبون شاسعاً بين حقائق القرآن، وخرافات تلك الكتب التي يحملها النضر، لأن القرآن ـ ولا ريب ـ هو قول الله الحق، ولا يمكن لأقوال البشر أن تدانيه مهما علت في الفصاحة والبلاغة والحكمة، لا سيما وأن القرآن سمته الإعجاز الذي تحدى به الثقلين، والذي لا يمكن لأي كتاب غيره في

المسهم

الأرض أن يتصف بإعجازه، إذن فكيف يجوز لمشركي قريش، أو غيرهم، أن يقولوا: قد سمعنا آيات القرآن، لو نشاء لقلنا مثل هذه الآيات؟! إلاَّ أن يكون قولهم محض كذب وخداع، وتلك هي الحقيقة.. فقد أرادوا أن يطفئوا نور القرآن ـ الذي هو من نور الله ـ بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون.. وها هو القرآن ما يزال نوراً مبيناً يضيء القلوب، ويهدي النفوس، وما يزال المعجزة التي فرضت نفسها على الرغم من أنوف المدعين في مشارق الأرض ومغاربها. ولكن الشرك طغى على النفوس، واستمرأ عُتُوَّهُ أهلُ البغي والطغيان، فكان لا بُدَّ أن يشدهم شركهم للحفاظ على مصالحهم.. وهذا لا يكون إلا بمحاربة القرآن، فانبروا لتلك الحرب حتى انتصر عليهم القرآن في النهاية.

وكذلك كان الوليد بن المغيرة من بين أولئك الكفار الماكرين في مكة، فقد أجمعوا على إسكات صوت الحق الذي يقض مضاجعهم، فما وجدوا خيراً من الوليد يدفعونه للذهاب إلى النبيّ ﷺ كي يفاوضه على التخلي عن دعوته، مقابل أن يقدموا له ما يريد من المال والملك والسلطان.. فلما جاءه، أخذه الرسول الأعظم باللين، والموعظة الحسنة، وهو يتلو على مسامعه من آيات القرآن ما يحمل عظيم المعاني والدلالات التي تقشعر لها الجلود، وتَجِفُ منها القلوب، مما أخرَسَ الوليد، وجعله عاجزاً عن التفوه بأية كلمة حول المهمة التي كلف بها، إذ لم يُبدِ ـ وهو بين يدي رسول الله ـ أية معارضة للقرآن، ولا للدعوة التي يحملها النبيّ، بل ظل ساكتاً وملء قلبه الوجل والخوف، حتى قام من مجلسه، وذهب مسرعاً إلى المتزعمين من قريش ليخبرهم بحقيقة ما جرى معه، وعدم جرأته على

المسهم

مفاوضة «محمد». وكان منتظراً أن يواجهوه بالاستنكار ويتهموه بالجبن على موقفه، فانبرى أبو جهل ينفث حقد غضبه، وهو يزعق كالغراب في وجه الوليد قائلاً له:

- يا عم، إن قومك قد جمعوا لك المال ليعطوكه، وهم قد بعثوك إلى «محمد» لتتعرض له، وتدحض افتراءاته، ثم جئت لتقول إنك خرجت من عنده دون أن تُحاجَّه بشيء، أو تفاوضه على السكوت عن أمره؟!

فقال له الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً!..

فقال له أبو جهل: فقل في «محمد» قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وكاره!.

فقال له الوليد: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر، ولا برجزه أو قصيده، فوالله ما يشبه الذي يقوله «محمد» شيئاً من هذا. ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته..

وهذا ما جعل أبا جهل اللعين ينتفض من جديد وهو يقول له: وهل نتركه وشأنه؟ فوالله لا يرضى عنك قومك حتى تقول في «محمد»!..

قال الوليد: فدعني أفكر...

وجلس الوليد بن المغيرة يقدح زناد فكره حتى يقولَ بشأن «محمد» ﷺ قولاً ترضى عنه قريش.. ويصفُ الله تعالى - وهو الذي يعلم ما في صدور الناس، ويعلم ما يبدون وما يخفون - ذلك القرشيّ الماكر، بآياتٍ بليغةٍ، فيها منتهى الدقة والتصوير لتعابير وجهه التي

تدل على ما في نفسه من انفعال، وما في قلبه من حقد على النبيّ ﷺ، ومقدارَ التأثّر الذي يبدو عليه، وهو يقدح زناد فكره بحثاً عما يقوله ويوافق أهواءه، وأهواء قريش، حتى ولو خالف بذلك حقيقة ما وجده في النبيّ، وما سمع منه من بليغ القول، وعظيم معناه. فجاء وصفه في هذه الآيات المبينة التي تظهر تلك الحالة للوليد بن المغيرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[1].

إنه حكم الله المنتقم الجبار على ذلك الكافر اللعين بالقتل. ثم بالقتل ـ مكرراً ـ لما فكّر وقدّر من التقوّل على القرآن المجيد بما ليس فيه، ومن ادّعائه زوراً وكذباً بأنَّ الآيات التي يتلوها «محمد» ﷺ على الناس إنما هي سحرٌ مأخوذ من أقوال الساحرين.. ومثل هذا العقاب لذلك الكافر الحاقد، الوليد بن المغيرة، إنما كان لعلمه ـ تمام العلم ـ أن القرآن ليس من عند «محمد» ﷺ، وليس من عند أحدٍ من الناس، إذ ليس لبشر أن يقول مثله، خصوصاً وأن الوليد قد شهد هو على نفسه بأنه يعرف لغة العرب: صحيحَها من مدخولها، وبليغَها من ركيكها. وقد أقرَّ ـ أمام أغلظ المشركين وأشدهم عتواً من بني قومه ـ بأن ما سمعه من محمد لقولٌ «يعلو وما يعلى عليه»، فكيف يجيز لنفسه أن يتنكّر لهذه الحقيقة، وألاَّ يعلن على ملأ قريش أحقية القرآن، وصدق «محمد»، وأن يقول بخلاف الحق الذي عرفته نفسُهُ؟!.

وفي تصوير أمارات وجهه، وحركاته، يبرز ذلك الحاقدُ حائراً،

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١٨ ـ ٢٥.

المسهم

مرتبكاً، وكأنه كلما لاحت له فكرة نظر إلى القوم من حوله يريد أن يقولها، ثم لا يلبث أن يتركها، ليعود من جديد إلى العبوس والتجهم، مع ما يرافق عبوسه من انقباض وكلوح.. ثم يغرق مرة أخرى في التفكير، ثم يعبس ويبسر، فيزيده ذلك انقباضاً وكلوحاً.. ويظل على هذه الحالة من التأزُّم في نفسه حتى يجد الفكرة الخبيثة، التي تجعله مُدْبِراً عن الإيمان، مستكبراً عن اتباع الحق، فينطق بكفره وكذبه، مُدَّعياً أن ما يقوله «محمد» إن هو إلاَّ سحر يؤثر عن السحرة، إن هو إلا قول البشر!!..

ذلك كان تقدير الوليد بن المغيرة، كما قاده إليه تفكيره. ولكنَّ حكم العليّ الكبير كان ـ ومنذ الأزل ـ قد صدر عليه بالقتل. وقتله سوف يكون، كما قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[1].

أجل إنه الحكم الحق، من الحق على كاذبٍ من عتاةِ قريش. لأن كُفرَهُ بالقرآن كان صُراحاً، وتكذيبه لنبيّ الله كان بَواحاً.. وإنه الحكم الذي يستحقه كل مكذب بآيات الله تعالى، وبقرآنه المجيد، ولا يؤمن بنبوة رسوله الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وليس أعظم، ولا أشدَّ بلاءً على الكافرين والمشركين، الذين

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٢٦ ـ ٣١.

المسهم

جاءهم الحق من ربهم فكذبوه، من العذابِ الأليم يخلدون به في نار جهنم المحرقة. ذلك العذابُ الذي يشبِّهه القرآن الكريم بالقتل، تدليلاً على شدته وقسوته، لأنه ليس شيء أقسى على الإِنسان من القتل. وما توكيد الآيات على نوع الجزاء إلا لتبيان ماهية جهنم ذات الشأن العظيم، التي لا تبقي على شيء، ولا تذر شيئاً يدخل فيها إلاَّ جعلته شِواءً، إذ تلتهمه التهاماً، لتحيله وقوداً لنارها، ولكن من غير أن يستحيل فيها إلى رمادٍ وينقضي، أو أن يحترق بجمرها وينتهي، بل كلما نضج جلده عاد كما كان، وعاوده عذاب القتل حرقاً كأشد ما كان.

أجل إن نار جهنم تشوي المفترين على آيات الله، وعلى رسله كذباً وعناداً، إذ يتقلّبون فيها بعذاب دائم، لا يحول ولا يزول.. ومن أجل ذلك كان لسقر (جهنم) ذلك الشأن العظيم وهي تقتل الكافرين على ذلك النحو الأليم!!..

وتبيّن الآيات الكريمةُ أن الله (تعالى) جعل على جهنم تسعة عشر خازناً، أي حارساً. وقد سمَّاهم ـ سبحانه ـ أصحابَ النار، وهم من الملائكة. أما لماذا جعل عدتهم تسعة عشر، بهذا العدد المحدد، بدون زيادة أو نقصان، فلكي تكون هذه العدة فتنةً للذين كفروا، بحيث يتيهون في البحث عن معرفتها، فلا يقعون إلا على القلقِ والتخبُّط.. وقد برزت فعلاً تلك الفتنة للكفار، بعد نزول هذه الآيات المبيّنات. فمنهم من أخذها على محمل الجد، وراح يتفكَّر في معناها، حتى أشقته دون أن يبلغ ماذا أرادَ الله (تعالى) بها مثلاً؛ ومنهم من أخذها على محمل الهزء والسخرية لضآلة العدد، إذ اكتفوا بظاهر النص، دون عناء التفكير في مقاصده؛ ومن هؤلاء كان أبو جهل الذي

المسهم

قال: يا معشر قريش!.. يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، فهل يعجز مئة رجل منكم عن رجل منهم؟

وقال آخر من قريش يُدعى أبا الأشد: يا معشر قريش! لا يَهُولَنَّكم التسعة عشر، أنا سأدفع عنكم بمنكبي الأيمن هذا عشرة، وبمنكبي الأيسر تسعة.. مما يتبيّن معه بوضوح أن عدة خزنة جهنم إنما كانت فتنةً للكفار، لأنها جعلتهم، مع العجز عن تفسير مضمونها ومعناها، يقعون في الحيرة والأرق وغيرهما من الهموم التي تشقي النفس عادة، كما جعلت الشقاق يسود فيما بينهم على الطرق والوسائل التي يتخلصون بها من المأزق الذي يواجهونه، لا سيما وأن فكرة المصير في الآخرة التي يتهددهم بها القرآن قد بدأت تؤرقهم فعلاً، ويخشونها أكثر من أي شيء آخر!.. وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّوا على استكبارهم، وعدم القبول بالإسلام.

هذا من ناحية مشركي مكة..

أما أهل الكتاب، فإن ذكر أصحاب النار، وتحديد عدتهم لم يزدهم إلا استيقاناً بأحقية القرآن، لأنه يثبت ما جاء في كتبهم السماوية، ولعلَّ في هذا ما يجعلهم يعرفون الحق فيتبعوه، ويصدقون بعث النبيّ محمد ﷺ فيدخلوا في الإسلام، ويعتنقوا عقيدة التوحيد..

وأما المؤمنون، فإنهم لا يتوقفون عند العدد، لأنهم يعلمون أنَّه الحق من ربهم، بل ينصرف تفكيرهم إلى تصوّر شأن جهنم العظيم، وما أُعِدَّ فيها للكافرين من العذاب الأليم، بينما هم يعدُهم ربهم جناتِ خلدٍ عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين، فيزدادون إيماناً

المسهم

واحتساباً. . ثم إن هذا العدد لا يرتابُ ولا يتخوَّف منه أهل الكتاب، ولا المؤمنون، بل يقولون: سبحان الله العليم الحكيم، الذي أوكل إلى ملائكته بتكاليف عظيمة لا يقدر عليها البشر، ولا يحتملون القيام بها. . . في حين أن الذين في قلوبهم مرضٌ ـ من الشك والنفاق ـ والكافرين يقولون: ماذا أرادَ اللَّهُ بهذا العدد مثلاً؟ مما يعني أن عدد الملائكة، أصحاب النار يحيِّرهم ويجعلهم ضالّين عن الحكمة، التي يريدها الله تعالى من هذا المثل، بل وفي قولهم هذا ما يؤذن بحالة الضياع والضلال التي أوقعوا بها نفوسهم. . كذلك، أي مثل الفتنة التي توقعها عدة الملائكة في نفوس الكافرين، فتضلّهم عن حكمتها، ومثل الاطمئنان الذي يزداد في قلوب المؤمنين فيزدادون إيماناً، كذلك يضل الله (تعالى) من يشاء، ويهدي من يشاء. . أما عدد جنود الله، سواء الذين كلفوا بجهنم، أو بغيرها من شؤون الآخرة، أو الذين كلفوا بالعباد، وبشؤون الدنيا كافة، أو الذين أعدوا لكل أمر يشاؤه رب العالمين فلا يعلمهم، ولا يعلم عددهم إلاَّ هو سبحانه وتعالى. وما هذه الأمور جميعاً ـ سواء جهنم، أو خزنتها، أو فتنة الكافرين، واستيقان أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين ـ إلاَّ ذكرى للبشر، من شأنها أن تستوقفهم للتفكّر والتدبّر. .

فإذا سأل معترض: ولِمَ ورد القول: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مع أن الاستيقان، وازدياد الإيمان يدلاَّن على انتفاء الارتياب؟ قيل له: لأنه إذا حصل لهم إثبات اليقين، ونفي الشك، زادهم ذلك تأكيداً، وثباتاً على دينهم، وكان أكثر نفعاً لسكينة نفوسهم، وراحةً لقلوبهم، فيكونون بخلاف المرتابين، والمشككين، والكافرين الذي تتآكل نفوسهم بفعل الريبة والجهالة، وتضعف

المسهم

كياناتهم بتأثير النفاق والضلال، وكلها فتنة وابتلاء..

وإذا سأل آخر: ولِمَ كان ذكر المنافقين، الذي وصفهم الله سبحانه و﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مع أن الآيات أنزلت في مكة، ولم يكُ فيها نفاق، كما ظهر في المدينة؟ قيل له: إن النص يهدف إلى بيان حال أهل الريب، والشك والذبذبة في كل زمان، ممن لا يُقبلون على الإسلام، فهؤلاء يظلون فريسة للفتنة التي تؤدي إلى العقد والأمراض النفسية، فتكون هذه النصوص من القرآن الكريم ـ فوق أنها تدل على أحوالهم ـ من أهم العوامل التي تبعث في نفوسهم ميلاً إلى فهم الإسلام، ومن ثَمَّ للدخول في رياضه الغنّاء، وبذلك يتخلصون من عقدهم، ويشفون من أمراضهم، وذلك كله من هدى الله، إن الله يهدي من يشاء..

٢ ـ ليس أظلم ممن افترى على الله كذباً بادعاء الوحي وقال سأنزل مثل ما أنزل الله.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۗ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

تبدأ هذه النصوص الكريمة بالتذكرة بحقيقة القرآن، وبأنه كتاب أنزله الله تعالى مبارك، لتعمَّ بركاته الأرض وأهلها. إنه مبارك بتصديقه

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٩٢ ـ ٩٣.

المسهم

الكتب السماوية التي أنزلت من قبله هدىً ورحمةً.. وقد أنزله الله العزيز الحكيم على رسوله محمد ﷺ لينذر به أم القرى، ثم لينتشر بحيث يصل إلى مداه الواسع في الآفاق، دون أدنى تحديد، باعتبار أن مكة هي محور في الأرض، ومن هذا المحور ينطلق الإنذار، وتنطلق الدعوة لتبلغ أسماع الناس جميعاً في مختلف أطراف الدنيا.

فالبدء بإنذار أم القرى ومن حولها له دلالات كثيرة، وأبرزها:

- أن الكعبة الشريفة، هي أول بيت بني لعبادة الله، فكانت الأم والأصل، وما عداها فروع تتعلق بما يصدر عنها.
- أن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قد أعادا رفعَ قواعدِ هذا البيت العتيق بأمر من ربهما لمكانته المقدسة عند الله (عز وجل).
- أن محمداً ﷺ خاتم النبيين هو من أم القرى، وقد بعث نبياً فيها، عندما نزل الوحي عليه وهو يتعبَّد في غار حراء الذي يقع على أعلى قمة جبل النور من أرض مكة المكرمة.
- أن الكعبة ـ أعزها الله ـ وكما أثبت أهل العلم تقع على محور الأرض التي تدور حول محورها في حركتها الدائمة ليل نهار، وعلى مدار السنوات، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فكان حقاً أن تكون أم القرى هي نقطة الابتداء للدعوة إلى دين التوحيد، كما أراد الله تعالى، عندما أُنزل القرآن على قلب «محمد» ﷺ في تلك البقعة المباركة من الأرض، فانبرى يبلّغه للناس، ويدعوهم للإيمان به، وبحقيقة ما يخبر عن الأمور الغيبية ـ مثل الآخرة ـ أو بما يأتي به من الفرائض ـ مثل الصلاة ـ أو غير ذلك من القضايا والأحكام والمواضيع والشؤون التي يتناولها

المسهم

القرآن، وبحيث يعتبر الكتاب الجامع الشامل الذي لا يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها بصورة مفصّلة أو مجملة كما شاءَ ربنا العزيز الحكيم. فالذين يؤمنون بالآخرة أنها حق، وأن يوم القيامة والحساب حق، يؤمنون بهذا القرآن الذي يقدم لهم البراهين والأدلة على حقيقة الآخرة بما يطمئن قلوبهم إلى الإيمان بها. ولذا تراهم يحافظون على صلاتهم، وعلى فرائضهم الأخرى جميعها خوفاً من عذاب الآخرة.

وعلى خلاف هؤلاء المؤمنين، فإنَّ من الناس من يسعون ظلماً في العباد بشتى أنواعه، ومنها: الكفر، والشرك، والمعصية، وبخس الناس أشياءهم.. فكل من يكون لديه واحد من هذه الأنواع، أو ما يماثلها، فهو ظالم.. ولكن ليس أظلم ممن افترى على الله بتكذيب آياته، وزعمه أن القرآن غير منزل من عند الله (تعالى).. وكذلك ليس أظلم ممن افترى على الله بادعاء النبوة، وقال بأنه أوحيَ إليه، ولم يوحَ إليه بشيء.. وكذلك ليس أظلم ممن افترى على الله بالاستهزاء بجليل قدر آياته المنزلة على رسول الله ﷺ، وقال بأنه قادر على أن يقول مثلها.. فكل من يفعل ذلك يعدُّ عند الله (العليّ القدير) كذَّاباً ومفترياً، وهو بالتالي أشدّ الظالمين، مع ما يحمل هذا الظلم من كراهية ومقت لصاحبه، إن مِنَ الله رب العالمين، وإن من عباده الأبرار المؤمنين. فالله سبحانه وتعالى يمقت الظلم، وقد حذر منه كثيراً، ونهى عنه نهياً جازماً في كتابه المبين. وعباد الله، من الذين وقع عليهم الظلم، كثيراً ما قاموا بالثورات ضد الظالمين، كما تثبت أحداث التاريخ. ولذلك كان الظلم بطبيعته اعتداءً على حقوق الناس، فكيف إذا كان اعتداءً على حق الله (تبارك وتعالى)، رب هؤلاء الناس

المسهم

وخالقهم، وعلى أمرٍ قدسيٍّ مثل الوحي الذي خصَّ به الله من عباده الصالحين من اختارهم واصطفاهم لهذا الوحي..

وقد قيل في أسباب نزول «ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله» ـ كما أخرج ابن جرير عن عكرمة ـ أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان من كتاب الوحي للنبيّ ﷺ، فكان إذا أملى عليه: عزيز حكيم، يكتب: غفور رحيم. وأخرج عن السّدي نحوه، وزاد فقال: إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحي إليَّ، وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله، قال محمد: سميعاً عليماً، فقلت أنا: عليماً حكيماً».. ولكن أمر ابن أبي سرح انكشف فخرج عن الإسلام ولحق بقريش، أهل الكفر الذين ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

ولم يكن ابن أبي سرح وحده كذاباً لعيناً، بل ومثله مسيلمة الكذاب، الذي ادعى النبوة في أيام بدء انتشار الدعوة الإسلامية.. ومن أجل منع مثل هذا الادعاء، وفي أي زمانٍ أتى، أثبت الله تعالى في كتابه المجيد الآيات المبينة التي تحرم كل كذب أو افتراء على الوحي، وتعدّه من أشد أنواع الظلم عتواً..

والسؤال: ولكن ما مصير الظالمين، وأياً كان نوع ظلمهم؟

هذا ما يبيّنهُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾[2] إليهم بالضرب، والتعذيب، وهم يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب إن كنتم تستطيعون.. ولكنكم لن تقدروا، لأنكم اليوم تعاقبون بالعذاب المهين بسبب ادعائكم

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

المسهم

الكاذب بأنه أوحي إليكم، وبما كنتم تقولون على الله غير الحق، وبما كنتم عن آياته الكريمة الحكيمة تعرضون، وتتعالون وتستكبرون. وها هوذا اليوم الذي ينتظركم، فما قدرتموه حق قدره، وما حسبتم أنكم تبعثون، وأنكم ستحاسبون على كل ما كذَّبتم وقلتم.. فاليوم تجزون العذاب الهون بما كنتم تكذبون.

فيا سبحان الله، كيف يعرف الناس هذا، ويغرقون في الظلم من أي نوع كان، وهو محرَّم وممقوت مقتاً شديداً من الله عزّ وجلّ. أفلا يتدبَّرون القرآن الذي ينهى عن الظلم، وينتفعون بهديه، أم على قلوب أقفالها؟!.

٣ ـ مراد الكافرين أن يُؤتوا مثلَ ما أُوتي رسلُ الله.

يقول العزيز الحكيم: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾[1].

إن الغرور من المآسي التي قد تقتل الإنسان لأنه ينمُّ عن مرض من الأمراض التي تقبع في أعماق النفس من جراء موروثاتٍ أو مؤثرات أو نوازع تجعلها ملتوية، ومنحرفة عن جادة الصواب. وهذا المرض الخبيث الذي تألفه النفوس الشريرة، من غير أن تشعر بفداحته وخطره، كثيراً ما يصيب المستكبرين، الذين يظنون في أنفسهم علواً على غيرهم، وأهلية على الإتيان بعظائم الأمور، دون سائر الناس. ويبدو أن بعضاً من القرشيين قد فعل هذا المرض فعله في قلوبهم، فكانوا إذا جاءتهم آية من الله، وتلاها عليهم رسوله الأمين، قالوا: لن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

المسهم

نؤمن حتى ينزل الله علينا مثل ما ينزل على «محمد» من الآيات.

وكان الوليد بن المغيرة المخزومي من أولئك الطغاة، المستكبرين، إذ كان يعتبر نفسه أكثر أهلية للنبوة من محمد بن عبد الله، لأنه أكبر منه سناً، وأغنى مالاً، وأكثر وجاهة. وهو لم يتورع عن المجاهرة بذلك في مناسبات عديدة منذ بدأ النبيُّ ينذر الناس، ويدعوهم إلى الإسلام.. ولم تكن أمانيُّ النبوة ـ وفيها السيادة والرئاسة على قريش، كما كان يتوهم أولئك المشركون ـ لتغيب يوماً، بعدما بعث الله تعالى سيدنا محمداً بشيراً ونذيراً للعالمين، عن بال أبي جهل عمرو بن هشام، أو عن بال أبي سفيان بن حرب بن أمية فكلاهما كان يطمع في زعامة قريش ورئاستها، ويعمل لذلك بكل ما أوتي من الجهد والمال والجاه.. وقد أفصَحَ أبو جهل عن نزعته تلك يوم أن قال لصاحبه الأخنس بن شريق: «لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تحاذينا الركب وكنا كفرسيْ رهان، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فهل ندرك مثل هذا؟ واللات والعزى لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه»[1].

لا بل إنَّ بعث محمد ﷺ بالنبوة والرسالة قد اتخذ منه رؤوس المشركين قضية محورية، لأنهم لم يطيقوا أن يفلت هذا الأمر من أيديهم، أو على الأقل من أحد زعمائهم الكبار أمثال الوليد بن المغيرة المخزومي ـ في مكة ـ أو مسعود بن عمرو الثقفي ـ في الطائف ـ لما كان لهذين الرجلين من تأثير ونفوذ في نفوس القوم. وقد أظهر القرآن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٣٧ و٣٣٨.

المسهم

نزعتهم تلك، وفضحها على الملأ، بقوله العزيز: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

أما أن يشترطوا هم على الله تعالى، وأن يربطوا إيمانهم بوحي يُنزَّل عليهم مثل رسل الله!.. فهذا منتهى الضلال، والاستكبار، والغرور، لأن: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».. فهو خالق العباد، وهو أعلم بحال كل واحدٍ منهم، ومَنْ هو أهل لحمل الأمانة، والقيام بأعباء النبوة والرسالة.. وإنَّ اصطفاء محمد ﷺ، أو من سبقوه من الأنبياء والمرسلين هو شأن لله (عز وجل)، فليس لعبادٍ ضِعافٍ، منكرين نعمة الله عليهم، وجاحدين فضله فيما آتاهم، أن يعترضوا، إلا أن تزين لهم سفاهة أحلامهم مثل هذا الاعتراض، أو أن تدّعي نفوسهم مثل هذا الغرور.. وكله باطل فاشل.. بل ومجرد اعتراضهم يُعدُّ جرماً فادحاً. وما عاقبة الذين أجرموا مثل هذا الجرم إلا الصَّغَارُ والذلُّ عند الله العزيز الجبّار، والعذاب الشديد بما كانوا يمكرون، ويتآمرون على نبيه محمد ﷺ، وهم يدَّعون أنهم أحق منه بالبعثة.

لقد آثروا الغرور والاستكبار، فرأوا ألا يؤمنوا إلاَّ بحسب أهوائهم ونزعاتهم، وقياساً على مصالحهم فتاهوا عن الهدى والصلاح.. أما وتلك حالهم فذلك شأنهم، ولكن حقت عليهم كلمة ربهم، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2] وسينالون العذاب الشديد بما كانوا يمكرون..

أمّا ما يشاء الله تعالى من خير لعباده، ومن هداية للمؤمنين

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٩.

المسهم

الموقنين، أو إضلال للمنكرين والمستكبرين فيُبيِّنه قوله تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

فالدين عند الله الإسلام، وعندما يقرر القرآن هذه الحقيقة، فلا مجال لإنكارها، لأنها القول الحق، ومن الحق تبارك وتعالى. فمن يرد الله أن يهديَ من عباده إلى ما فيه خيره يشرحْ صدره لهذا الدين، فتمتلىء به جوارحه، ويطمئن به قلبه، ثم يقوّي فيه دواعيَ الاستمساك به. وقد سئل رسول الله ﷺ: كيف يشرح الله صدره يا رسول الله؟ قال: «**نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح**». قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت**»[2].

فهذا شأن من يريد الله (تعالى) أن يهديه إلى نور الإيمان، الذي لا يكون إلاَّ بالإسلام.

أما من يرد اللَّهُ تعالى أن يُضلّه، فإنه يجعل صدره ضيقاً عن استيعاب الإسلام، قلا يتقبَّل هداه، بل وتغلب عليه وساوس الشيطان التي تضغط على قلبه حتى يشعر حقيقة وفعلاً بأنَّ صدره قد ضاق من شدة هذا الضغط، وكأنما يقذف به في السماء صعوداً. . فكلما ازداد في هذا الصعود ارتفاعاً، اشتد الضيق والحرج على صدره حتى يكون عليه أعسر من ساعة الموت عند قبض روحه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) شرح تفسير الجلالين للآية ١٢٥ من سورة الأنعام؛ سنن الدارمي، فضائل القرآن، ص١٠.

المسهم

وقد دلّت الاكتشافات العلمية أن الإنسان، عندما يصعد في الفضاء، ويخرج من جاذبية الأرض، فإنه أشدُّ ما يكون حاجةً إلى الأوكسيجين الذي ينعدم وجوده خارج فضاء هذه الأرض. وبما أنه لا حياة للإنسان بلا أوكسيجين، فإن فقدانه يؤدي إلى موته اختناقاً، مع ما يصاحب هذا الاختناق من الشعور بضيق الصدر، وبالآلام المبرحة الناتجة عنه. ولعلَّ من تصيبه أزمة قلبية أدرى بهذه الآلام من غيره.. فهكذا هي حال من يضله اللَّهُ (تعالى) إذ يسلط عليه الوساوس، والهموم، والقلق والاضطراب، فتتأزم نفسه كأنما يصعّد في الفضاء بلا أوكسيجين يمدُّهُ بالحياة. وقد شاء الله أن يبين لنا بهذا المثل أن الإسلام هو سبب الحياة، وهو سبب هنائها وراحتها، وبدون الإسلام فإنه لا مجال إلا لضيق الصدور، وقلق القلوب، وملازمة الشقاءِ والبؤس للناس. من هنا كان الدليل على أن القرآن لم يُنزَّل إلى جيل، أو إلى أمة أو إلى مجتمع.. بل أنزل هذا الكتاب الكريم لكل الناس، ولكل العصور.. ولذلك كان الإسلامُ نور هداية ورشاد، ومصدر علم ومعرفة لكل من أرادَ أن يستقيَ من معين الله.

وكما تحل الآلام والعذاب بالإنسان في هذه الدنيا من شدة الضلال حتى تجعل صدره ضيقاً عن استيعابها، وغير قادر على احتمالها، كذلك سيكون عذاب الآخرة أشدَّ إيلاماً على من لا يؤمنون بالإسلام الذي أُنزل على قلب «محمد» ﷺ، لأنه وحده الدين الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

٤ ـ الكافر كمن مَثَلُهُ في الظلمات ليس بخارج منها.

يقول الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى

المسلم

بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

يرسم لنا هذا النص القرآنيّ صوراً حسّية شتى: الموت والحياة، والنور والظلام.. أربع صور لا تخلو منها حياة الإنسان، ولكل منها تأثيره البالغ عليه. ففي الموت يفنى جسده وينعدم نهائياً من هذه الحياة الدنيا، وفي الحياة يتجسَّدُ وجوده بكل ما ينطوي عليه، وذلك منذ تكوينه في بطن أمه وإلى نهاية عمره، وحلول أجله الذي لا مفرَّ منه..

أما النور فإنَّ فيه دلالة على عيش الإنسان في حركته الدائمة، من الصحة والنشاط والعمل، ومن التأثر بما يحيط به، أو التأثير الذي يحدثه في هذا المحيط، والذي قد يخرج أحياناً من البوتقة الفردية إلى مستوى البيئة العائلية، ومنها إلى المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الفرد، وربما يتسع تأثيره حتى يصل إلى رحاب الإنسانية، وهي حال الأفذاذ والنوابغ الذين يخلفون من الآثار ما قد يُؤثر على حياة الناس أجمعين..

وأما الظلام فهو على عكس النور، لأنه يعني السكون، وعدم وجود المقومات التي تمكّن من الحركة أو الإنتاج أو التأثير، أي أنه من أهم معوقات الإنسان عن العطاء الذي يمكّن من تفاعل الحياة في مختلف جوانبها.

ولعلَّ أهم ما يُريد النص القرآنيّ أن يوجهنا إليه من هذه الصور الأربع، وتأثيراتها علينا، هو التمييز بين الكفر والإيمان، مع إثبات صورة عجيبة في أذهاننا وهي إعادة ميت إلى الحياة، وسعيه بين الناس

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

المسهم

بأفضل مما كان عليه قبل موته. وهذه الصورة المقصود منها الإنسان الكافر، الذي يكون بمثابة الميت في كفره، فيهديه ربُّهُ العليّ الكبير إلى الإيمان، وفي إيمانه تكون حياته. ولكي يظل على هذا الإيمان، فإن الله تعالى قد جعلَ له نوراً دائماً يهديه من عثرات الحياة، وهذا النور هو القرآن المبين بما فيه من العلم، والحكمة، والموعظة، وبما فيه من راحة للنفس، وشفاء لما في الصدور من الأمراض ـ غير العضوية أو البيولوجية ـ التي تُشقي الإنسان إذا ما استحكمت فيه، وتجعل حياته جحيماً لا يطاق. فالقرآن هو هذا النور الهادي، الشافي، وقد جاءت تسمية القرآن بـ«النور» في أكثر من آية، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

فالقرآن نور يحمله المؤمن في قلبه، وعلى لسانه، وبين يديه، ويمشي به في الناس، تالياً آياته، مفسّراً معانيه، ناشراً عظاته. ولكنَّ السؤال هو: هل يمكن أن يكون مَثَلُ المؤمن الذي رضي الله (تعالى) عنه فأخرجه من الظلمات إلى النور ـ أي من الكفر إلى الإيمان ـ كمثل من يبقى في ظلمات الجهل والكفر لا يخرج منها؟

لا، فإن من بديهيات القول أن الظلمة هي عكس النور. وقد وردت في القرآن الكريم تسمية الجهل بالظلمة، مثلما وردت تسمية الإيمان بالنور.. فيكون الكافر هو الجاهل الضال، القابع في غياهب الظلمات لا يبصر علماً، ولا يرى نوراً، فلا يهتدي بالتالي إلى حقائق الأشياء.

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٨.

المسهم

وبالمقارنة ما بين المؤمن والكافر، ووصفهما، بالحي والميت، أورد القرآن الكريم هذا الوصف في آيات عديدة، ومنها قوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[2].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾[3].

ومن هنا كان التعبير عن القرآن، والإيمان، والعلم، بـ«النور» الذي هو الإبصار والاهتداء. كما كان التعبير عن الكفر، والجهل، والضلال بـ«الظلام» الذي هو العمى والتيه، ومن جرائه سمى القرآنُ الكريمُ الكافرَ بـ«الأعمى» الذي تغطي الظلمة بصره وبصيرته، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[4].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[5].

ولذلك كان الإيمان ضد الكفر. وكان المؤمنون غير الكافرين في كل شيء.. وكما زُيّن للمؤمنين الإيمان والطاعات، فكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون من المعاصي والذنوب.

والله تعالى هو الذي يجعل الإيمان يعمر قلوب المؤمنين، فكانوا راضين مرضيين؛ بينما تحيط شياطينُ الإنس والجن بالكافرين، فتوقعهم في الضلال والبهتان، فيعصون الرحمانَ بأقوالهم وأفعالهم،

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٠.
(٢) سورة يس، الآية: ٧٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٤) سورة فاطر، الآية: ١٩.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١٩.

المسهم

فيعيشون في الدنيا ضالين، ومفسدين، وهم في الآخرة من الخاسرين.

٥ ـ المعرضون عن ذكر الله (تعالى) كالحُمر الوحشية التي فرّت من أسد

يقول السميع العليم:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[1].

إن القرآن الحكيم يهدي الناس إلى حقيقة الصلة بربهم وخالقهم، ويبيّن لهم العبادات والفرائض التي تعينهم على اجتياز الحياة الدنيا بأمانٍ إلى الدار الآخرة.

وهو القرآن المجيد نفسه الذي يحدد للناس قواعد السلوك الفردية، ومناهج العلاقات العائلية، والمجتمعية والإنسانية التي يريدها مبنيَّةً على روح التآخي، والتآلف والاستقامة بعيداً عن كل ما يسيء إلى الكرامة الشخصية، أو يضر بالحياة البشرية في مسيرتها إلى الله تعالى.

والآيات القرآنية التي تحفل بهذه القيم الرفيعة والسامية هي المحور الرئيسيّ في القرآن.. وعلى الرغم من ذلك فإن معظم الناس ما يزالون يعرضون عن هذه الآيات التي تذكّر دائماً بما هو حق للإنسان، وبما هو واجب عليه، ومن غير أن تنفع معهم هذه التذكرة بشيء.. فكان لا بدَّ أن يلاقوا جزاء إعراضهم ـ وما يجرُّ إليه ـ في

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٩ ـ ٥٦.

المسهم

الآخرة، حيث يتوعّدهم القرآن بأن أبواب جهنم سوف تُفتّح لهم يوم الدين! . . ولو سئل ـ يومئذ ـ أصحاب النار: ما أدخلكم في سقر؟

لأجابوا (كما يخبرنا قوله تعالى): ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾[1].

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾. . أي يوم يحشرهم الله للحساب، ويوم يجدون ما كذّبوا به حقاً يقيناً! . .

ولكن ما نفع استيقانهم بعد الموت ويوم الحشر بالذات، وكانوا في الحياة الدنيا ينكرون إعادة إحيائهم في البعث، ومحاسبتهم على كل شاردة وواردة؟! ثم لماذا الاستمرار في الإعراض عن ربهم العليّ العظيم، وقرآنه يعظهم، ويذكّرهم بما سوف يلاقون، بل ويؤكد عليهم بأنه حقٌ مثلما أنهم ينطقون؟!

وزيادة في التبيان والعظة فإن هذا القرآن يشبه حال المعرضين هؤلاء عن آياته بالحمير الوحشية التي تستنفر لمجرد رؤية الأسد، وتفرُّ منه خوفاً على حياتها. فهم في إعراضهم اليوم في الدنيا عن الإيمان، واعتناق الإسلام كتلك الحمير تماماً في هروبها خوفاً من شدة الموت الذي ستلاقيه إن لم تستنفر، وتهرب من الأسد في هجومه عليها.

وهذا التشبيه لهم يعتبر من بديع القياس التمثيليّ، لأن الإعراض عن آيات الله (تعالى) هو دليل على الجهل والضلال، فكأنهم مثل تلك الحيوانات البرية المستوحشة التي لا تعقل، ولا تميّز الخير من الشر، ومع ذلك تقودها غريزتها إلى الفرار من الخطر، بينما هم يعرضون عن

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٣ ـ ٤٧.

المسهم

الآيات التي تدفع عنهم أشدَّ الأخطار، ألا وهو العذاب في النار. هذا بالإضافة إلى أن تعبير «المستنفرة» أبلغ من «النافرة»، لأنه يعني أنها لشدة خوفها يستنفر بعضُها بعضاً، ويحثه على الهرب.. وهذا هو حال المعرضين عن الذكر الحكيم الذين يتواصون ويحضّون بعضهم بعضاً على الإعراض، ثم ينفرون من ذكر آيات الله بصورة جماعية.

ولكن لماذا هذا التعنت وعدم الإقرار بصدق القرآن، ومن ثم الاستكبار على ما فيه من التذكرة والموعظة؟ وماذا يريد أهل الكفر والإلحاد من كتاب لا يحمل إلا الحق، ولا يهدي إلاَّ إلى الصراط المستقيم؟ هل يريد كل امرىء منهم أن ينزَّل عليه كتاب من السماء يدعوه إلى الإيمان؟ أم يريد كل واحد منهم أن تتنزَّل عليه صحيفة في البراءة، والعفو من العقاب حتى يوحِّد الله، ويكون مسلماً لرب العالمين؟ أم يطمع كل امرىء أن يكون رسولاً يوحى إليه؟ ومحال أن يكون شيء من ذلك، أو أن يُعطى امرؤ ما يريد، ووفق هواه. فالقضية هي أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يخافون عذابها، على الرغم مما يذكِّرهم به القرآن بصورة دائمة، لا انقطاع فيها. فإن أعرضوا، وأنكروا التذكرة فالذنب يقع على عاتقهم، وسوف يستيقنون من عذاب الآخرة يوم ينالون الخسران المبين، لأن الحق حق، والقرآن هو حق، وهو تذكرة لكل عبد منيب، فمن شاء آمن به واتخذ إلى ربه سبيلاً.. على أن الأمر في نهاية المطاف لا يعود للمعرضين، ولا للناس جميعاً بل الأمر لله (تعالى) وحده. ولا يمكن أن يذكَّر الناس أو يتذاكروا في أمور الآخرة، وفي حكمة القرآن وعظته إلا أن يشاء الله لهم ذلك. فهو ـ سبحانه ـ غنيّ عن عباده أجمعين، وهو أهل التقوى والمغفرة. ولا يستأهل أحدٌ من هؤلاء العباد عفو ربه عنه، ومغفرته له إلا من تنفعه

المسهم

الذكرى لقوله الكريم: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[1].

٦ ـ مثل الذين كفروا كالسوائم الصمّ والبُكم

يقول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

هنا يضرب اللّهُ تعالى مثلاً عن الذين كفروا فلم يستجيبوا لدعوة التوحيد، وركنوا إلى التقليد، مصمّين آذانهم عن دعوة الرسل، فيشبههم بالبهائم التي يصرخ فيها الراعي فلا تفهم من دعائه شيئاً، بل تسمع صراخه أو نَعيقه أو دويَّ صوته ـ وربما جرس نغمة هذا الصوت إذا ناداها بشيء من الرأفة والحنان ـ ولكن من غير أي تمييز أو إدراكٍ لما تسمع..

فالكفار الذين اتبعوا دين آبائهم، وقلّدوهم في عقائدهم وعباداتهم، يمثلهم القرآن الكريم بالسوائم أو البهائم التي تطيع صيحات راعيها من غير تفكير في مدلولاتها: لا تفهم أوامره، ولا تفقه نواهيه، ولا تعقل صيحاته ونداءاته.. بل تسمع منه أصواتاً اعتادت عليها: تدعى بصوت فتأتي مقبلة، وتصرف بآخر فتعود مدبرة. هكذا هم الكفار، استجابوا للشرك والكفر فاتّبعوه، فكأنما هم في اتباعهم إيّاه صمٌّ لا يسمعون نداءَ الإيمان، بكمٌ لا ينطقون بكلمة

(١) سورة الأعلى، الآيات: ٩ ـ ١٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

الحق، عميٌ لا يبصرون آيات الله تعالى في كل شيء. فهم إذن لا يعقلون الحقيقة، ولا يدركون الطريق السويَّ الذي يجب أن يسيروا عليه، ولذلك تاهوا في مجاهل الكفر والضلال، فحق عليهم قول الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٧ ـ دخول الكافرين الجنة مستحيل مثل دخول الجمل في ثقب الإبرة

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

واضح هنا أن الذين كذَّبوا بآيات الله، واستكبروا عن اتباعها، لا يمكن أن تفتَّح لهم أبواب السماء، عندما يعرج الملائكة بنفوسهم حال الموت، لأنها نفوس خبيثة، أنكرت الحق واستكبرت عنه، فحقت عليها اللعنة. فعن البراء أنه قال: إن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلاَّ قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقال لهم: فلان (بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا)، حتى تنتهي إلى السماء، فيستفتح بابها، فلا يفتح لها.. ثم قرأ رسول الله ﷺ: **«لا تفتَّح لهم أبواب السماء»**.

وبما أن أبواب السماء لا تُفتَّح للكافرين، فصار من المستحيل عليهم دخول الجنة. وهنا يضرب الله لنا أروع مثل على هذه الاستحالة، إذ يقول عز وجل: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.. فسَمُّ الخِياط هو ثقب الإبرة، وهو ما يضرب به المثل عن ضيق المسلك، فيقال «أضيق من خرم الإبرة»؛ كما أن جسم الجمل

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

المسهم

هو مثال عن الضخامة، فيقال: «أجسام الجمال وأحلام العصافير». . إذن فروعة المثل القرآنيّ أن الكافرين محال عليهم دخول الجنة مثلما هو محال دخول الجمل بجسمه الكبير في ثقب الإبرة الصغيرة، فشرط الاستحالة غير قابل للتحقق على الإطلاق، إذ لو تصوَّرنا مشهد الجمل أمام ثقب الإبرة، ولو تصوَّرنا أنه حين يتسع هذا الثقب لاستيعاب الجمل، فحينئذٍ يمكن أن نتصوَّر بأن أبواب السماء يمكن أن تفتَّح للذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وحينها فقط يقبل دعاؤهم أو تقبل توبتهم، فيدخلون الجنة. . أما الآن، وإلى أن يصير ممكناً دخول الجمل في سم الخياط، فإن الكافرين سوف يقبعون في النار، وسوف يخلدون فيها لأن شرط الاستحالة مطلق وغير قابل للتحقق أبداً. . .

وكما يكون جزاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها بعدم دخولهم الجنة، فكذلك يجزي الله العزيز الحكيم المجرمين بكفرهم، فلا يدخلون الجنة، بل ويكون مأواهم النار وبئس المصير.

٨ ـ وعيد الله (تعالى) بالتدمير على الكافرين أمثال الذين من قبلهم

يقول الله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[1].

من الثابت أن حياة الجنس البشريّ قد بدأت منذ خلق آدم على هذه الأرض، باعتباره أباً للبشرية، كما يهدينا إليه القرآن الكريم. .

أما الجماعات، والأقوام، والأمم التي مرت منذ ذلك العهد فلا يعرفهم إلا الله العليم الحكيم. . ولكن وفقاً للتبيان القرآنيّ، فإنَّ الدَّمار

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ١٠ و١١.

المسهم

والهلاك كانا دائماً يحلاّن بالأقوام الذين يكذّبون الرسل والنبيين، ويصرّون على الكفر والضلال لأن المعركة الفعلية في الحياة الدنيا هي المعركة القائمة بين الإيمان والكفر، هكذا كانت وستبقى ما دام في الأرض أناس مؤمنون وآخرون كافرون.. وهذا ما تلفتنا إليه الآيتان الكريمتان وهما تشيران إلى الكافرين عندما وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية، يحاربونها ويحاولون القضاء عليها، متوسلين لذلك كلَّ ما لديهم من قوى النفوذ والاستكبار والقهر، وكلَّ ما يملكون من المال والسلاح والعتاد..

ولذلك نجدهما تشدّان أنظار الذين يتظاهرون على أهل الإيمان بالقوة إلى تلك المعالم الباقية من مواطن الذين من قبلهم، ليروا آثار ما حل بهم من الهلاك، والإفناء تحت ركام التدمير الذي أصابهم.. ثم تقرران أن مثل تلك العاقبة سوف تكون للكافرين ـ ولكل الذين كرهوا ما أنزل الله ـ إن هم أصرُّوا على الكفر، ومحاربة الله ورسوله والمؤمنين، أي سيكون لهم عاقبة الذين من قبلهم من التدمير.

ولقد سبق ذلك التهديد للكافرين، وفي نفس «سورة محمد» ﷺ الوعدُ للمؤمنين بالنصر، والوعيدُ للكافرين بالإضلال، يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[1].. فالنتائج المترتبة على أعمال الذين آمنوا: النصر، شرط أن ينصروا الله، ويجاهدوا في سبيله، وبالمقابل فإن النتائج المترتبة

(١) سورة محمد، الآيات: ٧ ـ ٩.

على أعمال الذين كفروا: التعاسة، وإضاعة تلك الأعمال وإحباطها.

أما لماذا نصر الله المؤمنين وقهر الكافرين فـ«ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم».. هنا بانت الفوارق وظهر الحق الذي يعلو على الباطل.. فمن كان الله العزيز الحكيم مولاه فالنصر له. والحكمة تدلُّ على أن الله (تعالى) هو مولى الذين آمنوا، الذين يحملون دينه، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل نصرة هذا الدين، وإعلاء كلمة الله وجعلها هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.. أما الكافرون فلا مولى لهم ولا نصير، لأن معبوداتهم أقل شأناً وأحقر من أن تكون عوناً لهم، وتمدهم بالنصر..

وهذا هو المنهاج الحق الثابت: أن يكون الله تعالى هو مولى الذين آمنوا، كي يعزَّهم، ويرفع شأنهم.. وأن لا يكون للكافرين مولى قادرٌ على أن يحقق لهم تلك العزة والرفعة..

الفقرة الثالثة ـ النتائج المترتبة على أعمال الكافرين يوم الحساب

١ ـ مثل البعوضة امتحان للعباد

مما لا ريب فيه أن الأعمال التي يقوم بها الناسُ غالباً ما تنبىء عن صفاتهم وتوجهاتهم في الحياة الدنيا، كما أن النتائج التي تترتب عليها يوم الحساب هي التي تحدد العاقبة التي يلقونها، والمصير الذي يؤولون إليه. ولكي يمتحن الله سبحانه وتعالى عبادَهُ، ويميز المؤمنين من الكافرين فإنه يضرب لهم مثلاً بالبعوضة، أو بأكبر منها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيضلّون عن هذا الحق ويقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً.

يقول الله العزيز الحكيم:

المسهم

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

صغار الأشياء قد يكون لها فوائدها العظام. فهلاَّ تفكرّت في هذه العين التي هي في الوجه كم تبدي لك من مشاهد، ولولاها لكانت الحياة ظلاماً دامساً؟ وهلاَّ تفحصت هذه الإبرة الصغيرة، كم تخيط من أثواب وألبسة للناس ولولاها لكادوا أن يكونوا حفاة عراة؟ أم هل عرفت بأن في الورقة الخضراء الصغيرة من النباتات يكمن التمثيل الكلوروفيليّ، الذي ينتج عن تفاعله غاز الأوكسيجين الضروريّ لحياة الكائنات الحية؟ فهذه الورقة تعطينا الأوكسجين في النهار، وتمتصّ ثاني أوكسيد الكربون أثناء النهار، فتخفُّ أضراره عن الناس وهم يروحون ويجيئون إلى معايشهم، ثم تنفثه في الليل، وتأخذ بديلاً عنه الأوكسيجين لتبقى على اخضرارها، أليس في ذلك آية كبرى لقوم يعقلون؟ أم هل رأيت إلى هذه الزهرة الجميلة، كم هي على صغرها، فوّاحةٌ للعطر، بهيجة للنظر، باعثة للراحة في النفوس؟ أم هل تأملت النحلة ـ الحشرة الصغيرة ـ التي تصنع عسلاً صافياً فيه لذة وشفاء للناس؟ أم تلمَّست عمل النملة، وهي أصغر بكثير من النحلة، لتعرف كيف تُقيم مجتمعاً منظماً يدهش العقول؟

وقِس على ذلك كلَّ الأشياء الصغيرة التي يمتلىء بها الوجود من حولنا، فإنَّ لنا فيها منافع كثيرة هي عظة بذاتها على أهمية هذه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

المسهم

الأشياء، ولذلك كانت مدارَ اهتمام الناس فضربوا بها الأمثال للتدليل على أمور هامة، أو على معاني تلك المنافع في حياتهم، كما فعل الفرزدق حين ضرب المثل على الذلّ باليربوع الصغير، فقال:

وهل شيء يكون أذلَّ بيتاً من اليربوع يحتفر الترابا؟

وإذا كان الله العليم الحكيم قد جعل لكل شيء قيمة وقدراً، فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بشيء هو من خلق الله (تعالى)، لا سيما وأنه جعل في كل خلق حكمةً قد نهتدي إليها، وقد لا نعرفها أبداً.. ولذلك كان التنزيل المبين وفيه المثل بالبعوضة، على الرغم من ضعفها ووهنها، كي نستدل به على ما أراد الله بهذا مثلاً.

ومن هذه الدلالات، إحدى الحقائق التي يطلقها القرآن الكريم، وهي أن الخالق العظيم لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بشيءٍ من خلقه حتى ولو كان من أصغر الأشياء وأضعفها.

فالحياء من طبيعة المخلوقات، بل ومن طبيعة المؤمنين بالذات من عباد الله، الذين يرون بأن الحياء فرض، بل وشعبة من شعب الإيمان، لاعتقادهم اليقينيّ بأن ربهم تبارك وتعالى هو السميع لجميع أقوالهم، العليم بكل فعالهم، فلا يأتون بشيء إلاّ ويخافون أن يكون فيه ما لا يرضي ربهم الكريم. ولذلك كان حياؤهم منه (جل وعلا) من أهم الموانع عن ارتكاب المعاصي والذنوب. وما ذلك إلا لأن الاستحياء هو الانقباض عن الشيء، فإذا ما أحسَّ المؤمن بالحياء من فعل هذا الشيء الذي ينهاه ربه عنه، أو من عدم فعله لشيء يأمره ربه القيام به، انقبض عما هو مأمور بتركه، وأقدم على ما هو مأمور بفعله، وإلا شعر في قرارة نفسه بأنه ارتكب مخالفة لأوامر الله تعالى ونواهيه، أو مخالفة للنواميس أو القوانين، أو الأعراف والنظم التي

المسهم

يريده تعالى أن يسير عليها، أو يتآلف مع تناسقها في بناء الحياة والكون.. وهذا كله لا ينطبق على الله (جلت عظمته) لأنه خالق السنن، والنواميس والأعراف والقوانين والنظم، وهو الذي يسيّرها، ويديرها ويدبرها لقوام الوجود كله وانتظامه.. وهذا ما أراد اللَّهُ ـ جلَّ جلاله ـ أن يبيّنه لنا بالآية الكريمة، منزّهاً نفسه عن الاستحياء، فهو لا يستحي أن يضرب المثل بالبعوضة الصغيرة، الضئيلة، ولا بما هو أكبر أو أجلُّ شأناً منها.. وأما الغاية من هذا المثل فلكي يجعله امتحاناً للعباد فيتميز به المؤمنون عن الكافرين..

إذن فالعبرة في التمثيل بالشيء لا علاقة لها بشكله أو حجمه أو نوعه، بقدر ما تستهدف صفاته ومعانيه، لأن الأمثال، أصلاً، وسائل للتنوير والتبصير، وليس في ضربها ما يعيب الضارب، أو أن يحقر الشيء المضروب به.. واللَّهُ تعالى يريد بالمثل اختبار القلوب، وامتحان النفوس؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، لأن إيمانهم بربهم يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بالقبول واليقين والتسليم، فهو الأمر من صاحب الشأن، فكان إيمانهم نوراً في قلوبهم، وتفتحاً في مداركهم. ويدخل في هذا الإيمانُ، التصديق بمحمدٍ ﷺ رسولاً من الله، وبشيراً ونذيراً للعالمين، والإيمانُ بالقرآن الذي نزل على محمد من ربه جملةً وتفصيلاً، لا الإيمان ببعضه، وعدم الإيمان بالبعض الآخر، كما كان يفعل اليهود وهم يؤمنون ببعض التوراة ويكفرون ببعضها.. هذا من ناحية المؤمنين..

أما الذين كفروا فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟

إنه سؤال من لا يرجو لله وقاراً (أستغفر الله) ولا يتأدب بالأدب اللائق بالعبد تجاه حكمة الرب العليّ القدير. يقولون قولهم بجهل

المسهم

وقصور: في صيغة الاعتراض والاستنكار، أو في صورة التشكيك بصدور مثل البعوضة عن الله تعالى، وما ذلك إلاَّ لعدم تدبرهم للمثل، وإنكارهم للحق، وما هذا الإنكار إلا لأنهم كافرون..

ويأتيهم الجواب من العزيز الحكيم، بصورة التهديد والتحذير، بما وراء المثل من أمرٍ بالتفكّر والتدبُّر: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

فالهدى والضلال من الله (سبحانه وتعالى). ولذلك فإنه عندما يضرب للناس أمثالهم، إنما يريد من وراء ذلك إما هدايتهم أو إضلالهم. فأما الذين آمنوا فيستقبلون المثل من ربهم بالإيمان حتى ولو كان بالبعوضة، لأنهم يعلمون أن هذا المثل من الله حق وهداية. وأما الذين كفروا فإنهم يستنكرون الأمثال من الله (تعالى) كما فعل اليهود لما استنكروا أن يضرب الله المثل بالذباب في قوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ والعنكبوت في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، وقالوا: ماذا أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ فأنزل تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ﴾. لقد قالوا: وأي فائدة في هذا المثل؟ فكان الجواب: يضل به كثيراً عن الحق الذي كفروا به، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به، وما يضل به إلا الفاسقين الخارجين عن طاعته، وهديه سبحانه وتعالى.

فما أعظم شأن هذا المثل الذي ضربه اللَّهُ تعالى لعباده، واستنكره الكافرون!..

ومن ناحية أخرى، فإنه وإن كانت البعوضة حشرة طائرة صغيرة، إلاَّ أنها مثالٌ للعارفين على ما في خلق الله من الآيات والأدلة التي توحي بعظمة الخالق وعظيم قدرته. فقد روي عن جعفر

المسهم

الصادق عليه السلام أنه قال: «إنما ضرب اللّهُ تعالى هذا المثل لأن البعوضة على صغر حجمها، خلَقَ الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره. فأراد الله تعالى أن يُنبّه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه، وعجيب صنعه، وعظيم قدرته».

٢ ـ أعمال الكافرين كرمادٍ تذروه الرياح في يومٍ عاصف

يقول الله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[1].

إن الأعمال هي خيرُ تعبير عن الإنسان، من ناحية صفاته وخصاله ومزاياه. فهي التي تعكس حقيقة ما في نفسه، وما تنطوي عليه دخيلته من الخير أو الشر، من الطهارة أو الخبث، من التواضع أو التكبر، وما إلى ذلك من الصفات التي تميّز كل إنسان عن غيره.

وتظهر حقيقة أعمال الإنسان أكثر ما تظهر من ناحية ارتكازها على إيمانه أو كفره، فإن كان مؤمناً أشاعَ الخير بين الناس، بينما تنعكس أعمال الكافر عليه شرّاً محضاً..

وكما أن الأعمال هي مرآة للنفس، وتعبير عن العقيدة أو الفكرة التي يؤمن بها الإنسان، فإنها أيضاً طريقه إلى الآخرة، وسبيله إلى المصير الذي ينتظره.. فكيف تتبدّى أعمال الكافرين يوم القيامة، حيث يقف جميع الناس للحساب؟

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

المسهم

لقد ضرب الله تعالى مثلاً على تلك الأعمال بالرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف، فبددته هباءً منثوراً. هكذا سوف تكون الأعمال التي يأتيها الكافرون في الحياة الدنيا..

وتظهر الصورة في هذا المثل، مثل سائر صور الأمثال القرآنية نقية وجلية: فالرماد هشٌّ وخفيف لا يقوى على شيء، ولا يصمد أمام أية حركة تحدث فوقه، فكيف إذا فَجَأَهُ يوم عاصف تقتلع رياحه القوية العاتية كل ما قد يعترض اندفاعها، فإنها لا تكاد تصل إلى الرماد إلاَّ وتذروه جزئيات صغيرة، ثم تحيل هذه الجزئيات إلى ذرات مبعثرة، وتقذف بها إلى البعيد البعيد، حتى يصير الرمادُ وكأنه في دنيا العدم.. فمثَلُ أعمال الكافرين، كمثَل هذا الرماد، مهما تنوعت ومهما كثرت تبقى بلا أدنى فائدة أو نفع، لوقوعها باطلةً في الأصل، وفقاً لميزان العدل الإلهيّ. وهذا البطلان ينعكس ويلاً وثبوراً على الكافرين يوم الحساب، فلا تنفعهم أعمالهم بشيء، بل ترتدُّ عليهم خسراناً مبيناً، باعتبار أنَّ الفائدة المرجوة من أعمال الإِنسان لا تكون إلاَّ بثواب الله العظيم، الذي يكافىء به عباده الصالحين. وبما أن أعمالَ الكافرين لا تقبلُ يوم الحساب، فإنه لا يكون لهم أدنى ثواب.. وبذلك تذهب أعمالهم التي قاموا بها في الدنيا أدراج الرياح، كما تذهب الريح في يوم عاصف بالرماد الهش الخفيف.. وهذا ما يوجب على الإِنسان أن يتبصَّرَهُ، عند القيام بأي عمل سواء تجاه نفسه، أو تجاه الآخرين. فما كان من أعماله خالصاً لوجه الله تعالى، موافقاً لشرعه، كان مقبولاً، ونالَ الثوابَ عليه. وما كان منها لغير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو غير مقبول. وهو لن يذهبَ هدراً وحسب، بل ويجعل صاحبَهُ وقوداً لنار جهنم المستعرة، حيث يعاني فيها وطأة العذابِ الأليم..

المسهم

فهلاَّ وقف الإِنسانُ موقف تأمل ليتبيّن قيمة الأعمال التي يقوم بها، والمصير الذي سوف يؤول إليه!

وهذا المثل ينطوي أيضاً على الخصائص التي تتميّز بها أعمال الكفار. فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإِيمان، ولا تتمسك بالعروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله تعالى، تكون مفككة كالهباء والرماد، لا قوام لها ولا نظام. فليس المعوَّل عليه إذن هو العمل وحده، ولكنَّ الباعث على العمل هو أهمّ في التعويل عليه، لأن العمل حركة آلية، لا يختلف فيها الإِنسان عن الآلة إلاَّ بالباعث والقصد والغاية، فإذا كان الباعث على العمل هو الإيمان كان جزاؤه في الآخرة فوزاً عظيماً، أما إذا كان الباعث على العمل لا صلة له بالله تعالى، فإنه يذهب أدراج الرياح، ويؤدي في الآخرة إلى الخسران المبين. ومن هنا كان التعقيب على أعمال الكافرين بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي الضلال عن إدراك الحقيقة، والضلالُ عن الإِيمان، والضلال حتى عن الصلاح الذاتيّ، لأن نتائج الأعمال الضّالة ستنتهي بالخسارة المحتمة التي لا تعوض. والضلالُ البعيدُ هو أيضاً الوقوع في المهاوي السحيقة. ألا، فليقف الإنسانُ أمام مشاهد وصور القرآن الكريم، ليتبيَّن له الرشدُ من الغيّ، وليهتدي إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان.

٣ ـ أعمال الكافرين كسرابٍ خادعٍ للظمآن أو كظلماتٍ بعضها فوق بعض

يقول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

المسهم

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1].

وهذا مثالٌ آخر، يضربه اللَّهُ تعالى على أعمال الكافرين، من حيث اعتبارها عديمة الجدوى كالسراب الخادع، أو من حيث الإطار الذي تتجسَّدُ فيه وهو الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض، بدون أدنى بصيص نور، فيأتي التشبيه مطابقاً للنتائج المترتبة على تلك الأعمال.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن النصوص التي تسبق هذين المثالين فيها تبيان لبعض صفات المؤمنين وذلك في الآيات ٣٦ و٣٧ و٣٨ من سورة النور المباركة.

فالمؤمنون رجالٌ يلازمون المساجد ليوحدوا الله ويسبحوه فيها بالغدوّ والآصال، فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله، وهو ربهم الكريم، يوم الحساب أحسن من أعمالهم في الدنيا، بل ويزيدهم فضلاً من عنده، بما يوسّع عليهم من نعمة الثواب، لأنه، له الحمدُ والملك، يرزق من يشاء بغير حساب. تلك هي بعض صفات أولئك المؤمنين، وتلك هي بعض أعمالهم التي لا يريدون فيها إلاَّ وجه الله تبارك وتعالى..

وأما الكافرون فأعمالهم كالسراب لأنه لا غاية ترتجى منها إلا الغاية التي يبلغها الظمآن باندفاعه إلى سراب خادع، ليس هو أكثر من

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٩ و٤٠.

المسهم

انعكاس للشمس على أرض مستوية.. فالظمآن يحسب السراب من بعيدٍ ماءً وذلك لشدة ظمأه، وتلهّفه على قطرة يبلُّ بها ريقه. ولكنه إذا جاءه لا يجد شيئاً، إلا اللمعان الذي خدع حواسَّهُ وقاده إلى الفراغ، وخيبة الأمل. ولعلَّ الكافرين لا يختلفون عن مثل هذا الظمآن إلاَّ بتحقيق مكتسبات دنيوية سرعان ما تزول بموتهم، ليلاقوا من ثمَّ ثمرة أعمالهم خسراناً مبيناً في الآخرة. فهم يلهثون وراء متاع الحياة الدنيا، ويكدون، ويجهدون أنفسهم في الركض وراء الأعمال وحيازة الأموال والممتلكات، وكثيراً ما يكابدون المشقات والأتعاب في سبيل ذلك.. وقد يشاء العزيز الحكيم أن يعطيهم ويملي لهم فوق ما يحتسبون. ولكن ما يجمعون ليس حقيقة في صالحهم لأنه تعالى عندما يعطي الكافرين فإنما يفعل ذلك كي يمدَّهم في طغيانهم يعمهون.. ولكن عندما يأتي الحساب يوم القيامة، فإنهم لن يجدوا شيئاً من كل مكتسباتهم وإنجازاتهم في الدنيا، لأنها ذهبت منذ خلَّفوها وراءهم، بل ووجدوا عواقبها الوخيمة حاضرة بانتظارهم لأنها كانت جميعاً أعمالاً مبنية على الكفر بربهم، فوفاهم ربهم جزاء ما كانوا يعملون..

فالحساب آتٍ لا ريب فيه، لأن الله (سبحانه) سريع الحساب، فلا يشغله حساب عن حساب، بل يحاسب جميع خلقه، وعباده في حالة واحدة.. وقد سئل أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام: كيف يحاسبهم اللَّهُ في حالة واحدة؟ فقال: «كما يرزقهم في حالة واحدة»..

فأعمال الكافرين لا يؤمل منها خيرٌ ينفعهم يوم الحساب، لأن مثلها كسراب الماء الخادع، الذي لا يحظى منه الظمآن ـ وهو يلهث

المسهم

في طلبه ـ إلا على الإرهاق وزيادة الظمأ، وربما الهلاك..

وكي تزيدنا النصوص القرآنية بياناً عن أعمال الكافرين، فإنها تشبهها ـ بالإضافة إلى السراب الخادع ـ بالظلمات الداكنة في أعماق بحر لجيّ، هبت عليه الرياح العاصفة فجعلت أمواجه تتلاطم، ويعلو بعضها بعضاً وسط ليلٍ حالك الظلام، فلا يُرى فيه شيء، ولا يسمع إلاَّ أصوات الأمواج المتلاطمة، ومن فوقها سحاب متراكم، هو أيضاً قاتم الظلمة لشدة سواده.. فهذه الظلمات في جوف البحر، وعلى سطحه، وفي ثنايا أمواجه، وفي السحاب من فوقه تجعل الجو كله ظلاماً بظلام، تستحيل معه الرؤية، وتجعل التائه في وسط هذه الظلمات يعاني من الخوف والمرارة والألم ما لا يطاق، حتى أنه لا يكاد يرى يده لو حاول أن يرفعها ويقربها من ناظريه، بل وقد لا يراها من شدة الظلمة، مما يفقده كل أملٍ في النجاة.. ولو أمعنا النظر في دقة التركيب لهذه النصوص القرآنية لاستحال على أي تصور ذهنيّ أن يجسِّد هذه الحالة الرهيبة من الظلمات العاتية التي تجمعت لتحيل المساحات الشاسعة التي احتلتها إلى ليلٍ حالكٍ، قاتم السواد، تتصارع فيه الحركات، كتصارع الأمواج المتلاطمة في ظلمةٍ فوق ظلمة فوق ظلمة!..

وعلى هذا النحو تقدم لنا هذه النصوص المجيدة مثلين عن أعمال الكافرين، فهي ليست كالسراب الخادع وحسب في آثارها وعاقبتها عند الله تعالى، بل وتقذف بأصحابها في ظلمات الكفر والضلال التي تغشى العيون وتعمي البصائر، فلا يعود الكافرون يرون شيئاً من نور الحق المبين، الذي كان كفيلاً بأن يهديهم لو اتبعوه.

«ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»، ومن لم يهده اللَّهُ

المسهم

(تعالى) فما له من هادٍ. . وهكذا يضربُ اللَّهُ تعالى لنا مثلين للتدليل على المعرضين عن نور الحق، وهدي الإيمان. .

فالمثل الأول يبيّن حال من يظن نفسه أنه على شيء، ولكنه عند انكشاف الحقائق يجد أنه كان ضالاً مضللاً، وأن ما اتبع من العقائد الفاسدة، وما قام به من الأعمال المبنية على عقائده كانت بدعاً وأهواء في ميزان العدل الإلهيّ. لذلك يشبهها القرآن بالسراب الذي يظنه الظمآن ماءً.

وكما هي أعمال الكافرين فكذلك سائر الأعمال التي تخالف شرع الله التي لا تنتج أثراً نافعاً يوم القيامة. بل على العكس إن الذين تكون أعمالهم كذلك سيجدون عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ حسابهم الذي يستحقونه، وهو الخلود في نار جهنم، وبئس المصير.

أما المثل الثاني فينطبق على حال الذين عرفوا الحق، ولكنهم آثروا عليه الباطل، فتاهوا في ظلماتٍ ثلاث: ظلمة الجهل، وظلمة النفس، وظلمة المصير. . فهم لم ينتفعوا بعلمهم الذي تعلَّموه، فغدوا شرًّا من الجاهلين. وصار مثلهم كالتائه في بحرٍ لُجيّ، تكتنفه الظلمات، ومن فوقها السحب السوداء الداكنة، المتصلة بظلمات البحر حتى تسد كل منافذ الرؤية أو النور، فكانت تعبيراً عن ظلمات النفس التي يشتد فيها الكفر حتى لا تعود قابلة لأية توبةٍ، أو طلب مغفرة، أو الرجوع إلى الإيمان. .

وفي المثلين أيضاً دلالات أخرى عظيمة ومفيدة. . فذكر الماءِ وحاجة الظمآن إليه، يوحي بأهمية الماء للكائن الحيّ. وذكر البحر يبين مدى أهميته ـ في خواصه وعناصره التي يحتويها ـ في توفير الخير والرزق للإنسان. ومن هنا كان الماء هو أصل الحياة على هذه

المسهم

الأرض، كما يقول رب العالمين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. أما مثل السراب فيجعلنا نتصوّر الفراغ الذي يملأ قلب الإنسان؛ وكذلك مثل الظلمات التي نتصوَّر معها الشقاء الذي يحيق بالإنسان. وكلاهما ـ الفراغ والشقاء ـ عاملان مهمان من العوامل التي تُعجّل في فناء الإنسان.. مما يعني بالنتيجة أن للحياة مقومات لا تكون بدونها، وأن ذهاب هذه المقومات يؤدي إلى الزوال. وبتقابل الحياة والزوال، تتقابل أعمال المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يمدهم الإيمان بالنور الذي تنبعث منه الحياة، والكافرون يعانون من ظلام الكفر الذي يفرغ كل معنى للحياة. أما الغاية النهائية فإنها تتعلق بالمصير في الآخرة حيث يكون الخلود للمؤمنين في حياة النعيم، أو الخلود للكافرين في ظلام الجحيم..

فلنتأمل عظيم المدلولات والعظات التي يمدنا بها المثل القرآنيّ لكي يقرب إلى أذهاننا ما يترتب على أعمالنا من نتائج ومصائر..

٤ ـ مثل القرية التي كفرت بأنعم الله (تعالى)

يقول الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[1].

لعل من أهم الغايات التي يصبو إليها الإنسان ويعمل جاهداً لبلوغها أمرين هما: الأمان في الحياة، والاطمئنان في القلب. فإن أُوتي الإنسانُ معهما نعمةَ الرزق الوفير، فذلك فضلٌ من الله عظيم،

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

المسهم

ورحمة واسعة، يتوجب معها على الإنسان أن يعبد الله حق عبادته، ويشكره على جزيل عطائه، لا أن يكفر بالله (تعالى) ويجحد أنعمه، فيجرّ على نفسه الويل والثبور، وعظائم الأمور. ولكي تتبيَّن لنا عاقبة الكفر بأنعم الله، فإنه سبحانه وتعالى يضرب لنا هذا المثل عن قريةٍ كان الأمن يشيع في ربوعها، والاطمئنان يعمُّ أرجاءها، فتتدفق عليها الخيرات والأرزاق من كل مكان، فتنعم بحياةٍ ملؤها الرغد والازدهار، بعيداً عن العوز والجوع، وعن الخوف من غائلة الدهر، وضيق العيش.

ولكنَّ هذه القرية، بدل أن تجعل أنوارَ الإِيمان تتلألأ في ساحاتها، وأناشيد الثناء والحمد تصدح في أرجائها، تتحول عن ذلك كله إلى الكفر بأنعم الله عليها، وجحود رزقه وعطائه، حتى يجيئها حكم الله العليّ القدير، فيبدِّل رزقها بالحاجة، وكفايتها بالجوع، وأمنَها بالخوف، وطمأنينتها بالشقاء، جزاءً لأهلها بما كانوا يصنعون..

ويجسّم التعبير القرآنيّ الجوعَ والخوف، فكأنما يتلبَّسان الناس فيها كما يتلبَّسُ الثوبُ الجسم، بل ويجعلهم الله تعالى يتذوقون طعم الجوع والخوف كما كانوا يتذوقون طعم الرزق الرغيد. فلعلَّ في لذع مثل هذا الحرمان وتأثيره في النفوس ما يجعلهم يشفقون على أنفسهم، فيخافوا من سوء مغبة هذا التحوّل الذي حلَّ بهم، ويغيّروا ما بأنفسهم علَّ الله (تعالى) يغيِّر ما بهم من سوء الحال.

وَمَثلُ هذه القرية كَمَثل مكة عند بعث «محمد» ﷺ؛ فقد جعل اللَّهُ فيها بيته الحرام، وجعلها بلداً حراماً، وبلداً آمناً مطمئناً، لا يقع عليها شيء مما كان يقع على القرى المجاورة وأهلها، حيث كانوا

المسهم

يتعرضون للغزو والسلب والنهب، ويعيشون في أسوأ الظروف والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. كما أن الرزق كان يتدفق على مكة من كل مكان، مع الحجيج الآتي لزيارة الكعبة، ومع القوافل التجارية التي تقدم إليها من بلاد الشام واليمن وهي تحمل البضائع من شتى الأنواع والأصناف.. ومع أنَّ وجودها في وادٍ غير ذي زرع، وأرض جدباء لا نماء فيها ولا ثمار، إلاَّ أنه لم ينعدم، ولم ينقطع عنهم العيش الرغد، وثمرات الأمن والاستقرار منذ دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يثبته القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1]، فكان حرياً بأهلها، وقد جاءهم رسولٌ من أنفسهم، حريص عليهم، يبشر بالدين الحق، ودينُه دينُ إبراهيم الذي بنى البيت المحرَّم الذي ينعمون بجواره بالأمن والطمأنينة.. نعم كان حرياً بأهل مكة أن يصدِّقوا هذا النبيَّ الأمين، وأن يؤمنوا بدينه ويناصروه، إلاَّ أنهم بدلاً من ذلك كذبوه، وعارضوه، وافتروا عليه بالادعاءات الباطلة، وأنزلوا به وبمن اتبعوه الأذى ظلماً وعدواناً.. فكان أن حاق بأهل مكة الذل، ونزل بساحتهم الهوان، حتى أعيدوا عن الغيّ والضلال، فصدَّقوا بمحمدٍ ﷺ نبيّاً، وبالإسلام ديناً، فعادت مكة آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان..

ذلك هو المثل الذي ضربَهُ لنا ربنا الكريم عن القرية التي كانت آمنة، مطمئنة، فكفرت بأنعم الله حتى حاق بها الجوع والخوف..

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

المسهم

وهو المثل الذي ينطبق في كل حين، على أي بلدٍ ينعم بالأمن والسلام، فتبطرُهُ النعمة، ويجذبه متاع الحياة الدنيا فينسى اللَّهَ (تعالى) ويكفر بأنعمه، فكان لا بدَّ أن يذيقه لباس الجوع والخوف فتحل به الأزمات الاقتصادية، ويعم في أرجائه الخوف، وينتشر فيه الفسق وذلك بما يصنع أهله حتى يصيروا على تلك الحالة المزرية من السوء والشقاء.

الفقرة الرابعة: الفوارق بين المؤمنين والكافرين

١ ـ ليس مصير من كان مؤمناً في الجنة كمصير من كان فاسقاً في النار.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

من القواعد والسنن التي بنيت عليها الحياة وجود الأضداد، فمثلاً نجد الحق وبمقابله الباطل، والخير وفي مواجهته الشر، والعمل الصالح وعكسه الفسق والفجور، والنور وضده الظلام.. إلخ. وذلك لكي يتبيّنَ للإنسان العاقل، الباحث عن الحقيقة الطريقُ المستقيم، فيسلكه، ويحقق معاني الاستخلاف في الأرض، وفق شرع الله وعدله.. فكان طبيعياً، وفق منطوق الحقيقة، ألاَّ يكون المؤمن كالفاسق، وألاَّ يكون الذين عملوا الصالحات مثل الذين عملوا السيئات، وألا يكون بالتالي مصير هؤلاء مثل مصير هؤلاء، فلكل مأوى يأوي إليه جزاء وفاقاً بما كانوا يعملون.

---

(١) سورة السجدة، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

المسهم

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات، هم العاملون على منهاج الله تعالى، والاستقامة على الشرع القويم، ولذلك فإنهم يختلفون كلياً عن الفاسقين المنحرفين عن طاعة الله تعالى، الشاردين عن منهاجه وشرعه. واختلافهم يكون بيّناً في الطباع، والشعور، والتفكير والسلوك، وبالتالي فلا يستوون في الجزاء لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تكون مصائرهم واحدة في الحياة الآخرة، التي هي الحيوان لو كانوا يعلمون. فأما المؤمنون الذين عملوا الصالحاتِ فلهم جنات المأوى نزلاً، وهي مما يُعد عادة للضيوف من منازل، تكريماً واحتراماً، وزيادة في الاعتبار. وأما الذين فسقوا، وعاثوا في الأرض فساداً فمأواهم النار التي كلما همّوا بالخروج منها، في محاولة للفرار من حريقها، أعيدوا فيها، ورُدُّوا إلى قعر الأتون من جحيمها، وقيل لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1] مع ما يحمل ذلك من التقريع والتوبيخ، ومن الدفع والتعذيب. فنتصورهم وقد أُمْسِكَ بهم، لمنعهم من الهرب والإفلات، ثم يُقذفون في المهاوي السحيقة من نار جهنم وبئس المصير. وقد نزل قولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ في علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه والوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط في كلام كان بينهما (افتخر فيه الوليد على علي)[2].

٢ ـ الكافر كالأعمى والأصمّ، والمؤمن كالبصير والسميع

يقول السميع العليم: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

(٢) مصحف الشروق، مختصر تفسير الإمام الطبري، دار الشروق، القاهرة، ص٤٦٩، ط٢٧ شوال ١٣٩٧ هجرية.

المسهم

وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

لقد بيّنت النصوص التي سبقت هذه الآية الكريمة في «سورة هود» بعض صفات الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله ـ وهو الإسلام ـ ويطلبون السبل المعوجة ـ وهي الكفر والضلال ـ ومن ثم فهم بالآخرة يكفرون. . وقد عددت النصوص المجيدة بعض صفات المؤمنين الذين يعملون الصالحات، والذين هداهم ربهم إلى الحق المبين فاطمأنت قلوبهم إلى رحمة الله ورضوانه. . وزيادة في التوضيح والإفهام فقد أتت هذه الآية المعبّرة لتدل على الفوارق بين الكافرين والمؤمنين من خلال التميز بين حال الإنسان الأعمى الأصم، وحال الإنسان البصير السميع. وذلك مما هو واقع ومشاهد في الحياة الإنسانية، حيث نلتقي يومياً ببعض المعاقين العاجزين عن النظر أو السمع، والذين يختلفون تماماً عن الأصحّاء من ذوي الأبصار والأسماع، فلا يستوون في الحركة، ولا يتماثلون في العمل. .

فالأعمى والأصم هو المثال عن الكافر الذي عميت بصيرته عن الإيمان، وسدت أذنه عن سماع الحق. والبصير والسميع هو المثال عن المؤمن الذي اهتدت بصيرته بنور الإيمان، وامتلأت نفسه من سماع الحق. فكلاهما لا يستويان في الصفات والمزايا مثلما لا يستوي الأعمى الأصم، والبصير السميع في الخلقة والتكوين، وفي الحركة والسلوك.

فإذا كان هذا ما يراه الناسُ في حياتهم مثلاً حسيّاً ومشاهداً، أفلا يتذكّرون إذن قول القرآن وما ضربَ الله تعالى فيه من مَثَلٍ لينبّه ويحذّر

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٤.

المسهم

من مغبة الكفر الذي يجعل الكافر كالأعمى والأصمّ؟ ومتى عرف الكافرون ذلك فكيف يستمرون على كفرهم، وآثارُهُ على مصيرهم في الحياة الأخرى أعظمُ بلاءً من العمى والصَّمم في هذه الدنيا؟ ولكنَّ كثيراً من الناس لا يتذكرُون ولا يتعظون.

٣ ـ مثل رجلَين لأحدهما أملاك يفاخر بها، وصاحبه يعظه ألاَّ يكفر بالذي خلقه وأنعم عليه

يقول سبحانه وتعالى:

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[1].

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٣٢ ـ ٤٤.

المسهم

إنه لواضح أن المثل القرآنيّ كما تناول الإِنسان في تكوينه، وفي خاصيتين من خصائصه الهامة ألا وهما النظر والسمع، على ما تبيّن لنا في الآية ٢٤ من سورة هود[١]، فإنه يتناول في هذه الآيات من سورة الكهف مصدر الرزق للناس ـ وهو أمر حيويّ وأساسيّ في الحياة ـ وما يتميزون به عن بعضهم البعض في التفكير والاعتقاد تجاه واهب الرزق ومعطيه. وهذا ما تبيّنه الأمثال في القرآن الكريم، من خلال تصويرها لنماذج حيّة عن الإنسان في سلوكه وانفعالاته النفسية، وفي نمط عيشه، وكل ما يتعلق بكيانه ووجوده.. فمن الناس وفقاً للتصوير القرآنيّ من تغلب عليهم طباع الغرور، والاعتزاز بالامتلاك والجاه، فيظنون أن ما وصلوا إليه في دنياهم هو من صنع أيديهم، دون التفكّر بأن الله هو الوهاب الكريم، وهو الذي يعطي العبد، ويمنُّ عليه بجزيل النعمة والفضل، لأنه سبحانه وتعالى هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وأنه لا رادَّ لما يعطي ويقدر.

وهذا ما يعظنا به القرآن الكريم، وبمثل هذا التوجيه والتربية، وهو يضرب للناس مثلاً عن رجلين أحدهما أغناه ربه العزيز من ملكه، فظن أن غناه من عنده، وثانيهما هداه مولاه الكريم إلى الإيمان، فحاول أن يهدي صاحبَهُ وأن يحذّره من مغبة تفكيره العقيم، إلاَّ أنّ وعد الله الحق كان قد سبق على ذلك الجاحد، فذاق وبال أمره بسبب كفره وغروره.

ويبدو من سياق الآيات المبينة أن الصحبة قد جمعت بين رجلين لأحدهما جنتان تحفلان بالحدائق الغناء، والنخيل والأعناب

---

(١) هود: مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع، هل يستويان مثلاً، أفلا تذكرون.

المسهم

والزروع، وهذا ما جعله يزهو بنفسه ويفاخر بملكه، فجاء بصاحبه في أيام عزّ الموسم وراح يطوف به في أرجاء هذا الملك الواسع ليريَهُ ما عنده. وهنا يبدأ الحوار الذي يكشف عن طبيعة كل من الرجلين..

فقال لصاحبه وهو يحاوره:

- لعلك ترى ما في هذين البستانين من الثمار والأرزاق، وما يحفُّ بهما من الظلال الوارفة، والنخل المعطاء. ثم أرأيت إلى هذا النهر الذي تتدفق مياهه غزيرة فتروي هذه الحدائق وما فيها من الزروع على اختلاف أشكالها وأنواعها؟ فكل ذلك وهذه الأرزاق والممتلكات هي ما يجعلني، يا صاحبي، أكثر منك مالاً، بل وأعزَّ نفراً ـ بأولادي وأهل بيتي ـ وكله من صنع يديَّ، ومن قوة إرادتي وعزيمتي وما لديَّ من علمٍ وخبرة.. وهو ما جعلني قادراً على تحقيق هذا الغنى الواسع، وجني هذه الثروة الطائلة..

ثم انعطف ذاك الرجل المتباهي من بين الأشجار إلى ممر، ودلف مع صاحبه إلى جنته الأخرى. وبعد أن دار به في أرجائها، التفت إليه وقال:

- ما أظن أن تبيد وتفنى كل هذه الممتلكات وهذه الثمار.. وما أظنّ أن الساعة قائمة، وأن هنالك بعثاً وحساباً، بل إنه البقاء والخلود هنا!.. فانظر إلى كل هذا الرونق من حولك، فهل يمكن لهذا أن يذهب إلى غير رجعة؟

ثم أخذته العزّة بالغنى، والغرور بالملك، فأردف قائلاً:

- ولو، فرضاً، سوف يكون هنالك قيامة ونشور، وأُرَدّ إلى ربي ـ كما تعتقد أنت، وتردد دائماً على مسامعي ـ فإنني سوف أُعطى

المسهم

عندما تأتي الساعة خيراً من أملاكي هذه، وسوف أكون أكثر غنىً ووجاهة، وعزاً.. وأظنُّ أن عطائي في هذه الحياة الدنيا، هو السبب ليكون لي ذلك الفضل الأكبر على غيري في الآخرة، وإلا فلماذا أكون على هذه الحال، وأنت أو أيُّ غيرك ليس له مثل ما عندي؟..

وكان صاحبه رجلاً مؤمناً، ويعلم يقيناً بأن المال لله تعالى، فلا يملك إنسان عقاراً ولا نقداً، ولا ينال عزاً ولا منصباً إلا أن يشاء الله ذلك، فالملك لله، والعزة لله.. وهو (جل جلاله) يرزق من يشاء بغير حساب، ويجعل الرزق أو الملك أو السلطان تجربةً وابتلاءً لعباده، بقدر ما يجعله نعمة ومنةً عليهم..

ولذلك، ومن منطلق إيمانه، قال لصاحبه:

- أكفرت وجحدت بأنعم ربك الكريم عليك؟ إنَّ الله تعالى خلقك من ترابٍ، ثم من نطفةٍ، ثم سواك رجلاً على هذه الصورة التي آتاك فيها قوة الفكر، وملكة الإرادة، وحرية الاختيار، وأمدَّك بكل الأسباب التي جعلتك تنشىء ما تنشىء، وتجني ما تجني، ثم وهبك فضلاً عن الملك الذي أقامك عليه وكيلاً زوجة وأولاداً تقرُّ بهم عينك، وتستوي بوجودهم حياتك.. فهل فكَّرت بأنّ كلَّ ذلك من عطاء الله القدير، ومن فضل ربك الكريم؟!.

أجل يا صاحبي إن كل قواك الفكرية والجسدية، وكل قدراتك وطاقاتك هي من خلق الله تعالى.. وكل ما أنت عليه هبةٌ ومنَّةٌ منه (جلت عظمته). فإن ظننت أنك قد أوتيتَه على علمٍ منك فأنت واهمٌ ومخطىء، وكافرٌ بالنعمة وجاحدٌ للفضل!.

المسهم

ثم تابع الرجل المؤمن يعظ صاحبَهُ قائلاً:

- لكن أنا هو الله ربي، آمنت بالله (تعالى) إلهاً واحداً أحداً، فرداً صمداً، ولا أشرك بعبادة ربي أحداً، لأنه لا شريك له في الملك، وهو على كل شيء قدير.

فيا صاحبي، لولا إذ دخلت بساتينك وحدائقك الغناء، وقلت: ما شاء الله قد أعطاني، ولا قوة لعبدٍ إلا بالاستعانة بالله، فهو القوي المتين، ويهب القوة لمن يشاء من عباده. ولو لم يمنحني ربي قوة، وصبراً واحتمالاً ما مكّنني من شيء، وما كنت أنشأت حرثاً، ولا غرساً، ولا سقاية.. فلا أحد يملك قدرة على تفكير، أو عمل إلا بإذن الله ربه.. أجل، لو دخلت وقلت ذلك لكان خيراً لك وأبقى، ولكنك ـ ويا للأسف ـ لم تفعل لأنك لم تؤمن أنه هو الله ربك، وربُّ العالمين!..

ثم يخلص هذا المؤمن بالقول لصاحبه:

- وإنك إن رأيتني أقل منك مالاً وولداً فهذا من أمر الله، فهو سبحانه الذي قدَّر لي رزقي، وخلق لي ذريتي. ولا أملك إلا الحمد والشكر والثناء على ربي لما قدَّر لي، ووهبني من عطاء جزيل، ونعمة كريمة..

وما أدراك يا صاحبي أن يعطيني ربي خيراً من جنتيك في عاجل دنياي، فليس الغنى حكراً على أحد، ولا الفقر ملازماً لأحد إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين. أما الآن، فماذا أقول لك، إن أيَّ إنسانٍ يظنُّ أن ما لديه هو من كدّه وجهده، وأن ليس لله تعالى فضل عليه، فليحذر غضب الله، فهو وحده يرزق من يشاء ويقدر. فإن كنت تدَّعي بأن هذه

المسهم

الجنائن لن تبيد، فما ظنك بربي أن يرسل عليها الصواعق الماحقة، فتصبح جرداء كأنها لم تغن بالأمس، وأن يجعل أرضها صلدة ملساءَ لا يستقر فيها ماء، ولا ينبت فيها ثمار. . ثم ما ظنك بربي أن يأمر ماء هذا النهر الذي يتفجر بين بساتينك، أن يختفي في باطن الأرض، فمن يأتيك بماء غيره إن أصبح غوراً لا أثر له؟.

فاتقِ الله ربي وربك، وارجع إلى نفسك، فحاسبها على ما فيها من الغيّ والغرور، وإلا وقعتَ في المحظور!. .

ذلك كان ظن الكافر بأنعم ربه، الجاحد بفضله عليه. .

وذلك كان نصح المؤمن له. .

ولعلَّ الكافر لم يفلح معه نصح ولا إرشاد، بل ظلَّ ـ على ما يظهر ـ معانداً، مكابراً بأنَّ علمه وفنَّه ومقدرته هي التي أنشأت تلك البساتين والحدائق، وجهده هو الذي جعلها تؤتي أكلها. . ولكن ها هو يرى بأم العين عاقبةَ سوء الظن بربه العزيز القدير.

فقد أحيط بكل ما يملك، إذ بين عشية وضحاها وجد أن كلَّ شيء قد ذهب، لأنَّ الله القادر الجبار أمر الصواعق فأتت على ما عنده، ولم تذر منه شيئاً. . فلما رأى ما حلَّ بثمره أخذ يقلب كفيه، نادماً، متحسِّراً على ما أنفق. أما أشدّ ندمه فكان مما فرَّط بحق ربه تعالى وهو يقول: «يا ليتني لم أشرك بربي أحداً» فقد جعلته المأساة المروعة يدرك أن ادعاءه بقوته، وغروره بماله هو شرك بالله تعالى، وأيقن أن الأمر كله يعود إلى الله تعالى وحده، وعدم الإيمان بهذا اليقين هو الشرك بعينه. .

وطبعاً لم يكن لديه، ولا لأحد أية إمكانية على أن يعوِّضه

المسهم

خسارته الفادحة، فلا الأبناء الذين كانوا مدعاة مباهاته، ولا الأهل أو العشيرة أو غيرهم الذين كانوا يبجّلونه على غناه، بل ولم تكن فئة غيرهم من الناس تملك أن تمدَّه بسبب من الأسباب التي تمكّنه من استعادة ما فقد، لأن الأسباب بيد الله تعالى، وهو وحده الذي يقدر على تسخيرها لخدمة عباده. ولذلك لم تكن للكافر بأنعم ربه «فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً» في النهاية..

وللتدليل على أهمية هذا المثل الذي ضربه تعالى للتمييز بين تفكير المؤمن وتفكير الكافر، فإن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قد وقف على معانيه السامية فقال: «عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1]. فإني سمعت الله تعالى يقول بعقبها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[2]. وعجبت لمن اغتمَّ كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. فإني سمعت الله تعالى يقول عقبها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. وعجبت لمن مُكِرَ به كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[5]. فإني سمعت الله عز وجلَّ يقول بعقبها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[6]. . وعجبت لمن خاف من زوال النعمة وأحبَّ بقاءها، أو لمن أراد سَعَةَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٨٨.
(٥) سورة غافر، الآية: ٤٤.
(٦) سورة غافر، الآية: ٤٥.

المسهم

الرزق كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1]، فإني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾[2].

وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن من مقاصد الأمثال في القرآن الكريم تربية الإنسان إيمانياً، وتهذيب خلقهِ إنسانياً، فلا يأخذه الغرور بادّعاء العلم والمعرفة، ولا يسلبه الملك نعمة الاعتراف بفضل ربه عليه، وذلك مهما زيَّنت له هذه الحياة الدنيا من علمٍ واسع أو ملك عامر. فمن الخير للإنسان أن يحمد ربه تبارك وتعالى ويشكره على ما يمدُّه به من النعم، أو يفيض عليه من العطاء، وأن يؤمن بحق أنه وحده تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو سبحانه الذي يجزي ويثيب على النوايا والأفعال. فالدنيا دار ابتلاء وفناء، والولاية والملك لله الحق. فسبحان الله، وجلَّ شأنه عما يدَّعي الجاحدون والمنكرون.

٤ ـ لا يجعل الله (تعالى) المؤمنين كالمفسدين، ولا المتقين كالفجار

يقول الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٠.

(٣) سورة ص، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

المسهم

هل أدرك الإِنسانُ حقيقة خلق السماء والأرض، وما بينهما من خلق قد يعلم الإنسان بعضاً منه، أو قد لا يعلمه بتاتاً، وهل فكّر أنَّ كل شيء محكوم بأمر الله العزيز القدير؟ يكفي أن نسوق هنا، وللتدليل على أحقية وعظمة خلق السماء والأرض، ما توصل إليه علم الفلك، من اكتشاف حديث مذهل وهو التقاط النور الآتي من مسافة اثني عشر مليار سنة ضوئية، حتى ندرك ما معنى خلق السماء والأرض، وحتى نعلم ما معنى خشوع القلب لذكر الله الخالق العظيم..

وإن من الحقائق التي يقوم عليها هذا الخلق أنَّ قول الله سبحانَهُ وتعالى هو الحق الذي لا جدال فيه، بخلاف ظنِّ الذين كفروا الذين يدَّعون بأن خلق السماء والأرض وما بينهما، كان عبثاً. فقوله تعالى في قرآنه المبين ينفي هذا العبث، ويدحضُ زَعْمَ أولئك الكافرين وظنَّهم الماكر الخبيث، بل ويهدّدهم على هذا الظن الكاذب بالعذاب في النار، وما يحيق بهم في قعر جهنم من الويل والثبور وعظائم الأمور..

وكما لم يخلق الله تعالى السماء والأرض عبثاً، فكذلك لم يجعل سبحانه المؤمنين مثل الكافرين، فكان حقاً ألاَّ يكون مصيرُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كمصير المفسدين في الأرض. وألاَّ يكون مصير المتقين كمصير الفجار!... ذلك بأنَّ الله تعالى خلق الأنفس، ووهبها ملكة العقل والتمييز، ثم منحها قابلية التمكين، أي القدرة على القيام ببعض الأعمال ليعرّضها بعد ذلك للمنافع العظيمة بالتكليف.. وعلى أساس هذا التكليف أعدَّ لها الثواب والعقابَ، فكلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة.. وصارَ من المستحيل أن يجعلَ المولى الكريم أولئك الذين انتفعوا بما أودع اللَّهُ تعالى فيهم من نفوس خيرة

المسهم

أقبلت على الإيمان، وعلى عمل الخير، كالذين تاهت نفوسهم عن الحق، فعاثوا في الأرض فساداً، وزرعوا الشرَّ في كل مكان.. كما أنه من المستحيل أن يجعل المتقين، الذين يسيرون على دروب التقوى والهدى، كالذين اتخذوا لأنفسهم الفجور والفسوق منهجية لا يحيدون عنها، فلا يطيعون اللَّهَ ورسله، ولا ينشرون العدل والخير بين الناس، بل دأبهم الركض وراء أهوائهم ومصالحهم، وتأمين مقاصدهم وغاياتهم حتى ولو كان الطريق إليها القهر والتسلط والجحود، وكل ما يخالف سنة الله في خلقه.. ولذا فإنه سبحانه أنزل القرآن الكريم كتاباً مباركاً، لا ريب فيه، هدىً للمتقين، بحيث يكون المجالُ مفتوحاً أمام جميع الناس ليقرأوه، ويفهموه، ويتفكَّروا بآياته، وما تدل عليه من السنن والأحكام والعظات، والقيم التي تقود إلى خيرِ الناس في الدنيا والآخرة.. وليذَّكر أولو الألباب ويذكِّروا الناس بما تحمل الأمثال في القرآن من دلالات ومقاصد، فلا يتوقفون عند ظواهرها، بل ينفذون إلى أعماقها فتهديهم جميعاً سواء السبيل، وإلاَّ كان مثل أهل الكفر والعلم كَمَثَل من له بقرة درور لا يستدرُّها، أو مهرة نَثور[1] لا يستولدها.. أو كمثل من له خيرات وممتلكات وأرزاق وفيرة لا ينتفع بها، بل يقيم نفسه حارساً عليها ويترك للآخرين جنيَ ثمارها وفوائدها..

وعن الحسن بن عليّ عليه السلام أنه قال: «قد قرأ هذا القرآن أناس لا علم لهم بتأويله. حفظوا حروفه، وضيّعوا حدوده حتى أنَّ أحدهم ليقول: واللَّهِ لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً؛ وقد واللَّهِ

(١) نثور: كثيرة الإنجاب.

المسهم

أسقطه كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلُقٍ ولا عمل». اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، ومن القراء الموقنين. والحمد لله رب العالمين..

٥ ـ مثل المرأة الكافرة ومثل المرأة المؤمنة

يقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1].

من المتعارف عليه أن الصحبة الطيبة تورث العشرة الطيبة، وأن الصحبة السيئة تورث العشرة السيئة، ولكن يبقى عمل الإنسان هو الأصل، وهو الأساس في ميزان العدل الإلهيّ حيث يحاسَب كل فرد على ما فعل وعمل. فزوجات نبيّنا محمد ﷺ أوصاهنَّ اللَّهُ تعالى ـ في آياتٍ خاصة بهنَّ ـ ألاَّ يكنّ كباقي النساء، لمركزهنَّ من رسول الله ﷺ. أما هنا، وفي هذه الآيات الكريمة من سورة التحريم، فإن الله تعالى ضرب مثلين عن الكافرين والمؤمنين لإبعاد الشبهة عن الأذهان حول مصاحبة الأنبياء والمرسلين التي لا تغني شيئاً إن لم ينتفع بها الإنسان، لأن المقياس في النوايا والأفعال هو الإيمان

(١) سورة التحريم، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

المسلم

والطاعة. وهذا يعني أن مصاحبة الرسول مع معصية الله، أو مخالفة رسوله قد تكون عاقبتها أشد ويلاً على صاحبها ولو كان أقرب الناس إليه رحماً كامرأته أو ابنه أو عمه، وما إلى ذلك من ذوي الأرحام والقربى. وبالمقابل فإن مصاحبة الكافر مع طاعة الله ورسوله لا تحجب رضوان الله (تعالى) ومغفرته بل قد تزيد في أجر الإنسان وثوابه، ولا سيما إذا رافقها الألم والعذاب..

ولبيان أن العيش مع رسل الله أو ملازمتهم، حتى في البيت الزوجيّ قد لا تغني الإنسان من عذاب الله، فقد ضرب تعالى للناس مثلاً امرأتين كافرتين كانتا زوجتين لرسولين من رسل الله، ومثلاً آخر امرأتين مؤمنتين كانت إحداهما زوجاً لكافر، والأخرى أمّاً لنبيّ كريم، وذلك ليكون تأثير المثل في النفوس أقوى، ودلالته على الغاية أشد.. فالمثال للنساء الكافرات كانت امرأة نوحٍ، وامرأة لوطٍ اللتين خانتاهما في الدين فلم تسر كل منهما على خطى زوجها النبيّ ومنهاجه في العقيدة والعمل؛ بل وعمدت كل منهما للوشاية بزوجها عند بني قومه الذين يقاومون دعوته إلى دين الله. فامرأة لوطٍ عليه السلام مثلاً تآمرت مع الكفار على أن توقد النارَ على سطح المنزل كلما أتى غريب يريد زوجها لكي يبعدوا الناس عنه، ويحولوا دون هدايتهم على يديه.. وهذا ما حصل بالفعل عندما بعثَ اللَّهُ ثلاثة من الملائكة على صورة رجال لكي يحققوا أمره تعالى في قوم لوط المفسدين. فما إن دخلَ أولئك الملائكة على لوط ضيوفاً، حتى سارعت امرأته وأوقدت نارها علامةً للقوم بالهجوم على بيت زوجها، والاعتداء على ضيوفه. وكان ما كان وأُهلك أولئك القوم في تلك الليلة بالذات. ومثل هذا الفعل من امرأة لوط عليه السلام وصفه تعالى بأنه خيانةٌ، لأنه كان يصبُّ في

المسهم

مساعدة الكافرين ضد النبيّ المرسل، فهو خيانة للدعوة إلى الله، وبذلك كان كفراً صراحاً، وليس خيانةً من نوع البغي أو الزنى مع رجلٍ آخر، إن حاول أحد أن يفسّر الأمر على هذا النحو دسيسةً وافتراءً. فالخيانة، في مفهوم القوانين الوضعية، والشرعية لها مدلولات عديدة، فيقال الخيانة العظمى ويقصدون بها خيانة الوطن، ويقال خيانة الواجب الوظيفيّ، ويقال خيانة السر (أي بإفشائه) ويقول الله تعالى في سورة الأنفعال ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]... وغيرها من مدلولات الآيات التي تدل على الخيانة، وهي مدلولات صحيحة في أعراف الدين وأهل الدنيا. وبهذه المدلولات، بل وأبعد أثراً كانت خيانة امرأة النبيّ نوح، وخيانة امرأة النبيّ لوط عندما خانتاهما في أمر الدعوة التي يحملان؛ أي لم تؤمنا بعقيدة التوحيد، وبقيتا على الكفر. ولذلك ضرب الله تعالى بهما مثلاً للذين كفروا.. وإن زواجهما من النبيين لم يغنِ عنهما شيئاً، بل على العكس زادَ في ذنوبهما وآثامهما، لأنه كان الأولى بهما أن تؤمنا بدعوة زوجيهما، وتعيناهما على نشر هذه الدعوة، كما فعلت خديجة بنت خويلد ﵂ التي كانت أول امرأة آمنت بنبوة زوجها محمد ﷺ، وبذلت كل ما تملك من الأموال، واستعملت كل ما كانت تتمتع به من النفوذ للوقوف إلى جانب زوجها النبيّ المبعوث، والإيمان بدينه والعمل على نشر هذا الدين.. وذلك الكفر من امرأة نوح، وامرأة لوط عاقبته حكماً العذاب الشديد.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

المسهم

وسوف يقال لهما يوم الحساب: ادخلا النار مع الداخلين.

وضربَ اللَّهُ (تعالى) مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ـ آسية بنت مزاحم ـ التي اهتدت إلى الإسلام، فعبدتِ الله تعالى مسلمةً، طائعة مختارة، بعيداً عن ترهات وثنية زوجها فرعون، وكفره هو والملأ من قومه. فقد عاشت في بيت ذلك الطاغية الجبار، الذي ادَّعى بأنه «ربهم الأعلى»، ولكنها كانت في قرارة نفسها تهزأ من ادعائه الربوبية، وتسخر من سفاهة أحلامه، حتى ظهرت حقيقتها لزوجها فرعون، فنهاها عن ذلك لأنها من سلالة العائلة المالكة، وشريكته في الملك. إلاَّ أنها لم تنتهِ، فقد كان إيمانها راسخاً وثابتاً، يملأ قلبها، فلا يمكن بالتالي، وهي المؤمنة الصادقة أن تتخلَّى عن عبادة الله العليّ القدير من أجل ملك زائل، ودنيا فانية. ولذلك فقد ثبتت آسية بنت مزاحم على يقينها وإيمانها بربها تعالى وهذا ما أغضب فرعون وأخافه.. وقيل إنه ربط يديها ورجليها بالحبال وشدَّها بأربعة أوتاد، وأمر بإلقائها في حرِّ الشمس اللاهب، وعلى صدرها صخرة كبيرة. فلما أحسّت بدنو أجلها وأيقنت بأنها ستموت في العراء، قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فاستجابَ اللَّهُ تعالى لدعوتها وأماتها على الإسلام، وطاعة الله، ونجّاها من كفر فرعون، وظلم قومه..

وفي هذه الآية قطع الله (سبحانه) طمع كل مَنْ ركب المعصية، وهو يأمل أن ينفعه صلاح غيره من الأنسباء أو الأقرباء، وأخبر أن معصية جبابرة العباد هي واجب على الطائعين، وأنه يوم الحساب لا ينفع مال ولا بنون، ولا صحبة، ولا أي شيء، إلاَّ من أتى الله بقلبٍ سليم، ملؤه الإيمان والطهر، وكان قد عمل صالحاً في الحياة الدنيا.

المسهم

والمثل الآخر للذين آمنوا يتبدّى بحياة مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها، وعفّت عن كلّ حرام، فخلق سبحانه ابنَها عيسى في بطنها من غير أب، ونفخ فيه من روحه. . ومريم ـ عليها السلام ـ قد صدقت بكلمات ربها، أي بشرائعه وبكتبه المنزَّلة فكانت من القانتين المطيعين، الدائبين على طاعة الله تعالى.

فالآيات الكريمة اشتملت إذن على ثلاثة أمثال: مثل للكافرين، ومثلَين للمؤمنين. فأما مثل الكافرين فتضمن أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسله، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحمة نسب أو صلة مصاهرة، أو أي سبب من أسباب الاتصال. لأن جميع الأسباب تتقطع يوم القيامة، إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده أو على يد رسوله. فلو أن القرابة أو المصاهرة أو الزواج، مع عدم الإيمان وعدم العمل الصالح، ينفع في شيء لكانت نفعت الصلة التي كانت قائمة بين نوحٍ ولوط عليهما السلام وبين امرأتيهما، أي صلة الزوجية. ثم إن صلة العمومة لم تنفع أبا لهبٍ الذي كان عمَّ النبيّ ﷺ؛ كما لم تنفع صلة البنوة ابن نوح عليه السلام الذي عصا أباه وغرق في الطوفان. فأبو لهبٍ وابنُ نوح ظلا على كفرهما، ولم يؤمن الأول بدعوة ابن أخيه، ولا آمن الثاني بدعوة أبيه. ولم يُغن محمد ﷺ عن عمِّه شيئاً، ولم يُغن نوح عن ابنه شيئاً، كما لم يغنِ كل من نوحٍ ولوط عن امرأته شيئاً. .

وأما المثلان للمؤمنين فهما: مثل امرأة فرعون، ومثل مريم بنت عمران.

أما المثل الأول فيبيِّن أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية العاصي لا تضر المطيع شيئاً في

المسهم

الآخرة، وإن تضرر بها في الدنيا. كما يحدث، أحياناً كثيرة، في اتصال الإنسان مع الكفرة الفاجرين. وهو الاتصال الذي يعتبر بحد ذاته ضرراً للمؤمن، على أن يكون في قرارة نفسه مؤمناً حقّاً، وأن يعمل بوحي هذا الإيمان كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً أي كلما لم يكن فيه أذية من الكافرين.. كما هو الحال مع امرأة فرعون، فقد كانت ترى كفر زوجها، وطغيانه وشروره.. ولكنها في قرارة نفسها كانت مسلمة صادقة الإيمان، فاتصالها به لا يضرها شيئاً طالما أنها لم تفعل فعله. هذا مع الإشارة بأن الإسلام الذي بلّغه محمد ﷺ للناس قد منع على المرأة المؤمنة المسلمة أن تبقى على عهدة زوجها الكافر، وأتاح لها مفارقته حتى تحفظ إيمانها ودينها، وهذا ما حاولت امرأة فرعون المؤمنة أن تفعله، فكان جزاؤها القتل على يد زوجها الكافر..

وأما المثل الثاني للمؤمنين فكان مريم بنت عمران عليها السلام. التي لا زوج لها مؤمناً كنوح أو لوط عليهما السلام، ولا زوج كافر كفرعون..

فيكون السياق القرآنيّ قد بيّن الصلات التي يمكن أن تقوم بين الناس، وأهمها علاقات ذوي القربى، أو الصلاتُ التي يقيمها الإنسان بينه وبين ربه. ويبرز ذلك في الأمثال القرآنية على النحو التالي:

١ ـ **المرأة الكافرة** التي لها صلة بالرجل المؤمن الصالح.

٢ ـ **المرأة المؤمنة** الصالحة التي لها صلة بالرجل الكافر.

٣ ـ **المرأة المؤمنة** العذراء التي لا صلة لها بأحد من الرجال، لا من المؤمنين ولا من الكافرين، بل علاقتها بربها تبارك وتعالى.

فالأولى لا تنفعها صلتها وسببها. والثانية لا تضرها صلتها ولا سببها. والثالثة لا يضرها عدم وجود صلة أبداً مع العباد.

المسهم

وفي هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يربط العلاقات الإنسانية كلها تقريباً بالإيمان، فضلاً عن أنَّ في هذه الأسرار ما يناسب سياق السورة كلها، فإنها سبقت في ذكر أزواج النبيّ ﷺ لتحذيرهنَّ من تظاهرهنَّ عليه، وأنهنَّ إن لم يطعن اللَّهَ ورسوله، ولم يردن الدار الآخرة، فإنه لن ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ اتصالُهما بالنبيَّيْن الكريمين.

الفقرة الخامسة ـ الشرك وظلم المشركين لأنفسهم

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] وهذا الشرك بالله، أو هذا الظلم العظيم جاءت الأمثال في القرآن المجيد لتبيّنه بأروع الصور التي تأخذ بمجامع القلوب. وقد وردت في الآيات المباركة التالية..

١ ـ من يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2].

إنه تحذير من رب العالمين لعباده المتَّقين، بل هو الأمر المطلق بالنهي التام الجازم عن الرجس الذي هو دنسُ النفس، بصورة مطلقة؛ والنجسُ من الأوثان، وإحدى صوره ما كان المشركون يفعلونه عندما

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٣٠ و٣١.

المسهم

يذبحون أضحياتهم عند الأصنام. فهذا هو اجتنابُ الرجس أي عدم عبادة الأصنام.. و«اجتنبوا قول الزور»، أي الكذب، وتزوير الحقيقة لإظهارها على غير واقعها التي هي عليه، حتى تكونوا بهذا الاجتناب ـ إن فعلتم ـ سائرين على الطريق المستقيم، الذي هو سبيل الله الذي لا عوج فيه، غير مشركين به، لأن الشرك بالله ـ وعلى أية صورة أتى ـ دنسٌ يصيب العقول، ويلوِّث القلوب، ويشوب نقاء النفس وطهارتها، تماماً كما تشوب النجاسةُ الثوبَ والمكان.. فكل شهادة غير شهادة «لا إله إلا الله»، وكل عبادة غير عبادة الله الواحد القهار، وكل كذب على الله، أو تغيير للحقائق التي يريدها الله، وإظهارها على غير واقعها يكون افتراءً على الله، وشركاً به.. وكذلك فإنَّ كل اعتقاد أو تفكير أو مقولة بخلاف عقيدة التوحيد إنما هو ضربٌ من الشرك المذموم، الذي يزلُّ الإنسان باتِّباعه زللاً فادحاً، ويرتكب من جرائه أكبر خطيئة أو معصية في حياته، لأن الشرك بالله أمر عظيم، وعظيم جداً.. من أجل ذلك يشبِّه لنا النص القرآنيّ الإنسان الذي يشرك بالله كأنما سقط من شاهقٍ، من هذا السماء، من فوقنا، الذي لا أحد من الخلق يعرف مدى علوه وأبعاده، فتتلقفه الطيور الجوارحُ، لتمزّق لحمه إرباً إرباً، وتكسّر عظامه قطعاً قطعاً، ثم تبتلعه في حواصلها، أو تذري أجزاءه في كل ناحية.

قال ابن عباس: «يريد تخطف لحمه».. وقال الزجاج: «أَعلَمَ اللَّهُ سبحانه أن بُعْدَ من أشرك بعبادته عن الحق كبُعْد من خرَّ من السماء فاختطفته الطير، فتمزَّق مِلَعاً في حواصلها».

ثم تأتي الصورة الثانية لمن يشرك بالله، فكأنما عصفت به الريح الهوجاء العاتية، وهوت به في مكان عميق، بعيد الغور لا قرار له، فلا

المسهم

يكون له ثمة أملٌ في نجاة، لأنَّ الهلاك محتومٌ عليه عندما تهوي به الريح في مكان سحيق.

فالآية الكريمة ترسم لنا مشهداً مرعباً لمن يشرك بالله جل وعلا. وتتبدَّى في هذا المشهد سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها، وخاصة عند بدء اللفظ (بالفاء) وعند عرض المنظر (بسرعة الاختفاء)، وهي صورة قرآنية صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث لا قرار له، ولا نجاةَ، بل ضياع في العدم كأنه لم يكن أبداً.

فتأمل صدق هذا المثل ومطابقته لحال من يشرك بالله، ويعبد سواه، ويستعين بغيره.. ثم انتبه إلى أنك تجد في هذا التشبيه أمرين:

أحدهما: أنه تشبيه مركّب لأنه يُشبِّه من يشرك بالله تعالى بالرجل الذي تسبب في هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة، ولأنه يصور حاله بصورة من خرَّ من السماء فاختطفته الطير في الفضاء ثم مزقته مزقاً في حواصلها. أو عصفت به الريح، وهوت به في أوديةٍ سحيقة، بعيدة الأغوار.

وثانيهما: أنه من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالممثَّل به. وعلى هذا يكون قد شبَّهَ الإيمان والتوحيد في علوهما وسعتهما وشرفهما بالسماء، ثم ربطهما بها لأنها هي مصعدهما ومهبطهما.. ثم شبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين، من حيث وقوع الهلاك، ومن حيث تأكد الخسران. وقد كنَّى بالطير التي تخطف أعضاءه وتمزقها كل ممزق عن الشياطين التي تغريه وتقوده إلى مظانِّ هلاكه. فكل شيطان يستولي على جزء من تفكيره واعتقاده، كما لكل طير مزعة من لحمه وعظامه.

المسهم

أما الريح التي تهوي به في مكان سحيق فهي هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكانٍ وأبعده عن الحق، وهو المكان الدون الذي تغطيه ظلمة الكفر والشرك.

٢ ـ مثل الأوثان والأصنام في هوانهم كمثل الذباب في ضعفه

يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

إنه النداء العام، البعيد الصدى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾!...

فإذا أصاخَ الناسُ السمعَ للنداء وجدوا أنهم أمام مَثَلٍ عامٍ يُضرب للعظة، والتذكرة والتنبّه من الغفلة، وليس للتمثيل على حالةٍ خاصة، أو مناسبة حاضرة. وهذا المثل الذي يجب أن يستمعوا له يضع قاعدة، ويثبت حقيقة: فأما القاعدة فهي أن الحق حق، والباطل باطل، فعبادة الله تعالى هي الحق، وعبادة غيره من مخلوقاته هي الباطل. وأما الحقيقة فهي أن تلك المعبودات من دون الله تعالى لا تقدر على أي خلقٍ، مهما كان شأوه كبيراً أو صغيراً، حتى ولو كان ذباباً، وكلاهما ـ القاعدة والحقيقة ـ يقررهما قول أصدق القائلين؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾..

فيا أيها الناس: إن جميعَ مَن تدعون من دون الله تعالى، من

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٧٣ و٧٤.

المسهم

معبوداتكم السخيفة المدَّعاة: من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وظواهر كونية وغيرها التي تزعمون أنكم قادرون على الاستعانة بها، وبقواها، سواء لطلب الرزق، أو العافية، أو السلطان، أو لأي شيء غيره تبغونه.. فإن دعوتكم لها، وطلب العون منها باطل ولا جدوى منه، لأنها كلها أوهام بأوهام، لا تقدر على شيء من ذلك، حتى ولو كان خلق ذباب، وحتى لو اجتمعوا له وتعاونوا عليه، مع أن الذبابَ هو أصغر وأحقر الكائنات الحية في دنيا المخلوقات.. ذلك أن خلق هذا الكائن الصغير إنما يستوي مع خلق أكبر كائنٍ وأضخمه في عالم الحشرات والحيوان، فهو يستوي تماماً مع خلق الجمل أو الفيل، أو مع خلق الزرافة أو الثور الوحشيّ.. أما عجز من تدعون عن أن يخلقوا ذباباً فلأن الخلق من صفاتِ الله تعالى وحده، وقد تفرَّد سبحانه بالسر المعجز الذي يهب الحياة، فسيَّان في خلقِهِ الذبابُ أو النملة، وسيان في خلقه الحيوان أو الطير أو الإنسان فكلهم في سر الخلق سواء عند الخالق العظيم.. ولذلك كان اختيار الأسلوب القرآنيّ للذباب الصغير الضعيف من أجل إظهار العجز وعدم الاستطاعة. فالعجز عن خلق شيء حقير يؤكد الضعف، بل وانعدام الصفة عن أي خلقٍ آخر.. وهذا من بدائع الأسلوب القرآنيّ العجيب، بل ومن روعة الإِعجاز في المثل القرآنيّ..

ويخطو التعبير القرآنيّ خطوةً أوسع في إبراز الضعف المزري لمعبوداتهم وذلك عندما يقول تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾. الآلهة المدَّعاة ليست عاجزة عن خلق ذبابٍ فحسب، بل إنْ يسلبها الذبابُ شيئاً، لا تملك أية قدرةٍ على استرجاعه.. والمرادُ هنا ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ هو أن الذباب

قد يكون سبباً للقضاء على الحياة، لما يحمل، أحياناً، من ميكروبات السل أو التيفوئيد أو الدوزنطاريا أو رمد العيون أو غيرها، ولما ينتج عنها من أمراضٍ خطيرة قد تشوّه من تصيبه، وقد تقضي عليه.. أفرأيت لماذا اختار المثل القرآنيّ (الذباب بالذات) ولم يستعمل مثلاً لفظة «السباع» بدلاً من الذباب، لأنه لو قال: «وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها» لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف، وبالثقة بدل الانهزام، هذا على الرغم من أن السباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذبابُ فكلاهما قادر بخاصيته على أن يسلب الحياة للإنسان.. ولكنه الأسلوب القرآنيّ العظيم، فتأمَّل!!..

ويسترسل المثل القرآنيّ في التصوير الموحي عندما يقول معقّباً: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فكلاهما في منتهى الضعف: الآلهة المدّعاة والذباب على حدٍّ سواء.. فإذا كانت الآلهة التي يعبدونها من دون الله عاجزة عن إنقاذ ما يسلبها الذبابُ، وهو الكائن الحقير المعروف بهزاله وضعفه، فمعنى ذلك أن تلك الألهة أشدُّ ضعفاً منه. وهذا أدلّ شيء على هوانها وحقارتها..

ويروى عن ابن عباس أن المشركين كانوا يطلون أجسام آلهتهم بالزعفران ورؤوسها بالعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذبابُ من الكوى فيأكله.. وفي هذا تصوير حسيٌّ رائع يبيِّن كيف أن الذباب كان يهزم المشركين أنفسهم عندمايريدون حماية آلهتهم، ومن غير أن يتنبَّهوا لهذه الهزيمة، أو من غير أن يجعلهم ذلك يتفكّرون بمهانة تلك الآلهة التي لا ترد عنها غائلة حشرة ضئيلة.. فكان حقاً أن يكونوا هم وآلهتهم ضعافاً لا يقدرون على شيء أراده اللَّهُ ربُّ العالمين.. ولذلك فإنَّ الذين جعلوا تلك الآلهة المهينة شركاءَ مع الله القويّ العزيز ﴿مَا

﴿قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في إشراكهم معه تلك الآلهة الكليلة الذليلة، ولا عرفوه حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، في حين أنهم يرون آثاره، وآياته، وبدائع مخلوقاته في كل شيء، وهي جميعها توحي بأن الله هو الخالق الحكيم، وأن الله هو القويّ العزيز.. وفي هذا منتهى جهالتهم وضلالهم، وجلَّ ضعفهم وهوانهم. وكان اختيار الذباب من دون سائر المخلوقات أروع مثل ينطبق عليهم وعلى آلهتهم..

٣ ـ مثل المشركين فيما يدعون من دون الله (تعالى) كمثل العنبكوت في بناء بيتها

يقول اللَّهُ تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1].

أول ما يتبيّن لنا من هذا النصّ القرآنيّ أنه يستعمل كلمة ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ للتدليل على منتهى النصرة التي كان المشركون يرجونها من آلهتهم، إذ كانوا يعتبرونها أولياء لهم. والوليّ ـ عادة ـ هو المتولّي للنصرة، فهو إذن أبلغ من الناصر، لأن الناصر قد يكون ناصراً بأمر غيره بالنصرة، في حين أن الوليّ هو الذي يتولى النصرة بنفسه..

إذن فالمعنى أن الذين اتخذوا آلهةً لهم من دون الله (تعالى) يلوذون بها، ويبتغون نصرها أو نفعها لهم، أولئك مثلهم كمثل العنكبوت التي تبني بيتاً تأوي إليه، وتلوذ به من المخاطر، في حين أن

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٤١ ـ ٤٣.

المسهم

بيت العنكبوت نسيج من خيوط رقيقة واهيةٍ لا يُغني عنها شيئاً، فلا يرد عنها غائلة برد أو حرٍّ، ولا يحميها من أدنى خطر. فهل شيءٌ أدلّ على الوهن من هذا التمثيل في طلب الحماية والاستقرار؟... فكما أن بيت العنكبوت بهذا الضعف فلا ينفعها عند الخطر كذلك ضعف آلهة المشركين، لا تستطيع لهم نفعاً عند الحاجة! ولو كان المشركون يعلمون هذه الحقيقة الواضحة، وهذه البيّنة الصريحة، لما اتخذوا من دون الله أولياء ضعافاً، حقيرين، لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً.. ولكنَّ اللَّهَ تعالى يعلم ما يدعون من دونه من الأشياء الجامدة، التافهة، لأنه هو السميع العليم، وهو الذي يمتلك زمامهم، فهو العزيز في ملكه، وهو الذي خلقهم، فهو الحكيم في خلقه..

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾. نعم إن مثل المشركين في عبادتهم لآلهة موهومة، واتخاذها أولياء قادرة على النصرة ـ كما في ظنهم ـ هو منتهى الضعف في الاعتقاد والعبادة، فمثلهم في ذلك كمثل العنكبوت في بناء بيتها الذي هو غاية في الضعف والهوان. وتلك الأمثال يضربُها الله تعالى للناس حتى يتبين لهم الحق من الضلال، والأصالة من الزّيف، ولكن لا يعقل الأمثال التي يضربها تعالى إلاَّ العالمون بحقيقتها، الذين قدروا اللَّهَ تعالى حق قدره، فآمنوا بالحق من عنده، وتركوا الشرك وأهله.

وتبقى الأمثالُ في القرآن المجيد تذكرةً لجميع الناس، وإن كان لا يعي التذكرة إلاَّ من يعلم وجه الشبه بين المثل والممثَّل به.. ولذلك استهزأ المشركون بهذا المثل إذ استعصت الحقيقة على عقولهم وأفهامهم ولم تدخل إلى قلوبهم، فقالوا: «إنَّ ربَّ محمدٍ يتحدث عن الذباب والعنكبوت». وفي هذا منتهى السخف، لأنَّ التشبيه لم يهزَّ

المسهم

مشاعرهم، والتمثيل لم ينبّه عقولهم، وما ذلك إلاّ لأنهم لا يعقلون، فهم أقلّ حظّاً من الأنعام وأضل سبيلاً. وهو شأن أهل الشرك والضلال في كل زمان ومكان، لا يعقلون أمثال الله تعالى، ولا يعلمون غاياتها الكبرى. وعلى خلافهم يكون أهل الإيمان وأصحابُ دعوة الحق، إذ يقفون أمام أمثال الله خاشعين، مصدقين، عارفين بحقيقة تلك الأمثال، وما تهدف إليه من النهي عن الشرك والإلحاد، وعن مغريات الدنيا وإغواءاتها؛ أو ما ترمي إليه من بيانٍ للقوى ومصادرها، ووجوب العمل وفق السنن الثابتة في استخدام هذه القوى، وكل ذلك حتى يتبيَّن ـ دائماً ـ الحق من الباطل، والإيمان من الشرك، والعقيدة الصحيحة من العقائد الفاسدة..

٤ ـ المشرك مثلُه كَمثلِ رجلٍ فيه شركاء متشاكسون

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

القرآن الكريم هو كتابُ الله المبين. ولقد ضربَ فيه ـ سبحانه ـ للناس من كل مثل يبصِّرهم بأمور حياتهم، وبكل ما يتعلق بالمبدأ والمعاش والمعاد، فيسيرون على نوره الهادي في دينهم ودنياهم. ولذلك كان المأمول من الناس، وممَّن اتبعوا القرآن، أن يتذكروا

(١) سورة الزمر، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

المسهم

ذلك، فيتدبروا ما فيه من أمثالٍ جامعة، شاملة، ذات معانٍ ومدلولاتٍ تحيطهم علماً بكل شيء فيه.

وهذا القرآنُ أنزلَهُ رب العالمين على قلب محمد ﷺ الذي بعثه خاتماً للنبيين وسيداً للمرسلين، وجعل رسالته أكمل الرسالات السماوية، وأتمها نعمة للناس كافة. فكان القرآن بلسان عربيّ مبين، لاعوج فيه، لأنه يحمل الحق، ويهدي إلى الحق، ليَقرَأه الناسُ باللسان العربيّ الفصيح، فيجدوا فيه حسن السبك والصياغة، وعظيم المبنى والمعنى، مما يقرّر إعجازه، ويقود إلى تقوى الله، التي تُبعد الناسَ عن المعاصي، وخاصة معصية الشرك والإلحاد..

ومن الأمثال التي ضربها الله للناس في هذا القرآن والتي تُبيِّن سوء الشرك، هذا المثل عن رجلٍ يملكه شركاء عديدون، يخاصم فيه بعضهم بعضاً، بينما هو محتار بينهم، لا يعرف كيف يوزع نفسه ليقوم على خدمتهم. وقد يكون الخدم في البيوت أقربَ من يجسِّدون هذا المثل القرآنيّ. فالخادم قد يتلقى الأوامر والتعليمات من سيدة المنزل، ومن رب الأسرة، ومن الأولاد والأحفاد.. وكلٌّ قد يكون له طلبات، على الخادم تلبيتها، وكلٌّ قد يكون له طريقته في توجيهه للقيام على خدمته شخصياً، أو على خدمتهم جميعاً.. مما يجعل هذا المسكين يضيع بين أهوائهم المتضاربة، ونزعاتهم المختلفة، لا يعرف كيف يتصرف، ولا يدري ماذا يفعل، الأمر الذي يجعله عاجزاً عن إرضاء أحدٍ منهم، لأن خلافاتهم حول خدمتهم فرقت اتجاهاته فصار بلا نفع.. ولكن هذا الخادم، أو ذلك العبد الذي يكون مملوكاً لشركاء عديدين، يختلف عن رجل آخر مثله يخضع لإرادة سيد واحد، يطلب منه ويكلفه، فيعرف ما يُطلب منه، وما يكلف به، فيؤدي واجبه بأمانة

المسهم

وسرعة، لأنه على منهج واحدٍ في المأمورية والتسيير. فهل يستوي هذا العبد المنقطع إلى سيد واحد، مع ذلك العبد المشتت بين أسيادٍ عديدين، وهل يكون مثلهما واحداً في واقع الحياة؟ إنهما لا يستويان قطعاً. وهذان الرجلان هما المثال على المؤمن والمشرك، اللذين لا يستويان في العقيدة والعبادة والتوجّه. فالمؤمن بحقيقة وجود الله تعالى، وملائكته وكتبه ورسله يسير على هدي الدين القويم، فتكون نفسه مطمئنةً، ويكون قلبه مرتاحاً، لأنه يؤمن بإله واحد أحد، ويعبد رباً واحداً، وبذلك فهو لا يضل ولا يشقى. وأما المشرك فهو الذي تتوزعه الأهواء والشكوك، وتتقاذفه الشياطين والأبالسة، وتتنازعه الرغبات والشبهات، فيضيع بينها جميعاً، ويصير مهووساً، قلقاً لا يجد راحة في التوجّه، ولا سلامةً في الطوية، ولذلك يكون محكوماً عليه بالضلال والشقاء.

أجل هذا هو الفارق بين حال المشرك الذي تتلبسه الشياطين فتقذفه إلى أتون الشرك ليضيع في الأهواء المتضاربة، والرغبات الجامحة، وبين حال المؤمن الذي يستقيم على عبادة الله الواحد الأحد، وقد هداه ربُّهُ إلى اليقين والطاعة، فكانت له من إيمانه نعمة كبرى تستحق الحمد والثناء على الهادي المنعم.. فـ«الحمد لله» حمداً دائماً إذ لطفَ بنا فعبدناه وحده، وأخلصنا له الإيمانَ والتوحيد. وهذه هي النعمة السابغة علينا وعلى جميع المؤمنين الصادقين، الذين وفقهم اللَّهُ تعالى لحمده وشكره والثناء عليه. ولكنَّ أكثر الناس لا يقرون بهذه النعمة العظيمة، فيجحدون فضل الله تعالى عليهم، ويلوذون إلى أربابٍ موهومة، فيعيشون في القلق والشقاء.. ثم إنهم يجهلون مصيرَهم في العذاب الذي ينتظرهم على عبادتهم الضالة، وجحودهم

المسهم

المنكر. ولذلك كان القرآن طريق الهدى والاستقامة، يبيّن بأمثاله حال المؤمن، وحال المشرك، ويميّز بأحكامه حقيقة الإيمان وبطلان الكفر، ولكنَّ أكثر الناس غافلون عن هذه الحقائق، لأنهم لا يلجأون إلى القرآن حتى يهتدوا بهداه، ولا ينيبون إلى الله حتى يحتموا بحماه..

٥ ـ ضرب الله (تعالى) مثلاً للناس بالموالي الذين هم بشرٌ مثل أسيادهم.

يقول العزيز الحكيم:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

من يقرأ سورة الروم ـ في القرآن الكريم ـ يجد في أوائل هذه السورة الآيات التي تحث الناس على أن يتفكروا في أنفسهم، وفي خلق السماوات والأرض. كما أنها تبيّن أن الله (جلت عظمته) ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، ولأجل مسمّى، وأنه (سبحانه وتعالى) هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن خلقه هؤلاء الناس الذين إليه يرجعون. ومثل هذه الدعوة للتفكير والتأمل في الظواهر الحياتية والكونية إنما غايتها توطين النفوس والعقول على الإيمان بأن الله هو الخالق العظيم، الذي خلق كل شيء في السماوات والأرض، وأنه هو الذي يبدأ الخلق، ويعيده وفق ما يشاء، لأنه الخالق القدير، والمدبر الحكيم.

إذن فالغاية واضحة وهي دعوة الناس إلى الإقرار بحقيقة بدء

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٨.

المسهم

الخلق وإعادته، أي أنهم يخضعون في إيجادهم، وإنشائهم، وفي تسييرهم إلى مصائرهم إلى ما يشاء ربهم العليّ العظيم. فهذا ما تهدينا إليه آيات القرآن، سواء التي وردت أو لم ترد فيها الأمثال عندما تبيِّن معنى الخلق، وعندما تدلّ على الخالق؛ ولكن المشركين كانوا يرفضون التصديق بما تبيّنه لهم هذه الآيات، ولذلك صرفوا أنظارهم عن الإيمان بهذا الكتاب المجيد، وعن الإيمان بالنبيّ محمد ﷺ الذي كان يبلِّغهم آيات الله وآثروا البقاء على الشرك، فأنزلت هذه الآية المباركة لتقرب لأفهامهم ـ وأفهام الناس أجمعين ـ معنى الشرك في عبادة أرباب متفرقة من خلال ما ضربت لهم مثلاً من أنفسهم، يحمل الاحتجاج الصاعق على المشركين عندما يقول تبارك وتعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.. أي، هل لكم أيها المشركون مما تملكون من العبيد والأرقاء من شركاء في ما رزقناكم من الأهل، والأموال والممتلكات، فأنتم وإياهم سواء في هذه المشاركة، حتى أنكم لتخافون أن يقاسموكم ما تملكون، مثلما يتقاسم الأحرار الشركاء فيما بينهم ما يملكون؟ وقد فسَّر ابن عباس المعنى الذي ترمي إليه هذه الآية فقال: «تخافون أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً».

أم أنَّ ما تملكون أيها المشركون تريدونه خالصاً لكم، فلا يشاطركم، أو ينازعكم فيه أحد، بل وتكرهون حتى مشاركة الأحرار لكم فيه؟ فإذا كان الأمر كذلك فالأولى أن تأنفوا مشاركة عبيدكم، وتستنكروا بأن يكون لهم شيء ممَّا تملكون، أو ممَّا تورِّثون، فهذا كائنٌ في قرارة نفوسكم، مثلما هو كائن في حياتكم، حيث لا يشارككم العبيد في شيء تملكونه.. إذن، والحالة هذه فكيف

المسلم

تجعلون بعض عبيد الله (تعالى) شركاء له في ما رزقكم من الخيرات والممتلكات، أم كيف تشركون هؤلاء العبيد في عبادته، فتعبدونهم كما تعبدونه؟

وتظهر روعة المثل عندما يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي أنه تعالى ضربَ لهم مثلاً بمواليهم أو عبيدهم، وهم بشر مثلهم، فكان المثل من أنفسهم أي من جنسهم، ومع ذلك يستعظمون أن يكون هؤلاء المماليك شركاء لهم في أشياء مادية، ثُمَّ لا يستعظمون أن يجعلوا أشياء جامدة، حقيرة شركاء لله (تعالى) فيتخذونها آلهة وأرباباً تقربهم زلفى إلى الله، أو يتخذونها آلهة وأرباباً من دون الله!.. إنهم لا يجيزون أن يشاركهم عبيدهم في أرزاقهم، ويجيزون لمخلوقات الله ـ عز وجل ـ أن تشاركه في بعضٍ من صفاته؟ فأي حكم خاطىء هو هذا، وأي نظر قاصرٍ ينظرون به إلى حقائق الأمور؟.

وهذا من جميل الأمثال التي تفصّلها الآيات لأصحاب العقول النيّرة، المتحررة من الجهل والضلال، ومن التبعية والتقليد، والتي تعقل الحقائق الواقعية، وتدرك النتائج السليمة التي تتوصل إليها.. ولذلك كان تفصيل الآيات في القرآن الكريم لقوم يعقلون معانيها، وكان أيضاً ضرب الأمثال لقوم يقفون على أبعادها ومراميها، كي يفقهوها ويتدبروها..

٦ ـ لله المثل الأعلى وللذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ

المسهم

مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

تبين هذه الآيات الكريمة بعض معتقدات الجاهلية الحمقاء، وبعض عادات المشركين السيئة النكراء مما يستوجب غضب الله (تعالى) وسخطه..

فقد كان المشركون يفترون على الله كذباً بما ينسبون إليه من الولد؛ إذ كانوا يتوهمون بأن الملائكة هم بنات الله، بينما في الحقيقة ليس الملائكة إلا عباداً مكرمين، يعملون بأمر ربهم، ولا يعصونه، بل هم دائمون على تقديسه، وعلى عبادته، لا يملون، ولا يفترون..

وقد نزَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه عما كانوا ينسبون إليه من تجسيد، فهو (جل جلاله) لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الذل، فتعالى الله عما يصفون علواً كبيراً، وخسيء من ينسبون للخالق العظيم ما ليس من صفاته، وما لا يليق بعزته وجلاله. وليس ما كانوا ينسبون إليه ـ سبحانه ـ من البنات إلا دليلاً على تقديرهم الجاهل، وعلى حقارة نفوسهم، وسفاهة أحلامهم.. كانوا ـ بجهلهم ـ يجعلون لله سبحانه البنات، ويجعلون لهم ما يشتهون، مختارين ـ وهماً وضلالاً ـ أن يكون لهم الأبناء من الذكور، من شدة كراهيتهم للبنات وعدم الرغبة في إنجابهنَّ. كان أحدهم إذا بشر بأنثى وُلدت له، اكفهرَّ وجهه واسودَّ من جراء ما يكظم في قلبه من الغيظ والحنق، وما يخفي في نفسه من

(١) سورة النحل، الآيات: ٥٧ ـ ٦٠.

المسهم

الكراهية والبغضاء للوليدة الجديدة، وذلك على الرغم من أن كل مولود جديد هو خير للإنسان على ما يدلنا عليه القرآن الكريم باستعمال لفظ «بشّر» لأن البشارة تكون لكل خير، وحسن، وحق..

ولشدة ما كانت ولادة الأنثى تغيظ المشرك وتحزنه، فقد كان يتوارى من القوم من حوله، خجلاً من سوء ما بشر به، ثم يذهب بعيداً عنهم، ويقبع وحيداً حائراً، متردداً بين أن يترك وليدته حية فيربيها، أم يدسها في التراب ويتخلّص منها.. وهذا ما يصور تلك العادة القبيحة التي كانت تتحكم في الجاهلية بنفوس المشركين، والتي دفعتهم لأن يئدوا المولودات الجديدات عندما يبصرن النور.

أما كراهية أهل الجاهلية للبنات فمردها إلى حياتهم التي كانت تقوم على الغزو والسلب والسبي، إذ إنهم كانوا يخافون من العار الذي يلحق بهم في حال سبي نسائهم مما جعلهم يؤثرون وأد إناثهم ساعة الولادة حتى لا تجلب لهم أي عار في المستقبل. وبالإضافة إلى ذلك فإن حياتهم في الصحراء القاحلة التي تقوم على شظف العيش، وعلى الفقر والعوز، قد جعلتهم يرون في البنات عبئاً إضافياً على العائلة لأنهن لا يعملن، ولا يكسبن، ولا يقاتلن، فكان يسبب هذا الانحرافَ عن الإيمان بأن الله تعالى هو خالق الإناث، وهو الذي يتكفل بعيشهن، مثلما يتكفل سبحانه بالرزق لجميع مخلوقاته.

ولذلك فإن أسوأ ما عرفه حكم الجاهلية وأد البنات، وتفضيل الذكر على الأنثى خلافاً لسنة الله تعالى في خلقه. فهو سبحانه وتعالى قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة، فخلق الأنثى كما خلق الذكر، ولولا خلق البشر من ذكر وأنثى لما استمرت حياة الناس على

المسهم

الأرض، ولولا نظام الزوجية الذي يجمع ما بين الذكر والأنثى في العائلة الواحدة، لما بقي وجود للرجال أو للنساء، ولانتفت بذلك كل غاية من خلق البشر!.. مع أن من غايات خلق هؤلاء البشر وتكاثرهم ما يبيّنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. فجوهر هذا النظام في الخلق يقوم على الذكر والأنثى. ومن مميزاته ألا يكون تفاضل بين المرأة والرجل، ولا بين الرجل والرجل، أو بين المرأة والمرأة على أساس الجنس أو اللون أو العرق، بل على أساس التقوى. فأكرم خلق الله عند الله (سبحانه وتعالى) أتقاهم في عبادته، وطاعته، والامتثال لأوامره ونواهيه..

وذلك كله ما كان الجاهليون بعيدين عنه في المعرفة والإدراك، فاحتكموا إلى سوء معتقداتهم وإلى قساوة عيشهم، فأكرموا شأن الرجل، وحقّروا كيان الأنثى، حتى جاء الإسلام وأعاد الأمور إلى نصابها، عندما فرض الحفاظ على حياة الإنسان، وصون كرامته، ورعاية حقه بما أمر الله تعالى به، وذلك بتحريمه قتل النفس المحترمة، واعتبار ذلك جريمة بشعة، يعاقب عليها الجاني وفقاً للحدود التي تقررها الأحكام الشرعية. وكان من خلال ذلك القضاء على جريمة وأد البنات، واحترام الحق بالحياة لكل مخلوق من بني آدم.

فالإسلام هو العقيدة التي تعصم من الزلل، ومن مآثره أنه يدل الإنسان على أن الرزق من الله تعالى، فهو يرزق جميع مخلوقاته، ويرزق منهم من يشاء بغير حساب.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

المسهم

ومن مآثر الإسلام المجيدة أنه جعل الإنسان بجنسيه كريماً على ربه تعالى. والأنثى ـ من حيث إنسانيتها ـ صنو الرجل وشطر نفسه، وهي ركن أساسيّ في بناء الإنسان، وبناء المجتمع، مثلما هي عامل جوهريّ في تحقيق إنسانية الإنسان. هكذا يريدنا الإسلام أن ننظر إلى الحياة وإلى الإنسان. ولكن نظرتنا هذه لا تكون سوية ولا صحيحة إذا لم تقم على الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك كان هذا البيان القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾..

فالذين لا يؤمنون بالآخرة لهم مثل السوء، لأنهم لا يؤمنون أصلاً بالمثل الأعلى الذي هو لله تعالى. ومن صفات مثل السوء: الجهل، والضلال، والعمى والعجز.. وهي بالذات صفات الكافرين والمشركين والملحدين، فكان حقاً أن يكون لهم مثل السوء.

وكان حقاً أيضاً أن يكون لله المثل الأعلى، فقد تفرَّد بالأسماء الحسنى، وبالصفات العلى التي تجعله الغنيّ عن عباده الذين خلقهم، والعزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يمتنع عليه شيء، بل هو سبحانه الذي يجعل الأشياء في مواضعها، ووفق ما هو حق وصواب. ومن أجل ذلك فقد عاب سبحانه على المشركين ذلك السوء الكبير بإضافتهم إليه ما لا يرضونه لأنفسهم، فإذا كره الإنسان إضافة القبيح إلى نفسه للمقتضى الذي يراه فيه فكيف يجوز له أن يضيفه إلى الله عز وجل؟ تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً!

المسهم

٧ ـ عبادة المشركين لمخلوقات أمثالهم

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[1].

في هاتين الآيتين الكريمتين حجج قاطعة على المشركين، وأولاها وأعلاها شأناً أن الذين يدعون آلهة من دون الله (تعالى) هم عبادٌ أمثالهم، ومخلوقات من عداد مخلوقاته، مكلَّفون في العبادة والطاعة، ولا تمتنع تلك الآلهة المزعومة، ولا من يتعبَّدونها عن الامتثال لأمر الله فيما يشاء أن يفعل بها، لأنها وسائر مخلوقاته خاضعون لحكم التعبيد، أي التذليل. (ولذا يقال: طريق معبَّد أي طريق موطوء)، ويدل عليه أيضاً مخاطبة النبيّ موسى عليه السلام لفرعون مصر، عندما يقول له بأنَّ ما فعله ببني إسرائيل إنما كان تعبيداً لهم، بإذلالهم، وتسخيرهم لخدمته وخدمة بطانته، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2]..

ومن ثَمَّ يرمي (سبحانه) على عاتق المشركين حجةً أخرى وهي: أن معبوداتكم تلك صمّاء لا تستطيع حراكاً، فإنْ كانت آلهة كما تزعمون فادعوهم، فليستجيبوا لكم إن كنتم تظنون أنكم صادقون في زعمكم!.. ولكن خاب ظنكم وعبادتكم، فما تزعمون أنها آلهة قادرة

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٤ و١٩٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢.

المسهم

لا يمكن أن تجيب أو تستجيب، لأنها ليست أكثر من جمادات خالية من الروح الذي يبعث الحياة في الكائن الحيّ، أو أشياء معدومة من الإدراك الذي يميّز العباد من البشر عن غيرهم من مخلوقات الله الأخرى، ولذلك كانت دون المشركين أنفسهم في الخلق، بل ولا يمكن أن تصل إلى المرتبة التي فضل بها الخالق بني آدم على غيرهم من مخلوقات الأرض، عندما كرَّم الإنسان بخصائص تكوينه التي جعلته في أحسن تقويم، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

وبعد الحجة الدامغة يأتي البرهان الحسّي على هوان تلك الآلهة، فيسأل القرآنُ المشركين (ولكن بتقريع وتأنيب): هل لآلهتكم التي تعبدون أرجل يمشون بها؟ أم هل لهم أيد يبطشون بها؟ أم هل لهم أعين يبصرون بها؟ أم هل لهم آذان يسمعون بها؟ فهذه ملكات وحواس أوجدها الخالق في الإنسان، وفيكم أنتم أيها المشركون لأنكم من جنس الإنسان، فإن لم يكن لآلهتكم مثلها من الملكات والحواس فهي إذن دونكم شأناً وأدنى مرتبة، وبالتالي فعجيب أمركم أن تعبدوا من كان أدنى منكم في المرتبة والقيمة، وأعجب من ذلك أن تدعوهم من دون الله العزيز الحكيم، وأنتم ترونهم على تلك الحالة المهينة من الخلق، وعلى تلك الصورة الوضيعة من العجز!..

ولعلَّ في ذلك ما يُوهن كيد المشركين فلا يدعون من دون الله عباداً أمثالهم يستجدون منهم العون، وطلب النفع، وأولئك العباد لا يقدرون على شيء مما يقدر عليه العزيز الحكيم. فكان التوجيه منه

---

(١) سورة التين، الآية: ٤.

المسهم

سبحانه لرسوله محمد ﷺ بأن يواجه المشركين، ويبطل كل مزاعمهم وادعاءاتهم بقوله الكريم: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾..

وهذا يعني:

فإن كنتم أيها المشركون تزعمون بأنكم تدعون تلك الآلهة من دون الله ـ عز وجل ـ وتسألونها المدد والمنفعة والنصرة، وذلك بما تقدمون لها من نذور الأضاحي تذبحونها عند أقدامها، أو من نذور الحلية والكسوة تلبسونها هياكل أجسادها، أو بما تجعلونها شركاء لكم في أموالكم وأرزاقكم.. فادعوا هؤلاء الشركاء، وتعاونوا معهم على إهلاكي، ولا تمهلوني في ذلك طرفة عين. فهل يمكن أن تستجيب لكم؟!

أبداً، كما تدل عليه حقيقتها، وكما يثبته واقعها!..

والحق أيها المشركون، أن لا عاقل يمكن أن يبالي بشركائكم أولئك، لأنه يعلم مقدار حقارتها وهوانها، فليس لها قدرة على أن تهلك ذبابة، وليس لها شأن لأن تنفع أو تضر بشيء.. إن هي إلا أسماء سميتموها ما أنزل الله بها من سلطان، فكيف إذن تعبدونها وتقدسونها؟

أما أنا، فإني عبدُ الله ورسولُهُ، وأعبُدُ الله ربي، ولا أشرك بعبادة ربي أحداً. وهو سبحانه الذي ينصرني، ويردُّ كيدكم وجبروتكم عني..

وهكذا فإنَّ المثل لا يبين أن الوثنية عند المشركين من العرب كانت وثنيةً سخيفةً وحسب، ولا يصورها وثنيةً منحطة في ميزان العقل

المسهم

البشريّ فقط، بل ويحمل في ثناياه مخاطبة عقول المشركين ليوقظها من الغفلة، ويقضي على إصرارها وعنادها في متابعة الشرك بالله تعالى، ومن ثَمَّ فإنه يخاطب المشركين كعبادٍ من البشر ليخلِّصهم من العادة التي أَلِفَوا عليها آباءهم وهم يجعلون له سبحانه شركاء، فلا يعبدون مثل تلك الآلهة التي يصنعونها بأيديهم، بل يقيمون العبادة لله الواحد القهار.

٨ ـ لا ينبىء عن خذلان الآلهة المدعاة مثل الله (تعالى) الخبير بمخلوقاته

يقول الله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1].

ودائماً ينصبُّ التوكيد في القرآن الكريم على هوان عقيدة المشركين باتخاذهم آلهة مزعومة، لا تعدو في حقيقتها أن تكونَ مجرد مخلوقات مهينة في حسبان العقل والشعور لدى المؤمنين بحقيقة وجود الله تعالى، دَعْ ما يمكن أن تكون عليه بالنسبة للخالق الذي كوَّنها وأوجدها؟! ولذلك تطرح هذه الآية الكريمة البيّنة على المشركين بأن لا نفع من آلهتهم في أي أمر، أو في أي شيءٍ، فهي لا تسمع كلامهم، ولا تعي دعاءهم، لأنها جمادات صمّاء، بكماء، عمياء، ليس لها أدنى حظ من حياة الإنسان؛ ولو سمعت ـ على فرض ـ فهي لا تستجيب لهم.. لا بل إنها يوم القيامة ـ يوم يُنطقها رب العالمين ـ تتبرَّأ من عبادتهم لها، ومن إشراكهم إيَّاها مع الله سبحانه وتعالى في العبادة.. بل وإنها تستهجن كيف وصَلَ بأولئك

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

المسهم

الكفار السفَهُ والضلال إلى درجة الانحطاط العقليّ والشعوريّ حتى عبدوها من دون رب العالمين.

والتوكيد من رب العالمين لرسوله الأمين عن تنكر معبودات المشركين لهم يوم القيامة، وكفرانهم بعبادتهم، هو من علمه تعالى المغيّب الذي استأثر به وحده، بحيث كان وحده (جل جلاله) هو الخبير بمخلوقاته، العليم بمصائرهم في الدنيا والآخرة، لأنه هو خالقهم، وهو مالك نواصيهم، فكان إخباره، بما يكونون عليه في ذلك اليوم، من لدن خبير عليم، ولا يمكن أن يُنبّىء مثل خبير..

٩ ـ طلب المشركين أن يكلمهم الله أو تأتيهم معجزة كطلب الذين من قبلهم.

يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

هكذا كان قول الجاهلين، الذين لا يعلمون حقيقة بعث محمدٍ ﷺ، ولا يصدّقون بأن ربه قد أرسله بشيراً ونذيراً للعالمين، إذ قالوا: لو لا يكلّمنا الله ويخبرنا بأنه هو الذي بعثك، أو لولا تأتينا معجزة تدلُّ على صدق بعثك، لكنّا صدقناك وآمنّا بأنك نبيّ الله ورسوله!.. وفي ذلك إشارة إلى ما كان كفار مكة يطلبون من المعجزات، في حربهم الإعلامية الضروس لإظهار عجز النبيّ ﷺ وإبعاد الناس عنه. ومن قبيل ذلك: أن يُلقي إليه كنزٌ، أو أن ينزّل عليهم كتباً من السماء يلمسونها بأيديهم، أو أن يَنْزل إليه ملكٌ يشهد

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

المسلم

بنبوته، أو أن يطلب إلى الله ـ جلت عظمته ـ أن يأتيَ والملائكة قبيلاً ليروهم بأم العين.. وغير ذلك من المعجزات التي تدل على التعنت في الرأي، والجبروت في المكر. كان قولهم هذا مثل قول الذين سبقوهم من أهل الجهل والضلال، إذ قال بعض اليهود لموسى عليه السلام: «أرنا اللَّهَ جهرة». وقال بعض النصارى لعيسى ابن مريم عليه السلام: «أنزل علينا مائدة من السماء»... إذن فقد قال مثلَ قول هؤلاء المشركين من العرب أقوامٌ قبلهم، ولذلك تشابهت قلوبهم جميعاً في عدم اليقين، فلم يصدقوا أنبياء الله ورسله، ولم يؤمنوا بما كانوا يدعونهم إليه.. مع أن الأنبياء والمرسلين كانت تتنزل عليهم الآيات البيّنة الدالة، والمعجزات الظاهرة. وهذا القرآن الكريم فيه من الآيات التي تحمل الأدلة والبراهين على نبوة محمد ﷺ ما يجعلها يقيناً في القلب السليم، والنفس الصافية. ولكن ما نفع ذلك مع المشركين الذين ضلوا عن اليقين، وحرموا طعم حلاوة الإيمان؟ وإن الذي يجد راحة اليقين في قلبه، يجد في آيات القرآن الكريم مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينة ضميره، فالآيات لا تنشىء اليقين، إنما اليقين هو الذي يدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها، ويهيء القلوب للتلقي الصحيح، وذلك كله على عكس ما هم عليه هؤلاء المشركون الذين ضلوا عن الاهتداء إلى اليقين بنبوة سيدنا محمد، وتاهوا عن الإيمان وعن الشعور براحة القلوب، ولذلك كان بيان الآيات لقوم يوقنون...

١٠ ـ إنذار المشركين بعذاب صاعقةٍ مثل صاعقة عاد وثمود

يقول الله تعالى:

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ

المسهم

أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1].

إنه خطاب من الله تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ بأن يحذِّر المشركين من الكفر الذي هم عليه، فيقول لهم بلهجة الاستهجان والاستنكار ما مؤداه:

أئنكم لتكفرون بالله، وهو الخالق العظيم وتجعلون له شركاء في هذا الخلق وهو الذي تفرَّد بالألوهية والربوبية؟ فما بالكم لا تعتبرون مما في أنفسكم، ومما تشاهدون في حياتكم من عجائب الخلق، وبديع الصنع، وانتظام الوجود كله مما ترون في الأرض والسماء، ألا ساء ما تحكمون!..

ألا تعلمون بأن الله (تبارك وتعالى) قد خلق الأرض في يومين، وجعل فيها الرواسيَ من الجبال التي تحفظ توازنها فلا تميد بكم. وبارك فيها وأنزل من السماء ماءً طهوراً جعل منه كل شيء حيّ.. ومن هذا الماء ما فيه عذوبة تشربونه وتسقون به زروعكم وأنعامكم، ومن هذا الماء ما فيه ملوحة تصطادون منه أقواتاً لكم.. فكانت هذه الخيرات الوفيرة، وكلها تنم عن البركة من رب العالمين. فهو سبحانه بارك في هذه الأرض بأن جعل فيها قوامَ حياتكم، وكثَّر فيها الأقوات

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٩ ـ ١٣.

المسهم

لتنشأ العلاقات والمبادلات بين الأمم والشعوب، ممّا ينمّي سبل عيشكم، وطرائق حياتكم. كل ذلك قد قدَّره سبحانه وتعالى في أربعة أيام سواء للسائلين أو المتعجبين من كثرة هذا الخلق وتنوعه، ومن عجيب تدبيره وتقديره.

أما مدلول هذه الأيام الأربعة، من حيث الطول أو القصر، أو المدة الزمنية التي استغرقتها فهذا في علم الله (تعالى) لأن مقاييس أهل الأرض عن الزمن إنما هي ناشئة عن دورة الأرض حول نفسها التي تولِّد الليل والنهار، وعن دورتها حول الشمس التي ينتج عنها اختلاف الفصول والأحوال الجوية.. وهذه المقاييس لا علاقة لها بالزمن الذي تكونت فيه الأرض، ولا بالزمن الذي تكونت فيه السماوات السبع. ودليله ما قال أهل العلم من أن تكوين الأرض، بعد انفصال كتلتها عن الشمس قد استغرق أزماناً طويلة حتى بردت قشرتها وتصلَّبت، ثم مرت عليها عصور جيولوجية كثيرة حتى استقرت على وضعها الراهن.

وأما عن المواد التي تتألف منها هذه الأرض، وما فيها من الأقوات، فيقول أهل العلم: إن الأرض كرة تلفها قشرة من صخر، وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء، وتلف الصخر والماء جميعاً طبقة من هواء، وهي طبقة من الغاز سميكة لها أبعاد معروفة ومقدرة. ونحن بني الإنسان، ومعنا الحيوان والطير والنبات، نعيش جميعاً في هذه الأجواء التي جعلت الأرض صالحة للحياة. فمن أوكسيجين الهواء نستمد أنفاسنا، ومن كربون الهواء يبني النبات جسمه. ونحن نأكل النبات، ونأكل الحيوان الذي يأكل بدوره النبات وغيره، ومن هذا النبات ولحم الحيوان نبني أجسامنا.. فهذا كله يشير إلى تقدير

المسهم

الأقوات، ووفرة الخيرات والبركات التي قسَّمها الخالق، وجعلها أنواعاً وأجناساً لا تعد ولا تحصى، ووزعها بين مختلف أصقاع الأرض بحسب المناخ والتربة المتناسبين مع كل نوع منها. وقد تمَّ ذلك كله في الأيام الأربعة التي لا يعلم مقدارها ومعناها إلا الله تعالى.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.. والاستواء هنا لا يعني التجسيد والحركة، ولا احتواء الزمان والمكان ـ كما هي الحال في تقدير بني البشر ـ وإنما يعني القصد والإرادة أي ما أراده الله تعالى عندما جعل في كل سماء السنن التي تنتظم بها مع غيرها من السنن التي يسير عليها الكون بأسره. وعلى ذلك فإن «ثم» قد لا تكون للترتيب الزمنيّ، ولكن للارتقاء المعنويّ، لأن السماء في الحسّ أرفع وأرقى.. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.. وهذا ما يوحي بانقياد هذا الكون إلى خالقه بالطاعة والاستسلام إلى ما يشاء، وما يريد ربُّ السماوات والأرض وما بينهنَّ. ولا يشذُّ عن هذه الطاعة إلا الإنسان في إعراضه عن عبادة ربه عز وجل. كما لا يشذّ عن الخضوع التام لذي العزة والجلال إلا هذا الإنسان عندما يجعل لله أنداداً، يشركهم في عبادته، ثم لا يقبل دعوات الأنبياء والرسل التي تعيده إلى طاعة ربه، وعبادته حق العبادة، بل ينحرف عنها إلى الشرك، وإلى الكفر بالله وجحود أنعمه عليه. ولذلك كان الخطاب للنبيّ ﷺ: «**فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**»، وهو الإنذار الذي يتناسب مع شركهم، وعدم قبولهم بالحق، ولذلك استحقوا العذاب الذي أخذ تلك الأقوام الغابرة، وجعلها كالحصيد الهشيم.. فإن لم يُلاقِ أهل مكة، ومن تبعهم على الشرك، هذا العذاب في دنياهم، إكراماً للنبيّ ﷺ، ولوجوده بين ظهرانيهم،

المسهم

فإنهم ملاقوه، ولا ريب، في الآخرة. وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك أي منقلب ينقلبون.

١١ ـ ما يعبد المشركون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل

يقول ربنا تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[1].

فما أعظم هذا الإيناس من الله اللطيف الودود لعبده ورسوله محمد ﷺ، وهو يوحي إليه بأن عبادة هؤلاء المشركين فاسدة وباطلة؛ لأنهم ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم أصناماً وأوثاناً ليس لها أدنى قيمة أو اعتبار. فكانت في هذا الإيناس رحمة ربانية لنفسه الكريمة ﷺ التي لم يتسرَّب إليها شك أو مرية في فساد عبادة بني قومه، لكي لا يأسى على هؤلاء القوم، وهم يغرقون في الوثنية التي لا يريدون تركها، على الرغم مما ينذرهم به من العقاب الشديد، الذي سوف يوفّيهم ربُّ العالمين إيَّاه غير منقوص.

١٢ ـ طلع شجرة الزقوم التي يأكل منها الظالمون كرؤوس الشياطين

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٩.

المسهم

مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾
وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ
ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم
مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾
وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ
ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً
لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ
ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا
مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾
فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

يقرر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات البيّنات ما يفعله بالمجرمين، الذين إذا دعوا إلى دعوة الحق والتوحيد، وقيل لهم ﴿لا إله إلا الله﴾ يستكبرون عن هذه الدعوة، ويتبرّمون، ويستخفّون بالدعاة إليها، لأنهم لا يريدون التخليَ عن الوثنية والشرك؛ ولذلك كانوا بعد استكبارهم، يقولون: أنترك آلهتنا وما كان يعبد آباؤنا لشاعرٍ مجنونٍ لا يقيم لها اعتبارها، ويعمل على استئصال عبادتها من حياتنا؟

(١) سورة الصافات، الآيات: ٣٤ ـ ٧٤.

فتلك كانت مقولتهم عن النبيّ الأعظم محمد بن عبد اللّه ﷺ، وهم يستنكفون عن ترك آلهتهم لشاعر مجنون (كما اتهموه لتبرير استنكافهم).

ولكنَّ ذلك الاستكبار عن آيات الله تعالى، وتلك التهمة الكاذبة لرسول الله ﷺ، إنما يردُّهما اللَّهُ تعالى على أصحابهما، لبطلانهما في ميزان الحق والعدل الذي تقوم عليه السماوات والأرض فيقول عزَّ وعلا: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. أبداً أيها المشركون والمكذبون، ليس محمد ﷺ كاذباً أو مجنوناً أو شاعراً، بل إنه نبيُّ الله، وقد جاء بالحق من عند ربه، يتلوه قرآناً عربياً مبيناً، ليهتديَ به الناسُ إلى الشريعة الحقة، ويبتعدوا عن العقائد الباطلة. ومن أصول دعوته وأبرز وجوهها الإيمانُ بحقيقة الأنبياء جميعاً الذين يذكرهم القرآن الكريم، والذين توالوا على الأرض في مختلف العصور، منذ آدم عليه السلام وحتى مبعث خاتم النبيين محمد ﷺ...

فإذا كان هذا هو الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وصدَّق المرسلين الذين سبقوه، فهل يجوز تكذيبه واتهامه بدعاوى باطلة لا أساس لها من الصحة؟ من أجل ذلك كان نفي التهمة عنه، وكان حكم الله (تعالى) على أولئك المجرمين بما يصفع وجوههم، ويقرِّر مصيرهم في الآخرة، وهو يحمل عليهم بالتهديد والوعيد: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ وذلك لما كنتم تعملون في دنياكم، و﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فنعذبهم العذاب الأليم على جرائمهم المنكرة.. إنها عدالة الحق التي لا يهرب منها أحدٌ، وهي ستطالهم، وإنه حسابُ الله (عز وجل) الذي تقوم له السماوات والأرض، ويتناول أعمال الإنسان جميعاً، حتى ولو كانت مثقال ذرة من عمل الخير أو الشر. ولذلك

فإن جزاء المجرمين المستكبرين يكون على مقدار فعالهم وأعمالهم من الشرور والآثام والجرائم..

وبعد هذا البيان لحال المجرمين، يعود القرآن الكريم ليصور حال المؤمنين من عباد الله المخلصين، وما سينالون من الثواب في دار الخلود على إخلاصهم في عبادة الله الواحد الأحد، وطاعة أوامره ونواهيه سبحانه. فهؤلاء عن العذاب مبعدون، ولهم رزق معلوم من رب العالمين، فواكهُ من كل الطيبات التي لا عهد لأحدٍ بها في دنيا الأرض، خصَّهم الله (تعالى) وكرَّمهم بها في عيشهم في جنات الخلد، حيث ينعمون في تقابلهم بوجوهٍ ناصعةٍ مشرقة، وجلوسهم على سرر وأرائكَ ناعمة، بالراحة والسلام، والأمان، والرضى، والطمأنينة... ويزيدهم الله (سبحانه) من نعمائه حيث يطاف عليهم بكؤوس من خمر تُملأ من معين أنهار جارية، ظاهرة للعيان أمامهم، وتلك الخمرة بيضاء اللون، خالصة الرقة والصفاء، يتلذَّذ بها من يشربها لذةً عظيمة، إذ ليس فيها ما يعتري خمر الدنيا من المرارة والكراهة، ولا فيها غوْلٌ مما يغتال العقول ويفقد الوعيَ والصواب، أو يسبب صداعاً في الرأس، ووجعاً في البطن (يقال للوجع غول لأنه يؤدي إلى الهلاك). والشاربون لتلك الخمرة في الجنة لا ينزفون عنها، أي لا يسكرون ولا يتقيَّأون إن أكثروا منها لشدة لذتها.. وهذا بعكس خمر الدنيا التي قيل إن فيها أربعَ شوائب هي: سكرٌ، وصداع، وقيء وكثرة بول.. وهذه لا تعتري خمر الآخرة في شيء، إذ أرادَها اللَّهُ (تعالى) لذةً للشاربين من المؤمنين، من جملة ما أُعِدَّ لهم من الأطايب والملذات..

ومن أنعم الله (تبارك وتعالى) على أهل الجنة أيضاً ما عندهم من

المسهم

زوجات طاهرات، قاصرات الطرف على أزواجهن، فلا تحيد أنظارُهُنَّ عنهم لشدة الحب والتعلق بهم، على الرغم من أنهنَّ واسعات العيون، حادات النظر، ويغلب على عيونهن الحسن الذي يتكامل مع جمال الهيئة، وحشمة الأنس والمعشر، فكأنهن بيضُ النعام المستور بريشها الناعم فلا يصل إليه شيء من غبار أو ريح، أو ما قد يشيبه بشائبة «فالمكنون هو المصون». وقد جاءَ هذا التشبيه لزوجات المؤمنين ليدلَّ على مقدار ما هنَّ عليه من الجمال المصون، الخالي من كل عيبٍ أو خلل، وبما يتوافق مع الأنس والألفة، والأدب والاحترام. وكل ذلك انسجاماً مع حياة الجنة بما فيها من الطهارة والعفاف، والسموّ والرقيّ.

تلك هي حالُ عباد الله المخلصين، وهم في جنات النعيم. وإنهم لعلى تلك الحال، إذ يُقبل بعضهم على بعض، يتساءلون عما مرَّ بهم في الحياة الدنيا من مغريات شتى، وكيف هداهم الله (تعالى) لطاعته، فساروا على الصراط المستقيم، ووصلوا إلى هذا الفوز العظيم.. وفيما هم يتذاكرون ويتساءلون عما حلَّ بأهل الكفر والشرك، يقول قائل منهم: إني كان لي رفيق في الدنيا، ينكر البعث والحساب، فكان يبكّتني ويقول: إنك لمن المصدّقين حقاً بالبعث والنشور؟ وكيف تصدّق بذلك؟ فهل إذا متنا، وصرنا تراباً، وعظاماً نخرةً مفتتةً، تعود أجسامنا هذه إلى ما كانت عليه، ونحيا من جديد لنحاسبَ، وندان على ما فعلنا في هذه الدنيا؟ أنا لا أعتقد أن هذا ممكن حدوثه، لأننا بعد الموت نفنى، ونزول فلا بعث ولا حساب.

ثم يقول المؤمن لإِخوانه في الجنة: هل أنتم مطّلعون معي،

المسهم

وناظرون إلى الجحيم حتى نرى ما حلَّ بذلك القرين الذي كان يكذّب بآيات الله ووعيده؟

فيقولون له: وما حاجتنا إلى ذلك، فأمره إلى ربنا تبارك وتعالى، وقد لاقى مصيره الذي يستحقه..

ولكنَّ المؤمن يريد أن يعرف ما حلَّ بصاحبه، فاطَّلع من مكانٍ يمكن من خلاله رؤية أصحاب النار، فرآه في سواءِ الجحيم، يتقلَّب في وسط النار بأسوأ الأحوال..

قال له: تالله، إنك كدت لتردِيني وتهلكني معك في هذه النار، وأنت تكفر بربك، وتجحد آياته، وتكذب حسابه. ولولا نعمة ربي، وفضله عليَّ بما هداني إلى الحق، لكنت معك من المحضرين إلى هذا الجحيم.

ثم يعود المؤمن مقبلاً على عباد الله المخلصين، وهم يمجّدون الله ربهم، ويسبّحونه ويشكرونه على هدايته التي حملتهم إلى هذا النعيم بعد الموت.. ومما يحمدون الله عليه ما يتبيّن من قولهم: الحمد لله على ما هدانا، والحمد لله أن أحيانا فلا نموت بعدُ. إنْ هي إلا موتتنا التي كانت بعد حياتنا الأولى في دار الدنيا، وأعقبها هذه الحياة الأبدية، وقد أسبغ علينا ربنا تبارك وتعالى هذا الفضل العظيم، ورحمنا برحمته الواسعة فأدخلنا الجنة نتبوأ فيها ما نشاء، وما نحن، والحمد لله بمعذبين في مهاوي الجحيم.. وليسَ أعظمَ نعمةً، وأجل فضلاً من أن ينال المؤمن هذا الرضوان من مولاه الكريم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. فما أروعها من لفتةٍ، وردت على لسان أهل الجنة وهم يعترفون بفضل الله تعالى عليهم! أم أنها نقلة ينقل بها النصُّ القرآنيّ المؤمنين إلى تلك الأجواء في النعيم

المسهم

ليدلهم على ما يؤدي إليه ما يعملون من الصالحات في هذه الدنيا، ثم ليحرّضهم على هذه الأعمال فيعبدوا الله (عز وجل) حق العبادة، ويطيعوه حق الطاعة، ويحمدوه ويثنوا عليه بما يهديهم إليه من التصديق بكتبه ورسله، ومناصرة الحق ومحاربة الباطل، حتى ينالوا فعلاً رحمة الله (تعالى) بالهداية والفوز العظيم. . فكان حقاً وصدقاً وعدلاً: ولمثل هذا الفوز فليعمل العاملون، الذين يريدون أن ينالوا الجزاء الأوفى في دخول الجنة. ثم، وعلى سبيل المقارنة: أذلك النعيم المقيم يكون خيراً نزلاً ينزلون به أعزَّاء ومكرَّمين، أم شجرة الزقوم التى أعدت لأهل النار جزاءً موفورا؟.

وما شجرة الزقوم؟ إنها كما يقال من أخبث الشجر المرّ الذي ينبت في أرض تهامة، وقد مثَّل بها اللَّهُ (سبحانه وتعالى) على كل خبيث يستقبح الإنسان مرآه، فكيف إذا كان مجبراً على الحاجة إليه وأكله؟! إن هذه الشجرة الخبيثة قد جعلها الخبير العليم فتنة للظالمين، تحيرهم بطلوعها وسط النار، فيقولون: إن النار تحرق الشجر، فكيف إذن تنبتها؟!. . ولذلك جاء التأكيد القرآنيّ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾. أي أنها تنبت من قعر نار الجحيم، وترتفع حتى تبلغ طول ألسنة تلك النار المستعرة، وتظل على حالها، لا يصيبها أي احتراق، تعطي طلعها (أي ثمرها) كأنه رؤوس الشياطين، أو رؤوس الثعابين الكريهة السَّامة. . وما هذا التشبيه لطلع شجرة الزقوم إلاَّ لإثبات شدة بشاعته، وفداحة استقباحه في النفوس. فنحن عندما نتخيَّل رأس الشيطان، وما يبعث فينا من خوف وهلع، وبشاعة وتقزّز، فإننا نسارع إلى إبعاد تلك الصورة عن مخيلتنا، لأننا لا نطيق احتمالها، فكيف الحال إذا كانت ثمار الشجرة كرؤوس الشياطين، وكان أهل النار

المسهم

مجبرين على قطفها بأيديهم، ليأكلوا، ويملأوا منها البطون؟

أجل إن ذلك الطلع القبيح الخبيث هو ما جعله من بيده الأقدار طعاماً لأهل النار، ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[1] وطعاماً للآثمين في الدنيا: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[2].

ولقد ضربَ الله (تعالى) هذا المثل بشجرة الزقوم على طعام أهل الجحيم لتكون فتنة للظالمين الآثمين كما حصل بالفعل مع رؤوس المشركين في مكة، فحين سمعوا بذكر شجرة الزقوم، التي تكون طعاماً لهم، سخروا، وقالوا: كيف تنبت مثل تلك الشجرة في الجحيم ولا تحترق؟ فقال أبو جهل: «يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا. قال: عجوة يثرب بالزبد. والله لئن استَمْكَنَّا منها لنمزقنَّها تمزقاً».

فالآثمون هم الذين يأكلون من شجرة الزقوم، التي تغلي في البطون كغلي الماء بحرارته الشديدة. ثم إن من يأكل لا بدَّ وأن يعطش، فيروي أولئك الآثمون عطشهم وهم في النار، من ماءٍ حارٍّ يشربونه، فيختلط بطلع شجرة الزقوم فيصير شوباً يقطع أمعاءهم. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾[3] فكأنما شرابهم الحميم ليس في أصل ووسط الجحيم، بل في زاوية معينة منها، حيث يأكلون، فيهرعون إلى شرابهم، ثم إنَّ مرجعهم ومردَّهم إلى أصل الجحيم، حيث الأتون اللاهب.. أما لماذا يتقلّبون في تلك الأهوال والمصائب، ولماذا

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٦٨.

المسهم

يحيق بهم ذلك البلاء العظيم، فلأنهم وجدوا آباءهم ضالين عن عبادة الله تعالى، فساروا على مثل ضلالهم، ومضوا على التقليد الأعمى الباطل، فهم على آثارهم يهرعون، ويُدفعون إلى ذلك الضلال المبين. ومثل هؤلاء قد ضلَّ قبلهم أكثر الأولين من الأمم الماضية. مع أن الله (سبحانه وتعالى) قد أرسل لهم النبيين والمرسلين، ينذرونهم ويخوفونهم من العذاب الأليم، ولكنهم لم يرعووا ولم يرتدعوا عن الكفر، والشرك، والإلحاد والإجرام، حتى كانت لهم تلك النهاية السيئة في الآخرة، وتلك العاقبة الوخيمة في العذاب الدائم.. إلا عباد الله المخلصين من بين أقوام تلك الأمم الماضية، الذين آمنوا، واتبعوا النبيين، وكانوا في كل زمان قِلةً قليلة، من الذين نجوا من العذاب بما أخلصوا هم أنفسهم في العبادة، وبما أَخْلصَهُم لها ربهم تبارك وتعالى، فنالوا الفوز العظيم.

١٣ ـ الرسول ﷺ بشر مثل سائر الناس وويل للمشركين الذين لا يؤمنون به

يقول المولى العزيز: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

من الثابت في كتب السيرة أن أهل مكة قد عارضوا النبيّ ﷺ معارضة شديدة في دعوته، وأنهم شنّوا عليه حروباً نفسية وإعلامية واسعة كي يصدوا الناس عنه، بل ووصلت بهم الحال لأن يجاهروه بعدم الاستماع إليه، أو القبول بدينه قائلين:

لقد امتلأت قلوبنا بما نعتقد فهي مغلقة، بل وعليها أغطية ثقيلة

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.

المسهم

تمنع دخول أي جديد فيها. وفي آذاننا ثقل فلا يصل إليها شيء من أقوالك. ومن بيننا وبينك خلاف كبير يحجبنا عنك، وعن الدين الذي تدعونا إليه، فاعمل على هذا الدين، إننا عاملون على ديننا، ومناصرون آلهتنا..

هكذا كانوا يواجهون النبيّ ﷺ، ويصرّون على عدم التخلي عن معتقداتهم، وأنه إذا كان يعمل هو لدينه، فإنهم هم بدورهم يعملون على التصدي له، وعلى محاربته كي يبقوا على مكانتهم، ونصرة آلهتهم. وهو ما يدلنا عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[1].

وما كان ردُّ النبيّ ﷺ عليهم إلا بما أوحيَ إليه من ربه (تعالى) وهو أن يبيّن لهم: **إنما أنا بشر مثلكم، فلستُ ملاكاً منزلاً من السماء، ولكنَّ ربِّي تعالى قد اختارني واصطفاني، ويوحي إليَّ بالآيات القرآنية التي تهدي إلى دينه القويم، وتنكر عبادة مثل هذه الآلهة المزيفة التي قد تشترونها مثل أي سلعة، أو التي قد تصنعونها بأيديكم أو تنصبونها في بيوتكم، ثم تقومون على عبادتها!..**

ومن هدي هذا الوحي أعظكم وأنذركم: إنما إلهكم إله واحد أحد، لا شريك له في السماوات والأرض، فأقيموا له الدين خالصاً، واعبدوه حق عبادته، واستقيموا على هذه العبادة، ثم استغفروه عما أشركتم به، يغفر لكم لأنه هو الغفور الرحيم.. وويل للمشركين من أمثالكم، الذي استحبوا الضلالة على الهدى، فما ربحت تجارتهم،

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.

المسهم

وما كانوا مهتدين. فويل لهم من العذاب الأليم الذي ينتظرهم لو كانوا يعلمون!.

فهذه الآية الكريمة تبين لنا مقدار المعاناة التي كان النبيّ ﷺ يلاقيها من الإعراض عن الدعوة، ومن الإصرار من بني قومه على الشرك. ومثل تلك المعاناة الشديدة كانت تتطلب منه الصبر عليها، والاحتمال على مقتها، وإن كان عمله (صلوات الله وسلامه عليه) خالصاً لوجه الله تعالى. ومن أجل تلك المواقف الضاغطة على قلوب النبيين والمرسلين كانت دعوة ربهم الكريم إليهم إلى الصبر، والاحتمال لأن طريق الدعوة هو طريق الصبر الجميل. وأول ما يستوجبه هذا الصبر ـ فيما ينشد من انتصار الدعوة ـ تحمّل إبطاء النصر، وإبطاء أماراته وسبله، ثم التسليم للأمر الواقع والرضى بما يقدّره الله تعالى. وكل ذلك ليوفّى الأنبياء والمرسلون أجرهم بغير حساب.

الفقرة السادسة: النفاق، ومواصفات المنافقين

لا بد قبل التعرف على الأمثال القرآنية التي تبين أفعال المنافقين من التطرق إلى بعض السمات التي يتميزون بها، والتي تدل على ما تنطوي عليه نفوسهم من أمراض خبيثة لشدة ما يعشّشُ فيها من النفاق، والغش والخداع، وما تنزع إليه من الكذب والإفساد في الأرض. فانظر إلى ما يصف به الله (تعالى) المنافقين بقوله العزيز: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟

فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1].

أربع صفات من السوء يصبغ فيها المنافقين قولُ العزيز الحكيم:

- ما هم بمؤمنين..
- يخادعون الله والذين آمنوا..
- يكذبون..
- يفسدون في الأرض..

هذه الفئة من الناس قد جبلت على حب الخداع والمراوغة، وعلى الفساد والإفساد في الأرض، يتوهمون أن قدرتهم على المداهنة والتدليس، والتلبّس بالكذب والنفاق، والتذبذب بين الأهواء والمطامع... من شأن ذلك أن يحقق مآربهم وغاياتهم الرخيصة! ولكنهم ما دروا بأن الله خالقهم يزيد قلوبهم المريضة مرضاً في هذه الدنيا، ويدَّخر لهم العذاب الأليم في الآخرة!.

فقد يبدو لنا أن المنافقين على أتم الشكل والرونق بحسب الطرق التي يعيشون بها. ولكن ذلك هو ظاهر حياتهم فقط، بينما هم في دخيلتهم من أقبح خلق الله، إذ يكفي أن يمارسوا الفعال التي يمارسها الشيطان من أفانين التملق والخداع والمراوغة والكذب حتى ينقادوا إليه، ويصيروا من قبيله، ولكن في لباس بني آدم، كما تدلُّ عليه الآيات الكريمة بما تصفهم به من الصفات السيئة التي هي من صفات الشيطان فعلاً.. وليس للعباد المؤمنين، الذين يرون بنور الله، إلا أن يتلمسوا أقوالهم، ويروا فعالهم حتى يدركوا حقيقة نوازعهم

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨ ـ ١٢.

المسهم

وأهوائهم، وحقيقة نفاقهم، وأنهم أتباعٌ للشيطان، بل ومن قبيله الفاسقين!.. فمن تلك الصفات ما يزيدنا به القرآن الكريم تبياناً وذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، هم متشابهون في الصفات والخصائص كأبعاض الشيء الواحد، ومتشابهون في السلوك والحركة، يظهرون غير ما يبطنون. ومن فعالهم التي تدل عليهم: أنهم يأمرون بالمنكر ـ كالكفر، والخداع، والكذب والفساد وغيرها من الفواحش والمعاصي ـ وينهون عن المعروف ـ كالصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج وغيرها من الطاعات ـ ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، وفي كافة وجوه الحلال والخير.. نسوا الله فأعرضوا عن ذكره وطاعته، ولم يتفكروا بقدرته وببطشه، فتخلّى عنهم (سبحانه) وحَرَمهم من لطفه ورحمته، حتى صاروا بحكم المرذولين والمنسيين، فكان بعضهم من بعض تصديقاً لقوله الكريم: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ ... بَعْضٍ﴾[2]. وكل ذلك يجعلنا نستيقن ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، الخارجون عن حدود ما أنزل اللّهُ تعالى، والذين يأتون النفاق والفساد كيفما داروا، وحيثما توجهوا، وهو ما يُقبِّح وجوههم ونفوسهم!..

وبسبب ما هم عليه فإنَّ العزيز الحكيم يَعِدُ المنافقين بما يعد به الكفار، فهم سواء في نار جهنم، فيقول الخبير العليم:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

المسهم

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[1].

هذا هو وعد الله (تعالى) للمنافقين والمنافقات، وللكفار. والوعد معناه هنا التحقق، لأن وعد الله حق، ولا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، ومن هنا فقد صار المنافقون والمنافقات على مستوًى واحدٍ مع الكفار. فكم يكون النفاق مذموماً، ومحرَّماً عند رب العالمين، حتى يصبح أهلوه بنفس المنزلة مع الكفار!...

ووعدُ الله (تعالى) لأولئك جميعاً هو نارُ جهنم، خالدين فيها. وهي تحرقهم بنارها الموقدة، وعذابها الواقع، الذي ليس له دافع. وهي حسبهم جزاءً وعقاباً على ما قدّمت أيديهم.. لعنهم اللّهُ (تعالى) بإبعادهم عن رحمته، وعن شفاعة من يأذن لهم ربهم بالشفاعة يوم القيامة، حتى يبقوا في العذاب المقيم الدائم تحقيقاً لوعْد الله الحق.

هذا ويسوق القرآن الكريم أمثالاً كثيرة عن المنافقين (أو الكفار وهم مثلهم)، ومنها هذه الأمثال التي تبين أعمالهم، وأحوالهم، وأهم المواصفات التي تنطبق عليهم.

١ ـ مثل المنافقين كالذي ترك في الظلمات بعد النور، أو كالذي أحاطت به الصواعق في يوم ظلامٍ ماطرٍ.

يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٨.

ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

إنّ هؤلاء الناس، أي أهل النفاق والشقاق، لم يؤمنوا بالإسلام ديناً فيه هداية وتقوى، وشريعةً فيها صلاح وفلاح، بل آمنوا ظاهراً من القول، كما بدا منهم عندما كانوا يلقون المؤمنين، فيداهنون، ويقولون: آمنا بالله ورسوله. أما إذا خلوا إلى رؤوس الكفر وزعماء الشرك ـ ولا سيما الذين كانوا يعدون مثالاً للشياطين بما كان يدسون في النفوس من النفاق المقيت وبما كانوا يلقون على المسامع من الأكاذيب الخادعة، والأباطيل الضالة ـ فكانوا يقولون لهم: إنا معكم، ونحن على دينكم، إنما نحن نستهزىء بالمؤمنين عندما ندَّعي الإيمان إذا لقيناهم.

وهكذا يظهر المنافقون بوجهين ولسانين: يُضمرون النفاق في قلوبهم إذا لقوا المؤمنين، ثم يُظهرون بشاعة مسلكهم، إذا خلوا إلى

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٣ ـ ٢٠.

المسهم

شياطينهم، وهم يقولون لهم: إنا معكم إنما نحن مستهزؤون بأولئك القوم من أتباع محمد!.. ولكنهم ما حسبوا أنَّ الله (سبحانه) يستهزىء بهم، بل ويمدُّهم في طغيانهم يعمهون عن الحق، ويوغلون في الباطل، بحيث يجعلهم مترددين، حائرين، لا يدرون ماذا يفعلون: أيستمعون إلى نداء الفطرة الذي يدعوهم للإيمان والصفاء، أم يظلون على نفس الحال من الانقياد إلى زعمائهم، والائتمار بأوامرهم والانصياع لسلطانهم؟!

بئس مثل القوم الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فاستحبوا الكفر على الإيمان. وبئس مثل القوم الذين تاجروا بالنقيض ونقيضه، فما ربحت تجارتهم في النفاق والتردد، وما كانوا مهتدين إلى الحق، فدفعهم نفاقهم بعيداً عن نور الله، فكانوا من الأخسرين عملاً!..

ومَثَل هؤلاء المنافقين ـ وما يجرهم إليه النفاق ـ كمثل الذي استوقد ناراً في ظلمة دامسة، فلما أنارت ما حوله، فأبصر واستدفأ، وأمِنَ مما يخاف، انطفأت ناره فجأة، وحلَّ الظلام حوله من جديد، وذلك بأمرٍ من الله (تعالى) الذي ذهب بنور تلك النار، وتركه في ظلمات الرهبة المخيفة، لا يبصر شيئاً، ولا يهتدي إلى شيء.. (ونلاحظ في النص القرآنيّ أنه جمع الضمير مراعاة لمعنى الذي، فقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، حتى يكون التأكيد على حال المنافقين الذين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾)؛ فالمنافقون قد أظهروا كلمة الإيمان فعاشوا في ظل نورها، ونعموا بوارف عزها، ثم أمّنُوا على أنفسهم وأولادهم وأموالهم من الخوف فيما لو كانت الغلبة للمؤمنين. فلما انكشف أمرهم، وظهرت حقيقة نفاقهم للنبيّ ﷺ وللمؤمنين، عادوا إلى جماعتهم من المشركين، أو

عاشوا تحت وطأة المعاناة، والقلق، والحيرة والخوف وغيرها من المشاعر التي تتآكل بها أحشاؤهم فكان ذلك ظلام النفاق الذي غطّى نفوسهم الحائرة، المتعبة.. هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فسوف يقبعون في ظلمات الجحيم، وأسفل السافلين.. ولذلك وصفهم العليم الحكيم بأنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.. فهم صمٌّ عن سماع الحق، وعن الانتفاع بالحكمة والموعظة الحسنة، وسبل الهدى التي يقدمها الرسول الكريم في تبيان آيات القرآن المبين. وهم بكمٌ لا يجرؤون على قول كلمة الحق، ولا يواجهون بها شياطينهم، حتى فارقتهم تلك الكلمة فلا تنطلق بها ألسنتهم. وهم عميٌ عن آيات الله تعالى فلا يرون آثاره في ملكوت السماوات والأرض، وفي أنفسهم، وفي كل شيء من حولهم.. وفي هذا توكيد على أنهم لم ينتفعوا بالحواس التي خلقها الله (تعالى) لهم من سمع ونطق وبصر، فكأنهم ليس لهم تلك الحواس، أو كأنهم لا يستخدمونها في الهداية إلى نور الإِسلام الذي يأمرهم ربهم العليّ القدير باعتناقه واتباعه. وبذلك سيطرت الضلالة على حواسهم، وعشش البهتان في نفوسهم، فلا يرجعون إلى نور أو هداية.

وهذا المثل ـ كما يقول بعض المفسّرين ـ ينطبق على حال اليهود في معاداتهم سيدنا ونبيّنا محمد ﷺ. فقد كانوا ينتظرون بعث هذا النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، فلما بعثَهُ الله (تعالى)، وعرفوا أنه هو النبيّ الموعود، كذبوه وحسدوه، لأنه ليس من بني يهود، كما كانوا يأملون؛ ولأنه ـ وهذا الأهم ـ قد جاء بالشرع الذي فيه القصاص على السوء والفحشاء، وفيه الزجر والنهي عن الربا والخداع والدسيسة مما ألفوه في دنياهم، وجعلوه منهاجاً

المسهم

مرسوماً في حياتهم، وذلك على خلاف ما أتت به التوراة التي حُمّلوها، ثم لم يحملوها.

وعلى كل حال فإن هذا المثل القرآنيّ يبيّن لنا الأوضاع التي كان عليها المنافقون وهم يحاربون الإِسلام في الخفاء، ويتسترون في الوقت نفسه بإظهار كلمة الإِيمان. ولا يختلف دورهم يومذاك عن الدور الذي يقوم به المنافقون اليوم لإِيذاء الجماعات الإِسلامية، وما يحدثون من التعب والقلق والاضطراب داخل صفوف المؤمنين، حتى باتت الحاجة ملحة وضرورية للكشف عن ألاعيبهم، وعن دسّهم اللئيم، وهمسهم الخبيث!..

ومن أجل أن تزيدنا النصوص القرآنية إيضاحاً بأحوال المنافقين، فإنها تقدم لنامثلاً آخر يكشف عن طبيعتهم، وتقلّبهم بين الإِيمان والكفر. وتبدو صورة هذا المثل في المطر الذي ينهمر بغزارة في ليلة مظلمة حالكة تغطي الأرجاء كلها، فلا يُرى إلا البرق الذي يخطف الأبصار، ولا يُسمع إلاّ الرعود التي تقصف، والعواصف التي تزمجر. أما أشدّها هولاً فتلك الصواعق التي تنزل لتقتلع كل ما تقع عليه، وتقتل كل من تصيبه!..

وتبرز الموعظة في هذا المثل عندما نتصوَّر أناساً في وسط تلك الأهوال، وقد أحيط بهم من شدّتها، فتراهم يضعون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت من دويّ أصواتها، وشعلة نارها وهي تنقضّ من السماء على الأرض، فلا تذر شيئاً، ولا تصل إلى شيء إلا وتقضي عليه. فحالهم في وسط تلك الظلمات والشدائد القاتلة، كحال المنافقين الذين أحاطت ظلمات الكفر بقلوبهم، بعد أن ملأتها بالضلال والبهتان، وبالخداع والكذب والفساد والفسوق، فلا يجدون

المسهم

راحة في البال، ولا طمأنينة في النفس، بل يقتلهم القلق والخوف على المصير. . وهذا كله من إضلال الله لهم، لأنه ـ عز وجل ـ محيط بالكافرين علماً ومقدرة، فلا يفوته شيء من أمرهم مثلما لا يفوته شيء من أمر المنافقين في سرهم ونجواهم.

وعن معنى الإحاطة، قال الشاعر:

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقّنوا بما قد رأوا مالوا جميعاً إلى السلم

فعندما يحيط قوم أشداء ـ كما يقول الشاعر ـ بقومٍ ضعافٍ، لا يقدرون على مواجهتهم، أو الإفلات من قبضتهم، فإنهم يستسلمون لهم وينزلون على حكمهم وإراداتهم. . إذن فما بال الكافرين والمنافقين لا ينزلون على حكم الله، وحكم رسوله، والله (تعالى) محيط بهم من جميع الجوانب؟ فهو (سبحانه) القويّ، والمهيمن عليهم ـ مثل سائر خلائقه ـ وهو القاهر فوق عباده. . وهم الضعفاء، العاجزون، التائهون في ملك الله وسلطانه!. . فما بالهم لا يفقهون، ولا يستسلمون لربهم العزيز، فيتخلوا عن الكفر والنفاق، ويعودوا إلى رحاب الإيمان؟ وما لهم لا يهتدون بهدي الله، ولا يردعهم وعيده؟ أليس مشهد القابعين وسط ظلمات المطر الغزير ببرقه ورعده وصواعقه، يعطينا صورة حسية للشدة التي يحيط بها الله (تعالى) الكافرين والمنافقين في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم القيامة.

أما عن فعالهم الملتوية التي لا تستقرُّ على منهج واضح، وطريق مستقيم في تعاملهم مع الآخرين، فيصورها النص القرآنيّ بتلك الحركة الحذرة التي تنم عن الخوف والقلق في كل خطوة يخطوها أولئك الذين أحاطت بهم الظلمات المرعبة. إذ نجدهم بين دفعات الخوف

المسهم

من البرق الذي يكاد يخطف أبصارهم، ودفعات الرجاء الذي يلوح لهم كلما أضاء لهم، يحاولون المشي بضع خطوات، فإذا توقف البرق، وعاد الظلام يطبق عليهم، تأخذهم الرهبة من جديد فيقفون في أماكنهم لئلا يسيروا على غير هدى فيهبطوا في المهاوي السحيقة، ويلفهم الضياع النهائيّ..

هكذا يضرب الله (تعالى) الأمثال عن المنافقين والكافرين، لكي يظهر لنا مقدار ما يوقعهم به النفاق أو الكفر من القلق والحيرة، ومن الشدة والبلاء، وذلك على الرغم من أنهم يتمتعون بالمدارك والحواس التي تفتح أمامهم السبل لسماع الهدى ورؤية الحق، إلاّ أن النفاق أو الكفر يطغى عليها فيعطلها تماماً، ويشلّها ليحيلها بلا جدوى. ولو شاء الله العزيز القدير لذهب بسمعهم فلا يسمعون شيئاً، وببصرهم فلا يبصرون شيئاً، إن الله على كل شيء قدير. فهو سبحانه قدير على أن يذهب ليس بحواسهم وحدها، بل وأن يبدلهم، بصورة كاملة، من حال إلى حال، وفق ما يشاء، وما يريد... فسبحان الله الخالق العظيم الذي يقدر على أن يوجد المعدومات، كما يقدر على أن يعدم الموجودات!.

وهذا المثل القرآنيّ يحتمل كثيراً من المعاني.. فقد يكون قد عنى بالظلمات الكفر الذي أغلق على قلوب المنافقين حتى صارت مظلمة لا يصلها شيء من نور الإيمان، وبالرعد التخويف والوعيد بالعذاب على النفاق والكفر.. وبالبرق، الإيمان بالقرآن الذي ينير القلوب ويهديها. بينما المنافقون كانوا إذا سمعوا القرآن أعرضوا ونأوا مخافة أن يتعظوا به، أو أن تدخل حلاوة تلاوته إلى قلوبهم، فكانوا

المسهم

يهربون من سماعه، ولكنه سبحانه ختم على آذانهم وقلوبهم بسبب تلك الكراهية للقرآن؛ ولو شاء لأسمعهم وهداهم، ولكن عدم قابليتهم للهدى جعلتهم على تلك الحالة من النفاق، فكرهوا القرآن، وعصوا الرحمان!..

ونحن نرى في الآيات الكريمة مثلين أحدهما عن النار المستوقدة، والآخر عن المطر الذي ينهمر من السماء، ففي النار والماء إضاءة وإشراق وحياة. والنار هي مادة للنور، والماء مادة للحياة. فيكون الوحيُ الذي أنزل من السماء متضمناً استنارة القلوب وحياتها قبل البرق الذي ينزل من السماء حاملاً النور الذي يضيء الظلمات!، ولذلك وردت تسمية الوحي في القرآن الكريم، روحاً ونوراً. وفي النور دائماً قابلية الحياة، لأنه بغير هذا النور لا يمكن أن تستقيم حياة أو تستمر..

ويكون التقدير أن حظَّ المنافقين من الوحي كمثل من استوقد ناراً لتضيء من حوله وينتفع بها. وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فأحسّوا بنورانيته، وبالانتفاع من الانضمام إلى الجماعة الإسلامية، ولكن ـ بما أنَّ الإيمان لم يلج إلى قلوبهم ويملأها ـ فقد ذهب الله بنورهم ـ ولم يقل بنارهم لأن في النار الإضاءة والإحراق، فإن ذهبت الإضاءة بقي الإحراق الذي قد ينتفعون به ـ بينما إذا ذهب النورالهادي للقلوب، لا تبقى للإنسان أدنى فائدة من شيء، لأنَّ كل شيء، باطلٌ بدون هذا النور، ولذلك عقّب بقوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ وهي ظلمات الكفر والجهل والظلم التي تعمي البصر والبصيرة.

المسهم

وهؤلاء المنافقون الذين تحدثت عنهم الآيات القرآنية الكريمة، نجدهم متفاوتين في كل عصرٍ وآنٍ، فهم ليسوا على شاكلة واحدة في الزيغ، والمروق، والخروج على المحجة والتعاليم. فمنهم من استقى من نبع الإيمان الصافي ثم ارتد إلى الوحل يعبّ الماء الآسن الراكد. ومنهم من ظل هائماً، صادياً، سادراً في غوايتهِ، تائهاً في ضلاله بعد أن ازورَّ عن المنهل العذب، وهو منه جدّ قريب..

وفي المنافقين قال النبيّ ﷺ: «**مثل المنافق مثل الشاة العائرة**[1] **بين الغنمين، تتردَّد بينهما مرة إلى هذه ومرة إلى هذه**»[2]. وقال ﷺ: «**مثل المنافق مثل رجل في نهر يسبح فيه. فلما بلغ أن يقطعه نوديَ من الجانب الآخر، فرجع إلى ذلك الصوت، ثم نودي من هاهنا فأجاب، ثم رجع، فبينما هو في تردّده، إذ علا آذيٌّ**[3] **فأغرقه**»[4].

٢ ـ عدم جواز مجالسة المؤمنين للمنافقين والكافرين حتى لا يكونوا مثلهم

يقول الله تعالى:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[5].

فالله (جل جلاله) يحذِّر المؤمنين وينهاهم عن مجالسة الكفار، والمستهزئين بدعوتهم، ويدعوهم إلى عدم الاختلاط بهم من أجل

---

(١) **الشاة العائرة**: الحائرة بين قطيعين لا تعرف أيهما تتبع.
(٢) صحيح مسلم، رقم ٢١٤٦.
(٣) **الآذيّ**: الموج الشديد.
(٤) صحيح مسلم، رقم ١٤٩٨.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٠.

المسهم

التسلية والحديث، أو الخوض في أمورٍ قد تكون تافهة، ولا يرجى منها فائدة. ومن وحي هذه الآية حديث رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر. وإن مجالسة الفساق والمنافقين تجعلكم مثلهم في الإثم**» لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾»[1] ولآيات أخرى متعددة في هذا المعنى.

أما القعود مع الكافرين والمنافقين أو الاجتماع بهم من أجل هدايتهم إلى دين الله، والتصديق برسوله الكريم، فلا يورث الإثم، بل يُثابُ المرء عليه لأنه من أجل الحق والخير. وكذلك القعود معهم عندما يكون هنالك شأن يهمّ المسلمين كالبيع والتجارة فليس فيه ما يورث الندم بل هو تأمين لمصالح تهم المسلمين إجمالاً.. المهم ألا يقعد المسلمون مع الذين يكفرون بآيات الله (تعالى) أو يستهزئون بها، فإذا فعلوا وسكتوا دون إبداء التذمر أو الاحتجاج على الكافرين والمستهزئين فإنهم يكونون مثلهم، لأن واجبهم الدينيّ يحتّم عليهم أن يمنعوا الكفر بآيات الله (تعالى)، والاستهزاء بها.. ذلك أن أولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يكفر بها، أو يستهزأ بها، ثم يسكت ويتغاضى، ويسمّي ذلك تسامحاً أو حريةً في التعبير عن الرأي، أو حِلْماً، وسعة صدر في تقبّله ذلك وصبره عليه.. ولكنَّ الحقيقة هي الهزيمة الداخلية التي تدبُّ في أوصال المؤمن، وهو يموّه على نفسه، ويجالسهم حياءً أو استحساناً، متلبساً بالضعف والهوان..

إن الحميَّة لدين الله (تعالى) هي من مقومات الإيمان. فإذا ما

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٠٩١.

المسهم

فترت هذه الحمية، انهار بعدها كل موقف أو مناعة في مواجهة أعداء الدين. وقد تكبت هذه الحمية في أول الأمر عمداً، لكنها تهمد وتتلاشى بعد ذلك. فكان على من سمع الاستهزاء بدينه أن يدافع عنه، أو أن يقاطع المجلس وأهله؛ لأن السكوت أول مراحل الهزيمة، وهو المعبرُ بين الإيمان والكفر على جسر النفاق.

ففي الآية الكريمة دلالة على وجوب إنكار المنكَر مع القدرة، وزوال المعذرة. ومن ترك هذا الموجب مع القدرة عليه فهو مخطىء آثم. كما أن فيها دلالة على تحريم مجالسة الفساق والمنافقين من أي فئةٍ كانوا.

وعلى كل حال فإن الله سبحانه وتعالى سوف يقتصُّ من المنافقين والكافرين جميعاً. فكما أنهم اجتمعوا ـ هم ـ في الدنيا على الكفر والاستهزاء، فهو سبحانه جامعهم كلهم في جهنم، ليكون لهم العقاب على ما كانوا يعملون.

ومن ناحية أخرى، فيا أيها المؤمنون، إن أولئك الكافرين والمنافقين هم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

أجل إنهم يتربصون بكم الدوائر ويتآمرون عليكم يرجون هلاككم حتى يستريحوا منكم، ويظهروا عليكم. فإن كان لكم النصر في القتال، وهزمتم أعداءكم، قالوا لكم: ألم نكن معكم في الدين

(١) سورة النساء، الآية: ١٤١.

المسهم

والقتال؟ فأعطونا نصيبنا من الغنيمة.. ولكن إن كان للكافرين حظ من الغلبة عليكم، تركوكم، وذهبوا إليهم يقولون: ألسنا نفساً واحدة، أولم نطلعكم على أسرار «محمد» وأصحابه، ونراسلكم بأخبارهم، أوليس هذا ما نفعله لنمنع المؤمنين من أن يظفروا بكم، فاحفظوا لنا هذه المنَّة!..

ولكن الله تعالى يبين للمؤمنين بأنه سيحكم بينهم وبين الكافرين والمنافقين يوم القيامة، فيدخل المؤمنين الصادقين الجنة، ويدخل المنافقين والكافرين النار. أما في الحياة الدنيا فلن يجعل الله للكافرين نصراً، ولا ظهوراً، ولا حجةً بالغةً على المؤمنين، ولا سبيلاً آخر ما أطاع المؤمنون أوامره ونواهيه ـ سبحانه ـ وجاهدوا لنصرة دينه.

ثم يبين سبحانه وتعالى حال المنافقين وتوهمهم الخاطىء فيقول عزَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[1].

فالمنافقون يتوهمون بأنهم يخادعون الله (عز وجل)، وذلك بما يظهرون من مهادنة للمؤمنين أو مسايرة، أو بما يبدون من اهتمام بأمر الدعوة. وكل ذلك كذب ورياء. حتى إذا جد الجد، وجاءت ساعة الحزم اختلقوا الأعذار، بل وذهبوا إلى شياطينهم يتآمرون على الذين آمنوا.. فهذا هو خداعهم!. ولكن لم يفطنوا أن العليّ القدير هو خادعهم، فيتركهم يفعلون ما يفعلون، فيزدادون إثماً وجرماً، وهو (سبحانه) يجازيهم على خداعهم بافتضاح أمرهم في الدنيا، إذ يُطلع

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٤٢ و١٤٣.

المسهم

الوحيُ الرسولَ الكريم على ما يبطنون في سرائرهم، وما يتآمرون به في خلواتهم؛ ومن ثَمَّ على سلوكهم المشين، فإذا قاموا إلى الصلاة ـ مع المؤمنين ـ قاموا كسالى، متثاقلين؛ بل ولا يذهبون للصلاة إلاَّ مراءاة، ومداهنة وخداعاً. ولا يذكرون الله (تبارك وتعالى) إلا قليلاً، وإظهاراً للإيمان فقط حتى لا يفتضح نفاقهم كما يتوهمون!. ولذلك تجدهم دوماً مذبذبين، مترددين، حائرين بين الكفر والإيمان، لا ينتسبون إلى الكفار، ولا إلى المؤمنين. يتلوون في مسيرتهم كما تتلوى الأفاعي، ويتلونون في أقوالهم كما تتلون الحرباء، وليس في نفوسهم إلا النوازع الشيطانية المضللة. فكان حكم الله (تعالى) عليهم بالضلال، ومن يضلل الله فلا هادي له، بل ولا سبيل يمكن أن يرده إلى الإيمان، لأن الهدى هدى الله لمن كان أهلاً له، والإضلال منه سبحانه وتعالى للذين يسلكون طريقه.

٣ ـ تشبيه المنافقين بالخشب المسنَّدة

يقول الله تعالى:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

يخاطب ربُّ العالمين، في هذه الآيات، رسولَه الكريم

(١) سورة المنافقون، الآيات: ١ ـ ٤.

المسهم

محمداً ﷺ، ليحذِّره من خداع المنافقين وكذبهم، وذلك بما يوحي إليه من أنه: إذا جاءك المنافقون، يظهرون بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم، و ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، فهذا أمر معلوم ولا يحتاج إلى شهادتهم، بل إلى الإيمان الصادق منهم إنك لرسول الله. ثم ما نفع هذه الشهادة من المنافقين والله يعلم إنك لرسوله، فسبحانه وتعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والكافرون والمنافقون، أفلا يعلمون ذلك وأنت تنذرهم به؟ كلا، بل يريدون أن يخادعوك، ويخادعوا الله، والله ـ سبحانه ـ يشهد من عليائه، ويعلم إن المنافقين لكاذبون، فيما يشهدون به من ظاهر القول، وما يضمرون بخلافه في قرارة نفوسهم. فقد كرهوا ما أرسلك الله به، ولكنهم اتخذوا أيمانهم التي يقسمون بها لتصدقهم جُنَّةً يتسترون بها، لكي يأمنوا على أنفسهم وأموالهم، بينما هم ينشطون، بعيداً عنك، في صد الناس عن سبيل الله، والافتراء على دينه بالكذب والخداع. وهذا من أسوأ الأعمال في دنياهم، وأسوأ ما يلاقون في آخرتهم.

ذلك أن المنافقين كانوا يبدون الاستعداد لمناصرة رسول الله والخروج معه، ثم يذهبون ويكيدون له مع أعدائه، كما أنهم كانوا يخذّلون المؤمنين، ويحرضونهم على التقاعس عن القتال بما يخوفونهم به من الموت. ومرادهم من وراء ذلك كله بث روح الشقاق والنزاع فيما بينهم، حتى يصرفوهم عن واجبهم في الجهاد. فتلك الأعمال كلها كانت سوءاً بسوء ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أما منتهى السوء في أعمالهم فكان أن آمنوا في البداية ـ وقد يكون ذلك الإيمان باللسان فقط ـ ثم كفروا بنفاقهم، وهم يظنون أنهم

المسهم

يخادعون الله والذين آمنوا، وبسبب ذلك أغلقت منافذ الإيمان في قلوبهم، فهم لا يفقهون آيات الله تتلى عليهم، ولا يستمعون إلى القرآن سماع تدبّر، ولا يطيعون الرسول بما يأمرهم به طاعة صدق.

أما في ظاهر الحال فهم يبدون مختلفين عما تنطوي عليه نفوسهم. فإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم بما أودع فيها الخالق من حسن الصورة، والمهابة؛ وإن يحدِّثوا تسمع لحديثهم المنمق، بما يبرعون فيه من ذلاقة اللسان، وطلاوة الكلام.. فكانوا كما وصفهم القرآن المبين ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ إلى الحائط.. فقد تبدو عامرة ومتينة، ولكن سرعان ما يُكتشف أنها متآكلة من داخلها، وأنَّ السوس ينخر فيها، وهذا ما يجعلها هشة لا تلبث أن تنكسر، وتتفتت لمجرد لمسها!.

هكذا حال المنافقين: إن ظاهرهم قد يكون معجباً لناظره، ولكن باطنهم أبعد ما يكون عن ذلك. فهم إن دُعوا إلى قتال أظهروا بأساً وشدة، ولكنهم فعليّاً يحجمون عن المشاركة فيه، خوفاً من الخطر على حياتهم، لأنهم يحسبون أن كل صيحة للقتال هي عليهم وحدهم، وأن كل هجوم يستهدفهم دون غيرهم، متناسين كل شجاعة وبسالةٍ للمؤمنين، وهم يهاجمون العدوَّ، أو يصدّون هجومه.. وما وصفُ حالهم ذاك في الحقيقة إلاَّ تعبيراً عن قلقهم النفسيّ، وخوفهم من الإقدام على أية مخاطرة. لا بل تراهم يحاولون الابتعاد عن القتال بأية طريقة من طرق الغش والخداع، أو اللجوء إلى الخيانة، وذلك كله خوفاً على المصير. ولذلك قيل: «المريب خائف». وهذا ما يجعلهم، كما يقول رب العالمين، هم العدو الفعليّ للرسول وللمؤمنين، فينبِّه سبحانه وتعالى إلى الحذر منهم، وبألاَّ يأمنوهم

المسهم

بشيء.. ولكن مع التعقيب الذي يحمل التوبيخ والتقريع لهم بقوله العزيز: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. وهذا القول منه (عز وجل) هو جزاؤهم لأن من قاتله الله فهو مقتول لا محالة، ومن غالبه فهو مغلوب حتماً. وقد حق عليهم القتل، والغلبة والقهر بما كانوا يؤفكون، وبما كانوا يتوسلون من الرياء والنفاق.

٤ ـ مثل المنافقين في نصرة إخوانهم الكافرين كمثل الشيطان عندما يتبرّأ من الكافر

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

يأتي الله (سبحانه وتعالى) في سورة الحشر ـ وفي آيات كثيرة من سور كتابه المبين ـ على ذكر المهاجرين ـ من أهل مكة ـ الذين تخلوا عن الأهل والديار والممتلكات حباً بالله ورسوله؛ كما يأتي على ذكر الأنصار، الذين تبوَّأوا الدار والإيمان في المدينة، قبل هجرة المسلمين والرسول إليها، فلما حلّوا بينهم أحسنوا وفادتهم، وأحبوهم حبهم لأنفسهم، بل وكانوا يؤثرونهم على أنفسهم في كثير من الأشياء حتى ولو كانوا بحاجة إليها.

كما يبين ربُّنا تبارك وتعالى حال المؤمنين التابعين، الذين جاؤوا من بعد المسلمين الأوائل فساروا على خطاهم، وكان من شمائلهم الكريمة أنهم يستغفرون ربهم (تعالى) لأنفسهم، ولإخوانهم الذين سبقوهم في طريق الإيمان.

وليس إبراز تلك المزايا والصفات النبيلة للمؤمنين الذين تربطهم الأخوة الإسلامية عبر سلسلة الزمان والتاريخ، فيَسْمُون بعقيدة التوحيد، والإخلاص لله ورسوله، إلاَّ لإظهار الفوارق والاختلافات الكبيرة في الجوهر والشكل بينهم وبين الكفار والمنافقين.. فالذين آمنوا ساروا على هدى الله، وأطاعوا الرسول، وحملوا الإسلام مشعل هداية للحق، لأنه الدين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور. أما أهل الكفر والشرك فقد تألبوا ضد النبيّ ﷺ منذ ظهور الإسلام في

(١) سورة الحشر، الآيات: ١١ ـ ٢١.

المسهم

مكة، وحاربوه بكل الوسائل المتاحة التي كانوا يملكونها في ذلك الحين. فلما كانت الهجرة، وظهر النفاق في المدينة، تعاهد الكفار والمنافقون على نصرة بعضهم البعض، والوقوف جنباً إلى جنب في مقاتلة المسلمين، فتنزَّل الوحي يبيّن لرسول الله تآمر أولئك الأعداء، والوعود الكاذبة والأماني الخادعة التي كان المنافقون يمنّون بها إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب في نصرتهم ضد المسلمين.

ويتوجَّه الخطابُ من الله (تعالى) إلى النبيّ ﷺ بآيات كريمة، مبيِّنة بما مؤداه:

ألم تَرَ - يا محمد - إلى الذين نافقوا - من الأوس والخزرج - فدخلوا في الإسلام لا حباً بالهداية، وإنما لأغراض ونوازع دنيوية هي أبعد ما تكون عن الإيمان بهذا الدين، إذ يقولون لإخوانهم الذين كفروا بدينك من يهود بني النضير:

- لئن أخرجتم من دياركم وأموالكم لنَخْرُجَنَّ معكم. فنحن لا نطمع أصلاً في البقاء تحت حكم «محمد»، ولا نطيق طاعته، كما لا نطيع أحداً من أتباعه فيكم أبداً! ولئن قاتلوكم لننصُرُنَّكم، ولسوف نمدُّكم بالمال والأنفس، وبكل ما نملك من السلاح والعتاد، فنحن وإياكم سواء في السَّراء والضرَّاء. ولكن تلك أقوالهم بأفواههم، فهم كاذبون ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، بما يمنّونهم به من وعود زائفة، خادعة، لأنهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾..

فهذه حقيقة كذبهم، بما يعدون به إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب (اليهود)، لأنهم في الواقع، لا يخرجون معهم إن أخرجوا من ديارهم، ولا ينصرونهم إن قوتلوا، ولئن نصروهم - افتراضاً - فسوف

المسهم

يولون الأدبار، فور وقوع القتال، وبذلك فلن تكون للموعودين ـ وهم هنا بنو النضير ـ أية نصرة، أو مساعدة لا من المنافقين، ولا من أبناء عشيرتهم من اليهود، فتقع الطامة الكبرى عليهم.

وتبيّن لنا الآيات المجيدة ما حَصَلَ فعلاً بين المسلمين وبين بني النضير من اليهود. إذ لمَّا وقع المسلمون في الضائقة، بعد معركة أحد، وما عقبها من الأحداث، رأى المنافقون واليهود في المدينة أن الفرصة مؤاتية لضربة قاضية على «محمد» والمسلمين، فدبروا مؤامرة لاغتيال رسول الله ﷺ، إلا أنَّ ربَّه العليّ القدير أوحى إليه بتآمرهم عليه، فبعث إليهم الرسول يأمرهم بالخروج من المدينة، لأنهم نقضوا عهده، وقطعوا الميثاق الذي أمَّنهم فيه.. ولكن صلافة بني النضير كانت أكبر من أن تجعلهم يطيقون الرضوخ لأمره، وخاصة بعدما حرَّضهم عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول على عدم الخروج، ووعدهم بأن ينصرهم مع بني قومه من الخزرج في مقاتلة المسلمين، إذا أقدموا على قتالهم.. وحاصرهم المسلمون في ديارهم، فلم يقدِّم لهم ابن سلول المنافق، ولا أبناء ملتهم من اليهود أي عون أو مساعدة لفك الحصار عنهم. فلما وجدوا أنفسهم وحيدين، ولا نصرة لهم من أحد، نزلوا على حكم الله ورسوله، وخرجوا من ديارهم وخلّفوا وراءهم جميع ممتلكاتهم..

هذا الحادث الذي حصل في تلك الحقبة التاريخية هو ما تثبته الآيات القرآنية، لتنفذ منه إلى تبيان أوضاع المنافقين، والذين كفروا بالإسلام من أهل الكتاب، أي من اليهود في المدينة، وشبه الجزيرة كلها.

وكان خروجهم كما تدل عليه الآيات القرآنية خوفاً من

المسهم

المسلمين، لأنهم أشدُّ رهبة في صدورهم من الله. ولعلَّ تلك الرهبة كانت متأتيةً عما كان اليهود يرون في المسلمين من وحدة وتماسك، ومن إقدام على الموت والشهادة في سبيل الله عن طيب خاطر.. وهذه إحدى أهم سمات المؤمنين كما تدل عليها الحقائق الثابتة في تاريخ البشر، وذلك أن من لا يخاف الموت في سبيل عقيدته، فإنه لا يخاف بعده شيئاً أبداً، إلا خوفه من الله القويّ الجبار.. فالمؤمن على هذا المثال هو بذاته طاقة وقوة من شأنها أن تبعث الخوف والرعب في نفوس أعدائه، ونفوس الذين لا يخافون الله، حتى لتصبح رهبته في النفوس الضعيفة أشدَّ من رهبة الله تعالى. فالمؤمنون كانت لهم رهبة في صدور أعداء الإسلام من الكافرين والمنافقين أشدَّ من الخوف لدى هؤلاء من الله، و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يعقلون حقيقة القوة التي هي لله الواحد القهار، ووحده ـ جلت عظمته ـ يمنحها لمن يشاء من عباده.. فالذين لا يخافون من الله القهار الجبار، ويخافون من عباده أكثر مما يخافون منه، هؤلاء هم الذين ما قدروا الله حق قدره، وفي ذلك منتهى التفكير الأخرق، والسفاهة الظالمة، والضلال الكبير عن الحقيقة، وعن معرفة الله تعالى.. ولعلَّ تلك العقلية المنحرفة هي التي جعلت المؤمنين أشدَّ رهبة في قلوب الذين نافقوا، والذين كفروا، فلا يُقدمون على قتالهم، ولا يتجرّؤون على حربهم إلاَّ في قرى محصَّنة، ومن وراء جدران سميكة تحيط بحصونهم التي كانوا يظنون أنها مانعتهم، وحامية لهم من وصول المؤمنين إليهم!.

ثم إنك ترى بأسهم بينهم شديداً بما يتباهون به من القوة، وكثرة السلاح والعتاد، وبما يرسمون ويبتدعون من الخطط وأساليب المكر، حتى أنهم يتوهمون في أنفسهم قوة جامعة، مانعة لا تقهر!.. ولكنَّ

المسلم

مظاهرتهم تلك لا تخفي حقيقة قلوبهم المتفرقة، وتضارب اتجاهاتهم في السيطرة والاقتناء.. هذا فضلاً عن كونهم قوماً جبناء بطبيعتهم بسبب تنازعهم في الأهواء على طلب الدنيا والحرص على البقاء، والابتعاد عن كل ما يجلب لهم الهلاك. وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا يستكبرون على المؤمنين، ويعملون على استجلاب عداوتهم، فلا يتورعون عن استغلال الفرص التي يتوهمون أنها مؤاتية للقضاء عليهم أو التخلص نهائياً من الخطر الذي يُشكلونه على حياتهم.. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحق، ولا يعلمون السنن التي يربط بها الله تعالى على قلوب المؤمنين ويوهن كيد المنافقين والكافرين.. ولذلك لم يكن غريباً من يهود بني النضير، ومن حرَّضهم من المنافقين، ذلك الموقف من التناصر الكاذب، الذي أدى بهم إلى الخروج من المدينة، ومن غير أن يعتبروا بما حلَّ ببني قينقاع من إخوانهم اليهود، عندما نقضوا عهد رسول الله، فاضطر إلى إجلائهم عن المدينة قبل هؤلاء بزمنٍ يسير.

وكان مثل بني النضير في سماعهم الوعود الكاذبة من المنافقين، والركون إلى ادعاء اليهود الآخرين بنصرتهم، ثمَّ ما حلَّ بهم وقت الحشر ـ أي عند حصار المسلمين لهم وإخراجهم من ديارهم وممتلكاتهم، والحسرة تأكلهم ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.. فقد جعل القرآن الكريم ابن أُبَيّ في وعوده لبني النضير بالنصرة، كالشيطان في وعوده الكاذبة للإنسان. فكما يمنّي الشيطانُ الإنسان ويغويه ثم يتخلَّى عنه عندما يوقعه في المعصية، كذلك فعل ابن أبيّ ومن معه من المنافقين واليهود، بما أوغروا به صدور بني النضير من الحقد على

المسهم

النبيّ والمسلمين، ثم تخلوا عنهم ساعة الحشر، بعدما أوقعوهم في البلاء..

ومثل ذلك ما يروى عن رجل من بني إسرائيل، كان اسمه برصيصا، اشتهر بقوة إيمانه، وزهده في الدنيا، والانقطاع عن كل شيء إلا العبادة لربه تعالى، حتى بلغ به الأمر أن يشفي ـ بإذن الله ـ المرضى والمجانين.. ولكنَّ الشيطان أوقعه في حبائل الشرك، ثم اتخذه مطية، ليصرفه في النهاية عن طاعة رب العالمين.. وقد حدث ذلك عندما أتوه بامرأة قد جُنَّت، وعرضوا عليه أن يداويها علَّها تشفى من الجنون.. وكانت تلك المرأة جميلةً، فزيّن له الشيطان مواقعتها، فحملت منه، وبدل أن يتخذها زوجة حلالاً، أقدم على قتلها وإخفاء أثرها. ثم ادَّعى أنها هربت من عنده وعادت إلى أهلها. ويشاء الله (تعالى) أن يكشف أمره، فشكاه إخوتها إلى الحاكم، فأمر بصلبه وقتله، فتمثَّل له الشيطان رجلاً جاء ليعمل على خلاصه، إلاّ أنه اشترط عليه أن يكون من أتباعه والمؤمنين به من دون الله، وأن يعلن عن ذلك بإيماءة من رأسه، وبعدها تكون نجاته من هذا البلاء الذي أوقع به نفسه. وصدّق برصيصا اليهوديّ، وانصاع لألاعيب الشيطان فأظهر كفراً صراحاً بربه (تبارك وتعالى)، وهو يومىء له تعبيراً عن الطاعة له. عندها قال له الشيطان:

- مت يا برصيصا حيث أنت ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أما جزاء الشيطان فكان معروفاً منذ أن عصى ربه فلم يسجد لآدم بل أبى واستكبر وكان من الكافرين. وكذلك كان جزاء برصيصا على ما اقترف من جرم الزنى، وقتل النفس المحرَّمة،

المسهم

والشرك بالله، لمَّا آمن بالشيطان بدل أن يكفر به، ويستغفر ربه على ظلمه لنفسه ويطلب رحمته.. فكان عاقبتهما: الشيطان وبرصيصا، أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين.

وروعة هذا المثل القرآنيّ أنه يتعدَّى في الزمان والمكان الحادث الذي جرى مع بني النضير بعدما خدعهم المنافقون والذين كفروا من بني قومهم، ليدل على عاقبة الناس الذين يعصون الله (تعالى) فيتّبعون غواية الشيطان، وأعوانه من أهل النفاق والكفر.. فالإنسان المنافق ـ مثل الكافر ـ شيطان بشريّ يغوي نفسه ويوقعها في السوء، ويغوي الآخرين ويميل بهم إلى الفساد والفسوق. وتبدأ هذه الغواية بتزيين المعصية، وتهوين أمرها، حتى إذا وقع العاصي في الجرم الأول، شدّه الشيطان إلى جرم غيره، وهكذا حتى تموت أية مقاومة في نفسه للشر والرذيلة، ويقع في اليأس من رحمة الله (تعالى)، وعندها تهون عليه أية جريمة، أو أية معصية، أو أي إثم.. وذلك كله بسبب عدم الإنابة إلى الله، والركون إلى حماه، وعدم الإيمان بمغفرته، واليأس من رحمته، ولا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون.

ومثل هذا اليأس هو في الأصل، من عمل الشيطان، بما يوسوس في النفوس حتى يوقع الناس في حبائله، وهم غافلون عما يفعل بهم، إذ يظنون أن رغباتهم وشهواتهم هي التي تغلب عليهم، بينما في الحقيقة هو الكفر، أو الشرك أو النفاق الذي يتلبَّسُ بالإنسان ويجعله تبعاً للشيطان. ولو تنبّه الناس لهذه الحقيقة لوجدوا أن خير ما يعينهم على ذلك هو الإيمان الصادق الذي يزكي النفس ويقويها على كل عوامل الضعف التي قد تطرأ عليها، وبالتالي على محاربة وساوس الشيطان وإغراءاته.. ولكن ما العمل وقد ترك الناس الإيمان، فكان

المسهم

طبيعياً أن يحقق الشيطان وعده بإغوائهم جميعاً إلا عباد الله المخلصين، الذين ليس له عليهم من سلطان..

ولو خاف الإنسانُ ربهُ، وخشي وعيدَهُ لما أطاع الشيطان وعصى الرحمان. وهذا ما يتبيّن من الآيات الكريمة التي تبدو فيها آثار رحمة الله (تعالى) بعباده واضحة وذلك بقوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[1]؛ فهي موعظة للذين آمنوا بأن يتقوا الله (جلَّ جلاله) ويخافوا من أي عمل قد يقدمون عليه، ولينظر كل امرىء ما يقدم لغده من عمل الخير أو الشر، لأنه محاسب عليه يوم الدين حيث الفوز العظيم أو الخسران المبين. ثم يأتي التوكيد على التقوى، والخوف من عدم الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فلا يعزُبُ عنه ـ سبحانه ـ مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فالنوايا، والأقوال والأعمال يعلمها، وهو خبير بها، ألا إنه هو السميع العليم.

ثم يأمر اللَّهُ تعالى عباده الذين آمنوا بألاَّ يكونوا كالذين نسوا اللَّهَ بترك طاعته وعبادته، وأداء حقه، فأنساهم أنفسهم فلا يقدِّمون لها خيراً ولا تزكية، ولا يجعلونها تنال حظاً من أجرٍ أو ثواب.. وأولئك هم الفاسقون، لأنهم عندما ينسون الله، يقعون في المحظور فيرتكبون المعاصيَ دون وجلٍ أو خوف من شيء، وهذا من نسيان النفس وإهمالها لأنها هي التي يقع عليها الحساب والعقاب.. فالفاسقون الذين يخرجون عن طاعة الله، ومثلهم الكافرون والمنافقون، ليسوا كالمؤمنين الذين يطيعون الله ويعبدونه حق عبادته، فكان حقاً ألا

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

المسهم

يستووا مصيراً وجزاءً.. فلا يستوي أصحاب النار من الكافرين وأصحاب الجنة من المؤمنين، إنَّ أصحاب الجنة هم الفائزون بالثواب والنعيم الأبديّ. فالفرقُ عظيم بين الفريقين، والفرقُ عظيم بين الدارين: دار النار، ودار الجنة؟!. وها هي العبرة الكبرى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

أجل إن هذا القرآن العظيم هو كلام الله عز وجل، ولو أنَّهُ أنزله على جبلٍ لَرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.. فالجبل، لا يعدو كونه من الجماد الأصمّ، بكل ما فيه من صخور صلبة، ومتانة تركيب، وشدة تماسك، وعلى الرغم من ذلك، ومع كبر حجمه وارتفاعه، فإنه لو أنزل الله تعالى عليه القرآن، وآذنه بفهمه وتكاليفه، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، فالجماد يخشع ويتصدع من هذا القرآن، والناس من الكافرين والمنافقين لا يأبهون لهذا القرآن، ولا يخشون الله المنتقم الجبار!..

تلك هي أمثال وعظات وبراهين، يضربها اللَّهُ سبحانه للناس في القرآن، لعلهم يتفكرون بها، ويعتبرون، ويتدبرون، فيحتذون على الأقل بالجماد الذي ضُرب عَليه المثلُ بالجبل، ويخافون اللَّهَ ـ جلّت عظمته ـ تعالى ويخشونه، فيستقيمون ويكونون مؤمنين صادقين. فالقرآن وحده طريق النجاة والخلاص إذا أدرك الناس عظمة هذا الكتاب المجيد، وساروا على طريقه المستقيم، ونهجه القويم.

وفي نهاية المطاف، وبمناسبة هذه الآيات الكريمة التي تتناول ما حصل مع بني النضير في المدينة المنورة أيام رسول الله، وما يعقبه من توجيه للمؤمنين، لا بد من التوقف عند أحوال اليهود اليوم، الذين

المسهم

ما يزالون على نفس الطبيعة والمنهج في عداوتهم للمسلمين، وشنّ الحروب عليهم، ومقاتلتهم بأشدّ أنواع الأسلحة وآلات الدمار التي يتحصّنون بها، ومن ثَمَّ يستكبرون عليهم بأقوى أفاعيل البغي والمكر والدهاء، التي يخدعون بها دول العالم بأسره، ليتخذوا من قواها متاريس يحتمون وراءها، بدل تلك الحصون والجدر التي كانت لآبائهم وأجدادهم في شبه الجزيرة.. فها هُم، وكما نراهم اليوم، يستخدمون ضد المسلمين والبلاد الإسلامية، أقوى الدبابات والمدافع، وأحدث الطائرات والغواصات العسكرية، وأكثر الأساليب الحربية تقدماً وتقنية، وكل ذلك توفره لهم المساعدات والأموال التي تخصصها لهم الدول الحليفة والصديقة، وهذا فضلاً عن المفاعلات النووية والقنابل الذرية التي يحوزونها حتى صارت ترسانة إسرائيل تختزن ما يزيد على مئتي قنبلة نووية، وهي ما تزال تصنّع بين عشر واثنتي عشرة قنبلة من هذا النوع في كل سنة..

وإذا أمعنا النظر في الحروب الكبرى التي كان اليهود يشنونها ضد المسلمين من العرب، فإننا نجد أن عنصر المباغتة والمفاجأة كان من أهم العوامل التي حققت لهم النصر، إذ كانت آلتهم العسكرية، والطيران بصورة خاصة، تحدث تدميراً شبه شامل لأسلحة وتحصينات العرب قبل بدء المعركة.. وهذا يعني اعتماد التخطيط الذي يمكّن لهم كسب الحرب بأسرع وقت ممكن، وبأقل كلفة ممكنة، وبالتالي فرض الشروط التي توفر لهم الهيمنة والسيطرة التي يريدونها من وراء تلك الحروب، وفقاً لمنظورهم التوراتي!..

ولكن مهما بلغ اليهود من التفوق التقنيّ، والقوة العسكرية، ومهما أنتجوا من الصواريخ البعيدة المدى، والطائرات المتطورة،

المسهم

والبوارج والغواصات التي تحمل الرؤوس النووية فإنهم في حقيقتهم، وفي داخل نفوسهم قوم ضعفاء، جبناء ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ كما يصفهم رب العالمين. وقد تجلّى هذا الوصف من خلال الحرب شبه الدائمة التي يشنونها على لبنان اعتباراً من عام ١٩٨٢م؛ إذ لم تكد السيطرة اليهودية تحكم قبضتها على بيروت حتى كانت المفاجأة التي لم ينتظروها، وهي تصدي المقاومة لضباطهم وجنودهم، وملاحقتهم في كل مكان، ولا سيما في منطقة الجنوب حيث أرعب قلوبَ جنودهم الزيتُ المغليّ الذي كانت النساء تقذفهم به، وفلّت عمليات الاستشهاد التي يقوم بها الشباب عزائمهم، وأطاح المقاومون بعقولهم. . ثم ظهرت مقاومة المسلمين، العزل من السلاح، تواجه الآلة العسكرية الإسرائيلية بقلوب ملؤها الإيمان والاستشهاد، فلا تعيقها قنابل مدافعهم، ولا يخيفها أزيز طائراتهم، بل تتواصل ضرباتها كل يوم بأشدَّ وأقوى، حتى راح ضباطهم يطالبون بالانسحاب من لبنان، واستجابت لهم حكومتهم أخيراً وانسحبوا من بلدة جزين وجوارها في جنوب لبنان في حزيران من عام ١٩٩٩م. على أن يتم انسحابهم من كل لبنان خلال سنة من تاريخه. وهذا ما يظهر زيف أسطورة الجيش اليهوديّ الذي لا يقهر، وظهر الجبن اليهوديّ على حقيقته من خلال الدراسات التي أجريت، وتناقلتها وسائل الإعلام في إسرائيل بالذات قبل غيرها من وسائل الإعلام العالمية.

وها هي ضربات المقاومة الإسلامية ما تزال وراء الروح الهستيرية التي تستبد بقلوب اليهود، وتدفعهم إلى شن الحروب، وقتل الأبرياء وأخرها «مجزرة قانا الجليل عام ١٩٩٦م» التي تعطي المثال

المسلم

على الوحشية اليهودية، وخلو النفسية الإسرائيلية من أية مشاعر أو قيم إنسانية. . إلا أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن هذا البأس الذي يدعيه اليهود، والقوة العسكرية التي يعتزّون بها سوف يبقيان ظاهرين، ومتفوقين إلى أن يحين أمر الله تعالى، ويستعيد المسلمون قوة إيمانهم بربهم، ويلتزموا صدق كتابهم، فتعود لهم الغلبة والنصر كما يعدهم بذلك رب العالمين.

الفقرة السابعة: المكذبون بآيات اللّه (تعالى) لا يصدقون الرسل لأنهم بشر مثلهم

١ ـ مثل القوم الذين كذبوا بآيات اللّه كمثل الكلب في لُهاثه الذي لا ينقطع.

يقول اللّه تعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾[1].

إن أسمى المراتب التي يبلغها الفكر الإنسانيّ هي العلم، وإن أسمى مراتب العلم هو العلم بآيات الله، والعلم الذي يُدعى به إلى اللّه (تبارك وتعالى)، لأنه وحده العلم النافع حقاً للبشرية الذي يصوّب مسارها، ويهدي أفكارها، وينظم أوضاعها. . ولا يقتصر العلم الذي يُدعى به إلى اللّه على العلوم الدينية أو على شرع اللّه وحده، بل ويتناول كل العلوم التي يجب ألا تتناقض في حقيقتها مع شرع اللّه،

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٧٥ ـ ١٧٧.

المسهم

وما أنزل من الأحكام والآيات التي تهدي للتي هي أقوم، أي العلوم التي يستخدمونها لخدمة الإنسان، وخدمة البشرية جمعاء، ومثالها: علم الطب الذي يشفي من الأمراض، أو علم الفلك الذي يدركون به بعض ما في هذا الكون من آثار رحمة اللّه في خلق السماوات والأرض، أو أي علم من العلوم التي تفيد البشريةُ من مآثرها. . . من هنا كان المأخذ على أهل العلم، وعلى من يتولون تطبيقه في مجالات الحياة، بأن جعلوا علومهم في غير الغاية التي يريدها اللّه (تعالى) لخير عباده. . ذلك أن كثيراً من تلك العلوم قد سخَّروها لأغراضٍ وغاياتٍ بشعة كما في القنبلة الذرية، أو في تلك الأسلحة الكيميائية والبيولوجية التي تهلك النسل والحرث، أو كما في العلوم الاقتصادية والمالية التي تزيد من تخمة الأغنياء على حساب لقمة العيش للفقراء، أو كما في العلوم المادية التي تنشر الكفر، وتبيح المحرمات، وتهدر كرامة الإنسان وهي أكثر من أن تعد أو تحصى.

وهذا بخلاف ما هو عليه الإسلام المجيد، الذي يعلِّمنا بأن اللّه مولانا قد فضَّل العلماء على غيرهم من البشر، فكان «العلماء ورثة الأنبياء» وفقاً لمفهوم هذا الدين. بل ومن مقومات تربيته للإنسان في إيثاره العلم، وتحريضه على التعلّم ما أوحى به في قرآنه الكريم من أنَّ أول نعمة أنعَمَ بها الخالقُ على أبينا آدم، بعد خلقه، كانت نعمة العلم لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1]. وكذلك فإن أول الوحي الذي أُنزل على خاتم النبيين، سيدنا محمد ﷺ كان قوله تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[2]، أي تعلَّم ـ باسم ربك الذي خلق كل شيء ـ

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.
(٢) سورة العلق، الآية: ١.

المسهم

الهدى والخير والصلاح للناس. ثم عادَ سبحانه وبيّن لنبيّه ميزة العلماء، من أنهم وحدهم الذين يخشون اللّه، ويتقونه حق تقاته بقوله العزيز: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[1]، فهؤلاء الذين بلغوا شأواً بعيداً في علومهم تجدهم من بين عباد اللّه أكثر خشية، وخوفاً منه (سبحانه) لمَا يعلمون من عظيم خلقه، وجليل آثار رحمته!.. إلاَّ أن تغرَّ الحياةُ الدنيا بعضَهم، فيتخلى عن عطاء ربه، ويعطِّلَ فضله، ويتّخِذَ العلم وسيلةً لهواه، أو ينقادَ لهوى المتسلطين الذين يُخضعونه لرغباتهم وأهوائهم، حتى يصير هو نفسه عبداً لتلك الأهواء، ولا يعود لديه إلا الركض وراء متاع الحياة الدنيا لئلا يفوته!.

ويصور القرآن المبين هذا النموذج من العلماء عندما يوجِّه الوحيُ النبيَّ بأن يتلوَ على المشركين خبر من آتاه اللّه علماً وهداية، عَرَفَ بهما آيات اللّه العزيز الحكيم، ومقدار عظمة هذه الآيات في الخلق، إلا أنه ـ ويا للأسف ـ انسلخ منها، وانتزع نفسه عنها حتى خلا عقله وقلبه من علمها، تماماً كما تنسلخ الحية من جلدها، وتخلفه وراءها فكأنه ليس منها.

وقد روي أن الذي يخبر عنه هذا النص القرآنيّ كان أحد علماء بني إسرائيل، ويدعى (بلعام بن باعوراء) وأنه كان معاصراً لموسى. وقد سئل أن يدعوَ على هذا النبيّ الكريم، ويصفه بما ليس فيه، وذلك بعد أن رشوه بالمال.. فبدل أن يتصدَّى للكفار، ويدافع عن موسى ـ ودفاعه، حبذا لو فعل، كان يمكن أن يكون له شأو كبير نظراً لمنزلته العلمية ـ اندفع وراء غرائزه وشهواته لحب المال، والانصياع لأهواء أهل السلطان، فهبط إلى الكفر، وغرق في أوضار الضلال والجهل..

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

المسهم

والسبب بيّن في تسخيره العلم الذي آتاه اللّه ربُّهُ ضد الدين، والإيمان ونصرة الحق.. وما فعل (بلعام بن باعوراء) ما فعل، إلا بوسوسةٍ من الشيطان الذي استحوذ عليه، وجعله ينصاع لأوامره، فكان من الغاوين، الفاسدين المفسدين، والضالين المضلّين.

١ ـ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله كمثل الكلب في لهثه الذي لا ينقطع

ويبيّن اللّهُ تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ حكمه في ذلك الغاوي، المفسد ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي لرفعهُ ربه بآياته التي آتاه إلى الدرجات العلى من الإيمان والهداية، والمقام اللائق من فعل الخير والصلاح، ولكنه آثر الكفر على الإِيمان، وفضَّل الحياة الدنيا على الآخرة، وركن إلى متاع هذه الأرض حتى سيطرت عليه أهواؤه الوضيعة فاتّبعها، فمثله في ذلك كمثل الكلب إن تطارده، أو تنهرْه يهرب منك وهو يلهث، أو تتركْه يظل يلهث. لأن الكلب قد اختص بهذا اللُّهاث دون غيره من الحيوان، وهذا واضح فيه لكل ذي عينين.. يقول صاحب تفسير المنار: «اللهث هو النَفَس الشديد مع إخراج اللسان، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإِعياء والعطش. وأما الكلب فيلهث في كل حال، سواء أصابه ذلك أم لم يصبه، وسواء حملتَ عليه تهدده بالضرب أم تتركه آمناً وادعاً». وقد ثبت من تجارب الطب البيطريّ أن الكلب لا توجد في جسمه غدد عرقية إلا القليل في باطن أقدامه، فلا تفرز من العَرَقِ ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك فإنه يستعين عن نقص وظائف تنظيم الحرارة باللهاث، أي بزيادة تنفّسه عدداً من المرات تفوق التنفس الطبيعيّ لدى الحيوانات الأخرى، ويكون ذلك بتعريض مساحة أكبر من داخل الجهاز التنفسيّ لتلقي الهواء ونفثه عن طريق اللسان والسطح الخارجيّ من فمه. ولعلَّ

المسهم

في خلقه على هذا النحو آية من آيات الله لتبيّن المثال في هذا الكائن الحيّ على حاجة الأحياء لخالقهم فلا يركنون إلى أنفسهم، ويتوهمون أن لهم القدرة على شيء إلا أن يشاء الله. فمن لم يؤمن بهذه الحقيقة، وأخلد إلى الأرض، واتّبع هواه عالماً كان أو غير عالم، انطبق عليه المثل القرآنيّ الذي يشبهه بالكلب اللاهث، لأنه يعيش بالهم الدائم، وتحت وطأة الإعياء والتعب والقلق، فلا يرضى بما يصل إليه، بل يطمع في الاستزادة من الشهوات، ومن أعراض الدنيا التي تنسيه كينونته البشرية، وتهوي به إلى مصاف الحيوان الحقير، فلا يقضي من هذه الدنيا مطامعه، ولا تنتهي فيها مآربه، فحاله كما يقول الشاعر:

فما قضى أحدٌ منها لُبَانَتَهُ ولا انتهى أَربٌ إلاَّ إلى أَرَبِ

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فمثلهم كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث.. وهذا أغرب ما يمكن أن يتصوَّره الإنسان من بشرٍ يرتضون أن يهبطوا بإرادتهم من شاهق الإنسانية إلى مرتبة الحيوان الذميم!. وذلك مثل القوم الذين لم يصدقوا بآيات الله، فمثل هؤلاء في عدم التصديق، كمثل هؤلاء في التكذيب، فجميعهم يستوون في تحكم الأهواء بأفئدتهم، وهم يظنون بأن آيات الله تسلبهم متاع الحياة الدنيا، وتنتزع من صدورهم معتقداتهم، وهم لا يريدون التخليَ عنها لأنها معتقدات ألفوا آباءهم عليها، وهم على أثارهم يسيرون!.

والحال لو أنهم نظروا إلى آيات الله نظرة استبصار واستدلال لوجدوا فيها الخير والفلاح، وركنوا إلى الطمأنينة والصلاح، ولكنهم بدل أن يفعلوا، آثروا الاستكبار على ما أنزل الله، فاتخذوا موقفاً مسبقاً من آياته، وحكموا عليها بالتكذيب، وعدم التصديق!. وهذا، طبعاً،

المسهم

لا يصيب آيات الله، التي تحمل من البيّنات والعظات ما يسمو على الآفاق، وينير جوانب الأرض والسماوات.. فلا عيب يطال آيات منزلة من رب العالمين، ولكن العيب في نفوس المكذبين وغير المصدقين الذين غلبت عليهم المطامع والأهواء، فراحوا يلهثون وراء زينة الحياة الدنيا ومتاع الغرور مثل لُهاث الكلب العطشان.. لقد أخلدوا إلى الأرض، فلا إيمان في قلوبهم ولا هدى، ولا قبول في نفوسهم لتذكرة أو عظة..

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فاقصص ـ يا محمد ـ عليهم من أخبار الغابرين، وما حلَّ بالمكذبين أمثالهم من الهلاك والدمار لعلهم يتفكرون بذلك، فتكون لهم عبرة بالأولين، وعودة عن نهج المكذبين!.. واتل عليهم نبأ الذي انسلخ من آياتنا، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه حتى صار مَثَلُه كمثل الكلب اللاهث، لا ينفك عن لهاثه حتى يموت. وقد جعلناه مثلاً للذين كذبوا بآياتنا، فلعلَّ في هذا المثل ما يثير فيهم كرامة أو مروءة فلا يرتضوا أن يكونوا على مثل هذه الحالة وهم يطلبون الأهواء الدنيوية. بل ولعلَّهم يخجلون من تشبيههم بهذا الحيوان، فعملوا على أن يتخلصوا من هذا الذم القبيح الذي يهبط بهم إلى أدنى درجات المهانة والاحتقار.. وربما حملهم ذلك على التأمل، وإعادة التفكير.. وقد يُقبلون على آيات الله يتفحصّونها ويقلّبونها على مختلف وجوهها، وهي كفيلة بأن تجذب نفوسهم، فيتذوقوا حلاوة تلاوتها ويتدبروا صدق معانيها، وفي ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون!..

٢ ـ تكذيب الملأ الذين كفروا من قوم نوح بدعوته لأنه بشر مثلهم

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟

المسهم

﴿ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

لقد سبق هاتين الآيتين المباركتين في سورة «المؤمنون» الأدلة التي تأخذ الإنسان، عن طريق التفكير والتأمل، إلى الإقرار واليقين بأن الله (تعالى) هو الخالق. ومن تلك الأدلة خلق الإنسان من طين، ثم إنشاؤه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.. ومنها أيضاً خلق سبع سماوات تسلك فيها الملائكة طرقاً لتحقق أمرَ ربها بما يشاء من تدبير وتسيير لهذا الكون، الذي تتألف منه تلك السماوات بما فيهنَّ ومن فيهنَّ.. ومنها أنه تبارك وتعالى أنزل من السماء ماءً فأنبت به الجنات التي تمتلىء بالخيرات والبركات رزقاً للعباد. وأنه جل وعلا قد جعل في الأنعام عبرة للناس بما لهم فيها من منافع كثيرة.. وبعد تبيان تلك الآيات العظام تأتي البيّنة على جحود العباد، وكفرهم بالله وأنبيائه، والمثال في قوم نوح الذي أرسله ربهُ ليدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.. وفي هذه الدعوة الصادقة الحجة البالغة على أنه لا إله إلا الله، وأن العبادة له وحده، فلا شريك له في عبادته..

فماذا يخالف الفطرة عندما يقول لهم نوح: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره؟ وهل في قوله هذا ما ينم إلاَّ عن الكلمة الحق، والدعوة الحق التي يقوم عليها الوجود كله، ويشهد بها كل ما في هذا الوجود عندما يكون مرتبطاً بربه بصلة العبودية، والخضوع، والطاعة؟

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

المسهم

ولكنَّ قوم نوح عليه السلام شذوا عن كلمة الحق، ورفضوا دعوة الحق، إذ قال الملأ الذين كفروا من قومه، وهم كبراؤهم وأسيادهم:

لا يا قوم، لا تصدقوا نوحاً، فما هذا الرجل إلاَّ بشر مثلكم، ولكنه يريد أن يتفضَّل عليكم بالقَدْر، والمنزلة والرفعة، فيدعي أنه نبيّ مرسل من الله. ولو شاء الله لأنزل ملائكة يدعوننا إلى عبادته. أما أن يبعث نوحاً بهذه الدعوة، وهو بشر وليس ملاكاً فما سمعنا بهذا في دين آبائنا من قبل، ولا في دين الأولين ممن سبقوهم من أقوام، وأمم غابرة..

وهنا كان قصور أولئك القوم من خلال تلك النظرة الضيقة إلى العقيدة وربطها بشخص رجل مثلهم، دون أن يدركوا أثر هذه الدعوة التي يدعوهم إليها في صلاح نفوسهم، وتأثيرها في إصلاح حياتهم.

وأبعد أثراً من تلك النظرة الضيقة في ربط الإيمان بالشخص وليس باللّه تعالى أن يقرّوا بحقيقة وجود الله عندما يقولون: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، ثم يرغبون عن عبادته، وعن الإيمان بأنه لا إله غيره، دون أن يتقوا في ذلك غضب الله، أو يخافوا بطشه..

والعلة وراء رفض الدعوة من رسول كريم إنما كانت تكمن في نوايا رؤسائهم وقادتهم الذين لم تقبل نفوسهم أن يكون نوح عليه السلام رسولاً من الله، وأن تكون له تلك المنزلة عند الله، لأن إقرارهم بذلك إنما يعني ذهاب رئاستهم، وضياع نفوذهم، وهذا ما لا يرضون به أبداً. وتلك النظرة إنما تنطبق تماماً على كل الذين تكون لهم الرئاسة أو القيادة في قومهم، فإنه لا يتبادر إلى أذهانهم، عندما تظهر دعوة إلى الصلاح والإصلاح، إلا شيء واحد، وهو أنَّ الداعية كاذب، لأنه لا يريد من وراء دعوته إلا منافستهم على الزعامة، ومشاركتهم في

المسهم

الحكم، ومن ثم طلب اقتسام الغنائم معهم، هذا إن لم يكن راغباً في إقصائهم، والاستئثار بكل شيء لنفسه!. فذلك ظن الذين لا يريدون إصلاحاً ولا صلاحاً بين الناس، ومثلهم كمثل قوم نوح عليه السلام الذين كفروا، وصدوا عن عبادة الله (عز وجل)..

ولكن ماذا حلَّ بأولئك القوم من جراء كفرهم؟

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[1].

أجل، وبعد أن أورد الذكر الحكيم في سورة هود الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وإعطاء الأمثال للتوضيح والتبيين، أعقبه مباشرة بذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. وهو الإخبار الذي يحمل معنى الرسالة وهدفها بالقول الموجز والكلمات المعدودة. فالله تعالى هو الذي أرسل نوحاً إلى قومه، ليقول لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. والتعبير القرآنيّ يجعل المشهد الذي يقابل فيه نوحٌ عليه السلام قومَهُ وكأنه واقعة حاضرة، لا حكاية ماضية. فكأنما هو يقول للناس الآن: إن أي رسالة سماوية تنذركم بالوعيد وتبشركم بالوعد، تبين

(١) سورة هود، الآيات: ٢٥ ـ ٢٨.

المسهم

لكم الطريق المستقيم، وتنهاكم عن الطريق الأعوج، فاتبعوا أيها الناس ما يقودكم إليه العقل الواعي، وابتعدوا عن الأهواء الضالة. فإن لم تفعلوا، فإني أخاف عليكم من عذابٍ أليم، حيث يلاقي الإنسان جزاءَ شركه وكفره بربه، وعاقبة تكذيبه النبيِّين..

ذلك ما أنذر به نوحٌ عليه السلام قومَهُ، ودعاهم إلى الحق. ولكنَّ الملأ من قومه، أولئك الأسياد المتحكّمين برقابهم، رفضوا بإصرار وعنادٍ تلبية دعوته للإيمان، وقالوا له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾. وفي ظنهم أن الرسول إنما يكون من غير البشر. ثم أردفوا قائلين: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ فالذين اتبعوك هم أخسّاء بيننا، فلا مال لهم ولا جاه!.. وقد اتَّبعوك ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ عن تهوّرٍ، إذ لمجرد البدء بنشر آرائك، وإعلان رسالتك كان اتباعهم لك قبل أن يتفكروا، أو ينظروا في أمرك، ويقدِّروا إن كنت رسولاً حقاً!.

ثم يُعلن الملأ من قومه تكذيبَهُ ومن اتبعه من المؤمنين، وهم يقولون:

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾..

ففي اعتقادهم أن أصحاب الفضل والمنزلة في القوم هم الذين يملكون المال، والوجاهة والسلطان.. أما ما تحتوي عليه نفوس هؤلاء من كوامن الشر، وما تختزن من عقائد فاسدة، وما تنطوي عليه من النوازع والأهواء الخبيثة.. فذلك لا شأن له في حسبانهم..

وتلك هي مقولة أهل الدنيا، فهم عادة يحتقرون المؤمنين، ويكذبونهم في معتقداتهم، ويذمّونهم بما ليس فيهم، بينما هم في الحقيقة أكرم خلق الله على الله، وأصدقهم عند الله، وأعلاهم شأناً بين

المسهم

عباد الله، فكان حقاً على نوح أن يرفع التهمةَ عن نفسه وعن أتباعه، وأن يريهم الحق، وهو يعلن لهم:

يا قوم! أرأيتم إن آتاني الله (تعالى) النبوة، فذلك رحمة بي، ومنٌّ كبير وعطاء عظيم لا أبادله إلا بالشكر والحمد. ثم إن بعثي بالنبوة فيه منتهى الرحمة بكم، لأن الإيمان بما أدعوكم إليه يُخلّصكم من الكفر، ويُنجيكم من العذاب. ولكن ماذا أفعل، وقد عُمِّيَتْ هذه الرحمة عليكم، فأنكرتموها عليَّ، وكذبتموني أنا ومن اتبعني من المؤمنين، فهل نلزمكم بها، أو نجبركم على الانتفاع بها؟ لا، ليس هذا هو شأن النبيين، ولا شأني، لأكره بني قومي على الدخول في دين الله إكراهاً. بل وما أمرت بذلك، إن أحمل لكم إلا الهدى، وإن أضعكم إلا أمام البيّنة، فلا نلزمكموها وأنتم لها كارهون.

ومع ذلك فقد كذبوه، وفضَّلوا الكفر على الإيمان..

وكانت نتيجة الإصرار على الكفر، طوفاناً كالجبال، وفيه إهلاك للكافرين.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[1].

وكان نوح عليه السلام لا يني عن تقديم البيّنات لبني قومه التي تتكفَّل ـ لو عقلوها ـ بأن تهديهم إلى دين الله (تعالى) واتباعه.. فقد نصحهم بالاستغفار لربهم فينزل عليهم السماء مدراراً، وتعم البركات

(١) سورة هود، الآيتان: ٤٢ و٤٣.

المسهم

والخيرات ديارهم، كما نبههم إلى أطوار خلقهم وما فيها من الأدلة على عظمة الخالق الذي يدعوهم إلى عبادته، وكذلك إلى خلق السماوات السبع فوق بعضها البعض، وما جعل الله فيها من قمر منير، وشمس مشرقة، وإلى هذه الأرض التي سخَّرها لهم، فجعلها بساطاً وسبلاً فجاجاً تمكِّنهم من الاهتداء إلى معايشهم.. فلم تنفع معهم بيّنة، ولا عظة. بل تداعوا إلى نصرة آلهتهم من الأوثان والأصنام، ولجوا في السخرية من نوح عليه السلام وهو يبني السفينة، مثلما لجّوا في الكيد لأتباعه المؤمنين، حتى بلغ به الضيق كل مبلغ، فدعا عليهم بالهلاك عندما أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1].

فلما جاء أمر الله، بدأ هطول الأمطار من السماء، وفوران الينابيع من الأرض حتى ارتفع منسوب المياه عالياً، وراحت الأمواج تتلاطم كأنها الجبال العالية.

وكانت معجزة الله (تعالى) في ذلك الطوفان الهائل سفينة نوح عليه السلام وهي تتأرجح في جريانها فوق الأمواج العاتية، لتكون أماناً للمؤمنين من الهلاك.

ولكن المشهد الإنسانيّ المروّع في خضَمّ هذا الطوفان، يبرز لنا ونحن نتصور نوحاً عليه السلام، وهو الأب الملهوف على ولده، يناديه أن يركب معهم في السفينة، قبل أن يدركه الموج وهو يحاول اللجوء إلى مرتفع يأوي إليه، ظناً منه أنه يحميه من الغرق، فيقول له: يا بنيّ

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

المسهم

اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، الذين لم يصدقوا بأن الطوفان سيغمر الأرض ويغرقهم!.

ويظن الابن أن المياه لن ترتفع إلى مستوى الجبال، فيقول لأبيه: سآوي إلى جبل يعصمني من هذه المياه، وينجيني من الغرق..

ولكن الأب يعاود إنذاره، فيقول له: يا بني، لا تتوهم ذلك. فلا عاصم اليوم من أمر الله، ولا رادَّ لحكمه، ولن ينجو أحد من الهلاك، إلاَّ من رحم اللَّهُ (تعالى) وأراد له النجاة، فلا جبال تغني، ولا أرض تنفع، وما يُغني إلاَّ الإيمان بالله، وتصديق رسوله. فآمن يا بنيَّ، وأسرع إلى السفينة، يرحمك الله ويكتب لك النجاة..

وارتفع الموجُ، وغطَّى الأرض وجبالها. وغابَ ابن نوح عن ناظري أبيه بعد أن حال الموج بينهما، فكان من المغرقين. تلك كانت حكاية نوح، الأب المؤمن مع ابنه الكافر، وهي نفسها حكاية المؤمنين الذين يدعون الناس إلى الهدى، فيقابلهم الكافرون بالتكذيب وعدم التصديق بآيات الله (تعالى). والقرآن الكريم يخبرنا بهذه الحكاية بعد آلاف السنين، ويوحي لنا بمشاهدها وكأنها حاضرة اليوم أمام ناظرينا في هذا الخضم الذي يعم الدنيا بالفساد، والمؤمنون ينادون ولكن ليس من يستجيب لهم.

٣ ـ عاد والريح التي جعلتهم كالرميم

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا

مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[1].

تخبر هذه الآيات الكريمة عن قوم عادٍ الذين جعلهم الله (تعالى) بعد قوم نوح عليه السلام، ثم أرسل فيهم، من أنفسهم رسولاً، هو النبيّ هود عليه السلام يدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد.

ولكن شيوخهم وقادتهم من قومه، الذين كفروا، وكذبوا بلقاء الآخرة، ولا يؤمنون ببعث وحساب، أنكروا دعوة رسولهم للإيمان بحقيقة وجود الله (تعالى) وما يُبنى على هذا الإيمان من شؤون الدنيا والآخرة. مع أنه كان أولى بهم الاستجابة إلى نداء تلك الدعوة وهي تبيّن لهم أن الخيرات والأرزاق الوفيرة التي ينعمون بها، والتي جعلتهم يعيشون في الغنى والترف هي من الله تعالى، لأنه وحده يملك الرزق، ووحده يهبه لعباده. وكان جديراً أن يعطوا هذه الأنعم حقها، بدل أن ينساقوا وراء الترف الفاحش حتى فسدوا، وضلّوا.. لأن الترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويفقد القلوب حساسية التلقي والاستجابة لدعوة الحق.. ولذلك نجد الإسلام يحارب الترف والفحش والفساد، ويقيم النظم الإسلامية على أسسٍ تسمح بالغنى، من غير أن يصير فحشاً أو ترفاً من شأنه أن يجعل الجماعة الإسلامية لاهيةً عن أمر ربها، بل وقد يتحوَّل بعض منها فيعملُ على نشر الفساد داخل الجسم المؤمن، لأن أمثال هؤلاء هم كالعفن يفسد ما حوله، أو كالمستنقع تسبح فيه الأوبئة والجراثيم.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٣١ ـ ٣٦.

المسهم

وهذا الترف الذي كان عليه قوم عاد، هو الذي جعلهم مثل سائر الأقوام التي تصدَّت على مرِّ الزمن، لدعوات المرسلين الإصلاحية واعتبرتها دعوات غريبة عن التصور والتصديق، بسبب متاع الحياة الدنيا الذي غلب عليها، فأنساها الآخرة. . ولذلك وجد قومُ عادٍ الأمر غريباً على تصورهم بأن يبعث الله رسولاً من البشر مثلهم، يأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون. فوقف الملأ منهم في وجه هذا الرسول، يصدّون الناس عنه، ويمنعونهم من تصديقه، وقد اعتمدوا في حملتهم سلاح الباطل وهم يغرون الناس بما هم عليه من غنًى ومتاع ولذائذ، لا يريدون أن يتخلوا عنه، أو يحرموا منه، ومقابل ماذا؟ مقابل وعد هود، هذا البشريّ مثلهم، بأنهم سوف يحيون، ويخرجون من القبور، بعدما يصيرون تراباً، وبقايا عظام رميمة. . . وهيهات، هيهات أن يكون ذلك لأنَّ من يموت بزعمهم، ويبلى لا يحيا من جديد، فالحياة هي في هذه الدنيا، ولا حياة بعدها. .

ولم يكن ذلك موقف المترفين إلا لانقطاع الصلة بين قلوبهم وبين النفحة العلوية التي تصل الإنسان بخالقه الكريم، فلا يمكن أن يدركوا حكمة ربهم في خلقهم، وتدبيرهم للوصول إلى الغاية البعيدة التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض. فالخيِّر لا يلقى جزاءه الكامل في هذه الحياة الدنيا، والشرير كذلك. . وإنما يستكملان هذا الجزاء هنالك يوم الحساب، حيث يصل المؤمنون الصالحون، بما قدموا لأنفسهم من خير، إلى الحياة الخالدة التي لا خوف فيها ولا نصب، ولا تحوَّل عنها لأنها أُعِدَّت لهم، ولأمثالهم المتقين. . بينما يصل الذين كفروا، وصدوا عن سبيل الله إلى درك الحياة السفلى التي

المسهم

يتلظون فيها بعذاب السعير، حتى ليتمنَّى الكافر أن يكون تراباً، لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[1].

وحيال ذلك التكذيب، والافتراء على هود عليه السلام، لم يجد هذا النبيّ، في نهاية المطاف، إلاَّ الاستنصار بربه، فدعاه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾[2].

وحلَّ وعد الله الحق عليهم بالعذاب فأرسل عليهم الريح العقيم التي لا تذر من شيء مرت عليه إلاّ حولته إلى فتات بالٍ لقوله تعالى:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾[3].

أجل، فلمّا لم تنفع معهم دعوة الرسول، حقَّ عليهم العذاب، فأرسل سبحانه وتعالى عليهم ريحاً عاتية، وصفها القرآن الكريم بـ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾، لأنه لا خير فيها، فهي لا تحمل مطراً، أو تلقّح شجراً، أو تذري حبّاً، بل ولا تنفع بشيء، إنها كالمرأة العاقر، الميؤوس من ولادتها.. وتلك الريحُ ما تذر من شيء أتت عليه إلا أتلفته وأهلكته، وأحالته بالياً، مفتتاً كمثل نبات الأرض اليابس إذا ديس بالأرجل. أو كمثل العظم الرميم الذي يفت بالأصابع. أما ماذا حلَّ بعادٍ من جراء هذه الريح العقيم فذلك ما يبيّنه قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١ و٤٢.

المسهم

وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[1].

فهي إذن، ريح صرصرٌ عاتية ما تأتي على شيء إلا وجعلته بدداً. وقد سخرها الله القويّ المتين على قوم عادٍ، الذين كانوا يدّعون القوة والبأس، فأتتهم عاصفةً، هادرةً، مهلكةً لا قدرة لهم على احتمالها، أو ردّها. وقد قهرهم بها الله (تعالى) مدة سبع ليال وثمانية أيام «حُسُوماً» أي تَحْسُمُ أثرهم وتقطع خبرهم، وذلك تشبيهاً لها في استمرارها تلك المدة، بالكيّ الحاسم الذي يُكوى به الداء، مرة بعد أخرى، حتى ينحسم. أو تشبيهاً لها بالشدة التي حلت بهم لتحسم أمرهم، وتستأصلهم من هذه الدنيا، فتراهم من جرائها قوماً صرعى، مطروحين في العراء كأنهم أصول نخل هوت، وسقطت مما أصابها من الخواء والاهتراء. ويتأكد هذا المشهد لقوم عاد في (سورة القمر) بقوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[2].

لقد كذبت عادٌ بآيات الله، فلم يفلح معها إنذار رسوله الكريم، وتوعده لها بالهلاك، فأرسل اللّه عليهم ريحاً صرصراً عاتية لمدة سبع ليال وثمانية أيام نحسة، مليئة بالشؤم القاتل، باعتبار أن النحس هو النذير الذي يجلب الويل، والقهر والعذاب.. ويبدو أن أولئك القوم قد بادروا، لما رأوا الشدة تحلُّ بهم، إلى حفر الأرض وإقامة السراديب، ثم الاختباء في أعماقها، إلا أن قوة الريح انتزعتهم من

(١) سورة الحاقة، الآيتان: ٦ و٧.
(٢) سورة القمر، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

أعماق تلك السراديب، وقذفت بهم فوق سطح الأرض صرعى، كأنهم أصول نخل اقتلعت من جذورها العميقة، وقذف بها خاوية، مهملة. وقيل إنَّ هذا التشبيه لقوم عاد بالنخل إنما مرده إلى ما كانوا عليه من طول في القامة، ومتانة في الأبدان، تمكّنهم من مواجهة البأساء والضرّاء..

أما (تأنيث) أعجاز النخل في سورة الحاقة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ و(تذكيرها) في سورة القمر ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ فمراعاة لتناسب الفواصل عند البلاغيّين ومراعاة للإيقاع عند الموسيقيين في الموضعين[1]، وللتدليل على أن الموت قد صرعهم جميعاً ذكوراً وإناثاً، على الرغم مما كانوا عليه من بسطةٍ في الأجساد، وقوة في الاحتمال.

وليست تلك الريح، وهي تفتك بقوم عاد، في حقيقتها، إلا جنداً من جنود الله، وقوة من القوى التي أوجدها في هذه الأرض، وجعل لها من السنن والقوانين التي تدفعها وتسيِّرها إلى ما يشاء سبحانه وتعالى ويريد، لأنه هو صاحب الأمر، وأمره نافذ في السماوات والأرض، إذ قال لهما ربهما ائتيا طوعاً أو كرهاً فقالتا أتينا طائعين.

٤ ـ كذبت ثمود بالنذر فأرسل الله تعالى عليهم صيحةً فكانوا كهشيم المحتظر

يقول الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ

---

(١) كل جمع تكسير على وزن أفعال يجوز فيه التذكير والتأنيث كما في سورة النحل ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ ـ مذكر ـ؛ بينما في سورة المؤمنون: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ ـ مؤنث ـ ومثله في سورة فاطر: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ و﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾.. فيكون القرآن الكريم قد راعى الإيقاع عندما ذكّر في مكانٍ، وأنّث في مكان آخر.

المسهم

وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[1].

يقص الله تعالى في هذه الآيات خبر تكذيب ثمود ـ التي خلفت عاداً في جزيرة العرب ـ بالنذر التي توعَّدهم بها أخوهم صالح، الذي أرسله ربه رسولاً يدعوهم للإيمان والهدى. وقد خصَّ العليُّ القديرُ هؤلاء القوم من ثمود، كما خصَّ من قبل قوم عادٍ، بالقوة والبأس وطول القامة.. فبدل أن يؤمنوا بالله (تعالى) ويشكروه على ما آتاهم من النعماء، كفروا وأنكروا على أخيهم صالح عليه السلام أن يُبعث رسولاً إليهم، فقالوا: أرجلاً منا نتبعه، وبشراً مثلنا وحده يرسله الله ـ وليس معه من يصدقه ـ فلماذا لم يرسل الله منا رجالاً من ذوي المال، ومن أصحاب القوة والسلطان؟ لا، لن نتبعه، ولئن اتّبعناه إنا إذن لفي ضلال وجنون! وهل صحيح أنه أنزل عليه الوحي من بيننا كلنا؟ لا! لا نصدقه! بل هو كاذب في ادعائه النبوَّة، وهو أشر، متكبر، يريد أن يتعاظم علينا بادِّعاء البعث والرسالة.

هكذا كانت تصورات قوم ثمود، التي جعلتهم يثيرون مثل تلك التساؤلات الاستنكارية الجاحدة.. فقد اشتبهوا في حقيقة التكليف، وتوهموا أن الوحيَ لا ينزل على بشرٍ منهم، ويكون واحداً، بل يُلقى التكليف على عدة أشخاص إن كان الأنبياء من البشر. ولذلك لم

(١) سورة القمر، الآيات: ٢٣ ـ ٣١.

المسهم

يصدقوا نبيهم عليه السلام، وكذبوا بما أنذرهم به من الآيات التي تحمل العذاب للكافرين.

ولم يكن مثل ذلك الاعتقاد الخاطىء ليسيطر على نفوسهم لولا انعدام الإدراك لديهم بأنَّ الرسالة لا يصلح لحملها إلا من يختاره الله (تعالى) لهذه المهمة السامية. فالقضية في هذا الاختيار لا تعني بني البشر، لأنها من أمره عز وجل، فلا يحق لهم الاستنكار بأن يكون المرسلون منهم، ولا أن يجادلوا في عددهم. فالاختيار محض تعبير عما يريد ربُّ العزة والجلال، وعما يصطفي من خيار عباده الصالحين. لأن القضية هي من علم الله الذي يعلم أن هؤلاء الصفوة من البشر قادرون على تحمل أعباء الأمانة بصدق وأنهم يستوفون شروط التكليف من الطهارة، وصفاء السريرة، وسماحة الخُلُق والقدرة على حمل أعباء الرسالة. فالأمر، إذن ليس بيد البشر، بل الأمر لله حيث يضع رسالته.. ولكنَّ قوم ثمود كانوا غير قادرين على استيعاب هذه الحقيقة، فثاروا في وجه رسولهم، يتهمونه بالكذب، والافتراء والبطر بادعاء النبوة. فتوعدهم عالم الغيب والشهادة بالعذاب على هذا الاتهام ـ إن أصروا عليه ـ كما توعَّدهم رسولُهُ بأنهم سوف يعلمون قريباً من هو الكذاب الأشر. وحتماً لن يكون هو، لأن الرسل لا يكذبون على الله ربهم، ولا يكذبون على الناس في دعوتهم إلى الحق..

وحيال عجزهم عن استيعاب الحجج التي ألقيت عليهم، والتي لم يستطيعوا البرهان على عكسها، تفتّقت أحلامهم عن طلب المعجزة، فقالوا لأخيهم النبيّ صالح عليه السلام: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا

المسهم

فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] بأنك نبي مرسلٌ من الله.. فلما سألهم صالح عن المعجزة التي يريدونها قالوا: نريد ناقة عشراء وبراء، تخرج من هذه الصخرة، ونكون عليها من الشاهدين..

ويشاء الله العليّ العظيم أن يقيم عليهم الحجة الدامغة، فأوحى إلى رسوله بأن المعجزة التي طلبوها سوف تتحقق. ولكن تلك الناقة ستكون فتنةً لهم، ومحنةً تحلّ بهم إن لم يقروا بصدقه، بعد إرسالها.. وإلى ذلك الوقت الذي يشاؤه الله، فسوف لا يتوقفون عن أذيته، وعن السخرية منه، وعليه هو أن يرتقب ويصبر على ذلك: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾[2]، كما عليه أن يرقب ما سوف يصنعون بعد المعجزة، لأنهم لن يصدقوه، حتى ولو أرسلت لهم الناقة. فكان لا بدَّ له من الصَّبر على ما يلاقيه من عنتٍ وشدةٍ وتكذيب، حتى يحين أمر الله، ويحكم بينه وبين قومه وهو خيرُ الحاكمين.

وتحققت المعجزة ـ بإذن الله ـ وأرسلت الناقة.. فدعاهم صالح إلى تصديقه، فلم يفعلوا..

إذن فقد حلَّ وقت الفتنة والابتلاء. فأوحى إليه ربه (تعالى) أن يجعلوا الماء قسمةً بينهم وبين الناقة، ترده يوماً لها فلا يجورون عليها في يومها ولا يقربون الماءَ، ويردونه يوماً لهم فلا تقربه الناقة، وبذلك يسقون، ويغتسلون، ويحملون منه ما يشاؤون!...

ذلك كان حكم الله (تعالى) بعد المعجزة وهو أن يكون للناقة

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة القمر، الآية: ٢٧.

المسهم

شربُ يوم من الماء، ويكون لهم شرب يوم معلوم. وهي قسمة عادلة، مقابل تحقق المعجزة..

ولكن ماذا فعل قوم ثمود، بعدما رأوا تلك المعجزة بأم العين، ومثلما طلبوها تماماً؟ إنهم لم يتأثروا بها لأنهم جاحدون منكرون، ولم تبعث الإيمان في قلوبهم لأنهم قساة كافرون.. بل أقدموا على أشنع ظلم لأنفسهم، عندما دبروا مكيدة لقتل ناقة الله. لقد اختاروا أحد الأشرار من شبابهم، وكان يدعى «قداراً»، وأوكلوا إليه المهمة التي انتدبوه لها. فذهب ذاك الغرّير، وملأ جوفه بالخمرة، ثم شحذ سيفه، وقصد الناقة فعقرها، ثم ذبحها، كما طلبوا منه أن يفعل..

لقد نفّذ قوم ثمود مكيدتهم في الآية ـ المعجزة ـ التي صنعها اللَّهُ تعالى لإقناعهم، بعد أن أنذرهم بعاقبة عدم التصديق بها، فكيف كان عذابه وقد أظهروا العبث والاستهتار بإنذار ربهم؟ لقد أرسل عليهم ملائكة مأمورين، وقيل أنزل جبرائيل الأمين عليه السلام، ففاجأهم بصيحة واحدة جعلتهم كالشجر، أو العشب اليابس المهشَّم.. و﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾[1] هو ما يوضع من أغصان وأشواك حول حظيرة الغنم ليحميها من الذئاب والسباع، فإذا يبس، وديس يصبح هشيماً تذروه الرياح. نعم، هكذا كانت عاقبة ثمود من مجرد صيحةٍ واحدةٍ أرسلها عليهم اللَّهُ العليّ القدير، فأخذتهم تلك الصيحة أخذاً وبيلاً، وتركتهم صرعى محطمين كالهشيم

---

(١) **الهشيم المحتظر**: اليابس من فضلات النبات الذي تأكله الأنعام في حظائرها، أو اليابس من الأغصان والأشواك التي توضع حول تلك الحظائر لتحميها من الذئاب أو سباع الحيوان، فإذا داسته الأرجل بعد يباسه تحول إلى هشيم تذروه الرياح..

المسهم

اليابس، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. إذ لم يؤمن من قوم ثمود إلا قليلٌ، هم الذين أنجاهم الله (تعالى) من الهلاك..

٥ ـ اتهام القوم لأخيهم شعيب بالسحر لأنه بشر مثلهم والظن به من الكاذبين

يقول اللَّهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

لقد أرسل اللَّهُ تعالى إلى مدين أخاهم شعيباً عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو؛ ويعِظهم بأن يتخلوا عن عاداتهم السيئة، وألاَّ يبخسوا الناس حقوقهم، بما كانوا عليه من عدم الاستقامة في معاملاتهم وتجاراتهم، وإنقاص الكيل والميزان. هذا فضلاً عما حذرهم به من عاقبة الفساد في الأرض مثل القتل، وغيره من الشرور والآثام التي كانوا يرتكبونها... ذلك أن أهل مدين كانوا يعيشون على مقربة من الأردن، وكان معظمهم يعمل على إرشاد القوافل التجارية التي تعبر منطقتهم في رحلاتها ما بين الشام ومصر واليمن والحجاز، مما جعلهم، مع الوقت، يتحكمون بتنقلات تلك القوافل، والافتئات عليها بما يخدم مصالحهم.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٨.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٧٧ ـ ١٨٨.

المسهم

وبعد أن راحوا يتعاطون التجارة، زادت مطامعهم فصاروا يبخسون الناس أشياءهم، بتخفيض ثمن البضائع التي يستحوذون عليها، أو بسرقة الناس وهم يطففون الكيل لصالحهم وينقصون الوزن لغيرهم.. بل انتقلوا إلى أبشع من ذلك، فصاروا يقطعون الطرق، ويسطون على القوافل، بدلاً من حمايتها، ثم يسلبون أحمالها، ويقتلون من يقتلون من رجالها؛ وهذا ما جعلهم يعيثون في الأرض فساداً.. فكان من الطبيعي أن تلاقي دعوة النبيّ شعيب عليه السلام رفضاً قاطعاً منهم لأنها تنهى عن تلك الفعال الشنيعة والعادات الذميمة، وتلزمهم باتباع الحق، بالمعروف وفعل الخير، ولذلك لم يسمعوا له، بل وراحوا يستهزئون به، ويقولون له: أصلاتك تأمرك بأن نتخلّى عما كان يعبد آباؤنا؟ أإيمانك يحملك على أن تأمرنا بألاّ نفعل بأموالنا ما نشاء، إنما أنت رجل مسحور، وما أنت إلا بشر مثلنا، وإن نظنك لمن الكاذبين، فأتنا بالعذاب الذي تعدنا إن كنت من الصادقين.

لقد كذبوه، واتهموه بالسحر، ولكنه ألقى عليهم الحجة وذكّرهم بما أصاب الأمم التي سبقتهم كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[1]. أجل، لقد حاول شعيب أن يحذرهم من أن يصيبهم مثل ما أصاب الأقوام من قبلهم، وهو يقول لهم: يا قوم! لا يُكسبكم الخلاف في الرأي بيني وبينكم الكراهيةَ،

(١) سورة هود، الآية: ٨٩.

المسهم

ولا تدفعكم المعارضة لنصحي وإرشادي إلى البغضاء، فإن لم تنتفعوا بدعوتي فإني أخاف أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوحٍ من الغرق بالطوفان، وقوم هودٍ من الإهلاك بالريح العقيم، وقوم صالحٍ من الموت بالصيحة، وقوم لوطٍ من الفناء بتدمير قراهم على رؤوسهم. وتلك منازل قوم لوطٍ بقربكم، وهلاكهم ليس ببعيد في الزمن عنكم.. فإنَّ في عذاب أولئك الأقوام الذين سبقوكم عظاتٍ بيّنات، فلا يصيبنَّكم ما أصابهم من العذاب!. وعلى الرغم ذلك فقد أبوا واستكبروا، فحلَّ بهم عذاب يوم الظلَّة، الذي ذكره سبحانه وتعالى، في الإخبار عنه، بقوله العزيز:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

أي فأخذهم عذاب الله الأليم، عذابُ يوم الظلة، عندما سلَّط عليهم يوماً شديدَ الحرّ لا يمكنهم أن يطيقوه، ثم بعثَ من فوقهم سحابةً كبيرة، نشرت الظلَّ الواسع، فأسرعوا إليه ليتظلّلوا تحته، احتماءً من شدة الحرارة.. ولكنهم ما إن اجتمعوا حتى أخذت تلك السحابة تُنزل عليهم قطعاً من نار محرقة، فلا تترك أحداً منهم إلا أحرقته، فكان عذابهم في ذلك اليوم «عذاب يوم عظيم» ـ كما وصفه رب العالمين ـ وإن في ذلك اليوم لآية تستدعي التأمل والتفكّر بما قد يحلُّ بكل قوم يغلب فيهم الكافرون مثلما حلَّ بقوم شعيب عليه السلام ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٨٩ ـ ١٩٠.

المسهم

٦ ـ تكذيب فرعون وملئه لموسى وهارون وقولهم: أنؤمن لبشرين مثلنا، فكانوا من الهالكين.

يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾[1].

قصة موسى عليه السلام، مع فرعون مصر المتربِّب، قصة طويلة، ولكنَّها أينما وردت في القرآن الكريم تصوّر حقيقة الدعوة للإيمان بأن الله تعالى إله واحد في السماوات والأرض، وربٌّ واحدٌ لا شريك له في الملك. إلا أنَّ فرعون وملأه كذَّبوا الدعوة وحاملها، ولم يقروا بما دعاهم إليه موسى وهارون (عليهما السلام) من الهدى والحق، لا سيما وأن فرعون الطاغية قد جعل نفسه رباً للناس، فكان يقول لهم: «أنا ربكم الأعلى»!!

. . . لقد جاءه موسى عليه السلام بالبيّنات الصادقة التي تدلُّ على أنه رسول الله، فلم يجد فرعون حيلةً إلا أن يوهم الناس بأنه ما جاء إلا ليخرجهم من أرضهم بالسحر، ولذلك قال له: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[2] فتستولي أنت وبنو إسرائيل على ملك مصر وحكمها؟ ولكن لا، لن ندعك تفعل هذا، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾[3]

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٧.

(٣) سورة طه، الآية: ٥٨.

المسهم

فنحن قادرون على أن نأتيك بسحرٍ مثل سحرك، بل ويفوقه، ولنبيّن للناس مدى هوانك علينا، وعدم قدرتك على مجاراة سحرتنا. فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن، ولا تخلفه أنت، وليكن في مكان تستوي فيه الرؤية للناس جميعاً، ليروا عندئذٍ كذب ادعائك النبوة، وضعف سحرك الذي لا يجدي..

وهذا ما يوحي بأنَّ فرعونَ كان مشوشاً في نفسه، خائفاً من حقيقة ما جاء به موسى عليه السلام.. ويظهر ذلك من خلال التفاوض الذي أجراه معه، وترك الأمر له بأن يعيّن زمان ومكان الاجتماع الذي تجري فيه مباراة السحر. كما يدل ذلك على أن المفاوضات حول القضايا الهامة كانت تحصل منذ القدم، وأنها كانت تجري في اجتماعات تعقد في زمانٍ ومكانٍ يتم تحديدهما والاتفاق عليهما من قبل الأطراف المتنازعة..

ولم يكن لتلك المفاوضات التي جرت ما بين موسى عليه السلام وفرعون وجهها الدينيّ فقط، بل كان لها كذلك وجهها السياسيّ بما له من تأثير على بني إسرائيل الذين كانوا يعيشون تحت سلطة فرعون، يذلهم، ويستعبدهم بكل ألوان الاستعباد خوفاً على ملكه من تكاثرهم وغلبتهم. وعادة لا يتحَرّج الطغاة الذين يكونون في سدّة الحكم من اتخاذ التدابير التي يحافظون بها على مناصبهم، ولو أدت إلى ارتكاب أشدّ الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية بحق الناس والإنسانية.. تماماً كما كان فرعون يفعل في محاولاته الإجرامية لاستئصال بني إسرائيل من الوجود، وذلك بقتل مواليدهم الذكور، واستبقاء إناثهم أحياءً، وتسخير آبائهم وأمهاتهم في الشاقّ والمهلك من الأعمال.

فلما أن جاءه موسى وأخوه هارون ببيّنات ربهما، وسألاه أن

المسهم

يرسل معهما بني إسرائيل، ولا يعذبهم، قال لموسى: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟ وهذا يعني بنظره أن إطلاق بني إسرائيل من العبودية هو تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض. ولذلك فإنه لمَّا جمع السحرة، كان اهتمامه هو وبطانته منصباً على إيهامهم بأن موسى وهارون إنما يريدان حكم مصر وإخراجهم من أرضهم كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾[1].

وكان ما كان من اجتماع فرعون بالسحرة، وهو يكرمهم، ويوصيهم ـ ويشدّد في وصيته عليهم ـ بأن يأتوا كل ما يقدرون عليه من السحر للتغلب على موسى. ووجدها السحرة فرصةً مواتية للكسب الكبير، فسألوا فرعون أن يجزيهم أجوراً عالية، لأنه سوف يرى ما يُرضيه.. فوعدهم بجزيل العطاء، وبعلوّ المنزلة والتكريم. ولكن ماذا حصل في الحقيقة؟ لقد رأى السحرة آية الله الكبرى بتحويل العصا الجامدة، التي ألقاها موسى، إلى ثعبان حيٍّ يلقف حبالهم التي جعلوا الناس يظنونها حياتٍ تتلوى أمام أنظارهم من قوة السحر. ولكنَّ السحر لا يمكن ـ مهما كان قوياً وشديداً ـ أن يحوِّل الأشياء إلى كائنات حية، بل هو أمر الله العليّ القدير الذي حوَّل عصا موسى إلى حيةٍ حقيقيّةٍ تبتلع الحبال الموهومة التي رماها السحرة، فآمنوا، وهم يرون المعجزة الخارقة، وسجدوا لرب العالمين. أما فرعون والملأُ من قومه فأصرّوا على كفرهم ولم تنفع معهم البراهين والحجج التي قدمها موسى وهارون إلى أولئك الطغاة الذين حكموا الناس بالظلم والجبروت!..

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٣.

المسهم

أجل فقد جاء موسى وهارون عليهما السلام بالآيات البيّنات وبالسلطان المبين إلى فرعون وملئه، فاستكبروا عن دعوتهما إلى الإيمان، وتجبروا، وتعاظموا، لأنهم كانوا قوماً عالين في الحكم، والسلطان، والقوة، والثراء وما إلى ذلك من الشؤون المادية التي يتعالى بها الناس على بعضهم البعض..

ويبيّن النص القرآنيّ بعض جوانب ذلك الاستكبار من فرعون وقومه إذ قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾، فهم لم يقروا بموسى وهارون رسولين من الله تعالى لأنهما بشران مثلهم. ولأنهما من بني إسرائيل، الذين كانوا عبيداً لهم يستخدمونهم بزراعة الأرض، وجمع الغلال، وكل ما يوفر لهم الثروة والمتاع، حتى وصل استخفافهم ببني إسرائيل إلى حد الاستعباد، والذل، والقهر بأنواعه البغيضة...

نعم لقد جاءهم موسى وهارون عليهما السلام بدعوة الحق إلى الإيمان، فكذبوهما، ولم يؤمنوا بشيء مما قالاه لهم أو فعلاه، فحق عليهم العقاب، فكانوا من المهلكين.

وقد ذكر الله تعالى كيف انتقم منهم بإغراقهم أجمعين، وذلك بقوله العزيز: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[1].

وتلك كانت نهاية المطاف لذلك الظالم، الطاغية فرعون، ولملئه الذين اتبعوه على الضلال. فقد استطاع موسى عليه السلام أن يخرج بني قومه من مصر في جوف الليل.. وسرعان ما وصل الخبر إلى

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٥٥ و٥٦.

المسهم

فرعون فأعلن من فوره النفير، ثمَّ جمع جنوده من كل حدبٍ وصوب، وركب على رأس جيشه يريدون اللحاق ببني إسرائيل، وإبادتهم على بكرة أبيهم. ولكنَّ الله تعالى أهلكه وجنوده جميعاً بإغراقهم في اليم. وهذا ما يوجزه القرآن المبين في الآيتين (٥٥ و٥٦ من سورة الزخرف) بإعجاز رائع في أداء التعبير ودلالة المعنى. أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾، فمعناه: فلمَّا أغضبونا، ولكنَّ هذا الغضب الذي ينسبه تعالى إلى نفسه، إنما هو في الحقيقة تدليل على غضب موسى وأخيه هارون عليهما السلام، لأنه لا يمكن لمخلوق أن يغضب ربَّ العزة والجلال، وإن كان للمخلوق قدرةٌ على أن يغضب مخلوقاً مثله. فإصرار الكافرين على كفرهم، والمشركين على شركهم كان يغضب ـ على الدوام ـ أنبياء الله، ورسله وأولياءه الصالحين. وهذا الغضب كان يتبدَّى بانتقام جبار السماوات والأرض من أعدائه وأعداء رسله، وانتقامه سبحانه وتعالى لأجل الحق، ولأجل أوليائه الصالحين لأن في رضاهم ما يرضي الله، وفي غضبهم ما يغضبه. فلما كان ذلك الغضب من موسى وهارون عليهما السلام كان الانتقام من الله (تعالى) بإهلاك فرعون وجنوده، فأغرقهم أجمعين. ثم جعل سبحانه هذا الهلاك وبالطريقة التي يصفها القرآن عندما انفلق البحر فكان كل فرقٍ كالطود العظيم، عبرةً للآخرين من الناس أجمعين، ومثلاً لكل من يقفون على خبرهم، علَّ في ذلك ما يردعهم عن غيهم، فلا يفعلون مثل فعالهم..

٧ ـ مَثَلُ أصحاب القرية التي جاءها المرسلون فكذبوهم

يقول الله تعالى:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ

المسهم

ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ
إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ
لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن
ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا
لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ
ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ
يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ
أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ
إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

في مطلع هذه الآيات خطابٌ من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بأن يضرب لكفار مكة، وللناس كافة، مثلاً عن أهل القرية ـ وقيل هي انطاكية ـ إذ جاءها المرسلون بدعوة الإيمان، وترك الكفر. فقد أرسل إليها إثنان من حواريي عيسى ابن مريم عليه السلام فكذبوهما، ولم يصدقوهما بما يدعوانهم إليه؛ فعزَّزهما اللّهُ (تعالى) برسولٍ ثالث، يشدّ أزرهما ويقوّي موقفهما. فاجتمع الثلاثة على معاضدة بعضهم في تبيان الدعوة التي أرسلوا بها، وفي صلاح تلك القرية حتى تهتدي إلى

(١) سورة يس، الآيات: ١٣ ـ ٣٠.

المسهم

حقيقة الإيمان فتنتفع بحسناته، وتنبذ بشاعة الكفر فيأتيها الانعتاق من سيئاته..

ولم يصدق أهل القرية المرسلين، بل واستهجنوا أن يكونوا بشراً مثلهم، فقالوا لهم: ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما يبعث الله أحداً من البشر، وما أنزل الرحمان شيئاً مما تدعوننا إليه. إن أنتم إلاَّ تكذبون بما تزعمون من حمل الرسالة، والدعوة إلى الله. مما يتبين منه أن اعتقاد أهل انطاكية كان عدم صلاحية البشر لحمل الرسالات السماوية، وذلك لجهلهم بأنَّ اللَّهَ (تعالى) لم يختر رسلَهُ إلى أهل الأرض إلاَّ من البشر، وهذا أفعل في التأثير على الناس، وأجدى في إيصال تعاليمه (سبحانه وتعالى) إلى العقول والقلوب من أناسٍ مثلهم، لا يختلفون عنهم إلا بأنهم من المبعوثين.

وردَّ المرسلون على أهل انطاكية، قائلين: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وإننا لصادقون بما نبلِّغ عن ربنا من الآيات التي تحمل الأدلة والبراهين على صدقنا، ومن التعاليم التي كلف بها عبده ونبيه عيسى ابن مريم عليه السلام. وقد حملناها إليكم وما علينا إلاَّ البلاغ المبين، فإن اهتديتم فذلك خير لكم، وفيه صلاحكم في الدنيا والآخرة..

قال أصحاب القرية: إننا تشاءَمْنا من وجودكم بيننا، فالمطر قد انحبس عنا، والجفاف قد عمَّ ديارنا، ولئن لم تنتهوا عن دعوتكم لنرجمنَّكم، وليصيبنّكم منا عذاب أليم.

قال المرسلون: لقد حلَّ الشؤم بدياركم لأنكم كافرون، وما حَبْسُ المطر إلاَّ آية من ربنا سبحانه وتعالى من شأنها أن تبعثَ فيكم التفكير على أنه هو القادر على إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها، كما أنَّ من شأنها أن تجذبَ نفوسكم إلى الإيمان بالله إلهاً واحداً أحداً

المسهم

لا يُعبد سواه، منه الخير، والبركة واليمن، ومنه الرحمة، والعفو والغفران. . أما هذا التطيّر أو الشؤم الذي تنسبونه إلى وجودنا، فإنه لا يصاحب رسل الله، بل يحلُّ في ديار الجاحدين لأنعم الله، والمنكرين فضله على عباده. . . ثم ما بالكم إذا ذُكِّرتم بحقيقة وجود الله تعالى، وأنه يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير، تتهموننا بالشؤم ونحن رسل الله لا نحمل إلا الخير والبركة، فآمنوا بما ندعوكم إليه يرحمكم الله تعالى ويغفر لكم ذنوبكم.

وثابر الكافرون على تكذيب المرسلين وتهديدهم، ودفَعَهم كيدهم لإنزال السوء برسل الله، فجاء أحد أبناء مدينتهم، ويدعى حبيب النجار، كان يقيم في طرفٍ بعيد من أطراف المدينة، يسعى مسرعاً إلى حيث تجمهر الناس في موجةٍ عارمةٍ من الغضب، ليعلن أمامَ الجماهير إيمانَهُ بالله (تعالى)، ثم قال: يا قوم، اتبعوا هؤلاء المرسلين، الذين يهدون للحق اليقين. اتبعوا من لا يسألونكم أجراً على هدايتكم، وهم مهتدون. . يا قوم! قد تعلمون أنَّ ولدي قد أصيب بالجذام، وقد بذلت في شفائه للأطباء والعرافين أموالاً طائلة من غير نفع جاؤوني به، ويشاء الله رب العالمين أن يأتيني هؤلاء المرسلون، وأن ينكبّوا على معالجة ابني، فيشفى بإذن الله من الجذام. وقد حاولت جاهداً أن أعطيهم أجرَ ما فعلوا، فردّوا عطائي بالمعروف، ولكنهم أظهروا لي الدعوة إلى الإيمان، والاهتداء إلى الدين الحق، فآمنت بالله إلهاً واحداً، عزيزاً مقتدراً. فاقبلوا نصحي، واتبعوا هؤلاء المرسلين.

وحاجّوه في أمره، منكرين عليه التخلِّيَ عن عبادة آلهتهم، والركون إلى عبادة الله! . .

المسهم

فقال لهم: وما لِيَ لا أعبد الله (تعالى) الذي خلقني، وأنعم عليَّ فهداني.. وقد كنتم أمواتاً، فأحياكم، ثم يميتكم، ثم إليه ترجعون بعد الموت.. أأتخذ من دون الله (سبحانه وتعالى) آلهةً من الأصنام أو الأوثان، إنْ يُردني الرحمانُ بضرٍ فلا تستطيع أن تشفع لي عنده، لأنه لا شفاعة لها، وهي أحقر وأذل من أن يكون لها شفاعة عند الله، أو قدرة على الإنقاذ عند الشدَّة. فإن لم يكن لهذه الأصنام شأن يذكر، أأتخذها آلهة موهومة من دون الله، ولئن فعلت، إني إذن لفي ضلالٍ مبين. ولكن ولله الحمد ظهر لي الحق من الباطل، فاتّبعت ما أنقذني من الكفر والضلال وآمنت بالله ربكم فاسمعوني وأطيعوني، حتى يكون لكم النجاة والفوز. وفارق الرسل الحياة بعد أن أسلموا الروح لبارئها لما أصابهم من عذاب. وكانت نهاية هذا المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة يسعى للذود عن رسل الله، أن رجمه الكفار (كما ورد في بعض التفسيرات) فخرَّ مضرجاً بدمائه، وقضى شهيداً لإيمانه، ودفاعه عن الحق.

والقرآن الكريم لا ينبىء شيئاً عن حال المرسلين وهل كان نصيبهم القتل، ولا عن الكيفية التي قتل بها المؤمن بل ينقلنا نقلةً سريعة تفيد أنه توفي، وأنه حُمل على أجنحةٍ من نور إلى السماء، لأنه قيل له: «ادخل الجنة»، هذا ما وعدك به اللَّهُ ربك على ما عاهدته عليه من صدق الإيمان، والوفاء بعهده تعالى.. ثم نتبيّن مقدار الفوز العظيم الذي ناله بدخوله الجنة إذ قال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ الصالحين الذين يستشهدون في سبيل الله، ونصرة دينه ورُسله.. فأي ثواب أعظم من مغفرة الله، وأي جزاء أوفى

المسهم

من مكرمته لعبده، بل وأي فوز أعظم من دخول الجنة؟ ولهذا فليعمل العاملون.

ولا ريب بأن القرآن المجيد، يبين لنا، في هذه الآيات الكريمة، حقيقة أساسية ألا وهي أنَّ الحياة الدنيا غير منفصلة عن الآخرة، بل هي تتصل بها في كل شيء يخص الإنسان، وأن الموت ليس إلاَّ خطوة فاصلة تنقل المؤمن من ضيق الأرض إلى رحاب السماء، ومن ظلمات الجهل إلى نور اليقين، وتريحه من تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق. أما أهم ما في هذا الموت فهو أنه ينقل الإنسان من عالم الفناء إلى عالم البقاء، حيث لا موت ولا فناء، بل خلود وحياة أبدية سرمدية: إما في النار، وإما في الجنة.. وما جزاء الإيمان الصادق، والاستشهاد في سبيل الله (تعالى) إلا الفوز العظيم في الجنة. وهذا حق اليقين مثلُ ما أن الناس ينطقون. فلا يتوهمنَّ أحدٌ أنه لا قيامة، ولا دينونة، ولا يظنَّ أحد بأن له فضلاً عند ربه تعالى إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الحياة الدنيا، فهؤلاء أصحاب الفضل، ولهم الأجر والثواب يوم الحساب. ولولا مغفرة الله (عز وجل) ورحمته التي وسعت كل شيء، لما كان حتى لهؤلاء المؤمنين من فوز، لأن الإنسان ـ بطبيعته ـ لديه الاستعداد لارتكاب الخطأ أو السوء، وهنا يتميز المؤمنون عن غيرهم بأن حسناتهم تغلب سيئاتهم، فتشملهم رحمة الله الذي يبدِّل سيئاتهم حسنات. ولذلك كان قتل المؤمن من أصحاب القرية التي جاءها المرسلون الفاصلَ الذي نقله سريعاً من دار الدنيا إلى رحاب الجنة لأنه استشهد دفاعاً عن الحق، وقال كلمة الحق من غير أن يخاف في الله لومة لائم. ومن شدة فرحه بما آتاه ربه من الرضى والكرامة نجده يتمنى لو يراه قومه ليعرفوا ما أعدَّ الله لعباده

المسهم

الصالحين من الخير والنعيم، وليدركوا أنَّ ما قاله لهم كان حقاً..

وما أنزل الله (تعالى) على قومه من بعد موته ملائكةً من السماء يسومونهم سوء العذاب، وما كان ـ جلت عظمته ـ ليُنزلَ مثل هؤلاء الملائكة ليهلك الناسَ وهو الخبير اللطيف، أو ليروِّع أهل الأرض بجندٍ من السماء لا قبل لهم بملاقاتهم، ولا طاقة لهم على احتمال قتالهم، بل وعلى رؤيتهم يروحون ويجيئون بين صفوفهم.. ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ إذا شاء أن يهلك قوماً مجرمين، فذلك عليه هيّن، كما أهلك أهل تلك القرية التي كذبت المرسلين، إن كانت إلا صيحة واحدة من جبريل عليه السلام فأخمدت أنفاسهم، وأبادتهم على بكرة أبيهم.

فيا حسرة على العباد كيف يتيهون وراء الباطل، وينسون بأن الله هو العليّ القدير، ولولا كلمة منه بتأخير العذاب إلى يوم الحساب لما أبقى على هذه الأرض ديَّاراً. فالعباد ضعاف في الحقيقة، بل وهم في منتهى الضعف لأن الصيحة الواحدة ـ بأمر الله ـ ترديهم صرعى، والمثال ظاهر في أصحاب هذه القرية الذين كانوا مثل غيرهم من العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون. ولكن ماذا حلَّ بهم غير الموت والهوان. ولم يفصِّل القرآن خبرَ هلاكهم تحقيراً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم، كما هو الشأن مع أمم غابرة عديدة، ومع أقوام كثيرين ممن سبقوهم من الأولين، كانوا مثلهم ما يأتيهم من نبيّ إلاّ كانوا به يستهزؤون فأهلكهم الله تعالى، وأهلك أشدَّ منهم بطشاً وطغياناً. ومضى هلاكهم مثلاً في الزمان على كل من يكذِّب رسل الله، ويتصدى لدعوات الحق التي يحملونها للعباد، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا

المسهم

بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

هذه النصوص الكريمة توحي بأنه ما من عصر إلا وبعث الله فيه نبياً أو رسولاً، يدعو أهلَه إلى دينه القويم، والاحتكام إلى شرعه. ولكنَّ الناس كانوا يكذبون بآيات الله بسبب الجهل الذي يسيطر على عقولهم، والعناد في قبول الحق من ربهم، فكان تبيان مصائر أولئك الأولين المكذبين ـ في هذه النصوص ـ عبرةً للناس عامةً، وموعظةً لأهل مكة، ومن تبعهم من عرب الجاهلية، ألاّ يكذبوا النبيَّ المبعوثَ فيهم، وألاّ يستهزؤوا به، وإلا حلَّ بهم مثل ما حلَّ بالأقوام من قبل، وقد كانوا أشدَّ منهم قوةً وبأساً، وأكثر مالاً ومنعة.

ويُعتبر هذا المثل سنةً كونيةً تردّ القوى جميعاً لله العليّ القدير، فلا يغترّنَّ أهل الأرض بعد بقوةٍ أو بأس، ولا يعتدُّنَّ بسلطان أو حصانة. فالعاقبة الحسنة ـ في الحقيقة ـ ليست للقوة، ولا سيما إذا كانت ظالمة وغاشمة، بل للأعمال الصالحة وحدها إذا كانت مبنية على الإيمان الصادق، وما عداها فهو هراء، واستخفاف من العباد بما ينتظرهم يوم الحساب.

٨ ـ إن للذين ظلموا ذَنوباً مثل ذنوب أمثالهم.

يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾[2].

لا أحد يطلع على تاريخ السيرة النبوية الشريفة إلاّ ويثبت له بأن أهل مكة، ومن تبعهم من الأحزاب، قد حاربوا النبيّ وأصحابه حرباً ضارية بكل أفانينها السياسية، والدعائية والقتالية في محاولات يائسة

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٦ ـ ٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٩.

للقضاء على الدعوة، لأن هدفهم كان البقاء على الشرك والجاهلية لأغراضٍ دنيويةٍ بحتة، وهذا ما يجعل وصف «الظالمين»، ينطبق عليهم، باعتبار أن أكثر الناس ظلماً في الحياة هم ـ عادة ـ أهل الكفر والشرك. . فما من شيءٍ محرَّم في عرف هؤلاء إذا كان فيه ما يخدم مصالحهم، وهذا ما يجعلهم يقترفون الذنوب مثل أصحابهم، أو الذين هم على شاكلتهم في الناس. والذنوب ـ بمقتضى سنن الله (تعالى) في خلقه ـ تورث العذاب، فلا يستعجلون في طلبه لو كانوا يدركون عواقبه الوخيمة كما كان يفعل الظالمون في عهود الرسالات السماوية. فهم سوف ينالون ـ في نهاية المطاف ـ حظّهم أي نصيبهم من العذاب الذي يستحقون عندما يحلُّ أجله، وإن بدا أنهم مستأخرون بأمر الله، فيوم القيامة لن يتركوا سدىً، وسيجزي الله الظالمين يومئذٍ بظلمهم، وسيكون جزاؤهم بمقدار ما ارتكبوا من جرائم وفساد في الأرض.

٩ ـ عدم اعتبار المكذبين بالمَثُلات التي خلت من قبلهم

يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١).

تبدأ سورة الرعد بالتأكيد على أَن هذه الآيات من القرآن، وأنّ الذي أنزل على النبيّ من ربه هو الحق، ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون بأنه من عند الله (تعالى) الذي خلق السماوات والأرض بغير عمد يرونها؛ وأنه قد سخَّر الشمس والقمر، كل يجري في فلكه لأجل مقدَّر له، وذلك تدبير العزيز الحكيم لصالح العباد؛ وأنه تعالى هو

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٦.

المسهم

الذي بسط الأرض وأرسى فيها الجبال، وأجرى الأنهار، وجعل من كل الثمرات فيها زوجين اثنين لتمدَّ الناس بالخيرات والأرزاق الوفيرة التي تمكّن لهم من العيش والبقاء أحياء؛ وأنه هو الذي خلق الليل والنهار، يتعاقبان بأمره ليسكن الناس ويخلدوا إلى الراحة في الليل، ويكدّوا في النهار وراء معايشهم وغاياتهم؛ وأنه هو الذي جعل في الأرض بقاعاً متنوعة، قد تكون على الرغم من تجاورها وتلاصقها، طيبة فتنبت الزروع والثمار الطيبة، أو قد تكون قليلة الريع فلا تنبت زرعاً، ولا تعطي خيراً. . .

فكل ذلك الخلق العظيم آيات وبراهين لقوم يعقلون، فيدركون عظمة الخالق، وأنه على كل شيء قدير. فإن لم يعقلوا فذلك غريب ومستهجن. وأعجب منه إنكارهم قدرة الله تعالى على البعث وإعادة إحيائهم من جديد، كما يتبيّن ذلك، في الخطاب للنبيّ من ربه الحكيم، بقوله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، أجل، وعلى الرغم من تلك الآيات في خلق السماوات والأرض، والتي تدل بنفسها على قدرة الله العليّ الكبير في الخلق والتدبير، فإنه من العجب أن ينكروا البعث، وألاَّ يصدقوا بأن الله قادر على إحيائهم من جديد بعد أن يكونوا تراباً، وإعادتهم بشراً كما كانوا من قبل في الحياة الدنيا. والذين لا يؤمنون بأنهم سوف يبعثون في خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم، وأولئك الأغلال في أعناقهم يجرون بها إلى النار وهم فيها خالدون.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٥.

المسهم

ويبدو أن الكفار والمشركين اتخذوا من هذا الوعيد هزواً، فكانوا يسخرون من النبيّ ويقولون: إن كان ما تعدنا به حقاً، فأنزل علينا كسفاً من السماء يكون فيها هلا كنا، وبعثنا في خلق جديد!..

هكذا كانوا يستعجلون بالعذاب «ويستعجلونك بالسَّيئة».. من غير أن يعتبروا بالمثلات، بتلك العقوبات التي أنزلها الله بالمكذبين من الأمم الخالية، وحمل الوحي أخبارها للنبيّ يتلوها على مسامعهم، ويقدم عليها البراهين والأدلة لعلَّها تكون عبراً وعظات تردهم عن غيِّهم وضلالهم. ولكنَّ المكذبين لم ينفع معهم الوعيد، ولا الوعظ، بل لجّوا في عتوِّهم وظلمهم.. وعلى الرغم من ذلك فإن ربك ـ يا محمد ـ لذو مغفرة للناس على ظلمهم، ولولا رحمته بالناس لما ترك على ظهرها أحداً منهم، فهو سبحانه قابل التوب، غافر الذنب ممن أطاعوه، وهو سبحانه شديد العقاب لمن عصوه

وروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية قال النبيّ ﷺ: **«لولا عفو الله وتجاوزه لما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد على عفوه ومغفرته»**[1]؛ وقال: **«لو يعلم الناس قدر رحمة الله وعفوه وتجاوزه عن ظلمهم لأنفسهم لقرَّت أعينهم، ولو يعلم الناس قدر عذاب الله وبأسه ونكاله ونقمته ما رقأ لهم دمع ولا قرَّت لهم عين»**[2].

---

(١) سنن الترمذي، باب الديات، ص٥.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢١٠٩.

المسهم

١٠ ـ نار جهنم ترمي المكذبين بشرر كالقصر

يقول الله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾(١).

وهذا تبيان من رب العالمين يذكر ما يقوله الملائكة المأمورون، يوم الحساب، للمكذبين. ومؤداه: هيا انطلقوا إلى النار التي كنتم بها تكذبون، فاليوم تجدونها حقاً يقيناً، وتردونها عذاباً أليماً.

وبما أن الانطلاق يعني، لغةً، العدو من مكان إلى آخر من غير مكث أو وقف، فيكون المعنى أن الملائكة يدعّون الكفار إلى جهنّم دعّاً، ويزجرونهم للإسراع إلى مصيرهم المحتوم في نار جهنم التي يتلظى سعيرها فيتصاعد منها الدخان الكثيف حتى يصير ظلاً داكناً ذا ثلاث شعب، وذلك كناية عن الاتجاهات من أمامهم، وعن يمينهم وشمالهم، إذ خلفوا الجهة الرابعة من ورائهم فلا يعودون إليها، فهم كيفما التفتوا يرون ظلالاً داكنة، ولكنها ليست من الظلال التي ألفوها في الحياة الدنيا، والتي يلجأ الناس للتبرّد تحتها من وهج الشمس وشدة حرارتها، بل إنها ظلال من دخان متراكم بعضه فوق بعض يتصاعد من نار جهنم، ولا يغني من اللهب المنبعث منها؛ وتلك النار التي تتلظى غضباً لاستقبال المسوقين إليها، ترميهم قبل وصولهم بشرر، كل شرارة كالقصر العظيم في حجمها وكبرها..

---

(١) سورة المرسلات، الآيات: ٢٩ ـ ٣١.

المسهم

فهذه صورة حسية تقدمها النُصوص القرآنية عسى أن يتذكر المكذبون ما يرون من الحرائق التي تشب في الأبنية، أو الغابات، أو المنشآت النفطية كيف يتصاعد منها الدخان القاتل، وكيف ترتفع ألسنة اللهب في الجو.

وهي تقذف بالشرر المتطاير في مختلف الاتجاهات.. فتكون لهم عبرة وعظة عما يتوعدهم به ربهم بسبب إصرارهم على تكذيب آياته، والاستهزاء بوعيده..

وفي العودة إلى وصف ذلك المشهد العظيم، لا يكتفي النص بتبيان حجم ذلك الشرر الذي تقذف به نار جهنم، بل يمثل عليه أيضاً بصورة حسيَّة حيث لا يكون لونه أصفر وهاجاً مثل لون الشرر عادة، إنه يشبه لاختلاطه بالدخان الأسود المتصاعد لون الجمال السود التي كانت العرب تسميها «صفرا» لشوب سواد جلودها بالصفرة. فتلك النار هي مستقر المكذبين بآيات الله (تعالى).

أجل، إن النصوص القرآنية ترسم لنا صورة حسيّة للمكذبين وهم يُؤمرون بالانطلاق سراعاً إلى مستقرهم في النار، إذ يكونون بحالة مزريةٍ من الذل والهوان، وبنفوس ضعيفةٍ من الهلع والخوف. ويزيدهم قهراً وعذاباً ما يداهم وجوههم من سحاب الدخان الأسود الحار، وما يتطاير من شرر قاتل ينبعث من اللهب المتأجج، الذي يُرمون به قبل أن يُقذف بهم في ذلك الأتون المستعر.. فكان حقاً أن يلاقوا العذاب الأليم، والبلاء العظيم. فويل يومئذٍ للمكذبين، وتلكم هي عاقبتهم في نار الجحيم..

المسهم

١١ ـ ليس عاقبة الذين لا يؤمنون إلا مثل عاقبة الذين مضوا من قبلهم.

يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[1].

وهذا توجيه من الله سبحانه وتعالى للتفكّر في خلق السماوات والأرض. وهو يأتي في سياق تنبيه الرسول الكريم ﷺ بأن يقول، للذين يطلبون الحجج والبراهين على صدق دعوته ما معناه: انظروا ماذا في السماوات والأرض من الدلائل والعبر: ففي السماوات النجوم والكواكب المسيّرات بأمر الله في كونٍ بديع الصنع، متكامل التناسق والانتظام، وفيها الأفلاك والمدارات التي حبكت بأدق خلق وأعظم تقدير.. وفي الأرض: تعاقب الليل والنهار، والبحار الواسعة والأنهار الجارية وفيها الجبال الرواسي، والأَرض المنبسطة التي أخرج نباتها وأشجارها، وأطلع ثمارها وأزهارها، بل والتي خلق فيها الجبال وبسط فيها من عجيب الحيوانات والحشرات ما لا يقع تحت حصر.. فانظروا وأحسنوا النظر في هذا التنوع والتعدّد، ثم تدبروا ما يقدر عليه القادر المقتدر.

والنظر في السماوات والأرض يمدّ العقل والقلب بزادٍ من المشاعر والتأملات عند ذوي البصر والبصيرة، وبزادٍ من الاستجابات والتأثرات عند ذوي التفكّر والتدبّر.. أي أن النظر[2] يدعو إلى الإيمان

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ١٠١ و١٠٢.

(٢) **النظر**: هو طلب الشيء وإدراكه بالفكر، كما يطلب رؤيته بالعين المجردة. وهو=

المسلم

بالخالق إلهاً واحداً، وربّاً معبوداً، وإلى الاستيقان بأنه العليم الحكيم. ولكن وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون؟ فالحجج والبراهين المقدمة، والآيات المبثوثة في الكون، جميعها لا تغني ولا تفيد عند قوم لا يؤمنون بخالق السماوات والأرض أصلاً، ولا يملكون استعداداً للهداية والإيمان تبعاً، ومهما قدّمت لهم الأدلة، ومهما نظروا إلى الآيات، لا يؤثر ذلك في عقولهم الجافة، وقلوبهم المغلقة، ونفوسهم الجاحدة. إنهم ينظرون إلى الآيات بأم العين، فلا يستدلون بها على شيء وكأنَّ ما يعنيهم فقط هو الإعراض عن التبصّر والتفكّر بحقائق ودلالات المخلوقات من حولهم. ماذا ينتظرون، في النهاية، من هذا الإعراض؟ بل وماذا يأملون في الآخرة، وهم يعرفون أنهم ميّتون، وقد أنذروا من قبل الرسل، فلم يرعووا للإنذار ولم يؤمنوا؟ ليس أمامهم إلاّ العواقب الوخيمة التي تحل عليهم في أيام مثل أيام الذين خلوا من قبلهم. هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرة وحيث يلقون ربهم بوجوهٍ مكفهرّة، وذنوبٍ مستقرّة، وآثامٍ مدانة فيوم الحساب عسير، وبعده أيام العذاب الأليم. هذا ما ينتظرهم، ولعلّه الشيء الوحيد الذي يستحقون!..

ذلك ما كان ينذر به رسول الله ﷺ ويحذّر منه. وبسبب عدم الاستجابة يأمره ربه العزيز أن يتوعدهم ويتهددهم على ما سوف يحيق بهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾. انتظروا أيها

= الثبات لتوقع ما يكون من الحال. فتقول: انتظرني حتى أتبعك؛ أمّا لو قلت: توقعني، فلم تكن قد أمرته بالثبات.

المسهم

الكفار والمشركون الهلاك القادم، والعذاب الآتي لا محالة، فإن لم يكن في هذه الدنيا، ففي الآخرة حتماً. وإني معكم أنتظر حكم ربِّي العليّ القدير..

المسهم

معالجة الأمثال القرآنية لأهم القضايا المؤثرة في حياة الناس

من الحقائق الثابتة في الحياة البشرية كثرة وتنوع القضايا التي تحيط بهذه الحياة، وما يكون لها من تأثيرات بالغة الأهمية سواء على صعيد المعتقدات والتوجهات، أو على مستوى الشؤون والعلاقات التي تربط الناس بعضهم ببعض، وتجعلهم يتخذون المواقف، ويتبعون المناهج التي تأتلف مع غاياتهم ومقاصدهم. . وقد تناولت الأمثالُ في في القرآن الكريم معظم هذه القضايا لتضع الناس أمام الخيار بين القبول أو الرفض لهذه القضية أو تلك، وبيان السبل التي من شأنها أن تمدّ الإنسان بالمقومات السليمة التي تمكنه من الأخذ بالخيار الذي يتوافق ونزعته الإنسانية وينسجم مع إيمانه بربه والسير على هداه. وذلك من غير أن تُغْفِلَ هذه الأمثال تبيان مع ما يترتب على الخطأ في الاختيار، والمكابرة في التصدي للحقيقة من هناتٍ ومساوىء وشرور سوف يجدها الإنسان ماثلة أمامه، إن لم يكن في هذه الحياة الدنيا، ففي الحياة الآخرة، حيث لا إفلات من الحساب العادل، ولا مناص من ملاقاة المصير الذي يكون الإنسان قد صنعه بيديه في الحياة الدنيا.

وأهم هذه القضايا، التي تتناولها الأمثال القرآنية في هذا الفصل، كما وفقنا الله تعالى للاهتداء إليها، هي التالية.

المسهم

الفقرة الأولى ـ الحق والباطل

١ ـ الباطلُ مثلُ الزبد الذي يذهب جُفاءً

يقول اللَّهُ تعالى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1].

إنها معركة ضارية ولن تتوقف أبداً ما دام الإنسان حياً على هذه الأرض، وما دام الصراع قائماً بين الحق والباطل. وقد وجدت هذه المعركة منذ أخذ إبليس اللعين العهد على نفسه بأن ينتقم من آدم وذريته، يوم أن أمر الله (تعالى) الملائكة أن يسجدوا لآدم ـ وكان بينهم إبليس[2] فسجدوا، إلاَّ هو فقد أبى، واستكبر، وكان من الكافرين.

---

(١) سورة الرعد، الآيتان: ١٦ و١٧.

(٢) إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن كما يبيّن جنسَه القرآن في الآية ٥٠ من سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

أما لماذا كان وجوده بين الملائكة، وهو من الجن، فهذا من علم الله تعالى. وليس علينا معرفة ذلك، إذ كان وجودنا الأرضي يقتضي منا أن نعلم بأن إبليس هو عدونا، وهو الذي يوقعنا في المعاصي والذنوب، فكان الأولى أن نعمل بطاعة الله ورسوله حتى يمكن لنا غلبة الشيطان وأعوانه.

المسهم

ومُذاك والمعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر على أشدّها، وقد آتت مفاعيلها فوراً إذ زيّن إبليس لآدم وزوجته حواء الخلد، فأكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها، فغوى آدم، وأخرجه إبليس من الجنة التي كان فيها ليعيش على هذه الأرض تجربة الابتلاء والاختبار.. ثم وسوس الشيطان لقابيل ابن آدم فقتل أخاه هابيل، فكانت تلك الجريمة نقطة الانطلاق التي انفلت منها الشيطان وقبيله من الجن والإنس، يغرون الآدميين بالظنون الخادعة، ويفتنونهم بالمطامع والشهوات القاتلة.. فانصاع لوسوستهم الضعاف، والمتخاذلون عن مقاومة الغواية والفتن حتى حلَّ بالناس البلاء، وحاق بهم الشر من كل الجوانب. وبالفعل فقد صدَّق إبليس وعده على ذوي النفوس الضالة عن الحق، فكانوا أبالسةً أكثر من إبليس، ولكن بثوب الآدميين، فلا يتورعون عن انتهاك أقدس المقدسات، ولا عن ارتكاب أفظع الجرائم بحق البشرية؛ ولعلَّ مثالها الصارخ الجرائم المتعلقة بحقوق الإنسان، وبسلب مقومات عيشه، وإخضاعه لإرادة السالبين وظلمهم، كما تشهد على ذلك وقائع الحياة وأحداثها خلال مسيرة الإنسان، وعبر تاريخه الطويل..

وسوف تبقى أعمال الشر والباطل تلقي بآثارها وظلالها ما دامت المعركة دائرة بين الإنسان والشيطان. بل وسوف تزداد شراسة كلما أوغل الناس في الكفر والضلال، وكلما تمادوا في أعمال الفسق والفساد، دونما رادع فعّال ومؤثر، إلا من عصم الله (تعالى) عن الوقوع في حبائل الشيطان.

ولكن ويل للناس وهم غافلون عن يوم البعث والحساب! فالحكم يومئذٍ لله الواحد القهار، رب السماوات والأرض، الذي يثيب

المسهم

ويجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالفوز بالجنة، ويجازي الذين كفروا وأفسدوا في الأرض بالعقاب في النار. فهو ـ سبحانه ـ لا يعلم الأعمال الظاهرة وحسب، بل ويعلم النوايا وما في دخائل النفوس، فيحاسب على الأعمال والنوايا على حد سواء..

ومن الآن وحتى تقوم الساعة، وإلى أن يقف الناس بين يدي رب العالمين، فإن المفسدين في الأرض سوف يبقون سادرين في غيهم، ويأتون بالأعمال الضارة لأنفسهم ولغيرهم. وهم بذلك إنما ينصرون الأبالسة والشياطين عليهم هم أولاً، ومن ثَمَّ على أهل الحق والإيمان. فمسكين هذا الذي يقبع في حجرة مغلقة وهو يخطط للقتل، أو السلب، أو الاحتكار أو الاستغلال!.. ومسكين هذا الذي يتوهم أنه قادر ومقتدر، وصاحب مكانةٍ تخوله السلطة والصلاحية، ثم يتخذ قراراته بما يخدم نوازعه وأهواءه الدنيوية.. ومسكين.. ومسكين.. جميع أولئك الذين نسوا أن الموت حق، وأن القيامة حق، وأن الحساب آتٍ لا ريب فيه!...

وإن الأعمال التي يظنونها مقْدِرةً، ومهارةً، وفناً من عند أنفسهم هي التي سوف يجازون عليها يوم الدين.. فقد تاهوا عن هذه الحقيقة فأتوا، ويأتون بالسيئات التي تتكثَّف بها سحب الباطل وظلاله، والتي تحجب أنوار الحق وأضواءه.. ولقد بعدوا عن ربهم وخالقهم فجعلوا نفحات الخير تنوء تحت لطمات الشر، والطيب يتوارى من صولة الخبيث، وصوت العدالة يخفت من قرقعة الظلم.. حتى ليظن الناس، من سوء ما يحيق بهم، بأن دولة الحق قد دالت إلى غير رجعة!.. هل هذا تشاؤم أم أنه واقع الحياة؟ العاقلون المنصفون يحكمون!..

المسهم

ولكن رويدكم يا أصحاب تلك «الأعمال الموصوفة»! . .

وليكن معلوماً أنه مهما استفحل الشر، ومهما بغى الطواغيت فلا بد أن يرى الناس نوراً ينبثق من خلال هذا الظلام الدامس، وسناءً يتألق من بين مادية الضلال الجائر. .

ولا بدَّ أن يستجمع الحق قواه ويدفع المؤمنين الصادقين على درب الانعتاق، وهم يحملون نور الله الهادي، فلا ترهبهم الأبالسة البشرية، ولو تمنطقت بكل أسباب القوة، وبقنابل الذرة والهيدروجين، ولا تخيفهم الأنظمة المعولمة ولو تسلحت بكل أفانين الكمبيوتر، وبمخططات الاقتصاد، وأنظمة السياسة وقوانين المال. . فالمؤمنون هم جنود الله، وهم أنصار الله، فهم ـ بحول الله ـ الغالبون في علم الله. لأن هدفهم واحد على الدوام، وهو إعلاء كلمة الله وجعلها هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، فيقدمون على الشهادة والتضحية بغير حساب، وينشدون التغيير بغير مواربة. وإنهم وهم يقدمون على ما يفعلون لا يخافون في الله لومة لائم. فكان حقاً على الله ـ ربِّ العزة والجلال ـ أن ينصرهم لأن من ينصرُ الله ينصره الله.

ولذا فإنّا ـ وسائر المؤمنين ـ على يقين من أن الحق ثابت وقائم، وأنَّ له دائماً أصحاباً وأنصاراً، بينما الباطل زاهق زائل، لأن الباطل كان زهوقاً. فمن سنن الله تعالى في خلقه أن يسيطر الحق في نهاية المطاف، وإن طال الزمن، لأنَّ للباطل جولة ساعة، لكنّ جولة الحق تدوم إلى قيام الساعة.

من هنا، فإن الصور مهما تراءت قاتمة ومظلمة، أو بدت الأحداث عاصفة وقاهرة في مواجهة المؤمنين وأنصار الحق، فإن

المسهم

الأمل يظل معقوداً على هذا الإنسان بأن يهتديَ ـ بالفطرة التي فطره الله تعالى عليها ـ إلى نُصرةِ الحق ومحاربة الباطل. والبداية تكون بالإيمان بما أنزل الله (تعالى) على عبده ورسوله محمد ﷺ من قرآن مبين يهدي للتي هي أقوم، ويبيّن للناس الحقائق التي تهديهم إلى الصراط المستقيم.. وبهذا الإيمان وحده يستطيع الإنسان أن يتغلب على وسوسة الشيطان، وأن يتوافق مع إخوانه في الإنسانية، ليكون وإياهم جنداً لله، ومن أنصار الله ليقيموا له الدين ولو كره الكافرون.

وها هو القرآن الكريم يقدم لنا في الآيتين ١٦ و١٧ من سورة الرعد ـ اللتين نحن بصددهما ـ الأمثال التي تؤكد ثبات الحق وديمومته، وزوال الباطل وفناءه. ومن استشفاف معانيهما يتبين لنا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب إلى نبيه محمد ﷺ بأن يسأل الكفار والمشركين: من رب السماوات والأرض، ومن يدبّرهما ويصرّف أحوالهما بما خلق من سنن وقوانين؟ وهذا السؤال ملقىً على عاتق كل مؤمن كي يسأله لأهل الباطل ويطلب منهم الجواب!..

وطبعاً سوف يستعجم الجوابُ على هؤلاء، كما استعجم على الكافرين والمشركين من قبل، لأنهم لم يستطيعوا ـ حتى الادعاء ـ بأن أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها هي التي خلقت السماوات والأرض. ولئن اعتقد أو ظنَّ البعض أنَّها وجدت من العدم مصادفةً، أو بصورة تلقائية ذاتية، من غير أن يكون لها موجد قد أوجدها، فإنَّ مثل هذا الظنّ محض تصورات مغلوطة، وأفكار خاطئة، تدل بنفسها على خطأها، وتحكم بذاتها على فسادها. خاصة وأن الذين ينكرون بأنَّ الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض لم يقدموا أي برهان مقنع على إنكارهم، في حين أن القرآن قد أثبت، وبكثير من الأدلة

المسهم

والبراهين القاطعة، والتي لم يستطع أحدٌ دحضها، بأنَّ اللَّهَ تعالى هو رب السماوات والأرض وهو خالقهما، ومدبرهما. فإن لم يعترف المشركون والمنكرون بهذه الحقيقة جهراً، فهم ولا ريب يقرون بها في قرارة نفوسهم. ثُمَّ سواء أكانوا يعلمون هذه الحقيقة ويكتمونها، أو كانوا يجهلونها أو يضلّون عنها، فلا بُدَّ أن يواجَهوا بها، وأن يُسألوا السؤال الذي يحمل كل معاني التبكيت والتقريع والتوبيخ: أفتتخذون من دون الله أولياء تعبدونهم، وأنتم تعلمون أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟ بئس ما اتخذتم من أولياء، وبئس ما عبدتم من دون الله!

ومن براهين القرآن الكريم على هذه الحقيقة ما يتضمن من الأمثال المحسوسة التي يعالج بها واقع حياة الناس، أو التي يرسم بها بعض صفحات الكون، علماً بأنَّ كل شيء في الوجود يدلُّ على آثار رحمة الله، وعلى أنه الخالق العظيم، وأنه وليُّ الذين آمنوا، ولا وليَّ غيره. . ومن تلك البراهين على أنَّ الله (تعالى) هو الوليُّ والناصر، وأن الذين يتخذونهم أولياء من دون الله، لا يملكون شيئاً من مقومات الوليّ، ما نجد في هذا المثل من الفارق ما بين الأعمى والبصير، وما بين الظلمات والنور. فكما أنه لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك الحال ما بين الكافر والمؤمن!.

فأما الكافر فإنه يعبد من دون الله ما لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ومثاله الكواكب أو الأصنام أو القوى الموهومة التي كان الناس يعبدونها من قبل، أو المعتقدات الإلحادية، أو الأهواء والرغبات والشهوات التي تطغى على النفوس اليوم حتى يصير أصحابها عبيداً

المسهم

لها، بحيث يتخذ كلٌّ إلهه هواه، وينساق وراءه على عمى البصيرة والبهتان..

وأما المؤمن فإنه يعبد الله رب العالمين، الذي وحده سبحانه يملك النفع والضر، وعبادته هي الحق، لأنه رب العرش العظيم، والمدبر الحكيم. ولذلك كانت عبادة المؤمن لربه قائمة على نور البصيرة والهدى.

وزيادة في تنوير الأذهان، يضرب الله تعالى للناس الأمثال بالظلمات والنور، ويسألهم في قرآنه المبين هل تستوي الظلمات والنور؟ فهل هما من جنس واحد، ولهما نفس الخصائص، أم أنهما ضدان بطبيعتهما في نظام الكون الشامل؟ إذن فعبادة الله (تعالى) هي النور، وعبادة من يتخذونهم أولياء من دون الله هي الظلمات التي تلفُّ النفوس وتحجب عنها نور الإيمان الصادق.

ثم تضيف النصوص القرآنية الدليل الذي لا يمكن دحضه بأية حجة أو بأي علم أو ظن، وذلك عندما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.. نعم هل من خالق غير الله؟ وهل الذين يشركونهم بعبادة الله قد خلقوا شيئاً مثل خلقه؟ وفي الواقع هل يقدر أحد على أن يخلق ثمرةً أو حجراً، أو أن يصنع ذباباً أو عنكبوتاً. بل كل ما فعله الإنسان ـ وعلى الرغم مما توصل إليه من العلوم ـ كان مجرد اكتشافات لأشياء قد خلق الله أصلها ونظامها وقوانين وجودها، لأنه هو الخالق. وهل يمكن التفكير أو القول بأن بعض الأشياء من خلق الله، وبأن غيرها من خلق غير الله، فتشابهت المخلوقات على المشركين فلا يعرفون خالقها؟

المسهم

لم يعلم الناس أنَّ أحداً قد ادَّعى بأنه خالقٌ من دون الله. فهذا النفي المطلق هو من الحقائق الدامغة على أن الله تعالى هو الخالق.. بل أبسط من ذلك، فإن أحداً من الناس لا يقدر على الادعاء بأنه قادر على أن يجعل الشمس تشرق من المغرب، أو تغيب في الشرق، أو أن يحيل النور ظلاماً، أو الظلام نوراً، أو أن يبدل الليل نهاراً، والنهار ليلاً!..

فيا أيها الإنسان!

إنك، وإن حاولت أن تتنصَّل من كل هذه الحقائق، وتبتدع أفكاراً أو عقائد أو نظريات تبعدك عن الإقرار بأن الله هو الخالق، فلن تجد ما ينفعك في هذا السبيل.

وإنك مهما فكرت، وقدَّرت، ومهما اخترعت واكتشفت، ومهما فعلت وصنعت.. فإن ذلك كله لا يعدو كونه من خلق الله (تبارك وتعالى). بل ولعلَّ الأشياء التي تتوصل إليها أو تحققها تكون حافزاً لك على الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، الذي خلق السماوات والأرض بغير عمد ترونها، وخلق ما فيهن وما بينهنَّ بصفته التي تفرَّد بها، وبقدرته التي تعزّز بها على مخلوقات السماوات والأرض.. فالناس يظلون في حالة فراغ ودورانٍ في حلقة الباطل ـ مهما أنشأت عقولهم، ومهما اعتقدت قلوبهم ـ إن لم يقروا إقراراً قاطعاً بأنه لا إله إلا الله، وبأنه لا وليّ للعباد غير الله، وبأنه وحده الخالق لكل خلق، والقاهر لكل من يدعي اقتداراً وامتلاكاً.. فهو سبحانه قد خلق كل شيء، وجعل مجرى حياة الأشياء أو إيجادها خاضعاً لتقديره وقضائه. فكان جديراً بنا، ونحن من خلق الله، أن نعبده ولا نشرك بعبادته أحداً.. وكان خليقاً بنا أن ندرك معانيَ الأمثال التي يضربها لنا في

كتابه المبين حول زيف عبادة الكافرين والملحدين، وبطلان ما يتخذون من أولياء من دون الله، وفساد ما يجعلون له من شركاء في أي أمر أو شأن!..

ولكي يزيد هذا القرآنُ المجيدُ الإنسانَ توضيحاً فإنه يقدم له برهانَيْنَ آخرين للتمييز ما بين الحق والباطل، وهما المثل عن الماء الجاري وما يعلوه من الزبد التافه، والمثل عن المعادن وما يعلوها أثناء ذوبانها من زبدٍ لا نفع منه، فيقول تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ﴾[1].

فالماء الذي ينزله الله (تعالى) من السماء مطراً غزيراً، فيتدفق في الأودية سيولاً جارفة، يحمل كل ما يكون في طريقه من الغثاء، والقش، والورق والحطب وغيرها.. وهذه السيول تحدث دائماً رغوةً سرعان ما تتلاشى، وتنطفىء على شكل فقاقيع في الهواء لا خير فيها، مثلما هي الفضلات التي تجرفها معها ولا جدوى منها. ووحده الماء هو الذي ينفع، حيث يذهب إلى الأنهار فيغذيها، وإلى الأرض فيرويها، فيحلُّ الخصب والنماء، ويكثر الخير والجنى.. ومثلُ زبد مياه الأودية الذي يختفي بلا نفع زبدُ المعادنِ من الذهب أو الفضة التي يجري تذويبها فوق النار، لتصاغ منها الحليّ وأدوات الزينة، أو تلك التي تصنع منها أوانٍ وأدوات وآلات من الحديد والرصاص والنحاس وخلافها، فالمواد الخبيثة والأقذار، التي تعلو سائل هذه المعادن وقت ذوبانها، يجري طرحها والتخلص منها، بينما يبقى المعدن وحده، ومنه يكون الحلية والمتاع.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

المسهم

كذلك الحق والباطل في هذه الحياة. فالباطل قد يظهر، ويعلو ويبدو رابياً، ولكنه مثل الزبد لا بد وأن يذهب جفاءً مطروحاً. في حين أن الحق قد يبدو هادئاً وساكناً، وأن أثره محدود، ولكنه هو الذي يبقى في النهاية، كما يبقى الماء الذي يحيي الأرض بعدموتها، أو المعدن الصافي الذي يصنع الناس منه حلية أو متاعاً.

قال قتادة: «هذه ثلاثة أمثال ضربها الله سبحانه وتعالى في مثل واحد: شبَّهَ نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبه القلوب بالأودية والأنهار، فمن استقصى في تدبّر القرآن وتفكّر في معانيه أخذ حظاً عظيماً منه كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومن رضي بظاهر معانيه أدّاه إلى التصديق بالحق على الجملة وكان أقلَّ حظاً منه كالنهر الصغير. فهذا مثل.. ثم شبَّهَ الخطرات ووساوس الشيطان بالزبد الذي يعلو فوق الماء وذلك من خبث التربة لا من عين الماء، كذلك ما يقع في النفس من الشكوك فإنه يكون من ذاتها لا من ذات الحق. فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء، كذلك تذهب مخايل الشك هباءً باطلاً ويبقى الحق. فهذا مثل ثانٍ.. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ ..مَتَٰعٍ﴾ إلى آخره. فالكفر مثل الخبث الذي يطفو على المعدن وهو لا ينتفع به، والإيمان مثل المعدن الصافي الذي ينتفع به. فهذا مثل ثالث».. كذلك يضربُ اللَّهُ تعالى الأمثال ويبيّنها للناس، فيلقيها على أسماعهم، ويعرضها لأبصارهم فتهتدي بها القلوب المؤمنة النيّرة، البعيدة عن ظلام الكفر.. فعندما يضربُ ـ سبحانه ـ المثل بالماء الذي أنزله من السماء لإحياء الأرض، فتسيل به الأودية، إنما يريدُ بذلك القلوب التي تمتلىء بالحق والإيمان. وكما يسَعُ الوادي الكبيرُ الماءَ الكثير، كذلك القلب المؤمن يسع العلم الوافر

المسهم

والهدى المنير. . وكما الوادي الصغير، فإن القلب الصغير لا يسع إلاَّ بحسبه. . فيكون معنى قوله سبحانه ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أن قلوباً احتملت من العلم والهدى بقدر ما تستطيع حمله، إذ كما يحمل السيلُ الجارف زبداً، وغثاءً من الأرض التي يمرُّ عليها، ثم يذهب ذلك كله ويختفي، فكذلك الهدى والعلم، فإنهما يقتلعان من القلوب كل ما يخالطها من آثار الشبهات والشهوات ويطرحانها خارجاً، ليستقر في تلك القلوب الطاهرة، نور الإيمان.

ولكنَّ هذا التغيير أو الانتقال ـ من ظلام الكفر إلى نور الإيمان ـ لا بد أن ترافقه عملية استئصال حتى يأتي العلاج شافياً. فكما أن الجرّاح قد يضطر إلى استئصال المرض بعملية جراحية، مع ما يرافق ذلك من الألم والمعاناة، فكذلك الهدى عندما ينفذ إلى القلب، لا بدَّ وأن يثير لدى الإنسان الضيق والحرج في البداية ثم يقوى شيئاً فشيئاً، حتى يتغلب نورُ الله على الشبهات ويطردها خارج القلب.

وعندما يطمئن القلب بالإيمان، وينتعش باليقين، فإنَّ الآثار تنتقل إلى سائر أعضاء البدن فتنشط للعبادة، وتسرع إلى الطاعة. وفي ذلك يقول الشاعر المؤمن:

وإذا حلَّتِ الهدايةُ قلباً نشطت للعبادةِ الأعضاءُ

إذن فالمقصود بمثل السيل الجارف الذي يذهب زبدُهُ بلا طائل، وبمثل المعدن المذاب الذي يطفو زبدُهُ ويُرمى، الشبهات والشهوات التي يلفظها القلب المؤمن خارج الصدر، ليثبت فيه ـ بدلاً عنها ـ الإيمان الخالص. وهذا الإيمان ينفعُ صاحبه، وينفع غيره من المؤمنين. وعندما يكثر أهل الإيمان، يقل عدد أهل الكفر، وكلما

المسهم

اتسعت مساحة الحق ضاقت رقعة الباطل، إلى أن يمحق اللَّهُ تعالى الشرَّ وأهله، وينصر الخير وأهله..

فعندما يضرب الله (تعالى) لنا الأمثال إنما يريد بنا الخير وصلاح حياتنا، لأنها توقر في أذهاننا أن الأمر له ـ سبحانه وتعالى ـ فيما قدَّر، للمخلوقات من عباده من مصائر، وما جعل، للدعوات، والاعتقادات، والنوايا، والأعمال والأقوال من أقدار..

٢ ـ مثل الكلمة الطيبة ـ كلمة الحق ـ كالشجرة الطيبة، ومثل الكلمة الخبيثة ـ كلمة الباطل ـ كالشجرة الخبيثة.

يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

الكلمة الطيبة هي كلمة الحق.. والكلمة الخبيثة هي كلمة الباطل..

ذلك أن الله تعالى هو الحق، وهو خالق السماوات والأرض، فكان وجودهما قائماً على الحق الأصيل، الثابت بما خلق من السنن والأنظمة والقوانين التي تسيِّرُ الوجود كله.. ولذلك فإن كلمة الحق

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٧.

المسهم

ينضوي تحتها كل ما في هذا الوجود القائم على صلته بالحق، وتناسقه مع الحق.

وليس شيء أكثر تأثيراً في النفس من كلمة الحق، بها يشرح الله الصدور، ويطمئن القلوب فتصير قادرة على التصدي للباطل، ومواجهة الضلال، حتى يستقيم الحق في مسيرته التي تنشىء الخير، وتنشر الفضيلة، وتشيع الصلاح في دنيا الناس، بل وفي الحياة كلها.

ومن هنا كان المثل، في القرآن الكريم، على الكلمة الطيبة ـ كلمة الحق ـ بالشجرة الطيبة، ذات الجذور الثابتة، القوية في التربة، وذات الفروع والأغصان الباسقة في علوها، المتينة في صلابتها فلا تقوى الأعاصير على اقتلاعها، ولا تقوى الرياح على تكسيرها. وهذه الشجرة الطيبة هي التي تعطي ثمارها في كل حين بإذن ربها، حتى ينتفع الناس بخيرها ونتاجها.

وكما تملأ الكلمةُ الطيبةُ النفوسَ بالصدق، والإخلاص، وتثبّت القلوب على الإيمان والطاعة، فكذلك هي الشجرة الطيبة، تَنْبُتُ من البذور الصالحة وتعيش في الأرض الصالحة، ثم تعلو من فوقها بالظلال الوارفة، وبالثمار اللذيذة التي تنفع الناس بأكلها كل حين.

أما الكلمة الخبيثة ـ كلمة الباطل ـ فهي التي تزرع الشر في النفوس، وتنشر الفتن بين الناس، وتناصر الظلم والطغيان والإلحاد، فلا بد ـ وهذه مواصفاتها ـ أن يكون مصيرها إلى زوال لمجرد احتكاك رياح الحق بها، بسبب الهشاشة والضعف الكامنين في طبيعتها، وبسبب الأخطار والأضرار التي تحملها في مضمونها.. ومَثَلُها في القرآن كالشجرة الخبيثة التي قد تنشط فتهيج، وتتشابك

المسهم

فروعها وغصونها، حتى ليخيل إلى البعض أنها تطغى على ما حولها من الشجر والنبات، إلا أنها في الواقع تبقى هزيلة، وحين يأتي الوقت تراها قد اجتثت من فوق الأرض فلا يبقى لها قرار، ولا وجود.. كيف لا والشجرة الخبيثة تنمو على الخبث، وعلى رخاوة الأرض التي لا تساعد الجذور على التشبث بالتربة، فتصير عرضة للاقتلاع لمجرد أن تهب عليها الرياح، أو لمجرّد أن يطرأ عليها أي عارض، حتى ولو كان تحريكها بيد الفلاح الذي غرسها.

ولا يقف المثل الذي يشبه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، أو المثل الذي يشبه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة عند حدود المثل، كما لا يقصد منه مجرد عزاء للطيبين وتشجيع للمؤمنين، إنما هو تصوير لأصل الحياة الذي يقوم على الحق وليس على الباطل، لا سيما وأن الحق الثابت والخير الأصيل لا يفنيان أبداً، وإن تراءى للناس أن تحققهما بطيء، أو صعب المنال. فهما أصيلان في الوجود، ولا يمكن أن يطالهما زوال أو فناء. وإن تغلب عليهما الباطل والشر ـ بسبب فساد الإنسان نفسه، ومصادمته لقوام وجوده ـ فإن غلبة هذين سوف تكون إلى حين ثم يأتيهما التآكل من داخلهما والفساد من طبيعتهما، فيذهبان إلى غير رجعة..

ثم إن الكلمة الطيبة، وما تمثل من الحق والخير، هي التي تتجدد مع تعاقب الأزمان، لأنها تحتوي على الحقائق الثابتة. وقد تمثلت الكلمة الطيبة بأروع معانيها في الرسالات السماوية، وفي الدعوات الصادقة، وجميعها يستقي من عقيدة التوحيد القائمة على حقيقة وجود الله تعالى إلهاً واحداً أحداً، والثابتة على الحق من رب السماوات والأرض، وخالق الكون والحياة والإنسان. فلا حقيقة إن

المسهم

لم تكن متصلة بالحق، ولا خير إن لم يكن مرتبطاً بالحق.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم عندما يضرب المثل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، فإنما يعني بالكلمة الطيبة الإيمان والحق، في حين يعني بالكلمة الخبيثة الكفر والباطل.. ولما كان لا بد للشجرة من عروق، وساق وفروع، وورق وثمر، فكذلك الإيمان تكون عروقُهُ العلمَ واليقين، وساقُهُ الإخلاصَ، وفروعُهُ الأعمالَ الصالحة، وثمرُه الآثارَ والنتائجَ المترتبة على الأعمال الصالحة من صفاتٍ حميدة، وأخلاق كريمة، ومعاملات طيبة.. وغيرها من المزايا والخلال التي يحمدها اللَّهُ تعالى وعباده الصالحون. وهي جميعها مما يثبّت الله (تعالى) عليها الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

أما الكفر أو الإلحاد أو الشرك فمثله كالشجرة الخبيثة التي تنبت في أرض خبيثة، وتحمل أوراق الأذى وثمار السم. وقد تتطاول في النماء والعلو حتى يقيّض اللَّهُ تعالى من يستأصلها، ويذروها هباءً، فيخلص التربة من تكاثرها، والأحياء من ضررها.. إنها شجرة الخباثة، وكل خبيث مذموم وملعون. وإن من اعتقد كفراً أو اتخذ شركاً فقد اتبع الخباثة، فذمَّه الحق، ولعنه الخير فما له من قرار.. وأهل الباطل هم الذين يفعلون عادة الخبائث، ولذلك نجدهم يكرهون الحق وأهله، ويحاربون الخير وفاعليه، فكانوا من الظالمين. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنه يعلم ما في نفوسهم، وما تنطوي عليه صدورهم من الخبث، ويفعل الله ما يشاء من إضلال الظالمين، وهداية المؤمنين.. وقد سئل رجل من أهل العلم عن معنى «الكلمة الخبيثة» فأجاب: «لا أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً إلاَّ أن تلزم عنق صاحبها حتى يوم القيامة». وقد روي عن ابن عباس قوله: «إن

المسهم

الشجرة الخبيثة لم يخلقها اللّهُ سبحانه بعد، وإنما هو مثل ضربه بهذا الواقع الذي يدل على الخبث والضرر». وبخلافها «الكلمة الطيبة» وهي كلمة التوحيد التي كانت عهداً على بني آدم وهم في الأصلاب؛ فالذين آمنوا، وأوفوا بالعهد يثبّتهم الله عليها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فتكون سبيلهم إلى الفوز العظيم.

٣ ـ الكافرون يتّبعون الباطل، والمؤمنون يتّبعون الحق من ربهم.

يقول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾[1].

نعم إن أهل الكفر هم دائماً على نقيض أهل الإيمان. فالذين كفروا، وصدوا غيرهم عن سبيل الله، واتباع هداه، قد أضلَّ أعمالهم فلا تقع على هدى أو خير، لأنها مخالفة، أصلاً وفرعاً، لشرع الله. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزِّل على محمد ﷺ من قرآن ووحيٍ مبينين، وأقروا بأنه هو الحق من ربهم، فهؤلاء كفَّر الله عنهم كلَّ سيئاتهم الماضية ـ إذ الإسلام يجبُّ ما قبله ـ وأصلح بالهم من حمل الهموم التي تورثها، عادة، الذنوب والخطايا. إذ إن دخولهم في الإسلام يجعلهم يشعرون بالاطمئنان في القلب والضمير، والاستقامة في الشعور والتفكير، فلا يعصون اللّهَ الذي آمنوا به حقاً

(١) سورة محمد، الآيات: ١ ـ ٣.

المسلم

ويقيناً، ولا يخالفون أوامره ونواهيه التي اتخذوها منهجاً وسبيلاً. ولو ارتكبوا الإثم - افتراضاً - فإنهم يتوبون إلى ربهم مستغفرين منيبين، لطمعهم برحمته، وهو الغفور الرحيم.

وقيل إن هذه النصوص المباركة نزلت في أهل مكة، وفي الأنصار. فأكثر أهل مكة قد كفروا، وصدّوا عن سبيل الله وظلوا كذلك إلى أن نصر الله الدعوة وفتح الرسول مكة، فدخلوا في الإسلام طائعين أو مكرهين.. أما الأنصار فهم الذين آمنوا بما نزّل على محمد ﷺ وراحوا يدعون للإسلام قبل هجرة النبيّ إليهم، بل وقد أخلصوا لله ورسوله، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فكانوا أهل النصرة حقاً وفعلاً. وبسبب إيمانهم بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم، فقد غفر لهم ربهم سيئاتهم، وما سلف من ذنوبهم، وأصلح بالهم وأحوالهم، وأراح نفوسهم بما وعدهم من دخول الجنة في الآخرة..

وذلك الإضلال لأعمال الذين كفروا، فمردّه إلى أنهم يتبعون الباطل، وذلك التكفير عن السيئات، وصلاح البال للذين آمنوا وعملوا الصالحات فلأنهم يتبعون الحق، ويهتدون بالقرآن المنزّل إليهم من ربهم.. وكذلك يضربُ اللَّهُ تعالى للناس أمثالهم بما يبيّن لهم ما تصير إليه أعمالهم إن كانوا من أهل الباطل، أو من أهل الحق، فيعلمون مسبقاً وهم في هذه الحياة الدنيا إلى أية فئة ينتمون في الآخرة، وهل هم من أصحاب النار أم من أصحاب الجنة.. أما الذين لا يعلمون، والذين استوى الباطل والحق عندهم فتعساً لهم!.

المسهم

٤ ـ تمني الذين يريدون الحياة الدنيا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون من المال والجاه.

يقول الله تعالى:

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[1].

يتجلَّى التعبير القرآنيّ في هذه الآيات المباركات بأروع التمثيل، وأحسن التشبيه، وهو يرسم لنا صورة الإنسان الذي يجحد فضل ربه بما أغدق عليه من عطاءٍ واسع، وينكر نعمته بما أفاض عليه من رزقٍ نافع، فيدعي زوراً وبهتاناً ـ وذلك لشدة غروره بنفسه، وتناسيه ما قد يُنزِل به ربهُ القدير من صروف الدهر ـ بأن ما عنده من مالٍ وغنى وجاه

(١) سورة القصص، الآيات: ٧٦ ـ ٨١.

المسهم

إنما كان من فعله وحنكته، أو مما لديه من علم ومعرفة قليلاً ما يتسنى لأحد مثله أن يحوز أو يبلغ ما بلغ..

والمثال على هذا النوع من البشر قارون، من بني إسرائيل، قوم موسى عليه السلام، (وقيل إنه كان ابن عمه). وذلك أن قارون قد تنكر لعقيدة التوحيد، ولدعوة نبي الله موسى، فاختار أن يكون تبعاً لفرعون، ولوزيره الأول هامان، فأوكلا إليه مهمة التسلط على بني إسرائيل، وذلك بإيلائه وظيفة فرض الجزية عليهم، وجمع الضرائب والأموال التي يدفعونها إلى فرعون وبطانته.. فاتخذ لذلك كل أسباب القوة والبغي والمكر والدسيسة حتى يرضي أسياده ويحقق مآربه؛ فجعل من بعض بني إسرائيل عيوناً على بعضهم، وأوصى بملاحقة أتباع موسى حتى يرصدوا كل ما يقومون بهم أو يفعلونه..

ولم تكن مطامع قارون تقف عند حدّ، فانبرى يجمع الثروات، ويمتلك الأراضي دون وازع من ضمير، أو خوف من الله، فلم يقصّر في سرقة أموال بني قومه تحت أية ذريعة، وبسلب ممتلكاتهم بشتى أساليب التهديد، وبحرمانهم من أرزاقهم بمختلف أنواع الظلم، حيث صارت ثروته لا تقدر.. وكل ذلك دون أن يدور في خلده أن ما يملك من الأراضي والبساتين والقرى، وما يجمع من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وما يكدس من الغلال والأرزاق في المخازن والمستودعات التي كانت عصبة من الناس تعجز عن حمل مفاتيح أبوابها.. كان كله مما آتاه إيَّاه الله سبحانه وتعالى فتنة وابتلاءً لأنه يعلم ما في نفسه من الجشع، والخداع والكفر!..

ويبيّن لنا القرآن الكريم كيف أظهر قارون نوازع الشر الكامنة في نفسه، ليكون مثالاً للمستكبرين والمفسدين الذين يكذبون دعوات

المسهم

المرسلين، ويتبعون الأهواء المضلّلة.. إذ جاءته عصبةٌ من بني قومه في محاولة لوعظه بألاَّ يكون أشراً ولا بطراً، وألاَّ يظلم ويبغي على الناس، فقالوا له:

ـ يا قارون! لا تفرح بكثرة الأموال والكنوز، فإن الله لا يحب الفرحين الذين يتباهون بالغنى، ويتطاولون على الناس بالسلطان. وابتغِ فيما آتاك الله، من هذا الجاه والمال، الدار الآخرة: عليك أن تتصدّق على الفقراء، وتقدمَ العون للمحتاجين، وتساعدَ بني قومك على تخفيف أعبائهم من العوز والمرض، وتريحَ أكتافهم من أثقال الهوان والذل أو تلك المتاعب التي تحيط بهم من فرعون وملئه!

بل وزادوا في نصحه، إذ قالوا: وليس طلبنا بأن تنفق في سبيل الله أن نحولَ بينك وبين طلب السعادة والراحة، لكننا نقول لك: إفعل الخير، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، فهي لك بملاذّها وأطايبها، فكل من طيبّات ما رزقك الله، وتمتع بحياتك، ولكن بحدود ما يتمتع به العاقل المؤمن، الذي يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته وإن كانت الآخرة خيراً وأبقى!

أجل يا قارونِ، وأحسن بالصدقات كما أحسن الله إليك، فإنَّ مالك وما جمعت هو فضل من الله، وإن فيه نصيباً للآخرين فلا تقابل عطاء ربك الواسع إلاَّ بالجود والإحسان..

بل وأهمُّ من ذلك كله ألاَّ تبتغيَ الفساد في الأرض عن طريق الاستلاب، والاستغلال، وعن طريق الظلم لبني قومك، وشراء الضمائر بالرشوة.. فهذا كله فساد وإفساد. إن الله لا يحب المفسدين الذين أغواهم المال والجبروت، ولا يحب الفرحين الذين أبطرهم الغنى والجاه!..

المسهم

فقال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

وهذا هو الضلال المبين الذي وقع فيه قارون، وهو يظن أنه أُوتي المال الكثير، والجاه الواسع بخبرته وخداعه ومكره.. ولولا كفاءاته وقدراته ما أولاه فرعون ما أولاه، ولما كان له هذا النفوذ في بلاطه، وتلك الشهرة في أرجاء مملكته!.

ولذلك كان جوابه القاطع لبني قومه بأن الملك ملكه، والكنوز كنوزه، وليس لأحد أن يتدخل بأمر من أموره، أو شأنٍ من شؤونه.. فهو لا يريد أن يتصدق على الفقراء، أو يعطي المحتاجين، أو يساعد المحرومين.. لا بل وسحقاً لهم جميعاً، فهم قد جلبوا الشقاء لأنفسهم، وهم قد ورثوا الفقر عن آبائهم، فلماذا يحمل همومهم، ويربك نفسه بمشاغلهم وهو غنيّ البال عن ذلك؟!.

وإنها لمقولة المغرور المطموس على قلبه الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويُعميه الثراء.. ألم يعلم بأنَّ اللَّهَ تعالى هو الذي يرزق من يشاء بغير حساب، فإن رَزَقَ المؤمنَ فلكي يمتحنه، وإن رزق الكافر فليبتليَهُ. وما كان مالُ قارون إلاَّ ابتلاءً عظيماً من ربه، ليكون مثالاً لكل جاحد متكبر، وليكون نموذجاً مكرراً في البشرية. فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك، وغير محاسَب على ما يُفسد بالمال وما يُصلح، وهو بالتالي غير حاسبٍ لله (تعالى رازقه ومعطيه) حساباً، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه!..

لقد كان قارون يتوهم بأنه جمع ماله بعلمه، ولم يتفكَّر بأن

المسهم

كثيرين ـ غيره ـ من السابقين، كانوا أكثر منه مالاً وغنًى وثروة، ولكنَّ اللَّهَ (سبحانه) أهلكهم جميعاً هم وثرواتهم..

وكان من عادة قارون أن يخرج، ومن حوله الأتباع، والخدم والحشم، ومظاهر الزينة والخيلاء تحفُّ به من كل جانب. وكانت تلك المظاهر تبهر الذين يريدون الحياة الدنيا فيقولون: يا ليت لنا مثل ما لقارون من المال والثروة والحظ.. أما الذين آتاهم الله (تعالى) العلم والإيمان، فكانوا يقولون لهم: ويلكم أيها المغترّون بالمال والجاه، ألا تعلمون أن الغنى الحقيقي هو غنى الإيمان والطاعة، وأن ثواب الله لمن آمن وعمل صالحاً خير لهم. ولا ينال هذا الثواب إلا الصابرون على طاعة ربهم، والهاربون من معصيته فهم أصحاب الجنة فيها خالدون. وإنه ـ والله ـ لخير مما أوتي قارون، ومن هم على شاكلته من أهل الغنى، والبطر والفساد!..

ويشاءُ اللَّهُ ربنا أن يجعل من قارونَ مثلاً على مصير الجبارين، والمفسدين في الأرض، فيبيّن في قرآنه المجيد أنه خسف به، وبداره وما فيها من الكنوز، ومن فيها من الأتباع الذين ساروا على دأب سيدهم قارون المتكبر، فابتلعهم باطن الأرض، لا يعلم لهم أحدٌ مستقراً إلاَّ اللَّهُ (سبحانه وتعالى). فهل قَدِرَ قارون أن يدفع عن نفسه أمرَ الله لمَّا جاءه؟ وهل وجد مَن ينصره ويخلِّصه من عذاب الله الذي حلَّ به وبمن معه؟ كلا، لم يجد مَن يمنع عنه الهلاك، أو مَن يدفع عنه العذاب، وما كان قارون من المنتصرين ولا من الناجين من عقاب الله تعالى وعذابه!..

وطلع الصباح على الذين تمنّوا بالأمس أن يكونوا مكان قارون

المسهم

في الغنى والجاه، فإذا هم نادمون، يقول بعضهم لبعض: ويلكم إن الله يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيّق الرزق على من يشاء. فلو أنَّ الله منَّ علينا بمثل ما منَّ على قارون، ثم خسفَ بنا كما خسف به، لَكنَّا من الخاسرين. . فلنؤمن بالله تعالى ولنرضَ بعطائه ومنعه، ولنبتعد عن الشهوات التي تردي أهل الكفر، لأنه لا يفلح الكافرون، مهما كانوا عليه من النجاح في هذه الحياة الدنيا. أما في الآخرة، فسوف يصلون نار السعير التي أُعدت للكافرين المتكبرين، كما أُعدت الجنة للمؤمنين الذين لا يريدون علواً في الأرض، ولا يبغون فساداً بين العباد، والعاقبة دائماً للمتقين.

الفقرة الثانية ـ الجدال والحجاج

١ ـ في القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

يبيّن لنا ربُّ العالمين أنَّ في هذا القرآن أمثالاً على كل ما يهدي الناس إلى الحقائق، ويأخذ بيدهم إلى ما فيه صلاح حياتهم وآخرتهم. وهو سبحانه قد ضرب للناس من كل مثل عن الخلق، وعن شؤون الحياة، وعن تقلبات النفس وأهوائها، وعن القيم والمثل الرفيعة وأضدادها، وعما يتناول المبدأ والمعاد بكل ما يتعلق بهما، أو يترتب عليهما. . إلى شتى القضايا والأمور والشؤون المعاشية التي تناولتها هذه الأمثال في القرآن الكريم.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

المسهم

وبالفعل فإن من يقرأ القرآن، ويفهم معانيه، ويدرك عجائبه يجد فيه أمثلة كثيرة وجليلة تنطوي ـ في شموليتها ووضوحها، وأحياناً في تفاصيلها ـ على ما يتلاءم مع فطرة الإنسان السليمة في توافقها مع سنن الله (تعالى) التي من شأنها أن تزكي النفس البشرية، وذلك في الوقت التي تحضّ هذه النفس وتدعوها للعودة إلى أصالتها، بما تمدُّها به من الوسائل وما تهديها إليه من الطرق التي تقودها في درب الخلاص والصلاح.. بل وميزة الأمثال في القرآن أنها ـ بالإضافة إلى البرهان والدليل والحجة التي تقدمها ـ تخاطب العقل والقلب على السواء، آخذة بعين الاعتبار ما قد يبلغ الإنسان من درجات في الفهم والعلم، وما قد يتفاعل في نفسه من تنوع في الشعور والإحساس..

وعلى الرغم من عظمة هذه الأمثال فقد جادل فيها الإنسانُ، مثلما جادل في آيات القرآن كلها في محاولةٍ ومسعى لمغالبة وقعها وأثرها، والتنصل من مصداقيتها وحقيقتها، فكان في مسعاه، وكما وصفه خالقه ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

والهالة النورانية التي تنسجها هذه الآية الكريمة تتجلى بأنها تغطي مساحة السلوك الإنسانيّ بأسره، لأن الله (تعالى) قد صرَّف في كتابه المبين للناس من كل مثل، فلا يعرضُ شيء يتعلق بالكون والحياة والإنسان إلا ونجد عليه مثلاً في هذا القرآن.. أما المؤمن فيعلم أنه الحق من ربه فيتبعه، وينتفع به؛ وأما الكافر فيجد فيه ما يردعه عن الضلال، ويهديه إلى الصواب، فيزول الشك من نفسه، ويؤمن بأن القرآن هو الحق، ومن الحق تبارك وتعالى، فلا يخاصم، ولا يجادل في آياته ومصداقيتها.. أما وأن الكافر قد تنكر للقرآن، كما تنكر من قبل لجميع الكتب السماوية فعارضها، وجعل نفسه خصيماً

المسهم

لمن أنزلت عليهم تلك الكتب، حتى كان أكثر شيء جدلاً في مخاصمتهم، وتكذيب رسالاتهم وتعاليمهم، فكان محتوماً أن يبقى على كفره، وألا تنفع معه الآيات مهما حملت من الوعد أو الوعيد..

٢ ـ ما ضُرِبَ المثل بالمسيح عيسى ابن مريم إلا جدلاً

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

إن خلق عيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب قد يبدو شأناً غريباً عند الناس. ولكنه أمرٌ سهل ويسير على الله (تعالى)، وقد جعله كذلك ليكون أقطع للخصومة، وأوقع في النفوس. فكما أنه سبحانه خلق ـ من قبل ـ آدمَ من تراب ثم قال له: كن بشراً، فكان؛ فكذلك خلق عيسى من غير أبٍ وقال له: كن بشراً، فكان.. فأية غرابة في ذلك، ما دام الله تعالى هو الخالق، وهو يُنشيء خلقه كما يشاء؟ وكلمته هي التي تعبِّر عما يشاء ويريد، فإذا قال للشيء كن، وجبَ أن يكون، ولا يمكن إلاَّ أن يكون. نعم لمجرد «الكلمة» يتحقق الخلق والإنشاء، ويستوي التقدير والتدبير.

وعلى هذا الأساس لا يجوز أن نبنيَ أيَّ خلقٍ، أو أيَّ أمرٍ هو لله (تعالى) على مقاييس الإنسان المحدودة، وقوانينه المتباينة وأنظمته القاصرة. فللّه تعالى في خلقه شؤون تحكمها سننٌ مقدّرة، ثابتة، لا تبديل فيها إلاَّ أن يشاء هو سبحانه وتعالى هذا التبديل، وللحكمة والموعظة التي يريدها من ورائه.. ومن سنة الله في خلقه أن جعل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

المسلم

للتوالد والتكاثر بين الأحياء نظاماً معيناً، وذلك بما أودع في الزوجين من ذكر وأنثى من الخصائص التي يقوم عليها هذا النظام بصورة دائمة لا تحويل فيها.. أما الخروج عن هذا النظام فهو أمر لله وحده، كما في خلق عيسى عليه السلام ليجعله، وأمَّهُ العذراء آية للناس، وحجة عليهم تذكّرهم بأن الله هو الخالق العظيم، وأنه هو الله لا إله هو، إله واحد في السماوات والأرض، فعبادته هي الحق، وما دونها عبادات باطلة.

يقول الطبريّ: «إنَّ الله عز وجل أنزل هذه الآية حجة لنبيه محمد ﷺ على وفدٍ من نصارى نجران الذين حاجّوه في عيسى عليه السلام.. وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبيّ ﷺ فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال ﷺ: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبدُ اللَّه!! فقال ﷺ: هو عبدُ اللَّه، وروحه وكلمته. قالوا: لا، ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم، ثم خرج منها، فأرانا قدرته وأمره. فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾[1]»..

ويبدو أن بعض المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة، حينما سمعوا بهذه الآية، قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة، فنزل قوله تعالى:

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

(١) تفسير القرآن للذبري؛ صحيح مسلم رقم ١٥١.

المسلم

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[1].

ومن الأمثلة أيضاً على الجدل الذي كانوا يخاصمون به النبيّ، ما يُروى عن الكافر ابن الزعبري الذي جاء يجادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[2]، فقال ذلك الكافر: أهذا لنا ولآلهتنا ولجميع الأمم يا محمد؟ قال الرسول ﷺ: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم. فقال الكافر اللعين: خصمتك يا محمد ورب الكعبة، أليس النصارى يعبدون المسيح، واليهودُ عزيراً، وبنو مليح الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معهم! ولذلك أبطل الوحيُ دعوى ابن الزعبري، ودعوى الكافرين والمشركين بحق عيسى ابن مريم عندما راحوا يضحكون فرحين من ظنهم الآثم، ومن حقارة نفوسهم وهم يشبهون نبيّ الله عيسى بأوثانهم وحجارتهم..

ذلك أن المشركين من شياطين قريش قد وجدوا في جدال ابن الزعبري للنبيّ ما يثلج صدورهم، فأخذتهم الفرحة والجذل، وهو معنى قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يضحكون ويصفقون لظنهم بأن محمداً ﷺ قد بات في موقف حرج، مما يساعدهم كثيراً على مخاصمته وعداوته.. ذلك كان ظنهم، وهو مجرد ظنٍ نسُوا معه أنهم وما يعبدون من الأوثان والأصنام حصب جهنم ـ بقول رب العالمين ـ، وأن الآية الكريمة لا تتناول أبداً من بعيد أو قريب،

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٥٧ ـ ٦٠.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

المسهم

عيسى عليه السلام ولا عزيراً، ولا الملائكة، بل تنزَّلت لتبين هشاشة تلك الأوثان والأصنام التي اتخذوها آلهة مزيفة من دون الله، أو ابتدعوها آلهة تقربهم زلفى إلى الله!.. بينما هي في حقيقتها حجارة لا تعدو أن تكون، ومن يتعبَّدونها، وقوداً للنار التي أعدت للكافرين كما يدلُّ عليه قول الله تعالى في الآية ٢٤ من سورة البقرة.. عندما يتهددهم بأنهم لن يأتوا بسورة من مثل القرآن، وأن عليهم أن يؤمنوا به وإلاَّ كانوا وقوداً للنار التي أعدت للكافرين، وكما يكرره في الآية ٩٨ من سورة الأنبياء. ولذلك كانت أقوال المشركين حول ما عَنَوا به عن عيسى، أو العزير أو الملائكة مجرد مغالطة فادحة تنمّ عن المشاعر التي نفثها الشيطان في صدورهم، فأطلقوها هم على ألسنتهم بما يحجب الحقيقة التي أرادها رب العالمين. من أجل ذلك يبين تعالى أن المشركين ما ضربوا للنبيّ ﷺ ذلك المثل عن عيسى عليه السلام إلاَّ جدلاً، أي خصومة بالباطل، ليبعدوا فيه عن الحق. وقد استعمل القرآن الكريم لفظة ﴿ما﴾ في الآية المبينة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ لغير العاقل، فلا يكون هذا النص منصباً إلا على آلهتهم الجامدة من الحجارة والتماثيل. أما عيسى ابن مريم فقد أراد اللَّهُ تعالى أن ينزهه عما يظنه المشركون والكافرون بادعائهم الباطل أنه «الله» قد تجسد بصورة آدميّ.. وكذلك فقد أبطل القرآن ذلك الظن في آية المباهلة[1] التي تؤكد على رفض المشركين مناظرة النبيّ حول لاهوتية عيسى أو إنسانيته. وما كان ذلك الرفض إلاَّ لأن المناظرة تكون عادة

---

(١) وردت المباهلة في الآية ٦١ من سورة آل عمران، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

المسهم

بين المحقين، وكل يريد أن يبيّن الحق على طريقته وبوسائله. أما الجدال فيكون فيه أحد الفريقين محقاً والآخر مبطلاً. وما كان المشركون والكافرون يريدون إلا جدالاً، فهربوا من مواجهة النبيّ في المباهلة تعبيراً عن هروبهم وجه الحقيقة التي تحق الحق، وتمحق الباطل.. وهذا ما تدلنا عليه التعابير والألفاظ القرآنية بما تحمل من أدلة دامغة لكل من أراد أن يلقي السمع وهو شهيد.

وزيادة في بيان الحقيقة يذهب النص في سورة الزخرف إلى إظهار المشركين والكافرين على أنهم قوم خَصِمون، أي يجادلون في دفع الحق بالباطل، حتى يصيروا أخصاماً للحق وأهله، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[1]، ولذلك تعود الآية التي تلي لتؤكد حقيقة عيسى عليه السلام، وأنه عبدٌ لله أنعم عليه، بقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[2]. ونعمة الله على عبده عيسى هي النبوة. وقد جعله ربُّهُ آية لبني إسرائيل تدلّهم وتعرفهم بأن الله تعالى هو الخالق، يخلق ما يشاء، وهو على كل شيء قدير بشأن من يخلق، وما يخلق، فإذا كانوا لا ينكرون قدرة الله في خلق آدم من «تراب»، فيكف ينكرون خلق عيسى من «أم» دون «أب»، فتعالى الله الخالق العظيم، وتبارك القرآن المبين..

ومما لا شك فيه أن الكافرين كانوا أشد الناس لجاجاً في الخصومة بالباطل، شأنهم في هذا اللجاج شأن إنسان هذا اليوم الذي

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٩.

المسهم

يحاول أن يفسّر أكثر أمور الحياة وفقاً لنوازعه وأهوائه ومصالحه، بعيداً عن الحق. بل هو يعتمد في أكثر الأحيان على ما يسميه «المنطق الجدليّ» المؤيد منه بحجج وبراهين يستنبطها ويبتدعها لتحقيق المآرب الشخصية، أو المنافع الذاتية، ولو كان فيها تعدٍّ على حقوق الآخرين ومصالحهم. وشأن الفرد في ذلك شأن الدول التي تسعى لتأمين مصالحها بصرف النظر عن الوسائل، والأساليب، والطرق والسياسات الاستراتيجية التي تستعملها لذلك؛ إذ الغاية عندها تبرر الوسيلة، حتى ولو أدت الأمور إلى الضرر بالآخرين، أو هدر حقوقهم، أو قتلهم، كما يحصل في أحيان كثيرة، عندما تقتضي سياسة الدولة الظالمة مثل هذا القتل. ولعلَّ أقرب مثال عليه ما يحدث اليوم في أقليم «كوسوفو» على يد الصرب الذين خططوا لاقتلاع المسلمين من تلك المنطقة، فشنوا عليهم أقذر الحروب التي يمكن أن يشنّها الكافرون على المؤمنين حيث كان من «مآثرها» المجازر الجماعية، والتدمير، والتهجير، فضلاً عن التعدي على الكرامات والحرمات.. فهل أسوأ وأشنع من هذه «المآثر» في نهاية القرن العشرين؟!..

ويا ليت جدل الإنسان، سواء في الماضي أو في الحاضر، كان مقتصراً على أمور دنياه، فهو قد جادل في قضايا الدين والإيمان حتى صار خصماً لخالقه. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1]. فعلى الرغم من أن الإنسان مخلوق من هذه النطفة المهينة، التي هي شيء واهٍ جداً، ورغم أن خالقه يرعاه حتى يصير بشراً سويّاً، فإنه ينسى خلقه من تلك النطفة، وينسى فضل ربّه عليه،

(١) سورة النحل، الآية: ٤.

المسهم

وينسى هذه الصورة التي أوجده عليها في أحسن تقويم. . ينسى ذلك كله، أو أنه يتناساه، وبدل أن يشكر ربه ويحمده، ويثني على نعمته، إذا به يخاصمه، ووسيلة خصامه مثل هذا الجدل الباطل ليس إلاَّ، والعلة أن الجدل مستقر بطبيعته البشرية التي تجنح به حتى تجعله خصيماً مبيناً للحق تبارك وتعالى!.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[1] فدليل آخر على أنه ـ جلت عظمته ـ لو شاء لبدَّل أهل الأرض بملائكةٍ يطيعونه، ولا يعصونه في أمر. . وهذا يعني أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون جميعاً مثل بني آدم. وأنه سبحانه قادر على كل شيء، قادر على أن يبدّل أهل الأرض كلهم بمخلوقات غيرهم أو أن يجعل من الناس أنفسهم ملائكة في الأرض يخلفونهم على عمارتها. . فإذا كان ذلك شأن الخالق الحكيم فهل يكون عجباً أن يخلق عيسى عليه السلام على النحو الذي خلقه فيه؟ إذن هو سبحانه القادر على أن يخلق أعجب من خلق عيسى، وبلا فرق في ذلك بين المخلوق توالداً أو إبداعاً. . والغاية أن الجنسين الملائكة والناس لا يصلحان للألوهية، لأنه لا إله إلا الله، وهو الخالق الذي لا خالق غيره، ولا معبود سواه.

٣ ـ جَعَلَ الكافرون الملائكةَ من عباد الله إناثاً، وضربوا بهنّ مثلاً للرحمان.

يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٠.

المسلم

مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[1].

فقد جعل الكفار ـ بحكم الظن الذي لا يستند إلى برهان أو دليل ـ لله (تعالى) أولاداً، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، بينما الملائكة في الحقيقة من عباده المخلوقين.. أما نسبة بنوتهم إليه (عز وجل) فإنما تعني إزالة صفة العبودية عنهم، كما أن تخصيصهم بقرابة التوالد له (تعالى) فإنما يعني إلصاق صفة الألوهية عليهم لأن الولد جزء من الوالد. وهذا مالا ينطبق على الملائكة، بل وليس له من موجب، ما داموا مخلوقين لله، وعباداً له، لأنه يستحيل في الأصل أن يكون المخلوق ولداً لخالقه، أو قريباً له بصلة القرابة التي تجمع بين أبناء الجنس البشريّ برابطة الدم..

وإن ادعاء الإنسان بمثل هذا الظن الباطل إنما هو الكفر الذي لا شبهة فيه، لأن الله تعالى لم يلد ولم يولد، وقد نزَّه نفسه عن ذلك كله بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2]. فعندما يجعل الإنسانُ لله العزيز الحكيم من عباده ولداً، فذلك هو إذن الكفر البيّن، الواضح، والإنسان الذي يقول ذلك، أو يعتقد ذلك هو كفور، ظاهر الكفر، كما يبيّنه قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾..

ويستنكر الله (جل جلاله) على الكفار هذا التصور الأخرق،

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٥ ـ ١٩.

(٢) سورة الإخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

المسهم

فيبيّن لهم بمنطقهم وعرفهم ما يبطل دعواهم، ويسفه أحلامهم وهم يزعمون بأنه اتخذ الملائكة بناتٍ، وأصفاهم هم بالبنين. . فأي مكرمة لهم عند ربهم حتى يخصّهم هم بالبنين، ويختار لنفسه البنات؟ وهل يستقيم ذلك مع العقل، أو يألفه الشعور؟ إن قولهم هذا هو ضربٌ من الجهل، الذي أعمى بصائرهم، وشلَّ مداركهم، فلم يعودوا قادرين على التمييز بين الخالق وعباده، وبين الوالد وما ولد، فوقعوا في الكفر الظاهر، وهو أعتى أنواع الظلم الذي يوقع الإنسان فيه نفسه. . بل وإن منطق أولئك الكفار والمشركين من عرب الجاهلية ـ وأمثالهم ممن كانوا يتوهمون أن الخالق اتخذ من عباده بناتٍ له ـ هو الذي يكذّبهم، ويبطل كل قول لهم من هذا القبيل، لأنهم هم أنفسهم عبادٌ لله (تعالى) سواء أقروا بذلك أم أنكروه. ومن أدب العبادة ألا ينسب العباد لخالقهم ما لا يليق به، فكيف إذا كان هؤلاء العباد يستاؤون من شيء، ويكرهونه، ثم ينسبونه إلى ربهم الذي يملك التصرف بحياتهم وبأولادهم، وبكل شيء من وجودهم؟ فالعرب في الجاهلية كانوا يأنفون من أن تولد لهم البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1]؛ فالأنثى المخلوقة من الله (تبارك وتعالى) هي بشرى جميلة لأهلها، أما الجاهليّ فكان يسؤوه كثيراً خبر ولادتها، لدرجة أن وجهه يسودّ ويكفهرّ، فور تبلغه هذا الخبر، وذلك لشدة ما يمتلىء به قلبه من الكمد والغيظ مما حلَّ به، فلا يجد له سبيلاً إلا الفرار من القوم، أو الانفراد في عزلة عنهم، وهو كظيم

(١) سورة الزخرف، الآية: ١٧.

مكروب، لا حيلة له ولا طول على ما بشّر به إلا أن يندب حظه وتعاسته!..

فأي تفكير أخرق عند أولئك الكفار والمشركين بأن ينسبوا لله ما يكرهون؟! وأي شعور أحمق يطغى على نفوسهم بأن يجعلوا لله من يظنون أنه ينشأ بالحلية والزينة والدعة لضعفه ورقة جلده، وعدم قدرته على احتمال الشدة، كما كانت مشاعرهم حيال البنات؟! فقد كانوا يعتبروهنَّ كلًّا على العائلة، وعبئاً على القبيلة، فلا يَدَعُوهن يُشاركن في نواديهم، وفي مجالسهم، لأنهنَّ بنظرهم لا يملكن حجةً ولا بياناً، وإذا احتدم الخصام بين القوم، أو اشتدَّ الغزو فإنهنَّ أكبر المصائب وجالباتٌ للعار والشنار، فليست لهنَّ قدرة على حماية، ولا حيلة في دفاع، أو ذود عن حياض.. هكذا وبمثل تلك الرعونة الجاهلية كانوا ينظرون للإناث، وذلك في الوقت الذي يجعلوهنَّ بناتٍ لله الخالق العظيم، والعليّ القدير!..

ودفعاً للشبهة عن عقولهم نجد القرآن الكريم يأخذ أولئك المشركين بمنطقهم ليبيّن لهم سوء تفكيرهم، وظنهم بربهم. فيلقي عليهم بالبيّنة، وبالحجة التي لا يمكنهم أن يجادلوا بها: إن كانوا يجعلون الملائكة إناثاً، فكيف يعرفون أنهم أناث؟ هل شهدوا خلقهم، أم هل رأوا الملائكة وعلموا جنسهم وشكلهم؟

إن الادعاء بصحة الشيء يجب أن يكون مصحوباً بالدليل الذي يثبته، ويبيّن ماهيته.. وهم، عرب الجاهلية، لم يكونوا يملكون أي دليل أو برهان على جنس الملائكة، لأنهم ـ بكل بساطة ـ لم يشهدوا خلقهم، ولم يروهم، فكان قولهم بأنهم إناث، وبأنهم بنات الله مجرد زعم باطل، وتزوير فاضح.. ولذلك عليهم احتمال تبعة مقولتهم التي

المسهم

تشهد على كذبهم وافترائهم على الله (تعالى)، وستكتب شهادتهم عليهم، وتدون في صفحات كتابهم، لأنهم سوف يسألون عنها يوم الحساب، يوم لا يضيع شيء أبداً عند الله (عز وجل). فقد شهدوا باطلاً، وشهادتهم سوف تحفظ لحين حسابهم، فيُواجهون بها، ويترتب عليها العقاب حكماً، والعقاب يكون بقدر الوزر أو الجرم الناجم عن المسؤولية.. بل ولقد ذهب المشركون إلى أبعد من ذلك، فقد افتروا على الله (تعالى) بأنه هو الذي لم يمنعهم عن عبادة الملائكة، ولو شاء ما عبدوهم، فيلاحقهم ربُّ العالمين على هذه الفرية العظيمة، وعلى ما صاغوه حولها، بإبطال ما قالوا، وتكذيب ما ظنوا، وذلك بقوله العزيز: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[1]..

لقد انعقد تفكير الكفار والمشركين من عرب الجاهلية على سلسلة من المغالطات:

فقالوا: إن الملائكة إناث.

وقالوا: إن الملائكة بنات الله:

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ﴾.

وهكذا رتَّبوا المسؤولية في عبادتهم للملائكة على الله، وذلك بزعمهم أنهم ما عبدوا الملائكة إلا برضى الله، ولو شاء الرحمان ما عبدوهم ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. وتلك المقولة لا تعدو أن تكون بدعةً من عند أنفسهم، فليس لهم علمٌ بأنَّ الله قد ارتضى لهم عبادة الملائكة ولا يملكون دليلاً أو برهاناً على أنَّه لو شاء الرحمان ما

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٠.

المسهم

عبدوهم.. إنْ هي إلا مزاعم كاذبة، وتصورات خاطئة يريدون بها إحالة الباطل من عندهم على الله جل شأنه!. وهنا الخطأ الفادح الذي ارتكبوه: فإذا كانوا يعتقدون بأن عبادتهم متعلقة بما يشاء الله، وبما يرتضي لعباده، وأنه لو شاء ما عبدوا الملائكة، فلماذا يكفرون أساساً بالله، ويجعلون له أنداداً؟ فالقضية إما أن يعبدوا الله ربهم حق عبادته فلا يشركوا بعبادته أحداً، وإما أن يحيلوا عبادتهم الباطلة عليه سبحانه وتعالى، وذلك منتهى الضلال والكفر، ومنتهى البهتان وتزوير الحق. وهو ما يتجلّى في تكذيب رب العالمين لهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فهم لا يوقنون أصلاً بعبادة الله الواحد الأحد، ولا يمكن أن يأتيهم مثل هذا اليقين ما داموا يشركون بعبادة الله الملائكة، أو الأوثان والأصنام.. فكل ما يدّعون من الإحالة إلى ما شاء الله، أو لم يشأ، ليس لهم بذلك شيء من علم، إنْ هو إلا كذب من عندهم، وباطلٌ مبنيٌّ على كفرهم..

٤ ـ جدال المشركين حول طبيعة الرسول ﷺ بما ضربوا له الأمثال

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[1].

وهذا نوعٌ من جدل التفكير، وضربٌ من الشك الذي كان يحوم في رؤوس أولئك الذين لم يصدقوا بأن سيدنا محمداً هو رسول الله

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٧ ـ ٩.

وخاتم النبيين. فقد اعتقدوا أنه لو كان رسولاً فإنَّ ربه يمدّه بالسبل التي تجعله مختلفاً عن الناس.. أما وأنَّه يعيش حياته فيأكل مثل غيره، ويروح ويجيء في الأسواق، فهو ليس برسول!.. فتلك كانت ظنون المشركين، وما كانوا يجادلون به ليدحضوا ـ في زعمهم ـ نبوته. إذ كانوا يقولون:

ما لهذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل نحن، ويمشي في الأسواق طلباً للمعاش كما نفعل (أي أنهم كانوا يتوهمون بأنَّ الرسول يجب ألاَّ يكون بشراً مثلهم) ثم يعقّبون على ذلك بقولهم: لو كان حقاً مبعوثاً من الله، فلماذا لا يُنزَلُ إليه ملكٌ من ملائكة السماء فيكون معه مصدقاً لرسالته، وما يبلغ عن ربّه من النذير المبين لعاقبة الكفر والشرك، كما يدّعي في وجهنا؟!

ذلك مبلغهم من العلم. وقد غاب عنهم بأنَّ العزيز الحكيم قد قضى بأن يبعث الرسل من الناس أنفسهم، لأنهم يحسون بأحاسيسهم، ويستشعرون أشواقهم، ويقدّرون بواعثهم، ومن ثَمَّ فهم يعطفون على ضعفهم ونقصهم... وبمثل هذه الصفات يجد الناس في رسولهم إنساناً مثلهم، يعيش معهم وفيهم، ويقوم كما يقومون هم بالأعمال والتكاليف، لا تميّزه عنهم إلاَّ سماتُ النبوة التي تعصمه عن الخطأ، وتجعل شخصيته ترجمة حيّة للعقيدة التي يحمل ويبلّغ، بحيث تكون حياته، في أقواله وأعماله وفي حركته وسكنه، صفحةً مكشوفة أمام أسماعهم وأبصارهم تعرض تجاربهم، وتعالج مشاكلهم، وترسم آمالهم. وهكذا تكون نفوسهم أقرب إليه، لأنه مثلهم، بدلاً من أن يكون ملكاً له طبيعة غير طبيعتهم، وله طريقة في الحياة غير طريقتهم في كل شيء، فلا يأكل ولا يمشي مثلهم، ولا

المسهم

يعمل ولا يتصرف مثل أعمالهم وتصرفاتهم، وبالتالي فهم لا يتأثرون به نفس التأثر برسولٍ منهم.. وما حياة الرسول الأعظم إلاَّ المثال الأكبر على هذه الحقيقة التي يتضمَّنها قولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2].

نعم، تلك هي حكمة الله من بعث الرسل من الناس أنفسهم.. ولكنَّ المشركين والكفار لم يدركوا هذه الحكمة السنية، ولم يقدروا قيمة الرسول المبعوث منهم وإليهم، ليسموَ بهم رويداً رويداً، ويسير بهم خطوةً خطوة نحو الأمثل والأحسن. ولذلك قالوا عنه: إنه ساحر، وإن من اتّبعه إنما يتبع رجلاً مخدوعاً، مغلوباً على عقله بالجنون...

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فتارة يقولون: هو محتاج متروك، فلماذا لا يُنزل له ربه كنزاً من السماء يستغني به عن طلب المعاش؟ وتارة يقولون: هو فقير مسكين فلماذا لا يجعل له ربّه بستاناً يأكل من ثماره وخيراته؟ وطوراً يقولون: هو عاجز عن تبليغ الرسالة بمفرده فلماذا لا يكون معه ملك يساعده على إنذار الناس بما كلّف به؟ ولكن، أليست تلك الأمثال التي ضربوها لك يا «محمد» قد ضلّوا بها عن الهدى فلا يستطيعون إليه سبيلاً، ولا يملكون لإبطال أمرك شيئاً؟ انظر كيف ضربوا لك تلك الأمثال الغريبة، فلم يدركوا الحق من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

المسهم

ربك، وانظر كيف آثروا التقليد الأعمى، واتباع هوى النفس حتى ضلّوا عن سواء السبيل!..

٥ ـ جدال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه

يقول الله تعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

إنه قول الحق الذي يبيّن لنا كيف أن الله (تعالى) قد آتى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام الهدى والرشد قبل بلوغه، وأعطاه الحجج، وكشف له البراهين التي جعلته حنيفاً صادق الإيمان، لا يحيد قلبه عن عقيدة التوحيد. وذلك لأنه في سابق علم الله أهلٌ لذلك بما يملك في نفسه من الاستعداد للهدى والرشد. ولقد حمل إبراهيم عليه السلام أمر ربه، وجاء قومه، يبيّن لهم الرشد الذي أوتيَهُ، والحق الذي اتَّبعه، في سعيٍ منه لحملهم على الإيمان بالله من دون تلك التماثيل التي يعبدونها. إلاَّ أن قومَهُ أبَوْا تصديقه، بل وانبروا يحاجُّونه في جدال يظهر سخف التقليد الأعمى الذي ساروا عليه مثل آبائهم وأجدادهم..

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل من الأصنام والأوثان التي تعكفون على عبادتها؟.

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥١ ـ ٥٦.

المسلم

قالوا: وجدنا آباءنا يعبدونها، فعبدناها مثلهم. ولم يدلوا بأي حجة عقلية أو برهانٍ منطقيّ، سوى أنهم اتخذوا عبادةً كان عليها آباؤهم، من غير تفكير أو تمحيصٍ أو تدبّر.

قال إبراهيم عليه السلام: لقد كنتم أنتم وآباؤكم، بهذه العبادة، في ضلالٍ واضح، وفي بعدٍ عن الحق.. فكيف تجعلون لهذه التماثيل قيمة، وكيف تخلعون عليها القداسة، وهي جمادات حقيرة من صنع أيديكم، ويمكنكم ساعة تريدون تحطيمها، ورميها مثل سائر الأشياء التي لا نفع فيها؟. إن العقيدة الدينية تنبع من القيم والمثل العليا، وليس من تقليد الآباء والأجداد. والعبادةُ الحقة تقوم على البراهين العقلية، والحجج الدالّة، والتقدير المتحرر الطليق..

وعندما واجههم النبيُّ الكريم بهذه الحقائق الملموسة التي تقوم عليها حياتهم، لم يجدوا إلاّ الهرب مما يدعوهم إليه، فقالوا:

﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؟.

وليس هذا إلاّ سؤالُ من ليست لهم عقيدة مستقرة في نفوسهم، ومن يكون الفكر والإرادة معطلين لديهم، بتأثير الوهم والتقليد الأعمى، فلا يدرون أيَّ الأقوال حق، وأيها هزل. وهذا هو التيه الذي يتخبط فيه دائماً من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة، المستقيمة في العقل والضمير، كما كان عليه حال قوم إبراهيم عليه السلام، وهم لا يدرون أجاءهم بالحق من ربه أم أنه من اللاعبين، الذين يحاولون العبث واللهو، والادعاء بما لا يؤمن به حقاً وفعلاً...

أما إبراهيم عليه السلام، فقد كان مؤمناً مطمئناً، واثقاً من ربه،

المسهم

مستيقناً من دعوته، ولذلك نجده بعد أنْ يَجْبَهَ عبادتهم الباطلة، يبيّن لهم من هو الربُّ الأحق بالعبادة فيقول لهم: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

إذن فربكم أيها العباد، ليس تلك التماثيل التي تعبدونها، بل هو رب السماوات والأرض الذي خلقهنَّ بسنن وقوانين تحكمهنَّ وتحكم ما فيهنَّ ومن فيهنَّ.. ولكونه مطمئناً إلى قوله، مؤيداً بالبرهان القاطع الذي يقدمه لقومه، أكّد لهم أنه من الشاهدين، العارفين بهذا الخلق العظيم، وذلك بفضل ما آتاه الله تعالى من الرشد، وبما هداه إلى الحق، حتى وَصَل إلى مرتبة الشاهدين على حقيقة آلاء ربه وحقيقة الخلْق..

الفقرة الثالثة ـ الذين يتّبعون الأهواء

١ ـ الذين يعطلون مداركهم من الجن والإنس أولئك كالأنعام، وأولئك هم الغافلون

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2].

ذلك أنه في مكنون علم الله الأزليّ، وما كتب في اللوح المحفوظ عن مصير كثير من الجن والإنس إلى النار بفعل الجهل والضلال والغفلة، التي غلبت على فطرتهم فانقادوا لها، حتى عطلوا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

المسهم

جميع مدارك الإيمان والهدى التي وهبهم إياها خالقهم العظيم، فكانوا من جرائها هم الغافلين.

لقد خلق الله الجن والإنس، وجعل لهذين الجنسين القلوب التي تعي وتدرك، والعيون التي تنظر وتبصر، والآذان التي تلتقط وتسمع، ولكنَّ كثيراً منهم، ويا للأسف، لم يعطوا تلك الحواس والملكات حقها، فلم ينتفعوا بها، وينفع كل جنس أبناء جنسه من فضائلها.. لقد جعلوا قلوبهم مغلقة فلا تصل إليها منافذ العلم والمعرفة والهدى، وأسدلوا على عيونهم ستائر الظلام فلا تبصر ما في السماوات والأرض من عظيم الخلق الذي يدل على قدرة الله تعالى، وضربوا على آذانهم أغشية التكذيب فلا تسمع دعوة الحق تتلى عليهم، ولا بلاغ البشير يحثهم على اليقظة، أو بلاغ النذير يوقظهم من الغفلة؟

وإن من شأن ذلك كله أن يجعلهم كالأنعام، التي خلقت بطبيعتها بهائم عجماء غير معدَّة لأن تعقل أو تدرك لأنها ليست على شيء من العقل أو الإدراك..

فإذا عطَّل كثير من الجن والإنس هبة العقل، ونعمة الإبصار، وعطاء السماع التي تليق بمخلوقاتٍ مثلهم، فقد صاروا كالأنعام، بل هم أضلُّ منها، لأن الأنعام قد تهتدي، بحكم ما ركز فيها من غرائز، إلى منافعها ومضارها، بينما هم قد أضاعوا حقيقة خلقهم، ونأوا عن المكانة التي أرادهم الله عليها، فهبطوا إلى مرتبة أدنى من الأنعام، ولذلك كانوا أضلَّ منها حقاً، وكانوا هم الغافلين، بعدما غفلوا عن قيمة خلقهم وغاية وجودهم، مثلما غفلوا عن منهاج الحياة القويم،

المسهم

وعن صلة العبودية التي تربطهم بخالقهم الكريم. ولقد كانوا مخلوقين لجهنم وساءت لهم مستقراً.. وأساس هذا المصير يعود إلى أن الله (جلت عظمته) ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، ويستقيموا على عبادته إلهاً واحداً في السماوات والأرض. فإن أغفل كثير منهم هذه الحقيقة، التي هي قوام وجودهم أصلاً، فإنهم يكونون قد اختاروا طريق الكفر بربهم، وسلكوا سبيل الضلال عن عبادته.

والقرآن الكريم عندما يشبه أولئك الجن والإنس بالأنعام، ويقول إنهم أضلُّ منها، إنما يريد أن ينبِّه الجنسين جميعاً إلى ضرورة مراعاة خلقهم، فلا يغفلوا عما أودع فيهم الخالق من قلوب وعيون وآذان عليهم أن يوفوها حقها، ويستعملوها في طاعة الله وعبادته.. وفي هذا التنبيه فضل منه تعالى ورحمة بعباده، والعاقبة لمن وعى واتقى.

٢ ـ تعبّد الأهواء يخرج الناس من آدميتهم ويجعلهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

يقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

لقد بعث الله تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق.. فحمل هذا النبيّ الكريم، والرسول الأمين دعوة الإسلام، وهو يتزوَّد من القرآن، ومن إلهام ربه له بما يهدي للتي هي أقوم. وعلى الرغم من أنه كان يبلغ ما أنزل إليه من ربه بالحكمة والموعظة الحسنة،

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٤٣ و٤٤.

المسلم

ويقدِّم للناس البراهين والحجج العقلية، ويسوق لهم الشواهد والأدلة الحسية على صدق دعوته، وأحقيتها وكمالها، فإنَّ شيئاً لم يفلح مع رؤوس الكفر، ودهاقنة الشرك الذين تصدّوا له، وللمسلمين الأوائل وراحوا يؤلّبون عليهم العشائر والقبائل، وينالون منهم بالأذى والاستهزاء، ويحاربونهم ـ ولا سيما في مطلع الدعوة ـ بالكيد والمكر. كل ذلك والرسول صابر لا يملُّ، ولا يني عن بذل الجهود المضنية من أجل هدايتهم، وانتشالهم من الضلال الذي فيه يعمهون..

وإزاء هذا الواقع المرير، نزل الوحي يخفف عن الرسول بعض همومه بالإيناس والتوجيه، ويكشف له حقيقة نفوس أولئك الذين غلبت عليهم الشهوات، والرغبات وحب للدنيا، فجعلوا تلك الأهواء بمثابة آلهة يتعبدونها، ودونها تلك الآلهة من الأوثان والأصنام التي توهموا أنها تقربهم زلفى إلى الله العليّ القدير.

لقد طغت الجاهلية بكل تصوراتها المشوَّهة، وسيطرت المطامع والميول بكل نوازعها المنحرفة على النفوس الضّالّة، حتماً باتَ من انقاد لها عبداً يتملكه هواه، فلا ينفعه هدي لأنه غير قابل للهدى، ولا تجدي معه موعظة لأنه غير مؤهل للوعظ، إذن فهل يكون الرسول عليه وكيلاً، كما يخاطبه ربُّه تعالى، أم يريح نفسه من الأسى على هذا الذي أضلَّه هواه، فلا يستمر على الالتزام بهدايته؟.. بل ويبيّن الوحي الإلهيّ للنبيّ ﷺ فراغ تلك النفوس من أية قابلية للصلاح، وهبوطها إلى درك الحيوان بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟! لا، لا تحسب أن أكثر أولئك الذين تدعوهم للهدى لديهم ميلٌ للخير، أو أنهم يتعظون بما تتلو عليهم من آيات الله تبارك وتعالى، أو يعقلون ما تقدم لهم من البراهين الصادقة، التي من شأنها

أن تنير نفوسهم.. إنهم ليسوا على شيء من ذلك أبداً، إن هم إلا صمٌّ، عميٌ عن إدراك الحقائق فهم لا يهتدون.. ومثلهم في ذلك كالأنعام التي تسمع النداء فلا تعقله، أو تبصر ما حولها فلا تدركه.. بل هم أدنى مرتبةً من تلك البهائم، فهذه تهتدي إلى منافعها بفعل استعدادها الفطريّ فلا تأكل ما يضرها، ولا تقع على ما يهلكها.. أما هم فينساقون وراء أهوائهم التي تجرّهم إلى الخسران المبين..

وهكذا نجد أننا أمام مثل فيه تربية إنسانية رائعة، وهو يرشدنا إلى تلك المعاني التي تبيّن لنا أنْ لا شيءَ أحقر من الإنسان عندما يغلّب هواه على عقله وبصيرته، حتى ليفقد أي قدرة على التمييز والاختيار، وهذا ما يخرجه عن إطار جنسه الآدميّ ليصير كالبهيمة أو أضلَّ سبيلاً.

٣ ـ من الناس من يتبع لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، وإذا تتلى عليه آياته ولّى كأن لم يسمعها.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

من الأهواء الشائعة في حياة كثيرٍ من الناس حبهم للحديث اللاهي، حيث يغلّبون السخرية والاستهزاء على الجد والرصانة ويسمون ذلك هزلاً وتفكهةً.. وقد يستشري هذا الهوى في نفوسهم فينقادون وراءه حتى تصبح الثرثرة بالكلام البذيء، وكثرة الحديث

(١) سورة لقمان، الآيتان: ٦ و٧.

بالهزل بمثابة عادةٍ لا يستطيعون التخليَ عنها، وهم بذلك كأنما يشترون لهو الحديث بالمال شراءً، لا بل هم في الواقع يبحثون عن كتب الفكاهة والتسلية، ويجمعون أشرطة اللهو والكوميديا ويدفعون أثمانها حتى يجدوا اللذة التي بها يحلمون، ومن ثم ليكتسبوا خبرةً، وأسلوباً جديداً في سرد الفكاهات، والأقاويل الباطلة التي تجردهم في الحقيقة من الذوق والخلق، وتمنع عليهم أن يكونوا أناساً محترمين..

ومثل هذا اللهو بالحديث، وعلى النحو المشين الذي يمارسونه هو مضيعة للوقت، وهدر للكرامة لأن من شأنه أن يبعد الإنسان عن ذكر الله ـ تعالى ـ والتأدب بأدب الطاعة والتعبّد، فضلاً عما يجرُّ إليه من إضلال الآخرين عن سبيل الله، وذلك بغير علم لآثاره السيئة، وعواقبه الوخيمة على الإنسان نفسه، وعلى محيطه من حوله، حيث يصبح الذين يتقبلون هذا الواقع ولا يحاربونه، في حالةٍ من الضلال والإضلال..

وإذا كانت الآداب في المجتمع تمجُّ عادةً التفاهة والقباحة، فما بال أولئك اللاهين، والعابثين يتطاولون على كرامات النبيين والمرسلين، بل وأحياناً على مقام العزة الإلهية، وهم لا يشعرون بأنهم يقعون بالكفر والإلحاد؟ ولكن أن يتخذوا سبيل الله ـ جل جلاله ـ هزواً ويجعلونها مادة للمزاح فهذا ما لا يليق بالعبد تجاه ربه، أياً تكن مذاهبه وأهواؤه، لأنه بجهله وسوء أدبه إنما يضل عن سبيل الله، ويشيع السوء والفحشاء بين عباده. فهذا وأمثاله لهم عذاب مهين..

ولعلَّنا نجد في استهزاء ذلك اللعين أبي جهل المثال الذي يعبّر عمَّن يضل عن سبيل الله، ويتخذها موضوعاً للهزء والسخرية. فقد

المسهم

كان ذلك المشرك يأتي بالتمر والزبد ويقول: تزقموا فهذا هو الزقوم الذي يعدكم به محمد.. فنزل آي الذكر الحكيم يتوعده هو وأمثاله من ذوي الإثم الكبير بأن شجرة الزقوم سوف تكون طعاماً لهم، وهي كالزيت تغلي في بطونهم أو كالماء الحار الذين يغلي فيبلغ ذروة حرارته عند غليانه.. وهو مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾[1].

فتباً لمن يصرف حياته، ولا همَّ له إلا لهو الحديث الذي يضلّ به نفسه، ويضل الآخرين عن سبيل الله، وعاقبته بمقتضى العدل الإلهيّ سوف تكون جهنم وبئس المصير، حيث يلاقي العذاب المهين الذي يتناسب ومهانتَهُ في الحياة الدنيا.. وإنَّ هذا اللاهي، الساهي والمتهتك هو نفسه إذا تتلى عليه آيات القرآن المبين، من أجل إصلاحه، ورده إلى جادة الصواب، ولَّى عن الاستماع لها مستكبراً كأنه لم يسمعها، أو كأنَّ في أذنيه ثقلاً يحجب الآي العظيم عن النفاذ إلى أذنيه.. وهذا للتدليل على مدى ضلاله، الذي يحول بينه وبين حواسه من تلقي الهدى، والاستماع للحق، فكان توعده بالعذاب الأليم الذي يبشّر به هزواً، لأن البشارة تحمل الخير بينما الوعيد يحمل الويل. وسوف يلقاه جزاءً وفاقاً على ما حفلت به حياته الدنيا، وهو يصرف أوقاته في لهو الحديث، وصدٍّ عن سبيل الله (جل شأنه) بغير علم عما سوف يؤدي إليه هذا اللهو المقيت، أو عما سوف يورثه الاستكبار عن سماع آيات الله والانتفاع بها..

---

(١) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.

المسهم

٤ ـ من كان على بينة من ربه ليس مثل من اتبع هواه

وإذا كان لهو الحديث الذي يجر إلى الضلال هو من مظاهر الأهواء التي تتحكّم بفريق من الناس، فإن من الأهواء كذلك أن يرى الإنسان أفعاله حسنة، بينما هي في الواقع، وكما يراها الناس، أفعال سوء لا تجلب إلا الأذى والشر. . ولذلك يأتي المثل القرآنيّ ليميز بين من كان على بيّنةٍ من ربه (تعالى) فلا يأتي إلا فعل الخير، والبر، والتقوى ونفع الآخرين، وبين من كان مخدوعاً بعمله، مفاخراً به، فيراه حسناً وهو سيء بأصله ونتائجه.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[1].

لا! مستحيل أن يستوي من هداه ربه ـ تعالى ـ بالبيّنة والموعظة الحسنة مع من زيَّن الكفر لنفسه فرآه حسناً، فاتبع هو وأمثاله من الكافرين أهواءهم في عبادة الأوثان والأصنام، وما تجر إليه هذه العبادة من الولوغ في الشهوات وارتكاب المحرمات، دونما وازع من قلب يعقل، أو مانع من عينٍ تُبصر، أو رادع من أذن تسمع! . .

ولذلك كان مثل هذا التوبيخ أو التأنيب الذي يحمله النص القرآنيّ للكفار والمشركين الذين اتبعوا أهواءهم فأعرضوا عن ذكر الله، واتباع سبيله القويم، وكان هذا التوكيد من رب العالمين على أن من كان على بينة من ربه لا يمكن أن يكون كمن أعجبه سوء عمله حتى ظنه حسناً. فهما لا يستويان حساباً وجزاء، ولا يستويان مصيراً ومآلاً. .

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٤.

المسهم

٥ ـ قدرة الله تعالى، خالق الناس، على تبديل هؤلاء الناس وخلق أمثالهم

يقول العزيز الحكيم: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾(١).

وهذه هي حال أكثر الناس.. فمنهم من يحبون العاجلة، أي الحياة الدنيا، فيندفعون وراء أفانينها من الزينة ومتاع الغرور، وينسون أنه بعد هذه الحياة لا بد من الموت والفناء، وأنَّ اليوم الذي تركوه وراءهم بنسيانه تماماً وعدم تذكره أبداً سوف ينتظرهم لا محالة، وهو يوم ثقيل بأعبائه على من لا يحسبون حسابَهُ، ولا يتزودون له بالزاد الذي يخفف عنهم الأثقال والأوزار التي حملوها من دنياهم.. وذلك اليوم العظيم هو يوم القيامة، يوم الدينونة وفيه يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم.. وسيكون فيه الحساب، ولا ريب، عسيراً على من أغفل قلبه عن التذكر، والاستعداد لهذا اليوم العظيم..

لقد زاول أولئك وهؤلاء الذين يحبون العاجلة، ولا يعملون للآخرة، الحياة الدنيا بكل أنانيتها، وحققوا ما استطاعوا تحقيقه من مطامع ومطامح، وأهواء ونزعات. ولقد تكبّروا وتعالوا على غيرهم، فظلموا وأفسدوا في الأرض مغترين بما لديهم من قوة، وبما وصلوا إليه من سلطان، ولكن من أين لهم ذلك؟ يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ﴾..

أجل هو الله الخالق العظيم، وهو العزيز الحكيم الذي منحهم القوة، وشدَّ أبدانهم بالتركيب المتين، وجعل في نفوسهم العزة، وفي

---

(١) سورة الإنسان، الآيتان: ٢٨ و٢٩.

المسهم

عقولهم الإنتاج، ثم آزرهم بمن حولهم حتى استوت لهم الحياة منيعة زاهرة، وكل ذلك بفضل الله ورحمته بعباده. ولولا مولاهم الذي يشد أسرهم لما أمكن لهم أن يفعلوا شيئاً، أو أن ينتفعوا بشيء أبداً!. ومع ذلك فإنَّ أولئك المغترين لم يعطوا نعمة الله عليهم ما تستحق من الحمد والشكر، بل جحدوا هذه النعمة، وجعلوا أنفسهم عبيداً لأهوائهم فضلوا عن السبيل القويم.. إن يشأ الله يهلكهم ويأتِ بأناسٍ غيرهم، وعلى أمثالهم في الخلقة وجميل الصنع. ولكنه يبقيهم لإتمام حكمته في خلقه. ثم إنهم إليه راجعون، وسيجدون يوم الحساب نتائج أعمالهم، وحصيلة دنياهم بأسرها حاضرة أمام أعينهم، فينالون الجزاء الذي يستحقون.

يحذّر الله (تعالى) بني آدم بألا يفتنهم الشيطان كما أخرج بفتنته أبوَيْهم من الجنة.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

لما ذكر الله (سبحانه وتعالى) نعمته على بني آدم فيما جعل لهم من مستقر في الأرض، وفيما آتاهم من التدبير لارتداء اللباس والتستر، أعقبه بتحذيرهم من غواية الشيطان، كي لا يضلّهم عن الدين، ويصرفهم عن الحق فيقعوا في المكيدة التي ينصبها لهم. ودعاهم سبحانه إلى عدم الاستجابة لدعوة الشيطان الذي يُزيّن لهم

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

المسهم

ارتكاب الفواحش والمعاصي التي تميل إليها ـ عادة ـ النفس الأمارة بالسوء. وضرب لهم مثلاً على فتنة الشيطان بما أغوى أبوَيهم آدم وحواء عليهما السلام، عندما دلهما على الشجرة التي نهاهما ربهما عن أكل ثمرها، مدعياً كذباً واحتيالاً بأنها شجرة الخلد.. فكان بسبب ذلك الإغواء إخراجهما من الجنة، أي من المكان الآمن الظليل المليء بالخيرات والثمرات، حيث جعلهما الله تعالى ينعمان فيه بالسعادة ردحاً من الزمن، وإلى أن يحين اختبارهما كما هو مقدَّر في علمه تعالى. أما أنَّ النص قد نسب الإخراج للشيطان، ففيه التأكيد على أنه هو مسبب الغواية، ومثير الفتنة التي فيها الابتلاء.. وهو نفس السبب لما نُسِبَ إليه من أنه نزعَ عنهما لباسَهما ليريهما سوءاتهما.. وهذا يدلُّ على أن الحياة التي ابتدأها آدم وحواء كانت صافية، خالصة من الشهوات والنوازع والأهواء، فلما وقعا في الإغواء، كان لا بد من أن تتبدَّل نظرتهما إلى وجودهما، وأن يريا بأنَّ اللباسَ الذي كانا يلبسانه لم يعد يأتلف ووضعهما الجديد.

ولذلك جاء التوكيد على بني آدم بأن يحذروا، ويتقوا فتنة الشيطان ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ هذا القابع دوماً معكم الذي يلاحقكم حيثما كنتم، ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ قال ابن عباس: إن الله تعالى جعلهم (أي الشياطين) يجرون من بني آدم مجرى الدم في عروقهم، فجعلوا من صدور بني آدم مساكن لهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾، فهم (أي الشيطان وقبيله من الجن) يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم. قال قتادة: «وَاللَّهِ إن عدوّاً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤونة إلاَّ من

عصم الله». وإنما قال ذلك لأنّا إذا كنا لا نراهم فلا نعرف قصدهم لنا بالكيد والإغواء، فينبغي أن نكون على حذر فيما نجده في أنفسنا من الوساوس خيفة أن يكون ذلك من الشيطان.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي أنّا حكمنا بذلك لأنهم يتناصرون على الباطل. وإنما خصَّ الذين لا يؤمنون تنبيهاً إلى أن الشياطين، مع اجتهادهم في الإغواء، لا يتمكنون من خيار المؤمنين المتيقظين، وإنما يتمكنون من الكفرة الجاهلين، والفسقة المغفلين الذين يتخذونهم أعواناً لهم، ومطايا لنفث سمومهم وأحقادهم عليهم وعلى كل جنسهم من بني آدم.

الفقرة الرابعة ـ مثل الحياة الدنيا في فنائها

١ ـ إنما مثل الحياة الدنيا في فنائها كالنبات الحصيد

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

إنَّ الواقع يثبت مدى تعلق الناس بأهداب الحياة الدنيا، والعمل على التَّنعّم بما فيها من متع: إن بالحصول على المال والثروة، أو بامتلاك النفوذ والجاه، أو السعي وراء المطامح والمطامع التي يضعها الإنسان نصب عينيه، ويعمل على تحقيقها.. وهذا ما يجعل الإنسان مشدوداً إلى دنياه، غارقاً في خضمِّها الواسع، ومستعداً لأن يفعل كل

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

المسهم

ما يمكن أن يوصله إلى غاياته ومآربه، إلا من عصم الله (تعالى) بالإيمان، فسار على طاعة ربه وتقواه. وإن أحد مظاهر الفتنة في الحياة تلك الأفكار التي سيطرت على أذهان الناس وزينت لهم القوة مقياساً لكل شيء، ولا سيما أهل العلم الذين كلما توصلوا إلى أنواع جديدة من المخترعات والاكتشافات، توهَّجت شعلة العلم لديهم، وجعلت أنظارهم مشدودة ليس فقط إلى كواكب النظام الشمسيّ الذي يعيشون في كنفه، بل وإلى آفاق السماء البعيدة لمعرفة ما في هذا الكون من أجرام وعوالم ما تزال في طي الغيب..

إنّ مثل هذه الرغبة التي تتحكم بالإنسان من جراء تقدمه العلميّ الماديّ هي التي تحدوه إلى الظن بأنه قادر على أن يكيّف الحياة الأرضية برمتها، وكأنها عجينة ليّنة بين يديه، ومطواعة لإرادته وعزمه. وعلى الرغم من كل نظرياته وأهوائه ورغباته تلك، فإنه لم يفطن ـ أو لعلّه يتناسى ـ ما كان لكل أشكال التمدن، وأنواع النظم والتشريعات والعلوم التي ابتدعها وجعلها بعيدة عن شرع الله، من آثار سيئة على صحته الجسدية وراحته النفسية، ولا سيما ما ترهقه به متطلبات الحياة المستجدة التي نراها تزداد يوماً بعد يوم، فتعمّق جذور تعبه وشقائه.

والغريب في هذا الإنسان، الذي يتباهى بأنه أَغنى الدنيا بعلومه واكتشافاته، معرفته بأنه عاجز أن يرد غوائل الطبيعة عنه، وعن كل ما حوله.. فكم من فيضانات، أو زلازل أو رياح عاتية، وقف مشدوهاً خائفاً أمام قواها العاتية وهي تدمر، وتخرب وتبيد كل ما بناه!. وكم من أمراض فتكت بحياة الناس، واجتاحت الزروع والثمار ولم يقدر على تلافي أخطارها وأضرارها!..

إنها شواهد حية على ضعف الإنسان ووهنه في رد قضاء

المسهم

محتوم، أو قدر مقدور ينزل بساحه، فيسلبه كل ما يعتدُّ به.. وهو وحده قضاء الله تعالى الذي يُظهر عجز الإنسان، وهلعه مما قد يصيبه من المآسي، أو قد يؤدِّي به إلى الفناء، أو مما قد يحل بأشيائه وموجوداته من الخراب والدمار والضياع.. والمؤمنون، وحدهم من دون سائر الناس، يعلمون أنه الحق من ربهم فيما يشاء من الحكمة، والصنع والتقدير في حياة عباده لعلهم يخشون أو يتذكرون أو يعقلون.. ومن هنا كان تحذير القرآن الكريم للإنسان، وفي أكثر من موضع في آياته المبينة، من سوء فعاله التي قد تجلب له الويل، ونعيه عليه انشغاله بهذه الحياة الدنيا، وانصرافه إلى خدمتها حتى في أوضارها وأوحالها.. ومن ثَمَّ توجيهه لهذا الإنسان بألاَّ يغترَّ ويزهو بفعاله وأمجاده، وألا يتفاخر بما قدَّم وأخَّر، وألاَّ يجعل هذه الدنيا غايته القصوى بحيث لا يكون همه إلا ما يريد الحصول عليه منها، دون الالتفات أو التذكر بأنه مهما بلغ من العمر، ومهما وصلت به الحال، فإنه فانٍ، ولا بقاء له في دنياه هذه.. إن عظمة القرآن المجيد تتجلَّى هنا بما تربّي عليه الإنسان، كي لا يجعل همَّه الدنيا وحدها، وأن يعمل للدنيا والآخرة على حد سواء، وأن يبتغي من وراء ذلك كله إحسان ربه إليه، كما بيّنه هذا الدعاء المأثور من المؤمنين لربهم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

فالإنسان عليه أن ينظر إلى الحياة الدنيا بروح إيجابية وبنّاءة بحيث يجعل جهوده منصبة فعلاً على إعمار هذه الأرض، ولكن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

المسهم

بشرط أن يتوسّل لذلك بالعمل الصالح، وفعل الخير، والدعوة إلى الحق ونشر الهدى والسلام بين الناس؛ ودون أن يحرم نفسه مما أحلَّ الله (تعالى) له من الطيبات، ومن متع الحياة ومباهجها، ولكن دائماً، ضمن الحدود التي لا يعصي فيها ربه، أو يسيء إلى كرامته وإنسانيته، أو إلى كرامة الناس وإنسانيتهم. ولذلك فإن العزوف عن الدنيا يخالف أمر ربنا تبارك وتعالى، لقوله الكريم: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[2]. وهو ـ سبحانه ـ في مخاطبته لرسوله الكريم يقول له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾[3].. أي إذا فرغت من شؤون الدنيا التي هي على عاتقك، فانصرف إلى عبادة ربك سبحانه وتعالى ودعائه..

وعلى هدي الوحي الإلهيّ كانت السنة النبوية الشريفة تحضُّ المؤمنين على عدم ترك الدنيا لنوال خيرها، مثلما تحضهم على العمل للآخرة للفوز بثوابها. ومنها قول رسول الله ﷺ: **«ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه»**[4]. وقوله ﷺ: **«نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلّغكم الآخرة»**[5]. وقوله ﷺ: **«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»**[6].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الانشراح، الآيتان: ٧ و٨.

(٤) رواه أحمد بن حنبل، رقم ١٨٨٥.

(٥) رواه أحمد بن حنبل، رقم ١١٩.

(٦) رواه أحمد بن حنبل، رقم ٣٨١.

المسهم

فالتصور الإسلاميّ قائم على التوازن في العمل للدنيا والآخرة، مع ترجيح كفة الآخرة وحسابها، لأن الدنيا هي المطية التي يرتحلها الإنسان للآخرة، حيث إن الأعمال الصالحة فيها هي التي تقوده إلى النعيم، والأعمال السيئة إلى الجحيم، فكانت الأعمال هي المطية، وهي الزاد.. فالدنيا ـ وكما هو مشاهد ومحسوس ـ دار ممر وفناء، والآخرة دار مقر وبقاء. ومن وعى هذه الحقيقة أدرك أن النتائج التي تترتب على أعمال هذه الدنيا لا يمكن أن تذهب أدراج الرياح في الآخرة، فالعدل الإلهيّ يقيم الموازين الحق يوم القيامة ليجزي كل نفس بما كسبت. ولذلك كان على الإنسان، طالما هو موجود في هذه الحياة، أن يؤدي واجباته تجاه وجوده هذا، سواء فيما خصَّهُ بنفسه، أم فيما يعمل لنفع الآخرين وللصالح العام.. ولكن يبدو أن من أغفل قلبه عن الهدى، قد ضلَّ عن هذه الحقيقة، فانصرف إلى متاع الدنيا وغرورها، وانغمس في شهواتها وملذاتها، وغرق في أطماعها ومكاسبها حتى أنسته الآخرة، وأعمته عن الحساب الذي لا بد أن يؤديه لربه.. فمثل هذا الإنسان، الذي غالباً ما يعمل السوء، وينشر الفساد في دنياه قلما يدرك أن ربه تعالى يحصي عليه كل حركة من حركاته، وكل سكنةٍ من سكناته، وقد أوكل به ملاكين يسجلان كل ما يقوله أو يفعله.. فصار مثله في توجهه وعمله لامتلاك الدنيا وحيازتها ـ دونما عمل يذكر للآخرة ـ مثل هذا الماء الذي ينزله الله (تبارك وتعالى) من السماء، حتى إذا اختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، وأخذت الأرض زينتها من المروج الخضراء التي تمتلىء بالأزهار على اختلاف أنواعها، وألوانها، والأشجار التي أينعت ثمارها، وامتلأت السهول بالأرزاق والخيرات.. وظن الناسُ أن كل

المسهم

هذه الخيرات من الثمار والحبوب، وكل تلك المباهج من الألوان إنما كانت بجهودهم، وأنهم قادرون على التصرّف بها، إذا بأمر الله تعالى يأتيها ليلاً أو نهاراً فيجعلها هباءً منثوراً، وذلك بأن يسلط عليها رياحاً حارة عاتية تحرق الغابات والبساتين، وتلتهم المواسم والغلال، أو يبعث عليها الفيضانات التي تدمر كل شيء، أو يقيّض لها أمراضاً تفتك بالمواشي، وتفسد الثمار، وتحرق الزروع حتى يصير كل شيء كالحصيد الهش تذروه الرياح في كل مكان، وكأنَّ الأرض لم تكن على حال من الزخرف والزينة، وكأن لم تَغْنَ بشيء مما كانت عليه بالأمس.. هكذا مثل الحياة الدنيا: لا متاع فيها دائم، ولا نعيم باقٍ، ولا جمال قائم، وكل شيءٍ فيها زائل إلا بما يشاء العزيز الحكيم ويقدِّر..

وأهمية هذا المثل أنه يصوِّر لنا واقع الحياة بالمشاهد الحسية التي يراها الناس في مختلف بقاع الأرض، وعلى مدار المواسم والفصول، والتي لا تلبث، إذا أتاها أمر الله، أن تهمد وتزول بعد أن تكون حافلة بالحركة النابضة، وممتلئة بالغنى والثروة، وذلك ليثبت في روع الإنسان أن حياته إلى فناء لا محالة مثل تلك المشاهد التي يمرُّ عليها كل يوم، وهو غافل عنها، ولا يعيرها أي التفات أو انتباه.. ولكنَّها في الحقيقة من آيات الله تعالى في خلقه، وقدرته على التصرف في ملكه، فخليق به أن يعتبر، ويستدل على أن الأمر كله لرب العالمين، وأن أجله سوف يأتي في موعده تماماً، فيذهب من هذه الدنيا، ويزول مثل هشيم تحمله الريح وتذروه فلا يبقى له أثر. كذلك يفصل الله الآيات الدالة لقوم يتفكرون بمصائرهم بعد الحياة الدنيا.

ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة عن الحياة الدنيا في آية

المسهم

أخرى، فيقول العزيز الحكيم: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[1].

إنه أمر الله ـ جل وعلا ـ للنبيّ محمد ﷺ بأن يضرب لهم مثل الحياة الدنيا في إيجادها وفنائها، فالله القادر المقتدر ينزل الماء من السماء، فيختلط به نبات الأرض، ثم ينضج، ثم سرعان ما يصبح هشيماً تذروه الرياح.. أو قد تنبت به الزروع، وتطلع الثمار، ولكن قبل نضوجها يرسل الله (تعالى) عليها ما يجعلها هباءً منثوراً..

فالسياق القرآنيّ يستخدم نفس العناصر من المطر ونبات الأرض، ونفس المشهد الحسيّ من الهشيم والرياح، تاركاً للناس أن يتفكروا في نهاية الحياة السريعة التى ينعدم بها وجودهم ـ أفراداً وجماعات ـ وفقاً لسنة الله في الخلق، لأنه سبحانه هو الذي يقدر الحياة والموت على عباده، كما يقدرهما على كل كائن حيّ، بحيث لا يغترُّ أي إنسان بهذه الحياة القصيرة الفانية، ولا ينساق وراءها، تاركاً الآخرة من غير أن يعمل لها.

ونلاحظ أن القرآن الكريم قد استخدم النسق اللفظيّ في تقصير عرض المشاهد، في ثلاث جمل قصار، وبالتعقيب الذي تدل عليه «الفاء» ـ ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ ـ ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ لتوكيد فكرة قصر الحياة، وفنائها سريعاً، مثل النبات الذي ما إن يطلع حتى ييبس ويضيع هشيماً. فما أقصرها حياة، وما أهونها على الله العليّ القدير!.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

المسهم

٢ ـ مثل الحياة الدنيا في كل ما يهوى الناس وما يتفاخرون به كمثل النبات ينمو ثم يصفرُّ ثم يكون حطاماً.

ويضرب الله (تعالى) مثالاً آخر عن الحياة الدنيا حول أحد أهم جوانبها في نظر الناس على الإطلاق، ألا وهو ما يتعلق بالأموال والأولاد، فيقول تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

واضح في هذا المثل التشابه في الصور التي يوردها عدد من النصوص القرآنية حول الحياة الدنيا للتوكيد على الغاية الأساسية التي ترمي إليها هذه النصوص وهي إيقاظُ الإنسان من غفلته عن مصيره إلى الفناء، وحثُّه على العمل للآخرة وما ينتظره هناك من الحساب والجزاء..

وهذا لا يحتاج أصلاً إلى بيان أو تبيان على اعتبار أن تلك الصور الحسية هي ما يشاهد الناس بأم العين من النبات في أبدع مظاهره وزهوه، ومن الحصيد الهشيم الذي يتبدد ويتناثر، وكذلك الصور عن المتاع، واللهو والزينة التي تفتن الناس وتلهيهم عن الحياة الآخرة.. فكل ذلك مما يلفت إليه القرآن ويدعونا للتأمل به مثلما يلفتنا هنا إلى دليلٍ حسّي آخر، ولكن قد يكون له شأو خاص في حياتنا نظراً لشدة أهميته وتأثيره على وجودنا الإنسانيّ بأسره، ونعني به كسب الأموال، وإنجاب الأولاد. وغنيٌّ عن القول أن المال والبنين

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

المسهم

زينة الحياة الدنيا، وأن الناس يفنون العمر من أجل كسب المال وحيازة الممتلكات والأرزاق، وأن أعزَّ شيء عندهم في الوجود وأحبَّ إلى قلوبهم هم الأبناء.. كل ذلك أمر جليل في الحياة. ولكن ما ينبِّه إليه القرآن الكريم هذا التفاخر في التملك والاقتناء، وهذا الاعتداد بكثرة الأولاد والأحفاد على ما نجد عند أكثر الناس، مما يجعلهم حريصين على الدنيا، وقد ينسون الآخرة بسبب هذا التفاخر بينهم والتكاثر في الأموال والأولاد..

صحيح أن الرغبة في اقتناء الأموال ليست إلا تعبيراً عما أودعه الله تعالى في النفس البشرية من غريزة حب البقاء التي تظهر لدى الإنسان بحب التملك والاقتناء، والطمع.. وصحيح كذلك أن حبَّ الأولاد منه تعالى، وهو ناشيء عن غريزة النوع التي تظهر بالحنان والعطف وغيرهما من مشاعر الأمومة والأبوة، بحيث إن نزعة الإنسان إلى الاجتماع، وإلى تحقيق قيمته الإنسانية هي التي تدفعه إلى الزواج والإنجاب، ليكون الأبناء صورةً عن الآباء، وتعبيراً عن استمرارية وجودهم في هذه الحياة.. إلا أن ذلك ليس من شأنه أن يحيل مشاعر الناس إلى المتعة واللهو، وإلى التفاخر بينهم في كثرة ما يجمعون من الأموال أو يرزقون من الأولاد، دون أن يكون في حسبانهم شأن للآخرة يستحق أن يولوه اهتمامهم، ويحسبوا حسابَهُ.. فجاء المثل القرآنيّ يشبه أحوالهم تلك، وإيثارهم للدنيا بالغيث الذي أعجب الكفارَ نباتُهُ، ثم يكون هشيماً فانياً.. (فالكفار ـ هنا ـ بمعنى الزراع، لأن الكافر في اللغة الزارع الذي يغطي البذار بالتراب).

فالزراع يكدون ويكدحون عادة في الفلاحة والغرس والبذر، ثم يأتي المطر فتؤتي زروعهم أكلها بإذن الله، ثم تأتي أوقات القطاف

والحصاد، ثم يتوزع كل شيء على الاستعمال والاستهلاك ليصير من بعدهما حطاماً لا أثر له، وهذا في أحسن الأحوال؛ أما إذا أراد الله تعالى غير ذلك فقد تهيج الزروع والثمار، وتبدو في أحسن رونقها بما يعجب أصحابها، ثم يأتي ما يقضي عليها قبل أوانها، فتصفر، وتذبل وتموت، ثم تكون حطاماً لا نفع فيه.. هكذا شأن الحياة الدنيا.. يصرف الناسَ الاهتمامُ بمشاغلها عن التفكير بأن لها أجلاً موقوتاً، لا بد أن يحل بها الفناء تماماً كما هو الحال في زروعهم. ولكنَّ الأمر لا يقف عند نهاية هذه الحياة، بل هنالك الآخرة وفقاً لسنة الله ـ تعالى ـ في خلقه. وإن في الآخرة عذاباً شديداً لمن آثر عليها الدنيا، فأبعدته عن طاعة ربه ورضوانه.. وإنَّ في الآخرة مغفرةً من الله ورضواناً لأوليائه وأهل طاعته. فالحياة الآخرة هي الحيوان، وهي المعوَّل عليها لأنها لا تنتهي كما تنتهي الحياة الدنيا، ولا تصير إلى عدم كالنبات الذي صار حطاماً، بل هي حساب وجزاء، ثم ديمومةٌ وأبدية..

بل وما الحياة الدنيا بما فيها من اللذة واللهو، وبما فيها من التفاخر بين الناس والتكاثر في الأموال والأولاد، إلا متاع خادع، وغرور وجهل إن لم تكن محصلةُ الأعمال فيها موصلةً إلى الفوز بالآخرة.. وهذا ما يريد المثل القرآنيّ أن يصححه في أذهان الناس، ويربي نفوسهم على الحقائق التي تبعدهم عن الغرور الخادع، والتفاخر الزائل، والتكاثر الفاني..

في كتاب (مقدمة المصحف المفسَّر) وتحت عنوان: «الدنيا في نظر القرآن»، يقول الأستاذ محمد فريد وجدي: «ما من فيلسوف أو شاعر أو متأمل في الوجود إلا وحقّر الدنيا واشتكى منها لتوالي آفاتها وتتابع حسراتها. فلا لذة فيها إلا وهي مشوبة بألم، ولا راحة إلا وهي

المسهم

مصحوبة بتعب. فلم تَصفُ لملكٍ ولا عالم ولا جاهل. ولكنَّ الناس مالكهم ومملوكهم، وعالمهم وجاهلهم، ومؤمنهم وكافرهم وإن اتحدوا في هذا الذم إلا أن طرائقهم فيها على غاية التناقض، اتحدوا كلهم في المقدمة واختلفوا في النتيجة. فمنهم المتكالبون عليها، المتفانون في جمع حطامها، فكان ذلك التكالب مؤدياً إلى التقاطع والتنابذ، وتعمد الشرور التي تزيد دنياهم نقصاً، وحياتهم تنغيصاً. وهو حال شديد التناقض، الواقعون فيه أشد الناس قدحاً لأنفسهم وعجباً من حالهم. ومن الناس من عرف للدنيا هذه الحال، فانقطع عنها ونبذها ولم يعبأ منها إلا بما يسد الخَلَّةَ ويقيم الأود. ولكن إذا كان القسم الأول شديد التناقض، فالثاني مفرّط لا يلبث أن يقع تحت سيطرة القسم الأول، لأن الدنيا لمن غلب، ولا غلبة إلا بمادة..».

جاء الإسلام والناس على هذين الاتجاهين. فأورد للأولين من أنواع العبر ما يقتلع حبَّ الدنيا من أنفس المتهورين في حبها، ويريهم حقارتها ونقصها بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1] ـ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[2] ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[3] ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[4]...

أتى سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات، ولكنه شفعها بما يجب على الحيّ أن يعمله في دنياه من سعي وراء الحصول على المادة،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

المسهم

حتى لا يقع أهل هذا الدين تحت أسر الأمم المادية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾. وسمّى المال خيراً ما دام المقصود منه طلب الحق، فقال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ وسمّاه فضلاً فقال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. والمال لم يكن خيراً وفضلاً من الله تعالى إلا لأنه مكتسب من حِلّ، لا مأخوذ بقطع رحم، ولا بمنافسة تجرُّ إلى خراب.

بهذه الحكمة العالية أشرَبَ القرآن نفوس أهله خصلتين ساميتين: أولاهما: ترك الدنيا لعشاقها، وثانيتهما: أخذ ما يقيم أَوَدَ حياتهم منها، ويحميهم من الوقوع في أسر عبادتها. ولا نرى ديناً من الأديان حل هذه المسألة على هذا النحو. وقد أيد المسلمون هذا الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم، وأسسوا على قاعدته مدنيةً فاضلة قامت على أعدل أُسُسِ الفضيلة حتى قال اللَّهُ تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

٣ ـ ليس مصير المؤمن الذي وعده ربُّهُ وعداً حسناً كمصير الكافر يوم القيامة

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[1].

تبين هذه الآية الكريمة البَون الشاسع بين مصير المؤمن، ومصير الكافر..

فالمؤمن الذي وعَدَهُ ربهُ وعداً حسناً بإدخاله الجنة، سوف يلاقيه ـ ولا ريب ـ جزاءً على طاعته، لأن الله ـ جلت عظمته ـ لا يخلف

---

(١) سورة القصص، الآية: ٦١.

المسهم

وعدَه. أما من أوتي متاع الحياة الدنيا من المال والبنين، أو من الجاه والسلطان، أو من الصحة والأمان، أو غيرها مما يمتعه الله (تعالى)، ثم يكفر بهذه النعم فلا يستخدمها في طاعة ربه، ولا في نصرة دينه، بل ولا ينتفع بها أو ينفع الآخرين بما يرضي الله (عز وجل)، فإن كل ما ناله كان متاع الحياة الدنيا، وسوف يمثل يوم القيامة للحساب الذي لا مفرَّ منه، ثم يكون من المحضرين إلى النار التي يساق إليها بالقوة والإكراه نتيجة جحوده لفضل الله عليه، وسوء فعاله في معصية الله.

إن الآية القرآنية الكريمة تلفت انتباهنا وتسألنا: هل إن من فاز بوعد الله بالجنة، يستوي مصيراً مع من يُحضر إلى النار وهو يُدعُّ إليها دعّاً؟ أبداً! لأن نعيم الآخرة يكون خالصاً من كل شائبة، وصافياً من كل كدر، وهو دائم لا يفنى ولا يزول، بينما جحيم الآخرة يكون حافلاً بالعذاب المهين، وهو عذاب دائم وباقٍ إلا أن يشاء ربُّ العالمين.

الفقرة الخامسة ـ التربية والإرشاد في الأمثال القرآنية

ونتناول في هذه الفقرة بعض وجوه التربية التي ترشدنا إليها الأمثال في القرآن الكريم علَّنا نهتدي بأنوارها إلى ما فيه صلاح نفوسنا، وخير مجتمعاتنا. ومن تلك المآثر التربوية في الإسلام ما يمكن استنتاجه على النحو التالي:

ـ الابتلاء في الحياة الدنيا.

ـ الإنسان مرهون بأعماله.

ـ التقليد والتبعية.

ـ توجه الإنسان إلى الله (تعالى) إذا مسَّهُ الضرُّ.

المسهم

ـ مثل الإنفاق في سبيل الله، ومثله في غير طاعة الله.

ـ تأثير الربا على حياة الناس.

ـ حكم الإرث والرضاعة

ـ علاقة الزوج بامرأته المطلقة

ـ أحكام قتل الصيد في الإحرام

ـ النهي عن نقض العهود والأيمان

ـ التحذير من الطعن بالأعراض والنهي عن العودة لمثله

١ ـ الابتلاء في الحياة الدنيا ومثاله ما أصاب أصحاب البستان المثمر

الإنسان في هذه الحياة محلٌّ للابتلاء والشقاء، ومعرَّضٌ للفتنة والإغواء. فقد يُبتلى المرء بصحته، أو بكرامته، أو براحة باله. وقد يتعرض في وقت من الأوقات للخسارة في تجارته، أو فقدان ممتلكاته، أو قد لا يعود لديه مصدر رزق يعتاش منه.. وما إلى ذلك من الأضرار المعنوية، والمادية التي قد تصيبه. إذن فحالات الضرر والابتلاء كثيرة، وقد لا يفلت منها امرؤ على وجه الأرض. والحكيم، في مثل هذه الحالات، هو من أقنع نفسه بوجوب التأسّي والصبر، وردَّ الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى، الذي يهبه العزاء، والقدرة على الاحتمال، بما يخفف عنه البلاء، ويقلّل من وقع المصيبة.

وبالمقابل قد يصيب المرء غنىً وثروة، وقد يتقلَّد منصباً أو مكانة مرموقة. وقد يكون من ذوي الحكم والسلطان، أو الجاه والنفوذ.. وما إلى ذلك من النجاحات والامتيازات التي يحرزها في حياته وكلها قد تكون نعمة أو نقمة.. فهي نعمة عندما يعرف أنها منةٌ من الله تعالى عليه، فيسلك سبيل ربه، ويتَّبع طريق الرشاد والخير

المسهم

لنفسه، ولذويه وللآخرين؛ وهي نقمة عندما تبطره النعمة وتفتنه، فينقاد لهواه، ولغواية الشيطان ووسوسته، فيقع في مهابط التكبّر والتسلط، أو يزلّ في أوضار الفسوق والفساد غير عابىء بأوامر ربه، وغير مبالٍ بحلاله وحرامه في معاملته أو تعامله مع الآخرين.. حتى يصير عبداً للدنيا ومتعلقاً بأسباب متاعها وزينتها..

ولهذا عمدت الآيات الكريمة ـ وهي كثيرة ـ في القرآن الكريم إلى تربية الإنسان، بما تقدم له من القصص والأمثال الهادية، وبما تحفل به من الحكمة والموعظة الحسنة، التي تبيّن جميعها أن ما يصيبه من خير أو شر هو من قبيل الابتلاء والامتحان لاختبار إنسانيته قبل كل شيء، ومقدار درجة إيمانه أو كفره بربه.. ثم لتؤكد له أن الناس جميعاً، أفراداً وجماعات، هم مثله تماماً معرضون للابتلاء ما داموا يعيشون على هذه الأرض. فإن حلَّ سوء بحياة امرىء، فقد حلَّ بغيره مثله، وإن وقعت دهماء بساح جماعة، فقد رأت مثلَها جماعاتٌ أخرى كثيرة، ولكن الفارق أن الابتلاء لا يزيد المؤمنين إلا إيماناً وتسليماً، ولا يزداد به الكفار إلا فتنةً واستكباراً..

وهذا ما يريد النص القرآنيّ بيانه بقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1]، أي أن في الآيات القرآنية الموجهة لتربية الإنسان عظاتٍ، ودروساً وعبراً، على الإنسان أن يستفيد منها، لتكون تربيته صحيحة، سليمة، تتوافق مع فطرته، ومع خصائصه، ومع الغاية من خَلقه.. ولكنَّ الأساس الذي تبنى عليه هذه التربية هو أن الله تعالى قد جعل الإنسان موضع اختبار في هذه الحياة

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

المسهم

الدنيا، فما أصابه من خير أو شر، إنما مردُّه لأمره سبحانه، ليختبر به ما في النفوس، من إخلاص أو نفاق، ومن إيمان أو كفر، ومن صبرٍ أو عدم احتمال.. إلخ. فيتميز به الناس، عن بعضهم البعض، ويَظهر منهم الغثُّ والسمين، لأن الابتلاء ـ سعادة أو شقاءً ـ هو ما يظهر الناسَ فعلاً على حقيقتهم في تربية نفوسهم، أو في تعاملهم مع الآخرين. أما بالنسبة إلى الله جلَّ وعلا فهو يعلم ما في القلوب، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولكنه سبحانه ينعم علينا بالتوجيه والإرشاد، ويمن علينا بالتربية والعطاء، زيادة في الرحمة، وزيادة في التفضُّل.

والمؤمنون يكونون عادة معنيين أكثر من غيرهم بالتوجيه والإرشاد من ربهم، لأنهم أصحاب رسالة يجب أن يوصلوها إلى الناس. ولذلك كانت تبعاتهم أخطر، ومسؤولياتهم أكبر. والحفاظ على رسالة الإيمان يستلزم دائماً مزيداً من البذل والجهد والجلد، حتى يمكن للمؤمن التغلُّبُ على العقبات والصعاب التي تعترضه. وتربية القرآن الكريم تشدّ العزم، وتقوّم الاعوجاج، وتصقل النفس، وتقوّي الإرادة.. والمؤمن الذي يعرف أن المسؤولية هي تكليف، وأن الابتلاء هو تمحيص، ويعمل على هذا الأساس، فإنه يفوز برضوان الله تعالى، لأنه اختار طريق الصلاح في الدنيا، وطريق الفلاح في الآخرة.

ويضرب الله (تعالى) لنا مثلاً عن الابتلاء بأصحاب بستانٍ غلبت عليهم نزعةُ الطمع فبعث الله عليه طائفاً من عنده فأحرقه ودمَّره، كما تبينه هذه الآيات المجيدة بقوله تعالى:

المسلم

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

في أسباب نزول هذه الآيات كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج، أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً فاربطوهم في الحبال ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزلت: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي إنا بلونا المشركين في الاعتداد بقوتهم، وفي عدم قدرتهم على المسلمين، مثلما بلونا أصحاب الجنة فلم يقدروا على رد ما أصاب جنتهم. إذن فهنا إخبار على أن ثمة بلاءً من الله تعالى أنزله بالمشركين، وأن مثل هذا البلاء، كما في معظم الشدائد التي تصيب الناس، إنما تأتي من فعالهم هم، وتكون نتيجة لنواياهم أو أعمالهم السيئة.. فالبلاء الذي حلَّ بأهل مكة يوم بدر، أو في غيره من المواقف، والأحداث التي أذلهم الله بها، والمصائب التي أنزل عليهم منها ما يستحقون إنما كان كله بسبب عداوتهم للنبيّ، ومحاربة الدعوة إلى دينه القويم. ولذلك يؤكد لنا النص أن ربَّ العالمين قد ابتلاهم

(١) سورة القلم، الآيات: ١٧ ـ ٣٦.

حقاً، كما ابتلى أصحاب الجنة على سوء نيتهم..

والروايات التي تتحدث عن أصحاب تلك الجنة تقول بأنهم كانوا يعيشون في قرية من قرى اليمن الغنية التي تكثر فيها الحدائق والبساتين والزروع على اختلافها (وقيل إن بينها وبين صنعاء مسافة اثني عشر ميلاً)، وأنهم ورثوا تلك الجنة عن أبيهم، وقد كان رجلاً مؤمناً قد آتاه الله من فضله رزقاً كثيراً، فكان لا يمسك من ثمار بستانه الغنيّ إلا ما يكفيه وعياله، ثم يتصدق بالباقي على ذوي القربى، واليتامى والمساكين والفقراء. فلما مات آلَ ذلك البستان إلى أبنائه، وكانوا أصحاب طمع، لا يحبون التصدق على المساكين، أو الإحسان للمحتاجين بخلاف ما كان عليه أبوهم المحسن الجواد.

فلما حانَ وقت القطاف والحصاد، تواعدوا على أن يغدوا على حرثهم باكرين، وخُلسةً عن الناس، حتى لا تراهم الأعين، وهم يعتمدون على عزيمتهم في الجني، من غير أن يتوكلوا على الله، ويقولوا: إلاَّ أن يشاء الله. وهذا معنى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، أي لا يقولون: إلاَّ أن يشاء الله ألا نجني أرزاقنا؛ أو إلا أن يشاء الله منعنا من ذلك، أو عدم تمكيننا من فعل ذلك، إذ وفقاً لناموس الحياة، فإنَّ أيَّ عزم، أو أيةَ نية غيرُ قابلين للتحقق إلاَّ أن يشاء الله، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[1]. فعلى الإنسان عندما ينوي فعل أي شيء أن يقول: إن شاء الله، وحتى إن نسيَ، فعليه أن

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

المسهم

يعود ويذكر ربه، ويتوكل عليه، ويستثني بقوله: إن شاء الله، أو: إلا أن يشاء الله..

وهذا ما لم يفعله أصحاب ذلك البستان!.

فقد اتكلوا على عزمهم أولاً، وتواعدوا على حرمان الفقراء من التصدق عليهم، فناموا مطمئنين.. هكذا كانت نيتهم ومشيئتهم؛ ولكن العزيز الحكيم قد شاء غير ما يشاؤون، فبعث على جنتهم في الليل، وهم يغطُّون في أحلامهم النار المحرقة، وأرسل الرياح تؤجج لهيبها وتنقله إلى مختلف أرجائها حتى أتت عليها جميعاً، وجعلت كل ما فيها أسود «كالصريم»[1]، أي كالليل البهيم بظلامه الدامس. وهكذا جعل الطائفُ الذي بعثه الله على ذلك البستان، كل ما فيه من الأشجار والنبات رماداً أسودَ. وطلع الصباح، وتنادى الإخوة: أن اغدوا مبكرين إلى ثماركم وأعنابكم وزروعكم إن كنتم تريدون قطافها!. وانطلقوا في غدوتهم الصباحية تلك، وهم يتخافتون، ويسرون الحديث فيما بينهم، لئلا يسمعهم أحدٌ من المساكين، فيلحق بهم، ويدخل عليهم البستانَ فيأخذ نصيبه!

«وغدوا على حرد» أي على قصدٍ بحرمان الفقراء، أو على حنق أو غضب أن يأتوهم، وهم يتوهمون أنهم قادرون على حرمانهم فعلاً..

وكانت المفاجأة التي لم ينتظروها.. فلا أشجار، ولا أعناب أو فاكهة، ولا زروع، كل ذلك قد احترق في الليلة الظلماء، وتركته النار رماداً أسود كأن لا وجود له..

---

(١) **الصريمان**: هما الليل والنهار لانصرام أحدهما من الآخر. والصريم من الشجر أو النبات: ما صرمت أثماره، أي قطفت.

المسهم

وظن أولئك الإخوة أنهم ضلّوا الطريق عن بستانهم، فقد تركوه بالأمس في أوج نمائه، ولم يغيبوا عنه أكثر من سحابة تلك الليلة، ولم يصدقوا ما يرون أمامهم. ولكنهم استفاقوا من هول الصدمة فقالوا: كلا، لسنا بضالين عن ملكنا، بل نحن محرومون. وقد حرمنا ربنا العليّ القدير جزاءً على سوء نوايانا عندما عزمنا على ألا نتصدق من مال الله الذي يؤتيه من يشاء بغير حساب، وما الله بغافل عن النوايا، فأوقعنا في هذا البلاء، وفي هذه المصيبة الدهماء، عقاباً على ما سوَّلت لنا به نفوسنا من الطمع، وعدم الامتثال لأمر الله (تعالى) في الصدقة، والزكاة.. وقال أوسطهم: (ولعلَّه الأرجح عقلاً، والأعدل قولاً) ألم أنصحكم بأن تسبحوا الله تعالى على تلك الخيرات الوفيرة التي آتاكم، فتقولوا: سبحان الله، ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، فهذه من عطاء الله، ولولا فضل الله ما كانت تلك الأرزاق والخيرات. إنكم لم تسبحوا الله، بل ورأيتم ألاَّ يكون فيها نصيب للسائل والمحروم. فتباً لكم، إن كنتم إلاَّ ظالمين.

فاعترفوا بذنبهم، فقالوا: سبحان الله إنا كنا ظالمين. سبحان ربنا إننا ظلمنا أنفسنا، وظلمنا أهلنا، وظلمنا المحتاجين! ثم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وكل يلقي بالتبعة على غيره، وكأنما يريد أن يتنصَّل من ذلك الظلم الكبير! بل وراحوا يتحسرون ويقولون: يا ويلتنا إنا كنا طاغين، وتجاوزنا كل حد للظلم، ويا مصابنا على ما فرَّطنا في حق ربنا، وحق عباده. عسى ربنا أن يمنَّ علينا بخير من جنتنا التي كانت مصدراً لرزقنا، وعيشنا! إنَّا إلى ربنا راغبون بالتوبة، وطلب العفو والمغفرة، إن ربنا لغفور رحيم.

فهذا المثل الذي ضربه الله تعالى عن الظالمين لأنفسهم

المسهم

ولغيرهم، فيه توجيه منه سبحانه للناس أجمعين بألاَّ يظلموا، وألاَّ يطغوا على الفقراء والمساكين، لأن ذلك من فعل المشركين، والعاصين، والمنافقين والكافرين..

وقد اختتم سبحانه ذلك التوجيه بالتحذير والوعيد، وهو: أنَّ من يظلم في هذه الحياة فإن له عذاباً مثل العذاب الذي أصابَ أهل تلك الجنة بما تسبب لهم سوء تصرفهم من حرمان الرزق وآلام النفس.. ثم بعد الوعيد عقَّب سبحانه بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وأين منه عذابُ الدنيا، الذي فيه تلف المال أو الرزق، أو الوقوع في المرض والألم. فعذاب الآخرة أكبر بكثير لو كانوا يعلمون ما هو، وما نوعه، وما مقداره.. إنهم لا يعلمونه، ولو علموه لعبدوا اللَّهَ تعالى، وانصرفوا بكليتهم، وطوال أعمارهم، لمرضاة ربِّهم حتى يُبعدوا أنفسهم عن ذلك العذاب الذي أعدَّه سبحانه للمجرمين. أما المتَّقون، الذين يخافون عذابَ الله، فإنهم يسيرون في الحياة الدنيا على طريق الصلاح والتقوى، ولهم عند ربهم في الآخرة جنات النعيم.. والمتَّقون هم المسلمون الذين أخلصوا لله تعالى دينهم، وكمل إيمانهم، وصدَّقوا رُسُله واحتسبوا عملهم لوجهه سبحانه، وأحسنوا لأنفسهم ولغيرهم.

فهل يجعل اللَّهُ تعالى في الآخرة هؤلاء المسلمين المحسنين كالمجرمين العاصين؟ ما لكم أيها الكافرون!. وكيف تحكمون هذا الحكم الفاسد بأن تقولوا للمؤمنين: إنْ بَعَثَنا اللَّهُ فسوف نُعطى أفضل منكم. أو نكون مثلكم في المصير؟ لا! لا تتوهموا ذلك ولا يظنَّ أحد بالله تعالى إلاَّ العدل والحق.. ولن يجعل العزيز الحكيم المسلمين كالمجرمين، بل لكل منهم درجات ومنازل عند ربِّهم..

المسهم

فمن أطاع واتّقى كانت له جنات النعيم، ومن عصى وكفر كانت له نار الجحيم.

٢ ـ الإنسان مرهون بأعماله وجزاء السيئة بمثلها

يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

ما أعظم عدل الله تعالى على المسيئين! وما أعظم كرَمه وسخاءه على المحسنين!

فمن يعمل سيئة أو يرتكب معصية، فإنه لا يجازى عليها إلاّ بمقدار ما تستحق من العقاب، لا أكثر ولا أقل. أما الذين يعملون الصالحات، وهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا يبتغون إلاّ مرضاة الله تعالى فأولئك يدخلون الجنة، ويرزقون فيها، من رزق الله الواسع، بغير حساب، أي لا قدر بقدر، بل بقدر ما يتفضّل الله سبحانه عليهم من الجزاء العظيم. ولو كان هذا الجزاء بمقدار العمل فقط لكان بحسبه وكفايته.. إلاّ أنه تعالى قد ارتضى أن تضاعف الحسنات، ولا تضاعف السيئات، وذلك رحمة منه بعباده، وتقديراً لضعفهم، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة، فضاعف لهم الحسنات، وجعلها كفارة للسيئات. فإذا هم وصلوا إلى الجنة، رزقهم الله تعالى فيها بغير حساب.

ويقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ

(١) سورة غافر، الآية: ٤٠.

المسهم

مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

أي أن الذين يفعلون السيئات فإنها تصير بمثابة كسب لهم، لأن أعمال الإنسان هي مما كسب أو اكتسب توكيداً لقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[2]. فجزاء هذه السيئات، كلٌ سيئة بمثلها فقط، من غير زيادة أو نقصان. ولكنَّ الذين ينالون العقاب يقعون تحت وطأة الذل والهوان، حتى ترهقهم هذه الوطأة أيما إرهاق، لأن العقاب في الأصل ثقيل على النفس، وعادة ما يلازمه الشعور بالإهانة والإذلال.. فمن العقاب، إلى الشعور بالذل، ينشأ تراكم في العقاب يؤدي إلى هذا الإرهاق؛ ثم لا يجدون مانعاً يمنع عنهم العقاب والهوان. فمن يمنعهم من الله العزيز القدير والأمر بيده، ومرجع كل شيء إليه؟ فهم ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي أن وجوههم لشدة ما يلاقون من الإرهاق والذلّ تصبح سوداء قاتمة، فتبدو وكأنها أُلبست قطعاً من الليل البهيم، وكأن هذا اللباس عبارة عن قطعٍ قطعت من الليل المظلم الدامس فغُشيت (فغطيت) بها وجوه الذين عملوا السيئات. فالجو كله على المسيئين تغشاه الرهبة، والإهانة، فتبدو فيه وجوههم ملفّعة بأغشية من السواد القاتم. أولئك هم المبعدون عن رحمة الله تعالى، وأولئك أصحاب النار فيها خالدون.

٣ ـ التقليد والتبعيّة

يقول اللَّهُ تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

المسهم

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

إن التقليد تعطيل لنعمة العقل، وأَسْرٌ لموهبة الإدراك. فالمقلدون هم الذين يعطلون عمل العقل ويلغون مَلَكَة الفهم، فلا تعود لديهم قدرة على التفكير، أو البحث والاستقراء ليتوصلوا إلى الاعتقاد الجازم، والإيمان المكين. أي أن تعطيل خصائص الإنسان الروحية والذهنية، يميت فيهم التكوين المتأثّر والمؤثّر في المجالات الحيوية للإنسان، وفي طليعتها مجال الإيمان والعقيدة الدينية.. وفي هذا المجال تجدهم قد صمّوا آذانهم عن سماع دعوة الحق سماع تدبّر وتبصّر وتفهّم، وسُلبوا النعمة التي خصَّ اللَّهُ تعالى بها الإنسان وهي نعمة التمييز والاختيار، ولم يتجاوبوا مع دعوة الداعي ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2]، فلن نحيد عن معتقداتهم، ولن نخرج على عاداتهم وتقاليدهم.. فالمقلدون الذين قالوا: ألفينا آباءنا على دين ونحن على آثارهم مقتدون، لم يدركوا حقيقة الإسلام، ولا شعَّ نوره في قلوبهم، لبعدهم عنه، أو لاكتفائهم بظاهر إيمانهم. فإن قنعوا بتقليدهم الأعمى وبتبعيتهم الجهلاء، فاللَّهُ تعالى لا يقبل منهم هذه التبعية وذاك التقليد. ولذلك ضرب لهم في القرآن أمثالاً تبيّن صفاتهم وأحوالهم، التي نراها في كل زمان ومكان،

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٦٥ ـ ١٦٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

المسهم

في أناسٍ يتخذون من دون الله ـ جلَّ وعلا ـ أصناماً أو أشخاصاً أو كائنات معينة يعبدونها، فيقعون في الشرك والضلال، لأنها كلها شرك خفيّ أو ظاهر، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله تبارك وتعالى، أو إذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله ـ والعياذ بالله من ذلك ـ فكيف إذا نزع المرء حبَّ الله تعالى من قلبه، وأفرد تلك الأنداد بالحب الذي لا ينبغي ولا يجوز إلاَّ أن يكون للخالق؟ تلك هي حال المشركين ومن تبعهم..

أما المؤمنون فلا يحبون شيئاً حبهم لله: لا أنفسهم، ولا أهليهم، ولا سواهم من البشر مهما عظم وسما. ولا يقيمون وزناً، ولا يعطون قيمة لما يجري وراءه الناس، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ خالقهم، وهاديهم، والمنعم عليهم. وحبهم له سبحانه يكون حبّاً مطلقاً من كل موازنة، ومن كل قيد، ومتجهاً إليه تعالى دون سواه، لأنهم عرفوا عن طريق تفكيرهم حقيقة وجود الله، وسناء عظمته، وجلال شأنه، وعظيم فضله عليهم، فعبدوه حبّاً وطاعة وقناعة، وعبدوه شكراً وامتناناً وثناءً، وعبدوه خيفةً ورهبةً وطمعاً.

إنَّ حب المؤمنين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أشدُّ من حب الذين اتخذوا أنداداً من دون الله، وذلك من وجهين:

الأول: إخلاصهم في العبادة والطاعة لله الواحد الأحد، والثناء عليه، وتسبيحه وتكبيره، وتنزيهه عن كل شرك.

والثاني: حبهم لله تعالى عن علم بأنه المنعم ابتداءً، وأنه يفعل بهم في جميع أحوالهم ما هو الأصلح لهم في التدبير، وقد أنعم عليهم بالكثير؛ ولذلك فإنهم يعبدونه عبادة الشاكرين، ويرجون رحمته رجاء المتقين، فلا بد أن يكون حبهم له أشدَّ.

المسهم

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾. ومن هم الذين ظلموا؟ هم الذين اتخذوا أنداداً من دون الله، فظلموا بذلك أنفسهم، وظلموا معهم غيرهم من الذين كانوا لهم تبعاً وعملوا مثلهم.. لو يرى هؤلاء الظالمون عذاب الله الذي سينزل بهم، لأدركوا أن القوة والبأس، والشدة والجبروت، والعظمة والعزة كلها لله تعالى الواحد القهَّار.

إذن فتقدير المعنى: أنهم لو علموا في الدنيا ـ ويا ليتهم يرون ويعلمون ـ شدَّة عذاب الله، وأن القدرة له تعالى وحده، فلا يملك أحدٌ غيره ـ سبحانه ـ أسباب القوة، لما اتخذوا من دونه أنداداً، ولا أشركوا به شيئاً، ولتركوا تقليد آبائهم، ولرفضوا عباداتهم السخيفة!..

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ يوم القيامة، يوم يقوم الناس للحساب، فيتبرّأ الآباء والرؤساء، والآلهةُ، والأربابُ ـ المزعومون ـ وسائر المتبوعين من الذين اتَّبعوهم في معتقداتهم، أو من الذين أقاموا على عبادتهم بتقليدٍ من غيرهم.. ولا يقف الأمر عند حد التبرؤ منهم، بل وينكرون عليهم ضلالهم وتقليدهم، وذلك حين رأَوْا جميعاً ـ التابعون والمتبوعون ـ العذابَ يحلُّ بهم، ويساقون إلى جهنم زمراً، وحين تقطعت بهم (أي بنفوسهم وأفئدتهم) كل أسباب القرابة والأرحام والمودة، أو الحلف أو العهد، وكل الصلات التي كانت تربطهم في الدنيا، بحيث لم تعد تنفعهم بشيء في الآخرة، لأن مدار النفع والثواب والأجر لن يكون إلاَّ عمل الإِنسان وحده، وما كسبت نفسه في أولاه...

وبعد التبرؤ من المتبوعين يأتي دور التابعين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ أي لو أن لنا عودةً إلى

المسهم

الدنيا، وقد رأينا من عذاب الله ما رأينا، فإننا نتبرَّأ هناك من الذين اتبعناهم كما تبرأوا هم منا هنا، ولن نقتديَ بهم، ولن نعود إلى اتباعهم أبداً..

فيا له من مشهد مؤثر: مشهد التبرّؤ، والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، فكلٌّ يريد أن يتنصَّلَ من وزر الآخر، ومن إضلاله له.. ولكن هيهاتَ أن تكون لهم عودة، فقد أُحضروا إلى الآخرة التي لا رجوع منها إلى دار الدنيا.. وكما بدت لهم سيئات أعمالهم باتباع الضالين المضلّلين، فكذلك يريهم الله تعالى أعمالهم حسراتٍ، ملؤها الندم واللوعة والقهر؛ فهم يتحسرون على أعمالهم التي ارتكبوا فيها الشرك والمعصية، وتركوا التوحيد والطاعة، لأنهم أدركوا يومئذٍ مقادير الثواب التي تُعرض عليهم فيما لو فعلوا الطاعات، فكانت حسرتهم على ذلك الثواب الجزيل، الضائع حسرةً دائمة، قد تكون أشدَّ من حسرةِ العذاب نفسه رغم آلامه القاتلة، بل تلك الحسرة هي من صميم العذاب الذي منه يعانون. ولكنها حسرة لا تفيدهم بشيء، لأن مصيرهم النار، وما هم بخارجين منها.

٤ ـ دعاء الإنسان إلى الله (تعالى) إذا مسَّه الضرُّ، والإعراض عن الدعاء إذا كشف عنه ضُرَّه.

يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.

المسهم

إنها صورة للنموذج البشريّ المكروب. فالإِنسان يظلُّ مدفوعاً مع تيار الحياة: يخطىء ويذنب، ويطغى ويُسرف، والصحة موفورة، والظروف مواتية. وليس من يتذكّر في إبّانِ قوته وقدرته أن هنالك ضعفاً، وأن هنالك عجزاً (إلاَّ من هدى اللَّهُ ورحم) فإنَّ ساعات الرخاء تُنسي، والإِحساس بالغنى يُطغي. ولكن هذا الإِنسان الذي كان يغترُّ بالقوة، تراه إذا مسَّهُ الضرُّ جزوعاً هلوعاً.. يضيق صدره بالشدَّة، فلا يجد إلا الدعاء لله ربه كي يذهب عنه البلاء الذي حلَّ به. فإذا استجاب له ربُّه، وكشف عنه الضّر، انطلق لا يعقّب، ولا يفكر، ولا يتدبّر، ثم هو لا يسأل نفسه: من أوقعه في هذا الضر، ومن كشفَهُ عنه؟ بل ولا يلبث أن يعود إلى ما كان فيه قبلاً من اندفاع واستهتار..

هذا النموذج من البشر تصوّره الآية الكريمة في حركاته وسكناته، في راحته وتعبه، في هنائه وشقائه.. فهو عامل، متحرك، مندفع على مسرح الحياة بلا هوادة. فإذا وقع في محنةٍ أو بلاء، أو حاقَ به أي مكروه، فإنه لا يجد إلاَّ الله (تعالى)، يلوذ إلى حماه بالدعاء والرجاء على أي حال كان، إن في تقلّبه على جنبيه من الأرق، وإن في قعوده أو قيامه اللذين يحرّكهما التشوش والاضطراب لشدة ما يكون عليه من القلق وعدم الاحتمال على الضرّ..

ولا يزال ذلك الإِنسانُ مجتهداً في سؤاله لله تعالى، وفي طلب العافية منه سبحانه، لا ينقطع عنه ولا يحيد، وليس غرضُهُ إلاَّ زوال ما هو عليه من الكرب، وما ينتابه من الألم والشدة، دون أي تفكير في نيل الثواب أو الأجر في الآخرة.. فإذا ما كشف الله سبحانه وتعالى عنه الضرَّ، ودفع عنه البلاء، وأعادَ له الأمن والأمان ﴿مَرَّ﴾ على وضعه السابق مرور العابر، وأعرض عن الدعاء والرجاء، حتى صار

مثله كمن اعترضَهُ ظالمٌ أو جهول فالتجأ إلى من يخلّصه من شره، وهو يتذلل، ويستغيث به حتى إذا قدَّم له العون الذي طلب، ولّى معرضاً عنه من غير أن يلتفت إليه، أو أن يفكر في شكره، أو من غير أن يتأمَّل بما جرى معه، ليعتبر. فإذا كان هذا النموذج من البشر مثالاً للإنسان الجاحد والمنكر لصنع الجميل، فما بالك بالذي يكشف اللَّهُ تعالى عنه الضرَّ الذي مسَّهُ، ثم لا يلبث بعده أن يعود إلى دأبه من الاندفاع وراء مظاهر القوة، وكأنه لم يستجر بالله تعالى، ولم يَدْعُهُ أن يكشف عنه الضر. أو كأنه لم يسأله برجاء وذل وانكسار أن يزيل عنه الشدة، وأن يذهب عنه الألم؟ ثم ها هو يندفع مع تيار الحياة، دون كابح، ولا زاجر، ولا أَيّة مبالاة. فما شأن هذا الصنف من البشر الذي لا يعرف اللَّهَ تعالى إلاَّ وقت الشدة، وينساه فيما عدا ذلك؟ وما بال هذا النوع من البشر الذي يجحد فعل الخير، وينسى حسن الصنيع، ويتنكر للمعروف؟ هل ينطبق عليه وصفٌ من صفات الإِنسانية؟ لا، لأنه من ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ كما وصفه ربُّ العالمين.. فهؤلاء هم الذين ينسون رحمة الله تعالى التي تكشف الضرَّ الذي يمسهم، لانقيادهم الأعمى إلى شهوات نفوسهم الأمارة بالسوء وأهوائها، وابتعادهم عن الله تعالى وإنكار فضله عليهم. فكما تزيّن شياطين الإِنس والجن لأهل الغيّ الاستسلام لأهوائهم ونزعاتهم، فينصرفون إلى الباطل، وينغمسون في الشر، كذلك زُيّن للمسرفين الجاحدين ما كانوا يعملون من فعال منكرة، وتصرفات ضالّة، فنسُوا اللَّهَ تعالى، وتركوا الحق والخير والإِيمان..

وفي هذه الآية الكريمة، وبما تحمل من تصويرٍ بشعٍ للنموذج البشريّ الجاحد، حثٌّ بالمقابل للمؤمنين خاصة، وللناس عامة، بألاَّ

ينسوا ربَّهم إذا منحوا الرخاء بعد الشدة، والعافية بعد البلاء. بل عليهم أن يتذكروا دائماً حسن صنيعه تعالى لهم، وجزيل نعمته عليهم، وأن يشكروه ويسألوه دوام هذه النعمة وذلك الصنيع الجميل، والفضل العظيم. كما أن فيها تنبيهاً من الله تعالى على وجوب الصبر عند المحنة احتساباً للأجر، وابتغاء للثواب وأملاً في تغيير الحال بأحسن حال.

٥ ـ جزاء الإنفاق في سبيل الله

٥/ ١ ـ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

المال والبنون زينة الحياة الدنيا..

وهذا المال الذي يجهد الإنسان في جمعه، هو عطاء من ربه، الذي يرزق من يشاء بغير حساب..

ولكنَّ الرزق قد يكون على صاحبه نعمةً من أعظم النعم، أو نقمةً من أعظم النقم.. فإن وسَّع صاحب المال على نفسه وعياله بوجوه الحلال، وأكثر من الحسنات سراً وعلانية، وساهم في مشاريع إنسانية، وأعطى الفقراء والمساكين.. إلخ ففي جميع هذه الوجوه يكون قد أنفق في سبيل الله، ويكون إنفاقه خيراً له وأبقى..

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٦١ و٢٦٢.

المسهم

أما إذا طمع صاحب المال بماله، وغلب عليه الجشع بجمعه، وتكالب على اكتنازه وتكديس الثروة، ثم بخل على نفسه وعياله، ولم يدفع زكاة أو يتصدق بصدقة، فإن المال يكون نقمة تنزل عليه، ولا يناله إلاَّ التعب والشقاء في عدِّه وإحصائه.. ففي جميع هذه الحالات يكون قد أسخط الله، ويكون ماله ويلاً عليه عند ملاقاة ربه..

وقد حثَّ القرآن الكريم على الإِنفاق في سبيل الله (تعالى) مبيّناً أن من يقرض الله قرضاً حسناً (والله هو الغنيّ عن عباده، وهو الرزاق الوهاب) يضاعفه له يوم القيامة. ولعلَّ في هذا المفهوم القرآنيّ العلاج الشافي لشح النفوس، وطمعها في حب المال؛ فهو يستل منها الحرص والتقتير، ويدفعها إلى البذل والإنفاق بسماحةٍ وطيب خاطر.

ويضرب لنا المولى تبارك وتعالى المثل على الإنفاق في وجوه البرّ والخير ـ وهو الإنفاق في سبيل الله ـ بالنبات الجيّد المعطاء.. فالإِنسان يبذر الحبَّة، التي لا تنبت عادةً إلاَّ سنبلة واحدة. فإذا أنبتت الحبة سبع شعب في رأس كل منها سنبلة، وفي كل سنبلة مائة حبة، فإن الحبَّة الواحدة تكون قد أعطت سبعمائة حبة.. فهكذا فضل الذين ينفقون في سبيل الله كما يبرزه لنا التمثيل القرآنيّ.. وقد نستغرب نحن بني البشر ذلك، ولكن أين الغرابةُ إذا كان اللَّهُ تعالى هو المنبت، والحبة سببٌ أسند إليها الإِنبات كما أسند إلى الأرض والماء. فلا غرابة إذن أن يضاعف، وهو الحنّان المنَّان، لعباده المحسنين، وخاصة عندما نعلم أن هذا التمثيل ليس إلا تصويراً للأضعاف كأنها ماثلة أمام عيني الناظر. فكل نفقةٍ في سبيل الله يعادلها الله تعالى بسبعمائة نفقة. أو أنه تعالى يضاعفها ليصل أجرها إلى سبعمائة مرة.

المسهم

فما أعظم كرم الله على عباده المحسنين، وما أسماه من إنفاق في سبيل الله!..

والإِنفاق في سبيل الله (تعالى) كما يكون في وجوه البر والخير لمساعدة العباد للعباد، وهو أمر عظيم، فإنه يكون أيضاً من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه القويم، وأعلاه درجة ومقاماً بذل النفس والمال، وهو الجهاد الحق الذي أمر به رب العالمين. من أجل ذلك رأينا المسلمين الأوائل أحرصَ الناس على الجهاد في سبيل الله، لا يتوانون عن بذل أموالهم لتجهيز أنفسهم، وتجهز الجيش الإسلاميّ لأداء واجبه المقدس، وهذا فضلاً عن خوض القتال وبذل المهج والنفوس دون أي تثاقل أو تقاعس، وكله من أجل نيل رضوان الله. فمثل هذه الحسنات في الجهاد تكون أضعافاً مضاعفة، وتصل إلى المئات، بينما تكون النفقة في غير الجهاد حسنة، والحسنة بعشر أمثالها.

ومن ينفق في سبيل الله تعالى، ومن أجل مرضاته عزَّ وجلَّ، ولا يُتبع هذا الإِنفاق بالمنّ، وبتعداد ما أنفق، وإذلال من يُعطى، أو لا يرافق هذا الإِنفاق أذىً في التطاول على كرامة من يحسن إليه.. أجل، فالذين ينفقون ابتغاء وجه الله كان أجرهم عند ربهم عظيماً، وهؤلاء لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون يوم القيامة، لأنهم يعطون أو يبذلون وقلوبهم مفعمة بالإِيمان والرحمة وبحبِّ عمل الخير. فيخرج المال حينئذٍ من قلوبهم قبل خروجه من أيديهم، ومن غير جزع أو هلع من فقر أو حاجة، فهم يعلمون أن المال مالُ الله، وأن إنفاقه يجب أن يكون في سبيل الله..

وكم تكون الحياة جديرة بالتقدير والاحترام عندما تكون زاخرة

المسهم

بمثل هذا العطاء الصادر عن قلب طيِّبٍ ونفسٍ سخيَّة.. ففي موكب الحياة يوجد كثيرون من ذوي الحاجة والعوز، والإِنسانُ الطيِّب يتَّجه فيها دائماً إلى البذل ومدّ العون للآخرين، وخصوصاً إذا كان كريماً بمسيرته، متأثراً بعقيدته، وشاعراً بأحوال أمته. إنه ـ بلا شك ـ يحب أن ينفق لإعلاء كلمة الله، وتأمين مصالح الأمة، وسدّ حاجات المؤمنين من إخوته في الدين، ومن أبناء وطنه المحتاجين.

والإِنفاق الذي يقبله اللَّهُ ـ سبحانه ـ ويضاعفه في الدنيا والآخرة يرفع من قدر الإِنسان، لأنه لا يؤذي كرامات الناس أو يخدش مشاعرهم، ولأنه يكون منبعثاً في الأصل، عن أريحيَّةٍ ونقاءِ طويَّة، ويكون متجهاً إلى الله تعالى وحده وابتغاء مرضاته..

أما الإِنفاق الذي فيه منٌّ وأذى فهو مكروه عند الله تعالى. لأن المنَّ ظاهرةٌ كريهة فيها لؤمٌ وشعور خسيس منحط. والنفس البشرية لا تمنّ بما أعطت إلاَّ رغبة في الاستعلاء أو في إذلال الآخذ. فالمنّ إذن فيه ضرر للمنفق وللآخذ على حد سواء. ضرر بما يثير في نفس المنفق من كبر وخيلاء، وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام.. وما أراد الإِسلام بالإِنفاق مجرد سد الحاجة وملء البطون، وإنما أراد تطهيراً وتزكية لنفس المعطي، وربطاً له بأخيه في الله، وفي الإِنسانية، وتذكيراً له بنعمة الله عليه في غير منع عن المحتاجين، ولا منٍّ عليهم. كما أراده ترضية وتندية لنفس الآخذ، وتوثيقاً لصلته بأخيه في الله والإِنسانية. وهكذا تسير الجماعة على أساسٍ من التكافل والتعاون، ويكون قوامها وحدة اتجاهها ووحدة أهدافها.. والمنّ يذهب بهذا كله، ويحيل الإِنفاق سمّاً زعافاً، وناراً محرقة. فهو أذىً وإن لم يصاحبه الإيذاء باليد، لأنه يحمل في ذاته وطبيعته الإيذاء الذي

المسهم

يمحق الإنفاق، ويمزق وحدة المجتمع، ويثير السخائم والأحقاد بين الأفراد.

فمن ينفق في سبيل الله هو من يستحق الأجر والثواب، والله يضاعف الحسنات لمن يشاء، وهو سبحانه واسع الفضل لا يضيق عطاؤه ولا ينضب. كما أنه عليمٌ بالنوايا، مثيبٌ عليها، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

في القرآن الكريم أمثلة دالة على الإنفاق في سبيل الله، وكذلك فيه أمثلة دالة على الإنفاق رياءً وفي سبيل حب الظهور والتعالي.

٢/٥ ـ مثل الإنفاق في غير طاعة الله كمثل ترابٍ على صخرةٍ أزاله المطر وجعله بلا أثر.

يقول تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

المسهم

تلك مأثرة أخرى من المآثر التي يريد القرآن أن يربّينا عليها، وهي أن الرياء يبطل ثواب العمل، والأذى يحبط أجر الصدقة. . فالرياء مَرض من أمراض المجتمع البشريّ، يدل على ضعف في الشخصية، وسوءٍ في الخُلُق. وطريق هذا الرياء المراوغة التي يسلكها ـ عادة ـ كل متلوِّن مخادع يريد الوصول إلى منافع ومكاسب شخصية، دون أن يحسب حساباً لكرامته، وعزة نفسه وإنسانيته. .

والإِسلام عندما أوصى بالصدقة إنما أوصى بها تزكية لنفس المتصدق وماله، وحرصاً على أخيه المسلم لكي يمنع عنه غائلة الجوع، ويرفع عنه وطأة الحاجة. ولذلك يأمر الله تعالى الذين آمنوا بألاَّ يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى على مستحق الصدقة، وأن يحافظوا على عواطفه بألاَّ تمتهن بالمن، وعلى شعوره بألاّ يمسَّه أذى، لئلاّ يسبب له ذلك ألماً نفسيّاً يجلب له التعاسة. وهذا ما يحوّل الصدقة عليه شقاءً ونقمة.

ويحذِّر الله تعالى الذين آمنوا بألاَّ يبطلوا صدقاتهم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رياءً أمام الناس، وحباً بالظهور، ولفت الأنظار دون أدنى نيةٍ في نيل جزاء أو معروف من الله. ورياؤه ذلك دليل على عدم إيمانه بالله واليوم الآخر. فمثله في إنفاقه وريائه كمَثَل حجر أملس عليه تراب، نزل عليه مطر شديد، فجرف ما عليه من تراب، وتركه صلداً أملس لا شيء عليه. فالمنّانون في الإنفاق هم على شاكلة ذلك المرائي، يذهب إنفاقهم سدىً فلا يستحقون عليه أجراً أو ثواباً، ولا يحصلون منه على منفعة أو فائدة، فهم لا يقدرون على شيء مما كسبوا. وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «**من أسدى إلى مؤمن معروفاً**

المسهم

ثم آذاه بالكلام أو منَّ عليه فقد أبطل الله صدقته»[1] بل ويبيِّن الرسول الأعظم أن المنَّان له عذاب أليم يوم القيامة بقوله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب إليم: المنَّانُ بما أعطى، والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»**[2].

ولذلك كان التعقيب ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، الذين لا يستحقون أجراً على أعمالهم، لأن كفرهم قد أحبط أعمالهم جميعها، وحال دون استحقاق الثواب عليها.

وبمقابل المثل على الإنفاق رياءً فإن القرآن الكريم يسوق المثلَ على الإنفاق المثاليّ، أي الإنفاق الذي يرتكز على دعائمَ من الإخلاص والتقرب إلى الله تعالى، وتثبيت النفس على الإيمان. وهذا الإنفاق، مهما كانت قيمته، فإنَّ مثوبته قائمة، وجزاؤه لا ينقطع. فالذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاةِ الله (سبحانه)، وتثبيتاً من أنفسهم، هم أصحاب فضلٍ كبيرٍ عند ربهم العليّ القدير. فهم ينفقون تصديقاً لوعد ربهم بالثواب، وتعبيراً عن حقيقة ما هم عليه في قرارة نفوسهم، لأن المال معادل للنفس، وبذله أشق على هذه النفس من سائر العبادات حتى التي فيها مشقة مثل الصوم أو الحج.. إن الإنفاق النابع من النفس يزيدها تثبيتاً على الإيمان، وعلى حق اليقين والبصيرة في الدين. فمثل إنفاق هؤلاء المؤمنين كمثل بستان في مكانٍ مرتفع مستوٍ. وقد خصَّ التشبيه بالربوة (وهي المكان المرتفع المستوي) لأن نبتها يكون أحسن، وريعها أكثر من الأرض المنخفضة التي يتجمع فيها الماء.. فإذا هطل المطر شديداً على البستان في الربوة أعطى ثماراً

---

(١) رواه ابن ماجة، باب الصدقات، ص٣.

(٢) صحيح مسلم، رقم ٣٨.

المسهم

وغلالاً ضعفَي ما يعطي غيره. وإذا نزل المطر خفيفاً فيكفيه ليبقى على رونقه وجناه. إذن فهذا البستان يثمر ويزكو، كثر المطر عليه أم قلّ. وهكذا الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتاً من أنفسهم على حب الصدقة والخير، فهؤلاء نفقاتهم تزكو عند الله سبحانه كثرت أم قلّت. والله بما يعملون بصير، فيجازيهم به.

وهذا المثل يبيّن للناس أن الإنفاق قد يكون إما إنفاقاً كثيراً مثل المطر الوابل، أو إنفاقاً قليلاً مثل الطل الخفيف، وكلاهما يعبر عن سعة الرزق، أو ما دون السعة كما ذهب إليه صاحب المنار إذ يقول: «ووجه الشبه عندي أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو في إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه، كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر، العظيمة الخصب في كثرةِ بِرّه وإحسانه. فهو يجود بقدر سعته، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسّع في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدر. فخيره دائم، وبرّه لا ينقطع، لأن الباعث عليه ذاتيٌّ لا عرضيّ كأهل الرياء وأصحاب المنِّ والإيذاء، فالوابل والطل عبارة عن سعة الرزق، وما دون السعة».

ثم تمضي الآيات الكريمة بعد ذلك لتبين عاقبة الرياء والإيذاء: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾.

أيود أحدكم أن تكون له جنة، غنية بأشجار النخيل والفواكه، والأعناب والزروع على أنواعها وألوانها، وتجري فيها المياه الدافقة لتؤتي أكلها كل حين بإذن الله، ثم يصيبها ما أصاب جنة شيخ فانٍ أصابه الكبر وجعله عاجزاً عن رعاية جنته، وليس له إلا ذرية ضعفاء لا

المسهم

يقدرون على شيء؟ بل أيود أحدكم أن تكون له مثل تلك الجنة ثم أصابها إعصارٌ فأتى عليها كلها، ودمرها بناره المحرقة، دون أن يكون للشيخ الهرم، أو لذريته الصغار العاجزين أي حيلة في رد ما أحاق بهم، في وقت هم بأمسّ الحاجة إلى رزقهم الذي تلف، لأنهم وقعوا في الفقر، فلا يملكون شروى نقير؟

هكذا يسأل الله تعالى المؤمنين، بما يضرب لهم في هذا المثل من العظة، وبما يحمل هذا المثل من نذير مبين على التهاون في إعطاء الصدقة، وإيتاء الزكاة.. كما يجعله مثلاً للذين ينفقون أموالهم رياءَ ومناً. فالذي ينفق ماله لِيُرائيَ الناس به، يذهب ماله هباءً، فلا يأجره الله عليه. فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى أجر نفقته وجدها قد أحرقها الرياء، وظلت في الحياة الدنيا بلا ثواب أو أجر.. إن مثله كمثل صاحب الجنة الذي أفنى العمر في الإنفاق عليها، حتى إذا كبر، وكثرت عياله واحتاجت لخيرها، أتاها أمر الله بريحٍ سمومٍ فأحرقتها، ولم يجد منها شيئاً وقت الحاجة.

هذا المثل يدل على الحسرة بعد سلب النعمة من عدة وجوه:

أولاً: إن الذي يرائي في إنفاقه ربما ينتفع من ريائه عاجلاً بالتفاخر وحب الظهور، لكن سرعان ما تنقطع هذه المظاهر عندما يصبح كبيراً وعاجزاً عن التباهي بنفسه مما يورث في نفسه الحسرة والأسى.

ثانياً: إن الذي يهمل طاعة الله من أجل ملاذ الدنيا لا يحصل في الآخرة إلا على الحسرة والندم. فهو يحتاج في آخرته إلى الأعمال الصالحة كحاجة صاحب الجنة وذريته إلى ثمارها وخيراتها. ولعلَّ

حسرة هذا الشيخ الفاني تكون أعظم بعدما يئس من الشباب الذي ولّى، فلم يعد لديه إمكانية على العمل والعطاء.

ثالثاً: إن هذا المثل يصور لنا نموذجاً من واقع الحياة البشرية حيث نجد مثل هذا الشيخ الكبير في ضعف جسمه، وقلّة حيلته، وقد تكون له ذرية لا يعطفون عليه، أو قد يكونون فقراء لا يقدرون على نفعه بشيء إن لم يكونوا عالة عليه، فكما يتحسّر هذا الشيخ على حياته السابقة، هكذا يتحسَّر الذي ينفق منًّا وأذىً، أو الذي ينفق رياءً في حياته الدنيا لأنه لا ذخر له في عمل صالح يوم الدّين، مما يعني في النهاية أن الإنسان أحوج ما يكون إلى العمل الصالح إذا انقطعت عنه الدنيا.

كذلك يبين الله الآيات التي تحمل الأمثال وفيها العظات والدلالات لعلكم تتفكرون، وتنظرون، وتتدبرون.

٣/٥ ـ مثل إنفاق الكافرين كمثل ريحٍ سمومٍ أصابت حرث قومٍ فأهلكته.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

فالذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٦ و١١٧.

المسهم

شيئاً. وقد خص سبحانه ذلك بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بالمال، وتارة بالاستعانة بالأولاد. والذين كفروا أصحاب النار هم فيها خالدون، فلا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً عندما ينزل بهم العذاب في نار جهنم..

والذين كفروا قد يمدُّ لهم الله تعالى من فضله، ويغدق عليهم من نعمه، فينفقون في هذه الدنيا الشيء الكثير على لذائذهم وشهواتهم وعلى بطانتهم وأعوانهم، بل وربما يعطون المحتاجين، أو ينشئون المؤسسات الاجتماعية والخيرية التي تخدم مصالحهم، أو مصالح عقيدتهم في الكفر والضلال.. وهذا الإنفاق ـ الذي قد يكون بعضه في وجوه الخير ـ لا طائل منه في ميزان العدل الإلهيّ لأنه من كفار سادرين في الكفر، أو منافقين متلونين بالنفاق. فمثل إنفاقهم كمثل ريح فيها صِرٌّ يلفح الوجوه والأبدان، أو يتلف الزروع والأشجار لشدة برده السموم، فما إن يصيب حرث قوم حتى يذوي ويموت. وذلك بأمر الله الذي بعثها على حرثهم بسبب ظلمهم لأنفسهم الذي تجاوزوا به حدود الله (تعالى) وخالفوا أوامره من شدة شركهم وكفرهم!. أجل إنهم قوم ظلموا أنفسهم باعتناق الشرك والضلال، والانفلات من التمسُّك بحبل الله الممدود، فكان عملهم كله هباء، حتى ولو كان إنفاقهم في ظاهره الخير. وليس في ذلك ظلم من الله تعالى لهم، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وهم يفعلون ما يفعلون من تنكُّبٍ عن حدود ما أنزل الله (تعالى) على لسان رُسُله الكرام (صلوات الله عليهم).

وهكذا يتقرر أن لا جزاء على بذل، وأن لا قيمة لعمل إلا إذا ارتبط بمنهج الإيمان، وإلا إذا كان باعثه حب الله وطاعته. يقول تعالى هذا ويقرره، فلا تبقى بعده كلمة لإنسان، ولا يجادل في هذا القرار إلاَّ

المسهم

الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

٦ ـ تأثير الربا على حياة الناس

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

لقد حثَّ الله تعالى في قرآنه المبين ـ وفي غير هذه الآيات الكريمة ـ على الإنفاق في سبيل الله وإعطاء ذي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل والغارمين، ودفع الفدية عن المظلومين، وما إلى ذلك من وجوه البر.. ثم بيَّن ما يحصل للمنفق من الأجر العاجل والآجل..

وبعد ذلك البيان القرآنيّ يأتي هنا حكم اللَّهِ تعالى في الربا حيث قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾. وهذا التشبيه الذي يعطيه ـ سبحانه ـ لآكلي الربا، يرسم لهم صورةً مهزوزةً، يحركها دافع شيطانيّ، بل

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٧٥ ـ ٢٧٩.

المسهم

يحركها الشيطان نفسه، بحيث إن المرابين لا يقومون ـ من قبورهم يوم القيامة ـ إلا كما يقوم الذي يصرعه الشيطان من الجنون. . وهذه علامةٌ لآكلي الربا حتى يُعرفوا بها يوم القيامة. ويمكن أن تنطبق هذه الصورة على آكلي الربا في الحياة الدنيا، حيث نرى في تصرفاتهم ما يشبه أحياناً كثيرة الجنون لشدة حبهم للمال، والحصول عليه بأية وسيلة، ولا سيما عندما يتخذون الربا طريقاً لذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**لما عرج بي جبرائيل إلى السماء رأيت أقواماً يريد أحدهم أن يقوم ولا يقدر من عِظَم بطنه، فقلت: مَن هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربَا لا يقومون إلاَّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**»[1]. . فهذا التصوير لمن يأكل الربا هو تهديد واضح. وما كان أي تهديدٍ معنويٍّ ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة، الحية، المتحركة. . صورة الممسوس المصروع. . وهي صورة معروفة، معهودة للناس، إذا تذكروا رؤية المجنون وهو يتخبط بحركاته اللاواعية واللامسؤولة. . فالنص القرآنيّ يستحضرها لتؤديَ دورها الإيمائيّ في إفزاع النفس لاستجاشة مشاعر المرابين، وهزها هزّة عنيفة تُخرجهم عن مألوف عادتهم، في نظامهم الاقتصاديّ، وفي حرصهم على ما يحققه لهم الربا من فائدة.

وذلك الصرع الذي يمسُّ المرابين كان بسبب أنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا في الجواز، وفي الربح. فوقعوا في شبهةٍ خاطئة وهي أن البيع يُحقق فائدة وربحاً، كما أن الربا يحقق فائدة وربحاً. وهي

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٣٦٧.

المسهم

شبهةٍ واهية، لأن العمليات التجارية قابلة للربح والخسارة، في حين أن العمليات الربوية تكون محددة الربح في كل حالة ولا خسارة فيها. وهذا هو الفارق الرئيسيّ بين البيع والربا، وهذا هو مناط التحليل والتحريم.. ثم إنّ الربا قد يؤدي إلى ظلم المدين، كما نعهد في حالاتٍ كثيرة حيث تتراكم قيمة رأس المال وفوائده بحيث لا يعود المدين قادراً على تسديد الفوائد وحدَها، فيقع في الإفلاس.. أو كما نعهد في حالات أخرى حيث يضطر أحدهم إلى الاستدانة لضرورةٍ ملحة فلا يجد إلاَّ المرابي الذي يقرضه المال مقابل نسبة مئوية مرتفعة جدّاً تكون في حقيقتها إرهاقاً للمدين، قد لا يخلص من براثنه إلاَّ بشق النفس، إن لم يكن ببيع بيتٍ له مثلاً، أو التنازل عن عقار أو أي مال آخر يملكه، حتى لا يبقى له شيء من حطام الدنيا!.. وأما المحتاج الذي لا يقدر على دفع فائدة المبلغ الذي يرغب في استدانته فلا أحد يمدُّ له يدَ المساعدة في النظام الربويّ فيبقى على حاجته، وقد تغلب عليه هذه الحاجة حتى توقعه في مشلكة اقتصادية أو معيشية كبيرة.. هذه بعض ملامح النظام الربويّ. أفلا يكون من الواجب والعدل أن يحرّم الله تعالى الربا الذي لا يُنتج ألاَّ آفاتٍ اقتصادية في المجتمع؟..

وردَّ الله تعالى على المرابين بتحريم الربا تحريماً جازماً وذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، فقد أحلَّ البيع الذي لا ربا فيه وجعل كسبه حلالاً، وحرم الربا لأنه ينطوي على سوءين: زيادة يفرضها المرابي، وقطع سبيل المعروف بين الناس وتحميل المحتاج عبئاً ثقيلاً. فالبيع في مفهومه الشرعيّ هو عقد على العينِ

المسهم

بِعوَض بينما الربا زيادة في غير عِوَض للتأخير في الأجل، أو زيادة في الجنس. قال رسول الله ﷺ: «**كل قرض جرَّ إلى نفع فهو ربا**»[1].

وإن علة تحريم الربا هي أن في الربا تعطيل المعايش والمتاجر، إذا وجد المُرابي من يأخذ منه دراهم بزيادة. وقد قال جعفر الصادق عليه السلام: «إنما شدَّد اللَّهُ ـ سبحانه ـ في تحريم الربا لئلا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف قرضاً فيما بينهم أو رفداً». ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ أي فانزجر وتذكر واعتبر، فامتنع عن أكل الربا، فله ما سلف قبل النهي، فلا يسترد منه، وأمره في العفو عنه إلى الله تعالى. أما من عادَ إلى أكل الربا مُشبِّهاً إياه بالبيع في الحلال، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، لأنهم عصوا أوامر الله (تعالى) في النهي عن الربا، وظلوا متعمدين أكله، فكان جزاؤهم البقاء الدائم في النار. وقال محمد الباقر عليه السلام: «من أدرك الإسلام وتاب ممَّا كان عليه في الجاهلية، وضع الله عنه ما سلف. فأمّا ما لم يُقبض بعد، فلا يجوز له أخذه، وله رأس ماله فقط. وأمره بعد مجيء الموعظة والتحريم إلى الله تعالى، إن شاء عصمه عن أكله في انتهائه عنه، وإن شاء خذله أي عامله بما يستحق. ولذلك فإن من عاد إلى أكل الربا بعد التحريم، فقد استحق أن يكون في النار خالداً فيها».

فالله ـ سبحانه ـ يكره الربا، ولذلك فهو يمحقه، وينقصه ويذهب بركته. ولكنه تبارك وتعالى بالمقابل يزيد الصدقات وينميها ويضاعف ثوابها. وهو تعالى لا يحب أي عاصٍ لأمره، كافرٍ بتحريم الربا، فاجرٍ بأكله، وهو سينال عقابه إن عاجلاً أو آجلاً.

---

(١) كنز العمال، رقم: ١٥٥١٦.

المسهم

أمَّا أصحاب الصدقات فهم المؤمنون الذين أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، الذين لهم أجرهم العظيم عند ربهم، ولا خوف عليهم من العذاب، ولا هم يحزنون في الآخرة من العقاب الذي يطال الكافرين آكلي الربا، وأصحابَ الفواحش..

ثم يخاطب اللَّهُ ـ سبحانه ـ المؤمنين مباشرة، ليأمرهم بترك ما بقي مستحقّاً لهم من الربا إن كانوا صادقين في إيمانهم، لأن من شأن المؤمن الامتثالَ لأمر ربه (وقيل إن هذه الآية نزلت لما طالب بعض الصحابة ـ بعد النهي ـ بربا كان لهم من قبل).. وهذا النهي الربانيّ هو لجميع المؤمنين، لكي يحاسبوا أنفسهم في كل وقت، فيتخلَّوا عن الربا، إن وجد في حياتهم، ويتركوه إلى ما لا نهاية. فإن لم يفعلوا ما أمرهم اللَّهُ به، فإنه ينذرهم بحربٍ منه تعالى، وبحرب من رسوله الكريم. وهذا تهديد لهم، فإن تابوا، ورجعوا عنه، فإن رؤوس أموالهم تعاد إليهم بلا زيادة، فلا يَظلمون غيرهم بزيادة يأخذونها منهم رباً، ولا يُظلَمون بنقصٍ في رؤوس الأموال التي تعاد لهم.

فالربا إذن ممقوتٌ من الله تبارك وتعالى، وهو يجلب البلاء والعقاب، بخلاف الصدقات التي تزكّي النفوس ورؤوس الأموال. قال رسول الله ﷺ: «**إن الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قِلّ ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾**»[1].

هذا حكم الله تعالى في الربا، وحكم رسول الله ﷺ.. ولكن ماذا فعل الناس؟.. لقد جعلوا الربا الوجه الآخر المقابل للصدقة، في حين أن الصدقة عطاء وسماحة وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل. والربا

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ٨٩.

المسهم

شح وقذارة، ودنس وأثرة. ذلك أن الصدقة تزول عن المال بلا عوضٍ، ولا ردّ. والربا استرداد للدَّين ومعه زيادة محرّمة مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه. من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح هو نتيجة لعمله وكده، ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر، أو كان قد أخذ المال للحاجة فأنفقه على نفسه وأهله، ولم يربح شيئاً. . .

ومن ثمَّ فهو ـ الربا ـ الوجه الآخر المقابل للصدقة. وهو الوجه الكالح! لهذا عرض السياق القرآنيّ للربا بعد عرض الصدقة مباشرةً. وقد عرضه عرضاً منفِّراً، يكشف عمَّا فيه من قبح وشناعة، ومن جفاف في القلب، وشرٍّ في الجشع، وفساد في الأرض، وهلاك للعباد. وأما الصدقة فهي الوجه الطيب السمح الطاهر الذي يطرد الجشع، ويصلح الأرض، ويوطد الإِلفة والمحبة بين العباد.

ولم يبلغ من تفظيع أمرٍ أراد الإِسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا. . ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا. ولله الحكمة البالغة، فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره، ولكن الجوانب القبيحة من وجهه الكالح، ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث. فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات البينات على ذلك النظام المقيت، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية، أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى.

ويدرك ـ من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين،

المسهم

وكمال هذا المنهج، ودقة هذا النظام ـ يدرك اليوم من هذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة. وأمامه اليوم من واقع العالم ما يصدّق كل كلمة تصديقاً حيًّا مباشراً واقعاً. فالبشرية الضالة التي تأكل الربا تنصبُّ عليها البلايا الماحقة من جراء هذا النظام الربويّ، في أخلاقها ودينها واقتصادها.. وتتلقى ـ حقّاً ـ حرباً من الله تصبُّ عليها النقمة والعذاب أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً، وهي لا تعتبر ولا تفيق!..

والنظام الربويّ، والنظام الإسلاميّ: هما نظامان متقابلان، متضادان لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس، ولا يتوافقان في نتيجة. إن كلًّا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف يناقض الآخر تمام المناقضة، وينتهي إلى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف.. ومن ثم كانت هذه الحملة على الربا المفزعة من القرآن الكريم، وكان هذا التهديد المرعب: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

فالنظام الإسلاميّ ينعش الإنسان ويجعله رفيقاً رحيماً بالآخرين، فينفق ماله لا منةً ولا حبّاً بجاه، بل ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى الذي جعل في ماله حقّاً معلوماً للسائل والمحروم.

أما النظام الربويّ فقد أفسد طبيعة الإنسان في تشريعاته التي سحقت البشرية سحقاً، وأشقتها في حياتها أفراداً وجماعات، ودولاً وشعوباً، لمصلحة حفنة من المرابين المنحطين أخلاقيّاً ونفسيّاً؛ وأحدثت خللاً في دورة المال، ونمو الاقتصاد نموّاً سويّاً.. وهؤلاء المرابون الذين لا يرعون في البشرية إلاًّ ولا ذمة، ولا يرقبون فيها عهداً ولا حرمة، هم وحدهم الذين ترجع إليهم الحصيلة النهائية لجهد

المسهم

البشرية كلها، وكدّ الآدميين وعرقهم ودمائهم، وذلك في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم حبة عرق، ولا نقطة دماء من جهودهم في تحصيلها...

وهم بالحقيقة في ظل النظام الربويّ لا يملكون المال وحده، بل يملكون النفوذ أيضاً.. ولما لم تكن لهم أفكار سليمة ولا تصور دينيّ صحيح، بل لمَّا كانوا هم يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمُثل، فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكونه في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال، ولا تقف في طريق جشعهم وخسة أهدافهم أية عوائق.. وأقرب الوسائل هي تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات، التي يدفع فيها الكثيرون آخر درهم يملكونه، حيث تسقط جميع الأموال في المصائد والشباك المنصوبة. وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالميّ وفق مصالحهم اللامحدودة، مهما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد، وإلى انحراف الإنتاج الصناعيّ إلى مصلحة الممولين المرابين الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية.

والكارثة التي تمت في العصر الحديث ـ ولم تكن معروفة بهذه الصورة البَشعة في الجاهلية الأولى ـ هي أن هؤلاء المرابين الذين كانوا يتمثلون في الزمن الماضي بصورة أفراد أو بيوت مالية، قد أصبحوا يتمثلون الآن بصورة المصارف والمؤسسات المالية، بالإضافة إلى الأفراد الذين ما يزالون يرابون بأشكال متنوعة غالباً ما يداخلها الاحتيال وسرقة أموال الناس البسطاء.. وقد استطاع أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم

وخارجها وعلى مستوى الدولة المتقدمة والنامية، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها، سواء في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما والمسارح وغيرها، أجل بفعل ذلك كله، استطاعوا أن ينشئوا عقلية عامة تسوّغ أكل الربا بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون لحومهم، ويشربون دماءهم في ظل النظام الربويّ. . وجعلوا هذه العقلية خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعيّ المعقول، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصاديّ، وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضاريّ في الغرب!. وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من المتدينين التقليديين الخياليين ـ غير العمليين ـ وأنهم يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات ومُثُل لا رصيد لها من الواقع؛ وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصاديّ كله لو سمح لها أن تتدخل فيه!. حتى لَيتعرض الذين ينتقدون النظام الربويّ للسخرية ليس من صانعي النظام، بل ومن هؤلاء البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته!. ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالميّ نفسه، الذي تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجري جرياناً غير طبيعيّ ولا سويّ، ويتعرض للهزات الدورية المنظمة. بحيث لا تحصل فيه البشرية على نفع، لأن مداخيله تظل حكراً على حفنةٍ ملوثة من الذئاب، مصّاصيّ الدماء، وذلك باسم التنمية والاقتصاد الحرّ!.

وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة، فإن قيام النظام الاقتصاديّ على الأساس الربويّ يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستعرة.

المسهم

فالمصارف الربوية تجتهد في الحصول على أعلى نسبة من الفائدة، ومن ثم تمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه، فيرتفع سعر الفائدة، وتستمر المصارف في رفعه حتى يجد العاملون في التجارة والصناعة أنهم ليسوا سوى أُجراء يعملون لحساب أصحاب المال، إذ يجني ثمرةَ كدهم أولئك المرابون، وأنه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال، لأنه لا يدر عليهم سوى ما يوفون به الفائدة، ولا يفضل لهم منه إلاَّ شيء زهيد. . عندئذٍ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التي تشغِّل فيها الملايين، وتضيّق المصانع دائرة إنتاجها، ويتعطل العمال، فتقل القدرة على الشراء، ويعم الكساد، ويحصل اضطراب في العلاقات. ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص إلى حد كبير أو كاد أن يتوقف، حينئذٍ يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطراراً، فيقبل على الاستدانة العاملون في الصناعة والتجارة والزراعة من جديد، وتعود دورة الحياة تعمل بخوفٍ من جديد. . وهكذا دواليك مما يؤدي إلى وقوع الأزمات الاقتصادية العالمية بصورة دورية، ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة.

ثم إن جميع المستهلكين هم الذين يؤدون الضريبة للمرابين، ولكن بصورة غير مباشرة، لأن الصناعيين والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين، فهم يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية، فيتوزع عبئُها على أهل الأرض، لتعود وتدخل في جيوب المرابين في النهاية.

أما الديون التي تقترضها الحكومات لتقوم بالإِصلاحات والمشروعات العمرانية، فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للمؤسسات الربوية كذلك، إذ إن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة

المسهم

الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها، وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف. وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد، ولا يكون الاستعمار السياسيّ والاقتصاديّ هو نهاية الديون، ثم تكون الحروب بسبب هذا الاستعمار السرطانيّ الخبيث الذي يتغلغل في شرايين الاقتصاد العالميّ بأسره!..

ونحن هنا نوردُ بعض عيوب النظام الربويّ، لأن عيوبه لا تحصى، ولكن نكتفي بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى حقائق أساسية تتعلق بكراهية الإِسلام للنظام الربوي المقيت:

الحقيقة الأولى: التي يجب أن تكون مستيقنة في نفوسهم أنه لا إسلام مع قيام نظام ربويّ في مكان. وكل ما يمكن أن يقوله أصحاب الفتاوى من رجال دين أو غيرهم سوى هذا، إنما هو دجل وخداع. فأساس التصور الإِسلاميّ يصطدم اصطداماً مباشراً بالنظام الربويّ، ونتائجه العملية في علاقات الناس وتصوراتهم.

الحقيقة الثانية: أن النظام الربويّ بلاء على الإِنسانية، لا في إيمانها وتصورها للحياة فحسب، بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشر محقاً، ويسحقها سحقاً، ويعطل نموها الإِنسانيّ المتوازن، على الرغم من الطلاء الظاهريّ الخدَّاع، الذي يبدو وكأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصاديّ العام.

الحقيقة الثالثة: أن التعامل الربويّ يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة بصفة عامة. والمال المستدان بالربا ليس همه أن ينشىء أنفع المشروعات للبشرية، بل همه

المسهم

أن ينشىء أكثرها ربحاً. ولو كان الربح إنما يجيء من استثارة أبشع مظاهر الغرائز وأقذر الميول كانتشار دور الخلاعة وأندية القمار.. وهو المشاهد اليوم في أكثر أنحاء الأرض، وسببه الأول هو التعامل الربويّ.

الحقيقة الرابعة: أن الإسلام نظام متكامل، فهو حين يحرم التعامل الربويّ، ينظم جوانب الحياة المجتمعية بحيث تنتفي منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل، وبدون مساس بالنمو الاقتصاديّ المطّرد. ففي النظام الإسلاميّ يوجد بيت المال الذي تتجمَّع فيه حصيلة الزكاة ـ وأحياناً الخمس ـ فيعاد إنفاقها على المشاريع العامة التي تؤمن فرص العمل لكل صاحب صنعة أو اختصاص. ومن الزكاة أيضاً يجري التوزيع على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وعلى المدينين الذين لا يقدرون على سدِّ ديونهم من أموالهم الخاصة أو من أتعابهم، بحيث لا يبقى في المجتمع الإسلاميّ محتاجٌ، ولا يضطر المدين إلى التعامل بالفائدة والربا. مما يعني أن المال، عندما تُؤدَّى منه الزكاة بحقها، لا يكون دُولةً بين الأغنياء وحدهم، بل يجري توزيع الثروة، من خلال حصيلة الزكاة، على سائر أبناء المجتمع، وفي ذلك ما فيه من العدالة، وتنقية المجتمع من الأدران، وفي طليعتها هذا الربا الذي يفسد الحياة الإنسانية أصلاً..

مما تقدم يمكن أن نتبين بوضوح كيف أن في أمثال القرآن الكريم تربيةَ النفس على الطاعة والإنفاق

ذلك أن في الحياة مقاييسَ وأوزاناً ملازمة في الأصل للفطرة، وإن لم تظهر في المجتمعات الإنسانية على شكل قواعد وأنظمة ملزمة. فلو حاول الإنسان أن يجري مقارنة ما بين اللهو واللعب،

المسهم

وبمقابلهما الجد والعلم لتبين له أن الأوقات التي يصرفها على المتع والتسلية والاسترخاء والكسل سرعان ما تنقضي ملذاتها وفوائدها، لأنها وقتية وآنية في الحقيقة. تبقى الأعمال والجهود التي يبذلها وتؤتي ثمارها، وقد تلازمه نتائجها الحسنة طوال عمره في هذه الحياة..

وهذا ما يريدنا النص القرآنيّ، مع مقاصد أخرى أن ندركه في هذه الآية الكريمة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكْكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

فالحياة الدنيا فانية، زائلة في حقيقتها مثل اللعب واللهو، ولكنَّ أعمال الإنسان فيها وجهوده لا تذهب عبثاً، بل تنعكس على فلاحه ونجاحه في الدنيا، مثلما تؤدي إلى فوزه وجزائه الأوفى في الآخرة. إنما هنالك مقومات لذلك، ويأتي في طليعتها الإيمان والتقوى، فهما يخرجان الحياة الدنيا عن أن تكون لعباً ولهواً، بما يطبعانها به من الجد والانضباط، والالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه. ومن يعملْ بالطاعة، ويتّقِ المعصية ينلْ أجره عليهما بما يكتب له من حسناتٍ مضاعفة، تكون هي الزاد الأوفى له يوم الحساب..

ومن مقاصد التربية الربانية في هذا المجال، ومن مضامين الطاعة والالتزام أن ينفق الإنسان المؤمن في سبيل الله. ومع ذلك فإن المولى تبارك وتعالى، وهو الرزاق ذو الفضل بما ينعم على الناس من

---

(١) سورة محمد، الآيات: ٣٦ ـ ٣٨.

المسهم

الأرزاق والأموال، لا يسأل الناس أن ينفقوا أموالهم كلها، لأنه إن يأمر بإنفاقها كلها فإن من شأن ذلك أن يحرك الشح في نفوسهم، ويُظهر البخل لديهم الذي يُخرج بدوره الأضغان والأحقاد لدين الإسلام الذي يأمر بهذا الإنفاق والبذل..

ولكن لا، ليس هذا المطلوب، فالإسلام نظام صلاح وإصلاح في حياة الناس، ومن فرائضه الزكاة في المال، هذه الفريضة التي تزكي النفس وتعتقها من الشحّ والبخل، والتي تؤدي إلى إنماء المال الذي جرت تزكيته وزيادته، كما ثبت في حياة الناس، وهي تؤلف بين القلوب، وتبعد الشحناء والبغضاء من القلوب، لأن الفقراء عندما يأخذون من مال الأغنياء، فإنهم يدعون لهم بالتوفيق والسعة، ولا يحملون لهم في قلوبهم إلا المودة والمحبة. وهذا كله بخلاف البخل، وعدم دفع الزكاة، اللذين يذهبان بمفاهيم التضامن والتآلف بين أبناء المجتمع، ولا يورثان إلاّ الحقد والضغينة..

ومن هنا كانت الدعوة من الله ـ العليّ القدير ـ لعباده يحثهم على الإنفاق في سبيل الله، أي الإنفاق من أجل الدعوة إلى الإسلام، والإنفاق من أجل معالجة أوضاع الفقراء، والإنفاق من أجل القيام بالمشاريع الإنمائية التي تؤمن مصالح الناس كافة.

ولكن على الرغم من هذه المزايا والفضائل فإن بعض الناس تأبى طباعهم مثل هذا الإنفاق، ويحجمون عن بذل أي مال، إنما عاقبة هذا البخل سوف ترتد على البخيل نفسه، فلا فضل له في هذه الدنيا، ولا رصيد له في الآخرة قد يحتاجه يوم الحشر، ويوم يؤدي الحساب حيث سيجد الحسرة راهنة من جراء بخله وعدم إنفاقه لبعض ماله في دنياه..

المسهم

أجل، فمن الناس من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه لأن الله تعالى غني عن العباد، وغنيّ عن أموالهم وإنفاقهم، وما يأمرهم به إنما هو لخيرهم في الدنيا، وانتفاعهم به في الآخرة، لأنهم في الحقيقة هم الفقراء دائماً إلى ما عنده من الرزق والخير والرحمة، فهو بيده ـ سبحانه ـ الخير، فلا يحتاج إلى إنفاق العباد، ولا إلى عطاء الناس، إنما هو الأمر بالطاعة لصلاح الأنفس، وكسب الأجر والثواب. فإن تولّى هؤلاء الناس عن طاعة ربهم، فإنه يستبدل قوماً غيرهم، ولا يكونون أمثالهم في التولي عن الطاعة والبخل، وعدم الإنفاق، بل يكونون خيراً منهم، وأجدرَ لأن يرثوا أموالهم وأرزاقهم.

وفي التدليل على أهمية الإنفاق في حياة الناس، يورد القرآن في موضع آخر خطاب الله تعالى للمؤمنين بشيء من الاستنكار لعدم الإنفاق، وهم لا يملكون شيئاً في الأصل إلا من ماله، ولا يجودون بشيء إلا من جوده وكرمه ورحمته، فيقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

أجل هذه هي الحقيقة، فميراث السماوات والأرض هو لله (تعالى) والناس إنما هم مستخلفون في هذا الميراث ليؤدوا حقه في سبيل ربهم. وكل ما استخلفوا فيه، وإن كان يجري تداوله وانتقاله من جيلٍ إلى جيلٍ فيما بينهم، إلاّ أنه سيؤول إلى مالك الميراث الحق، وهو الله تعالى. فإذا كان الأمر كذلك فما بال الناس لا ينفقون في سبيل الله، وهو الذي يدعوهم إلى الإنفاق؟ أجل، وما لكم أيها الناس ألاّ تنفقوا في سبيل الله وهو المالك للمال الذي جعله أمانةً بين

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.

المسهم

أيديكم، والمالك، أولى في ملكه من الوكيل، فكان عليكم أن تعوا هذه الحقيقة، وتعملوا بهديها حتى تنالوا جزاء الطاعة والامتثال لأمر الله العلي العظيم.

فهذه الدعوة من الله (تعالى) للإنفاق في سبل الخير هي إحدى السبل التي يربي فيها القرآن المجيد النفوس على طاعة الله (تعالى) والخضوع لما يريده من عباده في هذه الحياة الدنيا، فكان جديراً أن تفعل هذه التربية فعلها في نفوس العباد، وأن تقودهم إلى الإنفاق في سبيل الله.

٧ ـ حكم الإرث والرضاعة

٧/ ١ ـ الوالدات يرضعن أولادهن عامين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة

يقول تبارك وتعالى:

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

لقد بيّنت سورة البقرة في القرآن الكريم كثيراً من الأحكام الشرعية، فبعد أحكام الطلاق، أوردت الأحكام التي تتعلق برضاعة الأطفال بعد هذا الطلاق، وأولاها أن تبقى هنالك علاقة قائمة، لا تنفصم بين المطلقين، فيما خصَّ الأولاد وهم في طور الرضاعة،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

المسهم

وذلك بسبب علاقة النسب التي تربطهما بأولادهما، والتي جاءت ثمرة العشرة الزوجية. فإذا تعذر العيش المشترك بين الوالدَيْن، فإنَّ الرُّضع الصغار لا بد لهم من ضماناتٍ دقيقة مفصَّلة، تستوفي كل حالة من الحالات. ومن يفرض هذه الضمانات إلاَّ العزيز الرحيم، الذي هو أولى بالناس من أنفسهم، وأبرُّ وأرحم بهم من والديهم؟ ولذلك يفرض على الوالدة المطلقة واجباً تجاه طفلها الرضيع، بحيث لا يتركها تنساق وراء عاطفتها التي قد تفسدها الخلافات الزوجية، فيقع الغرم على هذا الرضيع، وذاك الواجب هو حق مفروض له في عنق أمه، بأن ترضعه سنتين كاملتين، لمن يريد من الأزواج أن يتم هذه الرضاعة، ولا يمتنع عنها تلقائيّاً، من غير إرغامه على ذلك. والقرآن الكريم يحدد هذه المدة، وبهذا المقدار، لأنها المدة المثلى لاشتداد بنية الطفل الجسدية، وتنشئته على الحنان، والرأفة، وغيرهما من المشاعر التي يمكن أن يسكبها ثدي الأم في فم رضيعها.

وهذا ما تثبته البحوث الصحية والنفسية اليوم، وهو أن فترة عامين ضرورية لنمو الطفل نموّاً سليماً من الوجهتين الصحية والنفسية. ومِنْ نِعَمِ الإِسلام على الجماعة الإِسلامية أن علَّمهم الله العليم الحكيم هذا الأمر قبل اكتشافه من قبل أهل العلم، وقبل أن تُجري عليه الأممُ الأبحاثَ والتجارب. فقد قضى اللطيف الخبير بألا يترك الأطفال، وهم رصيد الإنسانية وذخرها، للجهل أمداً طويلاً قبل أن يكتشف العلم أهمية الرضاعة، ولذلك كان الإِسلام رحمة للإِنسانية جمعاء تغرف من معينه ما تشاء. وفي القرآن، كتاب الإسلام المجيد، ما يبيّن للناس كافة، كيف يصونون صغارهم، وكيف يعالجون نموهم، بعلاجٍ وحيدٍ أساسيّ، ألا وهو الرضاعة من حليب الأم لمدة

المسهم

سنتين كاملتين، وتلك هي الرحمة التي شاءَ سبحانه أن يسبغها على الناس قبل أجيالٍ طويلة من بحوثهم العلمية، وقبل حقباتٍ من نزوع الأمهات نحو ترك الرضاعة، وإبدالها بالطرق الاصطناعية التي لا تلبي حاجة الرضيع صحيّاً ونفسيّاً، بل على العكس ربما تخلّف فيه آثاراً ضارة من ناحية أو أخرى.

إذن فقد فرض اللَّهُ تعالى على الوالدة الحضانة والرضاعة، وفي الوقت نفسه فرض لها على المولود له ـ أي والد الرضيع ـ حقّاً بأن يقدم لها الرزق والكسوة بالمعروف، وحسن المعاملة. وبذلك جعلهما كليهما شريكين في التبعة، ومسؤولين تجاه هذا الرضيع: فأمه تمدُّه بالحليب والحضانة، وأبوه يمدُّها بالغذاء والكساء، والنفقة إجمالاً لترعاه. وكل منهما يؤدي واجبه في حدود طاقته: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فلا يرهق أحدهما الآخر، لأن القاعدة العامة هي أن التكليف يكون على قدر الاستطاعة. ثم لا ينبغي أن يتخذ أحد الوالدين من الرضيع سبباً لمضارَّة الآخر: ﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ فلا يستغل الأب عواطف الأم ولهفتها على طفلها فيهددها بفصله عنها، أو أن تقبل رضاعته بلا مقابل، ولا تستغل هي عاطفة الأب على ولده وحبه له لتثقل كاهله بمطالبها، وبأعباء النفقة الباهظة.

وتمضي كفالة الله تعالى للولد عندما يضع على عاتق الوارث للأب، في حال وفاته، مثل الذي كان على ذلك الأب في حياته..

فإذا كان الرضيع نفسه هو الوارث، فإن وليهُ على ماله يقدّم لأمّه مثل الذي كان على أبيه أن يقدمه لها من الرزق والكسوة.. بل إن النص يفرض هذا الواجب على وارث الأب أيّاً كان هذا الوارث لتركته، فهو المكلف أن يعطي الأم بالمعروف والحسنى تحقيقاً

للتكافل العائليّ الذي يتحقق أحد طرفيه بالإرشاد والرعاية، ويتحقق طرفه الآخر باحتمال التبعات. وهكذا فإن الطفل لا يضيع إذا مات والده، لأن حقه وحق أمّه مكفولانِ في جميع الحالات.

وعندما يستوفي النص هذا الاحتياط، يعود إلى استكمال حالات الرضاعة: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، فإذا شاء الوالد والوالدة، أو الوالدة والوارث، أن يفطما الطفل قبل استيفاء العامين، لسبب صحيّ أو سواه لدى الرضيع أو الأم فلا جناح عليهما إذا تم هذا بالرضى بينهما، وبالتشاور في مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته، والمفروض عليهما حمايته. وهكذا يكون اشتراط التراضي والتشاور في مصلحة الولد، لأن الوالدة تعلم من تربيته ما لا يقوم به الوالد، فلو لم يتشاورا لأدّى ذلك إلى إلحاق الضرر بالرضيع، فلا جناح عليهما، من التشاور والتراضي حول كل ما يؤمّن مصلحة الرضيع.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ﴾ أي إذا أردتم أن تطلبوا لأولادكم مراضع غير أمهاتهم، لامتناع الأمهات عن الرضاعة بسبب من الأسباب، كأن يحصل مع الأم انقطاع للحليب، أو مرض أو غيره، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فلا خوف عليكم ولا عقاب في ذلك إذا سلمتم إليهن ما آتيتم ـ أي ما أردتم إيتاءه لهن من الأجرة ـ بالمعروف الجميل وطيب النفس. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الوقوع بالمعاصي في مجاوزة ما حدَّه الشارع الأقدس لكم. والتقى هو الضمان الأكيد في النهاية، بل هو الضمان الوحيد للرضيع، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى كل شيء تعملونه، وهو مطلع على النوايا والخفايا، وعلى الأعمال والتصرفات فلا يغيب عنه شيء أبداً.

المسهم

٧/ ٢ ـ الميراث للأولاد وقاعدته العامة: للذكر مثل حظ الأنثيين

يقول الله تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

لقد وضع المنهج القرآنيّ نظام التوارث وطهَّره من دنس الأفكار الجاهلية، ورفعه إلى ذلك الأفق الوضيء حيث يبدأ بوصية الله للأهل في الأولاد فيقول تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي بأن جعل للذكر نصيب اثنتَين من الإناث إذا اجتمعتا معه، فيكون له نصف التركة ولهما النصف الآخر. وليس في هذا التوزيع من ربنا تبارك وتعالى محاباةٌ لجنس على حساب جنس كما يزعم أعداء دين الإسلام الكريم، والجهلة من الناس أجمعين، لأن الأمر أمرُ توازن وتعادل، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في تكوين الأسرة، وفي النظام الاجتماعيّ الإسلاميّ. فالرجل المسلم الذي يتزوج امرأة يصبح مكلفاً بإعالتها، وإعالة أبنائها منه في كل حالة، سواء وهي معه، أو وهي مطلقة منه، وذلك ضمن الحدود التي حددتها الأحكام الشرعية. أما هي فإمَّا أن تقوم بإعالة نفسها إذا لم يكن لها وليّ، وإما أن يقوم بإعالتها رجل من مثل والدها أو إخوتها أو

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

المسهم

أحد أرحامها، وبعد الزواج فإن الزوج يصبح هو معيلها وكفيلها.

أي أن الأنثى قبل الزواج وبعده سواء، فهي ليست مكلفة بنفقة للزوج، ولا للأبناء في أي حال، بينما الرجل مكلف ـ على الأقل ـ بضعف أعباء المرأة تجاه عائلته، فالزوج يتقاسم وزوجته ـ عادةً ـ الأعباء المعنوية في البيت الواحد، والأسرة الواحدة، بينما عليه وحدَهُ أن يتحمل الأعباء المادية كلها، حتى ولو كانت الزوجة تملك مالاً خاصاً بها، مما يُضاعف أعباءه مرتين بالنسبة للزوجة، مرةً من الناحية المعنوية، ومرة من الناحية المادية لأن عليه واجبَ الإنفاق بينما لا تتحمل الزوجة، الأعباء إلا مرةً واحدةً لأنه ليس عليها أية نفقة مادية. ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم في هذا التوزيع الحكيم.

وقد أجمعت الأمة على أن حكم البنتين حكم من زاد عليهما من البنات، لأنه في الآية الكريمة بيانٌ لحكم البنتين فما فوقهما، لأن معناه: فإذا كنَّ اثنتين فما فوق فلهن ثلثا ما ترك، إلاَّ أنه قدم ذكر «الفوق» على «الاثنتين» بقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾. وهو ما يوضّحه أيضاً الحديث الشريف حيث رُوي عن النبيّ أنه قال: **«لا تسافر امرأة سفراً فوق ثلاثة أيام إلا ومعها زوجها أو ذو محرم لها»**[1] ومعناه لا تسافر ثلاثة أيام فما فوقها..

﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ مما ترك المورث. ثم ذكر ميراث الوالدين فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ إِن كَانَ لَهُۥ

(١) صحيح مسلم، رقم ٩٧٥.

المسهم

وَلَدٌ﴾ أي أن لكل من الأب والأم السدس في حال وجود الأولاد. وهنا تظهر المساواة بين الأم والأب (الرجل والمرأة) في الإرث عندما يكون للمورث أولاد بحيث ينتفي هنا العبء عن الأب في الإنفاق، ولكنه يحصل على نصيبه من الإرث لأنه حكم شرعيّ، وتحصل الأم على نصيبها من الإرث بالحكم الشرعيّ نفسه. أما عندما يعود عبء الإنفاق على الأب تجاه زوجته التي هي أم المورث، فيعود للأب الضعفان من الإرث. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ والباقي أي الثلثين يكون لأبيه ـ المكلف بالإنفاق على أمه ـ كما يدل عليه ظاهر النص. ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾.

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وهذه اللمسة الأخيرة في هذه الآية المباركة هي لتطييب النفوس تجاه هذه الفرائض. فهنالك من تدفعهم عاطفتهم الأبوية إلى إيثار الأبناء على الآباء، لأن الضعف الفطريّ تجاه الأبناء أكبر. وفيهم من يغالب هذا الضعف بالمشاعر الأدبية فيميل إلى إيثار الآباء. وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضعف الفطريّ والشعور الأدبيّ، وكذلك قد تفرض التقاليد والأعراف اتجاهات معينة.. فلذلك أراد اللَّهُ سبحانه أن يسكب في القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمره تعالى ولما يفرضه، بإشعارهم جميعاً أن العلم كله له وحده تبارك وتعالى، وأنهم لا يدرون أي الأرحام أقرب لهم نفعاً، ولا أي من الأقرباء أقرب لهم مصلحة. فهو ـ سبحانه ـ لم يزل عليماً بمصالحهم، حكيماً فيما يقضي به عليهم، في هذه الأحوال وغيرها.

المسهم

٧/ ٣ ـ توزيع الميراث في الكلالة

يقول الله تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[1].

لمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى في أول سورة النساء سهام الفرائض، ختم هذه السورة ببيان ما بقي من ذلك، فقال سبحانه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾. أي إن طلبوا الفتوى منك يا محمد في الكلالة فقل: اللَّهُ يبيِّن لكم الحكم في هذه الكلالة.. فما هي الكلالة؟ هي معرَّفةٌ بقوله سبحانه: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي إن مات شخص وليس له ابن ولا ابنة ولا والد، لأن الكلالة اسم للنسب المحيط بالميت دون اللصيق به، والوالد لصيق الولد، كما أن الولد لصيق الوالد، ولذلك جمعت الكلالة المحيطين من الإخوة والأخوات، (دون الأولاد والوالدين اللصيقين) فإن مات هذا الشخص ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ﴾ أي أن الأخت ترث نصف تركته. أما أخوها فيرث في حال موتها كل تركتها، إن لم يكن لها ولد ولا والد. ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ ـ أي أختين ـ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ﴾ أخوهما. ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ﴾. أي إن مات وترك إخوة وأخوات فقط، فتقسم التركة

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

المسهم

فيما بينهم وفقاً لقاعدة الميراث الأساسية (للذكر نصيب أنثيين).

ثم تُختتم السورة كلها بالتعقيب القرآنيّ الذي يرد الأمور كلها لله تعالى، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات بشريعته سبحانه ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو عليم بجميع ما يحتاج إليه عباده من أمر معاشهم ومعادهم. وقد تضمنت الآية التي جاءت في أول سورة النساء بيان ميراث الولد والوالد، والآية التي تلتها بيان ميراث الأزواج والزوجات والإخوة والأخوات من قبل الأم، وتضمنت الآية التي ختمت بها السورة بيان ميراث الإخوة والأخوات من أب وأم، والإخوة والأخوات من أبٍ فقط عند عدم وجودهم من أب وأم، فيكون توزيع الميراث قد شمل جميع الحالات التي يمكن أن تقع في حياة الناس جميعاً.

٨ ـ علاقة الزوج بامرأته المطلقة.

٨/ ١ ـ للمطلقات (والزوجات عامة) حقوق مثل الذي عليهنَّ بالمعروف.

يقول الله تعالى:

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

فقد فرض الله تعالى على المطلقات أن ينتظرن ثلاثة قروء تمضي من حين الطلاق (والقرء هو الطهر بعد الحيض)، ولا يحل لهن أن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

المسهم

يخفين حملهنَّ الذي خلقه اللَّهُ تعالى في أرحامهنَّ إن كنّ حاملات. هذا إن كنَّ مؤمنات بالله تعالى وباليوم الآخر، فلا يفعلن ذلك، أي لا يكتمن الحمل. وفي مدة التربّص تلك يبقى أزواجهنَّ أحقّ بردِّهنَّ، إن أرادوا إصلاح الخلاف والعودة إلى حياة الزوجية المشتركة. وفي هذا الطلاق الرجعيّ، أو في مدة العدة لا حقَّ لغير أزواجهن فيهنَّ. ولهن أي للمطلقات (والأولى أن يكون الحكم للنساء كافة) على أزواجهن حق بالمعروف[1]، مثل الذي للرجال عليهنَّ من حق بالمعروف. وكلمة «المعروف» هنا تعتبر من الكلمات العجيبة الجامعة للفوائد الجمة، أو للحقوق المتعددة، لأنها تجمع كل ما يتعلق بحسن العشرة وترك المضارة أو الضرر، والتسوية في الكسوة والنفقة. ومقابل ذلك يكون للرجل على المرأة حقوق الطاعة، وعدم الدخول في فراش غيره، وأن تحفظ ماءه (الجنين منه) فلا تتعمد إسقاطه، وأن تحفظ ماله فلا تهدره وتُنفقه بلا طائل.. إلى غير ذلك ممَّا فرضه الله سبحانه على الرجل والمرأة، كل منهما نحو الآخر، على أن يبقى للرجال درجةٌ على النساء، بما يعطونهنَّ من مهر، وما ينفقون عليهنَّ من نفقة، أي العودة إلى القاعدة الأساسية وهي أن الأعباء التي تقع على عاتق الزوج من المهر والنفقة لا تفرض أبداً على المرأة في الإسلام.

٨/ ٢ ـ إعطاء رجال المسلمين مثل ما أنفقوا على زوجاتهم المشركات من المهور

يقول الله تعالى:

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ

(١) أي كما هو متعارف عليه في معاملة الزوجة في محيطها الأصليّ وذلك هو الأدنى.

أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[1].

في صدر الإِسلام أسلمت نساء متزوجات كنَّ في عصمة رجالٍ من المشركين، وبقيت زوجاتٌ مشركات في عصمة رجالٍ أصبحوا من المسلمين. فلما نزلت هذه الآية ـ وإنفاذاً لحكم الله تعالى ـ أدّى المسلمون نفقاتِ زوجاتهم المشركات، اللواتي أبين الدخول في الإِسلام، ثم طلقوهنَّ. ولكنَّ المشركين أبوا العمل بالمثل، ولم ينصاعوا لحكم الله تعالى في أداءِ النفقات للمسلمات المطلقات منهم.. فالمعنى أنه إذا ذهبت زوجات الرجال المسلمين إلى الكفار، لبقائهن على الشرك، أو إذا ارتدّ بعضهن بعد إسلامهن وذهبن إلى المشركين، وأدَّيتم أيها المسلمون حقوقهن لهنَّ، ثم غزوتم وغنمتم ـ ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ ـ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم من الغنيمة، مثل ما أنفقوه لهنَّ من المهور وغيرها، بدون أن تنقصوا عليهم شيئاً. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ والتقوى تكون باجتناب المعاصي، وعدم تجاوز أمره سبحانه، ومنها هذا الحكم بأن تُؤتوا الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار مثل ما أنفقوا عليهنَّ.

٩ ـ أحكام قتل الصيد في الإحرام: جزاءُ المُحرم إذا قتل الصيد مثلُ ما قَتَلَ، وكفارتُهُ طعام مساكين أو عَدْلُ ذلك صياماً.

يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١١.

طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة تحريم الصيد على المؤمنين، وهم مُحرِمون للحج أو للعمرة..

وقد اختلف في معنى الصيد، فقيل: كل حيوان أُكل أو لم يؤكل.

وقيل: «هو ما يؤكل لحمه».

ومن اصطاد متعمداً في نطاق البيت الحرام (ويشمل مكة كلها) وقت الإِحرام في حج أو عمرة، فجزاؤه بأن يقدم من الأنعام مثل ما قَتَلَ.. واختلف في هذه المماثلة أهي في القيمة أم في الخلقة.. فالذي اعتمده معظم أهل العلم أن المماثلة معتبرة في الخلقة، ففي النعامة بُدنة، وفي حمار الوحش وشبهه بقرة، وفي الظبي والأرنب شاة. وقال إبراهيم النخعي: «يقوّم الصيد قيمة عادلة ثم يُشترى بثمنه مثله من النعم». فاعتبر المماثلة في القيمة..

والحكم في رأينا أنه عند إمكان المماثلة بالخلقة فيمكن تقديم الحيوان المشابه للحيوان المقتول، وعند عدم الإِمكان في الحصول على حيوانٍ مشابه، يمكن أن يقوَّم الحيوان المقتول ويُشترى بثمنه أي حيوان آخر.. ويحكم في ذلك ﴿ذَوَا عَدۡلٖ﴾ أي رجلان عادلان يميزان أشباه الأشياء، ويقدران قيمتها. ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ أي أن الذي أصاب الصيد، وهو محرم بالعمرة يهدي ما حُكِمَ به هدياً بحيث ينحره في مكة قبالة الكعبة؛ وإن كان محرماً بالحج ذبحه أو نحره بمنىً. ﴿أَوۡ

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

المسهم

كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي أن يكفّر عن قتل الصيد بأن يقوّم مثله من النعم ثم يتصدق بقيمته على المساكين والمحتاجين؛ أو أن يصوم بمقابل ذلك عدداً من الأيام. ويكون الصيام يوماً واحداً عن كل ما توازي قيمته مُدَّين من القمح. وذلك جزاءٌ لمن قتل الصيد لينال عقوبة عمله..

وقد يسأل سائل: كيف يسمى هذا الجزاء الذي يدفعه أو يصومه المؤمن «وبالاً» وهو عبادة، فإذا كانت عبادة فهي نعمة ومصلحة؟ فالجواب إن الله سبحانه شدَّد التكليف على قاتل الصيد بعد أن ارتكب فعله عمداً، فهو مأمور بألاَّ يقتل هذا الصيد وقت الإحرام، فقتلُه بعد الأمر يعني ارتكابَ معصية تستوجب التكفير عنها، بما يثقل عليه لأن الصوم يثقل على النفس والجسد لما فيه من تعب وحرمان مؤقتين. وهذا الثقل يسمو النص القرآنيّ بالتعبير عنه بلفظ «وبال».. ومثال ذلك أيضاً ما حُرِّم على بني إسرائيل من الشحم لما اعتدوا في السبت، فثقل ذلك عليهم وإن كان فيه مصلحة لهم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتل الصيد قبل تحريمه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إليه ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن عصاه وخالف أمره.

١٠ ـ النهي عن نقض العهود والأيمان

١٠/١ ـ مثل ناقض العهد كالتي نقضت غزلها المنسوج

يقول الله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟

المسهم

كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

من الفضائل التي يحرص عليها الإسلام فضيلة الوفاء بالعهود، والحفاظ على المواثيق. ولذلك كان نقض العهد نقيصة مخجلة، لأن الإنسان يحيد بها عن حق الله (تعالى)، وحق عباده. ذلك أنّ من ينقض ما عاهد الله ـ ربَّهُ ـ عليه، من السهل أن ينقض عهود الناس، وألاَّ يلتزم بوفاء أو صداقة، مما يجعل المعاملات عرضة للمخاطر، التي تجلب الأضرار المادية والمعنوية وتلحق الأذى والدمار بالصلات، والروابط، والمواثيق على اختلافها. من هنا نجد أنه لما تقدم ـ في سورة النحل ـ ذكر الأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن المنكر والعدوان، أتبعه هذا التعقيب بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، وفيه توجيه للناس نحو الحق والخير، وأمرٌ لهم بالوفاء بالعهد، ونهيٌ عن نقض الأيمان. فإن عاهد أحدٌ ربَّه تعالى على أن يفعل شيئاً حسناً، صار واجباً عليه فعلُهُ التزاماً بعهده مع ربه. وإن حلَف أحدٌ أو أقسمَ بالله تعالى، فإنَّ هذا الحلف أو القسم فيه عقد وإبرام باسم الله تعالى، فلا يجوز بعده اللغو بأيمانه، خصوصاً وأنه جعلَ اللَّهَ تعالى كفيلاً عليه في ذلك. والكفيل بالشيء يحفظه ويؤديه.

والإنسان عندما يقسم بالله تعالى فإنما يؤكد على نفسه أن الله تعالى يكفل ويحفظ هذا الأمر الذي أقسم عليه، وأنه سَيَفي به، ولا

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٩١ و٩٢.

المسهم

يحنث بوعده في وفائه، أو في الامتناع عن القيام به (إذا كان الأمر يتعلق بنفي الأمر أو الامتناع عنه). فعندما نقسم أو نحلف بالله تعالى، فإنه سبحانه يعلم ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من وفاءٍ بالعهود، أو نقض لها، لأنه السميع العليم فلا تخفى عليه خافية في الأرض أو في السماء.

والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ. ويشمل كل عهدٍ على معروفٍ يأمر به ربُّ العالمين. والوفاء بالعهد هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع، ولا تقوم إنسانية. والنص يُخجل المتعاهدين أن ينقضوا الأَيمان بعد توكيدها، وقد جعلوا الله تعالى كفيلاً عليهم، وأشهدوه على عهودهم، وجعلوه كافلاً للوفاء بها. ولذلك يهددهم النصُّ تهديداً خفيفاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. فلا يغيب عنه أمر من أموركم، ولا يخفى عليه شيء في حياتكم، وهو يرقبكم، ويحصي عليكم حركاتكم وسكناتكم، فحاذروا من عمل لا يرضاه، لأنه تعالى يعلم كل عمل، وكل فعل تقومون به..

ثم ضربَ سبحانه وتعالى مثلاً على من ينقضون العهود، فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾. فجاء هذا المثل من واقع حياة الناس، حيث يأمرهم ربهم بألاَّ يكونوا مثل تلك المرأة الحمقاء التي تغزل صوفها بإحكام، ثم تعود وتحلّ ما غزلته أنكاثاً، أي قطعاً متفرقة أو خيوطاً مبعثرة لا تصلح في حياكة ثوب، أو صنع شيء للانتفاع بها. ويقال إنه كان لعمرو بن كعب بن سعد بنت تدعى «ريطة». وكانت إذا غزلت الصوف عادت ونقضته لحماقتها، فكانت تلقّب بخرقاء مكة. ولكن ليست «ريطة» مكة هي

المسهم

المقصودة بهذا المثل، لأنه مثل عام يتناول أعمال الناس التي فيها نقض للعهود، فيأتي التشبيه ليرسم لهم صورة هذا النقض بواقع من حياتهم قد يرونه كل يوم. أفلا ترون أن كل جزئية من جزئيات التشبيه تشي بالتحقير والتعجب، وتشوّه الأمر في النفوس، وتقبِّحه في القلوب؟ وهذا هو المقصود هنا: تقبيح عمل النقض، وتشويهه وتحقيره..

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾، والدَخَل هو ما يُدخَل في الشيء ـ لأنه ليس منه ـ لإفساده. فقد كان بعضهم يعقدون المواثيق، ويقيمون العهود، وهم يضمرون الخيانة والخديعة. أما الناس فكانوا يسكنون إلى مواثيقهم وعهودهم بعد أن يغلظ أولئك الأيمان بالله تعالى، ويصدقونهم.. أي أنهم كانوا في الحقيقة، يتخذون أيمانهم مكراً وخداعاً لتحقيق المآرب والمنافع الذاتية، دون الاعتداد بإشهاد الله تعالى وحلفهم به جلَّ وعلا. ومن قبيل تلك الفعال ترك حلفائهم القدماء والاتفاق مع حلفاء جدد، قد يكونون بنظرهم أكثر عدداً، وأشدَّ قوة، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي أن تكون جماعة أعزَّ نفراً وقوة من جماعة أخرى، فحالما يجدون هذه الجماعة الجديدة ينكثون عهدهم مع الجماعة السابقة التي كانوا يحالفونها، متناسين ما أغلظوا من الأيمان للوفاء بالعهد، والحفاظ على التحالف.. كل ذلك ركضاً وراء المصالح المادية، بينما كان الأجدر بهم الوفاء بالعهد، والمحافظة على الأيمان، لأنَّ فيه خيراً لهم.. إذن ففي نكث العهد شر لهم وليس مصلحة، فهل يفهمون ويعون ذلك؟

ويدخل في مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقاً لما يسمى

المسهم

في العصر الحاضر «مصلحة الدولة». إذ تعقد دولة ما معاهدة مع دولة أخرى، أو مع مجموعة من الدول، ثم تنقضها بعد أن ترى أن هنالك دولةً أربى من التي عاهدتها من قبل. أما الإسلام فلا يقرُّ مثل هذا المبرر، بل يحتِّم الوفاء بالمعاهدات والمواثيق، وعدم نقضها من طرف واحد، لأن الأصل في ذلك توافق إرادة الطرفين المتعاهدين على إلغاء المعاهدة أو وقفها. ذلك أن الإسلام يريد الوفاء بالعهد والمعاهدات، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدَخَل.

وينطبق على ﴿ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ سياسة المداهنة والنفعية، أو أعراف واتفاقات الشرف التي تقوم بها الدول مع غيرها في عصرنا، بينما هي تضمر في الخفاء خداعاً وغشاً ومراوغة لتحقيق أهداف قد تكون قريبة أو بعيدة، كما كانت تفعل بريطانيا من قبل، وما تزال، إذ كثيراً ما تداهن وتتقرّب من غيرها، للوصول إلى غايات غير منظورة، ثم تظهر تلك الغايات في المدى القريب أو البعيد. . .

وإنَّ من المفاهيم الأصلية في الإسلام أنه لا يقر تعاهداً، ولا تعاوناً على الإثم والعدوان، أو على الفسوق والعصيان، أو على أكل حقوق الناس واستغلال الشعوب والدول. وعلى هذا الأساس السليم من الوفاء بالعهد قام بناء الجماعة الإسلامية، وبناء الدولة الإسلامية. فَنَعِمَ العالم بالمطأنينة والثقة والنظافة في المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى هذا الدين القويم. واللَّهُ تعالى عندما يأمرنا بالوفاء بالعهد، فذلك اختبار أيضاً لمن يرغب في نصرة المؤمنين على ضعفهم وقلة عددهم، ومؤازرتهم على عدوهم، وإن بدا هذا العدو قادراً، مقتدراً.

ولا تقف آثار الوفاء بالعهود على العلاقات الدنيوية بل تتعداها

المسهم

إلى الآخرة، لأنه تعالى يعذّب الناكث بالعهد ويثيب الملتزم. والرسول ﷺ قال: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً. ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[1].

١٠/ ٢ ـ دعاء الذين يغشاهم الموج كالظلل عهدٌ مع ربهم يجحدون به إذا نجاهم إلى البرّ.

يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[2].

ومن لا يرى الفلك تجري في البحر؟ كل منا يراها.. ولكنَّ قول الله تعالى يوجِّهُ انتباه الإنسان، ويحرك عقله وحواسه إلى آياته سبحانه التي خفيت على أفهام البشر، إذ اعتادوا على رؤيتها من غير أن تتحرك في نفوسهم أية مشاعر، أو يثور أيُّ استفهام.. فالفلك تجري في البحر، وجريانها فوق سطح الماء لا يكون إلاَّ بنعمة من الله وفضله، ولو شاء العزيز القدير لما سخّر لنا البحر، ولما وهبنا العقل لنصنع تلك السفن، ثم نقذفها فوق اليمِّ لنحقق بواسطتها مصالحنا.

ولو أمعن الإنسان التفكير في مشهد الفلك وهي تجري في البحر، لأدرك حقّاً أنها من الشواهد الدَّالة، والآيات المبينة التي

---

(١) رواه البخاري ومسلم (الكبائر للإمام الذهبي).

(٢) سورة لقمان، الآيتان: ٣١ و٣٢.

المسلم

توجب علينا ألاَّ ننظر إليها بعيوننا نظرة سطحية وعابرة، بل نتأمل بها بنظرة اعتبارٍ وتبصرةٍ، لأن هذا التبصُّر من شأنه أن يقودنا حتماً إلى الإِقرار بأن في جريان الفلك في البحر آياتٍ بيِّناتٍ للناس، أقلها أن للماء ضغطاً أوجده الله ـ سبحانه ـ ينبعث من أدنى إلى أعلى لكي يستطيع أن يحمل ثقل الجسم الملقى على صفحته، وأن يجعله يطفو، بالغاً ما بلغ وزنه، إذا توفرت له شروط التوازن في الحجم والشكل والصنع.. ونتيجة لذلك القانون الذي أوجده الله تعالى في الماء، كانت تلك العمارات من الأساطيل التجارية التي تجوب البحار والمحيطات بين مختلف القارات، فتسهِّل عملية مبادلات السلع، وتقيم العلاقات بين أمم الأرض وشعوبها.. أوليس في ذلك ما يوجب الشكر لله تعالى على هذه النعمة الجزيلة، والثناء عليه سبحانه لهذا الفضل العظيم، ثم الإِقرار بأنه على كل شيء قدير؟

والعِبَرُ من هذا البحر، ومن الفلك التي تجري فيه كثيرة.. وإحدى هذه العبر أن كثيراً ما يصادف الذين يجوبون البحار عواصفُ هوجاء وعاتية، تهبُّ على الأمواج فتجعلها كالظلل (وهي الجبال العالية التي تظلُّ ما تحتها) وعلى السفن فتزلزلها، وتتركها عرضة للهلاك تتقاذفها الأخطار من كل جانب، حتى ليرى من هم على متنها أنَّ لا نجاة لهم من الموت المحتوم.. وقد يبذل هؤلاء قصارى جهدهم للحفاظ على سفينتهم، ويعملون المستحيل لئلا تحطمها العاصفة ويبتلعهم اليم، ولكنهم مهما فعلوا لا يقدرون على شيء من ذلك إن لم يُرِد اللَّهُ تعالى لهم الخلاص والنجاة. وأمام هذا الخطر الداهم، فإنهم لا يجدون مناصاً ـ كائناً ما كان اعتقادهم ـ إلا اللجوء إلى الله تعالى ودعائه بأن يخلّصهم من هذا الكرب العظيم. ذلك أن

نفس الإنسان، في مثل هذه الحالة من الخطر والضيق، تتعرَّى من القوى الخادعة، وتتجرَّد من القدرات الموهومة، وتعود إلى صافي فطرتها التي فطرها اللَّهُ تعالى عليها، فلا تجدُ إلاَّ رحمَتَهُ ملاذاً وملجأً؛ لأنه من الطبيعيّ بعد سقوط جميع الحوائل التي كانت تفصل ما بين النفس وخالقها، أن تعود وتستقيم متجهة إلى ربها وبارئها، مخلصة له الدعاء، لينجيها برحمته، استجابة لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، فهي الدعوة إلى عبادة الله (تعالى) وكل دعاء عبادة.

فالذين وقعوا في مثل ذلك الكرب، ودعوا الله مخلصين له الدعاء، نجدهم إذا أنجاهم وعادوا إلى البر سالمين قد ذهبت بهم الأهواء: فمنهم مقتصد، وهو الذي يبرُّ بالوعد الذي عاهد الله عليه، ومنهم جاحد، وهو الذي يعدل عن الوفاء بعهده، وينسى ذلك الفضل العظيم من ربه.. فهما إذن صنفان من البشر، صنف شاكر مقتصد، وصنف جاحد منكِر.. فأما المقتصد، فهو الذي يكون على طريقة مستقيمة، وصلاح في الأمر، وثبات في الإيمان، ووفاء بالعهد، لا يدفع به الأمن والرخاء إلى النسيان والاستهتار، بل يظل ذاكراً، شاكراً، وإن لم يوفِّ حق الله تعالى على جميل صنعه به، بل ولم يوفِّ حق الوفاء في الذكر والشكر. من هنا سمّاه تعالى ﴿مقتصد﴾.. وأما الجاحد فهو الذي ينكر منَّ الله عليه بالنجاة لمجرد زوال الخطر، والعودة إلى البرّ، فكأنه لم يقع في ضيق، وكأنه لم يعاهد الله على الطاعة والوفاء. ومثل هذا الجحود بآيات الله تعالى لا يكون إلاَّ من

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

المسهم

كل ختار كفور. (والختّار هو الشديد الغدر، والكفور هو الشديد الكفر). ومثل هذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد بآيات ربه وتدبيره، وبمن يتنكر لفطرته التي جعلته يخلص لربه الكريم في تلك اللحظات الحاسمة التي عاشها بين الأعاصير والأمواج، ثم لا يلبث بعد النجاة أن يعود إلى كفره المبين.

١١ ـ التحذير من الطعن بالأعراض والنهي عن العودة لمثله.

يقول الله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

هذه الآية الكريمة وإن جاءت تعقيباً على حدثٍ في موضوع الأعراض، إلاّ أنها تحمل قاعدة إسلامية شاملة وهي عظة الله سبحانه وتعالى بعدم التعرض للأعراض والطعن بها، أو التقوّل على الناس بالسوء. ولا يتوقف النص القرآنيّ عند العظة التي يعظها الله للناس، بل ويحمل معها الأمر الناهيَ بألاّ تعودوا أيها المجدفون بالأَعراض إلى مثله أبداً، هذا إن كنتم مؤمنين، بالله تعالى وبرسله وأنبيائه، وقابلين للموعظة من ربكم اللطيف الخبير.

وهذا أجمل أسلوب للتربية وأبلغه أثراً في النفوس، ولا سيما عندما يتضمن لفظ العظة معنى التحذير، بل معنى الأمر، وذلك مع تعليق إيمانهم على الانتفاع بما يعظهم الله به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فالمؤمنون لا يمكن أن تتكشف لهم بشاعة العمل بهذه الصورة الواضحة، وأن يتلقوا بشأنه الأمرَ الناهيَ ثم يعودون إليه، وهم مؤمنون.. فسبحان الله الرؤوف بالمؤمنين، العليم بمصالحهم،

---

(١) سورة النور، الآية: ١٧.

المسهم

والحليم بالصبر عليهم والعفو عنهم، الحكيم بما يوجّههم إليه من الخير لأنفسهم والحفاظ على الآخرين.

الفقرة السادسة ـ القتال وقواعده في الإسلام

١ ـ واجب الردّ على الاعتداء بمثله

يقول الله تعالى:

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

إدَّعى المستشرقون، بل والغرب بأسره، أنَّ الإسلام قام على القتال، وفي ذلك مطلق التجنّي الحاقد، الصادر عن سابق تصور وتصميم، لأنهم يريدون أن يظهروا للناس أنه لولا استعمال القوة، لما انتشر الإسلام ذلك الانتشار الواسع في القارات التي وصل إليها. والحقيقة أن رسول الإسلام ﷺ والمسلمين لم يبدأوا قوماً بقتال، ولا قاتلوا إلا دفعاً لأذىً أو رداً لظلم، ولم يقصدوا بلداً أو خاضوا حرباً إلاَّ من أجل تعريف الناس على الإسلام، وإزالة الحواجز المادية والنفسية بين الشعوب من طريق إعلاء كلمة الله.. فقد كانت غاية المسلمين تتلخص في عرض دينهم الحق على الناس كافة، كما أمرهم بذلك ربُّ العالمين، فمن قبل هذا الدين دخل فيه مختاراً، ومن لم يقبله خلّوه على دينه، لأن القاعدة الأساسية في الإسلام هي قوله تعالى، في محكم كتابه العزيز: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[2]. فهذا نصٌّ قرآنيّ يفضح كذب الدسَّاسين على الإسلام، والكارهين لدين الله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

المسهم

الحق، لأنهم لا يريدون أن يسود العدل بين الناس، وتُؤدَّى الحقوق لأصحابها، وتصانَ الحرمات، والمقدسات، والقيم، والمثل والأخلاق بين الأفراد والجماعات. وبكلمة وجيزة هم لا يريدون أن يسود الخير، وينهزم الشر في هذه الأرض، وإلاَّ لاختلَّ توازن وجودهم، وقضي على مطامعهم وشهواتهم. . ولذلك كانت حملاتهم المغرضة، التي ما تزال قائمة ومستعرة على الإِسلام، وضد المسلمين. .

ومهما يكن أمر أعداء الإِسلام، وأياً تكن أفكارهم، أو دراساتهم ومخططاتهم، فالقرآن الكريم يقدّم الأمثالَ التي تتضمن بعض أحكام القتال، وهي تردُّ على المغالين والمنافقين في كل حين. .

فالله تعالى عندما يقول: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ فمعنى هذا القول القدسيّ أنَّ من ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يُحرمَ الضمانات التي يكفلها له ذلك الشهر من الأمن والأمان. . وقد جعل الله تعالى البيت الحرام (الكعبة الشريفة) واحةً للأمن والسلام في المكان، كما جعل الأشهر الحرم واحةً للأمن والسلام في الزمان، وذلك لتُصان فيها الحرمات، وتحجب الدماء، ولا يُمَسّ فيها أحد بسوء. فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة، وأراد أن يحرم المسلمين منها، كان جزاؤه أن يُحْرَمَ هو أيضاً منها. . فالذي ينتهك الحرمات، لا تصان حرماته. لأن الحرمات قصاص ـ أي يقتص بمثلها إذا انتهكت ـ ومع هذا فإن إباحة الرد، والقصاص للمسلمين، توضع في حدودٍ لا يتعدونها. فلا تباح هذه المقدسات إلاَّ للضرورة وبقدرها: فالشهر الحرام بالشهر الحرام. . . ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ

المسهم

مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فمن ظلمكم بالاعتداء عليكم، فجازوه على اعتدائه وقابلوه بمثله، أي عاقبوه على نفسِ قدر ظلمه لكم، فكان هذا الاعتداء ـ كما ورد في النص ـ هو العقوبة التي تنال المعتدي، ولكن على قدر اعتدائه وبمثله ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وإذا كان الاعتداء الأول جوراً، فالثاني عقوبة، ولكنها عقوبة عادلة. أما أنه مثله في الجنس، وفي مقدار الاستحقاق فلعلة كونه ضرراً، كما أن الاعتداء ضرر. ولذا فهو مثله في الجنس والمقدار والصفة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر..

وفي هذه الآية الكريمة دلالة أيضاً على أن من غَصَبَ شيئاً أو أتلفه، يلزمه ردّ مثله. ثم إن المثل قد يكون من طريق الصورة في ذوات الأمثال (أي مقدارها في الكمية والجنس والنوع والخصائص) ومن طريق المعنى كالقيم فيما لا مِثْلَ له، كالتعويض الأدبيّ أو التعويض عن الألم وما شابه ذلك.. فيا سبحان الله ما أروع تعاليم الإسلام وهو يقيم موازين العدل حتى في حالة الاعتداء والغصب!..

٢ ـ صبر المؤمنين على البأساء والضراء مثل الذين خلَوْا من قبلهم حتى يدخلوا الجنة

يقول تبارك وتعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

إنه لجدير بالمسلمين أن يعتبروا بهذه الآية المباركة من ناحيتين:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

المسهم

الأولى: أن الحياة ابتلاء، لأن أيام البأساء (البؤس والفقر والقلق...) وأيام الضراء (المرض والمحنة والاعتداء...) قد تكون ملازمة للناس أكثر من أيام الدعة والسلام، فكان خليقاً بهم ألاَّ يعوِّلوا على آمال كاذبة بسعادة أو راحة أو فرح، بقدر ما يتوقعون عذاباً وتعاسة وشقاء.

والثانية: أن الصبر على البلاء فضيلة، والدخول إلى الجنة محفوف بالمكاره، فكان التأسّي بالمؤمنين السابقين، ولا سيما التأسّي برسول الله ﷺ، وأصحابه الميامين ما يقوّي صبرهم عند نزول الشدائد والمصاعب بهم. إذ قد نزل بأولئك الأبرار الأخيار كرب عظيم، وبلاء كبير في مواجهة الأعداء، فصبروا حتى جاء نصر الله.

وهذا الصبر والتأسّي لا بد وأن يقترنا بالتوجُّه إلى الله (تعالى) ورجائه بأنْ يخفِّف المصائب وآلامها. وفي تكوين هذه الحالة النفسية أول أمارات النصر من الله لعباده المؤمنين، بما يهبهم من قوة على تحمل الشدة، واصطبار على المكروه، حتى يمكن السيطرة على الألم والانتصار عليه.

ذلك أن الرسول ﷺ والمسلمون قد لقُوا في مكة أذىً شديداً من المشركين، ثم كانت من بعده الحروب التي شنوها عليهم، وحصار الأحزاب للمدينة، والغدر والمكائد من أهل الكتاب والمنافقين.. فكان نزول هذه الآية الكريمة تسريةً للآلام عن نفوسهم، وتخفيفاً لثقل الأعباء عن قلوبهم، وذلك بما تعظهم به من أخبار الأمم الخالية التي لاقى فيها المؤمنون أمثالهم العذاب والعداء من الكفار والمشركين، فصبروا واحتملوا حتى نالوا الجنة.. من هنا

المسهم

جاء الخطاب في مطلع النص موجهاً للمؤمنين مباشرة: ﴿أحسبتم﴾ أيها المؤمنون، وظننتم أنكم تستطيعون دخول الجنة، ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به المؤمنون قبلكم؟ فالامتحان لا بدَّ منه حتى تنالوا الجزاء العظيم، وعليكم أن تصبروا كما صبر الذين خلوا من قبلكم، وليس بعد الصبر إلاَّ الفرج من ربكم والنصر.. فأولئك الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم ﴿ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ وما فيهما من البلاء والضرر بكل أنواعهما، وبخاصة ما لاقوا من التعذيب والتنكيل، والقهر والظلم، وما إلى ذلك من أنواع المصائب والبلايا والمكاره!.. ومثله ما أصاب الرسول ﷺ وأصحابه، حتى قال رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه، أي بعد تناهي الشدة عليهم: متى يأتي نصر الله الذي وُعِدنا به؟ ويجيب الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾. فهو مدَّخر لمن يستحقونه، ولكن لا يستحقه إلاَّ الذين يثبتون حتى النهاية، في الصبر على البأساء والضراء، والذين يصمدون أمام العواصف العاتية فلا يستسلمون لأخطارها، بل يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله يؤتيه من يشاء، ومتى يشاء. وهذا ما يبين بوضوح أن المؤمنين، وحتى حين تبلغ المحنة بهم أقصى ذروتها، فإنهم لا يتطلعون إلاَّ لنصر الله ـ سبحانه ـ دون غيره.. وبهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها، جديرين بها، أي بعد الجهاد والصبر والثبات، والتوجه إليه تعالى وحده، وإغفال ما سواه.

ويأتي التأكيد على هذه القاعدة الإسلامية التي تقول بأن لا نصر إلاَّ من عند الله، بقوله عزَّ وعلا: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ

ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1].

وهذا بيان عمَّا حصل في موقعة بدر حين تقابل المسلمون مع المشركين. فالمسلمون كانوا أقلَّ عدداً لا يزيدون على ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، وليس معهم من العدَّة إلا النزر اليسير، بينما كان عدد المشركين يربو على الألف، ومعظمهم مدجج بالسلاح.. فهاتان الفئتان التقتا يوم بدر: فئة المسلمين وهي تقاتل في سبيل الله، وفئة الكفار من قريش وهي تقاتل في سبيل البقاء على الشرك، والإبقاء على السيادة والحكم.. ونظر المشركون إلى المسلمين باستخفافٍ وصلفٍ لقلة عددهم وعدتهم، فبادروا إلى اقتحامهم وهم يقولون: عليكم بهم، فما هم إلا كأكلة رأس!.. أما المسلمون فأراهم اللَّهُ سبحانه المشركين قليلي البأس، ضِعافَ القوةِ والتماسكِ، ضِعاف الهمم على القتال، فاجترأوا عليهم، واستهانوا أمرهم، كما يُنبىء بذلك رب العالمين، بقوله العزيز: ﴿وَإِذْ يُرِيكَهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾[2]. ومثل هذه الرؤية، كانت من أهم أسباب النصر للمؤمنين، والتخذيل للكافرين، لأنَّ النصر منه تعالى يمكن أن يكون:

إما بالغلبة في القتال، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3]. وهذا على خلاف المجرى الطبيعيّ للأمور.

وإما بالغلبة بالحجة الدامغة، والبرهان القاطع، اللذين لا يتركان

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

المسهم

مجالاً للجدال، ويقطعان الخصام، والآيات عليها كثيرة في القرآن الكريم..

وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار، الذين ينظرون ببصائرهم، ويُعملون عقولهم، فيرون أنه سبحانه وتعالى قادر على أن ينفذ حكمه في أي أمرٍ من الأمور، ويظهره خلافاً للسنن العادية التي يألفها الناس.. إذن فلا بدّ من بصيرةٍ نافذةٍ، وعقلٍ واعٍ لإدراك العبرة ومعرفة حقيقتها؛ وإلاَّ فالعبرة تمرُّ في كل لحظة من الليل والنهار، وليس من يعتبر بها، وليس من يعيها، أو من يقف على أبعادها ومراميها.

٣ ـ أمرُ الله (تعالى) للمؤمنين بألاَّ يكونوا كالذين كفروا في نَهْيِ أقاربهم عن الجهاد أو السفر طلباً للرزق

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

ينهى اللَّهُ سبحانه المؤمنين عن أن يكونوا كالمشركين والمنافقين، الذين كانت ما تزال بينهم وبين المسلمين صلات قرابة، كانوا إذا مات لهم أقرباء وهم يضربون في الأرض ابتغاء التجارة وطلب الرزق، أو استشهدوا وهم يغزون في سبيل الله دفاعاً عن دينهم وعن وجودهم، يبدون الحسرة والأسى، فيقولون: لو كانوا أقاموا بيننا ما ماتوا، وما قتلوا.. فيحذر الله (تعالى) المؤمنين وينهاهم عن أن

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٥٦ و١٥٧.

المسهم

يقولوا كقولهم ليجعلَ ذلك القول في عاقبة أمرهم حسرةً في قلوبهم، أياً تكن الغاية التي يرمون إليها، سواء إذا أرادوا من وراء ذلك تثبيط عزائم المؤمنين، ونهيهم عن الخروج للغزو، أو إذا كانوا يتحسرون فعلاً على من يقتلون من أقاربهم..

فالحسرة، على كل حال، كانت تملأ قلوب الذين كفروا، وهم يرون عزة الإسلام تتعاظم يوماً بعد يوم، والمسلمين يزدادون منعةً وغنائمَ وهم يخوضون معارك الجهاد، ويحققون أعظم الانتصارات على أعدائهم.

وبعد هذا البيان للحسرة في قلوب الذين كفروا يأتي التعقيب: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[1] من يشاءُ من عباده، وفي الأجل المضروب له، فلا مقدّم لما أخّر، ولا مؤخّر لما قدَّم، ولا رادَّ لما قضى، ولا مناص مما حكم. فالله هو الذي يملك أسباب الموت والحياة، وهو وحده القادر على أن يميت الناس في السفر والحضر، وفي أية حالة أخرى، فلكلِ أجل محدود، وموعد مضروب سواء أكان الناس في بيوتهم وبين أهليهم، أو في ميادين الكفاح للرزق، أو في ساح الحرب دفاعاً عن العقيدة: إذ يدركهم الموت ولو كانوا في بروج مشيدة.

وإذا كانت أعمال الناس لا تخفى عادة على الناس، إلا أن بعضها قد يخفى في الحقيقة وقد لا يظهر لهم أبداً، بينما بالنسبة إليه تعالى كل شيء مكشوف، وكل أمر معلوم، فهو بكل ما يعملون بصير. وعندما يدرك الإنسان، ويشعر في قرارة نفسه أن ربَّه يراه، ويبصر ما يفعل، فلا شك بأن ذلك سيكون عاملاً قوياً

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٩.

المسهم

لترغيبه في الطاعة، وترهيبه من المعصية. فإذا ما جاهد الإنسان في سبيل الله، وذاد عن حياض دينه، واستشهد في سبيل الله، أو إذا ما راح يضرب في الأرض سعياً وراء الكسب الحلال ومات في سفره، فإنَّ له مغفرة لذنوبه، ورحمةً من ربِّه. ذلك أن الله تعالى لا يكل المؤمنين ـ في هذا المقام ـ إلى أمجاد شخصية، ولا إلى اعتبارات بشرية، ولكنه يكلهم إلى ما عنده من رحمة ومغفرة، ويعلق قلوبهم بالطمع بعفوه ورضوانه. وهذه المغفرة والرحمة خير مما يجمعون من الأموال والأمجاد، وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض الحياة الدنيا.

٤ ـ لا يستعظم المسلمون ما أصابهم من مصيبة قد أصابوا أعداءهم مثلَيها.

يقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

في تربية الله تعالى للمؤمنين حقائق لا ينبغي أن يفرّطوا بشيء منها. فإذا رأوا النعم تتدفق عليهم وفيرة، فذلك لتجاوبهم الصادق مع العقيدة، ولاستجابتهم المخلصة مع أوامر ربهم ونواهيه. وإن انصرفوا قليلاً أو كثيراً عن هذا التوجه، فلا بدَّ أن يروا انعكاسه عليهم مباشرة. وفي الآية الكريمة تظهر هذه الحقيقة بوضوح، عندما يواجه العزيز الحكيم المؤمنين بحقيقة ما أصابهم يوم «أحد»، وبأنه من أنفسهم.. ذلك أن مصيبة المسلمين يوم «أحد» كانت مقتلَ سبعين رجلاً. بينما

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

المسهم

كانت مصيبة المشركين يوم «بدر» مقتل سبعين وأسر سبعين آخرين، أيْ مثلَي المصيبة التي أصابت المسلمين.. ويوم «أحد» قال بعض المسلمين: كيف يحصل لنا هذا وفينا رسولُ الله ﷺ الذي يتلقى الوحيَ من الله تعالى، ونحن نجاهد في سبيل مرضاته؟ فيوجّهُ سبحانه وتعالى نبيّهُ الكريم لأن يقول لهم: إنما هو من عند أنفسكم وليس من عند الله تعالى. وهو يردُّ على دهشتهم المتسائلة مُرجِعاً ما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب، وهو مخالفة الرماة منهم لأوامر رسول الله ﷺ، التي كانت تقضي بملازمة الرماة لأماكنهم أياً يكن سير المعركة لصالح المسلمين أو ضدهم. ولكنهم أهملوا هذه الأوامر، واندفعوا وراء المغانم والمكاسب العاجلة، فالتفَّ من ورائهم الكفار، وأوقعوا بهم الهزيمة المادية، بعد أن كان النصر محققاً للمسلمين في بداية المعركة.. إذن فهاجس الكسب، وإغراء المغانم هما المشاعر التي انبثقت من أنفس الرماة وكانت سبباً في المصيبة التي حلت بهم وبإخوانهم أجمعين.. فهذا ما عليهم أن يعلموه حتى لا يستغربوا ما حلَّ بهم!. وقد وجَدَ المسلمون في تلك المصيبة الدرسَ والعظةَ البالغين، وهما من مقاصد التربية التي يريدها الله تعالى لهم. ويبقى كل شيء بيده سبحانه وتعالى، فإذا أرادَ أن ينصرَ المسلمين نَصَرَهم، وإذا شاء أن ينزل بهم الهزيمة هَزَمَهم، سواء في تلك المعركة أم في غيرها، وسواء في أي عملٍ حاضراً أو مستقبلاً. لأن الأمور كلها بيد الله، ولا يملك المؤمنون، ولا الناس أجمعون، لأنفسهم شيئاً إلا أن يشاء الله، لأن أمره يجري وفق سننه التي أقام عليها الكون، والحياة، وأجرى بها الأحداث. فكان حقاً أن تمضيَ الأمور وفقاً لقضاء الله وقدره، لأن الله على كل شيء قدير.

المسهم

٥ ـ الذين يخشون القتال كما يخشون عذاب الله

يقول اللَّهُ تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[1].

هذا بيان لحال فئة من المسلمين، كانوا يبدون استعدادهم للقتال، فيقولون للنبيّ: لِمَ نحتمل يا رسولَ الله كل هذا الأذى من المشركين ولا نقاتلهم؟ فكان ﷺ يقول لهم: «**لم أؤمر بعدُ بالقتال**»، ومن ثَمّ يوجههم إلى ما فيه صلاح نفوسهم وذلك بأن يدأبوا على إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر حتى يتحقق أمر الله تعالى في هذا الدين.

فلما فُرض القتالُ على المسلمين، وهم في المدينة، إذا فريق منهم يخشون مواجهة الكفار والمشركين كخوفهم عذاب الله وقت الموت، وربما كانت خشيتهم منهم أشدَّ من خشية الموت وعذابه. ومن جراء هذا الخوف الذي يلازم طبيعة البشر كانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾؟ أو يطلبون من ربهم أن يؤجّل موتهم وهم يدعونه قائلين: ربَّنا ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾!.. وهذا يعني أنهم كانوا يدركون دنوَّ الأجل وإن طال عمر الإنسان، لأنه أجلٌ قريب جدّاً بالقياس إلى عمر الحياة البشرية على هذه الأرض. ولكنَّ ذلك الخوف من الموت الذي كان يجعلهم يتخاذلون عن القتال إنما كان مردُّهُ إلى

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

المسهم

تعلقهم بمتاع الحياة الدنيا، وما فيها من الأطايب واللذائذ والمنافع التي تشدُّ إليها الإنسان وتُغريه. ولذلك يوجّه الله تعالى نبيه أن يقول لهم: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ مهما بدا في أعينكم كبيراً، وسوف يؤول إلى الفناء مثلما أنكم فانون، والآخرة في الجنة خير لمن اتقى، وعمل بأمر ربه وطاعته. وأنتم يا معشر المؤمنين سوف لا تُبخسون حقوقكم يوم الحساب، ولا تُظلمون ولو بمقدار فتيل (أي ولو بقدر شق النواة وقد سمي فتيلاً لأنه كالخيط المفتول) فهل ترغبون عن أجر الآخرة العظيم إلى متاع الدنيا القليل؟.

وهذا هو الهدف من الآية الكريمة: تصوير للنفس المؤمنة في تقلّبها بين الإيمان، وبين الخوف من المكروه. فقد يكون أشدُّ الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً ـ كما يظهرون في الأيام العادية ـ أشدَّهم جزعاً وانهياراً وهزيمة ـ عندما يجدُّ الجدّ وتقع الواقعة ـ فالاندفاع، أو الحماسة الفائقة غالباً ما يكونان منبعثين عن عدم التقدير الفعليّ والعقلانيّ للمواقف والتكاليف، لا عن شجاعة وإصرار على القتال. كما أنهما قد يكونان منبعثَين عن قلة الاحتمال لوطأة الضيق والأذى، فتدفع صاحبها إلى طلب الحركة والانتصار بأي شكل، دون اعتبارٍ لتكاليف الحركة والانتصار. حتى إذا واجهته هذه التكاليف، وكانت أثقل مما قدَّر، وأشقَّ مما تصور، كان أشدّ الناس فزعاً وجزعاً، وأكثرهم نكولاً وانهياراً.. ويَثبُتُ الذين كانوا يمسكون أنفسهم، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت، ويعدون للأمر عدّته، لمعرفتهم مقدار ما يكلفهم النصر، ومقدار ما تحتمل نفوسهم في سبيله. وهذا في الوقت الذي يعتبرهم المندفعون والمتهورون ضعافاً، ولا يعجبهم تمهلهم، ووزنهم للأمور. ولكن في المعركة يتبين أي

الفريقين أبعد نظراً، وأشدّ تحملاً وأكثر اندفاعاً في سبيل تحقيق النصر.

٦ ـ من قتل نفساً ظلماً فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

يقول الله تعالى:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾[1].

إنها حكاية أول جريمةِ قتلٍ حدثت على وجه الأرض، وارتكبها قابيل بن آدم عليه السلام بحق أخيه هابيل، لأنَّ الله ـ سبحانه ـ تقبَّل قربانَ هابيل المؤمن، ولم يتقبَّل قربان قابيل الجاحد.

ويبيِّن لنا السياق هنا ذلك الحوار الذي دار بين الأخوين، وقد عزم قابيل على قتل أخيه، فيقول له هابيل: لئن رفعت إليَّ يدك لتقتلني ظلماً وعدواناً من غير أن أرتكب خطأً بحقك، ومن غير أن أقترف ذنباً

(١) سورة المائدة، الآيات: ٢٨ ـ ٣٢.

المسهم

أو معصية بحقّ الله تعالى، فلن أمدَّ يديَ إليك لأقتلك، ولن أبادئك بظلم، إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن ترجع بإثم قتلي، وإثمَك الذي ترتكبه، فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.

وبذلك صوَّر هابيل لأخيه إشفاقه من جريمة القتل، ليثنيَهُ عما تراوده به نفسه، وليحذّره من هذا الذي يدفعه إليه هواه تجاه أخٍ له، مسالم، وديع وتقيّ. فقد عرض له وزر جريمة القتل، لينقذه منها، ثم زيَّن له الخلاص من الإثم المضاعف بالخوف من الله تعالى، وبلغ من هذا وذاك أقصى ما يبلغهُ إنسان في صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان. ولكن النموذج الشرير من الجنس البشريّ لم يأبَهْ لذلك النصح كله، فأصرَّ قابيل على ارتكاب جريمته وزيَّنت له نفسه قتل أخيه، فقتله وأصبح من الخاسرين في الدارين، لأنه خسر بذلك الدنيا والآخرة وذهب عنه خيرهما، وذلك هو الخسران المبين.

وبعد أن قتل قابيل أخاه لم يدرِ ما يصنع به، لأنه أول قتيل على وجه الأرض من بني آدم، فحمله على ظهره، وراح يدور به، حتى صار جسد أخيه جيفة ـ وهي السوأة ـ فبعث الله غراباً أمامه، راح ينبش التراب بمنقاره وبرجليه حتى حفر حفرة، ثم أهال التراب على غراب ميت حتى واراه، وذلك ليُريَ قابيلَ كيف يستر جيفة أخيه التي تركها حتى أنتنت.. فقال عندها قابيل: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي؟ فأصبح من النادمين. وربما لم يكن هذا الندم منه على الوجه الذي تكون فيه التوبة إلى الله تعالى، لأنَّ جريمته كانت مع سبق الإصرار والعمد، بل كان ندماً على التعب أو القلق الذي أصابه حين كان حائراً لا يدري ماذا يفعل بأخيه بعد أن

قتله، حتى بعثَ اللَّهُ تعالى له الغرابَ وعلَّمهُ طريقة دفن الميت.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلاَّ كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفلٌ من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل**»[1]. من أجل ذلك، أي وبسبب تلك الجريمة البشعة التي كان أول من ارتكبها قابيل، وتحريماً للقتل على العباد، لفداحة جرم القتل وحرمته، فقد حكم اللَّهُ تعالى على بني إسرائيل ـ لعلمه سبحانه بأنهم أكثر الناس حباً للقتل، أو أكثرهم قتلاً للآخرين ظلماً وعدواناً ـ بأنه من قتل نفساً بغير استحقاق للقتل ـ أي ظلماً واعتداءً ـ أو من قتل شخصاً بغير فسادٍ أتاه في الأرض من كفرٍ، أو زنى، أو خيانة الوطن أو الأمة وغيرها من القبائح والشرور التي تفسد النفوس، وتزري بالناس.. فكأنما قتل الناس جميعاً.

ومن أحيا نفساً فخلَّصها بعد أن كانت على وشك الموت، أو ساعد نفساً على أن تتحرر من الكفر أو الشرك أو ردَّها عن نشر الفساد في الأرض، فكأنما أحيا الناس جميعاً من القتل، أو كأنما حررهم جميعاً من تلك الموبقات التي كان يمكن أن يوقعهم بها الفاسدون.. من أجل ذلك فإن من يقتل إنساناً ظلماً وعدواناً، فإنَّ الناس جميعاً يصيرون وكأنهم خصماء للقاتل، لأنهم يشعرون وكأنما القاتل لا يتورع عن أن يقتل أياً منهم إذا واتته الصدفة لذلك..

وبالمقابل فإن من يستنقذ إنساناً من غرق أو حريق أو مرض، أو أية شدة أخرى قاتلة، أو من يهدي إنساناً من ضلال أو كفر، أو من

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٣٠٤.

المسهم

يصلح فاسداً أو فاسقاً أو فاجراً فيبعده عن زلل أو معصية.. فإنَّ له، في كل من تلك الحالات، من الأجر ما يوازي أجره لو أنقذ الناس جميعاً، أو لو أصلح الناس جميعاً؛ لأنه بإحياء النفس المحترمة، أو بإصلاح النفس السيئة يكون وكأنه قد أسدى معروفاً لهم جميعاً. ويؤيده قول رسول الله ﷺ: «**من سنَّ سنة حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»(١).

والقتل في كل حال، هو إهانة للحياة التي كرَّمها اللَّهُ تعالى، وهتك لحرمتها، ولا فرق بين الواحد والجمع في ذلك.. وفي هذا تعظيم لشأن النفس. وبذلك يمتنع الناس عن الإساءة عليها، ويرغبون في المحاماة عن حرمتها، لأن المتعرِّض لقتل النفس، إذا تصور أنه بهذا القتل كأنما قتل الناس جميعاً، عظم عليه ذلك فثبَّطَهُ، وكذلك من أراد إحياءها عظم في عينه ذلك فشجَّعَهُ. ولذا فإن قاتل النفس ظلماً جزاؤه جهنم، كأنه قتل الناس جميعاً.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا تواجَهَ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»(٢)..

من هنا يتبيّن لنا حكم الله على بني إسرائيل الذين جاءتهم رسلُ الله بالمعجزات الكثيرة، ولكنهم كانوا كلما جاءتهم معجزة ألحُّوا في طلب المزيد، ولجّوا في الكفر، وتمادوا في القتل، وفي التعدي على

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٥.
(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢٢٨٣.

المسهم

حقوق الناس، فكانت فعالهم تجاوزاً لحدود الله تعالى وإسرافاً في الظلم ونشر الفساد في الأرض..

٧ ـ العقاب يكون بمثله، والصبر خيرٌ للصابرين

يقول اللَّهُ تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

إنه التوجيه من رب العالمين لعباده في كيفية إنزال العقاب بالمجرمين. فإن أراد أحَدٌ معاقبة الذي اعتدى عليه فليعاقبه بمثل ما عوقب به ولا يزيد عليه: النفس بالنفس، وفي القصاص حياة يا أولي الألباب. وهذا العقاب لا يكون من المعتدى عليه مباشرةً، بل يرفع أمره للحاكم الذي يقضي بالعدل وبما أنزل الله تطبيقاً لقاعدة المماثلة القرآنية في العقاب.

وقيل إن هذه الآية نزلت بعد معركة أحد.. ذلك أن المشركين لما مثَّلوا بقتلى المسلمين ومنهم حمزة بن عبد المطلب ـ عم النبيّ وأسد الوغى في سبيل الله ـ حيث شقوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة كبده ولاكتها، ثم جدعت أنفه وأذنه، جاشَ الغضب في نفوس المسلمين وقالوا: لئن أمكننا اللَّهُ تعالى منهم لَنُمثِّلَنَّ بالأحياء منهم قبل الأموات، فنزلت الآية المباركة تنهى عن التمثيل، وأن يكون عقاب القتل بالقتل فقط..

ثم إن الآية الكريمة هي حكم عام في كل ظلم أو اعتداء أو غصب أو نحوه. فالمعتدي، أو الظالم أو الغاصب إنما يجازى فقط

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

المسهم

بمثل فعله.. ولكنَّ ترك القصاص أو العقاب، والعفو مع المقدرة فذلك عمل الصابرين الذين يصبرون على ما أصابهم من ألم ومرارة. وفي هذا العفو مع الصبر على البلاء، خير للصابرين لأنه ينيلهم جزيل الثواب، بسبب ما يحتاجه الصبر من مقاومةٍ للانفعال، وضبط لهيجان الغضب، وهو ما يستدعي جهوداً نفسية تكون غالباً مضنية، فلا يمكن احتمالها لولا نعمة الصبر على الإنسان.

فالقاعدة إذن هي القصاص بالمثل. ولكن القرآن الكريم يدعو إلى العفو كلما كان الإنسان قادراً على هذا العفو. كما يدعو إلى الصبر على البلاء والشدة، ولا سيما في حالة استعداد الجماعة المسلمة أو ترقبها لدفع الشر ووقف العدوان، فيكون الصبر في مثل هذه الحالات أعمق أثراً، وأكثر فائدة للدعوة. فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر الصبر، أو إذا كانت مسيرتها تستدعي العفو، فكان لزاماً عليهم الاحتمالُ من أجل ذلك، أمَّا إذا كان العفو والصبر يُهينان دعوة الله ـ سبحانه ـ ويرخصانها، فالقاعدة الأُولى ـ أي القصاص بالمثل ـ هي الأَولى. وفي جميع الحالات فإن الصبر على الابتلاء لهو خير للصابرين.

أما في حالة من عاقب بمثل ماعوقب به، ثم بُغي عليه من جديد، فإن حكمه أن ينال نصرَ الله، كما يبيّنه لنا قوله الكريم: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[1].

أي أن ذلك الأمر الذي قصصناه عليك يا محمد مِنْ أنَّ مَنْ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٠.

المسهم

عاقب وجازى الظالم بمثل ما ظلمه، أو قاتل المشركين كما قاتلوه ثم بُغيَ عليه بزيادة الظلم والعدوان ـ كما حصل مع المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وبغياً عليهم لأنهم آمنوا بك رسولاً لدين الله الحق ـ فإن اللَّه تعالى ينصره على الباغي عليه، لأنَّه سبحانه عفوٌّ عن المؤمنين، غفور لهم لقتالهم في الشهر الحرام دفاعاً عن دعوتهم وأنفسهم، وهو تعالى متجاوزٌ عن التائبين المنيبين، يغفر الذنوب لمن فارقوا الشرك ودخلوا في الإسلام فأصلحوا أمورهم مع الذين كانوا قد بغوا عليهم وظلموهم، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.. ومن هنا نرى أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى شرط هذا النصر بأن يكون العقاب قصاصاً على اعتداء، لا عدواناً ولا بطراً، على أن لا يتجاوز العقاب ما وقع من العدوان، فيكون بلا زيادة أو مغالاة.. ولكن ما جزاء من يعفو عمن ظلمه؟ إن الله تعالى العادل لا يترك شاردة ولا واردة، وقد جعل سبحانه الأجر في نهاية المطاف للعافين بالمعروف، فقال تبارك وتعالى:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ يعني القصاص في الجراحات والدماء. وقد سمَّى سبحانه الثانية سيئة لأنها في مقابلة الأولى كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾؛ فالسيئة هي المكروه، ومن نال غيره بمكروه فعقابه بمكروه مثله..

ثم ذكر سبحانه العفو، فقال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

المسهم

أي من عفا عمَّن له عنده حق، وأصلح الأمر فيما بينه وبين المعفوِّ عنه، فثوابه على الله، والله ـ سبحانه ـ يأجره لا محالة، وهو تعالى لا يحب الظالمين، البادئين بالظلم فيرتب عليهم عقابه. والله سبحانه وتعالى، وهو اللطيف بعباده، يحب من عبده المؤمن أن يملأ قلبه باللطف، والرحمة، ولذلك فإنه يحثه على العفو لا ترغيباً للمظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى هذا الظالم، أو لأنه يؤثره فيريد له العفو، ولكن ليُنعم على المظلوم من خلال عفوه عن الظالم، بجزيل الثواب، ولكي يحضّه على حب الإحسان والفضل. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: من كان أجره على الله فليدخل الجنة. فيقال من ذا الذي أجره على الله؟ فيقال: العافون عن الناس، فيدخلون الجنة بغير حساب**»[1] فهذا هو ثواب من أجره على الله (تعالى) الذي ورد في الآية الكريمة، يبيّنه رسول الله ﷺ ليعلم الناسُ، والعافون منهم خاصة، مقدار ذلك الأجر، إذ يدخلون الجنة بغير حساب، فهل أعظم من ذلك أجراً وثواباً ورحمة؟

٨ ـ الخوف من القتال يجعل عيون المنافقين تدور وهم ينظرون إلى الرسول كالذي يُغشى عليه من الموت

يقول الله تعالى:

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٢١١٩.

المسهم

يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

يبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمعوّقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة، وهم يدعون إخوانهم المنافقين، ممَّن أظهروا الإسلام مثلهم رياءً وخوفاً، إلى القعود في منازلهم، وعدم الخروج إلى القتال، فيقولون لهم: هلموا إلينا ولا تحاربوا، وخلُّوا «محمداً» فإنّا نخاف عليكم الهلاك. ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يشهدون الجهاد إلاَّ لِماماً.. فهم مكشوفون لعلم الله، ومكرهم غير خافٍ عليه تعالى.

ثم يأتي البيان لإبراز سمات هذا النموذج من البشر بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي في نفوسهم بخل شديد بالجهد والمال، وكزازة بالتعاطف والمشاعر مع المؤمنين. فإذا حلَّ الخوف بقلوبهم، عندما يجدّ الجدُّ رأيتهم ينظرون إليك ـ يا محمد ـ وأعينهم تدور كالذي يُغشى عليه من الموت. وهي صورة واضحة الملامح يعرفها الأطباء تمام المعرفة عند الذين يشارفون على الموت، إذ تدور أعينهم في محاجرها بحركة غير عادية، وغير مألوفة، يستدلون بها على أن الموتَ حالّ لا محالة. أما عند المنافقين فهي دليل على شدة الخوف من الموت في القتال.. ولكن هذا الخوف الذي سرعان ما يتبدّد من نفوس أولئك المنافقين، بعد أن يتبدَّل الوضع، ويجيء الأمن إنما يثير السخرية فعلاً.. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ فخرجوا من

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

المسهم

القعود والاختباء، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة، وادعوا، في غير حياءٍ، البلاء في القتل، والشجاعة والاستبسال في المعركة. ثم لا يقف بهم هذا الغرور الفارغ عند حدِّ الاعتداد بأنفسهم، والتشوُّف على المؤمنين الصادقين، بل يذهبون إلى إيذائهم بالكلام، ومجادلتهم بألسنة سليطة ذربة.. فهؤلاء المنافقون هم فعلاً أشحةٌ على المسلمين بالخير، بخلاء في أي بذل أو عطاء، يشاقُّونهم عند قسمة الغنائم.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ حقيقة، وإنما كان إظهارهم للإيمان نفاقاً، فأحبط الله أعمالهم، لأنها لم تكن أعمالاً يستحقون عليها الثواب، ولم يقصدوا بها وجه الله تعالى. وكان ذلك الإحباط على الله يسيراً، هيّناً.

أما دأبهم، وفي كل مرة تحزب الشدة على المؤمنين، ويكونون بينهم، فهو كما وصفهم اللَّهُ سبحانه وتعالى بقوله العزيز ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم يظنون أن الكفار لم يذهبوا بعد إلى مكة، ولم يفارقوا الأرض من حول المدينة، وذلك من شدة خوفهم أن يتكتلوا ويعيدوا الكرة في غزوهم.. بل ويتمنون، إذا رجع الأحزاب كرة أخرى، لو أنهم كانوا في البادية، بعيدين عن أجواء القتال يسألون عن أخباركم وماذا حلَّ بكم من هزيمة أو نصر، ليرسموا على أساسه ماذا يدَّعون، وماذا يقولون.. وهم في الحقيقة، وواقع الأمر لو كانوا معكم ما قاتلوا إلاَّ قدراً يسيراً، دفاعاً عن أنفسهم، لا حباً بنصر دين الله، ولذلك كان قتالهم في كلِّ مرةٍ يشاركون فيه قتالَ رياءٍ، وخوفاً من التعيير ليس أكثر.. وهذا النموذج من البشر كان معايشاً للجماعة الإسلامية

المسهم

الناشئة، ومنخرطاً بين صفوفها في المدينة المنورة. وهو النموذج الذي ما زال يتكرر في كل جيل وكل قبيل، بنفس الملامح، وذات السمات..

الفقرة السابعة ـ تداول الأيام بين الناس لا يصيب المؤمنين ألمٌ إلا وأصابَ أعداءَهُم ألمٌ مثلُهُ

يقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

قول الله تعالى هو الحق من ربكم أيها المؤمنون. وهو سبحانه وتعالى يواسيكم من عليائه، ويحثكم على الصبر والتأسي في القتال والشدة، وينهاكم عن الوهن واليأس، فإن الغلبة ستكون في النهاية لكم، والنصرُ وعدٌ مؤكد منه، وحسنُ العاقبة لكم في كلِّ حال..

﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ فهو أمرٌ منه سبحانه وتعالى بألاَّ تضعفوا عن قتال الكفار.. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما أصابكم أو ما قد يصيبكم وأنتم تجاهدون وتقاتلون في سبيل الله ربكم، فإنْ لاقيتم الشدائد، وويلات القتال، فأنتم دائماً ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي أنتم المنتصرون الظافرون لأنكم على الحق، وهم على الباطل. وستكون لكم الغلبة بإذن الله في النهاية، إن كنتم مصدقين بوعدْ الله تعالى بالنصر والثواب..

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٩ و١٤٠.

المسهم

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ إن يصبكم جرح، أو ألم أو نصَبٌ ﴿فقد أصاب﴾ أعداءكم مثله. وقيل إن هذه المواساة قد نزلت من رب العالمين على ما أصاب المسلمين في يوم أحد. عن ابن عباس قال: «لما كان يوم أحد صعد أبو سفيان الجبلَ يريد التباهيَ على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهم لا يَعْلُنَّ علينا، اللَّهم لا قوة لنا إلاَّ بك»**.. فنادى أبو سفيان بملء صوته: يوماً بيوم، وإن الأيام دول وإن الحرب سجال.. فقال ﷺ: **«أجيبوه»**. فقالوا: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فقال: لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال النبيُّ ﷺ: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»**. فقال أبو سفيان: أعلُ هبل. فقال النبيُّ ﷺ: **«الله تعالى أعلى وأجلّ»**[1]. وانصرف أبو سفيان. ودارت الأيام، حتى تحقق النصر للمسلمين، وانتشر الإِسلام مع الأيام في مشارق الأرض ومغاربها..

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وذلك بتصريف الله تعالى للأيام بين المسلمين والكافرين، بتخفيف المحنة على المسلمين أحياناً، وتشديدها عليهم أحياناً أخرى؟ وليس بنصرة الكفار عليهم، لأن الله تعالى لا ينصر الكافرين على المسلمين، إذ إن النصرة تدل على المحبة، والله تعالى لا يحب الكافرين، ولا الظالمين المعتدين، فلا ينصر هؤلاء على المؤمنين الذين يحبون الله ورسولَه، ويحبهم الله ورسولُهُ.. فالقاعدةُ إذن أن النصر من عند الله، لأنه هو وحده الذي يملك أسباب القوة والسلطان، وأسباب الغلبة والنصر. وهو سبحانه دائماً في جانب من يجاهد لإِعلاء كلمته وجعلها هي العليا، وجعل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣. ص٩٩.

المسهم

كلمة الذين كفروا هي السفلى. . وإنما جعل سبحانه أيام الدنيا متقلبة، كي لا يطمئن المؤمن إليها دائماً، ولتقلّ رغبته فيها وحرصه عليها، إذ يَفْنى عَرَضُها في نظره، فينصرف إلى مرضاة الله تعالى الذي يقوده إلى نعيم الآخرة الذي لا يفنى.

وإن في مداولة الأيام بين الناس، ما يجعل الدّولة حيناً للمؤمنين، وحيناً عليهم، ليدخل الناس في الإِيمان على الوجه الذي يدعوه هذا الإِيمان، لا على أساس النفع والفائدة، لأنه لو كانت الدولة أبداً للمؤمنين لكان الناس يدخلون في الإِيمان على سبيل اليُمْنِ والفأل والمنفعة، وبذلك لا يتحقق الدافع الإِيمانيّ الصحيح. . أما إذا وجد هذا الدافع في وقت الشدة، كما هو في وقت الرخاء فذلك هو الإِيمان الحق الذي يعلي شأن المؤمن، ويجعله عند ربه من المقرَّبين. .

هذا مع الملاحظة بأن كل موضع حضره النبيُّ ﷺ لم يخلُ من ظفر إما من ابتداء الأمر، وإما في نهايته، ليتأكد للمؤمنين وعد الله الحق بالنصر من عنده سبحانه.

ثم إن في مداولة الأيام بين الناس سنّةً لله تعالى في خلقه، وهي أنَّ الدولة تكون لهؤلاء أو لأولئك وفقاً للنوايا والأعمال. فإن صفت النوايا، وطهرت القلوب، صلحت الأعمال وارتفعت الأفعال، أما إن انطوت السرائر على الغش والمنافع الذاتية دون مصلحة عقيدة التوحيد، أو دون مصالح الجماعة، فإن الجهود تتفرّق، والإِرادات تتبعثر، وتهزم الجماعة لتحلَّ في الدولة جماعة غيرها. .

ثم إن في مداولة الأيام أمراً أراده اللَّهُ تعالى من عباده وقد بيَّنه في قوله الكريم مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ

المسهم

مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، ليعلم الله المؤمنين من الكافرين. فاستغنى بذكر أحدهما (المؤمنين) عن الآخر (الكافرين)، يعلمهم بما يظهر من صبرهم على الشدة والبلاء، وبما يتفانون فيه إبان الجهاد في سبيل الله تعالى، موقنين أن ما يصيبهم من خيرٍ فبإذن الله، وما يصيبهم من كربٍ فبعلمه سبحانه. . وعِلْمُ الله تعالى بالمؤمنين، لا يعني أنه ـ سبحانه ـ لم يكن عالماً بهم، فهو يعلمهم قبل إظهار إيمانهم وبعده؛ يعلمهم قبل إظهارهم الإِيمان أنهم يتميزون بالإِقبال عليه، فإذا أظهروه علمهم متميِّزين، وهم علموا أنفسهم بهذا التمييز عن الكافرين. واللَّهُ تعالى، الخالق للإِنسان، يعلم في غيبه المستور ـ جِبِلَّة وطبع كل فرد بشريّ، فهو يعلم المؤمن والكافر قبل أن يظهرا للناس على حقيقتهما، فإذا ظهرا وتميَّزا علم بهما متميِّزين معروفين للناس. .

وإذا كان اللَّهُ تعالى يعلم المؤمنين، ويعلم الكافرين في طبائعهم وقلوبهم، وفي أفعالهم وتصرفاتهم، فإنَّ في مداولة الأيام بين الناس جميعاً حكمةً أخرى، وهي أن يتَّخذ من المؤمنين شهداء على الآخرين كلما استدعت أيام المداولة الشهادة والتضحية في سبيل الله. ففي كل حين يبقى الحق متصارعاً مع الباطل، والمؤمنون هم أنصار الحق، والكافرون والمنافقون وأمثالهم أنصار الباطل. وتتقلّب الأيام بين هؤلاء وهؤلاء، وتنشب النزاعات، وقد تصل إلى مستوى القتال والحروب، ويسقط القتلى من المؤمنين، ولكن هؤلاء ليسوا قتلى عاديين عند الله، بل كان قتلهم ليتخذ الله من المؤمنين شهداء على الظالمين والمجرمين سواء في تلك المعارك القتالية، أم في تلك المعركة الدائمة الدائرة ما بين الحق والباطل. وشهادتهم تكون على ما عاينوا من طاعة أو عصيان، نظراً لما لهم عند ربهم (تبارك وتعالى) من

مرتبة عالية، ومقام رفيع على غيرهم من الناس. فالشهداء الصرعى في القتال من أجل نُصرة دين الله تعالى، والشهداء للحق في وجه الظالمين والجائرين هم الذين يبذلون عادة المهج والأنفس، بل وكلَّ غالٍ ونفيسٍ من أجل الغاية الكبرى التي هي رضوان الله عزَّ وجلَّ، فحق لهم أن يختارهم ربُّهم ويكرمهم على غيرهم بشهادة الموت في الدنيا، وبالشهادة على ظلم المجرمين والجبارين يوم يقف الناس للحساب بين يدي رب العالمين.

وفي النتيجة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على ظلمهم، أو كفرهم، أو فسادهم، أو عصيانهم.. إلخ ففي فاتحة كتاب الله التي يرددها المؤمنون في صلواتهم، وفي كل مناسبة فيها إيمان وتقوى يدعون الله أن يهديهم الصراط المستقيم، وقد بيّنه تعالى بأنه صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. والمغضوب عليهم هم الذين لا يحبهم الله تبارك وتعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة. فإذا رأينا للظالمين، والمغضوب عليهم، والضالّين غلبةً أو ظهوراً في تداول الأيام بين الناس، فذلك يكون استدراجاً لهم، لا تأييداً ولا محبة من الله (تعالى)، لأن العاقبة الحسنة للمؤمنين المتقين، فإن لم تكن في هذه الحياة الفانية، فهي لهم في الحياة الآخرة في ميزان العدل الإلهيّ.

وهكذا فإن القرآن الكريم يردُّ المسلمين هنا إلى سنن الله التي تتحرك بها الأمور في الأرض. فأمور الناس جارية لا تتخلف، ومقدَّرةٌ لا تمضي جزافاً، وفي خلال ذلك تجري الأحداث، وتظهر الوقائع، وتستبين الغايات. فإذا استشرف المؤمنون خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، وتقيدوا بالسنن التي تتحرك فيها الأحداث،

وأخذوا بأسباب النصر الذي يريدونه، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، حازوا فعلاً النصر والتمكين، لأنهم يكونون في الحقيقة قد ساروا على طاعة الله وطاعة رسوله، وعملوا على إعلاء كلمة الله.

ومن السنن التي يشير إليها السياق هنا ويوجه الأبصار إليها هي عاقبة المكذبين على مدى التاريخ. فمن مداولة الأيام بين الناس، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر لدى المؤمنين على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين لا بد وأن يكون من نتائج ذلك كلّه محقُ المكذبين والظالمين.

وفي استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال، والمواساة في الشدة وتحمُّل القرح الذي لم يصب المؤمنين وحدهم، وإنما أصاب أعداءهم كذلك، وهم ـ على كلِّ حالٍ ـ أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً، وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً، والعاقبة ستكون حتماً بإذن الله لهم، والدائرة ستدور بإذن الله على الظالمين لأية فئة أو طائفة انتسبوا، أو لأي مبدأ أو عقيدة انتموا.

الفقرة الثامنة ـ اليهود في عداوتهم للإسلام

١ ـ بئس مثلُ اليهود الذين كذَّبوا بآيات الله (تعالى)

يقول الله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

المسهم

من خصائص التشبيه القرآنيّ دقته في انتقاء التعابير لإعطاء صورة جلية، واضحة وأخّاذة عن المعنى أو المعاني التي يريد إبرازها، وإظهار الأهداف المقصودة منها، بحيث لا يسع العاقل العارف إلاّ أن يقف خاشعاً لقول الله عزّ وجلّ، مبهوراً ببلاغة الأداء وعظمة البيان.
ومن تشابيه الأمثال القرآنية، وصورها الحسية، ما يعبّر عن واقع اليهود في عدم الأخذ بالتوراة التي تضمنت الشريعة التي نزلت على موسى عليه السلام. فاليهود أُخذ عليهم العهد بأن يحملوا التوراة، ويؤمنوا بما فيها من عقيدة التوحيد، ويعملوا بما احتوت من الشريعة الصالحة للمعاش والمعاد، كما أنزلها رب العالمين. ولكن اليهود لم يقدّروها حق قدرها، ولا اهتدوا بها، أو انتفعوا بما فيها من خير وصلاح، بل عملوا بعكس ذلك فغيّروا كثيراً مما أنزل فيها وبدّلوه. وتعدّوا حدود الله (تعالى)، فزوّروا ما شرع لهم من الدين بما أُشربوا في قلوبهم من الوثنية، التي استحوذت عليهم، فأقبلوا على عبادة العجل لمجرد أن فارقهم النبيُّ موسى لملاقاة ربه.. ثم جرّتهم تلك الوثنية التي لم تفارق قلوبهم إلى الطمع في زخرف الدنيا، والابتلاء بحب المال، فكانا عاملين إضافيين في ضلالهم عن الحق، وتعمية بصائرهم عن الهدى، فاستمروا في مطامعهم وأهوائهم لاهثين وراء المال، والتعدّي والتسلط على مقدرات الناس وحقوقهم؛ أي أنهم رضوا بالدنيا عن الآخرة حتى صار مثلهم في حمل التوراة ـ كتاب الله الكريم الذي أنزل لهديهم ـ كمثل الحمار، يحمل على ظهره الكتب القيمة في الحكمة والمعرفة والعلم، من غير أن يحسَّ أو يعرف ما يحمل، ومن غير أن ينتفع بأدنى شيء من فوائد ما يحمل من الكتب.

وينطبق هذا المثل على كل من يقتني القرآن الكريم مِنْ غير أن

المسهم

يتلوه ويفقه معانيه، ومن غير أن يتفكّر في تدبّر آياته، فكيف بمن أَعْرضَ عنه إعراضَ من لا يحتاج إليه، أو حمله كما حمل اليهود التوراة؟ فلا ينبغي أن يكون المسلمون كاليهود الذين هجروا كتابهم السماويّ، وعملوا بخلاف ما فيه، حتى حقَّ عليهم قول الله تعالى بأنهم ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فذمَّهم الله (سبحانه) على ذلك، وأبعدهم عن سابغ رحمته، ونور هداه، لأنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين، وهم قد ظلموا أنفسهم باختيارهم الضلالة على الهدى، وبتكذيبهم لآيات الله (تعالى)، فكان جزاؤهم غضباً ولعنةً من العزيز الحكيم يحلان بهم إلى يوم الدين.

٢ ـ ثم قست قلوب اليهود من بعد معجزة البقرة فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً

يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

يورد السياق القرآنيّ قبل هذه الآية الكريمة المعجزة الكبرى التي رآها اليهود بأم العين، والتي تدل على قدرة الله (تعالى) في إحياء الموتى، وذلك عندما أمرهم الله أن يضربوا قتيلاً لهم بأجزاء من بقرة، فأحياه اللَّهُ الذي يحيي ويميت، فدلَّ القتيلُ على قاتله، ثم أماته الله لساعته.. ولم تكن تلك المعجزة هي الوحيدة التي أتاها العليّ القدير لبني إسرائيل ليُثْبتوا على صدق الإيمان.. فهم قد رأوا معجزات غيرها كثيرة: كإنفلاق أمواج البحر ليعبروا من بينها على أرضه، وينجوا من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

المسهم

ظلم فرعون وطغيانه.. وتفجّر الماء من الصخرة وانبثاق اثنتي عشرة عيناً منها، يشرب من كل عين سبط من أسباطهم الاثني عشر.. ودكّ الجبل حين تجلّى عليه نور الله العظيم فخرَّ موسى عليه السلام صَعِقاً هو ومن رافقه من علماء بني إسرائيل.. وإنزال المنّ والسلوى عليهم من السماء ليأكلوا وهم تائهون في الصحراء القاحلة المقفرة..

كل تلك المعجزات ـ وما أعظمها ـ رآها بنو إسرائيل بأم العين وتحققت منها أجيالهم، ومع ذلك لم يؤمنوا.. فلما حصلت معجزة البقرة المدهشة، وظلّوا على ضلالهم، أظهر اللَّهُ (تعالى) ما تكنُّه قلوبهم من الأهواء والنزعات التي أبعدتهم عن الهدى والإيمان، فقال سبحانه مخاطباً إياهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد معجزة البقرة، حتى صارت في قساوتها كالحجارة أو أشد قسوة.. وهذه الصفة التي أورثهَا العليم الحكيم لقلوبهم إنما هي مثلٌ لنبوّ تلك القلوب عن الاعتبار، وعن الاتعاظ، فلا يؤثر فيها شيء.. فما دامت المعجزات العظيمة لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل، فما يؤثر فيها بعد ذلك؟ من أجل ذلك شبَّه قلوبهم بالحجارة لكونها صلبة قاسية، بل هي أشدّ قساوة من الحجارة لأن من الحجارة ما قد يلين ويرقّ بفعل عوامل معينة، ومنها ما فيه شقوق أو ثقوب يتسرب منها الماء، ومنها ما ينشقّ، طولاً أو عرضاً، حتى تنبجس منه العيون أو تتفجر الينابيع والأنهار، ومنها الجبال الصخرية الصمّاء التي تتفتّت وتهبط من خشية الله تعالى ومن ذكره العظيم.. فإذا كانت الحجارة والصخور والجبال على صلابتها وقوتها أقل قساوة من قلوب اليهود، فأنَّى لهذه القلوب أن تخشع أو تلين لذكر الله، ولآيات الله مهما رأت من معجزاته الدالة؟ وأنَّى لها أن تؤمن وقد أغلقت على قسوة الضلال؟ وأنَّى لها أن تعبد

المسهم

اللَّهَ العزيز الجبار وقد امتلأت بالبهتان؟ وأنَّى لها أن تصدق ببعث محمد ﷺ وقد قتلت من قبله الأنبياء وكذَّبت المرسلين؟

نعم أي قلوب قاسية تلك التي يحملها اليهود في صدورهم؟ لقد وصفها رب العالمين بأنها كالحجارة في قساوتها أو أشد قسوة!..

وعن الحديث النبويّ الشريف: **«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»**[1]. وقوله ﷺ: **«أربع من الشقاء: جحود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا»**[2].

ولأن قلوب اليهود قاسية، لا تنبض بخشية الله، فهي قلوب مجدبة كافرة، ولذلك كان تهديده عزَّ وجلَّ لهم: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من التمرد والفسوق، والالتواء واللجاجة، والقسوة، وغيرها من أعمال الضلال والباطل. فأعمالكم هذه أيها اليهود، ليس اللَّهُ (تعالى) بغافل عنها، أو مهملها، ولكنه سبحانه يؤخركم إلى الأجل الموعود، لتروا عقاب ما تضمرون وما تعملون..

٣ ـ من عادات اليهود الموروثة أنهم يأخذون متاع الدنيا الأدنى وإن يأتهم متاع مثله يأخذوه

يقول الله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن

(١) رواه أحمد بن حنبل، رقم٢٤٠.
(٢) سنن الترمذي، ج٣، ص٦٠.

لَا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

يبيّن اللَّهُ سبحانه وتعالى أنه خَلَفَ، من بعد قوم موسى عليه السلام، خلفٌ ورثوا التوراة عن أسلافهم.. ولكنهم لم يعملوا بهذا الكتاب، بل انصرفوا عنه إلى عرض الدنيا، أي متاعها، وزينتها وزخرفها، يأخذون منه العاجل لمجرد أن يأتيهم أو أن يقدروا على أخذه، ولو كان دنيئاً، ويتّبعون الزائف من القول والفعل ولو كان عرضياً وزائلاً، مما جعلهم يرتكبون المعاصيَ ويسلكون طرق السوء مثل الغش والخداع، والربا والرشوة، والفتنة والدسّ، والظلم والعدوان.. إلى آخر ما هنالك من المنكرات، وكلها من أعراض هذا العالم الأدنى الذي هو الدار الفانية. وعن ابن عباس أنه قال: «الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، وجميع متاع الدنيا عرض».. إذن فاليهود قد فتنوا بمتاع الدنيا فأخذوه دائبين، مصرّين، وهم يقولون: سيغفر لنا! أي أن اللَّهَ سيعفو عنّا. وقد اختبأوا وراء هذا الظن الكاذب، ليتمادوا في الإقبال على هذه الدنيا، فكلما يأتيهم عرضٌ مثل الذي كانوا يفعلونه يبادرون إلى أخذه، والعمل به على الرغم من معرفتهم أنَّ فيه معصية، ثم يقولون من جديد: يغفر الله لنا!... وهذا مما يدلُّ على أنه لم يكن يشبعهم شيء من حلال أو حرام، بل يأتون بكل ما تسوّل لهم أنفسهم على أمل المغفرة!... ولكن ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في الأحكام الميثاقُ في التوراة بألاَّ يكذبوا على الله، وألاَّ يحرّفوا الكتاب، وألا يضيفوا إليه غيرَ ما أنزله على رسوله

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.

المسهم

موسى عليه السلام من الوعد والوعيد؟ ثم ألم يعلموا أنه ليس في التوراة وعد بالمغفرة مع الإصرار على الذنوب؟

لقد درسوا التوراة وعرفوا ما فيها، ولكنهم تركوها، وعملوا بخلافها. ولذلك لم تتأثر بها قلوبهم، ولا استقامت بعدها فعالهم. وهذا هو شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس، وعلم يحفظ، دون رعاية حق الله تعالى، أو العمل بما أنزل فيها من أحكام الهدى والإيمان، والعلم الصالح. فكم من الدارسين للقرآن الكريم وقلوبهم عنه بعيدة؟ إنهم يدرسونه ليتأولوا حقائقه، ويحرفوا معانيه وصولاً إلى المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا، بينما الآخرة خير وأبقى.. إذ لا شيء يعدِّل في النفس البشرية الرغبةَ الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض، أو يحجزها عن الطمع والجشع، أو يكفها عن الظلم والبغي، أو يهدىء فيها هياج الرغائب والشهوات إلا اليقين بالآخرة، وأنها خير للذين يتقون. ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ فذلك هو الذي يجب أن تتفكروا به وتعقلوه أيها الناس حتى تؤثروا الآخرة على أعراض هذه الدنيا الفانية.

٤ ـ قول المشركين الأميين مثل قول اليهود، ومثل قول النصارى

يقول تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

المسلم

وقالت اليهود: ليست النصارى على شيء من العقيدة، أو على شيء يمكن أن يُعتدَّ به، ولن يدخل الجنة إلا اليهود! وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء من الدين، أو على شيء يمكن أن يُعتدَّ به، ولن يدخل الجنة إلا النصارى! كما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]. فكان كل أهل ديانة منهما يدّعون أنهم على حق، وغيرهم ليس على شيء. وهذا يعني أن اليهود لم يعترفوا ببعث النبيّ عيسى ابن مريم ولا بالإنجيل الذي أنزل عليه؛ وأن النصارى لم يؤمنوا بما في التوراة، وبالتعاليم والأحكام التي يعمل بها اليهود.. مع أنهم جميعاً من أهل الكتاب، وكل يتلون كتابهم الذي يوجب عليهم التصديق بالرسالات السماوية التي أنزلها ربنا تبارك وتعالى على النبيين والمرسلين جميعاً. ولعلَّ في هذا الإنكار من أهل الديانتين لبعضهما البعض ما ينبِّه المؤمنين بألاَّ تدخل عليهم الشبهة منه بشيء، لا بل إن إيمانهم بالأنبياء والمرسلين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم أو أشار إليهم هذا الكتاب المجيد هو من صلب العقيدة الإسلامية لقول ربهم تبارك وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].. فهذا إيمان أهل الإسلام الذين لا يفرقون بين أحد من رسل الله؛ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ بحيث يُبعد عنهم أية شبهة في الإيمان ببعض الرسل، والكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

المسهم

وإيمانهم هو الحق من ربهم الذي يسمعون آياته فيطيعونها، ثم يسألونه الغفران، ويوكلون إليه مصيرهم في الآخرة..

وكما أنكر اليهود حقيقة ما أنزل في الإنجيل فقالوا: ليست النصارى على شيء، وكما أنكر النصارى حقيقة ما أنزل بالتوراة فقالوا: ليست اليهود على شيء، كذلك قال المشركون من عرب الجاهلية مثل قولهم، عندما كانت آيات القرآن تتلى عليهم، إذ لم يؤمنوا بالنبيّ محمد ﷺ، ولم يصدقوه لأن جهلهم أبعدهم عن العلم بحقيقة الإسلام وهداه، فقالوا مثل قول أهل الكتاب.

وبذلك يكون النص القرآنيّ قد ساوى بين الذين كانوا يعلمون صفة النبيّ الأُميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ولكنهم عاندوه (كاليهود والنصارى) وبين المشركين الذين لم يكونوا يعلمون شيئاً عن دين الله وهو الحق المبين (مثل عرب الجاهلية).

والنصُّ القرآنيّ لا يمكن تخصيصه بيهود المدينة، أو نصارى نجران لمّا تناظروا بين يدي رسول الله ﷺ، بل جاء نصاً عاماً يواجه مقولات اليهود والنصارى، ويَجْبَهُ هؤلاء بهؤلاء، ثم يحكي رأي المشركين في الطائفتين معاً. والمشركون هم الذين وصفهم القرآن بأنهم لا يعلمون: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي هم الأميّون من العرب الذين لم يكونوا على دين معين، ولم يكونوا من أهل الكتاب.. فكانوا يرون ما هم عليه اليهود والنصارى من الفرقة والاتهام، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا تبتعد كثيراً ولا ترتفع عن خرافاتهم هم، وأساطيرهم في الشرك، ومن قبيل ذلك اعتقادهم الخرافيّ الذي ينسبون فيه البنات لله (تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً). ولذلك زهد المشركون من العرب في دين اليهود والنصارى، وقالوا:

إنهم ليسوا على شيء، كما كانت كل طائفة منهما تقول بحق الطائفة الأخرى.

والقرآن الكريم يسجل على الجميع مقولات بعضهم في حق البعض الآخر، عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى في ملكية الجنة ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ ثم يدع أمر الحكم فيهم إلى الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وهذه الإحالة إلى حكم الله (جلَّ وعلا) هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون براهينهم من منطق، ولا يعتمدون بحججهم على دليل، بعد دحض دعواهم الباطلة بأنهم وحدهم أهل الجنة، وبأنهم وحدهم الذين هداهم الله سبحانه.. فتعالى الله عما يصفون، وهو وحده ـ سبحانه ـ الذي يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، فيريهم من يدخل الجنة عياناً، ومن يدخل النار عياناً.

٥ ـ طلب اليهود بأن يأتي النبيّ ﷺ بالمعجزات مثل ما أتى موسى عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

لمَّا جاءهم محمد ﷺ بالحق داعياً للإسلام على هدى ونور

(١) سورة القصص، الآيتان: ٤٨ و٤٩.

المسهم

من ربه (تعالى) أنكر عليه أهل الجزيرة جميعاً نبوته ولم يصدّقوه. ثم قالوا: لو أنه أوتي مثل ما أوتي موسى من المعجزات، وأرانا إياها بأم أعيننا، لكنا نفكّر بأن نصدقه! أو قالوا: لو أن القرآن تنزّل عليه جملة واحدة كما تنزّلت التوراة على موسى لكنا عرفنا أنه نبيّ! فاحتجَّ الله ـ سبحانه ـ على دعواهم تلك بعزيز قوله المبين: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؟ فلم يصدّقوا بآيات الله (تعالى) التي كان يتلوها عليهم ولم يؤمنوا بها؟...

ويثبت اللَّهُ (عز وجل) أنهم كفروا بالتوراة من قبل، ثم كفروا بالقرآن من بعدها عندما قالوا عن هذين الكتابين: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾، أي أنهما متشابهان، ومكملان لبعضهما البعض بما فيهما من السحر الذي يسلب الناس عقولهم.. ولم يكتفوا بدعوى السحر الكاذبة يحمِّلانها لكتابين منزلين من رب العالمين، بل ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي، إنا بكلٍ من موسى ومحمد كافرون فلا نؤمن بنبوّتهما، وإنا بكل من التوراة والقرآن كافرون فلا نؤمن بأنهما كتابان منزلان من الله...

وقد ادّعى المشركون هذا الإنكار في وجه النبيّ ﷺ من جراء ما حرَّضهم اليهود عليه من الكفر. فقد بعثَ زعماءُ قريش إلى أحبار اليهود في يثرب، يستفتونهم في خبر محمد ﷺ وصدق رسالته، مما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، فأنكر اليهود أن يكون محمد ﷺ هو النبيّ الموعود، وأوعزوا إلى قريش أن تطلب منه معجزاتٍ مثل التي أوتيها موسى عليه السلام، فنزل الذكر الحكيم يرد عليهم، ويبين خطل دعواهم: أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل من آيات ربه، فقالوا عنها إنها سحر؛ مثلما يقولون عن هذا القرآن الذي يتنزَّل على محمد ﷺ إنه سحر، وإنهما كتابان متوافقان بما يسحران به العقول

والقلوب؟ ثم قالوا: لم نؤمن بكتاب موسى، ولم ندخل في دينه، كذلك لم نؤمن بهذا القرآن، ولن ندخل في دين محمد!...

ومع ذلك فالقرآن الكريم، يسير مع الكافرين والمشركين، خطوة أخرى في الإفحام والإحراج. وذلك عندما يبين لنا بأنَّ اللَّهَ (تعالى) أمر نبيه محمداً ﷺ بأن يقول لهم ما معناه: إن كنتم لا تصدقون بالقرآن، ولا تصدقون بالتوراة، فأتوا بكتاب منزّلٍ من عند الله يكون أهدى من هذين الكتابين، فأتّبعه إن كنتم صادقين في دعواكم أنهما غير منزّلين؟ وهذا اشتراط لم يكونوا يتوقعونه وهو مستحيل التحقيق عليهم، فمن أين لهم أن يأتوا بكتاب من عند الله (تبارك وتعالى) وهم كافرون، مشركون يستنكفون عن الحق ويأبون الهداية، ويصرّون على تكذيب كتب الله (سبحانه)، وتكذيب أنبيائه؟ بل من أين لهم أن يأتوا بكتاب أهدى من هذا القرآن المجيد الذي لا ريب فيه هدى للمتقين؟! لقد كان ذلك معتقد أهل الجاهلية فلم يؤمنوا بدينٍ من عند الله، بل ساروا على الكفر والشرك حتى منَّ الله (تعالى) عليهم بالهداية فانقلبوا بنعمة الله مسلمين، وقادوا الجيوش وحققوا الفتوحات المباركة في دنيا الأرض.. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد ظلوا على معتقداتهم، وما تزال العداوة في الدين قائمة فيما بينهم، رغم اتفاقهم على عداء الإسلام والمسلمين كما هو ثابت من فعالهم..

٦ ـ الهدى هدى الله يؤتيه من يشاء.

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ

﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

يروى أن اثني عشر رجلاً من أحبار اليهود في خيبر وقرى عرينة تواطأوا على أن يدخلوا في الإسلام ظاهرياً، ويحضروا اجتماعات المسلمين في وضح النهار، ثم يرتدوا آخره، ويقولوا: «لقد دخلنا في الإسلام، وعرفنا ما فيه، ثم نظرنا في كتبنا، وتشاورنا فيما بيننا فوجدنا أن محمداً ليس بنبيٍّ، وظهر لنا أنه كاذب، وأنّ دينه باطل.. فلئن فعلنا ذلك فقد يساور الشك أصحابَ محمدٍ، ويقولون عنا إننا أهل كتاب وعندنا علم أكثر منهم.. وربما يؤثر ذلك عليهم، فيرجعون عن دينهم، ويلوذون بنا، بل ربما يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك»...

وكذلك روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: «قال جماعة من اليهود، منهم عدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] كذلك أخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك قال: كانت اليهود تقول أحبارهم للذين دونهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٢ و٧٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

المسهم

ذلك بعض من الدسائس الخبيثة التي ابتدعها اليهود ليصرفوا الناس عن الإسلام ونبيّه، فكانت أحبارهم توصيهم بألاَّ يثقوا إلا باليهود أمثالهم، وألا يركنوا إلا لمن اتبع دينهم.

فكان الوحيُ يُنزَّل على النبيّ ﷺ ليعلمه بما يتآمر به رؤوس الكفر والنفاق من بني يهود على المؤمنين حتى يرجعوا عن دينهم، ثم يوجهه إلى الحق الذي يحببهم به، وذلك بأن يقول لهم: إن الهدى إلى الدين الحق هو هدى الله (تعالى)، فلا تجحدوا أيها اليهود، ولا تنكروا على أحد سواكم أن يؤتى مثل الذي أوتيَهُ أنبياؤكم، ولا تتعجبوا أن يُحاجَّكُمُ المؤمنون، ويغلبوكم عند ربكم يوم القيامة، إن لم تقبلوا الدعوة الصادقة التي يدعونكم بها إلى الإسلام، وتدخلوا في دين الله!

ويدعم هذا الاتجاه ما قاله الضحاك وهو أن اليهود قالوا: «إنا نحاجّ عند ربنا من خالفنا في ديننا، فبين الله تعالى أنهم هم المغلوبون الذين لا حجة دامغة لهم؛ وأن المؤمنين هم الغالبون وذوو الحجة الدامغة والحق الصريح».

وتقدير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1] هو أن النبوة والهداية، وسائر نِعم الدنيا والآخرة إنما هي من الله (تعالى) الذي لا ينازعه أحد في ملكه، وهو القادر على أن يتفضل ببعثه في النبوة والرسالة على من يشاء، ويعلم أنه جديرٌ بحملها، وهو واسع الرحمة، جواد، عالم بمصالح الخلق يجعل رسالته حيث يشاء.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

المسهم

ويستوقف قولُ الله (تعالى) هنا كل مفكر ليدرك كم هي كبيرة الدسائس التي كانت تحاك على الإِسلام وعلى المسلمين، والتي ما تزال قائمة ومستمرة، بحيث لا يعلم إلا هو سبحانه مدى التآمر والمكائد على هذا الدين وأتباعه. فخلال القرون المتطاولة دسّوا في التراث الإِسلاميّ ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد، وألبسوا الحق بالباطل في هذا التراث كله، اللّهم إلا هذا القرآن المجيد الذي تكفل الله بحفظه أبد الآبدين، والحمد لله على فضله العظيم.

لقد دسّوا وحرفوا في التاريخ الإِسلاميّ، وغيروا فى أحداثه وما هم عليه رجاله. ووضعوا وعبثوا في الحديث النبويّ حتى قيّض الله له رجالاً حققوه، وحرروه، إلاّ ما ندَّ عن الجهد الإِنسانيّ المحدود.

ودسوا أيضاً في التفسير القرآنيّ حتى تركوه تيهاً لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق! وكل ذلك من فعل المستشرقين، أو تلامذتهم الذين يحتلون مكانة فكرية مرموقة في بلاد المسلمين، والذين يُصنَعُون على عين الصهيونية والصليبية، ليؤدوا لأعداء الإسلام الخدمات التي لا يملك تأديتَها الأعداءُ الظاهرون.. ثم ما يزال هذا الكيد إلى يومنا هذا قائماً ومطرداً. وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هي: التمسك بهذا القرآن المحفوظ، والعودة إليه لاستشارته في المعركة الناشبة طوال هذه القرون. من هنا نرى أن القرآن الكريم يعرض لنا بعض تلك المحاولات التي كان يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة الجماعة الإسلامية في دينها لردها عن الهدى، والتي ما تزال هي الطريق نفسها التي كان يتبعها أسلافهم عبر القرون لإِضعاف المسلمين، والنيل منهم..

المسهم

٧ ـ شهادة شاهد من بني إسرائيل على مثل ما يقول النبيّ محمد ﷺ في التوراة.

يقول الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

يخاطب اللَّهُ (سبحانه) نبيَّه محمداً ﷺ بأن يقول لليهود: أخبروني أيها اليهود كيف تكون حالكم إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل الذين يعلمون التوراة وما أنزل فيها من الحق على صدق نبوتي ورسالتي، وقال مثل ما أقول لكم بأن القرآن هو من عند الله تعالى، ثمَّ صدَّق به فآمن، واستكبرتم أنتم عن هذا الإيمان، أفلا تظلمون أنفسكم؟! فإنّ آثرتم مثل هذا الظلم فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت هذه الآية في عبد اللَّه بن سلام فهو الشاهد من بني إسرائيل الذي آمن. وأخرج ابن جرير عن عبد اللَّه بن سلام أنه قال: «نزلت فيَّ». .

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٠.

المسهم

الخاتمة

من المأثور في تربيتنا الإيمانية أن المسلمَ يُسأل في قبره ويوم الحساب، عما كان يؤمن به في الحياة الدنيا، فيجيب المؤمن الصادق، وبدون أدنى تردد:

اللهُ ربي.

والإسلامُ ديني،

ومحمدٌ ﷺ نبيّي..

وحَسُنَ، والله، قولاً يصدِّق به اللسانُ ما انعقد عليه القلب.. وهذه الشهادة من المؤمن تختصر عمره كله في الحياة الدنيا؛ فقد أرادَ الله به خيراً، فقام على طاعة الله ربه، وطاعة رسوله الكريم، وأتى من الحسنات والأعمال الصالحات، فحق له أن يلقى ربه آمناً مطمئناً، وقد صدق فيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1].

ولا ريب بأن الأمثال في القرآن الكريم تزخر بالمفاهيم والتعاليم والعظات والمثل العليا، وتحفل بالأدلة، والشواهد والبراهين التي تغطي كل ما يحيط بالإنسان والحياة والكون من حقائق، ومن سنن أنشأها العليّ القدير ليقوم عليها الوجود بأسره.

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

المسهم

وتختم كتابنا بتناول أمرين اثنين:

أ ـ المثل عن محمد رسول الله وصحابته الكرام؛ وما اختص به ربُّ العالمين نساءَ هذا النبيّ الأعظم من ميزة جعلتهن لسن كأحد من النساء، إن قامت حياتهن على التقوى التي تليق بانتمائهن إلى بيت له خصوصية النبوة وهي التي جعلتهنَّ أمهات المؤمنين.

ب ـ بيان أهمية الإيمان بالإسلام. فإن آمن الناس بمثل ما آمن به أهل هذا الدين فقد اهتدوا، لأنه دين الله، وهو صبغة الله فيما شاءَ سبحانه وتعالى لعباده من الصلاح والفلاح حيث أكمل لهم دينهم، وأتمَّ عليهم نعمته بما أنزل على نبيِّهم الهادي من قرآن مجيد، فلا يحتاج أهل الأرض إلى غيره إن راموا الهداية، والسير على نهج ربهم العزيز الحكيم.

والأمثال الكريمة التي هي حسن الختام، قد هدانا ربُّنا تبارك وتعالى إليها في ثلاثة أمثال..

١ ـ مثل صفات محمد رسول الله وأصحابه في التوراة ومثلهم في الإنجيل

يقول الله تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

المسهم

في هذه الآية المباركة بيان لبعض صفات محمدٍ رسول الله ﷺ، ولأصحابه الكرام، وردت بهذه الصورة الوضيئة، وبهذا الثناء الكريم على الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله تعالى عنها وبلَّغها رضاه. وقد ورد في الذكر الحكيم النص على اسم النبيّ «محمد» ليزيل كل شبهة بشأنه. فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، والرسالة هي منتهى ما يطمح إليه بشريّ يتلقى التكليف من الله تعالى ليبلغ رسالته إلى أهل الأرض، ففيها اصطفاء، واختيار وامتياز، وفيها عهدة إلى من يقدر على تحمل العبء، والقيام بما يفرضه التكليف. وهي مزية فريدة لقلةٍ من بني البشر، يحمل المختارُ منهم وسام الرضى والرحمة، وشرف الرفعة والسمو؛ لأنها العطاء الجزيل، والفضل الكبير من رب العالمين. والرسالة ليست معنىً مجرداً يمكن أن يضاف إلى سمات بشرٍ معين، بل هي تفاعلٌ حيويّ لقيادة البشرية إلى خيرها وصلاحها، وإلى راحتها واطمئنانها، وإلى أمْنها النفسيّ، وانعتاقها الفكريّ، وإلى نورانية قلوبها وصفاء وجدانها. فهي إذن هذا التفاعل الزاخر مع الحياة، والتطلع الدافق لإصلاح الحياة.. وليس من صفةٍ أعظم لمحمدٍ ﷺ من أن يكون رسولاً لله، الذي هو إله واحد في السماوات والأرض، فلا إله غيره، ولا معبود غيره في الكون بأسره. فإذا كان الوحي من الله يعلن بأن محمداً رسولُ الله فذلك ليكون في علم أهل الأرض، وفي علم أهل السماء أن سبيل بني البشر للإيمان بحقيقة وجود الله، وبأنه لا إله إلاَّ هو رب العرش العظيم لا يكون إلا بالإيمان برسالة محمد والالتفاف حوله، ونصرته في نشر الإسلام الذي هو الدين عند الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

المسهم

والتكليف بأعباء هذه الرسالة يستدعي إظهار بعض صفات حاملها والذين آمنوا به وصدقوه كما يبيّنها قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾. فقد قيل إنه بلغ من تشدّد الصحابة الأبرار الذين مع النبيّ أنهم كانوا يتحرَّزون من ثياب الكفار والمشركين حتى لا تَمَسَّ ثيابهم، بينما بلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يَرى مؤمنٌ مؤمناً إلاَّ صافحه ثم تودَّد إليه وتواضع له حتى لتحسبه ذليلاً بين يديه، في حين إذا صادف كافراً رأيته يشمخ بأنفه عنه، ويترفَّع عن مجالسته ومحاكاته في شيءٍ من قول أو فعل. فكان أولئك المؤمنون كما قال عنهم ربهم تبارك وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. أولئك أصحاب محمد، الذين رافقوه في معترك نشر الرسالة، والذين حملوا لواءها منذ بُعث هذا الرسول الكريم وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها.. ذلك أنَّ من اتَّبع الإسلام، واعتنق تعاليمه قولاً وعملاً بنيةٍ خالصة، ومن عامل الناس بأخلاق الإسلام، وقام بتربية الأفراد والجماعات على أسس إسلامية، هو مع محمدٍ ﷺ، مهما ابتعد زمانه عنه، أو امتدت به العصور..

فإذا كنت ـ أيها الإنسان المسلم ـ تريد أن تكون من أصحاب محمد فأمامك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فاتَّبعهما واعمل بوحيهما وهديهما، لتتمَّ صحابتك مع رسول الله ﷺ.. ويا لها من صحبة سوف تتلقَّى آثارها ومفاعيلها وأنت بين يدي ربك في الدار الآخرة، وقد استقبلك رسول الله ﷺ يرحِّب بلقياك صحابيّاً مؤمناً، محتسباً، عاملاً، أحببت الله ورسوله، فأحبك اللَّهُ ورسولُه!.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

المسهم

والتراحم بين صحابة محمد ﷺ هو تقارب بين القلوب والأفكار، وهو تعاون على البر والتقوى، وابتعاد عن الإثم والعدوان؛ كما أنه التفاعل الدائم بين المسلمين على أساس الإسلام، فلا تنابذ، ولا تناحر، ولا تقاتل، ولا عصبية مذهبية ولا طائفية.. بل توجه إسلاميّ صرف، ودعوة خالصة إلى الله ورسوله.. فهل نحن اليوم مسلمون، رحماء فيما بيننا، حتى نفكر بأن نكون أشداء على الكفار؟...

أمَّا أصحاب محمد ﷺ فـ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ فهم بصلاتهم: راكعون ساجدون يلتمسون زيادة النعمة من رضى الله تعالى.. وليس أعظم وأجل من رضى الله على عبدٍ من عباده، لأن من نال هذا الرضى فقد فاز في الدارين...

ومن صفاتهم كذلك أنَّ ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فهذه العلامة التي تظهر في وجوههم، أو على جباههم هي من كثرة السجود، حيث ترى الوضاءة والإشراق والنورانية تكاد تشع من تلك الوجوه المؤمنة. وقد اختار لفظ ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها. فكان أثر هذا الخشوع في الجبهة، أو في ملامح الوجه حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء، والتعالي والغطرسة، ويحل مكانها التواضع النبيل، الذي يزيد المؤمن لُطفاً وكياسةً ورحمة. وهذه الصورة ليست مستحدثة، بل هي ثابتة لهم في لوحة القدر؛ ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لتعبِّر عن صفتهم التي عرّفهم الله تعالى بها في الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام وبشَّر الأرض بها، قبل أن يجيئوا إليها. ومن ثَمَّ أعيد ذكرها في الكتاب الذي أنزله على عيسى ابن مريم ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ وخاصة ما حمل من البشارة بالنبيّ الأميّ العربيّ الذي يحمل النبوة والرسالة رحمة للعالمين..

المسهم

أما مثل محمد وأصحابه، وبالأوصاف التي وردت في التوراة والإنجيل فيشبهها القرآن ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، فهو زرع نام قويّ، يخرج فرخه نضراً من قوته وخصوبته. وهذا الفرخ لا يُضعف العود بل يشده، فيؤازره، مثلما أن العود يؤازر فرخه ويشده ليستغلظ الزرع، وترتفع ساقه وتمتلىء، ثم ليستويَ على سوقه، لا عوج فيه ولا انحناء، بل استقامة وامتلاء..

تلك هي صورة الزرع المبارك، أما وقعه في نفوس أهل الخبرة من الزرّاع، العارفين بالنامي منه والذابل، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾. إن رسول الله ﷺ هو صاحب هذا الزرع النامي المخصب البهيج، وأصحابُهُ هم على نهجه حيث بدأوا في قلة وضعف ثم كثروا وقووا على أحسن الوجوه، فكان وقع فعالهم يثير الغيظ والكمد والحقد في نفوس الكفار.. وتعمُّد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله، وزرعة رسوله، فكان حريًا أن تكون هذه الزرعة أتباعَ محمد ﷺ، الذين جعلهم الله (تعالى) أداة لإغاظة أعدائه. وهكذا يثبت الله العليم الحكيم في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة، صحابة رسول الله ﷺ، التي تنبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه وهو يستمع إليها من بارىء الوجود، لكي تبقى نموذجاً للأجيال في سعيها الدؤوب، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعدهم الله سبحانه بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، فلهم ثواب جزيل، ونعيم دائم عندما يلاقون ربهم بفعل إيمانهم وعملهم الصالح.

المسهم

وهكذا أعادَ القرآن الكريم المثلَ الذي ضربَهُ اللَّهُ تعالى في التوراة، وفي الإنجيل، ليصف به محمداً ﷺ وأصحابه.. فالزرع هو محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، والشَّطْءُ (أي ما يفرّخ هذا الزرع) هم أهل بيته، والصحابة والمؤمنون من حوله.. وعادة ما يكون أول الزرع دقيقاً، ثم يغلظ ويقوى ويتلاحم.. فالمؤمنون، وجميع من كان حول رسول الله ﷺ في أول الأمر، كانوا قليلي العدد، ضعافاً، لا يقوون على رد أذىً أو عداء؛ ولكنهم مع الوقت، وبفعل إيمانهم القويّ، راح عددهم يتكاثر، وبدأت قوتهم تتماسك، حتى استووا على أمرهم، فاستغلظوا وصاروا تلك الجماعة المتلاحمة المتراصة، التي يشد بعضها أزر بعض كالبنيان المرصوص، والتي أغاظت الكفار والمشركين، وأربكتهم بما وصلت إليه من وحدة إسلامية متماسكة، ذات منعةٍ وشدة، لم يعد العدو قادراً على قهرها والقضاء عليها كما كان يأمل...

وبالفعل فإن الجماعة الإسلامية لم تبلغ ما بلغت إلاَّ بعد عناء طويل، ومشاق مريرة وصعاب لا تحصى. وكان الهمُّ الأكبر على عاتق الرسول، لأنه هو صاحب الرسالة، وحامل الدعوة، ولأن أمر المؤمنين من مسؤوليته، ولذلك كانت دعوةُ ربه إليه أن يصبر، ويتحمل مهما كابد وعانى.. وذلك لقوله تبارك وتعالى:

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

(١) سورة القلم، الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.

المسهم

أجل، إنَّ على رسول الله ﷺ أن يصبر على حكم ربه، وقد قَضَى أن يكون نبيّاً ورسولاً ليبلِّغ خاتمة رسالاته السماوية إلى الأرض. ومن مضامين هذا ألاَّ يقاتل المشركين، مهما ناله من أذاهم، ومن عنتهم وعداوتهم، حتى يأذن اللَّهُ (تعالى) له بالقتال، فيأتيه حينئذٍ النصر من ربه، الذي ينصر أولياءه، ويقهر أعداءه..

وإذا كان في هذه الدعوة للصبر مواساةٌ للرسول ﷺ على ما كان يلاقيه من عنت القوم وجبروتهم، إلاَّ أنها تحمل أيضاً النهي بألاَّ يكون كالنبيّ يونس عليه السلام، الذي لم يصبر على جهل قومه وكفرهم، فاستعجل في الخروج من بينهم مغضباً، مستاءً، متبرّماً، قبل أن يستأذن ربَّهُ في هذا الخروج. فكان أن حكم الله تعالى عليه بأن يعانيَ ظلمات ثلاث شديدة، بعد أن ابتلعه حوت كبير في جوفه. فكابد من جراء ذلك ظلمة الليل البهيم، وظلمة البحر القاتم، وظلمة جوف الحوت الخانق. وإنه وهو في وسط تلك الظلمات، مكظومٌ، مهمومٌ مغموم، إذ نادى ربه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فاستجاب سبحانُه لدعائه، وأدركته رحمته. ولولا أن تداركته هذه النعمة من ربه الكريم لبقي في بطن الحوت إلى يوم يبعثون، أو لنبذ، وقذف به من بطن الحوت إلى الأرض العراء وهو مذموم أي ملوم (لأنه أتى بما يُلام عليه) ولكن الله رحمه، فنبذ غير مذموم، فاختاره للنبوة، وجعله من الصالحين (الأنبياء).

٢ ـ نساءُ النبيّ لَسْنَ كأحدٍ من النساءِ إن اتَّقَيْنَ

يخاطب اللَّهُ تعالى نساءَ النبيّ بقوله عز وجل:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ

فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[1].

لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية في تصور الإسلام للحياة. وهذه القيم ينبغي أن تجد ترجمتها الحيَّة في بيت النبيّ ﷺ وحياته الخاصة، لأن النبيّ هو الأسوة والقدوة لمن أراد الله واليوم الآخر، ولأن بيته منارةٌ ومحطٌ لأنظار المؤمنين إلى يوم الدين.

وفي ذلك البيت الكريم، الرفيع العماد نزلت آيتان تخيِّران نساءَ النبيّ ﷺ وتحددان لهنَّ الطريق: فإما أن يُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها، وإما أن يُرِدْنَ اللَّهَ تعالى ورسولَهُ الكريم والدار الآخرة. وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

. . فقد اختار النبيّ ﷺ لنفسه ولأهل بيته عيش الكفاف، ولم يُعر متاع الدنيا أقلَّ عناية. ولم يكن ذلك بسبب العجز عن المتاع، فقد قدّمت له زوجه الطاهرة خديجة مالها كله، وكانت العرب تقدِّره بثروةٍ طائلة، فبذله في سبيل الله. ثم عاش حتى فتحت له الأرض في شبه الجزيرة، وكثرت غنائمها، وعم فيؤها، واغتنى مِن أتباعِهِ مَن لم يكن له مال ولا زاد، ومع هذا ظلَّ هو وأهل بيته يعيشون حياة التقشف، يجود بالصدقات والخيرات، ويقدم الهبات والهدايا، مختاراً العزوف عما هو فانٍ زائل، والاستعلاء على زينة الحياة الدنيا ومتاعها، لا يبتغي إلا ما عند الله خالصاً لوجهه الكريم. وقد لا يعجب مثل هذا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨ و٢٩.

المسهم

النوع من شظف العيش، والزهد في الدنيا بأسرها نساءَ هذا النبيّ المؤمن، فيخاطبه ربه تعالى بأن يقول لأزواجه: أنتنَّ في الخيار بين أمرين: **إن كنتنَّ تردن الحياة الدنيا والانصراف إلى زينتها فلكنَّ من المتاع حق معلوم، ثم أسرحكنَّ وأنتن راضيات، حامدات.. وإن كنتنَّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فقد أعدَّ الله تعالى للمحسنات منكنَّ (بالصبر على شظف العيش، وعلى طاعة الله ورسوله) أجراً عظيماً ستلقاه في الآخرة..** وطبيعيّ، فقد أرادت نساءُ النبيّ ﷺ اللَّهَ ورسوله والدار الآخرة، تطبيقاً لمنهج الله في بيت النبوة، وتجاوباً مع نور الرسالة الذي يشع في أرجاء ذلك البيت، وامتثالاً للاختيار النبويّ، النابع من ذاتيةٍ أحبّت اللَّهَ تعالى، فعملت بتقواه ومرضاته..

ثم يتوجهُ الخطاب مباشرةً، إلى زوجاته ـ أمهات المؤمنين ـ مبيّناً لهنَّ خصوصيّةً ليست لغيرهنَّ من النساء بقوله سبحانه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾. إذن فنساء النبيّ لسن كغيرهنَّ من النساء، بل ولَسْنَ كأحدٍ من النساء، لكونهن أزواجاً للنبيّ الذي اختاره تعالى خاتماً للنبيين، فأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه كما يصلّي عليه هو سبحانه وملائكتُهُ في السماوات والأرض: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[1].. فهذا النبيّ له خصوصية على الأنبياء جميعاً، ويكفيه شرفاً ومقاماً ودرجة رفيعة أن الله يصلي عليه، وأن ملائكته يصلون عليه، فكان أمر الله للمؤمنين بأن يصلوا، ويسلموا عليه في كل أذان للصلاة، وفي كل

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

المسهم

صلاة، بل وكلما طابَ للمؤمنين تطهير ألسنتهم بالصلاة الطيبة[1].
وإذا كان النبيّ محمد ﷺ ليس كأحد في الأنبياء، فإنه ليس كغيره من الرجال أيضاً؛ ولذلك وجب ألا تكون نساؤه كغيرهنَّ من النساء، فإن اتقين الله، كان لهُنَّ من الأجر عند ربهنَّ ما ليس للنساء، ولكن عليهنَّ ألاَّ يفعلن ما قد يفعله غيرهنَّ. فالمرأة قد يصدر عنها ما يلفت انتباه الرجل مثل نبرة صوتها، أو تأثرها بحديثه فتخضع بالقول، وتترفق باللفظ في مخاطبته، مما قد يثير الطمع في قلبه، ويهيج الفتنة في نفسه.. فهذه ميزة في الضعف البشريّ حيث تجد القلوب المريضة، التي تثار وتطمع في كل آنٍ، وتجاه كل امرأة، ولو كانت زوجاً للنبيّ الكريم وأُمّاً للمؤمنين. ولذلك كان من قواعد السلوك عند المسلمين أنه لا طهارة من الدنس، ولا تخلُّص من الرجس، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس..

وإذا كان التحذير من الله يأتي إلى نساء النبيّ ﷺ، اللواتي كنَّ موضع إجلالٍ وإكبار من المسلمين، فكيف الحال بنساء المجتمعات الحاضرة، التي نعيش فيها اليوم السمَّ الزعاف في كل شيء؟ ألا ترى في هذه المجتمعات النساء كيف يتخنثن في نبراتهن، ويتميَّعن في أصواتهن، ويجمعن كل فتنة الأنثى وزينتها، وكل هتاف الجنس ومثيراته ثم يطلقنه في تأنّثٍ صارخ وتَعَرٍّ فاضح حتى أصبحت أكثريتهنَّ

---

(١) سئل رسول الله، فقيل له: كيف الصلاة عليك؟ فقال: قل: «اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. (يراجع: مصحف الشروق، مختصر تفسير الإمام الطبري، دار الشروق، القاهرة، ص٤٨٠، ط: ٢٧ شوال ١٣٩٧هـ.).

المسلم

أبعد ما تكون عن الطهارة؟ بل كيف يمكن أن يرفَّ الطهر في هذا الجوّ الملوَّث، والنساء بذواتهن، وحركاتهنَّ، وأصواتهنَّ تلك؟ ذلك الرجس، يريد الله أن يذهبه عن عباده المختارين، وأهل بيت نبيّه الكريم، وأن يطهرهم تطهيراً، ليكونوا قدوة صالحة لجميع خلق الله من النساء والرجال، ولذلك ينبّه العزيز الحكيم نساء النبيّ بقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لا في القول ولا في الفعل؛ ثم أمرهن في ختام الآية المباركة: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ خيّراً، عفيفاً دالاً على الإحسان في الحديث. وكنّ قدوة لغيركنَّ، إذ لا ينبغي أن يكون بين امرأة ورجل من غير محارمها، بل وأي رجل غير زوجها لحن، ولا إيماء، ولا هذر، ولا هزل، ولا دعابة، كي لا يكون ذلك مدخلاً إلى الخضوع، والاستمالة، ومن ثمَّ إلى السوء الذي قد يأتي بالفاحشة..

والله سبحانه وهو الخالق العليم بخلقه وبطبيعة تكوينهم، هو الذي يوجّه الأمر والتحذير لأمهات المؤمنين الطاهرات، كي يراعين القول مع الناس، مع أن زمانهن كان خير الأزمنة على الإطلاق. وكان وجوباً على المرأة المسلمة أن تمتثل لقول الله تعالى، فتراعي حكمه الذي خاطب به أمهات المؤمنين، حتى يعمَّ الطهر بدل الفساد، ويسود القول المعروف بدل القول الفاحش..

٣ ـ الإسلام صبغة الله (تعالى) في الأديان

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى

شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[1].

الآية الأولى تعني في مدلولها، وفي اشتراطها أن اليهود والنصارى، إن آمنوا بما آمنتم به أيها المسلمون من أن الإسلام هو دين الله الحق، وأن القرآن هو كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد بن عبد اللّه ﷺ، ثم شهدوا بشهادة أن «لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله»، فقد اهتدوا لما تسكب هذه الشهادة في قلب المؤمن من الهداية والرشد. ولذلك كان توجيه الخطاب إلى المسلمين بأنَّهُ إن آمن أهل الكتاب ـ وأهل الأرض ـ بما آمنتم به، فقد اهتدوا، وسلكوا الطريق المستقيم. وإن تولّوا، وانصرفوا عن هذا الدين، وجحدوه ولم يعترفوا به ديناً خاتماً للرسالات السماوية، وديناً تامّاً للناس كافة، فإنما هم في شقاق ونزاع، وخلاف في قرارة نفوسهم، وفي تعاملهم معكم، لأنهم يكونون قد فارقوا الحق الذي يدعو إليه دينكم، وتمسّكوا بالباطل الذي تزيّنه لهم أهواؤهم، فصاروا مخالفين لما أراد الله لعباده، سائرين في طريق الخصام، وسلوك درب العداوة والحرب التي يتسلحون بها، لتصريف أمورهم وشؤونهم، تماماً كما كان يفعل الكفار والمشركون والمنافقون على عهد النبيّ ولكنَّ السميع العليم مطلع على كل شيء.. ولذلك ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ يا محمد بما يعدك من النصر، وبما يكفيك ويظهرك على أعداء دينك، لأنه هو اللَّهُ الذي لا إلهَ إلاَّ هو، وهو يسمع أقوالهم في السر والجهر، ويعلم أحوالهم، وما يعملون ويخططون ليصدوا عن سبيل الله، ويوقعوا بالمسلمين..

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٣٧ و١٣٨.

المسهم

والتعبير في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾[1] هو مصدر مؤكّد، ولذلك جاء منصوباً لفعل مقدَّر ﴿صبغنا﴾. أي أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قد صَبَغَنا بهذا الدين صبغةً تظهر علينا، كما يظهر الصباغ في الثوب، ويميّزه بألوانه.. وفي المعنى أن اللَّهَ سبحانه وتعالى قد أنزلَ هذا الدين كاملاً في كل شيء يحتاج إليه أهل الأرض، وبيّن أحكامه عن طريق رسوله الكريم التي لا يطرأ عليها نقصان أو تعديل أو زوال. فصار تشبيهها بالصباغ الأصليّ الذي يُصبغ به الثوب فيصير من أصله، غير قابل للمحو أو البوار.

وتتأكد صبغة الله في الإسلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3]. وبقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾، أي من يقدر أن يأتي بمثل ما يأتي به اللَّهُ تعالى، بل ومن أحسن من الله تعالى صُنعاً وصبغةً؟ فهو سبحانه قد أنزل هذا الدين كما يشاء، لأنه

---

(١) من المعاني التي يحتملُها تعبير ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الطقوس التي يقوم بها أهل الكتاب لتثبيت أبنائهم على دينهم. ومن قبيله ما يفعل النصارى عندما يولد لهم مولود جديد فإنهم يغمّسونه في «ماء المعمودية» كما يسمونها، وذلك عندهم تطهيراً للمولود وإلصاقاً لصفة النصرانية به. فتكون ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ بهذا المعنى التطهير على تلك الطريقة. ولذلك قيل إن اليهود يصبغون أولادهم يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، أي يلقّنون أبناءهم اليهودية والنصرانية. وإلى هذا يؤول ما روي عن عمر بن الخطاب من أنه أخذ العهد على بني تغلب بألاّ يصبغوا أولادهم، أي ألاّ يلقنوهم النصرانية، وأن يتركوهم حتى يبلغوا فيختاروا لأنفسهم ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ما يشاؤون من الدين. وقيل: سمي الدين صبغة لأنه هيئة تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغيرها من الآثار الجميلة التي تظهر على المؤمن كما يظهر الصباغ في الثوب.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

المسهم

القادر على ذلك، ولا أحد إلا الله يحسن هذا الصنيع الجميل، ولا أحد إلا الله يفعل ما يريد. فهو الصانع، وهو الباعث، والخالق والعالم بما هو أنفع وأصلح لعباده.. وإن من يتّبع هذا الدين القيم، الذي أحسنَ الله تعالى صبغته، وأحسن تزيينه وتجميله، يكون من عباده الصالحين العابدين..

ونحن نختم كتابنا هذا بقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾، ونحمده بأن منَّ علينا وقدّرنا بأنْ ننقّح هذه الطبعة من كتاب **«الأمثال في القرآن المجيد»** لكي يأتي تبيان وإبراز بعض جوانب عظمة هذه الأمثال بصورة أفضل، فيسهل معها على القارىء الكريم فهم عِبَرها وعظَاتِها، وأبعادها وغاياتها. ونرجوه أن يتقبّل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع قريب مجيب.

المسهم

مراجع الكتاب

- القرآن الكريم
- تفسير القرآن الكريم، مجمع البيان للطبرسي.
- تفسير القرآن الكريم، للطبري.
- تفسير القرآن الكريم، للقرطبي.
- تفسير القرآن الكريم، الكشاف للزمخشري.
- في ظلال القرآن الكريم، للسيد قطب، إحياء التراث العربي، بيروت.
- لسان العرب، لابن منظور.
- الأمثال من الكتاب والسنة، محمد بن علي الحكيم الترمذي.
- الأمثال في القرآن الكريم، لابن قيم الجوزية.
- الأمثال النبوية، محمد الغروي.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني.
- الدعوة الإسلامية، د. أحمد أحمد علوش.
- السيرة الحلبية، ج٢.
- تفسير القرآن الكريم للإمامين الجليلين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي.
- محمد حسنين هيكل، حياة محمد، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٨هـ.
- أحمد بن حنبل، كنز العمال.
- صحيح مسلم.

المسهم

- سنن الدارمي
- نهج البلاغة
- صحيح البخاري
- سنن ابن ماجة
- معجم البستان اللغوي، ص١٩٢٧ ؛ بيروت
- سنن الترمذي
- سنن أبو داود

المسهم

فهرس الآيات

سورة البقرة

رقم الصفحة		رقم الآية
٣٢٦ ـ ٧٠	ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾	٢٦
٧٠	ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾	٢٦
١٦٥ ـ ١٦٤	ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾	٢٣
٢٧٧	ـ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾	١٠٦
٣٨١	ـ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	١١٨
٣٩	ـ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾	١٧
٤٠٠	ـ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾	١٣ ـ ٢٠
١١٧	ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾	١٦٥
٥٤٦	ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾	١٦٥ ـ ١٦٧
٥٥٢	ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾	٢٦١ ـ ٢٦٢
٥٥٦	ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾	٢٦٤ ـ ٢٦٦

المسهم

رقم الصفحة		رقم الآية
٣٢١	ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً﴾	١٧١
٢٠٠	ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾	٢٦٦
٥٦٣	ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾	
٥٦٣	ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾	٢٧٥ ـ ٢٧٩
٥٧٨	ـ ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾	٢٣٣
٥٨٦	ـ ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	٢٢٨
٥٩٩	ـ ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾	١٩٤
٦٠١	ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾	٢١٤
٦٢٨	ـ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾	٧٤
٢٣١	ـ ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾	٧٣
٦٣٢	ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾	١١٣
٦٥٥	ـ ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾	١٣٧ ـ ١٣٨
٢٣٣	ـ ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾	٢٥٩

سورة آل عمران

٩٢	ـ ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾	٣٥ ـ ٣٧
٢٣٢	ـ ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾	٤٥ ـ ٤٩
٢٣٢	ـ ﴿أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾	٤٩

رقم الصفحة		رقم الآية
٤٩٦	﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾	٥٩ ـ ٣٥
٥٦١	﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾	١١٦ ـ ١١٧
٦٠٥	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾	١٥٦ ـ ١٥٧
٦٠٤	﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾	١٣
٦٠٧	﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ﴾	١٦٥
٦٢١	﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾	١٣٩ ـ ١٤٠
٦٣٨	﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾	٧٢ ـ ٧٣

سورة النساء

٤٠٧	﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾	١٤٠
٥٨٢	﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾	١١
٥٨٥	﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾	١٧٦
٦٠٩	﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾	٧٧

سورة المائدة

٦١١	﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾	٢٨ ـ ٣٢
٦١١	﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾	٣١

المسهم

رقم الصفحة رقم الآية

٥٨٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ ٩٥

٢٢١ ـ ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣٦

سورة الأنعام

١٤٨ ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ ٣٨

١٨٠ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ٥٥

٢٩٠ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ١٦٠

٣٠٦ ـ ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ..... ٩٢ ـ ٩٣

٣١٠ ـ ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ١٢٤

٣١٥ ـ ٣٥ ـ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ١٢٢

٣١٣ ـ ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٢٥

١٧٨ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ٥٣

سورة الأعراف

٢٠٧ ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ١٨٧

٢٥٢ ـ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ..... ٥٧ ـ ٥٨

٣٢٢ ـ ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ٤٠

٣٧٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ..... ١٩٤ ـ ١٩٥

المسهم

٣٠ ـ ٤٢٦ ـ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ..... ١٧٥ ـ ١٧٦ ـ ١٧٧

٣٠ ـ ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ١٧٦

٥٢١ ـ ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ ٢٧

٦٣١ ـ ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ ١٦٩

٢٣ ـ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ ١٦٨

سورة الأنفال

٢٨٣ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ..... ٢٠ ـ ٢٣

٢٩٦ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ ٣١

سورة يونس

٤٦٨ ـ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ ..... ١٠١ ـ ١٠٢

٢٠ ـ ٥٢٣ ـ ٥٣٣ ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ ٢٤

٥٤٥ ـ ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ ٢٧

٥٤٥ ـ ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٢

سورة هود

١٦٢ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا الَّذِينَ﴾ ١٣

المسهم

رقم الصفحة رقم الآية

٣٤٢ ـ ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ . ٢٤

٤٣٤ ـ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ..... ٢٥ ـ ٢٨

٤٣٤ ـ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ .. ١٠٩

٤٣٦ ـ ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ..... ٤٢ ـ ٤٣

٤٤٩ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ ٨٩

سورة الرعد

٢٦٣ ـ ٢٥ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ ٣٥

١٨١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ ١٤

١٨ ـ ٤٦٣ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ ٦

٤٧٢ ـ ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ..... ١٦ ـ ١٧

٤٨٠ ـ ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ١٧

٣١٧ ـ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ ١٩

سورة إبراهيم

٤٦ ـ ٣٣٠ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ .. ١٨

١٨٤ ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ .. ٩ ـ ١٠

المسهم

رقم الصفحة		رقم الآية
١٨٤	ـ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾	٢٤ ـ ٢٧
٤٨٣	ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾	
٧	ـ ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾	٢٥
٢٠٣	ـ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ ...	٢٦
٢٠٤ ـ ٢٠٥	ـ ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾	٤٤ ـ ٤٥

سورة النحل

٢٨ ـ ٣٣٧	ـ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾	١١٢
٨٢	ـ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾	١٧
١٠٦	ـ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	٧٣ ـ ٧٦
١٠٦	ـ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾	٧٥
١٠٦	ـ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾	٧٦
٢٦ ـ ٣٧٣	ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	٥٧ ـ ٦٠
٥٩١	ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾	٩١ ـ ٩٢
٦١٥	ـ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ ..	١٢٦

سورة الإسراء

١٦٧	ـ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾	٨٨ ـ ٨٩

المسهم

رقم الصفحة رقم الآية

١٦٩ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ٨٩

٢٤٢ ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟﴾ .....٤٨ ـ ٥٢

١٠١ ـ ﴿قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ٩٩

سورة الكهف

٢٠٠ ـ ٣٤٣ ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ .....٣٢ ـ ٤٤

٤١، ٥٢٩، ٥٣٣ ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ ٤٥

١٣٨ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ .....١٠٩ ـ ١١٠

١٣٨ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ ١١٠

٤٩٤ ـ ١٧٠ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ ٥٤

٤١ ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ ١٨

سورة مريم

١٩ ـ ٢٧ ـ ٩٦ ـ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ .....١٧ ـ ١٨

سورة طه

٤٥١ ـ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ ٥٨

١٨ ـ ٤٥٣ ـ ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ ٦٣

المسهم

رقم الصفحة		رقم الآية
١٨	ـ ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾	١٠٤
٢١٦	ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾	١٢٣ ـ ١٢٧
٢١٦	ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾	١٢٦

سورة الأنبياء

٥١٢	ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾	٥٦
٥١٢	ـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ﴾	٢١
٣٤٩	ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾	٨٤
٣٤٩	ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٨٨
٣٥٠	ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾	٥٢

سورة الحج

٣٥٩	ـ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾	٣٠ ـ ٣١
٣٦٢	ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾	٧٣ ـ ٧٤
٦١٦	ـ ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾	٦٠

سورة المؤمنون

٢٦١	ـ ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾	٧٩ ـ ٨٢

المسهم

رقم الصفحة		رقم الآية
٤٣٢	ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾	٢٤
٤٣٢	ـ ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾	٢٣ ـ ٢٤
٤٣٩	ـ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾	٣١ ـ ٣٦
٤٥١	ـ ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾	٤٥ ـ ٤٨

سورة النور

٤٨	ـ ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾	٣٤
٤٨ ـ ١١١	ـ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾	٣٤ ـ ٣٥
٤٨	ـ ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾	٣٥
٤٨	ـ ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾	٣٥
٣٣٣	ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾	٣٩ ـ ٤٠
٣٣٣	ـ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾	٤٠
٥٩٨	ـ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	١٧

سورة الفرقان

٥١٤	ـ ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾	١٣
٥٠٧	ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾	٧ ـ ٩
٥١٤	ـ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾	٤٣ ـ ٤٤
١٥٦	ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾	٣٢ ـ ٣٣

المسهم

سورة الشعراء

١٢٥ ـ ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ٦٣

٤٤٨ ـ ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ..... ١٧٧ ـ ١٨٨

٤٤٦ ـ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ١٥٤

سورة القصص

١٢٩ ـ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ ٣١

٥٢٦ ـ ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ٧٧

٤٨٩ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ..... ٧٦ ـ ٨١

٥٣٤ ـ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ٦١

١٢٩ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ٤٨

سورة العنكبوت

٣٦٥، ٤٥، ١٢١ ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ ٤١

١٢١ ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ ٤٣

سورة الروم

٧ ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ . ١٢

المسهم

رقم الصفحة		رقم الآية
٢٤٤ ـ ٧	ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾	٥٤ ـ ٥٨ ـ ٦٠
٢٤٤	ـ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٥٥
٣٧٠ ـ ٥٣	ـ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾	٢٨
٢٤٤	ـ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾	١٩

سورة لقمان

٨٦	ـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾	٢٨
٥١٦	ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	٦ ـ ٧
٥١٦	ـ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾	٣٢

سورة السجدة

٣٤٠ ـ ١٥	ـ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾	١٨ ـ ٢٠

سورة الأحزاب

٦١٩	ـ ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾	١٨ ـ ٢٠
٦٥١	ـ ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾	٣٢

المسهم

سورة سبا

٢٢ ـ ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ ١٣

٢٢ ـ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ١٩

سورة فاطر

٣٨٠ ـ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ١٤

سورة يس

١٣٤ ـ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ .....٤١ ـ ٤٤

٢٣٨ ـ ٥٨ ـ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ .....٧٧ ـ ٨٣

٥٨ ـ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ ٨١

٤٥٦ ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ .....١٣ ـ ٣٠

٤٥٦ ـ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ١٣

سورة الصافات

٣٨٧ ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ .....٣٤ ـ ٧٤

٣٨٧ ـ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ ٤٩

٣٨٧ ـ ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ ٦١

المسهم

رقم الصفحة رقم الآية

٣٨٧ ـ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ ٦٥

سورة ص

١٨٦ ـ ١٨٩ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ..... ٤١ ـ ٤٣

٣٥٠ ـ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ..... ٢٧ ـ ٢٩

سورة الزمر

٢١٩ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ٤٧

٣٦٧ ـ ٧٦ ـ ٧ ـ ٤٣ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٢٧

ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ...

سورة غافر

٢٨٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ..... ٢٨ ـ ٣١

٥٤٤ ـ ﴿مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ٤٠

سورة فصلت

٣٨٣ ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ..... ٩ ـ ١٣

٣٩٤ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ٦

المسهم

سورة الشورى

٨١ ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ١١
٦١٧ ـ ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ... ٤٠

سورة الزخرف

٤٥٤ ـ ٢٥ ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ ..... ٥٥ ـ ٥٦
٥٠٣ ـ ٥٠٤ ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ١٥ ـ ١٩
٥٠٣ ـ ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ١١
٤٦٢ ـ ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ..... ٦ ـ ٨
٤٩٨ ـ ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ..... ٥٧ ـ ٦٠
٥٠٠ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ٥٩

سورة الدخان

٣٩٣ ـ ٥١٨ ـ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى
فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ ..... ٤٣ ـ ٤٦

سورة الجاثية

٢٢١ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لَهُۥ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ٣٣

سورة الأحقاف

٦٤١ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ ١٠

المسهم

سورة محمد

٢٦٢ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ١٥

٢٦٢ ـ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ ١٥

٣٢٣ ـ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ ..... ١٠ ـ ١١

٣٥ ـ ٤٨٧ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ ٣

٥١٩ ـ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ١٤

٥٧٥ ـ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ ..... ٣٦ ـ ٣٨

سورة الفتح

٢٥ ـ ٣٠ ـ ٦٤٤ ـ ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ٢٩

سورة ق

٢٤٩ ـ ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ ..... ٦ ـ ١١

سورة الذاريات

١٠٢ ـ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ..... ٢٠ ـ ٢٣

٤٦٢ ـ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ ٥٩

٤٦٢ ـ ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ ٤٢

المسهم

سورة الطور

١٦٠ ـ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ..... ٣٣ ـ ٣٤

سورة القمر

١٤٣ ـ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ..... ٤٩ ـ ٥٠
٢٥٦ ـ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ ..... ٦ ـ ٨
٤٤٤ ـ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ٢٤
٤٤٤ ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ ..... ٢٣ ـ ٣١
٤٤٢ ـ ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ ..... ١٨ ـ ٢٠

سورة الرحمان

١٣١ ـ ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ٢٤
٢٧٠ ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ٥٨
٩٠ ـ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ..... ١٤ ـ ١٦

سورة الواقعة

٢٥٤ ـ ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ..... ٥٧ ـ ٦٢
٢٧٠ ـ ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ ..... ٢٢ ـ ٢٣

سورة الحديد

٣٢ ـ ٥٣٠ ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ .....

المسهم

سورة الحشر

٤١٥ ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ..... ١١ ـ ٢١

٣٣ ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ ١٦

٣٣ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ١٩

٣٣ ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٢١

سورة الممتحنة

٢٨٥ ـ ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ ١٣

٥٨٨ ـ ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ ١١

سورة الصف

٢٨٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ١٤

سورة الجمعة

٣٦ ـ ٦٢٦ ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ ٥

٣٦ ـ ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ٥

سورة المنافقون

٤١١ ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ . ١ ـ ٤

المسهم

سورة الطلاق

٩٩ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ١٢

سورة التحريم

٣٥٣ ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ ..... ١٠ ـ ١٢

٣٥٣ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ ١١

سورة القلم

٥٣٩ ـ ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ..... ١٧ ـ ٣٦

٥٣٩ ـ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَٰٓئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ ١٩

٥٣٩ ـ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ٣٣

٥٣٩ ـ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ٣٥

٦٤٩ ـ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ ..... ٤٨ ـ ٥٠

سورة الحاقة

٤٤٢ ـ ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ..... ٦ ـ ٧

سورة المعارج

٢١٣ ـ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ ..... ٨ ـ ١٠

سورة المزمل

٢١٤ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ..... ١٤ ـ ١٦

المسهم

سورة المدثر

٣٠٢ ـ ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ..... ٢٦ ـ ٣١

٣١٨ ـ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ ... ٤٩ ـ ٥٦

سورة الإنسان (الدهر)

١٢٠ ـ ٥٢٠ ـ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ ٢٨

سورة المرسلات

٤٦٦ ـ ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ ..... ٢٩ ـ ٣١

سورة النازعات

٢٠٩ ـ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ ..... ٤٢ ـ ٤٦

سورة القارعة

٢١٢ ـ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ ..... ١ ـ ٥

سورة الفيل

١٢٤ ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ..... ١ ـ ٥

المسهم

فهرس المواضيع

الفهرس

المقدمة ٧

فصل تمهيدي ١١

المثل ١١

نشأته ـ معانيه ـ أنواعه ـ فوائده ـ خصائصه ـ أهدافه ١١

الفقرة الأولى: نشأة المثل منذ القدم ١١

الفقرة الثانية: التمييز بين المثل والتمثيل والتشبيه والاستعارة ١٦

الفقرة الثالثة: معانى المثل ٢٥

الفقرة الرابعة: أنواع المثل ٢٧

الفقرة الخامسة: فوائد المثل ٢٩

الفقرة السادسة: خصائص وفنية الأمثال في القرآن الكريم ٣٣

أولاً ـ خصائص الأمثال في القرآن الكريم ٣٣

ثانياً ـ فنية الأمثال في القرآن الكريم ٤٤

الفقرة السابعة: الأهداف التي تتوخاها الأمثال في القرآن الكريم ٤٩

الفصل الأول: العقيدة ٧٣

الفقرة الأولى: الإيمان بحقيقة وجود الله (تعالى) ٧٨

أولاً ـ الله هو الخالق العظيم ٨١

المسهم

ثانياً ـ نَهيُ الناس عن أن يضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم أن لا رازق سواه ١٠٦
ثالثاً ـ مثل نور الله (تعالى) في السماوات والأرض ١١٠
رابعاً ـ مرد التقوى لله جميعاً، وهو على كل شيء قدير ١١٧
ـ المعجزات براهين على أن القوة لله جميعاً ١٢٣
خامساً ـ لو كان البحر مداداً لكتابة علم الله لنفدَ البحرُ قبل أن تنفد كلمات الله ولو جيء بمثله مَدَداً ١٣٨
سادساً ـ أمر الله (تعالى) نافذٌ ومحقق كلمحٍ بالبصر ١٤٣
الفقرة الثانية: الإيمان بملائكة الله وكتبه ١٤٣
أولاً ـ ما فرَّط الله في اللوح المحفوظ من شيء حتى الدوابّ والطيور هي أممٌ أمثال البشر ١٤٨
ثانياً ـ الإيمان بالقرآن والتحدّي أن يأتوا بمثله ١٥٣
الفقرة الثالثة: الإيمان برسل الله ١٨١
الفقرة الرابعة: الموتُ والقيامة والبعث ١٩١
ثالثاً ـ البعث والحساب ٢٢٥
الفقرة الخامسة: الإيمان بالجنة والنار ٢٦٢
الفصل الثاني: تصنيف الناس في الأمثال القرآنية ٢٧٣
الفقرة الأولى: ملامح من التوجيه والإرشاد للمؤمنين ٢٧٤
الفقرة الثانية: ظلم الكافرين لانفسهم ٢٩٣
ـ ادعاء الكافرين بأنهم لو يشاؤون لقالوا مثل آيات الله التي تُتلى عليهم ٢٩٦
الفقرة الثالثة: النتائج المترتبة على اعمال الكافرين يوم الحساب ٣٢٥
ـ مثل البعوضة امتحان للعباد ٣٢٥

المسهم

الفقرة الرابعة: الفوارق بين المؤمنين والكافرين ٣٤٠
الفقرة الخامسة: الشرك وظلم المشركين لأنفسهم ٣٦٠
- مثل الأوثان والأصنام في هوانهما كمثل الذباب في ضعفه ٣٦٢
الفقرة السادسة: النفاق ومواصفات المنافقين ٣٩٦
الفقرة السابعة: المكذبون بآيات الله (تعالى) لا يصدقون الرسل لأنهم بشرٌ مِثْلُهُم ٤٢٦
الفصل الثالث: معالجة الأمثال القرآنية لأهم القضايا المؤثّرة في حياة الناس ٤٧١
الفقرة الأولى: الحق والباطل ٤٧٢
- الباطل مثل الزبد الذي يذهب جُفاءً ٤٧٢
الفقرة الثانية: الجدال والحجاج ٤٩٤
الفقرة الثالثة: تعطيل الحواس واتباع الأهواء يجعل الناسَ كالأنعام ٥١٢
- كثير من الجن والأنس الذين يعطلون حواسهم أولئك هم الغافلون ٥١٢
الفقرة الرابعة: مثل الحياة الدنيا في فنائها ٥٢٣
الفقرة الخامسة: التربية والإرشاد في الأمثال القرآنية ٥٣٥
- التقليد والتبعية ٥٤٥
- تأثير الربا على حياة الناس ٥٦٣
- حكم الإرث والرضاعة ٥٧٨
- علاقة الزوج بامرأته المطلقة ٥٨٦
- أحكام قتل الصيد في الإحرام الصيد مثلُ ما قتل، وكفارته إطعام مساكين أو عدْلُ ذلك صياماً ٥٨٨
- النهيُ عن نقض العهود والأَيمان ٥٩٠
- التحذير من الطعن بالإعراض وعظة الله (تعالى) أن يعودوا لمثله ٥٩٨

المسهم

الفقرة السادسة: القتال وقواعده في الإسلام ٥٩٩
الفقرة السابعة: تداول الأيام بين الناس ـ لا يصيب المؤمنين
ألمٌ إلاّ وقد أصابَ أعداءَهم ألمٌ مثلُهُ ٦٢١
الفقرة الثامنة: اليهود في عداوتهم للإسلام ٦٢٦
الخاتمة ٦٤٣
١ ـ مثل صفات محمد رسول الله وأصحابه في التوراة،
ومثلهم في الإنجيل ٦٤٤
٢ ـ نساء النبيّ لَسُنَّ كأحد من النساء إن اتّقين ٦٥٠
٣ ـ الإسلام صبغة الله (تعالى) في الأديان ٦٥٤
مراجع الكتاب ٦٥٩
فهرس الآيات ٦٦١
فهرس المواضيع ٦٨١

المسهم